

مَشُورَاتُ مَجَّةِ تَارِيخِ بِلَادِ الشَّامِ  
اِبْتِجَاعَةُ اَلْأُرْدُنِيَّةِ  
جَامِعَةُ دِمَشْقِ  
جَامِعَةُ الرِّمَّوِكِ



# بِلَادُ الشَّامِ فِي الْعَصْرِ الْعَسَاوِي

(١٣٢٢هـ / ٢٧٥٠ - ٤٥١هـ / ١٠٥٩م)

المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام

٧-١١ شعبان ١٤١٠هـ ، ٤-٨ آذار ١٩٩٠م

القِسْمُ الْعَرَبِي



صورة من الرقة

تحریر

محمد بنون العتيوي

محمد عونا النخعي

عتان

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

٩٤٥٣٢٠٥

مؤت المؤتمر الدولي (الخامس . - عمان : ٤ - ٨ آذار، ١٩٩٠).  
تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي / تحرير محمد عدنان البخيت،  
محمد يونس العبادي . - عمان : لجنة تاريخ بلاد الشام، ١٩٩١ .  
ر.أ (١٩٩١/١٢/٦٧٧ م).  
١ . بلاد الشام - تاريخ  
أ. محمد عدنان البخيت، محرر ب. محمد يونس العبادي، محرر  
ج . العنوان  
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

مطبعة الجامعة الأردنية  
عمان - الأردن  
١٩٩٢ م - ١٤١٢ هـ

## المحتويات

١	لطفي عبد الوهاب يحيى	مصدران بيزنطيان عن تاريخ بلاد الشام في العهد العباسي
٢٣	ابراهيم بيضون	الشام والدعوة العباسية
٥١	احسان عباس	مصادر النظم في العصر العباسي وصورة الشام فيها
٦٦	رضوان السيد	المدرسة التاريخية الشامية وعلاقتها بالحديث والآثار في القرنين الثالث والرابع للهجرة
٨٧	احمد بدر	فقهاء الشام في العصر العباسي الأول وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين
١٠٣	نجدة خماش	التنظيم الاداري في الشام
١٣٠	عبد الجبار ناجي	نظرة في الأحوال الحضرية لبلاد الشام في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع للهجرة
١٥٧	تيسير زواهره	طرق التجارة والحج في بلاد الشام في العصر العباسي
١٩١	صالح درادكة	البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي
٢١١	محمد زيود	النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة
٢٤٩	زريف المعاينة	الأسواق في بلاد الشام في العصر العباسي
٢٦٨	طه الطراونة	حركة التجارة بين بلاد الشام والبلاد الاسلامية في العصر العباسي
٢٨٣	نقولا زيادة	تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي (١٣٢ - ٤٥١ هـ / ٧٥٠ - ١٠٥٩ م)
٣٢٥	نبيه عاقل	بعض من ملامح الأوضاع المالية والتجارية في فلسطين في العصر العباسي
٣٤١	أحمد الزيلعي	المسكوكات الجنايبية المضروبة في بلاد الشام (٣٦٠ - ٣٦٧ هـ)
٣٩٠	محمد خريسات	التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي لبلاد الشام

٤٢٩	ثيري بيانكي	حمار القرية، فارس البادية، غلام المدينة
٤٤٥	سلمان البدور	الاسماعيلية في بلاد الشام في العصر العباسي
٤٦٣	صالح حمارنة	مواقع ومدن في جنوب بلاد الشام ودورها في العصر العباسي
٤٨٦	غازي بيشة	مناهضة الصور وتشويهها في ضوء الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة في أم الرصاص وماعين
٤٩٨	قاسم طوير	هرقلة هارون الرشيد في الرقة أو بغداد المنصور المصغرة
٥٢٠	مصطفى الحسون	الرقة أيام الرشيد
٥٣٤	مهدي محقق	الشيخ تقي الدين أبو الصلاح الحلبي (٣٧٢-٤٤٧هـ) وعلم الكلام
٥٤٠	سامي حمارنة	الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي ورسالته الهارونية
٥٦١	رمضان شيشن	دور الأتراك في الشام قبل السلاجقة
٥٧٠	عمري الشيخ سعيدوف	بلاد الشام وشمال القفقاس في العصر العباسي
٥٧٩		الفهارس

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

يسرنا أن نضع بين أيدي الباحثين والمعنيين بتاريخ بلاد الشام جملة من البحوث التي كانت قد قدمت الى المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام الذي تناول بلاد الشام في العصر العباسي (١٣٢هـ/٧٥٠م - ٤٥١هـ/١٠٥٩م)، وذلك بعد أن تم تقييمها وتمييزها حسب الأصول العلمية المرعية على ضوء المداولات والمناقشات التي دارت في جلسات عمل المؤتمر وندواته .

ولقد غطت هذه البحوث عدداً من الموضوعات والمحاور الأساسية في تاريخ هذه البلاد، وكان من بينها دراسة المصادر البيزنطية والعربية الاسلامية بها في ذلك المدرسة التاريخية الشامية وعلاقتها بالحديث والآثار، حيث انتشرت أحاديث الشاميين وعرفت بالطوال أو المطولات، كما ركزت بعض البحوث على دراسة جوانب الحياة العلمية والفكرية في بلاد الشام . وقد امتد هذا الاهتمام ليشمل دراسة عدد من المدن والمراكز الحضارية، وتناولت سبعة بحوث طرق المواصلات والتجارة، وجاءت شاملة ومتكاملة، حيث أوضحت هذه البحوث أن بلاد الشام كانت تشكل سوقاً تجارياً له خصائصه ومقوماته، إذ عمدت كل مدينة الى تطوير سوقها المتخصص كما حدث في دمشق على سبيل المثال . هذا الى جانب أن هذه البحوث قد أظهرت مدى مساهمة بلاد الشام في التجارة الداخلية والخارجية .

وبما أن المسكوكات والعملة تمثل جانباً مهماً من جوانب تاريخ بلاد الشام، فقد نالت عناية خاصة من خلال عدد من البحوث المقدمة .

وإذا ما نظرنا الى الجوانب العمرانية ونمو المدن فاننا نلاحظ أن مدينة دمشق قد حظيت بدراسة وافية، ولم تكن هذه الدراسة مقتصرة على النمو العمراني والاستقرار السكاني بل تجاوزت ذلك الى معالجة الجوانب الاجتماعية المختلفة بما في ذلك بعض الشخصيات المعبرة عن الفئات الشعبية التي تمثل قطاعاً عريضاً من السكان، ومثل ذلك جاء الاهتمام بالحركات الفكرية في بلاد الشام وبخاصة دراسة الدور الفكري الذي لعبته الحركة الاسماعيلية .

ومن الملاحظ أن المختصين بالدراسات الأثرية قد أسهموا في دراسة بعض الجوانب الأثرية، وهم بذلك قد ملأوا فراغاً أهملته المصادر التاريخية التقليدية، ومن ذلك دراسة كنيسة القديس اسطفان في أم الرصاص، ودراسة كنيسة الكروبول في ماعين، هذا الى جانب دراسة هرقله ومواقع أخرى في بلاد الشام .

ورغبة منا في استكمال الفائدة المرجوة في اصدار هذا المجلد فقد تم نشر عدد من البحوث التي تناولت جوانب اخرى غير التي سبقت الاشارة اليها، ومن ذلك بحث عن الشيخ تقي الدين أبي الصلاح الحلبي وعلم الكلام، ومنها بحث عن دور الأتراك في الشام قبل السلاجقة، بالاضافة إلى بحث عن بلاد الشام وشمال القفقاس في العصر العباسي.

وما كان ليتاح لأعمال المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام النجاح الا بفضل الرعاية الكريمة والدعم الكبير الذي تلقتة لجنة تاريخ بلاد الشام من جانب رئيسها صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال ولي العهد المعظم، فسلموه الشكر والتقدير.

ويقتضينا واجب العرفان أن نتوجه بالشكر الجزيل الى الأستاذ رئيس الجامعة الأردنية، والأستاذ رئيس جامعة دمشق، والأستاذ رئيس جامعة اليرموك، لدعمهم الكبير من اجل انجاح أعمال المؤتمر، أما جهود زملائنا أعضاء لجنة تاريخ بلاد الشام فهي كبيرة وموصولة تستحق كل تقدير وشكر.

ويسرنا بهذا الخصوص أن نسجل شكرنا لآخرين ساهموا معنا في انجاز أعمال المؤتمر ونخص بالذكر السيد حامد الزغول والأستاذ كارل براون، والشكر أيضاً لمدير مطبعة الجامعة الأردنية وزملائه كافة على جهودهم المتصلة وعطائهم السخي.

واننا لندرجوا أن نكون قد وفقنا في إخراج هذا العمل على خير وجه وأتمه. ونسأل الله العلي للقدير أن يمدنا بالقدرة والعزم لكي نصل بهذا العمل من الأعمال العلمية المفيدة إلى خير ما يرضاه.

عمان في ٢٩ رجب ١٤١٤هـ  
٣ شباط ١٩٩٢م

محمد عدنان البيخيت

## مصدران للذيان عن تاريخ بلاد الشام في العهد العباسي

لطفي عبد الوهاب يحيى \*

المصدران اللذان أودّ الحديث عنهما في هذه السطور يتناول كلّ منهما فترة من تاريخ بلاد الشام في العهد العباسي تختلف عن الفترة الأخرى من حيث الظروف التي أحاطت بها وهي ظروف لم تقتصر على ما كان يدور في إطار الدولة العباسية، وإنما كانت تتصل كذلك بمجريات الأمور في الدولة البيزنطية، فقد كانت الدولتان الكبيرتان تشكلان طرفي المعادلة التاريخية آنذاك، وكانت حدود بلاد الشام تشكل خط التوازن بينهما. كذلك فإن الكاتين اللذين حرّرا هذين المصدرين كان لكلّ منهما موقعه، ومن ثم موقفه من الأحداث أو الشخصيات التي تناولها في أخباره، ممّا أثر بالضرورة على منظوره في الكتابة - وهو منظور ينبغي أن يدخل في حساب المهتمين بالتاريخ لبلاد الشام من حيث طريقة الانتفاع بها جاء في كلّ من المصدرين بهدف استكمال الصورة التاريخية للمنطقة.

- ١ -

وأول هذين المصدرين هو الحولية التي حرّرها الكاتب الرّاهب ثيوفانيس، وقد سبق أن تعرّفنا على قسم منها بوصفه المصدر البيزنطي الأساسي لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي<sup>١</sup>. ولكن إذا كانت أهمية القسم الخاص بالعهد الأموي ترجع الى عدد من الأسباب من بينها أن ثيوفانيس كان بإمكانه في بعض الحالات ان يأخذ أخباره عنّ عاصروا الأحداث فعلا ممّن لحق بهم من الجيل السابق له، فإن هذه القيمة تزداد بشكل خاص في

\* قسم التاريخ، جامعة اليرموك، اربد، المملكة الاردنية الهاشمية.

١. يحيى، لطفي عبد الوهاب، حولية ثيوفانيس: مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الأموي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام «بلاد الشام في العهد الأموي» محاضر الندوة الثالثة، ٢-٧ ربيع الأول ١٤٠٨هـ - ٢٤-٢٩ تشرين الأول ١٩٨٧م، نشر الجامعة الأردنية، جامعة اليرموك، عمان، ١٩٨٩م، ص ١١-٢٦، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: يحيى، حولية.  
الطبعة المعتمدة للحولية تحت عنوان: Theophanes Chronographia، تحقيق: Carolus de Boor. عن بقية تفاصيل الطبعة راجع الحاشية الخاصة بعنوان المقال المذكور.

- ١ -

القسم الذي حرّر فيه الكاتب أخبار الفترة التي واكبت ظهور الدولة العباسية في ٧٥٠م/١٣٢هـ، وامتد عبر ٦٣ سنة حتى عام ٨١٣م/١٩٨هـ، وهو التاريخ الذي تتوقف عنده الحولية والذي شهد كذلك نهاية عهد كل من الخليفة العباسي أبي موسى محمد الأمين ابن الرشيد، والامبراطور البيزنطي ميخائيل الأول.

والسبب المباشر في تزايد هذه القيمة هو أن التعامل التاريخي بين ثيوفانيس وبين الفترة المذكورة كان أكثر مباشرة والتصاقاً، فقد ولد الكاتب في غضون العقد السادس من القرن الثامن الميلادي وهو العقد الذي شهدت بدايته قيام الدولة العباسية. فإذا أدخلنا في اعتبارنا أنه حصل على أحد الألقاب الفخرية الهامة في الدولة في عهد ليون الرابع Leon IV الذي حكم بين ٧٧٥ و ٧٨٠م فإن ذلك يؤدي بنا الى ترجيح ميلاد الكاتب في إحدى السنوات المبكرة من العقد المذكور، حتى نجد نوعاً من التناسب المعقول بين اللقب الذي حصل عليه وبين مرحلة عمره التي حصل في خلالها عليه. ومعنى الميلاد المبكر لثيوفانيس خلال العقد المذكور أنه عاصر أطول شطر ممكن من الفترة التي كتب عنها في العصر العباسي، كما أن حصوله على اللقب المشار اليه يعطي تعرّفه بأخبار الدولة، سواء في أحوالها الداخلية أم في اهتماماتها الخارجية، بعداً آخر يجمع فيه الكاتب الى جانب المعاصرة، عمق المعاشة للأحداث والمواقف بكل ما يحيط بها من أجواء وتصوّرات وردود فعل حية مباشرة.

كذلك فإن حولية ثيوفانيس تكتسب في تأريخها لبلاد الشام، في الفترة التي غطتها هذه الحولية من العهد العباسي، مغزى خاصاً من حيث استمرار الكاتب في اهتمامه بالأحداث والمواقف في هذا الأقليم في الفترة المذكورة - وهو اهتمام يمكن أن ندرك حجمه الحقيقي من زاويتين. فهو من جهة لا يقل عن اهتمام الكاتب بهذا الأقليم في العهد الأموي، رغم أنّ مركز الخلافة - وهي رمز القوة الشرقية الكبيرة التي تحسب الدولة البيزنطية حسابها - قد انتقل رسمياً من دمشق وبلاد الشام الى إقليم أكثر ابتعاداً نحو الشرق، في بغداد والعراق. كذلك فإن الكاتب رغم اهتمامه بذكر الأخبار الأساسية للدولة العباسية بشكل عام، إلا أنّ اهتمامه بذكر أخبار بلاد الشام بشكل أكثر تواتراً وتنوعاً وتفصيلاً. وفي هذا الصدد يكفي أن أذكر أنه في حدود السنوات الثلاث والستين التي تغطيها الحولية في أثناء العهد العباسي، يورد الكاتب - إشارات مباشرة الى مواقف وأحداث وأشخاص من بلاد الشام في ٣٣ سنة، كما ترد إشارات غير مباشرة الى الأقليم في ١٥ سنة حين يتحدث ثيوفانيس عن الغارات الحدودية التي كانت تتم بين القوتين الكبيرتين من خلال الحدود السورية البيزنطية في أغلب الأحوال.



ومن بين الجوانب التي يوليها ثيوفانيس اهتماما خاصا في ذكره لأخبار بلاد الشام في العهد العباسي، الثورات والاضطرابات التي قامت بهذا الاقليم ضد رموز السلطة في الدولة العباسية، وهو جانب يتحدث عنه الكاتب حديثا استقصائيا. وفي هذا الصدد يروي لنا الكاتب ضمن أخبار ٧٥٠/٧٥١م - وهي السنة التي قامت فيها الخلافة العباسية - أحداث الثورة التي قام بها أهل خالكيس Χαλκισεδ (وهي مدينة عنجر الحالية التي تقع في سهل البقاع بين بعلبك في شمالي لبنان وبين دمشق)<sup>٢</sup>. وهي ثورة يبدو أنها كانت على قدر كبير من الشراسة، سواء من جانب الذين قاموا بها أو من جانب تتبع السلطات لها وإصرارهم على إخمادها. وهو ما تشير اليه الأعداد الكبيرة التي اشتركت فيها والتي وصلت الى ٤٠ ألفا، وما يمكن أن نستنتجه من أن القضاء عليها لم يتم في مكان قيامها وإنما تم في مكان بعيد عنه وهو مرتفعات حمص. كذلك يحدثنا الكاتب عن ثورة أخرى اشتعلت في بلاد الشام ضد العباسيين في السنة ذاتها، قام بها القيسيون في منطقة الأردن، ورغم ان الكاتب لا يذكر تفاصيل كثيرة عن هذه الثورة الا أن تعبيره يشير الى أنها كانت لا تقل في حجمها أو شراستها، اذ يذكر في هذا الصدد أن «الشيء ذاته حدث» τὸ αὐτὸ γέγονεν بالنسبة للقيسيين في العربية<sup>٣</sup>، (وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي كانت تقوم فيها مملكة الأنباط قبل احتلال الرومان للمنطقة في ١٠٥م).

ويستمر الكاتب في استقصائه للحركات التي قامت في بلاد الشام ضد العباسيين، فيتحدث في أخبار عام ٧٥٤/٧٥٥م عن ثورة أهل الأقليم على أبي جعفر المنصور حين وقفوا الى جانب عبد الله بن علي ضد أبي مسلم الخرساني - وهنا، مرة أخرى، يشير كلام ثيوفانيس الى ضخامة الحركة ومدى انتشارها حين يذكر أن أهل الأقليم استطاعوا أن يستولوا

٢ . ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٢٧.  
 عن تحقيق المكان، انظر: لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ترجمة: محمود عمارة، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، دائرة الثقافة والفنون، ط ١، ص ٤٢٨ - ٤٢٩، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لي سترانج، فلسطين. راجع كذلك ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)، كتاب معجم البلدان، ٥ ج، دار صادر ودار بيروت، ١٩٨٤م، ج٤، ص ١٧٧ (مادة: عين الجرن). وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم.

٣ . ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٢٧.

على حمص وعلى عدد كبير من المدن الساحلية<sup>٤</sup>، كما نستطيع أن نستنتج من ذكر مدينة «حمص» هنا أنها كانت تشكل إحدى نقاط المقاومة في بلاد الشام ضد الخلافة الجديدة إذا تذكرنا أن أهل خالكيس لجأوا إلى مرتفعات هذه المدينة في أثناء ثورتهم ضد العباسيين في أولى سنوات الحكم العباسي على نحو ما أسلفت. وفي أخبار عام ٧٦٠/٧٦١م يتحدث عن ثورة قادها سوري من لبنان اسمه ثيودوروس «ضد العرب» في القرى المحيطة بمدينة هليوبوليس (بعلبك) - وهي ثورة استطاعت قوات الدولة الجديدة أن تقضي عليها، ولكن هذا لم يتم إلا بعد أن قتل كل اللبنانيين الذين كانوا مع هذا الثائر، بينما لاذ هو بالفرار في النهاية<sup>٥</sup>. والحدث، على النحو الذي يقدمه ثيوفانيس، يطرح أكثر من قضية تاريخية. وإحدى هذه القضايا تثير من جديد مسألة «المردائين» *Μαρδαγται*، وهم المجموعة السكانية الذين أرسلهم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٦٥م) من أواسط آسية الصغرى إلى جبل لبنان ليسيظروا على المنطقة سيطرة فعلية في عهد معاوية بن أبي سفيان<sup>٦</sup>. ويصبحوا منذ ذلك الوقت شوكة في جانب السلطة الحاكمة في بلاد الشام. والقضية الأخرى التي تطرحها هذه الثورة هي القوة الحقيقية التي تمثلها هذه الجماعة، إذ يذكر الكاتب أن أعدادا كبيرة سقطت من الجانبين *επεσον εξ αμφατερ πολλοι*، كما أن الحركة لم تنته إلا بعد أن «قتل كل من كان معه» (أي مع ثيودوروس) من اللبنانيين *οι συνονεες αυτω Λιβανιται Παντες ανηρεθησαν*. ثم يتحدث الكاتب في أخبار السنة التالية عن ثورة قام بها القيسيون مرة أخرى على بني العباس<sup>٧</sup>، مبينا بذلك أن الموقف العدائي من جانب القيسيين ضد الحكم الجديد لم يكن قد انتهى في الحقيقة رغم إنقضاء عقد كامل من الزمان على اتحاد القوات العباسية لثورتهم الأولى. ويتبع الكاتب ذلك بالحديث في أخبار ٧٦٦-٧٦٧م عن ثورة قام بها الخوارج في صحراء تدمر *Palmyra* وهي ثورة أحدثوا فيها ضررا كثيرا في المنطقة<sup>٨</sup>، كما يتحدث في تسجيلات لاحقة عن فترة

٤ . المصدر نفسه ، ص ٤٢٨-٤٢٩ .

٥ . المصدر نفسه ، ص ٤٣١ .

٦ . المصدر نفسه ، ص ٣٥٥ . راجع يحيى ، حولية ، ص ١١-٢٦ .

٧ . ثيوفانيس ، الحولية ، ص ٤٣١ .

٨ . المصدر نفسه ، ص ٤٣٢ .

٩ . المصدر نفسه ، ص ٤٣٩ .

الثورات التي سادت في دمشق وفلسطين (ضمن مناطق أخرى خارج بلاد الشام) في ٨١١-٨١٢م وهي ثورات يغلب عليها الطابع الشخصي الفوضوي أكثر من أي طابع آخر<sup>١٠</sup>، ويبدو من توقيتها ومن طبيعتها أنها تعكس فترة الاضطراب والتمزق التي ظهرت بشكل حاد في عاصمة الخلافة في بغداد وانتهت بمقتل الأمين على يد أنصار التيار الفارسي.

وجدير بالذكر أن رصد مثل هذه الثورات والاضطرابات الداخلية يشير بشكل واضح إلى أن ما كان يجري في بلاد الشام كان يشكل أمرا ذا قيمة كبيرة بالنسبة للدولة البيزنطية على أساس أن الحدود المشتركة بينهما تشكل خط الدفاع الأول بالنسبة للبيزنطيين في مواجهة القوة الشرقية الكبيرة التي أصبحت الخلافة الإسلامية هي الشكل الذي اتخذته منذ قيام الدولة الأموية - وذلك بغض النظر عن مركز هذه القوة الشرقية، سواء أكان ذلك في دمشق على عهد الدولة الأموية أم في بغداد بعد قيام الدولة العباسية. فمثل هذه الثورات والاضطرابات كان من الطبيعي أن تؤثر - في حسابات البيزنطيين وتوقعاتهم - على مدى ما يمكن أن تتعرض له حدودهم الشرقية من اختراق عن طريق غزوات المسلمين التي كانت تتوغل في آسية الصغرى الى مسافات مقلقة للبيزنطيين في بعض الأحيان، أو على مدى ما تسمح به هذه الحدود من فرص للغزوات البيزنطية المضادة<sup>١١</sup>.

وفي الواقع فإن هذه الغزوات والغارات المتبادلة انطلاقا من الحدود السورية في أغلب الأحيان، أو اختراقا لهذه الحدود من جانب البيزنطيين في بعض المناسبات - تشكل نقطة الاهتمام الثانية التي تظهر في حولية ثيوفانيس في الفترة التي سجل فيها أخبار بلاد الشام في العهد العباسي. وفي هذا الصدد نجد أن الكاتب البيزنطي يكاد يتطابق مع ما يذكره الكتاب المسلمون في المصادر العربية وبخاصة الطبري (وابن الأثير الذي يعتمد على الطبري في أخبار هذه الفترة اعتمادا أساسيا) من حيث تحديد الغزوات ومن حيث بعض

١٠ . المصدر نفسه ، ص ٤٩٧ .

١١ . عن توغل غزوات المسلمين بشكل مقلق داخل آسية، مثال من عام ١٩٠هـ / ٨٠٥م - ١٩١هـ / ٨٠٦م، ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٨٢. عن اختراق البيزنطيين لحدود بلاد الشام، مثال من عام ١٦١هـ / ٧٧٧م - ١٦٢هـ / ٧٧٨م، الحولية، ص ٤٥١. راجع أدناه في هذا المقال.

١٢ . الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك، ١٠ ج، تحقيق: عماد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ج ٨، ص ١٣٦. ويشير لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: الطبري: تاريخ.

التفاصيل . على أن نوع التفاصيل يختلف بين الجانبين ، فالكتاب المسلمون يميلون الى ذكر النتيجة النهائية بما في ذلك من تفصيل في ذكر أعداد الأسرى والسبايا ومقدار الغنائم بينما لا يهتمون في أغلب الأحيان بالحديث عن خطط المعارك وتحركاتها وتفصيلها ، بينما نجد هذا الجانب الأخير يستحوذ على اهتمام الكاتب البيزنطي بشكل واضح وكأنه يبحث في الحقيقة عن السبب الذي أدى الى النتيجة النهائية للمعركة . كذلك فإنه يتوقف في بعض الأحيان لتقويم نتيجة المعركة والموقف أو التصرف الذي ترتب على هذه النتيجة . ومن هنا يصبح ما يكتبه ثيوفانيس في هذا الصدد متكاملًا مع ما يقدمه الكتاب المسلمون من ناحية استكمال الصورة العسكرية والمغزى السياسي لهذه الغزوات المتبادلة التي تشكل فيها حدود بلاد الشام مع الدولة البيزنطية خط التماس في هذا التوازن الدقيق بين قوة الخلافة في الشرق وقوة الامبراطورية في الغرب .

وسأقدم في هذا الصدد مثالين أو ثلاثة على ما ذكرته لاستيضاح الصورة التي تحدثت عنها . والمثال الأول يأتي من عام ١٦٦هـ / ٧٧٧-٧٧٨م . حيث يقول الطبري « وفيها غزا الصائفة ثمامة بن الوليد ، فنزل دابق ، وجاشت الروم وهو مغتر ، فأنت طلائعه وعيونه بذلك . فلم يحفل بما جاؤوا به ، وخرج الى الروم وعليها ميخائيل بسرعان الناس ، فأصيب من المسلمين عدة ، وكان عيسى بن علي مرابطًا بحصن مرعش يومئذ ، فلم يكن للمسلمين في ذلك العام صائفة من أجل ذلك»<sup>١٢</sup> ولا يزيد ابن الأثير على ذلك سوى أن ميخائيل « أتى عمق مرعش وقتل وسبى وغنم » وأنه حاصر حصن مرعش ثم انصرف الروم الى جيحان . ثم ينهي ابن الأثير خبر الحدث عند هذا الحد ، وإن كان يردف حديثه بجملة قصيرة توحي بأن النتيجة العامة لم تكن مرضية للخليفة المهدي فعظم عليه الخبر حين بلغه وتجهز لغزو الروم في السنة التالية<sup>١٣</sup> . فإذا انتقلنا إلى ما سجله ثيوفانيس عن هذه الغزوة عرفنا أن البيزنطيين اجتاحوا الحدود السورية في تلك السنة ، وأن عدد قواتهم وصل الى مائة الف رجل ، وأنهم كانوا تحت قيادة أربعة قواد يسميهم الكاتب بأسمائهم الكاملة ، ويقدم سببا لرفع البيزنطيين الحصار عن حصن مرعش Germanikeia ، ويذكر أن القائد الذي رفع الحصار تقدم بعد ذلك وأغار على بعض القرى وقام بأسر عدد من المسيحيين السوريين

١٣ . ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، الكامل في التاريخ ، ١٣ ج ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٢م تصوير لطبعة ليدن ١٨٧١ ، تحقيق : تورنبرج ، ج ٦ ، ص ٥٥ . ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن الأثير ، الكامل .

التابعين للمذهب اليعقوبي، وأن الامبراطور ليون أجبر هؤلاء الأسرى بعد ذلك على العبور الى تراقية حيث وطنهم هناك. كما يذكر لنا المؤرخ البيزنطي أن ثمامة أرسل من Dabekon للقاء البيزنطيين أربعة أمراء (يقصد قادة)، وأن ألفي عربي سقطوا في المعركة وإن كان العرب استطاعوا أن ينسحبوا بسلاحهم<sup>١٤</sup>.

والطريقة ذاتها في الكتابة نجدها فيما يخص غزوة السنة التالية ١٦٢هـ/٧٧٨-٧٧٩م حيث يقدم الطبري حديثا مختصرا فيقول «وفيها خرجت الروم الى الحدث فهدموا سورها، وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثلاثين ألف مرتزق سوى المتطوعة فبلغ حمة أذروليه فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم من غير أن يفتح حصنا، ويلقى جمعا، وسمته الروم التين، وقيل إنما أتى هذه الحمة الحسن ليستنقع فيها للوضح الذي كان به، ثم قفل بالناس سالمين، وكان على قضاء عسكره وما يجتمع من الفياء حفص بن عامر السلمي»<sup>١٥</sup>.

فإذا انتقلنا الى رواية ثيوفانيس نجد أننا ننتفع بها كثيرا في استكمال الحدث التاريخي من حيث التفاصيل وبخاصة فيما يتعلق بتكوين الجيش الاسلامي وبالخطة التي رسمها البيزنطيون وبالنتيجة التي انتهى اليها العرب. فيذكر الكاتب أن الجيش الاسلامي كان يتكون من قوات من فارس والعراق وبلاد الشام، وأن خطة الحرب التي اتفق عليها الامبراطور البيزنطي مع قواده كانت تقوم على تجنب مواجهة العرب في ساحة القتال وعلى التمسك بالحصون والدفاع عنها، كما كان من بين تفاصيل الخطة أن يحرق البيزنطيون أي عشب يمكن أن تقتات عليه خيل المسلمين. وهكذا بعد أن وصل المسلمون إلى أذروليه Dorylaion واستمروا فيها ١٥ يوما نفذت مؤونتهم بينما لم تجد حيواناتهم عسبا، وكانت هناك خسائر عظيمة في صفوفهم فترجعوا وحاصروا عمورية Amorion ليوم واحد، وحين شعروا بقوة تعزيزاتها انسحبوا دون أن يحققوا شيئا<sup>١٦</sup>.

أما المثال الثالث فسأختار له الغزوة التي قام بها هارون الرشيد في عهد أبيه المهدي عام ١٦٥هـ/٧٨١-٧٨٢م. أن كلا من الطبري وثيوفانيس يتحدث عن هذه الغزوة بقدر كبير من التفصيل، ولكن نقط التأكيد تختلف بين الجانبين، فبينما يتحدث الكاتبان عن خط

١٤ . ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٥١-٤٥٢.

١٥ . الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٤٢-١٤٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٥٨.

١٦ . ثيوفانيس، الحولية، ص ٥٤٢.

سير الغزوة، ووصول هارون الى مشارف القسطنطينية كما يتحدثان، بشكل مباشر أو غير مباشر عن رغبة الطرفين في الصلح يسترسل الطبري في الحديث عن الفيء الذي حصل عليه المسلمون والضرائب التي حصلوها من امبراطورة الروم، والرشاء الذي عمّ البلاد من جراء ذلك. أما ثيوفانيس فهو يهتم بذكر تكوين جيش المسلمين واشتراك قوات من جميع أرجاء بلاد الشام في هذا الجيش، كما أنه يشير بشكل سريع الى ترتيبات الضرائب التي التزمت الامبراطورة بدفعها الى المسلمين، ولكنه يشير بشكل محدد الى أن الطرفين كانا مضطرين لابرام السلام وأن كلا منهما كان راغبا فيه<sup>١٧</sup>. كما يؤكد في أخبار السنة التالية (٧٨٢-٧٨٣م) هذا التقويم من جانبه حين يذكر أن الامبراطورة، نتيجة لعقد السلام مع المسلمين في السنة السابقة استطاعت أن ترسل قوة كبيرة لمواجهة القبائل الصقلية<sup>١٨</sup>.

هكذا، إذن، تصبح للمعلومات التي يقدمها ثيوفانيس فيما يخصّ الغارات والغزوات الحدودية التي تنطلق من بلاد الشام الى الأراضي البيزنطية أو في الاتجاه المقابل أهمية خاصة من حيث استكمال تفاصيل الحدث وبخاصة من الناحية العسكرية، وإن كانت الفائدة تتخطى ذلك الى نواحٍ أخرى في بعض الأحيان. على أن هناك أمرا آخر نستنتجه من التفاصيل التي يقدمها الكاتب البيزنطي فيما يخصّ هذه الغزوات وما يتصل بها من أخبار على الجانب البيزنطي تستكمل الصورة التي تقدمها المصادر الاسلامية في هذا الصدد. وهذا الأمر هو أن هذه اللقاءات التي كانت تشكل فيها حدود بلاد الشام مع البيزنطيين نقطة الاختراق لم تكن تستهدف من جانب الخلافة هدفا تاريخيا مثل حصار عاصمة الامبراطورية البيزنطية بهدف اسقاط العاصمة والامبراطورية، كما كان الحال في عامي ٦٧٤-٦٧٨م و٧١٧-٧١٨م في عهد الدولة الأموية، وإنما تغير الهدف ليصبح مجرد إقرار للحدود مع الدولة البيزنطية بشكل تكون فيه الخلافة في الكفة المتميزة في إطار هذا التصور، سواء اتخذ هذا التمييز صورة كسب مادي أو سياسي أو معنوي.

ومن بين المناسبات الكثيرة التي تشير الى هذه الحقيقة الظاهرة ما حدث في عام ١٩٠هـ/ ٨٠٥-٨٠٦م حين غزا هارون الرشيد أراضي الدولة البيزنطية في قوة هائلة تتكون من ثلاثمائة ألف رجل واستطاع أن يستولي على «حصن هراكليس (هرقلة) البالغ في مناعته» Το Ηρακλεως Καστρον οχυρωτατον حسبما يصفه ثيوفانيس، الى جانب عدد كبير

١٧. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٥٢-١٥٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٦٦-٦٧.

١٨. ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٥٦.

من المواقع الحصينة، وهو امر أوقع الرعب في قلب الامبراطور نقفور Nikeohoros وجعله يتقدم بطلب السلام تحت شروط مذلة من بينها أن يدفع خراجا كبيرا يصل الى ثلاثين ألف وزنة nomisma في السنة الى جانب ضريبة رأس (جزية) تبلغ ثلاث وونات عن نفسه وثلاثا أخرى عن ابنه. ومع ذلك فقد اكتفى هارون بذلك وترك الحصون مكتفيا بوعد من جانب الامبراطور ألا يعيد ترميمها أو بناءها، وهو شرط لم يف به الامبراطور على أية حال إذ ما لبث أن باشر بعمليات الترميم واعادة البناء بمجرد انسحاب هارون وقواته. أما ما اعتبره هارون الرشيد المكسب الاكبر في هذا الصدد، حسبما يروي ثيوفانيس، فهو الجزية التي التزم نقفور بدفعها والتي احتفى بها الخليفة العربي أكثر من أية قيمة مادية مهما بلغ قدرها، إذ مثلت لديه إخضاع الامبراطورية الرومانية لإرادته»<sup>١٩</sup>.

وفي الواقع فإن ما يذكره ثيوفانيس في هذا الموضع وفي غيره من المواضع، مما يشير الى تراجع هدف الغزوات العربية للأراضي البيزنطية في الفترة موضوع الحديث الى مجرد إقرار الحدود في إطار تميّز عربي نستطيع أن نفهمه من جانب العرب في ضوء الظروف التي بدأت تحيط بالخلافة العباسية في تراكم مستمر منذ قيام هذه الخلافة : وهي بقايا النفوذ الأموي وتزايد النفوذ الفارسي، ومشاكل العلويين، وتحركات الخوارج والموالي والزنادقة وغيرها - وهي ظروف ظهرت في مناطق كثيرة كان من بينها منطقة بلاد الشام<sup>٢٠</sup>. أما من جانب بيزنطة فقد أسهم أمران أساسيان في موقفها المتراجع نسبيا وهو الموقف الذي أسهم في التمكين للغزوات الاسلامية التي كان أغلبها ينطلق من حدود بلاد الشام بالتميّز الذي أحرزته في كثير من الأحيان. وأحد هذين الأمرين هو القدر الكبير من الفتن الداخلية الذي ترتب على الصراع المذهبي الذي ظل مشتتلا لفترة طويلة بين أنصار المذهب الأيقوني الذي يقُدس أنصاره صور السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين، وبين أنصار المذهب اللايقوني الذي يحرم هذا التقديس، أما الأمر الآخر فهو الخطر البلغاري الذي أقص مضجع البيزنطيين على حدودهم الشمالية طوال الفترة التي عاصرت قيام الدولة العباسية وحتى ٨١٣م<sup>٢١</sup>.

١٩ . المصدر نفسه ، ص ٤٨٢ .

٢٠ . عن عرض سريع لهذه الظروف راجع ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ٤ ج ، ط ٧ ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ج ٢ ، (العصر العباسي الأول) ، ص ٨٥ - ١٨٣ . وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا : حسن ، تاريخ الاسلام .

٢١ . يكفي للتدليل على حجم هذا الخطر سواء من حيث استمراريته أو من حيث شرسته أن نعرف: أن

أما المسألة الثالثة التي يوليها ثيوفانيس عناية خاصة في أخباره عن بلاد الشام في الفترة موضوع الحديث، فهي تسجيل أوضاع رجال الدين المسيحي والكنيسة والمناسبات التي وصل الى علمه أنّ المسيحيين تعرّضوا في أثنائها لنوع أو آخر من الاضطهاد، ومن بين التفاصيل الكثيرة التي يوردها الكاتب بصدده هذه المسألة، خبر عن موت بطريك أنطاكية في ٧٥٠/٧٥١م، واختيار بطريك جديد لها في السنة التالية، وامتناع كل من أسقفي أنطاكية وبيت المقدس عن حضور اجتماع ديني في القسطنطينية في ٧٥٣-٧٥٤م بسبب الخلاف المذهبي حول المسألة الأيقونية، وقرار المجتمعين في هذه المناسبة بانزال اللعنة على يوحنا (بن منصور) الدمشقي للسبب ذاته، كما يسجل الكاتب أنه حدث في عام ٧٦٠/٧٦١م فرق في توقيت عيد الفصح بين الشرق والقسطنطينية نتيجة خطأ في الحساب، الى جانب أشياء أخرى مماثلة<sup>٢٢</sup>.

أما عن موضوع اضطهاد المسيحيين في بلاد الشام فإن ثيوفانيس يسجّل في هذا الصدد أنواعاً مختلفة تعرّض لها المسيحيون في بلاد الشام في الفترة التي كتب عنها من العهد العباسي. وأحد هذه الأنواع هونفي أحد رجال الدين المسيحي، وهو ثيودوروس، بطريك أنطاكية الذي أتهمه العرب في عام ٧٥٦-٧٥٧م (باطلا في رأي ثيوفانيس) بأنه يكشف اسرارهم للامبراطور قسطنطين. ومن ثم نفاه صالح بن علي إلى أرض الموآبيين، كما أصدر هذا الحاكم قراراً بعدم اضطهاد المسيحيين لعلامة الصليب وعدم دخول المسيحيين والعرب (يقصد المسلمين العرب) في مناقشات دينية. وقريب من هذا ما يذكره الكاتب من زيارة قام بها عبد الله المنصور الى بيت المقدس في عام ٧٧٢/٧٧٣م أمر خلالها أن يضع المسيحيون (واليهود) وشما على أيديهم. كما يشير الكاتب في حديثه عن أخبار عام

= قسطنطين الخامس قضى فترة حكمه في توجس من هذا الخطر أو مواجهه له وقد مات في إحدى حملاته على البلغار في عام ١٩٥هـ/٧٧٥م. كذلك استمرت المجابهة المريرة مع البلغار طوال الفترة التالية التي شهدت أكثر من هزيمة بيزنطية هرب الامبراطور وقادته أمام البلغار على أثر واحدة منها في ١٧٦هـ/٧٩٢م وفقد امبراطور آخر حياته في واحدة أخرى عام ١٩٦هـ/٨١١م بينما كانت الهزيمة الثالثة سبباً مباشراً في عزل امبراطور ثالث في ١٩٨هـ/٨١٣م. عن مراحل الصراع البيزنطي مع البلغار حتى ١٩٨هـ/٨١٣م راجع : Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State (Translated from the German by Joan Hussey) Blackwell, Oxford, 1984, pp. 168-169, 182, 198-199.

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : Ostrogorsky, History. عن مثالين من الخطر البلغاري على بيزنطة راجع : ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٧٠ (عام ٧٩٤-٧٩٥م)، ص ٤٩١ (عام ٨١٠-٨١١م).

٢٢. عن هذه الأحداث على التوالي : ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٢٧-٤٢٨، ٤٣١.



٧٥٧-٧٥٨م عن زيادة الضرائب على المسيحيين في بلاد الشام بحيث يذفعها الرهبان (الذين يبدو أنهم كانوا يعفون منها)، وإلى أن خزائن الكنائس ختمت وبيع ما بها من كنوز<sup>٢٣</sup>.

كذلك يتحدث ثيوفانيس عن نوع آخر من الاضطهادات يتمثل، حسبما يذكر في حوليته، في خطر اقامة بيوت العبادة المسيحية في بعض الأحيان، أو هدم ما هو قائم منها في أحيان أخرى. ومن أمثلة الحظر التي يقدمها أمر صدر في عام ٧٥٦-٧٥٧م من قبل صالح بن علي بالأتمام كنائس جديدة في بلاد الشام. أما أخبار الهدم من قبل الجهات الرسمية فيذكر منها الكاتب ما حدث عام ٧٧٩-٧٨٠م حين أرسل الخليفة المهدي إلى بلاد الشام من يهدم الكنائس القائمة في حمص وعلى طول الطريق المؤدية إلى دمشق، كما يذكر نوعاً آخر من الهدم يتم في أثناء الفوضى التي كانت تعم البلاد في بعض الأحيان، كما حدث، حسب رواية الكاتب، في سنة ٨٠٨-٨٠٩م (وهي السنة التي توفي فيها الرشيد) حين عمد القائمون بالفتنة في ذلك الوقت إلى هدم الكنائس والأديرة في المدينة المقدسة<sup>٢٤</sup>.

ثم هناك ما يأتي في رواية ثيوفانيس من الشرور التي تلحق المسيحيين بشكل عام، ومن الأخبار التي يقدمها في هذا الصدد ما يذكره من قيام حركة الخوارج في صحراء تدمر عام ٧٦٦-٧٦٧م حيث طالت «الأعمال الشريرة» η κακια التي قاموا بها كنائس الله. ومنها كذلك ما يرويه الكاتب عما حدث في عام ٨١٢-٨١٣م حيث يذكر أن عدداً كبيراً من المسيحيين هربوا من فلسطين وكل أنحاء بلاد الشام إلى قبرص نتيجة لما لحق بهم من الشرور على أيدي العرب، وذلك في أثناء الفوضى العامة التي سادت بلاد الشام وعدداً من المناطق الأخرى في مصر وإفريقية<sup>٢٥</sup>.

وأخيراً وليس آخراً، هناك ما يذكره ثيوفانيس عن المناسبة التي وقعت في عام ٧٥١-٧٥٢م، حيث يروي، ضمن أخبار هذا العام أن «الفاطميين الجدد قتلوا معظم المسيحيين الذين كانوا يقطنون إحدى مدن فلسطين ممن كانوا ينحدرون من نفس أصول الحكام السابقين των προ αρχαντων συγγενετως<sup>٢٦</sup>.

٢٣ . المصدر نفسه ، ص ٤٣٠ ، ٤٤٦ .

٢٤ . المصدر نفسه ، ص ٤٣٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٤ .

٢٥ . المصدر نفسه ، ص ٤٣٩ ، ٤٩٩ .

٢٦ . المصدر نفسه ، ص ٤٢٧ .

ونخرج عن طبيعة العرض الحالي لحولية ثيوفانيس أن ناقش ما جاء في هذه الأخبار بهدف التعرف على ما تحتوي عليه من صحة أو من ابتعاد عن الصحة، ومع ذلك فإن اعتبارا واحدا على الأقل يمكن طرحه الآن وهو ربط هذه الأحداث أو بعضها على الأقل بالظروف المحيطة بها أو بالاطار العام الذي تنتمي اليه. وفي الواقع فإن الكاتب ذاته يشير الى هذا الربط في أكثر من مناسبة. وعلى سبيل المثال فهو حين يتحدث عن تعرض الخوارج في أثناء ثورتهم التي قاموا بها لتدمير الكنائس المسيحية يذكر ان الشرور التي اقترفوها في هذا الصدد كانت «من شاكلة تلك التي قاموا بها ازاء الكافرين» (يقصد هنا المسلمين) «*ως απιστων προφανης*»<sup>٢٧</sup>. وشيء مشابه لذلك يورده وهو بسبيل الحديث عن الفوضى التي عمّت البلاد (في بلاد الشام ومصر وليبية) عام ٨٠٨-٨٠٩م حين ارتكبت كل أنواع الأعمال السيئة ضد سكان هذه المناطق «ومن كان معهم من المسيحيين... بينما استمرت المذابح التي ارتكبوها» ضد أنفسهم وضدنا (أي ضد المسيحيين) *Καταλα* *λ* *η* *λ* *ω* *ν* *κ* *α* *ι* *η* *μ* *ω* *ν*<sup>٢٨</sup> على مدى خمس سنوات.

ولكن مع ذلك فهناك مواضع أخرى لا يقدم فيها الكاتب هذا الربط المطلوب، أو على الأقل لا يقدمه بالقدر الكافي. ومن أمثلة هذا النوع الأخير ما سبقت الإشارة اليه من قتل معظم المسيحيين في إحدى مدن فلسطين في عام ٧٥١-٧٥٢م ممن ينحدرون من نفس أصول الحكام السابقين<sup>٢٩</sup>. والصفة التي يذكرها الكاتب هنا تشير بشكل واضح الى أنهم كانوا من أنصار بني أمية، وهي صفة كانت كفيلا أن تؤدي بأصحابها، أيا كانوا، في هذه السنة الثانية من قيام خلافة بني العباس الذين قاسوا كثيرا على يد الخلفاء الأمويين. كذلك فإن هذا الحدث يتمّ وضعه في نصابه إذا استعدنا ما ذكره ثيوفانيس في سجلات السنة السابقة له وهي سنة قيام الخلافة العباسية (٧٥٠-٧٥١م) التي قتل فيها بنو العباس ٤٠ ألفا من أهل عنجر وفعّلوا فيها شيئا مشابها مع القيسيين في الأردن - وواضح أن كل ذلك جاء ضمن وثبة عباسية لتوطيد دعائم حكمهم في سنواته الحاسمة الأولى التي شهدت أعمالا مشابهة في مناطق أخرى غير بلاد الشام كما حدث مثلا مع أهل الموصل الذين قتل منهم العباسيون اعدادا كبيرة بسبب «ما ظهر منهم من محبة بني أمية وكرهة بني العباس» حسبما

٢٧ . المصدر نفسه ، ص ٤٣٩ .

٢٨ . المصدر نفسه ، ص ٣٨٤ .

٢٩ . المصدر نفسه ، ص ٤٧٧ .

يذكر ابن الأثير<sup>٣٠</sup>.

ومن قبيل عدم الربط بين الحدث وبين اطاره التاريخي ما ذكره كاتب الحولية من زيادة الضرائب على المسيحيين في ٧٥٧-٧٥٨م التي دفعها الهوبان، وكذلك بيع ما وجد في خزائن الكنائس. وإنما يكتمل الاطار التاريخي هنا اذا تذكرنا ما ذكره ثيوفانيس في السنة السابقة لذلك (٧٥٦-٧٥٧م) من وقوع زلزال كبير في ٩ مارس في فلسطين وسورية<sup>٣١</sup>. ومثل هذا الزلزال الكبير لا بد ان كانت له آثار مدمرة أثرت سلبيا على اقتصاديات المنطقة، اذا قسنا ابعاده بأبعاد زلزال سابق وقع في بلاد الشام قبل ذلك بست سنوات (٧٤٩-٧٥٠م) وكان من بين آثاره، حسبما يذكر الكاتب، اختفاء مدن بأكملها من المنطقة<sup>٣٢</sup>. ومن الطبيعي أن تلجأ السلطات المسؤولة في مثل هذه الأحوال الى اجراءات غير معتادة للحصول على الأموال اللازمة للاصلاح المطلوب في المنطقة المتكوبة. هذا وجدير بالذكر هنا أن شيئا مماثلا حدث على الجانب البيزنطي حيث يذكر لنا كاتب الحولية أن الامبراطور نقفور Nikephoros، ضمن الاجراءات المالية الصارمة التي أقدم عليها في عام ٨٠٩-٨١٠م، فرض ضرائب على قاطني الأديرة وعلى ملاجيء الأيتام وغيرها من الممتلكات الكنسية<sup>٣٣</sup> وهو أمر يستنكره ثيوفانيس بشكل ظاهر، بينما يرى المؤرخ الكبير اوستروجورسكي<sup>٣٤</sup> أنه كان أمراً لازماً وضرورياً في حركة الاصلاح المالي التي أقدم عليها الامبراطور البيزنطي لتصحيح عدد من الأوضاع المالية التي كانت قد انجرفت نحو التسبب في عهد الامبراطورة السابقة أيريني.

وأخيرا، وليس أخرا، فهناك في هذا الصدد حادث ثيودوروس بطريك أنطاكية الذي اتهمه العرب بكشف اسرارهم للامبراطور البيزنطي، وأدى ذلك الى نفي السلطات العباسية له عام ٧٥٦-٧٥٧م على نحو ما مرّ بنا في مناسبة سابقة. إننا نستطيع في الواقع أن نرى في مخابرتة مع الامبراطور أمرا واردا بغض النظر عن صحة الحدث كما رأى المسلمون أو عدم صحته كما رأى ثيوفانيس. ذلك أن حدثا آخر مشابها وقع في عام ٧٦٣-٧٦٤م حين ارتدّ كوزماس Kosmas، أسقف ايبفانية Epiphaneia في بلاد الشام (قرب أفامية) عن المذهب الارثوذكسي «واتفق مع (الامبراطور) قسطنطين وموقفه

٣٠. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٤٤.

٣١. ثيوفانيس، الحولية، ص ٤٣٠.

٣٢. المصدر نفسه، ص ٤٢٦.

٣٣. المصدر نفسه، ص ٤٨٦-٤٨٧.

٣٤. Ostrogorsky, op. cit., p. 189.

المارق» *καὶ ὁμοφρων τῆς αἰρέσεως Κωνσταντίνου* γεγονός *Θيوفانيς* ٣٥ .

وهكذا ، سواء أكان في هذا المثال الأخير، أم كان في المثالين السابقين، فإن الربط بين الحدث وبين الطرف الذي يحيط به أو الاطار الذي ينتمي اليه، يجعل هذا الحدث أكثر تاريخية، ومن ثم يسهم في تقديمه في أبعاده الطبيعية .

- ٢ -

المصدر البيزنطي الثاني إن تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي يغطي الفترة الواقعة عبر قرن كامل بين ٩٧٦ و ١٠٧٧ م وما يهمننا منها تلك التي تبدأ ببداية حكم الامبراطور باسيلوس الثاني Basileos II وتنتهي بنهاية حكم الامبراطور اسحق كومنينوس Isakios Komnenos في ١٠٥٩ م<sup>٣٦</sup> . وكاتب هذا المصدر هو ميخائيل بسلولوس Michael Pasellos ، وهو الاسم الذي اشتهر به بعد أن تحوّل الى الرهبنة في السنوات الأخيرة من حياته، أما اسمه الأصلي فهو قسطنطين Konstantios بسلولوس . ورغم أن المصدر يتخذ تسمية «الحولية» Chronographia مما يوحي لأوّل وهلة بأن الكاتب اعتمد تسجيل الأخبار التي تقع في السنوات المتتالية على نحو ما قام به ثيوفانيس على سبيل المثال، إلا أن الكاتب لا يتبع طريقة كتابة الحوليات، كما أنه لا يتبع كذلك طريقة المؤرخين من أمثال تاكيتوس أو أميانوس ماركلينوس أو بروكوبيوس الذين يتناولون تيارا من الأحداث تدخل فيه المواقف والقضايا والشخصيات . ولكنه ينحو نحو كتاب السير فيتحدث عن أربعة عشر حاكماً بيزنطياً في المدة التي سبقت الإشارة إليها . ومع ذلك فإنه لا يتبع في كتابة هذه السير ما عرفناه عند الكتاب الكلاسيكيين الآخرين من أمثال سويتونيوس Suetonius أو بلوتارخوس Plutarchus الذين يجشدون في كتاباتهم كل ما تصل اليه معرفتهم عن

٣٥ . ثيوفانيس ، الحولية ، ص ٣٣٤ .

٣٦ . النص اليوناني المعتمد من تحقيق إميل رينو :

Renould, Emile: Michael Pasellos Chronographie, Collection Byzantine, (Association Guillaume Budede), Deuxième Tirage, Paris, 1967.

هذا ، والتزاما بدقة التعبير عن المضمون، سأتحذ تسمية «التاريخ» ترجمة لعنوان الكتاب بدلا من «الحولية» (وهي الترجمة الحرفية للفظ Chronographia) . وتتكون الإشارة في الحواشي «التاريخ» متبوعة بثلاثة أرقام . الرقم الأول بعد حرف «ك» يشير الى رقم الكتاب أو الباب ، استخدما للفظة عربية مناسبة، والرقم الثاني بعد حرف «ف» يشير الى رقم الفقرة، والرقم الثالث بعد حرف «س» ويشير الى رقم السطر، وذلك حسب التقسيم الذي اعتمده محقق الأصل .

أصحاب هذه السير من وقائع ومواقف وصفات، وإنما يتخذ بسلوس في كتابته طريقة خاصة به تختلف عن كل ذلك. فهو يركز بصفة أساسية على الملامح الرئيسية في شخصية كل حاكم محاولاً أن يصل إلى أعماق هذه الشخصيات مبيناً نقاط القوة أو الضعف عند صاحبها (أو صاحبها في حالة الامبراطورات)، وفي أثناء ذلك يورد ما يرى أنه يصور الملامح التي يذكرها من أحداث أو مواقف، يطيل في بعضها أو يختصر في بعضها الآخر، كما قد لا يأتي على ذكر بعض المعلومات أحياناً إذا لم يجد فيها ما يخدم تصوير الشخصية التي يتحدث عنها.

ونتيجة لذلك فقد يبدو الكاتب، لأول وهلة، محبطاً لآمال الباحث الذي يريد أن يتعرف على قدر كبير أو كاف من أحداث العصر سواء على الجانب البيزنطي أو على الجانب الشرقي من خلال العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والخلافة الإسلامية (أو الحكومات والدول التي قامت داخل حدودها المفترضة). ومع ذلك فإن ما قدمه هذا الكاتب لا يمكن تجاهله حتى بالنسبة للباحث الشرقي في العصر الذي كتب عنه. فإلى جانب ما نحصل عليه من معلومات متفرقة تخصّ علاقات البيزنطيين مع بلاد الشام، هناك نقطتان لها قيمة أساسية بالنسبة للمهتم بهذه المنطقة. وأولى هاتين النقطتين هي أن ما كتبه بسلوس يعطينا إطلاقة نتعرف من خلالها على الشخصيات البيزنطية المسكدة بمقاليده الأمور والتي كانت تتعامل معها الخلافة (أو الدول والقوى الإسلامية القائمة داخل حدودها) سواء أكان ذلك على الصعيد العسكري أم الصعيد السياسي، وفي بعض الأحيان على الصعيد الاقتصادي الذي كان يتفرع في بعض الأحيان عن التحركات على الصعيدين السابقين، ولا شك أن مثل هذا التعرف يسهم بشكل لا يمكن اغفاله في التفهم الكامل للتحركات وردود الفعل التي كانت تتم بين الجانبين في المجالات المذكورة من حيث أن العوامل المتحركة في مسارها وفي نتيجتها لم تكن تتوقف على جانب واحد وإنما كانت تعتمد بالضرورة على الجانبين. فإذا أضفنا إلى ذلك أن القوة الفعلية في الدولة البيزنطية كانت تتركز في يد الامبراطور، فإن التعرف على شخصيات الأباطرة يصبح في هذه الحال شرطاً ضرورياً لاستكمال الصورة التاريخية للعلاقات الإسلامية البيزنطية التي كانت حدود بلاد الشام تشكل أحد خطوط التماس الرئيسية لها.

أما النقطة الرئيسية الثانية فيما يخص ما كتبه بسلوس، فهي أن الكاتب كان أقدر شخص يمكنه أن يكتب عن الشخصيات التي قدمها في كتابه ويرجع ذلك لعاملين : أحدهما هو توفره على تحصيل المعرفة في مجالات متعددة من بينها - فيما يعكس على موضوعنا

- الأدب والفلسفة والتاريخ والأخلاق والقانون والعلوم العسكرية . وقد زاد من قيمة ذلك أنه تتلمذ على يد يوحنا ماورويوس الذي ارتقى في السلك الكهنوتي ليصل فيما بعد الى مرتبة رئيس أساقفة . ويكفي للدلالة على درجة الثقافة التي كان عليها هذا المعلم أن ثلاثة من تلاميذه، على الأقل، قد وصلوا الى مراكز مرموقة : قسطنطين دوكاس الذي أصبح امبراطورا، وقسطنطين ليخوريس الذي أصبح وزيرا أول ورئيسا لمجلس الشورى ثم كبيرا للأساقفة بعد ذلك، ويوحنا كسيفيلينوس الذي أصبح أول رئيس لجامعة القسطنطينية التي اعيد فتحها في عام ١٤٠٥م وهي الجامعة التي اختير بسلوس ليصبح أحد أساتذتها الرئيسيين<sup>٣٧</sup> .

والعامل الآخر الذي أهل بسلوس لأن يكون أقدر من يقدم على مهمة الكتابة عن شخصيات الأباطرة هو احتكاكه المباشر بدوائر القصر الامبراطوري، وهو احتكاك وصل في كثير من الأحيان الى الاندماج الذي أتاح له الفرصة في بعض الأحيان الى الأشتراك في صنع الامبراطور أو في الأطاحة به . وفي هذا الصدد نجد ليخوديس يقدمه لأول مرة الى البلاد في عهد ميخائيل الخامس، ولكن نشاطه وطموحه لا يلبثان أن يجعلا من وجوده على مقربة من الحاكم أمرا لا يمكن الاستغناء عنه، وهكذا ارتقى في سلك الوظائف في عهد قسطنطين التاسع وميخائيل السادس ليصبح وزيرا للدولة ثم رئيسا للديوان الامبراطوري ثم رئيسا للوزراء . كما كان هو الشخصية المحركة التي اقنعت كبار المسؤولين لتسوية اسحق كومنينوس امبراطورا . كذلك قام بالدور الرئيسي في عزل الامبراطور رومانوس السادس وإقامة ميخائيل السابع في مكانه على عرش الامبراطورية<sup>٣٨</sup> .

والشخصية الأولى التي أود أن أتحدث عنها من بين الشخصيات التي تناوها بسلوس بالتحليل هي شخصية باسيلوس الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م) الذي نعرف من مصادر الكتاب المسلمين بمعاملاته العسكرية المتكررة مع بلاد الشام على عهد الوجود الحمداني والنفوذ الفاطمي في المنطقة<sup>٣٩</sup> . وإشارات الكاتب الى هذه المعاملات عامة وطفيفة، وهي في عمومها

Renauld, op. cit., Introduction, pp. X-XXII. . ٣٧

Sewter, E. R. A., "Fourteen Byzantine Rulers", Michael Pasellus Chronographie, Introduction pp. 13-14. . ٣٨

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : Sewter, Fourteen. .

٣٩ . على سبيل المثال : ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ج، القاهرة، ١٣٢٨ - ١٣٧٥هـ، ج ٥، ص ١٥١ وما بعدها. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن تغري بردي، النجوم .

لا تتعدى ثلاث اشارات . وفي إحدى هذه الاشارات يذكر بسلولوس أن الطموح الأساسي للامبراطور كان تخليص الامبراطورية بشكل كامل من خطر البرابرة (يعني بهم الشعوب غير البيزنطية) الذين يحيطون بنا ومحاصرون حدودنا في كل من الشرق والغرب<sup>٤٠</sup> . وواضح أن برابرة الشرق هنا هم المسلمون في بلاد الشام بشكل أساسي . والاشارة تدلّ على أن ما كان يدور في هذه المنطقة كان يضيق الخناق على الامبراطور الى حدّ كبير وبخاصّة إذا تذكرنا أن الفاطميين ألحقوا هزيمة كبيرة بقائد القوات الامبراطورية في أنطاكية عام ٩٩٤م بحيث تعرّض نفوذ البيزنطيين هناك للخطر، واضطر باسيلوس الى الظهور في العام التالي (٩٩٥م) أمام أسوار حلب لدفع التقدّم الفاطمي ، ثم العودة الى المنطقة مرّة ثانية بعد عدة سنوات حين تعرض قائد أنطاكية الى هزيمة ثانية من جانب الفاطميين، وفي هذه المرّة حاول باسيلوس أن يستولي على طرابلس ولكن دون نجاح<sup>٤١</sup> .

والاشارة الثانية يذكر فيها الكاتب علاقة البيزنطيين بالشرق، مرّة أخرى بشكل عام وعابر . فهو يذكر أن الامبراطور بدأ يوجه اهتمامه الى تنظيم أمور رعاياه داخل الدولة البيزنطية «بعد أن خلّص الامبراطورية من البرابرة» *ἔπειδὴ ... τὸ β' ἄρβαρπην ἀνεκ' αὐτῆρε* . والاشارة هنا لها مغزاها، فالامبراطور باسيلوس لم يستطع التخلص من خطر الفاطميين عن طريق الحرب وإنما اضطرّ الى التوصل الى عقد صلح مع الخليفة الفاطمي ينصّ على وضع حد للحرب بين الطرفين لمُدّة عشر سنوات<sup>٤٢</sup> . ومعنى هذا أن الوضع في بلاد الشام بين البيزنطيين والفاطميين كان وضعاً فريداً، فمن جهة كان البيزنطيون يسيطرون على القسم الشمالي من بلاد الشام وبخاصّة المنطقة التي تقع فيها أنطاكية ثم المنطقة الممتدة على الساحل حتى طرابلس، وكانوا يعتبرون هذه المنطقة جزءاً من الامبراطورية البيزنطية، كما يعتبرون محاولات التقدّم الفاطمي فيها هجمات ومضايقات على الحدود الامبراطورية . أما من الجهة الأخرى فإنّ الاشارة تؤكد مدى ما كانت تسببه حملات الفاطميين من الخطر على هذه الحدود بحيث أصبح مجرد التوصل الى سلام مؤقت معهم يصبح في نظر الامبراطور البيزنطي تخلصاً من هذا الخطر .

٤٠ . ميخائيل بسلولوس، التاريخ، ك ١، ق ٢٢، س س ١٥-٢٠ .

Ostrogorsky, op. cit., p. 308

٤١ .

٤٢ . ابن تغري بردي، النجوم، ج ٣، ص ١٩٢ . راجع كذلك حسن إبراهيم، تاريخ الاسلام، ج

٣، ص ٢٣٩ .

أما الإشارة الثالثة فيأتي ضمن حديث الكاتب عن دخل الامبراطورية البيزنطية في عهد باسيلوس الثاني، والكاتب يذكر هنا الثروة الطائلة التي جمعها هذا الامبراطور من كنوز البرابرة الذين سيطر على مناطقهم - ومن بين هذه المناطق التي يعددها يذكر منطقة «العربية» (أو بلاد العرب) - وهو يعني بها دون شك الجزء الذي كان يسيطر عليه من بلاد الشام، حسبما درج البيزنطيون على تسمية أهل بلاد الشام بعد الفتح العربية للمنطقة (العرب أو المسلمون). والذي نستنتجه من الإشارة هو أن هذا الامبراطور قد عرض دخل بلاد الشام وكنوزها الى نوع من النهب المستمر وبخاصة حين نعرف من بسلولوز مدى حرص هذا الامبراطور على تجميع ثروة طائلة في خزانة الامبراطورية، وأن ما أخذه من ثروات من مناطق البرابرة «يصعب أن تجد الفاظا لوصفه» <sup>٤٣</sup> Τῖς ἀν εὐπορμεοὶ τωλογῶ συναναγκεῖν

وأنقل الآن الى تحليل الكاتب للجانب العسكري من شخصية الامبراطور - وهو تحليل له قيمته بالنسبة للمهتم بالتاريخ لبلاد الشام في هذه الفترة من تاريخها. فمن خلال هذا التحليل نستطيع أن نفهم مدى تقويم الفاطميين لجديته العسكرية بغض النظر عن الانتصارات التي ألقوها بأتباعه من القادة البيزنطيين الآخرين، وفي ضوء هذا التقويم قد نفهم السبب الذي جعل الفاطميين يوافقون على مفاوضات الصلح التي عرضها والتي انتهت بسلام السنوات العشر الذي أسلفت الإشارة اليه.

وفي هذا الصدد، وبعد أن يذكر الكاتب أن الامبراطور قضى الشطر الأكبر من سنوات حكمه في العمل العسكري، مستعدا دائما «عند حدودنا». وواضعا البرابرة بعيدا عن هذه الحدود، يبدأ في تحليل الشخصية العسكرية للامبراطور، فيذكر أنه «لم يتبع في حملاته ضد البرابرة الاجراء المعتاد الذي كان يتبعه الأباطرة السابقون، وهو بدء العمليات العسكرية في أواسط الربيع ثم العودة الى البلاد في نهاية الصيف، وإنما كان وقت العودة بالنسبة له هو الوقت الذي ينهي فيه المهمة التي خرج من أجل تحقيقها. وقد كان يتحمل مشاق برودة الشتاء كما كان يتحمل قيظ الصيف بلا مبالاة في الحالين فقد كان يوطن نفسه على تحمل العطش، كما كان في الواقع يخضع كل رغباته لانضباط صارم، إذ كانت لدى الرجل صلابة الفولاذ».

٤٣ . بسلولوز : التاريخ ، ك ١ ، ف ٣١ ، س ٨ .



وقد كانت لديه معرفة دقيقة بحياة الجيش، ولست أعني بذلك مجرد المعرفة العامة بتكوين الجيش ومهام كل وحدة من وحداته بشكل نسبي ضمن الجيش بشكل كلي، أو التجمعات والانتشارات المناسبة للتكوينات المختلفة، فقد تجاوزت خبرته في أمور الجيش هذه الأمور بكثير. وإنما كان يعرف الى جانب ذلك واجبات القائد الأعلى πρωτοστατης والضابط الصغير ημιλοχιτης . . . وقد أدى العلم بهذه الامور الى تقوية موقفه في أثناء الحروب (التي كان يخوضها). ونتيجة لذلك فإن الأعمال المناسبة لأصحاب هذه الرتب لم يكن يكلف بها غيرهم. ولما كان الامبراطور على معرفة وثيقة بشخصية كل فرد (من قواته المقاتلة) وبمهامه القتالية ويقدراته سواء أكان ذلك من ناحية شخصية أم كان من ناحية تدريبه، فقد أصبح بمقدوره الانتفاع بكلّ منهم في حدود مقدراته وموقعه<sup>٤٤</sup>.

ثم يمضي الكاتب بعد ذلك لبيان لنا التكتيك الذي كان الامبراطور يتبعه في تحركاته في ساحة القتال وكيف كان يوجه اهتماما خاصا لتكوين مجموعات ارتباط تعمل بصفة منتظمة ومستمرة بين التكوينات المختلفة للجيش بعد أن يتم الالتحام بالعدو. ثم ينهي الكاتب تحليله بإظهار جانب أساسي من الشخصية العسكرية للامبراطور، وهو أوامره الصارمة بالألا يتقدم أي جندي أبعد من الخط المرسوم لحركته تحت أي ظرف من الظروف. أما من كانوا يخالفون ذلك حتى ولو نجحوا في التعامل مع العدو فقد كانوا لدى عودة الجيش من ميدان القتال يطردون من الخدمة العسكرية ويتعرضون للعقاب كمجرمين<sup>٤٥</sup>.

أما الشخصية الثانية التي سأقدمها من خلال حديث الكاتب ميخائيل بسيلوس، فهي شخصية الامبراطور رومانوس الثالث Romanos III (١٠٢٨-١٠٣٤م). إن الكاتب يصور هذا الامبراطور على أنه صاحب شخصية غير واقعية فهو ينجح للخيال كثيرا ولا يقدم أكثر من مشروعات لا تلبث أن تندثر على أرض الواقع وهكذا نجده يفكر في إخضاع كل العالم المتبرير (كل العالم الموجود خارج بيزنطة) سواء في الشرق أو في الغرب. هذا ولم يكن طموحه هذا نظريا فحسب ولكن كان يريد فرضه بالسلاح هذا الصدد يشير الكاتب في موضوع آخر الى الشيء ذاته. فيذكر وهو بسبيل حديثه عن حملة

٤٤ . المصدر نفسه ، ك ١ ، ف ٣٢ ، ( كل الفقرة ) .

٤٥ . المصدر نفسه ، ك ١ ، ف ٣٣ ، ( كل الفقرة ) .

٤٦ . المصدر نفسه ، ك ٣ ، ف ٤ ، ( كل الفقرة ) .

رومانوس على بلاد الشام أنه كان يودّ أن يقلد الانجازات التقليدية لأمثال تريانوس (تراجان) وهادريانوس بل أمثال أغسطس وقيصر وربّما سابقهم في هذا الميدان وهو الاسكندر بن فيليب<sup>٤٧</sup>.

وفي حديثه عن الحملة المذكورة على بلاد الشام يشير الكاتب في البداية اشارة عابرة ولكنها ذات مغزى فيما يخصّ موضوعنا، فيقول «إنّ الامبراطور كان يهدف الى المجد العسكري فأعدّ نفسه للقاء البرابرة في الشرق والغرب. ولكن النصر على برابرة الغرب، مهما كان سهلا، لم يكن يشكل (في نظر الامبراطور) مجدا كبيرا، أما الهجوم على الأعداء الشرقيين فهذا هو الذي يكسبه الشهرة، فهناك يصبح في مقدوره أن يستخدم موارد إمبراطوريته على نطاق هائل»<sup>٤٨</sup>. والاشارة هنا تفيد رغم كل ما تتصف به شخصية الامبراطور من جموح الخيال، أنّ البيزنطيين كانوا يتجهون بطموحاتهم نحو الشرق (كما رأينا من قبل على عهد باسيلوس الثاني) كما كانوا يشعرون أن القوّة التي تجابههم في بلاد الشام قوّة لا يستهان بها.

وحين يأتي بسّلوس الى الحديث عن المعركة ذاتها يصفها وصفا يتطابق مع الشخصية التي رسمها لهذا الامبراطور بشكل يكاد يكون كاملا. وهنا يذكر الكاتب أنه رغم عدم وجود مبرر حقيقي للحرب (كان البيزنطيون والفاطميون في حالة سلام رسمي آنذاك) فإنّ الامبراطور شنّ هجوما لا عذر له فيه على العرب القاطنين في البقاع السورية (أو سورية المجوفة Κοιλη Συρια حسب تسميتها عند اليونان والبيزنطيين) والتي كانت عاصمتها حلب<sup>٤٩</sup>. ثم يمضي الكاتب في ذكر الاستعدادات التي أقدم عليها الامبراطور من حيث الأعداد الكبيرة من المقاتلين، سواء من البيزنطيين أو من المرتزقة، الذين أضافهم الامبراطور الى أعداد الجيش أو من حيث زيادة عدد التكوينات العسكرية إذ كانت خطته، على ما يبدو، أن يلقي الذعر في قلوب الأعداء في أول هجوم عليهم عن طريق هذه الأعداد الكبيرة. وقد حاول قواده أن يثبوا عزمه عن هذا الهجوم الذي لم يكونوا واثقين من نتيجته

٤٧ . المصدر نفسه ، ك ٣ ، ف ٨ ، س س ٢٠-٢٢ من أمثال «سباستوس» وهي اللفظة اليونانية المقابلة لللفظة اللاتينية Augustus الشائعة لدى القراء العرب ولذلك استخدمت هذه اللفظة الأخيرة .

٤٨ . بسّلوس : التاريخ ، ك ٣ ، ف ٧ ، س س ١-٧ .

٤٩ . المصدر نفسه ، ك ٣ ، ف ٧ ، س س ٧-١٠ .

ولكن دون جدوى، فالتيجان التي كان الامبراطور قد أمر بصنعها، كان قد تم إعدادها فعلا (بتكاليف بالغة) ليزين بها جبينه عندما يحين إعلان انتصاراته<sup>٥٠</sup>.

ثم يمضي الكاتب في وصف الهجوم على سورية فيتحدث عن احتلال أنطاكية (دون أن يتحدث عن معركة) وعن الاحتفالات التي أقامها الامبراطور بمناسبة دخول المدينة والتي لم يكن مظهرها المسرحي يتناسب والوضع القتالي للجنود، ولا كان مما يثير الذعر في قلوب الأعداء. وهنا يرسل العرب متحدثين باسمهم الى الامبراطور يوضحون له أن هجومه لا مبرر له وأنهم لم يريدوا تلك الحرب، ولكنه أخذ مواقف العرب بشكل غير جدي فاستمر في استعراضاته العسكرية وإطلاق تهديداته. ولكن العرب أخذوا الأمور مأخذ الجد وواجهوه لدى مغادرته أنطاكية فأوقع هجومهم الرعب في قلوب القوات البيزنطية فولّوا هاربين في كلّ الاتجاهات في هزيمة كاملة. وهنا توقف العرب عن متابعة البيزنطيين، ثم استولوا على كنوز هائلة من خيمة الامبراطور، وهي كنوز كان قد أحضرها معه ضمن استعدادات الحملة، وانتهى الأمر بالامبراطور الى العودة الى العاصمة البيزنطية دون أن يحقق شيئا، وهو يحمل معه صورة للسيدة العذراء مردّدا أنها هي التي أنقذته وأنقذت البيزنطيين من الفناء الكامل في هذه المعركة، كما كانت تفعل دائما في كلّ الملمات<sup>٥١</sup>.

ومن العرض الذي قدّمه بسلّوس للمعركة نستطيع في الواقع أن نستخلص صورة عملية عن شخصية الامبراطور البيزنطي الذي كان يشكّل رمز الطرف البيزنطي في المواجهة بين القوة الموجودة في بلاد الشام وبين الامبراطورية البيزنطية، وهو رمز كان يفتقر بشكل ملموس الى الواقعية والجديّة التي ينبغي أن تتوافر في مثل هذه المواجهة - الأمر الذي أرى أنه أسهم الى حد كبير في السرعة الخاطفة للانتصار العربي، كما أسهم على الجانب الآخر في الحجم المأساوي للهزيمة البيزنطية. كذلك نستطيع أن نستنتج أن القوة الموجودة في بلاد الشام لم تكن ترغب آنذاك، لظرف أو لآخر، في الحرب بقدر ما كانت تميل الى الاحتفاظ بالسلام كلّما كان ذلك ممكنا. فالعرب لم يردوا في البداية بشكل عسكري على احتلال رومانوس لأنطاكية، وإنما آثروا إرسال سفارة يشرحون فيها للامبراطور أنهم لا يريدون الحرب ويبينون رغبتهم في الأبقاء على السلام القائم بين الطرفين. كذلك فهم حين أوقعا

٥٠ . المصدر نفسه ، ك ٣ ، ف ٧ ، س س ١٠-٢٢ .

٥١ . المصدر نفسه ، ك ٣ ، ف ف ٨-١١ .

الهزيمة بالامبراطور - بعد أن تبينوا عدم اهتمامه برغبتهم في السلام ، لم يتابعوا انتصارهم رغم أن هزيمة البيزنطيين كانت كاملة - وهو أمر لم يفت بسلّوس أن يشير اليه حين وصف الانتصار العربي بأنه انتصار مذهل  $\nu\prime\iota\kappa\eta$   $\pi\alpha\rho\prime\alpha\lambda\omicron\gamma\omicron\gamma\omicron\varsigma$ <sup>٥٢</sup> وأنه «إذا كان الله لم يخفف من اندفاع البرابرة (يعني العرب) ويلهمهم الاعتدال في لحظة الحظّ السعيد (النصر) لما حال شيء دون القضاء التام على البيزنطيين لكان الامبراطور أول من سقط من القتلى في صفوفهم»  $\epsilon\iota\ \mu\eta\ \theta\epsilon\omicron\varsigma\ \tau\eta\nu\ \kappa\alpha\upsilon\tau\alpha\ \tau\eta\nu\ \beta\alpha\rho\beta\alpha\rho\omega\nu\ \epsilon\pi\epsilon\sigma\chi\epsilon\nu\ \omicron\rho\mu\eta\nu\ \kappa\alpha\iota\ \mu\epsilon\tau\rho\iota\alpha\chi$   $\zeta\epsilon\iota\nu\ \epsilon\pi\iota\ \tau\omega\ \epsilon\upsilon\tau\upsilon\chi\eta\mu\alpha\tau\iota\ \pi\epsilon\pi\epsilon\iota\kappa\epsilon\nu\ \omicron\upsilon\delta\epsilon\upsilon$ <sup>٥٣</sup>.

٥٢ . المصدر نفسه ، ك ٣ ، ف ١٠ ، س ٢ .

٥٣ . المصدر نفسه ، ك ٣ ، ف ٩ ، س ٣٠-٣٣ .

## الشام والدعوة العباسية

ابراهيم بيضون\*

- ١ -

ان دور بلاد الشام في الدعوة العباسية، وبالتالي في إسقاط خلافة الأمويين، مسألة يكتنفها الغموض، والتصدي لها أمر في غاية الصعوبة، مما يشكل فجوة كبيرة في السياق التاريخي لتلك المرحلة المتأخرة من الحكم الأموي، على المؤرخ مواجهتها بقراءة موضوعية، تحيط بأجواء النص، وتواكب التفاصيل الصغيرة، وتجتهد الا تفوتها ملاسبات اللحظة التاريخية. وفي ضوء هذا التصور الأولي، مرتكزاً على منهج واضح المعالم، كان التوقف عند نقاط ثلاث، قد تسهم في بلورة المنحنى الذي ستخذه هذه الدراسة: -

١. إن المصادر المتوافرة، لا تقدم سوى صورة جزئية أو هامشية عن هذا الدور الشامي، سواء تعمدت ذلك بفعل ضغوط الموقف السياسي أو النزعة الذاتية للمؤرخ، أو بفعل ضهور المعطيات إن لم يكن انعدامها، في وقت تعرض فيه تاريخ الشام الأموية للتحريف والتجاهل، مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن القليل الذي أوردته المصادر من أخبارها لا يمثل كل الحقيقة في تلك الفترة الانتقالية التي شهدت انهياراً سريعاً للدولة ربما فاجأ المعارضة نفسها ودفعها الى تعديل خططها بما يتلاءم والمتغيرات السريعة على جبهتي الشام وخراسان.

٢. طبيعة المصادر نفسها وتركيزها فقط على الجانب السياسي المحيط بالصراعات على مستوى القبائل أو الأسرة الحاكمة، على نحو ترك تأثيره على التاريخ الأموي عموماً وجعله أسير نظرة مسبقة وتقويم غير دقيق.

٣. تجاهل هذه المصادر للأسباب الموضوعية الأخرى، المتداخلة في الصراعات المتأخرة، لا سيما تلك التي كانت لها خلفيتها الاقتصادية، واسهمت على ما يبدو في انفجار الموقف على جبهة الكلبيين وحلفائهم، مؤدية الى العصيان العام في بعض المراكز الهامة في الشام، بعد تعرض مصالحهم وامتيازاتهم للخطر، من جانب خليفة متطرف في «حزبيته» القيسية، وربما غير حائز على الثقة في «شاميته».

لقد كانت ثمة فردية للشام في تكوينها السياسي، المتمايز في الأساس عن الأمصار الأخرى في الدولة الراشدية، مما جعلها تمثل موقعاً لنفوذ مبكر على حساب الأخيرة، ومركزيتها التي أصيبت في الصميم بعد اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وما رافقه

\* قسم التاريخ، الجامعة اللبنانية، بيروت، الجمهورية اللبنانية.

من نمو متصاعد للأمصار، لم يستطع خليفته التصدي له، أو التخفيف من نتائجه السلبية التي انعكست على الحجاز، وحدت بالخليفة الرابع الى الخروج منه، تفادياً لانقسام أخذت رياحه تهب من الشام، الأكثر نمواً بين الأمصار على مختلف الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولعلها تفوقت في هذه العناصر على السلطة المركزية نفسها التي إختلت هيكلتها وتداعت أركانها، في الوقت الذي قطعت فيه الشام مسافة كبيرة نحو الدولة، بناء على منجزات هامة، اقترنت بواليتها معاوية بن أبي سفيان، وتجسدت بوجه خاص في الوحدة الاجتماعية، والجيش والولاء المطلق، فضلا عن القيادة المؤهلة للدور، والافادة من ثغرات السلطة المركزية ومتاعبها القديمة والمستجدة في ذلك الحين. فقد كان التفوق منذ البدء واضحاً لمصلحة والي الشام، ليس في المجال العسكري، أو في مجال السياسة، وإنما في هذه المسألة بالذات، أعني بها تكامل عناصر الدولة في الشام، مقابل انهيارها في الحجاز ومحاولة الخليفة إعادة بنائها في العراق، بعد اعترافه بالأمر الواقع، وباستحالة استمرارها في مقرها الأساسي، من دون مجابهة وضع انقسامي، ليس بوسع الحجاز الخوض في تحدياته والصمود طويلاً في الصراع المترتب عليه.

ولعل الصورة لا تخرج من غموضها النهائي، إن لم يرافقها بحث في جذور هذا التكوين، وتحديداً في البنية الاجتماعية، وما أدت اليه من إسهام في هذا التمايز وتلك الفردية، بالمقارنة مع الولايات الأخرى التي كانت بعض قبائلها - إن لم نقل معظمها - مختزقة بشكل أو بآخر، إذا ما توقفنا عند القبائل العراقية وانقساماتها، بينما ظلت الشام عبر مسافة طويلة من العهد الأموي، جبهة سياسية متماسكة، يعززها الولاء الكامل للقبائل يمينها والقيسي، للسلطة التي ارتبطت منذ تأسيسها في الاسلام بالبيت الأموي، دون أن يؤدي سقوط الأخير الى تحول قاطع في الولاء نحو السلطة الجديدة، على غرار بقية الولايات التي انخرطت تحت لوائها وانصاعت لمتغيرات الواقع، إذا ما استثنيا البعيد منها، لا سيما في الجناح الغربي للدولة، حيث تداخلت معطيات معينة في تمردها على السلطة المركزية.

ولا بد ان يجابهنا في هذا السياق، التساؤل الملح عن التشكيل القبلي في الشام، ذلك الذي يمكن من خلاله قراءة التحولات التي شهدتها الأخيرة على مدى نحو قرن من الزمن. وإذا كنا غير معنيين بالرجوع الى بدايات التراكم القبلي، لما يحتاج اليه ذلك من بحث خاص، فإن هذه المسألة تبدو شديدة الأهمية، ويمكن التعرف في ضوءها على القبائل العربية التي عاصرت التحولات، وأسهمت في صناعتها الى حد كبير. كما أن الخوض في البدايات القديمة، ليس أمراً خالياً من التعقيد، فضلا عن الغموض، برغم الاتفاق على قدم الوجود العربي في هذه المنطقة<sup>١</sup>، حيث كانت منذ أقدم الأزمنة تقيم بها قبائل عربية لها نظم بدوية لا تختلف

١. جواد علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠ ج، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦ م، ج ١، ص ٢٠٦. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جواد علي، الفصل.

عن نظم أهل شبه جزيرة العرب وحياتهم<sup>٢</sup>، حسب تعبير المؤرخ صالح العلي. فثمة اخبار تشير الى استيطان عربي في الشام، يعود الى الألف الأول قبل الميلاد<sup>٣</sup>، دون أن يتوقف خلال القرون اللاحقة التي اعقبته<sup>٤</sup>، ومنها على وجه الخصوص ما أشار اليه «هيرودوتس» عن منطقة مأهولة بالسكان العرب و يحكمها ملك عربي بالقرب من غزة<sup>٥</sup>.

و يبدو أن دوافع الاستيطان العربي في الشام، كما في الأطراف الأخرى، كانت اقتصادية، وإذا ما توقفنا عند نص يشير الى بعض العرب ممن ضاقت بهم المعيشة، «فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام»<sup>٦</sup>. ولقد توسع هذا الاستيطان مع تغيرات حركة التجارة وتعديل خطواتها التي أدت الى انتشار عدد من الأسواق الهامة في الشام<sup>٧</sup>، ما لبثت أن اتخذت حيزاً كبيراً في تجارة قريش منذ القرن السادس الميلادي<sup>٨</sup>. ومن المرجح - حسب الروايات التاريخية - أن تلك الفترة شهدت زحفاً قبلياً متصاعداً نحو الشام، متزامناً مع نمو «الايلاف» القرشي<sup>٩</sup>، ومعه تطور شبكة المواصلات بين مكة والمراكز التجارية على تخومها والأطراف. وكان في مقدمة القبائل الزاحفة، فيما يرويه اليعقوبي: بنو قضاة الذين صاروا «الى ملوك الروم فملكوهم»<sup>١٠</sup>، أو احد فروعهم من بني ضجعم بن حماطة بن سليم، فيما يرويه ابن حبيب، واصفاً الضجاعة بأنهم أول الملوك في الشام قبل قدوم غسان<sup>١١</sup>. وإذا كانت الأخيرة، قد حازت النفوذ وتقدمت على القبائل الأخرى في الدور السياسي الذي شغلته قبل الاسلام، فضلاً عما توافر من أخبارها في المصادر التاريخية فان ثمة بقعاً متفاوتة، شغلتها قبائل أخرى كان لها حضورها في المنعطف لا سيما كلب التي

٢. صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الاسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص ٥٧، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صالح العلي، امتداد العرب.
٣. جواد علي، المفضل، ج ١، ص ٦٤١، وما بعدها.
٤. المرجع السابق، ج ١، ص ٥٧٤ وما بعدها، ج ٢، ص ٨-٩، ٢٨، ٤٢، ٦٣، ٦٢٩، ٦٣٨، ٦٥٣.
٥. المرجع السابق، ج ١، ص ٨.
٦. الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٢١٠هـ/٦٦٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٥ ج، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٦٥، ج ٢، ص ٢٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.
٧. عرفان حمور، أسواق العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٩٥ وما بعدها. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حمور، اسواق العرب.
٨. R. Simon, Hums et Ilaf, ou Commerre Sans Guerre Acta Orientale Acade Scientiarum Hungaricae, tomus XXIII (2), 1970
٩. عن الايلاف والتجارة المكية في الشام، انظر: المرجع السابق، وإبراهيم بيضون، «الايلاف والسلطة في مكة قبل الاسلام»، مجلة دراسات، كلية التربية، الجامعة اللبنانية، العدد (١٨) سنة ١٩٨٥م. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بيضون، «الايلاف».
١٠. اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب بن جعفر وهب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧م)، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، دار صادر، بيروت، د.ت، ج ١، ص ٢٠٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ.
١١. ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمر الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ/٨٥٩م) كتاب المحبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تصحيح ايلزه ليختن شتير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ١٩٤٢م، ص ٣٧٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حبيب، المحبر.

أقامت في دومة الجندل وتبوك وحمص وبادية الشام، كما أقامت معها وإلى جوارها، عشية الفتح العربي الاسلامي، قبائل أخرى مثل جذام ولخم (الأردن وفلسطين)، وتنوخ (اطراف حمص)، وعذرة وفزارة (جنوب الشام)، وبي وبهراء (مأب)، وقضاة وعشائرها، والقين وجهينة، امتداداً إلى الأردن وأيلة<sup>١٢</sup>، فضلاً عن قبائل عديدة أقل أهمية، كانت منتشرة حول خط القوافل، من أعالي الحجاز حتى جنوبي الشام، وتردد ذكرها في المصادر إبان تحرك الجيوش العربية الاسلامية في عمليات الفتح، كان إلى جانب كلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان التي تردت أخبارها في كتب التاريخ والفتوح<sup>١٣</sup>.

وليست هنالك معلومات كافية عن أحوال هذه القبائل وعلاقاتها بالامارة الغسانية، وعمّا اذا كانت لها علاقات مباشرة مع الدولة البيزنطية، أم أن ما عرف بالحاجز الغساني، كان يقوم بهذه المهمة، ويوظف بالتالي هذه القبائل لمصلحة التحالف مع البيزنطيين. علماً أن الصورة ليست واضحة تماماً، لا سيما المتصل بالعلاقة مع الغسانية، تلك التي يبدو أنها تأثرت بالمتغيرات التي عصفت بالشام، نتيجة الصراع الفارسي - البيزنطي الذي كان له صده في السياق القرآني، وانتهى عشية الفتح باستعادة البيزنطيين لهذا الاقليم الهام، ولكن بعد تضعف القوتين المتصارعتين، لا سيما الدولة الفارسية (الساسانية) المهزومة.

ولعل أبرز نتائج هذه الحرب على الصعيد العربي، تمثل بانهياء «الحاجز»، واتخاذ البيزنطيين سياسية شامية جديدة، تقضي باجراء علاقات مباشرة مع القبائل العربية المنتشرة في جنوبي الشام، تلك السياسة التي أسهمت بصورة ما - من جانب البيزنطيين على الأقل - في اتخاذ الرسول قراره الذي سبق فتح مكة، وعبر عما تحتله الشام من حيز كبير في سياسة الرسول الخارجية، التي كان أول مؤشراتهما، غزوة مؤتة في العام الهجري الثامن. ولم تكن

١٢. الواقدي، أبو عبد الله محمد بن واقد (ت ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) المغازي، ج ٣، تحقيق مارسدن جونس، طهران، د. ت، ج ٢، ص ٧٦٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، المغازي؛

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) أنساب الاشراف الجزء الأول، تحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت، ١٩٧٨ م، ج ١، ص ٣٧٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، أنساب؛

ابن خردانبة، عبد الله (ت ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م) المسالك والممالك؛ مكتبة المثنى، بغداد، د. ت، ص ٣٢٤ وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خردانبة، المسالك؛

صالح العلي، امتداد العرب، ص ٥٨؛ حسين عطوان، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الاموي، دار الجليل، بيروت، الطبعة الاولى ١٩٨٧ م، ص ٨٠. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عطوان، الجغرافية؛ محمد بطاينة، «القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثانية، عمان، الجامعة الأردنية، جامعة اليرموك، ١٩٨٥ م، ص ١. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بطاينة، القبائل العربية.

١٣. الأزدي، محمد بن عبد الله (ت ٢٣١ هـ/ ٨٧٥ م) تاريخ فتوح الشام تحقيق: عبد المنعم ماجد، القاهرة، د. ت، ص ١٠٧، ١١١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأزدي، فتوح الشام؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٣٨٩.



أهمية هذه الغزوة في جانبها العسكري، وإنما في الجانب السياسي الذي هز الحركة البيزنطية الجديدة، وأربك محاولتها لاقامة نفوذ مباشر لها حتى تخوم الجزيرة، بمثل ماهز — وبصورة أكثر عمقاً — القبائل العربية النازلة في منطقة عبور الجيوش البيزنطية، ودفعها الى بدء إعادة النظر الفعلي في أوضاعها وعلاقاتها، التي كان عليها أن تتخذ منحى جديداً، في ضوء التغييرات التي شهدتها الحجاز، وفي طليعتها قيام دولة إسلامية (عربية) على أرضه<sup>١٤</sup>.

ويمكن ملاحظة هذا التحول أو بداياته، في متابعة الرسول اتصالاته بعدد من القبائل برغم المحنة التي حلت بالمسلمين في مؤتة، ومنها بنو عذرة و بنو سعد<sup>١٥</sup>، متوجاً ذلك في معاهداته الشهيرة، التي أسفرت عنها حملة تبوك في العام التاسع، مع عرب أيلة وجرباء وأنرح، ومقنا<sup>١٦</sup>، مما يؤكد أن الطريق الى الشام، والى عقول القبائل، باتت ممهدة وسالكة، وأن الخليفة أبا بكر، عندما عزم على توجيه الجيوش الى هذه المنطقة، لم يكن قرارة عفواً أو نابضاً من معطيات مستجدة، وإنما جاء استكمالاً لسياسة أخذت تعطي ثمارها على صعيد هذه القبائل في أواخر أيام الرسول صلى الله عليه وسلم. وإذا كان من غير الواضح ما يروى عن مشاركة بعض قبائل الشام، مثل جذام ولخم<sup>١٧</sup> أو انضمام أمير غسان (جبلبة بن الأيهم) إلى الأنصار. وقوله لهم، فيما رواه البلاذري: «انتم اخوتنا و بنو أينا وأظهر الاسلام»<sup>١٨</sup>، فإن دور القبائل الشامية لم يكن فاعلاً في القتال الى جانب البيزنطيين، إن صح تكتلهم الى جانب هؤلاء في معارك الشام. فلم يكن تجاوز مسألة الانتماء بمثل هذه السهولة، لا سيما وأن القبائل التي شكلت مادة الفتح، كانت في غالبيتها العظمى من القبائل اليمينية، استناداً الى رواية الأزدي<sup>١٩</sup>، تلك التي استوطنت فروع كثيرة منها في الشام وشكلت حتى وقت بعيد الاكثرية في اجنادها، إذا ما توقفنا عند التوزيع الوارد في «بلدان» اليعقوبي<sup>٢٠</sup>.

١٤. إبراهيم بيضون، «حملة مؤتة، مقاربة للمشروع السياسي الاول للدولة الاسلامية في بلاد الشام»، اوراق الندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٧، ص ٥٤ وما بعدها. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بيضون، «حملة مؤتة».
١٥. نبيه عاقل، «موقف سكان بلاد الشام من الفتح»، اوراق الندوة الثانية للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٧م، ص ١٥٣. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عاقل، موقف.
١٦. ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٣ هـ/٨٢٨ م)، السيرة النبوية، ٤ ج، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥ م، ج ٤، ص ١٢٥ — ١٢٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ٧١ — ٧٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.
١٧. الأزدي، فتوح، ص ١١١: البلاذري، فتوح، ص ١٤٧.
١٨. البلاذري، فتوح، ص ١٤١ — ١٤٢.
١٩. الأزدي، فتوح، ص ١٦.
٢٠. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) كتاب البلدان، طبعة ليدن، ١٨٩٠ م، ص ١٢٣، وما بعدها. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، البلدان.

ولقد تنبه معاوية، الذي ولي الشام بعيد وفاة أخيه، الى أهمية الدور الذي يمكن أن تقوم به هذه القبائل في خدمة أهدافه السياسية، من غير أن يجد صعوبة في استقطابها، بما يعنيه ذلك من ترويض للظروف، وتحكم بالأحداث التي أخذت تتجه لمصلحته منذ عهد الخليفة الثالث. فإذا ما رجعنا الى تشكيلة الجيش الشامي في «صفين»، سنجد ان القبائل نفسها التي تمركزت على الشام قبل الفتح، كانت منخرطة تحت لواء معاوية، وهي: كلب وجذام ولخم وحمير والقين والأزد وطيء وقضاة وهمدان وحثم وغسان<sup>٢١</sup>، فضلا عن بعض القبائل القيسية الوافدة مع الفتح. وقد قاتل بعضها كوحدة كاملة، مثل جذام وكنب وفهر، والآخر كان له امتداد في الجبهة الثانية (العراقية)، متأثراً بالعوامل الجغرافية التي أفرزتها الفتوح، وجعلت القبيلة نفسها تقاتل على الجبهتين في الوقت نفسه، مثل همدان والأزد ومذحج<sup>٢٢</sup>.

وهكذا فان القبائل، سواء القديمة العهد في الشام، أم تلك الوافدة اليها مع الفتح، شكلت جبهة سياسية، توحدت في ظلها مختلف القبائل، بما فيها القيسية، على نحو لم يكن ما يماثله في اقليم آخر من الدولة وقد ادى ذلك الى انخراطها المبكر في الصراع على السلطة من غير أن تكون معنية بغير الجانب السياسي فيه، لا سيما وأن غالبية هذه القبائل، لم يسبق لها أن خاضت تجربة عميقة على المستوى الفكري؛ وانما جاء بعضها في سياق تعبئة عامة من جانب الخليفة<sup>٢٣</sup>، واندرج بعضها الآخر طوعاً أو رضوخاً للأمر الواقع الجديد، الذي سرعان ما اتخذ في الشام خصوصية ما، تحت تأثير عدة عوامل جغرافية واقتصادية، وربما اجتماعية أيضاً، أسهمت جميعها في تكريس هذا النمط الجبهوي، المقترن بحضور سياسي غير عادي لبعض القبائل، كان لا يزال متنامياً منذ العهد السابق للإسلام. ولعل ما يستوقفنا في هذا المجال، ذلك الحضور اللافت للقبيلة الكلبية، في الوقت الذي إنكفأت فيه غسان (الأزد)، وتراجع نفوذها، حتى ما قبل الفتح<sup>٢٤</sup>. وقد يعود ذلك الى أن الدولة البيزنطية، في أعقاب انتصارها على الفرس لم تعد ترى - كما سبقت الإشارة - ما يسوغ استمرار الحاجز الغساني، بعد اختراق أعدائها له وتوغلهم حتى مصر، الأمر الذي يفسر أقول الامارة الغسانية وغياب دورها القيادي في الحملة العسكرية التي اعدّها «هرقل» وانتهت الى مواجهة المسلمين في مؤتة، دون أن يرد في الروايات ذكر للغساسنة، بين القبائل المشاركة في هذه الحملة، إذ جاء

٢١. المنقري، نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م) وقعة صفين، ط٢، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨١ م، ص ٢٠٦ - ٢٠٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المنقري، وقعة صفين.
٢٢. ابراهيم بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ٢٠٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بيضون، الحجاز.
٢٣. البلاذري، فتوح، ص ١١٥.
٢٤. صالح العلي، امتداد العرب، ص ٥٧.

فيها: أن الأمبراطور البيزنطي قد تحرك في مائة الف من الروم وانظمت اليه المستعربة من لحم وجذام وبلقيين وبهراء وبلي في مائة الف»<sup>٢٥</sup>. كذلك فإن الأمبراطور الذي سبقته هالة المنقذ، بما انطوت عليه من خلفية «صليبية»، لم تكن غائبة عن هذه الحملة، فضلاً عن الحملات الأخرى التي أعدها بعد ذلك، لاسيما التي مهدت لليرموك، كان ينطلق من سياسة جديد في علاقته مع القبائل العربية في الشام، وذلك وفق خطة طاللت الجانب الديني<sup>٢٦</sup>، وانعكست بالضرورة على الغساسنة، بناء على تراكم من الخلافات في هذا المجال بين الطرفين<sup>٢٧</sup>.

## - ٢ -

لقد كان ثمة فراغ إذن بعد انحسار النفوذ الغساني عشية فتح بلاد الشام، بدأت معه القبيلة الكلبيية على ما يبدو، مؤهلة للمثله والقيام بدور سياسي متميز، ربما رهصت به الأحداث السابقة على الفتح. وكان أول ما تردد من ذكر لهذه القبيلة، في العام الهجري السادس، عندما دعا الرسول عبد الرحمن بن عوف الى غزوة الجندل التي كان بها قوم من كلب<sup>٢٨</sup>، وإذ أشار البلاذري الى اسلامهم، كشفت الروايات الأخرى بالإشارة الى زواج ابن عوف من ابنة «ملكهم» الكلبي<sup>٢٩</sup>، الذي وصف بأنه كان نصرانياً وكان رأسهم، من غير تحديد القبيلة أو القبائل التي كان رئيساً لها<sup>٣٠</sup>، وإن كان الواقدي، في رواية ثانية، قد المح الى استجابتهم للإسلام<sup>٣١</sup>، على أن هذا «الملك» يتردد ذكره، ولكن تحت اسم آخر، بعد سنوات ثلاث، وذلك في سياق الحديث عن حملة تبوك التي تشعبت منها سرية بقيادة خالد بن الوليد الى دومة الجندل، حيث أشار ابن سعد، الى ان ملكها يدعى أكيدر بن عبد الملك، وقد وصفه بأنه

٢٥. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٦٠؛ ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٢٧٥؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ١٠٧.

٢٦. أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج ٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٥م، ج ١، ص ٢٢٠. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: رستم، الروم.

٢٧. المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠٢.

٢٨. البلاذري، أنساب، ج ١، ص ٣٧٨.

٢٩. هو الاصبع بن عمرو الكلبي.

٣٠. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٥٦١؛ ابن سعد، محمد بن سعيد بن منيع (ت ٢٢٠ هـ/ ٨٤٤م) غزوات الرسول وسراياه، تقديم أحمد عبد الغفور عطار، دار بيروت، ١٩٨١م، ص ٨٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، غزوات.

٣١. يذكر خليفة بن خياط أن الذي ملكها رجل من اليمن قدم به خالد على الرسول فحقن دمه واعطاه الجزية ثم رده الى قريته، الواقدي، المغازي، ص ١٦٦، خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٦٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خياط: تاريخ.

نصراني من كندة<sup>٣٢</sup>. ويبدو استناداً الى ابن حبيب أن الاثنین تداولوا الرئاسة في دومة، وان عوامل خارجية كانت تؤثر في عملية أحدهما على الآخر، إذ كان الغسانيون يدعمون الكلبی (الأصعب بن عمرو)، على حساب السكوني (الكندي)<sup>٣٣</sup>، مما يعسر تولى الآخر إبان سرية خالد، متزامناً مع ضعف الغساسنة وانكفاء نفوذهم.

على ان هذه القبيلة (كلب)، ظلت كمجموعة خارج إطار الاسلام لوقت غير قصير، دون ان يتعارض ذلك مع بروز شخصيات كلبية في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيامها بدور هام في العلاقات الأولى مع الشام، مثل «دحيه» الكلبی الذي حمل الكتاب الى «هرقل» عبر (عظيم بصرى)، حسب رواية الزهري<sup>٣٤</sup>. هذا اذا لم تتوقف عند زيد بن حارثة، أحد المقربين من الرسول صلى الله عليه وسلم، وممن ارتبط اسمهم بالحملات الأولى نحو الشام<sup>٣٥</sup>، التي ينتمي اليها زيد، موقعاً، والي القبيلة الكلبية نسباً، قبل أسرة و احتمالاً الى مكة فيما يرويه ابن سعد<sup>٣٦</sup>.

ولعله من غير المصادفة ان تتخذ كلب دوراً بارزاً في الشام، منذ هذه المرحلة الانتقالية التي شهدت انطواء صفحة الغساسنة، وما رافقه من تغيرات جذرية، أكثر ما انعكست على هذا الاقليم خارج شبه الجزيرة، دون أن يكون مصادفة كذلك، أن تتجه الأنظار الى دومة الجندل التي استهدفتها حملة في العام السادس بقيادة عبد الرحمن بن عوف، وثانية تفرعت عن حملة تبوك في العام التاسع بقيادة خالد بن الوليد. ويبدو ان دومة التي ارتبط بها بنو كلب، أفادت من تطورات تلك المرحلة، إذ أصبحت سوقاً للقبائل العربية، الوافدة من الحجاز والعراق والشام<sup>٣٧</sup>، متفوقة ربما في هذا المجال على بصرى التي خضعت لحكم البيزنطي أكثر مباشرة من دومة وذلك بإشراف الغساسنة الذين تولوا أمر التجارة فيها وأقاموا علاقات وثيقة مع قريش<sup>٣٨</sup>.

ولم تكد جيوش العرب المسلمين تخترق الشام وتنتهي الى إخراج البيزنطيين منها في أعقاب معركة اليرموك، حتى تغيرت معالم الخارطة القبلية، مؤدياً ذلك الى سقوط المعادلات

٣٢. ابن سعد، غزوات، ص ١٦٦. انظر أيضاً: خليفة بن خياط الذي روى أن ملكها رجل من اليمن قدم به خالد على الرسول فحقن دمه واعطاه الجزية ثم رده الى قريته. تاريخ، ج ٢، ص ٦٤. الخأكرسه ص٤٤٤ ٩/٨/٢٨
٣٣. ابن حبيب، المحبر، ص ٢٦٤.
٣٤. الواقدي، المغازي، ص ١٦١.
٣٥. قاد زيد عدة سرايا في هذا الاتجاه، وهي الصيص وحسمي وأم قرفه فضلا عن الغزوة التي استشهد فيها وهي مؤته. انظر: بيضون، حملة مؤته.
٣٦. ابن سعد، ابو عبد الله محمد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م) الطبقات الكبرى، ٨، ج، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠ م، ج ٣، ص ٤٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.
٣٧. حمور، أسواق العرب، ص ١٦٦.
٣٨. المرجع السابق، ص ١٩٦ - ١٩٧.

السابقة، بما فيها زعامة القبيلة الواحدة، دون أن تستطیع كلب، برغم طموحها، وراثته الموقع الغساني في العهد الراشدي على الأقل، وإن كانت حاضرة ربما أكثر من غيرها في الاجناد الشامية الأربعة (الخمسة بعد اضافة قنسرین)، حيث نجد لها انتشاراً لافتاً في حمص وتدمر وحروران<sup>٣٩</sup>. على أنها في العهد الأموي الذي شاركت في قيامه الى جانب عدد آخر من القبائل الشامية العريقة، أخذت تتقدم على قريناتها، لا سيما بعد مصاهرة معاوية لها، بالزواج من ميسون بنت بجلد الكلبی، ذلك الزواج الذي جعل لهذه القبيلة كلمة نافذة في الدولة وموقعاً مميزاً عن القبائل الأخرى<sup>٤٠</sup>. وكان الكلبیون يرون في الدولة الأموية دولتهم التي تتجسد فيها مصالحهم، سواء تجلّى ذلك في العهد السفیاني من هذه الدولة، أم في العهد مرواني الذي يدين في قيامه - فضلاً عن استمراره - لدعم الكلبیین، حتى إذا انحاز هذا العهد في أواخره الى الموقع المعادي لهم، كانت ثمة حركة تربصت به في الشام، حيث تقدم ألف من فرسان الكلبیین في تدمر، لنجدة الثورة المضادة التي اندلعت في حمص<sup>٤١</sup>، وكانت بداية الضعف الذي اجتاح الشام، وطوح بعيد سنوات قليلة بالخليفة مروان الثاني ودولته.

وقد نتساءل في نهاية هذا المدخل، عن العلاقة بين ابتعاد الكلبیین عن السلطة وبين الاضطراب الذي عم الشام، ولم يستطع الخليفة الأخير، التصدي له، برغم ما تمتع به من كفاءة قيادته، فهل أدى ذلك الى ضرب التماسك في المعادلة السياسية التي أنقذت بصورة غير كاملة في مؤتمر الجابية، بعد تأييد القبيلة الكلبية لبني مروان<sup>٤٢</sup>؟ وهل كان لموقف هذه القبيلة تأثير على ولاء القبائل اليمينية الأخرى التي سارعت الى نقض عهدها أيضاً مع الدولة الأموية واسهمت بدور كبير في إسقاطها، ذلك الذي سبقته حرب طاحنة، خاضتها كلب والقبائل اليمينية في الشام وخراسان؟

- ٣ -

إن سقوط الدولة الأموية، مسألة طال فيها البحث وتصدى لها كثيرون، في محاولة لمعرفة الأسباب الموضوعية لهذا السقوط الذي كان، برغم مقدماته، مدوياً وعاصفاً، لما عكسه من نتائج بالغة الخطورة على مسار التاريخ العربي الاسلامي. وقد ظلت الانظار مشدودة في

٣٩. صالح العلي، امتداد العرب، ص ٦٧ - ٦٩.

٤٠. المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٦ هـ / ٩٤٧ م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، تحقيق يوسف أسعد داغر، دار الاندلس، بيروت، ١٩٧٣، ج ٢، ص ٨٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج.

٤١. كان على رأسهم الاصبغ بن (ذؤابه) الكلبی، الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٥٥.

٤٢. إبراهيم بيضون، «مؤتمر الجابية، دراسة في نشوء خلافة بني مروان»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثامنة، عمان ١٩٨٧م، ص ٣٣. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بيضون، «مؤتمر الجابية».

الواقع نحو خراسان، تلك البؤرة البعيدة، والعاجية بضروب التيارات السياسية ومختلف الفئات والعناصر، من قبائل عربية مهاجرة أو مرغمة على ذلك، الى أخلاط من الفرس والترک هاربين من الظلم أو ساعين الى الفتنة في ظل شعارات إصلاحية، ربما عبرت عن بعض طموحهم الذي بدأ يخرق موقف هذه الشعارات الى أفق آخر كان يتوقف الى الخروج اليه. وقد قيل الكثير في هذا المجال الذي خاض فيه المستشرقون ما شاء لهم، زاهبين بعيداً في التركيز على معاناة شعوب البلدان المفتوحة في المشرق، واضطهاد الولاة الأمويين لهم، على نحو يصبح الجواب في غاية البدهة، بأن الثورة العباسية – رأيهم – انما نجحت في استثمار الحالة المساوية لهذه الشعوب، وتجييش المتضررين من الحكم الأموي لاسقاطه، واعدة بالانتقام لهؤلاء المقهورين في ظل سلطة الدولة.

ولكن، هل كانت حقاً خراسان، البؤرة التي أسقطت الدولة الأموية؟ إن الغاية من هذا التساؤل، ليس نقض المقولات العديدة التي تربط بين هذا الأقليم ونهاية الحكم الأموي، بقدر ما ينطوي على محاولة قراءة أخرى لهذه المسألة التي باتت شبه محسومة لدى المؤرخين الى حد كبير. ان خراسان من دون شك، ومن دون التوقف طويلاً عند الآراء المنسوبة لبعض القادة العباسيين الأوائل<sup>٤٣</sup>، كانت أرضيه صالحه للثورة، التي قطعت شوطاً في التعبئة والتحريض على الحكم الأموي، مهينة الظروف الملائمة لأية حركة ترفع راية العصيان عليه. ولعل العباسيين كانوا مدينين على الأخص، لذلك الموروث الذي تركته حركة الحارث بن سريج التميمي، لا سيما إسهامها في بلورة بناء إصلاحي واسع، كان من السهل على الدعاة احتواؤه في ذلك الحين<sup>٤٤</sup>. فقد كان الحارث أحد القادة العرب في خراسان وبلاد ما وراء النهر، قبل أن يتحول من مقاتل تحت راية الدولة الأموية، الى ثائر عليها، بسبب تعسف الولاة واستبدادهم، دون ان يكون واضحاً، اذا كانت لديه خطة جذرية لاطاحة النظام الأموي، أم أن حركته استهدفت تحقيق الإصلاح في إطاره. ومهما كانت دوافع هذه الحركة وأبعادها، فانها زرعت بذرة الثورة في تلك الأرض، التي وجدها الدعاة العباسيون ممهدة، وتسلط اليها تحت ستار الإصلاح، مستفيدين من التوقيت، بما يتكافأ وعنصر المكان، وأحترام الصراع الغربي – العربي، فضلاً عن الصراع الأموي – الأموي، بعد دخول كليهما دائرة العنف الدموي منذ وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك.

وهكذا كانت خراسان الأداة المنفذة للثورة التي أطاحت دولة الأمويين، أو بمعنى آخر، كانت الأرض التي جرى استغلالها لتفجر الثورة، ولكن دون أن تكون المحركة، أو

٤٣. البلاذري، أنساب، ج ٢، ص ٨١، ١٤١؛ أحمد علي، العهد السري للدعوة العباسية، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٨. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: علي، العهد السري.

٤٤. ابراهيم بيضون، «ظاهرة الإصلاح السياسي في مطلع القرن الثاني الهجري»، الفكر العربي المعاصر، عدد ٢ (حزيران ١٩٨٠م)، ص ب، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابراهيم بيضون، «ظاهرة الإصلاح».

المخططة لها، بقدر ما كان للشام من تأثير في ذلك، وضلوع - ربما غير مباشر - في هذا الدور. وتجاوبنا في هذا السياق مقولة المستشرق «دينيت»، بأن «سقوط الأمويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان، بل بسبب ثورة في بلاد الشام»<sup>٤٥</sup>، تلك المقولة التي تنطوي على لبس يتعدى مضمون النص الى ظاهره، موهمة القاريء للوهلة الأولى، أنه أمام طرح جديد، متناقض مع الطروحات السابقة المعروفة. فقد بنى «دينيت» نظريته على ضعف موقع الخليفة الأموي الأخير، كسبب في انهيار الدولة<sup>٤٦</sup> منهيًا الى أن «الثورة هي ثورة عرب خراسان لا موالها ضد الأمويين»<sup>٤٧</sup>. وهو رأي يتشابه معه رأي المؤرخ فاروق عمر في دراساته العديدة عن الدعوة العباسية والتاريخ العباسي.

لقد وقع «دينيت» في التناقض الظاهري على الأقل، إذ يرمي الى الربط على الأرجح، بين خلل النظام المركزي وطعن الأغلبية الأموية بشرعية الخليفة مروان بن محمد<sup>٤٨</sup>، وبين انفجار الثورة في خراسان التي مهدت لها القبائل العربية في صراعاتها الدموية، وانخراط جزء كبير منها، لا سيما اليمينية، في هذه الثورة، مقلدا، وربما بشيء من الفردية قياساً الى معظم المستشرقين، من شأن العناصر غير العربية في الاطاحة بدولة بني أمية. وكان «ولهوزن» قد ألمح الى ما يشبه هذا الطرح، متوقفاً عند مسألة الجزية التي لجأ الى تخفيفها «فان شلوتن»، في قوله بأن الأمويين مارسوا في جبايتها «أسوأ أنواع الابتزاز»<sup>٤٩</sup>، بينما رأى الأول امكانية تحقيق توازن دائم بين العرب والأعاجم، ولكن لم يكن وقت لذلك، بعد أن أعاق حل هذه المسألة عرب خراسان، بسبب «التنازع وإهلاك بعضهم بعضاً»<sup>٥٠</sup> على حد قوله. وقد اعتقد «ولهوزن»، كما «دينيت»، بأن «الثورة في الشام هي التي بعثت على الثورة في خراسان... من جانب الحزب الثائر على حزب قيس»<sup>٥١</sup>. ولعل في هذا الموقف ما تسوغه

٤٥. دانيال دينيت، مروان بن محمد، (أطروحة باللغة الانكليزية غير منشورة، على الارجح)، وأنظر كذلك: فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٣٦. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فاروق عمر، بحوث.

٤٦. فاروق عمر، بحوث، ص ٣٦.

٤٧. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، دار الاشاد، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٩٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فاروق عمر، طبيعة الدعوة.

٤٨. المرجع نفسه، ص ٩٢.

٤٩. ابراهيم بيضون، الدولة الاموية والمعارضة، مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق فان فلوتن، مع ترجمة له، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٨٥. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بيضون، الدولة الاموية.

٥٠. يوليوس ولهوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي ابوريده، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤٥٧. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ولهوزن، تاريخ.

٥١. المرجع نفسه.

المؤشرات التي يمكن استقراءها بوضوح في السنوات العشر الأخيرة من الدولة الأموية، تلك التي شهدت انتقال الصراع الى الأسرة الحاكمة وعجزها عن إيقافه، خلافاً لما جرى في حالات سابقة أكثر صعوبة وتعقيداً، نجحت الأسرة في تطويقها (مؤتمر الجابية، فتنة عمرو بن سعيد... الخ) بفعل وحدتها وتماسكها، بينما أضحت في عهدها الأخير، متورطة في الصراعات «الحزبية» المتأججة في معظم ولايات الدولة. وكان الخلفاء الأمويون قد حرصوا في الواقع حتى عهد هشام، على تقوية النظام المركزي، ورفض التعايش مع الحركات الانفصالية، مسخريين كل الجهود من أجل القضاء عليها، مما جعل المركزية سمة مقترنة بالدولة الأموية، يمثل اقترانها بالشرعية التي اكتسبت مضمونها من هذه الوحدة، مقابل اقتران الثورة عليها بالتمرد والفتنة، وفقاً للموقف الفقهي الداعم عموماً. للسلطة، والمعبر بالتالي عن موقف أهل الشام الذين حفظوا للأمويين ولاء لم يهزه سوى انفراط عقد البيت الأموي وانقسامه.

وإذا كانت وحدة الأسرة الأموية مقترنة بوحدة الشام، فإن الأخيرة بدأت تفتقد تماسكها، ليس في تلك الفترة المتأخرة فقط، وإنما قبل ذلك بنحو نصف قرن، أي منذ انعقاد مؤتمر الجابية الذي تمت فيه معالجة الانقسام الأموي ولكن دون الانقسام القبلي الذي أدى الى شرخ كبير في الجبهة الشامية، وذلك بخروج القيسيين منها، بعد هزيمة قاسية في مرج راهط الأمر الذي تطلب جهوداً غير عادية من الخلفاء الأمويين، لتفادي اختلال المعادلة بكاملها، مهد لها عبد الملك بتحييد زعيم القيسية زفر بن الحارث الكلابي واحتوائه فيما بعد. على أن الأمر بدأ أكثر صعوبة من ذلك، والقلوب التي ملأها الحقد «يوم المرج»، ما إنفكت ناضحة به خلال تلك السنين، ولا يتراءى لأصحابها سوى الانتقام، الذي امتدت لوثته الى الخلفاء، وجعلتهم أسرى لغريزة التطرف. ففي ظل هذا المناخ، بما سادته من عصبية مستشرية، جاء مروان الثاني الى الخلافة، متحدياً أحد الأعراف الهامة في التقاليد الأموية، وهو عروبة الأم<sup>٥٢</sup>، ذلك الشرط الذي التزمته الأسرة الحاكمة حتى ذلك الوقت وحال دون وصول أمراء بارزين<sup>٥٣</sup> - لم يتمتعوا بهذا الشرط - الى الخلافة. كما جاءت الوسيلة التي قادت مروان الى الحكم، عبر حركة «انقلابية» مدعومة من «الحزب» القيسي، تحدياً كذلك للقبائل اليمينية التي ألفت وجود حلفائها في السلطة، باستثناء حالات قليلة وعابرة، مثلها يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بشكل خاص.

وكان من الطبيعي أن يواجه التحدي بمثله، وخصوصاً أنه صادر عن خليفة «غير شامي» ان جاز التعبير، إذ ان مرواناً، المحارب المحترف في ارمينية<sup>٥٤</sup> والمقيم في الجزيرة

٥٢. كان مروان ابن أمة كردية.

٥٣. منهم مسلمة بن عبد الملك على سبيل المثال.

٥٤. ابن الاثير، عز الدين ابي الحسن بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)، الكامل في التاريخ، ١٣ ج، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢، ج ٥، ص ٢٤٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الاثير، الكامل.



«أمير»<sup>٥٥</sup> عليها وقتاً غير قصير، متأثراً ما يبدو بميولها القيسية المعروفة، لم تكن له علاقة مباشرة بأهل الشام، الأمر الذي يفسر «ردة الفعل السريعة في عدة أماكن، احتجاجاً على خلافته. فقد ذكر الطبري عدة انتفاضات، جابهت مرواناً في بدء ولايته، وجعلت الشام مسرحاً للثورة، إذا ما توقفنا عند قوله: «انتفض على مروان أهل حمص وسائر بلاد الشام»<sup>٥٦</sup>، حيث تمردت القبائل اليمنية في دمشق «الغوطة والمزة» وفلسطين وقرقيسيا، فضلاً عن تدمر (كلب) التي ساندت ثورة حمص<sup>٥٧</sup> وكادت هذه الثورة تحقق غايتها، لولا أن أعاقها الخليفة الشجاع، في تصديه العنيف لها مروعاً خصومة بما ارتكبه من قتل وصلب واستباحة<sup>٥٨</sup>، إلا أنه عجز عن اطفاء نارها بصورة تامة<sup>٥٩</sup>، لانهماكه في مواجهة تحديات متلاحقة، تجاوزت تحت وطأتها هموم الشام إلى ما هو أشد ضعفاً في خارجها دون أن يدور في خلد ان الهم الشامي، هو الأكثر خطورة في ذلك الحين.

ويبدو أن أدواته العسكرية كانت في معظمها من خارج الشام، حيث رفضت قبائلها اليمنية الانخراط في جيشه الذاهب لمحاربة الخوارج في العراق.. هذا على الأقل ما توجي به رواية الطبري في سياق الإشارة إلى حملة يزيد بن عمر بن هبيرة، التي كان تعدادها عشرين ألفاً من أهل قرقيسيا والجزيرة<sup>٦٠</sup> وإذا كانت رواية الطبري لم تشر إلى استجابة أهل الشام والتحاقهم بهذه الحملة، بناء على أوامر الخليفة، فإن رواية ذكرها ابن الأثير، تكاد تجزم بعزوف هؤلاء عن المشاركة<sup>٦١</sup>، وفيها أن مرواناً ضرب على أهل الشام بعثاً وأمرهم باللاحاق بيزيد<sup>٦٢</sup>. على أن هذه الحملة أسهمت في تعقيد الموقف إثر تلكوء سليمان بن هشام بن عبد الملك - وكان يرافقه لقتال الضحاك الخارجي - وانسحابه إلى الرصافة، متذرعاً بالمرض، والتحاق عشرة آلاف ممن كان مروان قد أخذه من أهل الشام.. فأقاموا بالرصافة ودعوا سليمان إلى خلع مروان<sup>٦٣</sup>. ولعل انسحاب الشاميين وسليمان قبلهم، كانا خارج المصادفة، التي دحضها قبول الأخير واستجابته إلى الدعوة للثورة، إذ سرعان ما عاد الوضع

٥٥. المصدر نفسه، ص ٣١٩.

٥٦. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٥٥.

٥٧. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥٥ - ٥٦.

٥٨. ابن الأثير، ج ٥، ص ٣٢٨.

٥٩. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٥٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٣٢٩.

٦٠. ظلت تدمر خارج نفوذ الخليفة. انظر: الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٥٦.

٦١. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥٦.

٦٢. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٣٣١.

٦٣. المصدر نفسه.

الى التفجر بصورة أشد ضراوة، وعادت في ظله حمص الى واجهة الأحداث، كقاعدة للحركة المناوئة للخليفة، الذي كان عليه الانهماك مجدداً بالموقف الشامي، ومحاصرة المدينة عشرة أشهر، ناصباً عليها نيفاً وثمانين منجنيقاً فيما يرويّه الطبري<sup>٦٤</sup>.

وهكذا يجابه مروان الثاني بعصيان عام في الشام، حيث تمردت عليه القبائل اليمينية بكل وسائلها، وخاضت حرباً ضارية لاسقاطه. وفي المقابل أثبت الخليفة صحة ما أوردته الروايات التاريخية حول كفاءته القتالية العالية، تلك التي تعرضت لتجربة قاسية في الشام، لم يكن الخروج منها أمراً يسيراً، بعد التعبئة التي حشدها خصومه اليمانيون في ثلاثة أجناد كبرى (حمص ودمشق وفلسطين)، وانتهت الى ثورة حمص الأخيرة. كما أن التحدي الاصعب، كان في التحالف بين المعارضة الشامية، وبين شخصية تنتمي الى الفرع البارز في البيت المرواني، مكتسبة - أي الثورة - شرعيتها عبر هذه الشخصية (سليمان بن هشام)، الذي كان أبوه آخر الخلفاء الأقوياء، وربما آخر الذين مثلوا هذه الشرعية، وفقاً لتقاليد الصارمة في دولة بني مروان. وإذا كان المؤرخ لا يبحث في غير الوقائع، فان اجتماع قيادة متجددة من الفرع الأساسي في الأسرة الحاكمة (بنو عبد الملك)، الى تلك القوة الهائلة - إن صح تقدير الرواية التاريخية - التي بلغت نحواً من سبعين ألفاً من أهل الشام<sup>٦٥</sup>، لا بد أن يستوقف المؤرخ ويستثير خياله، ويدفعه بالتالي الى إعادة نظر في المتغيرات، فيما لو أتيح لهذه الثورة النجاح، وما يستتبعه من خلع لمروان وبيعه لسليمان بالخلافة. قد لا يكون ذلك تصوراً لأمر لم تحدث، بقدر ما هو خاضع للتساؤل عن مدى صمود الشام، التي ارتبط تاريخها الاسلامي بالبيت الأموي - كما سبقت الإشارة - في وجه ما كان يخطط حينذاك لاطاحة الأخير، وانتهى الى هذه النتيجة بعد سنوات قليلة. ولعل الجواب هنا لا يعدو أن يكون في معرض التساؤل أيضاً عما اذا كان سليمان، وقد أتيح له تبؤ الخلافة، قادراً على حسم الامور وإفشال المشروع العباسي، انطلاقاً من الجبهة الشامية التي واجهت موحدة في السابق تجارب انفصالية عديدة، وتمكنت من إحباطها بفضل هذه الوحدة؟ قد يصبح ذلك خارج نطاق التساؤل مقارباً الحقيقة بصورتها الجزئية على الأقل، أي الاسهام في تأخير سقوط الدولة الاموية، ان لم يكن إنقاذ هذا السقوط.

بيد أن الواقع كان له شأن آخر، إذ أن «ثورة» سليمان لم تخفق فقط في إسقاط مروان الثاني، ولكن أسهمت بعفوية أو بقصر نظر في إنهاء الدولة بكاملها دون ان يتورع سليمان بعد هربه، عن الانضمام الى الضحاك (الخارجي)<sup>٦٦</sup> في وقت كانت الجبهة الأموية في خراسان تعاني نزقاً شديداً، نتيجة للصراع الطاحن، وتندرب بأحداث كبيرة. ومن هذا المنظور،

٦٤. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٦٤؛ وانظر أيضاً: ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٢٣.

٦٥. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٦٢.

٦٦. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٦٤.

فان القبائل اليمينية في الشام، كانت ضالعة في إسقاط الدولة الأموية، في الوقت ذاته الذي كانت فيه قبائلها في خراسان، ماضية في هذه المهمة، دون تقدير موضوعي للنتائج المترتبة على ذلك. ومن هذا المنظور أيضاً، تقترب من مقولة «دينيت» عن سقوط الدولة الأموية في الشام، التي هزت ثوراتها اركان النظام في دمشق، ومهدت بصورة مباشرة لتحرك الجيوش العباسية من خراسان، معبراً عن هذه العلاقة العضوية أيضاً، مؤرخ دمشقي في قوله، بأن حركة الدعوة العباسية أول ما بدأت في قرى الشام، ولكنها باضت وفرخت في خراسان وما يليه من وراء النهر<sup>٦٧</sup>.

وهكذا، فان قبائل الشام اليمانية التي كانت مادة الدولة الأموية وعصبها، بلغت في عدائها لخليفة ينزع الى محاباة القيسية، الى الاسهام الفعلي في انهيار هذه الدولة، مؤثرة مصلحتها الخاصة على مصلحة الدولة، مؤدياً بها هذا الموقف الى التخاذل وعدم المبالاة<sup>٦٨</sup> ازاء الزحف العباسي، الذي لم تعقه مقاومة فعلية من جانب أهل الشام، دون أن تكون محاولة مروان استخدام سلاح المال مجدية لثنيهم عن التقاعس، بل أدى ذلك الى تسريع الهزيمة التي اشاعوها مسبقاً، ليتاح لهم الذي شاءوا من النهب، حسب رواية ابن الاثير<sup>٦٩</sup> ولعل هذا الموقف يتعارض مع الرأي الذي ذهب اليه فاروق عمر في قوله: «إن القبائل العربية اختلفت مع مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ووقفت موقف المعارضة منه لكنها لم تكن معارضة للخلافة الاموية، ولم يدربخلدها أن تطورات الأحداث ستؤدي بالتالي الى زوال الخلافة الأموية وانهيائها<sup>٧٠</sup>. ذلك أن القبائل الماخوذة بموجة التمرد التي لم تكن طارئة أو حديثة العهد، كانت متورطة حتى اللاعودة بتلك المواجهة مع الخليفة الأموي الأخير، من غير أن تدرك في وعيها، الانهيار المأساوي للدولة، وأن يدور في خلدتها فعلا ما حدث من تطورات فيما بعد، حسب ما أورده بداية المؤرخ فاروق عمر ولقد قدر للشعوب أن تكون أكثر استيعاباً لهذه التطورات، ورصداً - في حينه - لسلبياتها، فان معطيات عدة ستخضع للتغير في التاريخ الانساني، لا سيما في التاريخ العربي الاسلامي، إذ تنطوي صفحاته على حالات مماثلة كثيرة للحالة الأموية التي كان سوء التقدير من أبرز العناصر فيها.

٦٧. محمد اديب ال تقي الدين الحصري، منتخبات التواريخ لدمشق، ج ٢ في م، تقديم كمال الصليبي، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ١٠٦. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الحصري، منتخبات.

٦٨. محمد رضا الشبيبي، مؤرخ العراق لبن الفوطي، بغداد ١٩٥٠ م، ج ١، ص ٢٤؛ وانظر ايضاً: الحصري، منتخبات ج ١، ص ١٠٦.

٦٩. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٢٠.

٧٠. فاروق عمر «الولاء الاموي في العصر العباسي»، مجلة آفاق عربية السنة الثالثة، رقم ١٢، (أب ١٩٧٨)، ص ٥٧. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فاروق، عمر، «الولاء».

على أن سوء التقدير لم تمارسه القبائل فقط، في ذلك الجو المحموم الذي شملت دائرته البيت الأموي نفسه، محدثة فيه شرخاً يتساوى في عمقه مع ذلك الذي عانته القبائل الشامية، وجعلها في وضع شبه دائم من الصراع والاقْتتال، فقد قطعت الدعوة العباسية - كحركة سرية - شوطاً بعيداً في التنظيم والتعبئة، لم تلحظه أجهزة الدولة الأموية، المنتبهة فقط الى نشاط العلويين ورصد حركتهم وأخذهم على الظن (أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، زيد بن علي بن الحسين... الخ)، دون أن يخامرها الشك في سلوك العباسيين وولائهم للدولة. وكان ذلك مبنياً على الاعتقاد بأن الأخيرة قد تمكنت من احتوائهم، في وقت كانت صدارة المعارضة للبيت العلوي، ولكن فاتها أن احتواء الحركة لا يصيب الطموح الذي أتاح للعباسيين - بعد الضعف الذي أصاب الحركة العلوية، والعزلة التي أحاطت بزعامتها - النفاذ بذكاء شديد الى موقعه المنشود، بين «حزب» معارض لم تعد له الصدارة، بعد الضربات الشديدة التي حلت به، وبروز عدة أحزاب واتجاهات على حسابه، وبين «حزب» السلطة التي أنهكتها الحروب الداخلية والانقسامات الحادة.

والعباسيون في واقع الأمر لم يغب حضورهم السياسي البارز، وكان اللافت في سلوكهم، هو تلك الواقعية التي أبعدتهم عن التطرف، وجعلتهم منذ العهد الأول من الاسلام، مؤهلين لدور ربما صعب على الآخرين القيام به. بالاضافة الى ما تمتعوا به من قدرة على الكتمان وتمويه المواقف، بدءاً من العباس الذي مارس دوره باتقان شديد، كوسيط بين مكة والمدينة، متخذاً موقفه الظاهري بين قيادات الأولى، وكاشفاً انخراطه الخفي في الوقت المناسب بين صفوف الثانية<sup>٧١</sup>. ولقد أرسى العباس نهجاً سياسياً خاصاً، انطلاقاً من هذه الواقعية التي كرست زعامته مرة أخرى، معترفاً بها من جانب التيار المنتصر والتيار غير المهزوم اذا جاز التعبير، تلك الصيغة التي كان له دور كبير في تحقيقها عشية فتح مكة. ولأن موقع الزعامة الثانية، كان ما يؤثره العباس بصورة عامة، فقد حالت معطيات المرحلة دون تحقيق هذا الدور الذي تبوأه عن جدارة بعد ذلك، ابنه عبد الله الى جانب الخليفة الراشدي الرابع. فقد بدأ واضحاً أن الابن تأثر بهذا النهج الواقعي، ولم ينفك معبراً عنه خلال الأحداث الدامية التي عصفت بالمسلمين، ومؤثراً الخروج من دائرتها، في وقت قدر ملاءمته لهذا القرار، مسوغاً ذلك بموقف لم يقنع الخليفة<sup>٧٢</sup>.

٧١. روى أن العباس كتب كتاباً ودفعه الى رجل من بني غفار وأمره ان يسرع الى المدينة فيسلم الرسالة الى الرسول صلى الله عليه وسلم، مشعراً إياه بتحريك قريش عشية غزوة احد، الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

٧٢. كان ابن عباس والياً على البصرة، فخرج منها الى مكة تاركاً وراءه تهمة صاحب بيت المال (ابو الاسود الدؤلي) بأخذ مال الخراج، وقد علل خروجه بالاجتماع على الاقتتال، فرد عليه علي بقوله «أو ابن عباس لم يشركنا في هذه الدماء»، الطبري، تاريخ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج ٥، ص ١٤١ - ١٤٢.

وبعد ان استتب الأمر لمعاوية، لم يكن ابن عباس - الذي أقام في الحجاز شأن بني هاشم، والآنصار، ممن كانوا مؤيدين لعلي - على مسافة بعيدة من الخليفة، وإنما اتسمت علاقته مع الأخير بالمودة والتردد أحياناً على مجلسه<sup>٧٣</sup>. وحافظ على نهجه هذا طوال العهد السفيناني، دون أن تغير حركة ابن الزبير ما في نفسه، إذ وجد في الأخير مجرد مغتصب لحق، سبق للأمويين برأيه أن اغتصبوه، إلا أنه ظل مؤثراً هؤلاء عليه، وأوصى ابنه علياً «باتيان الشام والتتحي عن سلطان ابن الزبير الى سلطان عبد الملك»<sup>٧٤</sup>، الذي حفظه ذلك فيما يرويه البلاذري. وكانت تلك بداية صفحة جديدة في تاريخ الاسرة العباسية، بعد خروجها من عزلتها في الحجاز الى حيث السلطة والقرار في الشام، في وقت مالت السياسة الاموية الى احتواء المعارضة<sup>٧٥</sup> في هذا الاقليم، بعد أن غلبت عليها الشدة في العهد السفيناني وبدايات العهد مرواني. فقد فتح استقرار علي بن عبد الله ومعه ابنه محمد في دمشق، ثم في «الحميمة»<sup>٧٦</sup> عيون العباسيين على السلطة، وحرك فيهم الدوافع نحوها، بعد استرخائها وقتاً طويلاً في الحجاز. وليس ثمة ما يؤكد أن علياً كان لديه مشروع سياسي بعد اتخاذ مقره في الشام، وان كان في الوقت نفسه غير بعيد عن الأحداث والتطورات في الأخيرة، بل على إتصال دائم بالناس، لاسيما الوافدين عليه، وهم في الطريق من الشام الى الحجاز أو بالعكس، مغدقاً على من يلتبس صلته<sup>٧٧</sup>، حتى ذاع صيته في هذا المجال، الى جانب ما عرف عنه، من زهد وانقطاع الى العبادة<sup>٧٨</sup>.

ولكن الود الذي صاحب علاقة عبد الله بن عباس وابنه علي مع الخلفاء المروانيين، بدأ أنه أخذ في الزوال بعد وفاة الأخير، تاركاً زعامة الاسرة لولده محمد الذي جسد نمطاً في القيادة لم تعرفه الاسرة من قبل<sup>٧٩</sup>. كما تزامن ذلك مع تغير الظروف، لغير مصلحة الدولة الاموية التي أخذ يدب في جسمها الوهن، برغم ما بذله خليفته هشام بن عبد الملك من محاولات جادة لدفع الاخطار عنها، والتصدي بشدة للحركات الانفصالية. وفي ضوء هذا الواقع، تتبدل علاقة الأمويين بالاسرة العباسية، فيحل الجفاء مكان المودة، ويتطلع هشام بحذر الى محمد بن علي، معبراً عن ذلك فيما رواه البلاذري بقوله للأخير، بعد أن وفد على الخليفة لحاجة له: «انتظر بها دولتكم التي تتوقعونها وترددن فيها الأحاديث وترشحون لها أحداثكم»<sup>٨٠</sup> ولم يبدد إنكار التهمة من جانب الزعيم العباسي الذي تردد اسمه حاملاً لقب

٧٣. البلاذري، انساب، ج ٣، ص ٥٢.

٧٤. البلاذري، انساب، ج ٣، ص ٥٢.

٧٥. بيضون، الحجاز، ص ٣٤٩، وما بعدها.

٧٦. البلاذري، انساب، ج ٣، ص ٥٧.

٧٧. المصدر نفسه.

٧٨. المصدر نفسه.

٧٩. قارن بما ورد من وصف لشخصيته في انساب البلاذري على لسان عبد الملك وخالد بن يزيد. البلاذري، انساب،

ج ٣، ص ٨٥.

٨٠. المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٤.

«الامام»، ما في نفس الخليفة من ارتياب إزاء بني هاشم بصورة عامة (موقف هشام من زيد ابن علي على سبيل المثال)<sup>٨١</sup> مما يتجلى في هذه العبارة المنسوبة له بأن هؤلاء - ويقصد العباسيين - «قوم جعلوا رسول الله لهم سوقاً»<sup>٨٢</sup>. ولكن الروايات لا توحى - على الرغم من ذلك - بما يخفيه هذا الحقد لدى هشام، وما إذا كان تدمره من محمد بن علي مبنياً على معطيات ما، أم انه مجرد تبرم بوجود شخص تجتمع اليه صفات القيادة و ينتمي الى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت كان «الامام» العباسي، قد أخذ «يسوق» نفسه فعلا كخليفة ظل، وبادر الى ارسال اول دعواته الى خراسان<sup>٨٣</sup>، سواء جاء ذلك تنفيذاً لمشروع مختمر في أسرته، أم تلقاه - وفقاً للمتداول من الروايات - عن عبد الله بن محمد الحنفية المعروف بأبي هشام<sup>٨٤</sup>.

ولعل المؤرخ يجد هنا تسويغاً لبعض التساؤلات، عن اختراق العباسيين للقبائل اليمنية، واذا كانت هنالك نواة علاقة أو تنسيق ما بين هذه القبائل والدعوة، اذا ما أخذنا في الاعتبار التحول القاطع في الجبهة اليمنية نحو المعارضة وبروز رجالات منها في صفوف العباسيين فيما بعد كان لها موقعها في السلطة الأموية. واذا كان المؤرخ لا يجد في المصادر ما يشبع فضوله التساؤلي، فان ثمة نموذجاً يمكن من خلاله تصور علاقة جزئية على الأقل بين الدعوة العباسية واليمنيين في الشام، ونواة جبهة مشتركة بين الطرفين ضد الحكم الأموي. فقد توقفت المصادر عند شخصية يمنية، ربما شكلت عقدة هذه الصلة، ممثلة بزياد ابن عبيد الله الحارثي الذي ارتبط اسمه باعدام «السفياي» في الحجاز، حيث لجأ إليها متخفياً بعد اخفاق ثورته «الأموية» على العباسيين.

وكان اول ما تردد من نكر للحارثي في أيام هشام بن عبد الملك، حين استخلفه على الكوفة واليها الشهير خالد بن عبد الله القسري بعد عزله، الا ان ذلك لم يدم سوى سحابة قصيرة من الوقت، وتولى بعدها امر الكوفة والي اليمن يوسف بن عمر الثقفي، «فخلى سبيله» حسب رواية الزبير بن بكار، دون أن يكون واضحاً اذا كان بين عمال خالد الذين استقدمهم الوالي الجديد مع الأخير وزج بهم في السجن حسب الرواية نفسها<sup>٨٥</sup>. واذا كان الراجح ان استبعاده أو «حبسه» قد تم لأسباب قبلية أكثر منها سياسية، فانه من الراجح أيضاً ان يكون وآخرون غيره من القيادات اليمنية على اتصال بالدعوة العباسية بعد استيلاء مروان على

٨١. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٦٢.

٨٢. البلاذري، انساب، ج ٢، ص ٨٤.

٨٣. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٤٢.

٨٤. البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١١٤.

٨٥. الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م)، الاخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، بغداد، ١٩٧٢، ص ٢٩٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الزبير بن بكار، الاخبار الموفقيات.

السلطة. وكان ثمة ما يسهل هذا الاتصال بالنسبة لزياد على الأقل لأنه يمت بالقرابة للأسرة العباسية، إذ روى أنه خال موسى بن داود<sup>٨٦</sup>، وفقاً لما رواه ابن خياط وابن الأثير<sup>٨٧</sup> أو خال أبي العباس، فيما يرويه البلاذري في موضعين من «أنسابه»<sup>٨٨</sup>. ولعل ما يرجح انخراطه في الدعوة، ما قام به من مهمة لا تعهد إلا لمن حاز على الثقة فيها، عندما انتدب وحرثي آخر<sup>٨٩</sup> لمفاوضة القائد الأموي يزيد بن عمر بن هبيرة، ووعده بأن «يصلح له ناحية أبي العباس»<sup>٩٠</sup>، ذلك الوعد الذي كان في نية الأخير، كما المنصور، الالتزام به، لولا أن عارضه أبو مسلم الخراساني ورأى أنه «لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة»<sup>٩١</sup>، حسب ما رواه ابن الأثير. كما يتردد ذكر الحرثي في السياق نفسه لدى البلاذري، مما يؤكد أهمية موقفه في الدعوة، على نحو دفع أحد الذين وصفوا بالمرضين على المسودة، وهو عمر بن ذر، إلى أن يستأمن له، فتدخل لدى أبي العباس الذي لم يرفض طلبه<sup>٩٢</sup>.

ويبدو أن الحرثي قد تزعم اليمانية<sup>٩٣</sup>، أيام أبي العباس، تلك التي انحازت مبكراً – كما يعتقد – للدعوة، ولم تشارك الكلية في ثورتها المضادة للدولة الجديدة. وقد حدا ذلك بالخليفة الأول، مقدراً منه هذا الموقف، إلى تعيينه والياً على الحجاز<sup>٩٤</sup>، وهو منصب شديد الأهمية في ذلك الحين، إذا ما أخذنا في الاعتبار الخطر الحقيقي الذي واجهته الدولة في هذه الولاية، مجسداً بالنفس الزكية وإخوانه من الأسرة العلوية. كما بثته المنصور – بعد بيعته – في هذا المركز، واستمر فيه نحو تسعة أعوام، باستثناء فترة وجيزة عزل خلالها من مكة فقط<sup>٩٥</sup> ليبقى بعدها والياً على كل الحجاز حتى سنة إحدى وأربعين ومائة للهجرة/٧٥٨م<sup>٩٦</sup> عندما عزل وعين مكانه يمني من بجيلة، هو محمد بن خالد بن عبد الله القسري.

وفي ضوء هذه التطورات، تتخذ الدعوة العباسية، انطلاقاً من الشام خطوات في غاية الأهمية، وذلك تحت قيادة «إمامها» الأول محمد بن علي بن عبد الله، الذي شقت في عهده الدعوة طريقها الذي سارت فيه وتابعت بخطوات ثابتة في عهد خليفته إبراهيم. وقد أتيح للقيادة العباسية من موقعها في «الحميمة»، مراقبة الوضع السياسي عن كثب، والتنبه

٨٦. هوداود بن علي بن عبد الله بن العباس.
٨٧. تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٦٣٠؛ الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٤٤٨.
٨٨. أنساب الأشراف، القسم الثالث. تحقيق الدوري، ص ١٤٩، ٢٦٤.
٨٩. هوزياد بن صالح. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٤٠.
٩٠. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٤٠.
٩١. المصدر نفسه.
٩٢. البلاذري، أنساب، القسم الثالث، ص ١٤٩.
٩٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٥٠ – ٤٥١.
٩٤. ابن خياط، تاريخ، ج ٢، ص ٣٦٢؛ البلاذري، أنساب، القسم الثالث، ص ٨٨؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٢٦.
٩٥. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٦١، ٤٤٧، ٥٠٧.
٩٦. المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٠٦.

للشغرات والمشكلات فيه، دون أن يكون اختيار خراسان، سوى نتيجة لذلك، وهي الولاية الأثيرة لدى الأمويين ومركز الخلل في دولتهم المترنحة، والصورة الأكثر تعبيراً عنها في صراعاتها وانقساماتها. على أن ثمة مسألة هامة، هي أن اختيار خراسان لا يعني انصراف العباسيين عن الشام، كما لا يعني التوجه نحو الموالي واستغلال أحقادهم على الدولة الأموية، على نحو ما روج له المستشرقون في هذا المجال، ولكنه جاء محصلة للمعطيات السابقة، فضلاً عن المعطى الجغرافي، متمثلاً في بعد الولاية عن مركز الدولة. ذلك أن الدعوة في أساسها عربية وتوجهها الخراساني إنما كان إلى القبائل العربية (اليمنية)<sup>٩٧</sup> القاطنة بأعداد كبيرة في هذه الولاية، هذا إذا لم نتوقف عند عروبة النقباء المتحدرين من كبريات القبائل العربية، إذ أن خمسة منهم ينتمون إلى خزاعة، وثلاثة إلى تميم واثنين إلى مزينة، فضلاً عن آخرين من طيء وربيعة.. الخ<sup>٩٨</sup>. ولا يعني هذا أيضاً، أن يكون لدور شخصيات من أصل غير عربي في الدعوة، من أمثال أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال، دلالات تخالف هذا الواقع، إذ أن قيادة الدعوة كانت تحكم قبضتها على كل الأمور، من خلال جهاز بالغ الدقة في التنظيم والادارة وسرعان ما لجأت إلى التخلص من هذين الرجلين القويين، بعد انتهاء دوريهما الرسميين، ومحاولة كل منهما تجاوز خطوطه المحددة<sup>٩٩</sup>.

وهكذا، في قرية في أطراف الشام<sup>١٠٠</sup> تم للعباسيين إخراج مشروعهم إلى حيز التنفيذ، متحالفين مع الوقت، ومتقنين العمل السري، وراصدين ثغرات الحكم الأموي، بما فيها مساوئ الخلفاء وضيق رؤيتهم السياسية، مما حاد بهؤلاء عن الموضوعية واتخاذ المواقف المسؤولة، خصوصاً في تلك المرحلة المتأخرة منه. وما كاد هذا الحكم يكتشف أمر الدعوة، حتى كانت قد ترسخت جذورها في الأرض، وبات القضاء عليها في منتهى الصعوبة. فلم يغير إلقاء القبض على إبراهيم الإمام من الواقع شيئاً أو يحدث خلافاً في مسار الدعوة، إذ جاء متأخراً، وربما لم يكن نتيجة لبراعة الشرطة الأموية<sup>١٠١</sup>، بقدر ما تدخلت في ذلك المصادفة، التي وضعت «الإمام» في شبكها، إستناداً إلى رواية أوردها ابن كثير وجاء فيها أنه - أي إبراهيم -

٩٧. الطبري، ج ٩، ص ٧٦.

٩٨. الشيبني، مؤرخ العراق، ج ١، ص ٣٦.

٩٩. لعل ما أورده الدينوري عن وصية أبي العباس لابي مسلم «لا يدع بخراسان عربياً لا يدخل في أمره الا ضرب عنقه» يؤكد هذا الاتجاه أكثر مما يخالفه لا سيما على استقطاب الدعوة للعرب.

الدينوري، أحمد بن داوود (ت ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، دار المسيرة، بيروت، د.ت، ص ٣٥٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الدينوري، الأخبار.

١٠٠. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٨ م) معجم البلدان، ج ٥، دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م، ج ٢، ص ٢٠٧. (مادة الحميمة). وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحموي، معجم.

١٠١. روي أن مروان لم يكن مستيقناً من دوره (إبراهيم).



شهد الموسم (الحج) عام إحدى وثلاثين (١٣١ هـ/٧٤٨ م) واشتهر هنالك لأنه وقف في أبهه عظيمة ونجائب كثيرة وحرمة وافرة، فأنهي ذلك الى مروان<sup>١٠٢</sup>. ولعل قتل الامام الذي نفذ بعيد ذلك، قد عجل في تنفيذ خطة الدعوة، بعد توظيفه باتقان من جانب أبي مسلم، تاركاً من التأثير أبلغه في نفوس اتباعه الذين اتشحو بالسواد<sup>١٠٣</sup> اللون - الشعار - بعد ذلك للدعوة (الدولة) العباسية. فقد انهارت حينذاك مقاومة الوالي الأموي (نصر بن سيار) اليائسة من خراسان مسهماً وزعيم اليمانية (الكرماني)، بدور كبير في إسقاط الولاية التي كانت على صورتها الشام، في مقاومتها اليائسة أيضاً، للثورات اليمانية، والعجز عن استعادة وحدة الجبهة الداخلية فيها. فكان المصير نفسه الذي لقيه نصر بن سيار، بانتظار مروان بن محمد، بعد أن فاجاه الزحف العباسي، وهو يخوض معركة أخرى على هذه الجبهة التي كانت شبه ساقطة في ذلك الوقت، دون أن يغير في الموازين ما قبل عن التفوق العددي لجيش مروان في معركة الزاب.

## (٤)

بعد سقوط خراسان، تحركت القوات العباسية، عبر خطين منفصلين، وإن تكاملاً في الهدف الرئيسي، أحدهما يقضي الى العراق والثاني الى الشام. ومن المفارقات أن يكون الموقف الداخلي، برغم التمايز الشديد في العهد الأموي، متساوياً أويكاد في الاقليمين من الزحف العباسي، الذي تصدت له في كليهما قوات السلطة، بينما كان الموقف العام في كليهما، يتسم بالبرودة، ربما مع شيء من الفارق في الشام، الا أنه لم يعبر في النتيجة عما يربط هذه الأخيرة من علاقة ولاء بالبيت الأموي، تزامنت مع ارتباطها بالاسلام، على نحو بدا من الصعب قبله، تصور الفصل بين هذا الارتباط وهذا الولاء. فقد كان الخلفاء الأمويون يستمدون قوتهم الاساسية من هذه المعادلة، دون أن يخامرهم قلق جدي إزاء الموقف السياسي في الشام، الأمر الذي سهل لهم مواجهة الاخطار التي احدثت بهم، وكان لبعضها من التهديد لدولتهم، ما يفوق ربما الخطر العباسي. ولكن التحدي هذه المرة، لم يكن مصدره الولايات المتنافسة مع الشام، والساعية الى استرداد السلطة منها (الحجاز والعراق)، وانما تجسد في مركز الخلافة، حيث أدى تفاقم المشكلات الداخلية المعقدة منذ «يوم المرج»، الى اهتزاز ذلك النمط الفريد، لاسيما النظرة «الواحدية» - إذا جاز التعبير - الى السلطة والعقيدة، والتأهب الدائم لتسوية شرعية الأولى مهما اقتربت من الثانية أو ابتعدت عنها.

١٠٢. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ/٢٣٧٢ م) البداية والنهاية، ١٤ ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥ م، ج ١٠، ص ٤٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية.

١٠٣. محمد بركات الحلبي، الدعوة العباسية (ثورة بني العباس عن الخلافة الاموية)، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٤٨.

ومن هذا المنظور، فإن ارتجاج الصيغة الشامية لم يكن مداره الصراع القبلي، على أهميته الكبيرة وما أحدثه من شروخ عميقة في كيان الدولة الأموية، ولكن ثمة عوامل فكرية كان لها إسهامها، ربما غير المباشر تماماً في ضرب هذه الصيغة وجعلها غير قادرة في النهاية على الاستمرار. فلم تكن الشام معزولة عن التيارات الفكرية التي كانت أكثر ترسباً في العراق، وإنما شهدت حركات لم تعدم، برغم دائرتها الضيقة، تأثيراً على المناخ الفكري، في جدلياتها المتعلقة ببعض المسائل الدينية، مثل «القدرية» التي بلغت ذروة المواجهة مع السلطة، ودعا «رأسها» غيلان الدمشقي إلى الثورة عليها، مما دفع الخليفة هشام إلى القبض عليه وصلبه<sup>١٠٤</sup>. كذلك «الجبرية»، ممثلة بأحد رموزها، الجعد بن درهم، الذي أقام في دمشق وتحدث في خلق القرآن، ثم رحل إلى الكوفة إثر تعقب الأمويين له، حيث قتل على يد والي العراق (خالد بن عبد الله القسري)<sup>١٠٥</sup>. ولا يتسع المجال هنا للخوض في موضوع الحركات الفكرية<sup>١٠٦</sup>، التي بدا أنها اتخذت حيزها الأوسع في عهد هشام، مستفيدة من اضطراب الأوضاع السياسية في ولايات الدولة، وانشغال الخلافة في ملاحقة المتمردين على السلطة المركزية، ولكن الهدف من ذلك؛ لا يتعدى الإشارة إلى انعكاس الحركة الفكرية على المناخ السياسي العام، لا سيما دورها في التحريض على الحكم الأموي والإسهام في ظهور تيار معارض له في الشام، برغم الشدة التي استخدمها الخليفة هشام في قمع مظاهر التمرد، سياسية كانت أم فكرية<sup>١٠٧</sup>.

ولكن المعارضة الشامية للأمويين (ثورات القبائل اليمنية) والانتقادات الجريئة للسلطة من جانب أصحاب المذاهب الفكرية، لم تحوّل دون العقاب الذي كان ينتظر الشام على أيدي المنتصرين العباسيين، برغم العداء الذي أظهرته الغالبية من قبائلها ضد الخليفة مروان الأخير. فقد تحدثت الروايات عن الاستباحة والصلب والتمثيل والمجازر الجماعية<sup>١٠٨</sup>، وإن أحيطت بكثير من المبالغة، إلا أن مثل هذه الممارسات الانتقامية، غالباً ما نفذته حركات عديدة في التاريخ، كانت تجنح في بدايات انتصارها نحو التطرف، كسبيل إلى تثبيت أوضاعها، فكيف بتلك التي تنطلق من فكر مخالف في الجوهر لفكر الدولة الثائرة عليها. لقد انتهى عهد بني أمية في المشرق وطوى التاريخ ذكر الأسرة الحاكمة السابقة، سوى تلك الصفحة التي أعيد فتحها في الأندلس، وأعجزت الدولة العباسية في ذروة القوة عن

١٠٤. ابن الأثير، الكامل، ج. ٥، ص ٢٦٢.

١٠٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٥٠.

١٠٦. انظر: في هذا السياق، حسين عطوان، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت ١٩٨٦ م. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عطوان، الفرق.

١٠٧. روى عن هشام قوله «أنه سيقطع رأس من يقول، اتق الله» عبد الرحمن الشراوي، أئمة الفقه التسعة، دار إقرأ، بيروت، ١٩٨١ م، ص ١٥. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الشراوي، أئمة.

١٠٨. فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ط ٢، ج ١، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٧، ص ١٣٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فاروق عمر، العباسيون.

طويها. بيد أن معاناة الشام لم تنتبه بسقوط خلافتها التي جعلت منها مركز الضوء نحو قرن من الزمن، وانتهت بعده الى التهميش، فالنسيان، ولكن ليس قبل أن تقاوم - لحين - الواقع الجديد، الذي كانت بصورة أو بأخرى خالصة ضالعة فيه.

وهكذا، فإن سقوط الشام والقضاء على الاسرة الحاكمة، لم ينزعا من النفوس ولاءها المزمين للأخيرة. وكان من البديهي أن يظل للأمويين، وهم من مارسوا «الملك» على نحو ما تألفه القبائل. وتستسيغه طريقة تنسجم ونمط حياتها الاجتماعية، التي لم يصبها تطور جذري في العهد الأموي، خلافاً للنمط «المدني» - إذا جاز التعبير - الذي أخذ يسود الدولة العباسية منذ أيام الخليفة المنصور. ولذلك، ما إن عادت السيوف الى أعمادها وأكادت، بعد انتصار العباسيين في «الزاب» وقتل مروان بن محمد، حتى تحركت النوازع في الشام، واستيقظت النفوس التي أبت الاستسلام للأمر الواقع. فقد اتخذت حركة الولاء للأمويين عدة أشكال في مقاومتها للسلطة العباسية، ولكن حركة السفيناني كانت الأكثر تعبيراً في دعوتها - المنطوية على خلفية دينية - إلى إحياء دولة الأمويين، الا أنها في النتيجة حركة سياسية و يغلب عليها هذا الطابع، خلافاً لأي منظور آخر، يميل الى غلبة الطابع الديني عليها، دون أن تكون هذه الفكرة سوى إطار لمشروع صاحبها الذي ناضل في سبيله على الأرض، متخذاً «السفينانية» مدخلا الى توحيد القبائل الشامية تحت قيادته.

ولعل الارهاصات الأولى لمقاومة أهل الشام، تجسدت في المحاولة التي قام بها احد احفاد هشام بن عبد الملك<sup>١٠٩</sup>، مستهدفاً قائد معركة الزاب المظفر (عبد الله بن علي) في «أربعة آلاف» من أنصاره، وهو في طريقه - أي القائد العباسي - لغزو الصائفة، فوجه اليه الأخير حميد بن قحطبة على مقدمته ومعه العباس بن زبيد، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أبان وأصحابه فيما يروي به البلاذري<sup>١١٠</sup>.

وكان من البديهي أن يبادر القيسيون الى المقاومة، وهم الذين قاتلوا كتلة الى جانب مروان، الا ان حركتهم لم تكن لها تلك الصبغة الأموية الظاهرة، بقدر ما كانت تتحكم فيها الدوافع المصلحية والذاتية. فقد ثار ابن الورد (١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م) وهو من أحفاد زفر بن الحارث الكلابي، أحد الشخصيات القيسية في عهدي معاوية وعبد الملك، بعد أن شكا له بعض أبناء مسلمة بن عبد الملك الذين كانوا ينزلون بجواره، ظلم قائد من اصحاب عبد الله ابن علي، فبادر الى قتله<sup>١١١</sup> ودعا أهل قنسرين، حيث اتخذ مقره، الى الثورة وخلع القائد

١٠٩. هو ابان بن معاوية بن هشام.

١١٠. البلاذري، انساب، ج ٣، ص ١٠٩.

١١١. روى البلاذري أنه كانت بجالس ابنه مسلمة بن عبد الملك، فخطبها عامل عبد الله بن علي وهو رجل من خراسان، فانضمت له وقالت اتهايا لك، وكتبت الى ابي الورد تستجيره، البلاذري، انساب، ج ٣، ص ٣٧.

١١٢. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٢٢؛ وانظر ايضا: البلاذري، انساب، ج ٣، ص ١٦٩ - ١٧٠.

العباسي، الذي سبق لأبي الورد ان بايعه فور هزيمة مروان<sup>١١٢</sup> بعد أن كان من خواص الأخيرة وأبرز الذين تولوا سابقاً ضرب الثورات اليمينية تحت رايته. وكان القائد العباسي حينذاك منهمكاً في التصدي لقيسي آخر (حبيب بن حرة المري) الذي ثار (بيض)<sup>١١٣</sup> في البلقاء، امتداداً الى حوران<sup>١١٤</sup>، حيث بايعته القبائل القيسية، وعلل ابن الأثير دافع حركته بـ«الخوف على نفسه وقومه»<sup>١١٥</sup>. ولقد تخرج موقف عبد الله وخشي إطباق الثائرين عليه، فآثر الدخول في صلح<sup>١١٦</sup> مع المري، كي يتفرغ لثورة الكلابيين وحلفائهم في قنسرين، حيث تتوافر معطيات جغرافية و بشرية للنجاح، لا توفرها ثورة حوران والבלقاء. وكان الوضع العام بصورة عامة يتجه نحو التعقيد، مشكلاً فرصة - ربما لن تتكرر - لمقاومة الحكم العباسي وتحقيق انتصار عليه. فما كاد عبد الله يبارح دمشق، بعد مروره بها وهو في الطريق الى حمص، حتى انتفضت حاضرة الأمويين بقيادة رجل من الأزد (عثمان بن عبد الأعلى بن سراقبة)<sup>١١٧</sup>، الذي شن مع أنصاره هجوماً على مقر عبد الله وممثله، في ظل ما وصفه الطبري بأنه «مقتلة عظيمة»<sup>١١٨</sup>. غير أن هذه الحركة، كما يبدو، اقتصر على قتل العامل العباسي آخرين معه، دون أن يعرضوا لأسرة عبد الله، ربما لأن هاجس الانتقام من جانب الأخير، قد منعهم من المضي بعيداً في حركتهم وتحقيق سلطة ذاتية في المدينة، لا سيما وأن اجتماعهم كان على خلاف كما وصفهم ابن الأثير<sup>١١٩</sup>.

ولعل الثورة على العباسيين في الشام، كانت تفقد الى حد أدنى من الوحدة والتنسيق بين المتمردين الذين تحركوا في ظل وحدات قبلية متطرفة، وليس في اطار شعبي واسع، مما جعل القائد العباسي، المقاتل المحترف والسياسي الذي يعد نفسه للخلافة، متاهباً لآخام هذه الثورة والقضاء على جيوشها بالسرعة القصوى.. ولذلك خسر الشاميون إحدى أهم السوانح المتاحة لتحقيق الثورة الشاملة على العباسيين، في وقت كانت العواطف مشحونة، والنفوس مأخوذة بالصدمة العنيفة، الناجمة عن الانهيار السريع للدولة الأموية. ولقد برز في ذلك الحين عنصر جديد ربما شكل، على غموضه، تحولا هاما في مسار الثورة، لا سيما في اتجاه إعادة الوحدة للجبهة الشامية، تمثل بخروج رجل من البيت الأموي، ولكن ليس من فرعه المرواني، عرف باسم أبي محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية<sup>١٢٠</sup>، وهو الملقب

١١٢. من المعروف ان هذه الكلمة استخدمت في حالة الثورة على العباسيين والراية البيضاء هي شعار الامويين في ذلك الوقت مقابل الراية العباسية السوداء.

١١٤. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٣٢؛ انظر ايضا: فاروق عمر، العباسيون الاوائل، ج ١، ص ١٣٢.

١١٥. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٣٢.

١١٦. المصدر نفسه.

١١٧. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤٣٢؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٣٢.

١١٨. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤٣٢.

١١٩. المصدر نفسه.

١٢٠. البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١٧٠؛ الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ١٣٨.

بالسفياني، بما لذلك من الأدلة على إحياء الشعور المتعاطف مع الأمويين وبعث دولتهم، مستغلا غياب الأمراء الروانيين، قتلا أو هرباً من الشام. وقد يتساءل المؤرخ عن حقيقة هذا الانتماء، بعد اجتهاد العباسيين في ملاحقة هؤلاء الأمراء، والعمل على أخماد الآمال بعودة الدولة السابقة، وهو موقف وجد تسويغاً في مقولة ابن المقفع: «أنه لم يخرج الملك من قوم الا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها»<sup>١٢١</sup>. فهل كان ابو محمد خارج عملية المطاردة، بسبب انتمائه للبيت السفياني الزائد نفوذاً منذ وقت بعيد؟ أم أنه اتخذ هذا اللقب لاعطاء قضيته مضمونا أكثر شمولية، بانتمائه للنوع المؤسس في الدولة الأموية؟ هذا اذا اسلمنا بصحة زعمه وتحدره في الأصل من هذا البيت.

ومهما تكن خلفيات اللقب الذي اتخذه ابو محمد وحقيقته، فان ظهوره بين قبيلة (كلب) على علاقة وثيقة بالفرع الأموي المؤسس، منطلقاً من أحد مراكزها الهامة (تدمر)، ثم تحركه نحو بؤرة هامة أيضاً لهذه القبيلة (حمص)، فان له انعكاساً بارزاً على ثورة أهل الشام، مترافقة أو مسبوقه بأحدث وتنبؤات<sup>١٢٢</sup> عن خروج هذا «المنقذ» السفياني، الذي سيعيد الأمور الى نصابها ويبعث الدولة الأموية تحت قيادته، وكان تزامن ظهوره مع حركة أبي الورد الكلابي في قنسرين، التي تشكل طرفاً لشبه مثلث، طرفاه الآخران في حمص وتدمر<sup>١٢٣</sup>، يعني انتشار الثورة في دائرة واسعة تعج بانصار الأمويين في الشام. فقد روي أن حوالي أربعين ألفاً قد انضموا الى السفياني، حين خرج الى قنسرين ملبياً دعوة ثأرتها الكلابي، ورافعاً الرايات الحمراء<sup>١٢٤</sup>، التي تفرد بها عن الآخرين من ثوار الشام في تلك المرحلة، إذ كان «البياض» شعارهم الذي ارتفع في دمشق وحروران والبلقاء، وفيما بعد في الجزيرة. وغيرها من الانتفاضات التي قاوت الدولة العباسية. ولا شك في أن العداء لهذه الأخيرة، قد جعل وحدة القبائل الشامية أمراً ممكناً، بعد استحالة ذلك في الأيام الأخيرة للدولة السابقة.

وهكذا تزعم السفياني الثورة التي انعقدت عليها آمال كبيرة في الشام، بينما كانت القيادة الفعلية<sup>١٢٥</sup> لقائد اليمينية أبي الورد، مقابل الاصبع بن نوابه الكلبي على الميسرة<sup>١٢٦</sup>. وكادت المعركة تحسم لصالح الشاميين، بعد انكشاف القائد العباسي عبد الصمد، أخي

١٢١. رسالة الصحابة. انظر: فاروق عمر، «الولاء»، ص ٥٨.

١٢٢. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ١٢٨؛ فاروق عمر، العباسيون الاوائل، ج ١، ص ١٢٢.

١٢٣. انظر: عبد المنعم ماجد، الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى، الطبعة الثانية، صفه ورسم خرائطه وحققه علي البنا، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م، خريطة رقم (٥).

١٢٤. البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١٠٧.

١٢٥. المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٨.

١٢٦. المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٠.

عبد الله الذي وجهته مع حميد بن قحطبة للقضاء على هذه الثورة، ولكن شجاعة عبد الله وثباته في المعركة غيرا موازينها لمصلحته، وأدى الى إنزال ضربة قاسية بالثائرين من أهل الشام<sup>١٢٧</sup>. ويبدو ان التلاحم بين هؤلاء كان واهياً، وكذلك الانسجام بين قادتها كان مفقوداً، مما أوقع التناحر بين السفيناني وأبي الورد، وربما انسحب ذلك على الجبهة بصورة عامة. فقد أشار الطبري الى نقض كلبية حمص للتحالف، وإيثارهم لأبي محمد (السفيناني)<sup>١٢٨</sup>. الذي أراد ابو الورد تهميشه، مما أيقظ العصبية مجدداً - وهي لم تخمد في الاساس - وأدى الى الهزيمة التي أصابت من القيسيين مقتلاً بعد مصرع قائدهم الكلابي في المعركة<sup>١٢٩</sup>. أما السفيناني، فقد اختفت آثاره حيناً حتى اكتشافه في الحجاز، ومقتله بعد ذلك على يد الوالي العباسي هناك (زياد بن عبيد الله الحارثي)<sup>١٣٠</sup>، ومن ثم صلبه مع ابنه حسب رواية البلاذري<sup>١٣١</sup>.

وفي الوقت الذي عادت فيه قنسرين وأهلها من القيسية الى الطاعة، وأمن عبد الله أهلها<sup>١٣٢</sup>، ظلت تدمر في تلك الفترة بؤرة للثورة التي حاول رفع رايتها بسام بن ابراهيم، وقد كان من رجال نصر بن سيار قبل انضمامه الى ابي مسلم وانخراطه في جيش قحطبة ثم في جيش عبد الله بن علي حين قدم الى الشام. ولأسباب انكرها عبد الله، لجأ بسام الى تدمر واتخذها مقراً لحركته ضد القائد العباسي. وقد نجح في دخولها بعد هزيمة الكلبيين، باعثاً برؤس قادتها الى خصمة الذي تمرد عليه، متظاهراً بأنه ما يزال على طاعته، بينما كان في الحقيقة يخفي عداً للعباسيين، ودوراً يتوق الى بلوغه، فلم يجد سبيلاً لذلك، بعد ان لقي المصير نفسه الذي سبقه اليه الآخرون، ممن رفعوا راية العصيان على الدولة الجديدة<sup>١٣٣</sup>. وقد امتد شريط الثورة بعد ذلك، ولكن مع تراجع لافيت في حركية المواجهة التي بلغت ذروتها مع السفيناني، إذ توافر لثورته من الشروط والعوامل المساعدة، ما لم يتوافر للثورات الأخرى التي قامت في حلب والجزيرة، واتخذت لها قيادات من الأسرة الأموية<sup>١٣٤</sup>، سواء صح ذلك، أم كان مجرد وسيلة لجذب انصار الدولة الأموية.

ولعل المقارنة في هذا التحرك المناويء للعباسيين في الشام، تأتي في إدراج بعض المؤرخين، حركة عبد الله بن علي، القائد الذي اغرق هذا الاقليم بالدماء ونسبت اليد المجزرة

١٢٧. وقعت المعركة في أحرذى الحجة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة للهجرة.  
البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١٠٧.
١٢٨. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ١٣٩.
١٢٩. المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٣٩؛ فاروق عمر، العباسيون الاوائل، ج ١، ص ١٣٥.
١٣٠. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ١٢٨.
١٣١. البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١٠٧.
١٣٢. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٣٤.
١٣٣. البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١٠٧.
١٣٤. فاروق عمر، العباسيون الاوائل، ج ١، ص ١٢٨.

المروعة في ابي فطرس<sup>١٢٥</sup>، بين ثورات أهل الشام على الحكم العباسي في تلك المرحلة. فهي حركة، تندرج أساساً - من حيث دوافعها وظروفها - في سياق الصراع على السلطة بين ابناء الاسرة الحاكمة، لا سيما بين رجليها القويين، أو بين رجل السياسة ورجل الحرب فيها، اعني بهما ابي جعفر المنصور وعبد الله بن علي. وهو صراع بدا حتمياً، في أعقاب الدور البارز الذي اكتسبه عبد الله في المعركة الحاسمة مع الجيش الاساسي للدولة الأموية، والذي كان يقوده الخليفة الشجاع، مما جعل لانتصاره على هذا الجيش في معقله الشامي، وما تبعه من قتل لمروان وتكريس لسقوط دولته، أهمية كبيرة، واعطى لشخصيته حضوراً ساطعاً في الدولة الجديدة، كان أكثر الذين ضاقوا به، المنصور، وهو المعروف بشدة الحذر وعدم الركون الى الشخصيات القوية. ومن هنا كانت العلاقة صائرة الى المواجهة الحتمية بين الاثنين، على النحو الذي انتهت اليه بعد ذلك - ربما مع بعض الفارق - بين الخليفة وأبي مسلم وآخرين أقوياء في مطلع العهد العباسي. ولذلك فان تصنيف حركة عبد الله ضد المنصور، في غير هذا الموقع والسياق، حركة سلطوية في الأساس، لا يعبر عن الحقيقة، ولا يغير هذه المعطيات، ان يكون مسرح حركته في الشام. فقد كانت ثمة عناصر مشتركة، من دون ريب، بين قائدها وهذا الاقليم، الذي تحول بدهاء الى المعارضة، بعد خروج الخلافة منه وسقوط دوره السياسي، مما جعله يبادر الى الانخراط في أية حركة تعلن التمرد على الحكم الجديد، سواء كان لها ذلك البعد الجذري، أم اقتصرت على أهداف مرحلية محددة، وكان العنصران الجغرافي والبشري اساساً لهذا الموقف المشترك بين أهل الشام والقائد العباسي الذي دفعه صراعه مع المنصور الى التحالف معهم، يسعى كل منهم إلى تحقيق أهدافه الخاصة به والمختلفة عن أهداف الآخر<sup>١٢٦</sup>.

والواقع أن هذه الحركة، تقع خارج الاطار المنهجي فضلاً عن السياق الزمني للدراسة التي يقتصر مداها من حيث المبدأ على تلك الفترة الانتقالية، بين سقوط الدولة الأموية، أو بداية سقوطها الفعلي في الشام، وبين قيام الدولة العباسية وانعكاساتها السلبية على هذا الاقليم. ولعل هذه الفترة كانت حافلة، بما يتجاوز كثيراً الأحداث المروية في المصادر، دون أن يقتصر ذلك على أخبار الشام في العهد العباسي المبكر، وإنما يصيب عهدها المرواني المتأخر الذي تركزت أخباره بصورة عامة على صراعات الخلفاء والقبائل من حولهم، وتجاهلت ما كان يجري وراء ذلك، وما يعد من خططيين أنها غير حديثة العهد في تلك المرحلة، وان فاجأت السلطة التي كانت أسيرة هواجسها المعروفة واستهانت بالقوة المترتبة بها من الداخل.

١٢٥. البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١٠٤.

١٢٦. عن اخبار ثورة عبد الله بن علي في الشام، انظر: البلاذري، انساب، ج ٢، ص ١٠٦. وما بعدها؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٦٤ - ٤٦٨؛ فاروق عمر، العباسيون الاوائل، ج ١، ص ١٢٨ - ٤٤٦.

وفي ضوء ما تقدم، فإن المعارضة الشامية، أو ما يسمى بالولاء الاموي في العهد العباسي<sup>١٣٧</sup> – واستطراداً – التشيع للأمم بين<sup>١٣٨</sup> بعد سقوط خلافتهم، لم يشكل خطراً جدياً على الدولة العباسية، التي كان عليها انتظار رياحه من جهات اخرى، لا سيما الشرقية منها، بعد زوال الهالة التي اكتسبها الخلفاء الأوائل عن جدارة، لا سيما بعد التصدي لمشروع الهيمنة على الدولة من جانب الفرس. وإذا كانت الثورة العباسية، قد أحدثت صدمة عنيفة في الشام، مؤدية الى وحدة شكلية بين بعض قبائلها (ثورة قنسرين) فان الانقسام القبلي كان أكثر تغلغلا في النفوس، والعصبيات ما انفكت تختلج بها الشرايين، على نحو كان يحول كلاهما دون قيام ثورة مضادة في الشام، في مستوى التحول الكبير الذي رافق انتقال الخلافة الى الأسرة العباسية.

١٣٧. فاروق عمر، «الولاء»، ص ٥٧-٥٩.

١٣٨. حبيب زيات، «التشيع لمعاوية في العصر العباسي»، مجلة المشرق، السنة السادسة والعشرون، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ع ٥ (أيار ١٩٢٨م)، ص ٤١٠-٤١٥.



## مصادر النظم في العصر العباسي وصورة الشام فيها\*

احسان عباس \*

قبل الأخذ في الحديث عن مصادر النظم، وعن قيمتها بالنسبة لتاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، لا بد من التوقف عند مصدرين يعدّان أصليين لكثير من الاتجاهات في التأليف عن النظم، وقد حسبا على النصوص الأدبية، ولكن فائدتهما التاريخية لا تقلّ بحال عن أهميتهما الأدبية، وهما: رسالة عبد الحميد الكاتب في نصيحة وليّ العهد<sup>١</sup> ورسالة ابن المقفع في الصحابة<sup>٢</sup>.

أما الأولى فإنها وإن لم تكن منتمة — على وجه الدقة — الى العصر العباسي إذ كتبت سنة ١٢٩ هـ/٧٤٦ م، فإنها — في الشق العسكري منها — تعدّ منطلقاً لما جاء بعدها من مؤلفات في النظم العسكرية حتى عصر المماليك، فقد أفاد منها المؤلفون في هذا الفن كثيراً<sup>٣</sup>، وهي لا تتحدّث مباشرة عن نظام عسكري يتعلق ببلاد الشام، بل تحتوي قواعد عامة في شؤون الحرب ونظام الجيش، ومع ذلك فإن كثيراً منها يصلح لغير العصر الأموي ولغير بلاد الشام، إلا أن كاتبها يستمد كثيراً من تلك القواعد لا من الأدب النظري العسكري. وحسب، بل من طبيعة الجيش الشامي في تجاربه المختلفة وفي ممارسة قاداته، وعلى الأخص ممارسة ذلك القائد العسكري الفذّ، مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في المشرق.

وأما الثانية فإنها تتطرق الى جوانب من وضع الشام وأهله لدى انتقال الدولة من الأموية الى العباسية إذ تصوّر طبيعة المعاملة التي عومل بها أهل الشام لدى حلول الدولة الجديدة، فقد حرّموا مما ناله غيرهم، وجعل فيئهم إلى غيرهم، ونحوها عن المنابر والمجالس والأعمال، ومنعت منهم المرافق<sup>٤</sup>، وابن

\* لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية.

٥ لا يتوقف هذا البحث عند كتب التاريخ وكتب التراجم وهي كثيرة، وإن مراجعة واحد منها كتاريخ دمشق لابن عساكر يتطلب وقتاً وجهداً كبيرين، ولا يجوز الاجتزاء بنماذج منه ومن غيره.

١. نشرت في رسائل البلغاء، اختيار وتصنيف محمد كرد علي، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٤٦، ص ١٧٣ — ٢١٠، وانظرها أيضاً في كتاب عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، دراسة واعداد احسان عباس، دار الشروق — عمان ١٩٨٨، رقم: ٢١ ص: ٢١٥ — ٢٦٥، وأصلها في اختيار المنظوم والمنثور لابن أبي طاهر طيفور.

٢. هي في رسائل البلغاء: ص ١٠٧ — ١٣٤ وأصلها في اختيار المنظوم والمنثور لابن أبي طاهر طيفور.

٣. انظر: أمثلة من ذلك في كتاب عبد الحميد بن يحيى الكاتب ص: ١٠٠ — ١١٦

٤. رسائل البلغاء: ص ١٢٨

المقفع يرى أن هذا كله جاء مبنياً على قاعدة القصاص أي أن أهل الشام كانوا يجرمون الناس ويستبدون بفيئهم ويحتكرون لأنفسهم المنابر والمجالس والأعمال والمرافق، ولست أناقش ذلك، ولكن من الواضح أن الحديث عن معاملة الدولة العباسية لأهل الشام لا يعتوره أي شك، فهو شهادة تصدر عن عارف بما حدث من تغيرات، وهو في الوقت نفسه موجه إلى الخليفة، ولو كان مظنة دعوى لما تجرأ الكاتب على رفعه إليه.

و يقترح ابن المقفع على الخليفة جوانبها من الإصلاح ومن السياسة، فأما الإصلاح فيتناول فيه النظام المالي حين يقترح أن لا يؤخذ من فيء أهل الشام شيء للخزانة العامة، بل أن يوزع فيؤهم على مستحقه، وما يفضل منه يجعل في النفقات. ومع غموض النص فإنه قد يعني النفقات التي يحتاجها القطر الشامي لإصلاح الطرق وإنشاء المؤسسات وغير ذلك، ويضيف ابن المقفع قوله «و يأمر لكل جند من أجناد الشام بعدة من العيالة يقترعون عليها ويسوي بينهم فيما لم يكونوا أسوة فيه في ما أمن من عيالتهم». وحاصل هذه العبارة قد يعني أن يخصص الخليفة لكل جند من الأجناد أرزاقاً عينية تقسم عليهم بالاقتراع، ثم يجعل ما تتساوى الأجناد في الحاجة إليه قسمة بينها بالسوية من غير اقتراع. وأما السياسة فإنها تقوم على المبادئ الآتية<sup>٥</sup>:

١. لا ريب في أن الدولة الجديدة كانت تخاف أهل الشام وتحسب لهم كل حساب، لأنهم ينطون على معاداة لها، ولكن من حسن المعاملة ألا يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة، كما أنه ليس من الطبيعي أن يظل يرجو تحولهم السريع إلى محبته (دون إزالة أسباب العداوة أو تناس لها).

٢. ينصح أمير المؤمنين أن يختار منهم خاصة يرجو صلاحهم، أو يعرف فيهم النصيحة والوفاء، وبذلك يفصلهم عن جمهور أهل الشام، ويضمن ولاءهم للدولة، (فيكفل السيطرة على غير المحبين للدولة بتأثير تلك النخبة التي اختارها).

٣. كان ابن المقفع يعتقد أن الكثيرين كانوا يتخوفون من لجوء الشاميين إلى النزوات، ولكن السبيل إلى كف نزواتهم هو معاملتهم بالحق، وإذا بقيت بقية منهم تفيء إلى النزوات، فسيكون في ذلك نفسه — على الزمن — استفراغ لجهودهم، «وأنه لم يخرج الملك من قوم الأبقيت فيهم بقية يتوثبون بها، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم لهم وتدويحهم»<sup>٦</sup>.

وعلى الرغم من أهمية ما يقوله ابن المقفع في الآثار الناجمة عن تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، وجعل بغداد مركزاً لها بدلاً من دمشق، فإن ما ذكره ليس إلا جانباً يسيراً من تلك الآثار الكثيرة، وما دام الحديث هنا عن مصادر النظم فإن أهم ما يتعلق بهذا الموضوع أمران: أولهما: ضياع

٥. المصدر السابق نفسه.

٦. رسائل البلغاء: ص ١٢٩

الوثائق الأموية مما أفضى الى فقدان المعلومات الواقعية عن دواوين الدولة ونظمها في الميادين المختلفة من عسكرية وادارية ومالية وغيرها. وثانيهما: تحول الشام الى نجم صغير يدور في فلك خلافة بغداد، وهذا يعني أن ما كتب في النظم على اختلافها انما كان يدور في المقام الأول حول العراق وحول عاصمة الدولة بوجه خاص.

وكتب النظم قد تكون نظرية، تحاول أن تضع القواعد والأصول لهذا النظام أو ذاك بغض النظر عن الساحة المكانية التي قد ينتمي اليها ذلك النظام، ومن أمثلتها الكتب المؤلفة في قواعد الخلافة والسلطنة مثل الأحكام السلطانية للماوردي<sup>٧</sup>. وصنوه في الموضوع نفسه كتاب لأبي يعلى<sup>٨</sup>، ويشبه أن يكون الكتابان كتاباً واحداً. وكتاب في قوانين الوزارة للماوردي أيضاً<sup>٩</sup>، وكتاب تحفة الوزراء المنسوب الى الثعالبي<sup>١٠</sup>. والوزارة لا تفصل عن الخلافة ولذلك كان التركيز كله على مركز الخلافة، ومع أن الماوردي ومؤلف التحفة يوردان أمثلة على القواعد، وأقوالاً حكمية مستمدة من تجارب سابقة، فان طبيعة الموضوع والانتماء البلداني لكل من المؤلفين، لا بد أن يصر فهما عن النظر الى الشام، إلا إن جاء ذلك عرضاً. ويلحق بهذه الكتب ما ألف في قواعد الآيين، وهي وان كانت تفرق عن النوع الأول بأنها قواعد تتعلق بتطبيقات عملية فانها تكاد لا تتعدى في مضمونها ما يجري حول الخليفة وما يتصل به من أسباب، وقد وصلنا كتاب واحد بعنوان «رسوم دار الخلافة» لـهلال الصابى<sup>١١</sup>، وهو كتاب مهم يصور عظمة الخلافة العباسية في ارتفاعاتها ونفقات الخلفاء وآداب الخدمة وقوانين الحجابة ورسوم المكاتب والألقاب وغير ذلك من الرسوم. ومع أن المؤلف يلجأ في بعض المواطن الى الاستشهاد ببعض الحوادث الواقعية، فإنه لا يستمد في اسنهاداته أحداً مسرحها الشام، ولعل ولاءه للإمامة العباسية والدعوة الهاشمية<sup>١٢</sup> وطبيعة الموضوع نفسه، كل ذلك جعله بمنأى عن قلمه، فلم يَجْرِ ذكر الشام أو ما يتصل بها في الكتاب كله الا مرة واحدة اذ قال: وكان الهليون يُحْمَلُ إلى المعتصم بالله صلوات الله عليه من دمشق في المراكن الرصاص فتصل في اليوم السادس<sup>١٣</sup> فدلت هذا

٧. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية أو الولايات الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٠.
٨. أبو يعلى الفراء محمد بن الحسين، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٣٥٧.
٩. أبو الحسن الماوردي، قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق ودراسة رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٩.
١٠. أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحفة الوزراء تحقيق رجبينا هانكة بيروت ١٩٧٥، وطبع مرة ثانية ببغداد، ١٩٧٧، بتحقيق حبيب علي الراوي وابتسام برهان الصفار.
١١. أبو الحسين هلال بن الحسن الصابى، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد ١٩٦٤. وقد نقله ايلي سالم الى الانجليزية.
١٢. انظر رسوم دار الخلافة: ص ٥-٦.
١٣. رسوم دار الخلافة: ص ١٧-١٨.

الخبر على ثلاثة أمور: شهرة الشام بنبات الهليون، واستعمال المراكب (المواعين) من الرصاص، وتقدير المسافة الزمنية بين دمشق وبغداد— على أساس السرعة الشديدة.

ومما ينتمي الى هذه الكتب النظرية في النظم: الكتب المؤلفة في قواعد الجندية والحياة الحربية، وقد ذكر ابن النديم عدداً منها ما ورثه العرب عن الفرس وغيرهم وترجموه، ومما ألفوه<sup>١٤</sup>، ومنها كتاب عبد الجبار بن عدي في آداب الحروب وصورة العسكر ألفه للمنصور، وكتاب الخليل للهريثي في الحروب ألفه للمأمون<sup>١٥</sup>، وقد وصلنا من هذا الكتاب الثاني مختصر صغير يدل على تأثر المؤلف برسالة عبد الحميد الكاتب الى وليّ العهد.

وأما كتب النظم التي تعتمد الواقع التاريخي فهي أصناف متعددة ومن أهمها:

### ١. الكتب التي تتحدث عن الوزراء والكتاب:

وبهذا التحديد يقع خارج نطاقها كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٦/٨٨٩)<sup>١٦</sup> لأنه ينصرف في أكثره الى اللغة، وكتاب أدب الكتاب لأبي بكر محمد ابن يحيى الصولي (ت ٣٣٦/٩٤٧)<sup>١٧</sup> لأنه يتناول في معظمه شؤون الكتابة من خط وقلم ودواة وقرطاس واملاء، الا أن فيه فصلاً يحتاج الكاتب الى معرفتها كالحديث عن تحويل الدواوين الى العربية، وعن وجوه الأموال التي تحمل الى بيت المال، وأحكام الأرضين والقطائع والجزية والخراج، ومن أهم ما ورد لديه مقادير ارتفاع أجناد الشام: قنشرين ودمشق والأردن وفلسطين (وهو يسميها مدناً) أيام معاوية، فلذلك يصلح أن يقارن بما صار اليه ارتفاع الشام من بعد في الدولة العباسية<sup>١٨</sup>.

وفي هذا السياق نفسه يقع كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب<sup>١٩</sup>، فهو يختلف عن الكتابين السابقين في اضطلاعهما بالحديث في شؤون البلاغة من زوايا مختلفة، وحين يحاول أن

١٤. أبو الفرج محمد بن اسحاق النديم: كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران ١٩٧١، ص ٣٧٦—٣٧٧.
١٥. مختصر سياسة الحروب للهريثي صاحب المأمون، تحقيق عبد الرؤوف عرن، المؤسسة المصرية العام (دون تاريخ)، وهذا القدر الذي يمثله المختصر— مع أنه مقسم في أربعين باباً مبنية على الاختصار— ليس الا قطرة من بحر الكتاب الأصلي الذي جعله المؤلف في مقاليتين: أولى من ٣ أجزاء الأول فيها ٢٠ باباً فيها ٢٦٤ مسألة والثاني فيه أبواب فيها ٤٢ مسألة والثالث ٢٤ باباً تحتوي ١٤٤ مسألة.
- ومقالة ثانية من ٣٦ فصلاً، فيها ١٠٢٥ باباً.
١٦. بتحقيق Max Grunert بريل، ليدن، ١٩٠٠.
١٧. حققه محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١.
١٨. أدب الكتاب: ص ٢١٦—٢١٧ وانظر: الجدول المرفق بهذا البحث.
١٩. أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم ابن وهب الكاتب (ترجيحاً من رجال القرن الرابع): البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديشي، بغداد ١٩٦٧.

يتحدث عن البيان بالكتاب (أي بالكتابة) يتعرض لمختلف صنوف الكاتبتين : مثل كاتب العقد، وكاتب العامل، وكاتب الحكم، وكاتب صاحب المظالم، وكاتب الديوان، وبما أن هذا الأخير يحتاج الى أن يعرف وجوه الأموال فانه يخصص فصلاً لدراسة تلك الوجوه ودراسة أنواع الأراضى . و يكاد المؤلف يشمل أهم موظفي الدولة كصاحب الشرطة وصاحب الخبز والحاجب والوزير (أو كاتب التدبير) وهمه تجديد الوظيفة ورسم أهم الأحكام المتعلقة بها التي يحتاج الكاتب الى أن يحكم معرفتها، وبهذا الشمول يلتقي البرهان مع كتب الخراج والأموال وكتب الأحكام السلطانية وقوانين الوزارة .

وبعد تنحية هذه المصادر يتبقى مصدران مهمان في الوزراء والكتاب وهما :

١ . الوزراء والكتاب لمحمد بن عبدوس الجهشيارى (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) ٢٠ وهو كتاب بالغ القيمة، يتحدث عن الكتاب والوزراء حتى أواخر المائة الهجرية الثالثة، وكان مؤلفه من رجالات الدولة العباسية، وقد شغل وظائف مختلفة، فهو يتحدث حديث العارف الذي يستطيع أن يضع يده على الوثائق والمراسلات والمصادر الأصلية، غير أن الكتاب لم يصلنا كاملاً، إذ ينتهي بعد سرد طرف من أيام المأمون، وهناك نُقول منه مبعثرة في بعض المصادر، وقد قام ميخائيل عواد بجمع ما وجده من القسم الضائع ونشره بعنوان «نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب» ٢١ .

و يقدم الجهشيارى لقارئه معلومات مهمة وإن لم تكن كثيرة نسبياً، فبالإضافة الى الأخبار عن القلق السياسي في فلسطين وسوء سياسة أحد ولايتها أيام أبي جعفر ٢٢ ثم عن فتنة برزت على أساس العصبية أيام الرشيد، وكل الى جعفر البرمكي إطفاء نارها ٢٣ نجد صوراً لأموار إدارية وغيرها تتعلق بالشام، فمنذ البداية، أي منذ أيام السفاح، وضع العباسيون أيديهم على ضياع مروان وآل مروان ٢٤ ومن أبرز تلك الضياع المنطقة التي تضم الهني والمزي وهي مما استحدثه هشام بن عبد الملك، وقد أراد الهادي أن يهبها لأخيه الرشيد كي يضمن تنازله عن العرش ٢٥ . ولم تكن الشام وحدة إدارية مستقلة في ذاتها، بل كانت في أيام الرشيد جزءاً من المغرب كله من الأنبار الى افريقية ٢٦، وكان ديوان خراجها في أيام الهادي مجموعاً الى دواوين خراج ما يليها من البلاد تحت

٢٠ . نشر بتحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شليبي، القاهرة ١٩٣٨ .

٢١ . كان عواد قد نشر تلك النصوص في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٣ ثم جمعها مع اضافات في كتاب، طبع

بدار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٤ .

٢٢ . الجهشيارى، ص ١٣٤، ١٣٧ .

٢٣ . الجهشيارى، ص ٢٠٨ .

٢٤ . الجهشيارى، ص ٩٠ .

٢٥ . الجهشيارى، ص ١٦٩ .

٢٦ . الجهشيارى، ص ١٥٠ .

إدارة وال واحد<sup>٢٧</sup> وكذلك ديوان زمامها<sup>٢٨</sup>، وكذلك البريد فقد كان بريد الشام منذ أيام أبي جعفر يضم أيضاً بريد الجزيرة و بريد مصر<sup>٢٩</sup> وأحياناً كان ديوان خراج الشام يجمع مع ديوان العراقيين<sup>٣٠</sup>، وفي حالات أخرى كانت سلطة صاحب الخراج تتسع فيضم الى ديوان الشام دواوين الخراج في افريقية والموصل وأرمينية وأذربيجان والمدينة ومكة واليمن<sup>٣١</sup> وهذا يزيد من اعتبار المغرب كله وحدة واحدة. وكل هذه الأخبار تشير إلى وال عام قد يظل يدير المنطقة وهو لا يبارح العاصمة، فأما صورة الولاة الذين تحت امرته، والذين يعملون محلياً في الأجزاء الصغيرة من ولايته العريضة، فليس لدى الجهشيارى - في ما تبقى من كتابه - صورة عنهم وعن طبيعة أعمالهم.

ولدى الجهشيارى بعض معلومات حضارية تمنح الشام بعض التميز: مثل استعمال الكتاب للدويّ الشامية<sup>٣٢</sup>، أو إقبال الناس على الكعك الشامي وهو كعك يغمر بالماء مدة و يؤخذ في السحور فينفع من العطش<sup>٣٣</sup> (وقد كان من المتوقع أن نجد في رسوم دار الخلافة شيئاً من المصنوعات الشامية المتقنة، ولكن المؤلف لا يذكر شيئاً منها).

٢. الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابىء (ت ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م): كان كالجهشيارى من رجال الدولة يستطيع الاطلاع على الوثائق الرسمية والافادة منها، وقد اطلع على كتاب الوزراء للصولي، كما اطلع على كتاب الجهشيارى وأراد لكتابه أن يكون تنمة للثاني. وللشام في كتابه صورة تكمل ما أورده الجهشيارى<sup>٣٤</sup> وبخاصة في النواحي الادارية المالية، وأول ما يلفت النظر لديه عبارة «الشام وأجنادها» كأنهما شيثان منفصلان. وحين أصبح لمخاطبة الولاة رسوم خاصة في الخطاب أيام المقتدر أصبح الدعاء في الكتب لأمير الشام وأجنادها على النحو التالي<sup>٣٥</sup>: «أعزك الله وأمد في عمرك وأتم نعمته عليك واحسانه اليك»، بينما كان الدعاء لأمرء الثغور الشامية ومثلهم في ذلك من تقلد ديار ربيعة وديار مضر مفرداً «مد الله في عمرك وأكرمك وأتم

٢٧. الجهشيارى، ص ١٦٧، ١٦٩.

٢٨. الجهشيارى، ص ١٦٨.

٢٩. الجهشيارى، ص ١٠٠، ١٠١.

٣٠. الجهشيارى، ص ١٧٧.

٣١. الجهشيارى، ص ٢٧٧.

٣٢. الجهشيارى، ص ١٣٢.

٣٣. الجهشيارى، ص ١٠٢.

٣٤. أبو الحسن هلال بن الحسن الصابىء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة ١٩٥٨.

٣٥. الصابىء، ص ١٧٣.

نعمته عليك واحسانه اليك»<sup>٣٦</sup>، و يؤخذ من أخبار الصابي أنه كان للشام (مجموعة مع مصر) مشرف<sup>٣٧</sup> ويمكن، أن تستتج مهمة المشرف من قول الخليفة المقتدر لمؤنس «انك أن أقمّت لم يُرج مالٌ ديار مضر وربيعة والشام... والصواب أن تخرج الى الرقة فانها واسطة أعمالك، وعمال الخراج والمعاون بمصر والشام يهابونك و يراقبونك، ويحملون الأموال مراعاة لك وخوفاً منك»<sup>٣٨</sup> فإذا صح أن هذا هو دور المشرف يكون عمله الاشراف على جمع المال من الولايات، والرقابة على عمال الخراج والمعاون. وهذه وظيفة غير وظيفة الضامن، الذي كان فيما يبدو يتقبل مجموع الأموال المطلوبة من الشام (ومعها مصر)<sup>٣٩</sup> وبينما كنا نجد الشام لا تفرد بوال واحد لدى الجهشياري، نجد لها عند النصابي عاملاً مفرداً في أيام المقتدر، ولمصر عاملاً آخر، وللغور الشامية عاملاً ثالثاً ولديار مضر وربيعة عاملاً رابعاً<sup>٤٠</sup>، بل يمكن أن يفصل عنها جند قنسرين والعواصم و يكون له عامل خاص به<sup>٤١</sup>، بخلاف المشرف أو الضامن الذي كان يمكنه الجمع بين عمليين.

## ٢. كتب الأموال والخراج

١. كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف (ت ١٨٢ هـ/٧٩٨ م)<sup>٤٢</sup>.
٢. كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ت ٢٠٢ هـ/٨١٨ م)<sup>٤٣</sup>.
٣. كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ/٨٣٧ م)<sup>٤٤</sup>.
٤. كتاب الأموال لابن زنجويه (ت ٢٥١ هـ/٨٦٥ م)<sup>٤٥</sup>.
٥. كتاب الخراج لقدماء بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م)<sup>٤٦</sup>.

٣٦. المصدر السابق نفسه.
٣٧. الصابي، ص ٣٣٥، ٣٤٨.
٣٨. الصابي، ص ٥٣.
٣٩. الصابي، ص ٥١.
٤٠. الصابي، ص ٣٣٥، ١٧٣.
٤١. الصابي، ص ١٠٦.
٤٢. طبع عدة مرات وآخر طبعة صدرت عن دار الشروق بيروت ١٩٨٥ بتحقيق احسان عباس.
٤٣. حققه أحمد محمد شاكر، مصر، ١٣٤٧، ثم طبعته دار المعرفة ببيروت، فيما أسمته موسوعة الخراج وجمعت اليه كتاب أبي يوسف وكتاب ابن رجب الحنبلي.
٤٤. على الرغم من أن أموال أبي عبيد طبع مرات، فانه لم ينل حتى الآن العناية اللازمة وآخر طبعة صدرت عن دار الشروق - القاهرة، ١٩٨٩، بعناية محمد عمارة.
٤٥. صدر في ثلاثة أجزاء بتحقيق شاكر ذيب فياض، الرياض ١٩٨٦.
٤٦. يقع هذا الكتاب في ثماني منازل ضاعت المنازل الأربعة الأولى منه، وقد قام بتحقيق ما تبقى منه محمد حسين الزبيدي، بغداد، ١٩٨١، واعتنى بتحقيق المنزلة الخامسة طلال جميل الرفاعي، مكة المكرمة ١٩٨٧، وقد قام مصطفى الحياوي بتحقيق السياسة من كتاب الخراج، وهي المنزلة الثامنة، عمان ١٩٨١، ثم بتحقيق الدواوين من كتاب الخراج، عمان، ١٩٨٦، وقام فؤاد سزكين بتصوير مخطوطة كوبريلي في استانبول رقم ١٠٧٦، فرانكفورت، ١٩٨٦.

تتقارب هذه الكتب (باستثناء كتاب قدامة) في اهتماماتها، اذ تتجه نحو إبراز الأصول التي وضعت في الجزية والخراج، وأحكام الأرضين وشؤون الزكاة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وأيام الخلفاء الراشدين وبخاصة ما أجراه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في هذه الأمور، وما تقرّر بناءً على ذلك من أحكام. ولما كان السواد نموذجاً (خلافياً) في النظرة إلى الأرض والخراج معاً فقد أولوه العناية الكبرى، وقاسوا عليه سواه من الأرضين، ولهذا ليس للشام موقع خاص عند أبي يوسف، إلا إن كانت تتعلق بحكم أيام عمر أو خضعت لبعض الاجراءات في الأيام الأموية كالتعديل الخراجي الذي أجراه عبد الملك<sup>٤٧</sup> وجرى على ممارسته خلفاء بني العباس. فأما الشام في الدولة العباسية فلا ذكر لها لدى أبي يوسف، ولا لدى يحيى بن آدم الذي لا يبعد عنه كثيراً في الزمن، وقد جرى على هذه القاعدة أبو عبيد القاسم وتلميذه ابن زنجويه، ويكاد كتاباهما أن يكونا كتاباً واحداً، عمداً فيهما أيضاً الى وضع الأسس في الشؤون المالية والاقتصادية كما تبلورت أيام الرسول، صلى الله عليه وسلم، ورسخها الصحابة والتابعون، ولكن حدثت في الأيام العباسية حادثتان استدعتا استطلاع آراء الفقهاء فيهما، وهاتان الحادثتان هما :

أ ( في عصر الأوزاعي أحدث الناس بجبل لبنان حدثاً، وكان والي الشام يومئذ صالح ابن علي فجارب الشائرين وأجلاهم، فكتب اليه الأوزاعي ينتقد فعله لأنه طبق «عقوبة جماعية» من أجل ذنب ارتكبه أناس بأعيانهم، ولذلك فهو ينيبه إلى وجوب حفظ العهد وعدم ايقاع الظلم بالمعاهد، «فانهم ليسوا ببعيد فتكونوا في تحويلهم من أرض الى أرض في سعة ولكنهم أحرار أهل ذمة»<sup>٤٨</sup>.

ب ( قام بعض أهل قبرص باجتراح حدث أيام ولاية عبد الملك بن صالح الشغور، فعّد عبد الملك ذلك نقضاً للعهد، فاستشار الفقهاء في ذلك، فكان ممن كتب إليه في تلك الحادثة الليث بن سعد وسفيان بن عيينة ومالك بن أنس وموسى بن أعين واسماعيل بن عياش ويحيى بن حمزة ومحمد بن حسين<sup>٤٩</sup>، فأشار عليه الليث بامهالهم سنة حتى يلحقوا ببلاد المسلمين وله بعد ذلك أن يحارب من بقي منهم في الجزيرة، ورأى سفيان أن ما فعلوه نقض للعهد، وأن ذلك يبيح محاربتهم، ولكن أكثر الفقهاء مالوا في فتاويهم الى عدم محاربتهم حتى يثبت غنرهم، فقال اسماعيل بن عياش : «وأنا أرى أن يقرروا على عهدهم وذمتهم» وقال موسى بن أعين : «ولعل جماعتهم لم تماليء على ما كان من خاصتهم واني أرى الوفاء لهم، واطمأن تلك الشروط وان كان منهم الذي كان».

٤٧. أبو يوسف، ص ١٣٩ وفي هذا التعديل وحدّ عبد الملك الجزية، وعامل الأرض والزروع بحسب قربها أو بعدها.

٤٨. أموال أبي عبيد، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ وابن زنجويه ١، ص ٤١٩ - ٤٢١.

٤٩. أموال أبي عبيد، ص ٢٦٤ - ٢٦٨ وابن زنجويه ٢، ص ٤٢١ - ٤٢٧.



وقد يبدو لأول وهلة أن هاتين القضيتين سياسيتان ولا علاقة لهما بالكتب التي تهتم بشؤون الأموال، ولكن إذا تذكرنا أن القضيتين تتعلقان بفئتين تدفعان الجزية، ويفترض دفعهما الجزية وجود عهد وذمة ازاءها، فإنهما على هذا غير بعيدتين عن نطاق تلك الكتب، وبخاصة وأنهما يقاسان على سنة سابقة، وتصبح فتاوي الفقهاء تأكيداً لتلك السنة أو اطمئناناً إليها.

والى هذا الحد يتجلى لنا أن شؤون الأموال والمصادر التي تتحدث عنها إنما كانت تصدر عن دائرة الفقه والفقهاء، ولهذا يقف كتاب الخراج لقدامة مفارقاً لكل ما جاء قبله من مصادر، فهو حصيلة التجربة العملية تحت ضغط اتجاه التطور الذي كانت تستدعيه أوضاع الدولة في استخراج الأموال وفي اتساع البناء البيروقراطي؛ نعم إنه لا يهمل القواعد الأصلية المتصلة بالأرض والقطائع والجزية والصدقة ولكنه في الوقت نفسه يتحدث عن الدواوين المختلفة في عصره، وهو يشارك الجغرافيين بذكر البريد والطرق وقسمة العالم إلى أقاليم، وفي ذكر البحار والجبال والأنهار والعيون، ويعقد فصلاً خاصاً بدار الاسلام وأقسامها وثغورها، ويشارك المؤرخين في ذكر الفتوحات معتمداً في الأكثر على فتوح البلدان للبلاذري.

فاذا تعرض للشام ذكر الأجناد وأعمالها وارتفاع كل جند والثغور البحرية وكيفية الاعداد لكل حملة بحرية بالمشاركة بين أسطول الشام وأسطول مصر، وذكر الفصل الصالح للغزو بجرأ وبرا والطرق والمسافات في بلاد الشام<sup>٥٠</sup>.

### ٣. كتب الجغرافيا:

#### (أ) القرن الثالث

١. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله: المسالك والممالك<sup>٥١</sup>.
٢. ابن الفقيه، أحمد بن ابراهيم الهمداني: مختصر كتاب البلدان<sup>٥٢</sup>.
٣. اليعقوبي، أحمد بن واضح (حدود: ٢٨٤) كتاب البلدان<sup>٥٣</sup>.

#### (ب) القرن الرابع:

١. الاصطخري، ابراهيم بن محمد: المسالك والممالك<sup>٥٤</sup>.
٢. ابن حوقل، أبو القاسم علي: صورة الأرض<sup>٥٥</sup>.

٥٠. الخراج لقدامة (الزبيدي)، ص ١٧٧، ١٧٨، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٢، ١١٧-١١٨.
٥١. تحقيق دي خويه، بريل، ليدن، ص ١٨٨٩ ومعه نبذة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر.
٥٢. تحقيق دي خويه، بريل، ليدن، ص ١٨٨٥.
٥٣. تحقيق دي خويه، بريل، ليدن، ص ١٨٩٢ طبع تالياً للأعلاق النفيسة لابن رسته.
٥٤. تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة ١٩٦١، وكان دي خويه قد حققه ونشره سنة ١٨٧٠.
٥٥. حققه دي خويه، وعن طبعته أعيد نشره بدار الحياة- بيروت، دون تاريخ.

٣. المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م): أحسن إحصاسيم<sup>٥٦</sup>.

تتفق هذه المصادر في النطاق العام وهو الاهتمام بالشؤون الجغرافية عند الحديث عن بلاد الشام، ولهذا يتحدث معظمها عن الأقسام الجغرافية للأقليم سواء أكانت مبنية على القسمة الادارية أم لا، ومعظمها يذكر الأجناد الخمسة: قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين، الا أن المقدسي لا يستعمل كلمة أجناد، وإنما يعد هذه الخمس كوراً ويضيف اليها كورة الشراة<sup>٥٧</sup>، ولعل تفسير ذلك أن المقدسي كان يكتب وهو يرى أن منطقة البلقاء (الشراة) كانت مفصولة إدارياً عن جند دمشق. غير أن استعماله لفظة «كورة» بدل جند أمر محير، إذ الكور عند غيره من الجغرافيين هي المناطق الادارية التي يضمها الجند الواحد. وعند ابن الفقيه أن الأجناد الشامية أربعة لا خمسة هي حمص ودمشق وفلسطين والأردن، أما قنسرين فانها ليست من الشام<sup>٥٨</sup>، وتُغنى هذه المصادر بذكر ما يحتويه كل جند (أو كل كورة) من مدن وذكر المعالم المهمة في كل مدينة، و يتميز البعقوبي بذكر سكان كل مدينة والى أين ينتمون، «فحماة أهلها من يمن والأغلب عليهم بهراء وتنوخ، وأهل حمص جميعاً من من طيء وكندة وحمير وكتب وهمدان وغيرهم من بطون اليمن...» وهكذا<sup>٥٩</sup>. وتهتم هذه الكتب أيضاً بذكر الطرق والمسافات، كما أن معظمها يشير الى الارتفاع الكلي لكل جند.

و يتميز المقدسي بوصفه لأبهم الحاصلات والعادات وبعض المظاهر الاجتماعية الأخرى، ويرصد حركة الصادر والوارد وحركة النفير والفداء في الثغور، كما يتميز ابن حوقل بالاهتمام بالأوضاع السياسية، وتقلبات الأحداث وأثرها في النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

أما ابن الفقيه فانه على الرغم من أنه يكثر من ايراد المأثورات والأحاديث والأساطير المتصلة بفضائل البلدان يتفرد في أمور مختلفة منها حديثه عن تخطيط الرملة، ودقة وصفه لمسجد بيت المقدس، وما يحتاجه من مواد وخدمات، (فيه ٤ منابر للمطوعة وواحد للمرتزقة و٤ مياضي، و٧٠٠ عمود و٥٠٠ سلسلة نحاس، و١٦٠٠ قنديل، ويحتاج ١٠٠ قسط من زيت كل شهر، و٨٠٠٠٠٠٠ ذراع من الحصر كل سنة، و٢٥٠٠٠ حب من الماء، و١٦ تابوتاً للمصاحف المسبلة و١٤٠ خادماً)<sup>٦٠</sup>، وهناك دقة غالبية في المعلومات فمدينة صور منبرها الى دمشق وخراجها الى الأردن<sup>٦١</sup>.

٥٦. تحقيق دي خويه، بريل، ليدن، الطبعة الثانية ١٩٠٨.

٥٧. أحسن التقاسيم، ص ١٥٤.

٥٨. مختصر كتاب البلدان، ص ١٠٩.

٥٩. كتاب البلدان، ص ٣٢٤.

٦٠. مختصر كتاب البلدان، ص ١٠٠.

٦١. مختصر كتاب البلدان، ص ١٠٥.

## ٤. كتب الحسبة :

١. كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزري (حوالي ٥٨٩هـ/١١٩٣م)<sup>٦٢</sup>.
٢. معالم القرية في أحكام الحسبة لابن الأخوة محمد بن محمد بن أحمد القرشي (٧٢٩هـ/١٣٣٨م)<sup>٦٣</sup>.
٣. نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام محمد بن أحمد (القرن الثامن)<sup>٦٤</sup>.

تشابه هذه الكتب كثيراً فكأنها كتاب واحد، وسبب هذا التشابه في اعتقادي ليس لأن مؤلفاً أخذ عن الآخر، بل لأن هناك «تعليمات» موحدة في المهمات التي يقوم بها المحتسب، وأقدر أنها صيغت قبل الشيزري، وأن هؤلاء المؤلفين الثلاثة اعتمدوا على تلك التعليمات الموحدة المتوارثة، وكانوا في حاجة إلى حفظ بعض الفروق بينهم بسبب اختلاف البلدان، فهناك أمور وعدادات في الشام لا توجد في مصر، فإذا كان المؤلف مصرياً مثل ابن الأخوة غلب عليه التنويه بعرف بلده ومواضعه وهكذا.

وهذه الكتب الثلاثة متأخرة عن الفترة التي يتناولها هذا المؤتمر الخامس، ومع ذلك فإن هذا التأخر لا يضير كثيراً، لأن هذه الكتب في الدرجة الأولى معرض لأحكام وليست تتقل لنا ممارسات واقعية للمحتسب وأعوانه، وإذا لم تنقيد بزمن، لم يكن اعتمادها مضللاً.

وأول سؤال يخطر على الذهن هو: هل شهدت بلاد الشام نظاماً للحسبة؟ والاجابة على هذا السؤال تقديرية— أول الأمر— اذ لا يعقل أن يكون في البلاد الاسلامية الأخرى نظام للحسبة، وتحرم منه بلاد الشام، غير أن كتاب الشيزري يقدم لنا شاهداً واحداً عن وجود هذا النظام، وهو شاهد مهم للخروج من حيز التقدير الى حيز التاريخ، اذ جاء في ذلك الكتاب : وذكروا أن أتاك طغتكين (٤٨٨هـ— ٥٢٢هـ/١٠٩٥م— ١١٧٨م) سلطان دمشق طلب له محتسباً، فذكر له رجل من أهل العلم فأمر باحضاره فلما بصر به قال : «اني وليتك أمر الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، قال : «ان كان الأمر كذلك فقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند فانهما من حرير، واخلع هذا الخاتم فانه ذهب...» قال : فنهض السلطان عن طراحته وأمر برفع مسنده وخلع الخاتم من إصبه وقال : «قد ضمنت إليك النظر في أمور الشرطة، فما رأى الناس محتسباً أهيب منه»<sup>٦٥</sup>.

٦٢. حققه السيد الباز العريني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، اقااهرة ١٩٤٦.

٦٣. عني بنقله وتصحيحه روبن ليوي، Reuben Levy، كيمبردج ١٩٣٧/١٩٣٨ ويحمل الرقم ١٢ من سلسلة جيب التذكارية.

٦٤. حققه وعلق عليه حسام الدين السامرائي، بغداد ١٩٦٨.

٦٥. الشيزري، ص ٧-٨.

ان الأخبار عن واقع الحسبة في بلاد الشام عزيزة نادرة، ومن ثم تستمد هذه القصة قيمتها، وقد جاء عند ابن عساكر قصة أخرى أسبق منها في الزمن وتنتمي الى العصر الفاطمي وإلى عهد الحاكم بالتحديد، اذ يذكر ابن عساكر أن ابراهيم بن عبد الله بن حصن الغافقي الأندلسي ١٠١٣/٤٠٤ كان محتسب دمشق، وكان صارماً في الحسبة، وكان بدمشق رجل يقلي القطايف، ويتناول على الصحابة بالسب، والمحتسب يريد أن يؤديه، حتى أتاحت له الفرصة لتأديبه، فضربه أسواطاً بعدد أهل بدر<sup>٦٦</sup>. وقد أشار ابن عساكر إلى محتسب اسمه ابراهيم بن محمد الأسدي البزار المعروف بابن خريطة، ولكنه لم يتحدث عن أي دوره في الحسبة وكانت وفاته سنة ٣٠٩/٩٢١<sup>٦٧</sup>.

ويمكننا أن نرى في كتاب الشيزري تكييفاً لبعض أحكام الحسبة الملائمة للقطر الشامي، لأن فيه من النظرات ما هو وليد بيئة شامية، فالمؤلف يتحدث عن الشاهين الدمشقي<sup>٦٨</sup> وعن راوند الدواب الذي ينبت في الشام<sup>٦٩</sup> وعن غش العسل برب الكرم وبالديس<sup>٧٠</sup>، فيميز بين الرب والديس، ويميز نوعاً من هذا الأخير يسميه الديس البعلبكي الذي يغش بمزجه بدقيق الحوارى<sup>٧١</sup>، و يعرف نوعاً من الكتان تعرف به مدينة نابلس وهو أدنى جودة من الكتان المصري<sup>٧٢</sup>.

وأهم العناصر الشامية ظهوراً في كتابه تفاوت مقادير الرطل في البلاد الشامية المختلفة على النحو التالي<sup>٧٣</sup>:

رطل حلب = ٧٢٤ درهماً

رطل دمشق = ٦٠٠ درهم

رطل حمص والمرة = ٨٦٤ درهماً

رطل حماة = ٦٦٠ درهماً

٦٦. مصورة تاريخ ابن عساكر، دار البشير، عمان ١٩٨٨، م ٢، ص ٤٥٣ وتهذيب ابن عساكر، ار المسيرة، بيروت ١٩٧٩، م ٢، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

٦٧. مصورة تاريخ ابن عساكر، م ٢، ص ٤٩٥.

٦٨. الشيزري، ص ١٨.

٦٩. الشيرازي، ص ٤٢ ويوضح ابن الأخوة هذا بقوله (ص ١١٨) ان الراوند الشامي عروق خشبية طوال مستديرة في غلظ الأصابع وأنه يأتي من أرض عمان.

٧٠. الشيزري، ص ٤٠.

٧١. الشيزري، ص ٥٩.

٧٢. الشيزري، ص ٧٠.

٧٣. الشيزري، ص ١٤ وهذه التقديرات موجودة عند ابن الأخوة، ص ٨٠ مع بعض اختلاق وابن بسم، ص ١٨٥ والمرجح أنهما أخذاهما عن الشيزري.

ويمضي الشيزري فيذكر ما يقابل هذه الأبطال من آواق، وما يقابل الأوقية الواحدة من دراهم، وما في الدرهم من حبات، ويقارن بين المثقال في شيزروحة ودمشق والمعرة، ويحدد القفيز الشيزري والحموي والحمصي بعدد ما فيه من سنابل.

ومع ذلك فليست هذه أدلة قاطعة على أن هذه التفصيلات التي يذكرها الشيزري تعطي لكتابه لوناً محلياً، ليس لأن المؤلفين الآخرين يذكرانها وحسب، بل لأنهما يزيدان عليها أشياء لم يوردها الشيزري، عن بلاد الشام نفسها، فيذكر ابن الأخوة الرطل الغزاوي (٧٢٠ درهماً) والقدسي والحلي والنابلسي (٨٠٠ درهم) والكركي (٩٠٠ درهم) والماورد الدمشقي<sup>٧٥</sup> والحريير الشامي<sup>٧٦</sup>.

ومن المفيد أن نتذكر ملاحظات للشيزري مثل قوله: إن الأسواق ينبغي أن تكون في الارتفاع والاتساع على ما وضعته الروم قديماً، و يكون من جانبي السوق افريزان يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطاً<sup>٧٧</sup> وقوله إن رطل شيزر رسمه بنو منقذ<sup>٧٨</sup>، وهذا يعني أنه مستحدث بالنسبة لغيره من أبطال. وحين يهتم الشيزري حديثه عن المكايل يقول: وجميع ما ذكرته غير مستمر في جميع الأزمان... وإنما يتغير بتغير السلطان<sup>٧٩</sup>.

## ٥. كتب الأدب:

هنالك مجموعة من المؤلفات الأدبية أو شبه الأدبية كـ بعض كتب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي والقاضي التنوخي وغرس النعمة محمد بن هلال الصابي، قد يقدر الدارس أنه يستخلص من بعض ما تورده من أخبار شيئاً عن النظم في الشام إبان العصر العباسي، ولكن الاختبار يثبت أن هذه المصادر لا تقدم الشيء الكثير في هذه الناحية، فقد يطالع الدارس التبصر بالتجارة<sup>٨٠</sup> للجاحظ ليعثر على شؤون حضارية تميز الشام بين غيرها من البلدان فلا يجد لها ذكراً، وأما رسالته في البلدان<sup>٨١</sup> فلم يرد فيها إلا نص واحد يتعلق ببلاد الشام<sup>٨٢</sup> وهو أن الدينار والدرهم عزيزان في الشامات، ولبعد المنقل

٧٤. معالم القرية، ص ٨١.

٧٥. ابن الأخوة، ص ١٢٥.

٧٦. ابن الأخوة، ص ١٤١.

٧٧. الشيزري، ص ١١.

٧٨. الشيزري، ص ١٥.

٧٩. الشيزري، ص ١٧.

٨٠. تحقيق، حسن حسني عبد الوهاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٦.

٨١. تحقيق: صالح أحمد العلي، بغداد ١٩٧٠، وهو مستلة من مجلة كلية الآداب - بغداد. وانظر: رسائل الجاحظ تحقيق

عبد السلام هارون، القاهرة، ج، ص ٤.

٨٢. البلدان للجاحظ، ص ٥٠٣ ورسائل الجاحظ، ٤، ص ١٤٤.

وقلة عدد من يتناع تبقى السلع متداولةً بين أهلها، وتفيض عن حاجتهم وهذا يجعلها رخيصة السعر. وهناك نصوص تخصّ الشام في كل من البيان والتبيين والحیوان ولكنها لا تتحدث عن النظم.

والواقع أن نشوار المحاضرة<sup>٨٣</sup> والفرج بعد الشدة<sup>٨٤</sup> للقاضي التنوخي (— ٣٨٤هـ/٩٩٤م) يتميزان في هذه الناحية عن سواهما، وهما يلتقيان كثيراً بكتاب الجهشيارى وبكتاب الأموال للصابي، إذ تشترك هذه الكتب في عدد من الحكايات.

ويمكن للدارس أن يستمد من كتابي التنوخي حقائق مهمة، منها:

١. اجتهاد الوزير علي بن عيسى في التخفيف على أسرى المسلمين لدى الروم، بالاعتماد على بطريك أنطاكية وجائليق القدس، اللذين يخفان الى القيام بلمسفرة لثلاث تصيح المعاملة بالمثل، للنصارى الموجودين في الدولة الاسلامية<sup>٨٥</sup>.

٢. عملية مفاداة الأسرى، وبخاصة الفداء الذي قام به سيف الدولة سنة ٣٣٥هـ/٩٦٥م على شاطيء الفرات ومبلغ الفداء للضعاف من الناس وللجلة منهم، ونسخة كتاب الفداء لذلك العام، كتبه الشاعر البيغاء على لسان سيف الدولة<sup>٨٦</sup>.

٣. التعديل في الخراج أيام المتوكل (سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م)<sup>٨٧</sup>.

٤. صور من الحياة الاجتماعية لذوي الثراء بدمشق أيام الرشيد، وحياة الجوارى ومهنهن، وأنواع الفراش والرياش، وآداب الطعام وقواعده<sup>٨٨</sup>.

٥. صور من انعدام الأمن وقطع الطريق في بادية السماوة، وانتشار اللصوص ومن يأوي اليهم في منطقة نصيبين، وقطع الطريق بين هيت والرقعة<sup>٨٩</sup>.

٦. فساد الأوضاع المالية بفلسطين بسبب اختيان العمال للأموال (ولعل ذلك كان أيام المتوكل)<sup>٩٠</sup>.

هذا بالاضافة إلى أخبار تتعلق بالأحوال والحوادث السياسية مثل كيف تملك سيف الدولة

٨٣. حقق عبود الشالجي ما بقي منه، وجمع ما تفرق في المصادر، فجاء في ثمانية أجزاء، دارصادر، بيروت ١٩٧١—١٩٧٣.

٨٤. حققه عبود الشالجي في خمسة أجزاء، دارصادر، بيروت ١٩٧٨.

٨٥. نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٥٢—٥٥ وورد أيضاً في أموال الصابي، ص ٣٥٤.

٨٦. نشوار المحاضرة، ص ٢٢٨، ٢٨١، ٢٩٦.

٨٧. الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ٢٤٩.

٨٨. الفرج بعد الشدة، ج ٢، ٣٤ ونشوار المحاضرة ٢، ص ١٧٤.

٨٩. الفرج بعد الشدة، ج ٢، ٢٥٤، ٣، ص ٣٨٩، ٤ : ٢٤١.

٩٠. الفرج بعد الشدة، ج ٤، ص ٤٤.

مدينة حلب ونزل عن دمشق للاخشيدية<sup>٩١</sup>، وكيف نوى المعتضد هدم سور أنطاكية ثم تراجع عن ذلك<sup>٩٢</sup>.

تلك هي أهم المعلومات التي تتناول النظم وما يتصل بها في خمسة أنواع من المصادر، ولا ريب في أن كتب التاريخ وكتب التراجم تضيف أشياء أخرى الى هذه الصورة إلا أنها ستظل صورة غير وافية عما يتوقعه الدارس أو يرجوه.

### ملحق ارتفاع الأجناد الشامية

جند فلسطين	جند الأردن	جند دمشق	جند حصص	جند قنسرين	
٢٥٩٠٠٠	١٠٩٠٠٠	١١٠٠٠٠	٢١٨٠٠٠	٣٦٠٠٠٠	ابن خرداذبة (١)
٣٠٠٠٠٠ (مع الضياع)	١٠٠٠٠٠ (عدا الضياع)	٣٢٠٠٠٠ (عدا الضياع)	٢٢٠٠٠٠ (عدا الضياع)	—	المعقوبي
٥٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	٣٤٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	ابن الفقيه
١٨٠٠٠٠٠	١٨٠٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠	—	٤٥٠٠٠٠٠	الصولي (٢)
١١٥٠٠٠٠	١٠٩٠٠٠٠	١١٠٠٠٠٠	١١٨٠٠٠٠	٣٦٠٠٠٠٠	قدامة (٣)
١٥٩٠٠٠٠	—	١٥٠٠٠٠٠	—	—	الاصطخري (٤)
—	—	—	—	—	ابن حوقل (٤)
٢١٩٠٠٠٠	١٧٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٣٦٠٠٠٠٠	المقدسي (٥)

١. عند المقدسي أنه قرأ في كتاب ابن خرداذبة أن خراج قنسرين أر بعمة ألف وخراج حصص ثلاثمائة ألف وأربعون ألفاً وخراج الأردن ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً وخراج فلسطين خمسمائة ألف دينار.
٢. هذا ليس المقدار في عصر الصولي وإنما هو ما وضعه معاوية.
٣. عرض قدامة لهذا الارتفاع في موضعين وقد جاء مضطرباً بالنسبة لجند دمشق وجند فلسطين.
٤. لا يذكر الاصطخري شيئاً عن الأموال، ونصه موجود لدى ابن حوقل، وهذا الجغرافي لا يذكر الارتفاع لأن الخراج لا يذهب الى بغداد، فهو يعرف أن ارتفاع الأردن وفلسطين كان ٥٠٠٠٠٠٠ أيام كافور، ثم استولى الحمدانيون على القسم الشمالي وارتفاعه يذهب اليهم.
٥. يعتقد المقدسي أن هذه الجبايات ثقيلة، وهذا هو المفروض على تلك الكور دون تحديد لمن يفرضه ويقبضه.

٩١. نشوار المحاضرة، ج ٣، ص ٢٠.

٩٢. نشوار المحاضرة، ج ٢، ص ٢٤٨.

## المدرسة التاريخية الشامية وعلاقتها بالحديث والآثار في القرنين الثالث والرابع للهجرة

رضوان السيد \*

قال علي بن شعيب سمعت يزيد بن هارون (ت ٢٠٦هـ/٨٢١م) يقول: أحفظ أربعة وعشرين ألف حديث بالاسناد ولا فخر.. وأحفظ للشاميين عشرين ألف حديث لا أسأل عنها<sup>١</sup>. ويعلق الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٢٤٧م) على قول يزيد بن هارون الواسطي فيقول: قلت: لأنه أكثر إلى الغاية عن محدثي الشام ابن عياش وبقيّة— وكان ذلك نازلاً عنده— وإنما حسن سماع ذلك من أصحابهما في أيام أحمد بن حنبل ونحوه<sup>٢</sup>.

وما عناه يزيد بن هارون بأحاديث الشاميين تلك الآثار التي انتشرت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، وجرى الاعتراف بها من جانب «أهل الحديث» بالحجاز والعراق تدريجياً، وعرفت بالطوال أو المطولات<sup>٣</sup>. وهي تتناول بشكل عام ثلاث مسائل:

١. التاريخ القديم والمستقبلي لبلاد الشام: الرجال والأحداث والأماكن والمواطن والمصائر وقد عرفت فيما بعد بالفضائل أو فضائل بلاد الشام. ويمكن بالرجوع إلى مقدمة التاريخ الكبير أو تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) أن نتبين ضخامة المادة التي

\* جامعة صنعاء، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية.

١. الخطيب البغدادي، الحافظ أبي بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج، الخانجي، القاهرة، ١٩٢١م، ج ١٤، ص ٢٣٩-٢٤٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ، وقارن بالذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، سير اعلام النبلاء، ٢٥ ج، تحقيق شعيب الارنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج ٩، ص ٣٥٩-٣٦٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي: سير.

٢. الذهبي، سير، ج ٩، ص ٣٦٠.

٣. المعني بها الأحاديث والآثار الطويلة المتعلقة بأحوال الأمم القديمة، والفنن والملاحم وأشراط الساعة. وللطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الشامي (ت ٣٦٠هـ/٩٧١م)، كتاب الأحاديث الطوال. كما أن لابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، كتاب جامع الأصول من احاديث الرسول، ١٢ ج، تحقيق محمد حامد الفقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م، وكتاب منال الطالب في شرح طوال الغرائب، تحقيق: محمود محمد الطناجي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٧٩م. وقد طبع للطبراني حديثاً «مسند الشاميين» لكنه لم يكن بين يدي أثناء كتابة هذا البحث فاعتمدت على «مسند الشاميين» الوارد في مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م). ج ٦٠، ط ٢، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م، ج ٤، ص ٨٨، وما بعدها، وكان علي محمد جماز قد أصدر «مسند الشاميين» من «مسند أحمد» مخرجاً في مجلدين عام ١٩٨١م. ثم عاد فأخرجه في مجلد مستقل وسماه التعريف برواة مسند الشاميين، ١٩٨٨م.



اجتمعت في القرنين الثاني والثالث الهجريين عن مآثر الشام وقداستها وفضلها في العهود الأسطورية السابقة على الاسلام، بل وعلى التاريخ، صحيح ان ابن عساكر عاش وكتب في القرن السادس الهجري؛ لكنه ينقل عن مصادر أقدم بكثير من مثل أبي الحسن علي بن محمد الربيعي (ت ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م)، وتمام بن محمد الرازي (ت ٤١٤ هـ/١٠٢٣ م)، وأبي زرعة الدمشقي (ت ٢٨١ هـ/٨٩٤ م)، والوليد بن مسلم (ت ١٩٥ هـ/٨١٠ م)، والوليد بن مزيد (ت ٢٠٣ هـ/٨١٨ م). وعلينا أن لا نغفل هنا سبباً رئيساً بين أسباب كثرة فضائل الشام، هو وجود بيت المقدس أولى القبلتين، وثالث الحرمين فيها. وهذا بالإضافة للأسباب السياسية والاجتماعية الأخرى. ويمكن تصنيف آثار فضائل الشام حسب الموضوعات إلى مايلي :

– التاريخ القديم برجالاته من النبيين والعباد والصالحين والزهاد. ففي دمشق مصلى الخضر، والموضع الذي فيه رأس يحيى بن زكريا، وفيها حائط بناه النبي هود. وقد زارها أو زار مواطن قريبة منها الأنبياء: موسى وإبراهيم وعيسى وإلياس. أما بيت المقدس فقد زارها ألف نبي، وما من صالح أو متعبد إلا وتشرف بالانقطاع بها أو الصلاة فيها منذ القديم. وكذا مدن بلاد الشام الأخرى<sup>٦</sup>.

– الأماكن والمواطن المقدسة ببلاد الشام؛ إما بسبب من زارها من الأنبياء والصالحين، أو لأن الله سبحانه قدسها بذكره لها، أو لما عليها من أبنية مقدسة. وذلك مثل الآية الكريمة في سورة الاسراء التي تذكر المسجد الأقصى، وتصفه بأن الله سبحانه بارك حوله. ومثل الآية التي تتحدث عن الربوة ذات القرار والمعين؛ وقيل إنها دمشق أو أرض فلسطين. بالإضافة إلى المساجد الأخرى بدمشق وبيت المقدس، وأماكن البركة والقداسة، مثل: الغوطة، وجبل قاسيون، وجبال دمشق وبيت المقدس، ومغارة الدم، والأردن، والطور.

– الأحداث والوقائع والواقعات المقدسة، فالشام أرض الأنبياء، زارها، وأقاموا فيها، ودارت على أرضها واقعات رسالاتهم. ثم إنها تتضمن مواطن رحلات ومتعبدات الصالحين

٤. ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ/١١٧٥)، تاريخ مدينة دمشق ونكر فضلها وتسمية من حلها من الاوائل او اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، ج١، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٤ م، ص ٩١-٢٠٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ.

٥. قارن ذلك بما أورده محمود إبراهيم في كتاب فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، دراسة تحليلية ونصوص مختارة محققة، منشورات معهد المخطوطات العربية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، ١٩٨٥ م، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمود إبراهيم، فضائل.

٦. قارن: الربيعي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م)، فضائل الشام ودمشق، حقه ووضعه ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٠ م، والدمشقي، عز الدين ابن عبد العزيز ابن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦١ م)، ترغيب أهل الاسلام في سكنى الشام، تحقيق وتخريج محمد شكور ابن محمود الحاجي امير الميادين، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٧ م. وانظر عن كتب فضائل الشام مقدمة صلاح الدين المنجد على فضائل الربيعي.

والأولياء والأبدال . وهي أخيراً أرض المحشر والمنشر<sup>٧</sup>. فكما دارت فيها وعلى أرضها أحداث بدايات العالم والتاريخ ، ستدور على أرضها ملاحم نهايات العالم والزمان واماراتها وأشراتها . ففيها يظهر المسيح الدجال ، وفيها يظهر عيسى بن مريم نازلاً على المنارة الشرقية بدمشق ، ومقاتلا الدجال عند باب لد .

فضائل الشام في الاسلام . وتتضمن بشكل رئيسي أخبار الصحابة الذين نزلوا بالشام متوطنين أو مرابطين أو هما معاً . كما تتضمن أخبار الزهاد والعباد والعلماء الورعين الذين عرفتهم الشام في قرون الاسلام الأولى<sup>٨</sup>.

٢ . والمسألة الثانية ضمن الطوال أو المطولات ، هي الفتن والملاحم . فكما أشتهر الشاميون منذ عصر التابعين وتابعيهم بكثرة رواياتهم الطويلة في فضائل بلادهم ؛ عرفوا أيضاً في الحقبة نفسها بمطولاتهم في الفتن والملاحم . قال صدقة بن الفضل المروزي : ما رأيت رجلاً أحفظ للحديث الطويل وأحاديث الملاحم من الوليد بن مسلم الدمشقي ، وكان يحفظ الأبواب<sup>٩</sup> . وقد سبق ذكر مقالة يزيد بن هارون وتفصيل الذهبي لها في معرفة اسماعيل بن عياش وبقية بن الوليد الشاميين ؛ وهما من شيوخ الوليد بن مسلم ؛ بطوال الأحاديث والآثار . وفي حين استوعب نعيم بن حماد ( ت ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م ) في كتابه «الفتن والملاحم» آثار الشاميين في الفتن<sup>١٠</sup>؛ فان آثارهم في الملاحم انتشرت في سائر كتب الآثار والحديث ، ومن ضمنها : كتاب نعيم ، وكتب معاصريه مثل ابي بكر بن أبي شيبة ( ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م ) ، وأحمد بن حنبل ( ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م )<sup>١١</sup> . وهناك تفرقة موضوعية بين الفتن والملاحم ،

٧ . قارن سبب تسمية الشام بذلك ؛ كتاب فضائل بيت المقدس للمكناسي في محمود ابراهيم ، فضائل ، ص ١٢٣ ، وابن عساكر ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٦٣ - ١٧١ : باب ما جاء عن سيد البشر أن الشام أرض المحشر والمنشر ، وكتاب البلدان لابن الفقيه ، ابي بكر احمد بن محمد الهذاني ، ليدن ، ١٨٨٤ م ، ص ١١٥ . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن الفقيه ، البلدان .

٨ . خصص ابن عساكر كتابه كله لذكر علماء الشام والواردين عليها ، وانظر : موجزاً عن الصحابة والتابعين الذين كانوا بالشام في جمال الدين ابو محمد عبد الله بن هشام ( ت ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م ) ، مخطوط ؛ ومحمود ابراهيم ، فضائل ، ص ٢٥٢ - ٤١٨ .

٩ . الذهبي ، سير ، ج ٩ ، ص ٢١٦ .

١٠ . استخدمت هنا مخطوطة الكتاب الموجودة بالمتحف البريطاني رقم ٩٤٤٩ . وانظر عن نعيم وكتابه :

Jorgé Aguade, Missionismus Zur Zeit der Fruchen Abbasiden, Das K. al-Fitan des Nuáim b. Hammad Tübingen, 1979.

١١ . عقد الحافظ أبو بكر ابن أبي شيبة باباً طويلاً للفتن والملاحم في الجزء الخامس عشر من مصنفه المطبوع بالسنة السلفية ببومباي ، ١٩٨٣ م . أما أحمد فان أحاديث الفتن منتشرة في مسنده . والمعروف أن كل كتب السنة تتضمن ابواباً في الفتن والملاحم . وقد قام ابن طاووس ( ت ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م ) ، باختصار ثلاثة من كتب الفتن والملاحم في كتابه «الملاحم والفتن في ظهور الغائب المنتظر» ، منشورات مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٩٨٧ م . وابن كثير ، ابو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ( ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م ) ، جزء ضخيم في الفتن والملاحم في نهاية تاريخه : البداية والنهاية .

فالفتن «تاريخية». إذ يفترض أنها حدثت أو تحدث في قلب التاريخ أو في التاريخ المنظور. بينما تحدث الملاحم فيما بعد التاريخ كما حدثت أو كانت الفضائل والبركات فيما قبل التاريخ. فالفتن تشمل نزاعات وحروب داخلية تبدأ بمقتل أمير المؤمنين عثمان ، ثم تمتد ؛ مستندة كلها أو غالبها إلى روايات مرفوعة للنبي صلى الله عليه وسلم أو لبعض الصحابة ؛ فتحدث عما قدر على الأمة من فتن فيما يستقبل من الزمان . أما الملاحم فتتناول بشكل رئيسي ما يعرف في كتب الآثار باسقاط الساعة أو امارات القيامة . وتشمل خمسة أمور: خروج السفيناني ، وظهور المهدي ، والملاحم مع الروم ، وخروج المسيح الدجال ، ونزول عيسى بن مريم . على أن هذه التفرقة بين الفتن والملاحم من حيث الموضوع والزمان لا تلغي الشبه أو الاختلاط بينهما ، إذ إن الشكل الذي تعرض فيه الفتن يجعلها أشبه بالملاحم ، وبخاصة أنها لا تختلف عنها من حيث الشدة ، ثم إنها متصلة بها في الزمان أو في اللازمان ، إذ تعد بالئات ؛ بحيث يتمنى الناس قيام الساعة . إذ على الرغم من أهوالها فإنها منقضية بينما الفتنة مستمرة في الرؤية الشامية .

وإذا كان الشاميون قد تفردوا أو كادوا بالآثار الكثيفة والكثيرة والطويلة في فضائل بلادهم على أصنافها ومسائلها ؛ فانهم لم ينفردوا بالرواية في الفتن والملاحم فهناك أحاديث وآثار كثيرة في الفتن والملاحم عن صحابة غير شاميين مثل أبي هريرة ، وابن عمر وأبي سعيد الخدري ، وعلي بن أبي طالب ، وأنس بن مالك ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي موسى الأشعري ، وأبي مسعود الأنصاري<sup>١٢</sup> . لكن الملاحظ أن الشاميين يحتلون – في كثير من الأحيان – الحلقة الثانية أو الثالثة بعد الصحابة في هذه الأحاديث . وهذا فضلا عن انفرادهم بأحاديث طوال في الفتن والملاحم عن حذيفة بن اليمان ، وعوف بن مالك ، وعبد الله ابن حوالة ، والنواس بن سمرعان ، وجندب بن عبد الله ، ومرة بن كعب البهري ، ومعاوية ابن أبي سفیان ، وسلمة بن نصيل السكوني ، وعمرو بن عبسة ، والعرباص بن سارية ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وجبير بن نصير<sup>١٣</sup> .

٣ . المسألة الثالثة تتناول الرؤى عن دور بلاد الشام في الاسلام . وتشمل الطوال هنا أو الآثار الطوال ، – إذا صح التعبير – صورة أو صور أهل الشام عن عصر الراشدين ، وصورتهم أو صورهم عن عهد بني أمية . وهذه الصور والرؤى فضلا على قلتها ؛ لا تدخل حقا في طوال الآثار لأن الشاميين لا ينسبون غالبا للنبي صلى الله عليه وسلم وللصحابة ، بل لبعض رجالات الشام الكبار من التابعين وتابعيهم مثل : ميمون بن مهران ، والأوزاعي ، وسعيد بن

١٢ . قارن عنها على سبيل المثال جامع الأصول من أحاديث الرسول ، ١٠ ج ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، حلب ، ١٩٧٢م ، ص ٢ وما بعدها ، وكنز العمال لعلاء الدين علي المتقي الهندي ، ٢٢ ج ، حيدرآباد ، ١٩٦٢ ، ج ١١ ، ص ١٠١ وما بعدها .

١٣ . هؤلاء هم الذين وردت عنهم آثار في الفتن والأهوال والملاحم عند نعيم ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وأحمد بن حنبل .

عبد العزيز، وعمر بن عبد العزيز<sup>١٤</sup>. وهذه الصور أو الرؤى بعيدة نوعاً ما عن التاريخ المعروف، لا لأنها وجهة نظر خاصة؛ بل للطابع الخلاصي الذي تتميز به صورة الشاميين وتصوراتهم عن عصر الراشدين والأمويين الأوائل، بحيث تلتحق بالرؤى المنشورية القديمة عن بلاد الشام فيما قبل الإسلام. وقد عاش صناع الرؤى هذه في العصرين العباسيين الأول والثاني لكن صورتهم عن العباسيين ملحمية الطابع، تمتلئ بالفتن، ونذر الويل، والقيامة. ولذا فإنه يمكن إلحاقها بالنوع الأدبي الذي سبق ذكره وهو الفتن والملاحم.

إن هذا التصنيف الموجز للمأثورات الشامية ذات الدعوى التاريخية يظهرنا، على اتسامها بعدة سمات يمكن إيجازها فيمايلي:

أولاً: من حيث الشكل؛ فإن كل الأمور تعرض بطريق نشورية خلاصية حتى ما وقع بها أو كان ماضياً. فهناك صورة شاملة للتاريخ الانساني كله، تتنافر أجزاؤها أو تتضام في أفاصيل وحكايات ونبؤات تبلغ في تقنياتها الحديثة ما وقع في الماضي فعلاً. وهكذا فإن الأشخاص والأحداث الوارد ذكرها في القصص، والتي قصد بها جعل الأمر معقولاً أو تاريخياً تبدو سكونية ومكررة، إذ هي ذرات فقط ضمن الخطة الشاملة للكون والتاريخ ولن ينقص من الخطة شيء اختفاء الاسكندر، أو يحيى بن زكريا، أو الخضر، أو مغارة الدم، أو الغوطة، عن الأشخاص أو الأماكن أو الأحداث.

ثانياً: من حيث المضمون؛ فإن «الصورة الشاملة» للتاريخ الشامي من وجهة نظر مطولات الشاميين تنقسم إلى مرحلتين طويلتين بينهما فترة استثنائية هي حقبة الراشدين والأمويين الأوائل. المرحلة الأولى نشورية الطابع تتميز بالسكون والسلام والظهر والقداسة؛ دون أن يعني ذلك خلوصها من الشوائب، ففيها قتل ابن آدم أخاه على أرض الشام. وفي جزئها الأخير كان مقتل يحيى بن زكريا. والمرحلة الثانية ملحمية الطابع، وتبدأ بمقتل الوليد بن يزيد عام ١٢٥ هـ، فينفتح باب الفتن ولا ينتهي إلا ببدء الملاحم وأشراط الساعة. ومن هنا يمكن القول: إن الرؤية الشامية رؤية سوداوية، متشائمة لمصير البلاد والانسان في بلاد الشام. وترد في آثار الشاميين تعليقات لهذا المصير المفجع لبلاد الشام، بل للعالم كله، وبخاصة دار الإسلام. فهم يقولون تارة إن ذلك راجع إلى أن الدنيا بلاء واختبار. ويقولون طوراً إن ذلك لانقضاء زمان النبوة. ويذهبون أخيراً إلى أن هذه الشدائد التي تعانيتها البلاد، وتعانيتها الشام مرجعها إلى اقتراب القيامة التي حضرت أمائرها وعلاماتها فيما كان ويكون من فتن وملاحم.

١٤. جمعت أكثرها في مقالتي: الخلافة والملك: دراسة في الرؤية الأموية للسلطة، بمحاضر الندوة الثالثة للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، (بلاد الشام في العهد الأموي) ٢-٧ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ، ٢٤-٢٩ تشرين الأول ١٩٨٧ م، القسم العربي، المجلد الأول، تحرير محمد عدنان البخيت، عمان ١٩٨٩ م، ص ٩٦-١٤٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: السيد: الخلافة.

**ثالثاً:** اللازمانيّة واللاتاريخية اللتان تتميز بهما الرؤية الشامية في القرنين الثاني والثالث للهجرة. فالصورة السالفة الذكر بمرحلتها الطويلتين غير تاريخية؛ لا بمعنى أنها غير صحيحة أو غير حديثة؛ بل بمعنى أنها تقع في مرحلتها الأولى فيما قبل التاريخ، وفي مرحلتها الثانية فيما بعد التاريخ. فالأحداث والأشخاص والأماكن تلعب أدواراً جانبية أو لا تلعب دوراً على الإطلاق في المرحلة الأولى. وهي لا تعني شيئاً ولا تؤثر في المرحلة الأخيرة. ويرجع ذلك إلى أن المرحلة الأولى زمن مقدس غير تاريخي، والمرحلة الثانية زمن ملحمي غير تاريخي أيضاً. وهكذا فإن الصورة الشامية هذه لا تملك مفهوماً للزمان، أو لا تضع نفسها في سياقه في مرحلتها الأولى لأنها لا تدخل عالم الكون والفساد، وهي تستغني عن الزمان في مرحلتها الأخيرة لأنها تسلم عالمها لمصيره المحتوم، وتبدو الحقة الوسطى الصغيرة أو القصيرة بين النبي صلى الله عليه وسلم ومقتل الوليد بن يزيد هي العصر التاريخي الوحيد ضمن هذه الرؤية. ونحن نعلم الآن أن صورة الراشدين هي ليست من صنع محدثي الشام وملحميهم، بل نشرها في الشام كل من الشعبي (ت ١٠٤ هـ/٧٢٢م) والزهري (ت ١٢٤ هـ/٧٤١م). وقد أعاد الشاميون صياغتها ضمن رؤيتهم الشاملة، ووضعوا في سياقها عهد معاوية وبني مروان الأوائل. وقد خففت إعادة الصياغة تلك من تاريخيتها، بحيث يمكن القول: إن القارىء لا يحس بنبض التاريخ إلا في حديث أبي زرعة الدمشقي عن الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز بشأن معاوية وعهده. إذ إن الحماس لمعاوية لا يخفى الجدل حوله، وهجمات العراقيين والحجازيين عليه. يبدو ذلك بوضوح في صورة الأوزاعي (ت ١٧٧ هـ/٧٩٣م) عن معاوية، وتعليقه الشرعية بالقول: «أدركت خلافة معاوية عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سعد وأسامة وجابر وابن عمر... ورجال أكثر ممن سميت بأضعاف مضاعفة... لم ينزعوا يداً عن جماعة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم». ويكمل سعيد بن عبد العزيز (ت ١٦٧ هـ/٧٨٣م) الصورة عن معاوية وشرعيته فيقول: «فأغزاً معاوية الطوائف وشتاهم بأرض الروم وست عشرة صائفه تصيف وتشتو ثم تقفل وتدخل معقبتها...»<sup>١٥</sup>.

.. وانطلاقاً من «صورة الأمويين الأوائل» عند رواة أهل الشام؛ يمكن المضي في محاولة لتعليل الظواهر السالفة الذكر. فالنظرة السائدة أن الآثار الكثيرة عند الشاميين في الفضائل والملاحم سببها وجود ذلك لدى اليهود والنصارى في كتبهم المقدسة، وتراثهم الشعبي، ووراثة المسلمين عنهم ذلك من ضمن ما عرف بالاسرائيليات<sup>١٦</sup>. لكن وجود آثار

١٥. أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمر بن عبد الله، (ت ٢٨٠ هـ/٨٩٣م)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ج ٢، دراسة وتحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٠م، ج ١، ص ١٨٩، ١٩٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو زرعة: تاريخ.

١٦. قارن مقدمة صلاح الدين المنجد على فضائل الشام ودمشق للربيعي، ص ٨-٩، ومقدمة محمود إبراهيم على فضائل بيت المقدس، ص ٤٠ وما بعدها.

كثيرة غير معروفة لدى اليهود والنصارى قبل الاسلام دفع بعض الباحثين لايراد أسباب أخرى مثل التفاخر بين المدن والبلدان، والخلاف السياسي بين بني أمية وشيعة الامام علي والعباسيين وولاء الشاميين الباقي للأمميين، والصراعات القبلية ببلاد الشام بين القيسيين واليمنيين<sup>١٧</sup>. ولا شك في أن هذه الأسباب كلها تعلق ظهور بعض الآثار والاقاصيص؛ لكنها لا تكفي لتعليل كثرتها الكاثرة، وطابعها النشوري والملحمي. ثم إن المسلمين افتتحوا العراق وأكثر سكانه من المسيحيين واليهود، فلم تظهر لديهم آثار وحكايات ورؤى مشابهة لتلك التي ظهرت لدى الشاميين. لذا لا بد من البحث عن أسباب هذه الرؤية الشامية الخاصة للزمان والتاريخ ومصائر بلاد الشام في الأوضاع السياسية والاجتماعية التي سادت بالشام بعد الفتح الاسلامي لها، ثم في قضية موقعها من بلاد الروم، وما آلت إليه أوضاعها الداخلية وحدودها أيام العباسيين.

أما في الصراع مع الروم؛ فانه بخلاف ما آل إليه الوضع في العراق وإيران؛ لم يستطع المسلمون الفاتحون القضاء على الدولة البيزنطية بعد أن أخرجوا البيزنطيين من بلاد الشام. ويمكن القول: إن السلطة السياسية الاسلامية تخلت منذ أواخر القرن الهجري الأول عن مشروع افتتاح القسطنطينية، فتحول القتال بين المسلمين والبيزنطيين إلى حرب جبهات، وظهرت حدود شبه ثابتة كان الطرفان يتجاوزانها في إغارات سريعة سماها المسلمون الصوائف والشواتي، لم تكن تغير من أوضاع الحدود والثغور. وكان المرابطون والمجنودون المسلمون يتمكنون في الغالب من الحفاظ على أمن الحدود، ورد غارات الروم. لكن ذلك كان مرهوناً بالاستقرار السياسي والاجتماعي الداخلي. لذا فقد انهارت الجبهة في الحربين الأهليتين الأولى (٦٥٥/٣٥م - ٤٠هـ/٦٦٠) والثانية (٦٥/٦٨٤ - ٧٣هـ/٦٩٢)، واضطر الأمويون إلى دفع مبالغ مالية ضخمة للسلطات البيزنطية في الحقتين، لكي يتوقف مقاتلوها عن التوغل في أرض الاسلام بالشام<sup>١٨</sup>. أما في الحرب البحرية فقد كانت سواحل الشام معرضة دائماً للغزو البيزنطي. وكثيراً ما نجح الأسطول البيزنطي في اجتياح بعض المدن الساحلية الشامية، والبقاء فيها لفترة<sup>١٩</sup>. وازدادت أوضاع الجبهة مع البيزنطيين سوءاً مع الظهور العباسي. فقد كان الأمويون شديدي الحرص على أمن الشام لأنها مركز سلطتهم وخلافتهم، أما السلطة العباسية فقد تركزت بالعراق. ولا يعني ذلك أن العباسيين ما كانوا حريصين على الدفاع عن الشام؛ فقد كانت دعواهم في خلافة الله، وإمارة المؤمنين تقتضيهم أن يجاهدوا لا لحماية دار الاسلام وحسب، بل للسيطرة على العالم ونشر الاسلام فيه. وقد

١٧. مقدمة المنجد على الربيعي، فضائل، ص ١٠-١٢.

١٨. قارن عن ذلك:

Wellhamsen, Ramaer und Araber, pp. 428-433; Ostrogorsky, Geschichte des Byzantinischen, Staats, p. 128 ff,

G. Ratter; Die Umayyaden Und der Zweite Bürgerkrieg, p. 171 f.

Eichhoff, Seekruiey und Seepehtk Zwischen Islam, By Sang, p. 128. ff

١٩. أنظر:

قام خلفاؤهم الأوائل بأنفسهم بالغزو والجهاد، وحققوا بعض النجاحات. كما أنشأوا تحصينات وقرى عسكرية في الثغور والعواصم. لكن مع تسرب الضعف إلى الدولة ما عاد الجهاد من أولوياتها؛ بل إن بعض الإداريين والعسكريين تخلوا في القرن الرابع الهجري عن تحصينات البر، وإعدادات البحر<sup>٢٠</sup>. وربما كان هذا التخلي من أسباب قيام دويلات القبائل العربية في نواحي الجزيرة وحمص وأقاصي الشمال الإسلامي منذ القرن الثالث وحتى القرن السابع الهجري. على أن هذه الدويلات الدفاعية لم تستطع سد الفراغ الذي تركه غياب الدولة المركزية، بدليل استيلاء البيزنطيين على أكثر المدن والقلاع الحدودية، وتدخلهم السياسي والعسكري في المنطقة الواقعة بين حلب ودمشق. ومن تلك الخاصة الضعيفة دخل الصليبيون إلى بلاد الشام الداخلية، كما سيطروا من جهة البحر على كل المدن الساحلية الشامية.

وما كانت الأوضاع الداخلية للمجتمع الشامي أحسن حالا من الأوضاع على الحدود. فقد كانت العناصر العربية المقاتلة التي شاركت في فتح الشام بدوية الأصول في الغالب. ولم يبه المسلمون الفاتحون أول دخولهم مستقرات وحواضر كما فعلوا بالعراق، فبقي العنصر العربي الإسلامي قليلا بالمدن، وظل العرب القادمون في أكثرهم متبدين. ومع الاضطراب الذي ألم بالمجتمع الجديد في الحربين الأهليتين ظهرت العصبية القبلية أحيانا وتفاقت بالشام على الخصوص في سبعينات القرن الهجري الأول، وظلت تلتهب وتكمن منذ ذلك الحين وحتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي. وقد استخدم الأمويون العصبية القبلية من أجل الاستمرار في السلطة. لكنهم بحكم وجودهم ببلاد الشام، كانوا يسلكون في الغالب مسلك مصالح وتوازن. وما كان ذلك شأن العباسيين الذي اعتبروا الشاميين جميعاً أعداء لهم، لما اشتهر عنهم من الولاء لبني أمية<sup>٢١</sup>. ولذا فقد اشتدت ضغوطهم عليهم في الحواضر والبادية وعلى الحدود مع البيزنطيين. أما الشاميون من

٢٠. قارن بسير الثغور لأبي عمر وعثمان بن عبد الله بن إبراهيم الطرطوسي (ت حوالي ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م)، عن إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨ م، ص ٢٨-٤٨، ٤٢٩-٤٥٩. وانظر دراستي الحيارى، مصطفى علي، «حصن بيت الأحزان: جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الصليبيين في زمن صلاح الدين»، مجلة دراسات (العلوم الانسانية)، م ١٣، عدد ٢، الجامعة الاردنية عمان، ١٩٨٦ م، ص ٢٩-٦٠، «حصن حبيس جلدك جانب من العلاقة بين المسلمين والفرنجة في القرن الثاني عشر الميلادي»، مجلة دراسات (العلوم الانسانية)، م ١٣ (١٩٨٦)، ص ١٤١-١٦٠.

٢١. في تاريخ ابن القلانسي: ابو يعلى حمزة (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ م، ص ١٦، انباء جدية عن خلاف الدمشقيين مع الفاطميين، قوله: وكان أهل الشام يأبون المغاربة لمخالفتهم لهم في الاعتقاد ولأنهم امويون، وفي تاريخ الموصل للأزدي، ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم، (ت ٣٢٤ هـ / ٩٤٥ م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧ م، ص ١٥٠، عند الحديث عن المذبحة التي ارتكبها والي العباسيين بالموصل سنة ١٣٣ هـ: «كان اكبر الامر في قتل يحيى بن محمد أهل الموصل ميلهم لدى بني اميه وكراهيتهم لبني العباس».

جانبيهم فقد تكررت اضطراباتهم وثوراتهم على العباسيين لأسباب مختلفة أهمها: إحساسهم بعداء الدولة لهم. و يوضح رؤية العباسيين لرعاياهم الشاميين قول للمأمون صرح به عندما ألح عليه شامي في المطالبة بتغيير سياسته تجاه أهل الشام، فقال المأمون<sup>٢٢</sup>: «أكثر علي! والله ما أنزلت قيساً عن ظهور خيلها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد. وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبنتي قط. وأما قضاة فساداتها تنتظر السفيناني حتى تكون من أشياعه. وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث الله نبيه من مضر. ولم يخرج أثنان (من الشام) إلا خرج أحدهما شامياً..». ولقالة المأمون هذه أسبابها الخاصة التي تتجاوز سوء العلاقة المتوارثة بين العباسيين وأهل الشام. فقد تفاقمت الاضطرابات ببلاد الشام إبان خلافة المأمون بسبب نشوب الحرب بينه وبين أخيه الأمين. وقد اصطدم المأمون منذ أوائل خلافته بعلماء الشام؛ بالإضافة إلى اصطدامه بقباثلها؛ لتشيعه الظاهر، وإقدامه على لعن معاوية الذي يحبه الشاميون. ثم دعوته أخيراً لخلق القرآن، وملاحقة بعض كبار علماء الشام من أجل إرغامهم على الجهر بذلك<sup>٢٣</sup>.

إن موقع بلاد الشام بمحاذاة ممتلكات الدولة البيزنطية، واستمرارها في التعرض للهجمات من البر والبحر من جهة؛ وبقاء الشاميين في موضع القلة بالبلاد لفترة طويلة، وعجزهم عن إقامة مجتمع متوازن ومتراطم من جهة ثانية؛ وصراعهم مع السلطة المركزية العباسية، ثم مع الولايات الأعرابية التي قامت في شمالي البلاد؛ كل ذلك ترك آثاراً عميقة وغائرة في وعيهم بالذات والدور. وقد تراوح هذا الوعي المستجد بين تعظيم وتضخيم للدور والموقع، وإرادة واضحة للتحدي في المرحلة الأولى، أيام الراشدين والأمويين، وتراجع وأسى ويأس واستسلام ناجم عن العجز الداخلي والاحساس المتضخم بالحصار، ولا جدوى من المقاومة في المرحلة الثانية، في القرنين الثاني والثالث للهجرة. وأرى أن هذه الآثار الكثيرة المنشورية والمحمية الطابع، والتي سيطرت بين منتصف القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث على وجه التقريب من نتاج أو نشر تلك الحقبة:

٢٢. الطبري، محمد بن جرير (ت ٢٦٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الامم والملوك، ج ١٥، نشر

M.J. De Goeje, Baill'i, 1965، ج ٢، ص ١١٤٢، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري،

تاريخ، وابن طيفور، الفضل احمد بن أبي طاهر الخراساني (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) بغداد، عرف بالكتاب وترجم

للمؤلف وصححه: محمد زاهد بن حسن الكوثري، عني بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه: عزت العطار

الحسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ٢٦٧، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن

طيفور، بغداد، والأزدي، تاريخ، ص ٤٠٨-٤٠٩.

٢٣. قارن عن ذلك: الأزدي، تاريخ، ص ٤٠٩، وابن سعد، ابو عبدالله محمد بن منيع الزهري

(ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، بريل، ليدن، ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، ج ٩، نشره ساخاو، ج ٧، ص ٤٧٣.

ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات؛ وابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن

علي القرشي البغدادي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، مناقب الامام احمد بن حنبل، مكتبة الخانجي، القاهرة،

١٢٤٩هـ، ص ٤٨٦، (حادثة ابي مسهر مع المأمون). ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن

الجوزي: مناقب.



— فمما له دلالة أن يرد — في روايات الشاميين لأمارات القيامة عن الصحابي عوف بن مالك مرفوعاً — ذكر للصراع مع البيزنطيين ، وكأنه صراع أبدي لا ينتهي الا بقيام الساعة ؛ ففي الحديث المذكور<sup>٢٤</sup> : «... ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غابة ، تحت كل غابة اثنا عشر ألفاً...». وفي السياق نفسه ، لكن عن ابي هريرة ، يروي الشاميون أنه «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ... فيهزم ثلث .. و يصل ثلثهم .. و يفتح الثلث .. فيفتحون القسطنطينية.. فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح الدجال قد خلفكم في أهاليكم...»<sup>٢٥</sup>. وهكذا فان اليأس من إمكان الانتصار على البيزنطيين جعل فتح القسطنطينية واحداً من أشرط الساعة ، ملغياً بذلك الزمان.

— ومما له دلالة أن تتحول أرض الشام حسب آثار الشاميين ، في آخر الزمان إلى ساحة للصراع الكوني النهائي بين الخير والشر ، بين المسيح الدجال وعيسى بن مريم . ففي حديث الصحابي الشامي النواس بن سمعان ظهور ثلاثة من أشرط الساعة بالشام : المسيح الدجال ، وياجوج وماجوج ، وعيسى بن مريم . يأتي المسيح الدجال أولاً فيضل الناس عن دين الله . و يأتي ياجوج وماجوج فيأكلون الأرض و يقلبونها ظهراً لبطن . و يأتي عيسى بن مريم «فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهردتين» فيفقد المؤمنين ، و يدعو الله فينهي ياجوج وماجوج . ثم يلتقي بالدجال على باب اللد فيهزمه و يقتله<sup>٢٦</sup>.

والمعروف ان المسيح ونقيضه ، ياجوج وماجوج ؛ كل ذلك كان معروفاً قبل الاسلام لدى اليهود والنصارى . لكن الجديد لدى مسلمي الشام إنزال المسيح على المنارة الشرقية ، ومواجهته للدجال عند باب اللد ؛ وذلك عقب اجتياح ياجوج وماجوج لبلاد الشام ، وإنهاء المسيح لمشكلتهم إعداداً للصراع مع الدجال . و يبدو من تتبع سلاسل الرواة أن «الصورة

٢٤. البخاري، ابو عبدالله ممد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م)، الجامع الصحيح، ج ٩، مطبعة الشعب، القاهرة، بدون تاريخ، ج ٦، ص ١٩٨، ١٩٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البخاري، جامع.

٢٥. مسلم، ابو الحسن بن حجاج (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م)، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٨، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٢، ج ١٨، ص ٢١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مسلم، صحيح.

٢٦. مسلم، صحيح، ج ١٨، ص ٦٣، ابو داود، سليمان بن الاشعث السجستاني الازدي (ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) سنن ابي داود، ج ٥، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج ٤، ص ١١٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابو داود : سنن.

الترمذي، ابو عيسى محمد بن عيسى السلمي (ت ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م)، جامع الترمذي، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٤، ص ٤١٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الترمذي : الجامع. ابن حنبل، مسند، ج ٤، ص ١٨١. وقارن بالتصريح لما تواتر في نزول المسيح، للهندي، محمد انور شاه (ت ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م). حققه وراجع نصوصه وعلق عليه: عبد الفتاح ابو غده، ط ٤، مكتب المطبوعات الاسلامية، حلب، ١٩٨٢ م، ص ١٠٢ - ١٢٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الهندي، التصريح.

الاسلامية» للدجال مدنية النشأة، وربما عرفت بداياتها الأولى في صراع المسلمين مع اليهود بالمدينة. أما الصورة الاسلامية لنزول المسيح أو رجعته فهي شامية. لكن فيما كان «المسيح الدجال» ما يزال يهودياً، فان المسيح النازل مسلم ينهي الدجال واليهودية بالقوة أمام باب اللد، بعد ان يكون قد كسر الصليب، وقتل الخنزير. أفلا تكون علة المشهد الضخم كله محاولة الأثاريين بالشام إسقاط صراعهم مع الروم على أحداث أهوال القيامة، بعد إذ عجزوا عن حل الصراع في ساحات المعارك بشمالي بلاد الشام؟!

– ومما له دلالة أن يرد في حديث الدجال، ونزول عيسى بن مريم: «وكلهم – أي المسلمون – ببیت المقدس، وإمامهم رجل صالح قد تقدم ليصلي بهم، إذ نزل عيسى، فرجع الأمام ينكص ليتقدم عيسى، فيقف عيسى بين كتفيه ثم يقول: تقدم فانها لك أقيمت»<sup>٢٧</sup>. وفي رواية أخرى: «فيقال له: صل لنا! فيقول: لا! إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه لهذه الأمة»<sup>٢٨</sup>. وفي رواية ثالثة: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»<sup>٢٩</sup>. و يعني هذا شوقاً من جانب أهل الشام لعودة الأمر إليهم. إذ منذ وصل العباسيون إلى السلطة نحو الشاميين عن كل الأمور. وقد بلغ إحساسهم بالظلم الواقع عليهم من السلطات الغربية القادمة حد اليأس من عودة الامامة إليهم، فوضعوا ذلك في نهاية التاريخ أو منقطعة حيث يتغير كل شيء، بما في ذلك السلطة العباسية المستبدة، وتعود الأمور إلى نصابها أو مستقرها.

– ومما له دلالة تلك الشخصية الملاحمية التي ابتدعتها الشاميون للتعويض عن فقدان السلطة، ولقابلة روايات المهدي الشيعية؛ وأعني بتلك الشخصية: السفيناني. وأكثر روايات حديث السفيناني عن ابي قبيل حبي بن هاني المعافري المصري (ت ١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م)، وأبي عبد رب الدمشقي (ت ١٢٠ هـ/ ٧٣٧ م)، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر الداراني الشامي (ت ١٥٣ هـ/ ٧٥٢ م)، وابن لهيعة (ت ١٧٤ هـ/ ٧٩٠ م)، واسماعيل بن عباس الحمصي (ت ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م)، وبقية بن الوليد الكلاعي (ت ١٩٧ هـ/ ٨١٢ م)، والوليد بن مسلم الدمشقي (ت ١٩٥ هـ/ ٨١٠ م)، وأبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر اليسانبي (ت ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م)، وأبي عثمان سعيد بن هاني الخولاني (ت ٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م).<sup>٣٠</sup> ويقرر

٢٧. ابن ماجه، الحافظ ابي عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م)، سنن ابن ماجه، ج ٤، حقق نصوصه ورقم كتبه وابوابه وأحاديثه وعلق عليه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م، ج ٢، ص ١٣٥٩ – ١٣٦٣؛ ابو داود، سنن، ج ٤، ص ١١٧.

٢٨. مسلم، صحيح، ج ٢، ص ١٩٣؛ البخاري، صحيح، ج ٦، ص ٣٥٨؛ ابن حنبل، مسند، ج ٤، ص ٣٣٦.

٢٩. قارن بفتح الباري شرح صحيح الامام ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري، لابن حجر، احمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج ٦، ص ٣٥٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر، فتح الباري؛ وابن حنبل، مسند، ج ٤، ص ٣٣٦.

٣٠. نعيم بن حماد المروزي (ت ٢٢٩ هـ/ ٨٤٣ م) كتاب الفتن والملامح، مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٩٤٤٩، ق ٧٦ (بدو خروج السفيناني)، ق ٧٧ (في الرايات التي تفترق في أرض مصر والشام وغيرها والسفيناني)، ق ١٧٩ (ما يكون بين بني العباس وأهل المشرق والسفيناني)، ق ١٨٠ (ما يكون من السفيناني في جوف بغداد

هؤلاء على تناقض رواياتهم (يروون بعضها عن الامام علي، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق!) أن السفيناني من ولد خالد بن يزيد بن معاوية، وأن رأيته ترتفع بالشام إلى جانب رايتين أخريين للاصهب والأبقع فيظهر عليهما السفيناني. ثم يسير إلى الكوفة فيفتحها، وبيعت جيشاً إلى مكة. أما هو فينطلق من الكوفة إلى بغداد ليحل بأهلها الويل. وتذكر بعض الروايات المبكرة عداوته للمهدي، لكن الروايات المتأخرة تصوره مقدماً أو تمهيداً له تنحصر مهمته في ضرب العباسيين لكي لا يلقي المهدي عقبات حين ظهوره. وترتب بعض الروايات التي يوردها نعيم بن حماد (ت ٢٢٩ هـ/٨٤٣ م) ظهور السفيناني بحرب داخلية بين رجلين من بني العباس هما ولا شك الأمين والمأمون. ويبدو أن ذلك كان وراء حماس الوليد بن مسلم (ت ١٩٥ هـ/٨١٠ م) له، وثورة أبي مسهر (ت ٢١٨ هـ/٨٣٣ م) أو خروجه مع أبي العميطر (ت ١٩٦ هـ/٨١١ م) الذي ادعى أنه السفيناني.<sup>٢١</sup>

— ومما له دلالتة أخيراً تلك الآثار الشامية الكثيرة في الفتن والملاحم، والتي تحول دار الاسلام بعد سقوط بني أمية إلى ميدان لمذابح وحروب أهلية متصلة لا تنتهي إلا بنزول عيسى ابن مريم، وقيام القيامة. وأطول أحاديث الفتن الأثر الذي يرويه الشاميون عن حذيفة بن اليمان (ت ٢٥ هـ/٦٥٥ م) مرفوعاً. والشاميون الرواة للحديث هم: الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر (ت ١٥٣ هـ/٧٧٠ م) عن بسر بن عبيد الله الحضرمي (ت حوالي ١٠٠ هـ/٧١٦ م) عن أبي إدريس الخولاني (ت ٨٠ هـ/٦٩٩ م) عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم. يقول حذيفة في هذه الرواية: «يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير من شر؟ قال: نعم! قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال نعم! وفيه دخن. قلت وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر...». ويقول حذيفة في آخر الحديث سائلاً رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فما أمرى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فان لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»<sup>٢٢</sup>.

ومدينة الزوراء،) ق ٨٢ ب، (دخول السفيناني واصحابه الكوفة)، ق ١٨٤ (الرايات السود للمهدي بعد رايات بني العباس وما يكون بينهم وبين اصحاب السفيناني والعباس وانظر عن رجال الشاميين الرواة لآثار السفيناني، على محمد جماز: التعريف برواة مسند الشاميين.

٢١. قارن: الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٨٣٠؛ ونسب قريش للزبيري، ابو عبد الله (ت ٢٣٦ هـ/٨٥٠ م)، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢ م، ص ١٣١؛ والذهبي، سير، ج ٩، ص ٢٨٤—٢٨٦.

٢٢. مسلم، صحيح، ج ٢، ص ٤١٢؛ ابو عوانه، يعقوب بن اسحق الاسفراييني (ت ٢١٦ هـ/٩٢٨ م)، المسند، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، ٣٦٢ هـ، ج ٤، ص ٤٧٤—٤٧٥. وسيسار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابو عوانه، المسند.

وقد أورد نعيم بن حماد، الذي روى الحديث الشريف السالف الذكر بعدة روايات<sup>٣٣</sup>، مئات الآثار والأحاديث عن الشاميين في تعداد الفتن والملاحم الآتية، وإدانة بني العباس الذين بلغوا الذروة في إشعال الفتن منذ خرجوا ببراياتهم السوداء بخراسان<sup>٣٤</sup>. وتمضي تلك الآثار للقول في النهاية: إنه لا أمل ولا خلاص حتى قيام الساعة. والحق أن ظروف حياة نعيم بن حماد الشخصية تعلق بعض تلك السوداوية البادية في كتابه. فقد سجن من أجل إرغامه على القول بخلق القرآن فمات في السجن عام ٢٢٩ هـ/ ٨٤٤ م<sup>٣٥</sup>. والمعروف عن نعيم أنه ذلك الجيل (جيل أحمد بن حنبل) الذي أكثر من الرواية عن الشاميين، الذين ازدهرت بينهم وفي أوساطهم أخبار وأثار الفتن والملاحم للظروف الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها بلاد الشام بعد سقوط الدولة الأموية. بل يمكن القول إن «أصحاب الحديث» جميعاً كان يسيطر عليهم آنذاك جو تشاؤمي ليس بسبب ملاحقة الدولة لهم فقط من أجل القول بخلق القرآن؛ بل لاعتقادهم أيضاً أن الزمان فاسد، وازدادت حلقة سواد الضلالة بانحراف الدولة عن الإسلام القويم. فقبل جيل واحد على اشتهار نعيم وأحمد بن حنبل وأصحاب الحديث الآخرين انتشر الأثران اللذان يشيان بتأزم الوعي لدى أهل الحديث. أول الأثرين ذلك الحديث الذي عرف باسم «حديث الفرقة الناجية»، والذي يرد بعدة روايات منها: «تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة؛ وهي الجماعة»<sup>٣٦</sup>. ويدخل الأثر الثاني المضمار السياسي بشكل مباشر فيقول: «تكون الخلافة ثلاثين عاماً، ثم يكون ملك عضوض»<sup>٣٧</sup>. والأثران غير شاميين؛ لكنهما يعلنان اتجاه «أهل الحديث» لرواية بعض المأثورات المنشورية والمحمية الشامية، رغم عدم اتفاقها مع مقاييسهم المعروفة آنذاك لنقد الأحاديث والآثار<sup>٣٨</sup>.

٣٣. ابن أبي شيبة، الفتن والملاحم، (مخطوط)، ق ١٤-٦ ب.

٣٤. المصدر نفسه، (مخطوط)، ق ١٥٢ (في خروج بني العباس)، ق ٥٦ أ (أول علامة تكون في انقطاع مدة بني العباس) حتى ٦٥ ب.

٣٥. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ١٢، ص ٣١٤؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٥١٩؛ الذهبي، سير، ج ١٠، ص ٦١٠-٦١٢.

٣٦. قارن برواية معاوية للحديث في مسند أحمد بن حنبل، ج ٤، ص ١٠٢.

٣٧. في مسند أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ٢٢٠، ٢٢١؛ ومسند الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود (ت ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م)، مسند أبي داود الطيالسي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج ٢، ص ١٦٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطيالسي؛ مسند: أبي داود، سنن، ج ٥، ص ٣٦ (رقم ٤٦٤٦). الترمذي، الجامع ج ٤، ص ٤٣٦ (٢٢٢٦) الحاكم حميد بن عبد الله بن خموريه، سنن، النيسابوري، (ت ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م)، المستدرک على الصحيحين في الحديث، ج ٤، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، ج ٢، ص ١٤٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحاكم؛ المستدرک.

٣٨. ابن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (ت ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م) اصول التفسير، تحقيق: عدنان زرزور، بيروت، ١٩٧١ م، ص ٥٩، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تيمية، اصول؛

ان العرض السابق الذي طال بعض الشيء قصد إلى أن يقدم فهماً معيناً من جانب بعض المحدثين الشاميين للتاريخ والزمان . وهو فهم يتجه بوعي للهرب من الزمان على حساب التاريخ . وقد أرجعت ذلك إلى الظروف الخارجية والداخلية التي أحاطت ببلاد الشام في القرنين الثاني والثالث للهجرة والتي حفلت بأزمات الواقع والوعي ، بحيث اتجه أهل الآثار للتشبث بالماضي (أي بما قبل التاريخ) ، والتطلع إلى المستقبل من أجل الخلاص (أي إلى ما بعد التاريخ) . و يبدو لي أن شكل الوعي هذا كان وراء عدم نشوء مدرسة أو مدارس تاريخية شامية حتى القرن الثالث الهجري . لكنني سبق أن ذكرت حقبة وسطى بين الشكلين الكبيرين للرؤية الشامية : النشوري أو القدسي ، والملحمي . وقلت : ان هذه الحقبة الوسطى ، والتي تشمل عصر الراشدين والأمويين الأوائل حتى مقتل الوليد بن يزيد ، عرفت ملامح تاريخية وتاريخية وبخاصة فترتها الثانية ، أي فترة الأمويين . لكن هذه الملامح لم تتطور إلى نهج أو مدرسة مذ حوصرت بعقود الفتنة وعهودها ، والتي بدأت بمقتل الوليد بن يزيد عام ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م . ويكون علينا – لفهم هذا البتر الذي نزل بتلك الحقبة – أن نعود للمحدثين أنفسهم ؛ وهم الفئة التي انفردت بتكوين الثقافة والوعي بالشام حتى القرن الرابع الهجري . فقد تبادل هؤلاء الاعتراف مع محدثي الحجازيين والعراقيين في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وكان لا بد من تنازلات متبادلة من أجل «الصورة الواحدة» و«الوعي المتقارب» ، فلم تسمح رؤية «الخلافة والملك» الحديثية بادخال الأمويين في سياق العصر الذهبي للإسلام في نظر أهل السنة . وبقي معاوية وحده مجالاً للأخذ والرد لأنه صاحبي لا يمكن رفضه وإن لم يمكن قبوله تماماً لصراعه مع رابع الراشدين . وبذلك حال الوعي المتصاعد لأهل الحديث ، وتقارب رؤاهم التاريخية في سائر أقطار الإسلام إبان القرن الثالث الهجري ، دون المتابعة للأمويين تاريخياً . وقد كان ذلك ممكناً في العراق ، وإلى حد ما بالحجاز لأن الرواة والزهاد والقصاص لم ينفردوا في القرنين الأولين بصنع الثقافة والوعي فيهما بخلاف الشام .

... وهناك من الأمارات بالمصادر ما يسمح بالقول : إن الثقافة الدينية لعلماء الشام لم تقتصر في القرن الأول الهجري على قصص الزهد والزهاد والملاحم ، فقد كان معاوية مهتماً بسير الملوك وأخبار الماضين ، وله كتب عبيد بن شريه كتاباً في ذلك<sup>٣٩</sup> . لكن ما أقصده هنا

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن بكر الخضير (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) ، الاتقان في علوم القرآن ، ٢ ج ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : السيوطي ، الاتقان ، وعن ابن حنبل في مسنده ثلاثة امور ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي ، وقد حشروا الأصل بالاستناد .

٣٩ . ابن النديم ، محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٤٦ م) ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ١٩٧١ ، ص ١٠٢ (كتاب الملوك وأخبار الماضين) . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن النديم : الفهرست .

بالثقافة الدينية الأخرى الاقبال على كتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه . فقد قام بذلك كل من المندنيين؛ أبان بن عثمان (ت ١٠٥ هـ/ ٧٢٣م)، وعروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ/ ٧١٢م)، وابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ/ ٧٤٢م) صحيح أن هؤلاء جميعاً لم يكونوا من أهل الشام؛ لكن سيرهم ومغازيهم كتبت بناء على استفتات «أو أسئلة» أو طلبات، مباشرة من الخلفاء أو بعض الولاة<sup>٤٠</sup>. وعلى الرغم مما يروى عن نفور معاوية وعبد الملك من كتابة السيرة لظهارها سابقة الامام علي وفضائل الأنصار<sup>٤١</sup>؛ فالواقع أن الرجال الثلاثة المذكورين سابقاً كانوا أصدقاء للامويين وبخاصة عبد الملك وأولاده، وقد كتبوا ونشروا وزويت عنهم كتبهم بالشام. وربما كان بين دوافع كتابة السيرة أو تشجيعها مقاصد تربوية تتعلق باتخاذ النبي صلى الله عليه وسلم في اقواله وأعماله قدوة ونموذجاً لأمرء البيت الملك والعلماء.. لكن الاعتبارات الفقهية لعبت الدور الأهم في ذلك. فقد كانت الجبهة مع البيزنطيين ما تزال مفتوحة، وكانت المشكلات المتعلقة بالقتال والغنيمة والشهادة والسبي والأراضي المفتوحة والأسرى تعرض وتتجدد، وتتطلب حلولاً، كان يجري البحث عنها في سير النبي ومغازيه، وسير الراشدين. ويبدو أن الجانب التاريخي من السيرة، والذي إستثار اهتمام أبناء البيت الأموي لاتصاله بشرعيتهم السياسية، لم يستثر كثير اهتمام لدى علماء الشام بدليل ما نلاحظه لدى أول شامي كتب «السير»؛ وأعني به الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ/ ٧٧٣م). إذ إنصب جهده على حل المشكلات العلمية العارضة أثناء الجهاد، أي إيضاح «السلوك السليم» من الناحية الفقهية، تجاه قضايا القتال السالفة الذكر<sup>٤٢</sup>. أما كتاب الوليد بن مسلم الدمشقي (ت ١٩٥ هـ/ ٨١٠م) في المغازي فيبدو أنه مجموعة من «الطوال» أو «المطولات» تغلب عليها ماثورات الفتن والملاحم.

ومع ذلك فإن تراث المغازي والجهاد والسير هذا هو الذي قاد في النهاية إلى نشوء مدرسة تاريخية شامية، محدودة على أي حال بالحدود التي تسمح بها طرائق المحدثين في النقد والاسناد. فقد قام مرابطان غير شاميين، من تلامذة الأوزاعي، هما عبد الله بن المبارك

٤٠. ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩م)، الاخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤م، ص ٢٢١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن بكار: الاخبار؛ الاصفهاني، ابو فرج علي بن الحسين (٣٥٦ هـ/ ٩٦٦م)، الاغانى، ٢٤ ج، دار الثقافة، تحقيق علي السباعي وآخرون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج ٢٢، ص ١٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاصفهاني: الاغانى.

٤١. Mafer Jassas, Die Prophetenbiographie in Islamischen Spanien, Frankfurt, 1989, pp 14-32 .

وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: Jassas, Die

٤٢. قارن بابي يوسف، يعقوب ابراهيم بن حبيب الانصاري (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨م)، الرد على سيرة الازواعي، عني بتصحيحه والتعليق عليه، ابو الوفاء الافغانى، دار الكتب العلمية، بيروت.

(ت ١٨١ هـ/٩٧٢م)<sup>٤٣</sup>، وأبو إسحاق الفزاري (ت ١٨٦ هـ/٨٠٢م)<sup>٤٤</sup> في خمسينات وستينات القرن الثاني بالكتابة في الجهاد والسير جامعين بين الفقه والأيدولوجيا. كان الجو النشوري والملحمي قد سيطر على مرويات الشاميين، بسبب المشكلات المتكاثرة على الجبهة مع البيزنطيين من جهة، وخيبة أملهم في السلطة العباسية من جهة ثانية، وضغوط السلطات المحلية والمركزية على العلماء من جهة ثالثة. فجاء كتاب ابن المبارك والفزاري ممثلين حماس المتطوعين للجهاد والشهادة، مستخدمين التراث الشاميين أنفسهم في فضل الشام، وأنها أرض الجهاد والنصر والاقدام والاسلام حتى قيام الساعة. وإلى هذا التقليد الذي أرساه فقهاء الثغور استند محمد بن عائذ الدمشقي (ت ١٣٤ هـ/٧٥١م) في كتبه في المغازي والسير والفتوح، والصوائف، مطالع القرن الثالث الهجري وهي كتب لم تصلنا لكن ما يعرضه ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ/١١٧٥م) من مادتها كاف لتبين طابعها التاريخي البحت<sup>٤٥</sup>.

على أن الاتجاه التاريخي لابن عائذ كان يرمي -بالإضافة لذلك، وبوعي- لمواجهة اتجاه الفتن والملامح الذي طغى على الثقافة الدينية الشامية آنذاك. يدل على ذلك الحديث الذي يرويه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» عنه، وفيه محاولة للحط من شأن الشخصية الملحمية للدجال. يقول محمد بن عائذ: حدثنا الهيثم بن حميد، حدثنا الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مزيد؛ قال: نكر الدجال في مجلس فيه أبو الدرداء؛ فقال نوف البكالي: لغير الرجال أخوف مني من الدجال. فقال أبو الدرداء: أخاف أن أسلب إيماني ولا أشعر<sup>٤٦</sup>!

وقد استخدم اتباع التيار التاريخي طرائف رجالات الملاحم والفتن ذاتها للرد عليهم: أي أنهم فعلوا كما فعل الهيثم بن حميد وابن عائذ فأوردوا آثاراً وأحاديث ملحمية الطابع، لكنها متفائلة المضمون أو إيجابية. ففي رواية لهشام بن عمار (ت ٢٤٥ هـ/٨٥٩م) عن أبي الدرداء مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>٤٧</sup>: «أهل الشام وأزواجهم وذرايعهم

٤٣. ابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله المروزي (ت ١٨١ هـ/٧٩٧م)، الجهاد، تحقيق نزيه حماد، دار النور، بيروت، ١٣٩١ هـ/١٩٧١م، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن المبارك: الجهاد.

٤٤. الفزاري، أبو سحاق، كتاب السير، تحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م، وانظر: رضوان السيد، «مراجعة لكتاب السير وعلاقته بكتب السير الأخرى»، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٨٦م، ١٧٤.

٤٥. قارن عنه: ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن الرازي (ت ٢٢٧ هـ/٩٢٨م)، الجرح والتعديل، ٩ ج، عن النسخة المحفوظة في كوبريلي، تحت رقم ٢٧٨ استنبول، وعن النسخة المحفوظة في مكتبة دار الكتب المصرية تحت رقم ٨٩١، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٢-١٩٥٢م، ج ٨، ص ٥٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن أبي حاتم، الجرح؛ الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٠: ابن عساكر، تاريخ، نسخة مصورة بالأوفست عن مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق، نشر دار البشير، عمان، ١٩٨٨م، م ١٥، ص ٤٨٦-٤٨٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ، (نسخة مصورة).

٤٦. الذهبي، سير، ج ١١، ص ١٠٦-١٠٧.

٤٧. ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ٢٦٩، في باب: ما ورد في أهل الشام مرابطون، وأنهم جند الله الغالبين.

وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله. فمن احتل منها مدينة فهو في رباط، ومن احتل منها ثغراً من الثغور فهو في جهاد». وفي رواية لسعد بن بشر بسنده إلى أبي هريرة مرفوعاً أن أول الناس هلاكاً فارس ثم العرب إلا بقايا من العرب بالشام<sup>٤٨</sup>. وفي رواية لعمير ابن هاني (ت ١٢٧ هـ/ ٧٤٤م) عن معاوية بن أبي سفيان مرفوعاً: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله جل وعز وهم ظاهرون على الناس، فقام مالك بن يخامر السكسكي فقال: يا أمير المؤمنين! سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام! فقال معاوية: ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم أهل الشام<sup>٤٩</sup>. ويعود محمد بن عائد الدمشقي (ت ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨م) للرواية بأسناد جمعي (عن عبد الله بن عبد الثمالي، وجبير بن نفير، والحارث، ابن الحارث وكثير بن مرة، ونفر من الفقهاء) عن الصحابي النازل بالشام عبد الله بن حوالة مرفوعاً: «تكون أجناد ثلاثة، جند بالشام، وجند بالعراق، وجند باليمن. فعليكم بالشام فإنها صفة الله من بلاده، وإليها يجتبي صفوته من عباده. فمن أبي فليستق بغدر اليمن؛ فإن الله تكفل لي بالشام وأهله»<sup>٥٠</sup>.

على أن التساؤل الذي يمكن أن يعرض هنا يتعلق بعلّة ظهور التاريخ الشامي في القرن الثالث. ذلك أن الظروف الخارجية والداخلية التي حالت دون ظهوره من قبل لم تتغير. فإوضاع الجبهة مع البيزنطيين لم تتحسن. والدولة العباسية القائمة للشاميين كانت ما تزال موجودة وظاهرة السيطرة بالشام، إن الذي تغير في الحقيقة كان موقع المحدثين والفقهاء ودورهم، مما أدى إلى تغير وعيهم بذواتهم وبالواقع من حولهم. فقد استطاعوا الخروج من محنة المأمون والمعتصم والوائق بصفوف أكثر توحداً، ووعي أكثر وضوحاً بمهمتهم في دار الإسلام، وبين جماعة المسلمين، وعلاقتهم بالشريعة والدولة. فقد ظهر إبان المحنة مصطلح «أهل السنة والجماعة» الذي اجتمع تحت لوائه منذ مطلع القرن الثالث آلاف المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أرض الإسلام<sup>٥١</sup>. واستطاع هؤلاء، وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل وتلامذته، أن يطوروا مجالاً دينياً حياتياً خاصاً يقر عملياً انفصال الشريعة عن السياسة مع

٤٨. ابن عساکر، تاریخ، ج ١، ص ٢٩٦ في باب: ما جاء أن بالشام يكن بقايا العرب عند حلول البلايا والأمر المرتقب.

٤٩. ابن حنبل، مسند، ج ٤، ص ١٠١، ابن عساکر، تاریخ، ج ١، ص ٢٥٢ في باب: ما جاء عن سيد المرسلين في أن أهل دمشق لا يزالون على الحق ظاهرين.

٥٠. ابن عساکر، تاریخ، ج ١، ص ٧٢ في باب طويل بعنوان: ذكر وحث المصطفى صلى الله عليه وسلم أمتة على سكنى الشام وإخباره بتكفل الله عز وجل بمن سكنه من أهل الإسلام. وقارن بكتاب الجهاد، ص ١٤٢-١٤٥؛ وابن حنبل، مسند، ج ٤، ص ١١٠.

٥١. يمكن تتبع مصطلح «أهل السنة» أو «أهل الحديث» حتى منتصف القرن الثاني الهجري. أما مصطلح «أهل السنة والجماعة» فيبدو أنه لم يظهر إلا في مطلع القرن الثالث الهجري. وقد ورد في رسالة المأمون ضد المحدثين عام ٢١٨ هـ قارن: الطبري، ج ٣، ص ١١١٣-١١١٦.



الاحتفاظ بحق السيادة والطاعة للسلطان فيما ليس فيه معصية لله<sup>٥٢</sup>. وقد أعاد ذلك تدريجياً التوازن إلى العلاقات بين المحدثين والعباسيين إذ تبادلوا الاعتراف. فمما له دلالة أن يكون ابن عائذ الدمشقي (ت ٢٢٤ هـ / ٨٤٨ م) رائد المدرسة التاريخية الشامية صاحب الخراج بدمشق، أي أنه كان موظفاً إدارياً كبيراً بالدولة<sup>٥٣</sup>. وما لبث العباسيون أن تبنا تدريجياً الاتجاهات العقيدية لأهل السنة كما يتجلى ذلك في منشور المعتضد ضد الفلاسفة<sup>٥٤</sup>. بل إنهم مضوا بعيداً في ذلك في القرنين الرابع والخامس إذ تبنا الجانب السياسي / التاريخي من الاتجاه الشامي بالاعتراف بشرعية خلافة معاوية بن أبي سفيان كما يبدو من عقيدة الخليفة العباسي القادر بالله<sup>٥٥</sup>.

ولعل أوضح ما يدعم ما ذهب إليه أن نشوء المدرسة التاريخية الشامية يعود لتغير وعي العلماء بذواتهم ودورهم ومسؤوليتهم؛ تواريخ ثلاثة وصلتنا من القرنين الثالث والرابع؛ هي: تاريخ أبي زرعة الدمشقي (ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م)<sup>٥٦</sup>، وتاريخ الرقة للقشيري الحراني (ت ٣٢٤ هـ / ٩٤٥ م)<sup>٥٧</sup>، وتاريخ داريا لعبد الجبار الخولاني (ت حوالي ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)<sup>٥٨</sup>. فمع أنها كما تبين أسماؤها تواريخ محلية، أي تواريخ مدن؛ لكنها في الحقيقة تكاد تقتصر على تراجم وملاحظات عن علماء المدن الثلاث منذ عصر الصحابة وحتى عصر مؤلفيها.

٥٢. قارن بمقالة أيرلابيدس بعنوان: «الدين والدولة والتطورات المبكرة في الاجتماع الإسلامي الوسيط»، ترجمة: رضوان السيد، مجلة الاجتهاد، م ٢، ١٩٨٩ م، ص ١١٥ - ١٥٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أيرلابيدس: الدين والدولة؛ ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ٢٠٢ باب بعنوان: ما نكر من تمسك أهل الشام بالطاعة واعتمادهم بلزوم السنة والجماعة. وقارن بمقالتني: «الجهاد والجماعة: دراسة في دور علماء الشام في تكون مذهب أهل السنة»، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، م ١٢ (١٩٨٥ م)، ص ٩ - ٢٠. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: السيد، الجهاد والجماعة.

٥٣. ابن عساكر، تاريخ، (نسخة مصورة)، م ١٥، ص ٤٨٨؛ الذهبي، سير، ج ١١، ص ١٠٥.

٥٤. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢١٦٥. وكان المنشور مقروناً وقتها بدم معاوية.

٥٥. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٨، ص ١١١.

٥٦. أبو زرعة، تاريخ. وانظر دراسة عنه قبل نشره.

G. Rotter, «Abu Zura al-Dimasqi und das Problem des Fruehen Arabischen Geschichtsschreibung in Syrien», Die Welt des Orients, Bd VI, 1970-1971, p.80-104.

وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: Rotter, «Abu Zura»

٥٧. القشيري، أبو علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن الحراني (ت ٣٢٤ هـ / ٩٤٥ م) تاريخ الرقة ومن نزلها من اصحاب رسول الله، تحقيق ناصر الغساني، مكتبة صبحي المصري، حماة، ١٩٧٩ م. . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القشيري، تاريخ الرقة.

٥٨. الخولاني، أبو علي عبد الجبار بن عبد الله (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)، تاريخ، داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعين التابعين، تحقيق سعيد الافغاني، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤ م. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخولاني، تاريخ داريا.

و يقل فيها الحدث السياسي حتى يكاد ينعدم بتاريخ داريا . كما أن ملاحظات أبي زرعة تدنو من كتب التاريخ المعروفة عند المحدثين الأوائل ، والتي تقتصر على نكرتواريخ وفيات الرواة ، وتصحيح أسمائهم وكناهم ، وعمن رروا ، ومن روى عنهم<sup>٥٩</sup> . وتتضمن تلك التواريخ معلومات كثيرة عارضة من التقاليد المحلية السياسية والفقهية والإدارية في المدن الثلاث ، بل والمدن الشامية الأخرى وبخاصة حلب وحمص وبيت المقدس . بيد أن مفهومها للتاريخ أو التواريخ الجديدة بالذكر في تلك المدن أنها حياة العلماء ، وعلمهم ، وفتاويهم ، وعقائدهم ، ومصائرهم ، ووفياتهم وتقاليد العلم التي اصطنعوها بتلك المدن . وبذلك تتوارى الحياة السياسية ، وإلى حد الحياة الاجتماعية بتلك المدن لصالح دقائق حيوات النخبة العاملة المتصاعدة الوعي ، والقوية الاحساس بالذات والدور .

لكن تلك النخبة تملك وعياً محدداً بالتاريخ و يناقض تماماً وعي رجالات الفتن والملاحم . صحيح أن الخولاني والقشيري لا يتحدثان عن ذلك صراحة لكن الأطار الذي يفهمان من خلاله المسائل واضح . فهم جميعاً يعتبرون البداية التاريخية للمدن مرتبطة بدخول الاسلام إليها ، وظهور إدارته فيها ، أو نزول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ببعض نواحيها . أما أبو زرعة فيعقد فصولا قصيرة عن مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ، وهجرته ووفاته ، وشيبه ، ودفنه ، ونسبته ونعته ، ومغازيه<sup>٦٠</sup> . ثم يضع فجأة هذا العنوان : «في ذكر التاريخ» وتحتة<sup>٦١</sup> : «فاملى علينا عبد الأعلى بن مسهر ما صح من التاريخ وما العمل عليه ، وحدثنا أن التاريخ منذ نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . وتوفي في سنة عشر لتمامها من التاريخ» . وبعد بضع صفحات تتضمن أحداثا تاريخية عن فتوح الشام ، وأوائل الصحابة الذين نزلوا بها رواها أبو زرعة عن الوليد بن مسلم ، ومحمد بن عائذ ، وأبي مسهر<sup>٦٢</sup> يبدأ أبو زرعة على غير ترتيب دقيق بذكر طبقات علماء الشام ، وملاحظات قصيرة عنهم تقتصر أحيانا على ذكر سنة وفاتهم ، أو إيراد بعض الأحاديث عنهم ، أو رأي بعضهم في بعض ، أو رأي أحمد بن حنبل بهم . وهكذا حتى نهاية الكتاب . و يفعل ذلك كل من القشيري

٥٩ . ابن وديكين ابو نعيم الفضل (ت ٢١٩هـ / ٨٢٤م) ، التاريخ والوفيات ؛ ابن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م) ، التاريخ والعلل ، وللبخاري ابو عبدالله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) ، التاريخ الكبير ، والتاريخ الصغير ، وفهرست أحاديثه : يوسف المرعشي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٦ م .

الجبسوي ، أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي (ت ٢٧٧هـ / ٨٩٠م) ، المعرفة والتاريخ ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٤ م ، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البسوي ، المعرفة .

٦٠ . ابو زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٦٧ .

٦١ . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

٦٢ . المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٩٦ .

والخولاني في كتابيهما السالفي الذكر. ولهذا فعلى الرغم من أنهم يعيدون التاريخ إلى الزمان، ويؤكدون على قوة الاسلام واستمراره، واستمرار الجماعة من خلال العلماء والتقاليد العالمية؛ لكنهم يضيفون من معنى التاريخ حتى فيما يوردونه من أخبار عن العلماء. فالعالم في التواريخ الثلاثة لا يعيش في سياق اجتماعي وسياسي معين أو واضح، بل يبدو حلقة في سلسلة متفردة تفسر كل ما عداها. ولولا سنوات الوفاة والولادة التي تتكرر في كل صفحة تقريباً، وبعض الملاحظات الناقدة لبعض العلماء لما شعر القاريء أن الأمر تاريخي وحقيقي. فالتاريخ واضح وملحوظ لكنه منتشر ومتذرب بفعل القطاعات والانشقاقات التي تحدثها الاسانيد من جهة، وغياب السياقين الاجتماعي والسياسي من جهة ثانية.

و يبلغ هذا النهج الجديد ذروة إيجابية على يد أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس الأزدي صاحب «تاريخ الموصل». فقد تجنب الوقوع في إسار تراجم علماء الموصل بتخصيصه كتاباً لذلك هو «طبقات المحدثين» أو «طبقات محدثي الموصل». ورغم ضياع القسم الأول من الكتاب فإن النهج التاريخي للأزدي واضح تماماً<sup>٦٣</sup>. إذ يعالج مصائر مدينة الموصل في سياق التاريخ العام لدار الاسلام. وقد اختار لذلك أسلوب التاريخ على السنين. وطريقته أن يذكر في مطلع كل سنة الأخبار الاسلامية العامة منطلقاً في الغالب من مقر السلطة المركزية بدمشق أو ببغداد ثم يثني بنكر أخبار الموصل في ذلك العام، ومنها أخبار السنة بذكر من مات فيها من العلماء وكبار الرجال مع الملاحظات الضرورية. وهو يشبه في ذلك أسلوب الطبري لكنه أكثر تحراً منه، إذ نادراً ما يذكر إسناداً لأخباره. ثم إنه يعتبر التاريخ جامعاً للمسائل العلمية والسياسية والاجتماعية والثقافية العامة، فيبدو أنضج من الطبري أحياناً. ورغم ذكر المصادر الموجز له باعتباره محدثاً معروفاً؛ لكن اهتماماته السياسية والثقافية الواسعة، تشعر بأنه كانت له أيضاً علاقة بالديوان بالموصل على الأقل. و يبدو الطبري أكثر موضوعية تجاه بني العباس منه؛ إذ إنه كثيراً ما يحمل عليهم حملات شعواء. ويرجع ذلك إلى أن العباسيين استباحوا الموصل مرات خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة. و يظهر في أخباره، وعروضه السياسية والعلمية امتلاؤه بالوعي بدور العلماء، واستمرار الاسلام وسلطانه من خلالهم. أما مفهومه للزمان فيدون من الفهم الأشعري له باعتباره أنات متجددة ذروته في الماضي النبوي لكنه مشرع الأفاق على سيرورة الأمة وصيرورتها وتحققها المستمر غير المنقطع في الزمان.

وتتحرر تواريخ المدن بالشام من تقاليد المحدثين تماماً بعد الأزدي. فلا نجد شيئاً منها عند القلانسي (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م) في تاريخ دمشق<sup>٦٤</sup>، ولا في تاريخ ميفارقين وأمد

٦٣. ضاع من التاريخ القسم الأول والقسم الثالث، وبقي الثاني فقط للسنوات ١٠١-٢٢٤ هـ.

٦٤. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.

لابن الازرق (حوالي ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م)<sup>٦٥</sup>. لكن هذين التاريخين محليان<sup>٦٦</sup> بما للكلمة من معنى، لانهما لا يعرضان غالباً إلا لأخبار المدينتين فقط؛ بل لأن تفكك الدولة الإسلامية يبدو فيهما إذ يفقد الزمان معناه، ويتحول التاريخ إلى تتبع يومي للأحداث غير خاضع لفكرة شاملة تعطي التاريخ معناه.

ولم تكن الظروف قد تغيرت تغيراً ظاهراً عندما بدأ ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ/١١٧٥ م) بكتابه «تاريخ دمشق الكبير»<sup>٦٧</sup>. لكن ابن عساكر كان مؤمناً بإمكان تحرير بلاد الشام من الصليبيين، ونضوج الظروف لذلك من ضمن مشروع نور الدين محمود الكبير للتحرير والنهوض. ولذا جاء كتابه العظيم في الحقيقة جامعاً لكل تراث الإسلام، ودار الإسلام، وأمجاد الشام كجزء من حركة الجهاد لتحرير البلاد.

٦٥. ابن الازرق، ابو الفضل عبد الله بن محمد (ت حوالي ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م)، تاريخ ميفارقين، نشر جزء منه بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤.

٦٦. قارن عن التواريخ المحلية بالشام:

Sami Dahan, «The Origin and Development of the Local Histories of Syrian» in *Historians of the Middle East* Edited by B. Lewis and P.M. Holt, London 1964, pp. 108-125.

وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: Dahan, Origin

و يريد Axel Havemnn مقلداً في ذلك إلى حد ما Bulliet أن يرى وعياً مدنياً وإدارة ذاتية بالمدن الشامية الوسيطة لضعف السلطة المركزية أو غيابها:

Axel Havemann, *Riasa and Qada*, Freiburg, 1975, قارن، «The Vizier and the Râis in Syria» in, *IJ MES*, Vol. 21, 1989, pp.233-242.

٦٧. نشر منه مجمع اللغة العربية بدمشق محققاً لعدة مجلدات متفرقة عبر أربعين عاماً. وقامت دار البشير بعمان بنشر صورة بالأوفست له عام ١٩٨٩ م. وصدرت دراسات قصيرة متفرقة، وقارن عن بعض جوانبه بملكة أبيض، التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لأبن عساكر (٤٩٩ هـ/١١٠٥ م - ٥٧١ هـ/١١٧٥ م) دار العلم للملايين ببيروت، ١٩٨٠ م.

## فقهاء الشام في العصر العباسي الأول وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين

أحمد بدر \*

نقصد بالفقهاء تلك الشريحة الاجتماعية التي كرسَتْ اهتماماتها الفكرية للعلوم الدينية وليس للفقهاء تحديدًا باعتبار أن التخصص في العلوم الإسلامية كان في بدايات ظهوره ولم تتبلور آنذاك حدوده الدقيقة.

وقد توزع هؤلاء الفقهاء في الحواضر خاصة: الصغيرة والمتوسطة منها كطبرية وعسقلان وأنطاكية والرقّة وحران، أو الكبيرة كحمص ودمشق مع ثغرها بيروت. وفي ثغور الشام الشمالية حظيت المصيصة، بعد ما أصبحت موضع اهتمام واعداد لعدد من العباسيين الأوائل، باكبر عدد منهم<sup>١</sup>. ولعل ما ميز دمشق أكبر هذه المراكز - حيث تجمع العدد الأكبر منهم - تفاوت في الدرجات العلمية بين الفقهاء، وبرز زعامة علمية لهم خلعت كتب الرجال على أفرادها القابا دالة مثل «عالم الشام» و«فقيه الشام» و«شيخ الشام». هذا وانعقد لواء الزعامة منذ أواسط العصر الأموي لمكحول بن عبد الله الدمشقي (ت ١١٣ هـ / ٧٣١ م)<sup>٢</sup>، وبعده أصبحت الهيمنة في هذا الميدان لعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م)<sup>٣</sup> من صنعاء دمشق، والمرابط فيما بعد في بيروت ثغر دمشق وموضع رباط أهلها. وتلاه سعيد بن عبد العزيز (ت ١٦٧ هـ / ٧٨٣ - ٨٤ م)<sup>٤</sup>، ثم تلميذه الوليد بن مسلم<sup>٥</sup> (ت ١٩٥ هـ / ٨١١ م)، وقد غطى عليه في جزء من حياته وانفرد بالزعامة الفقهية

\* قسم التاريخ، جامعة قطر، الدوحة، دولة قطر.

١. اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)، تاريخ اليعقوبي، ٢، ج، دار صادر، ودار بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م، ج ٢، ص ٣٨٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي: تاريخ.
٢. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤ م) سير اعلام النبلاء، ٢٥، ج، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ط ٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ م، ج ٥، ص ١٥٥ - ١٦٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، سير.
٣. الذهبي، كتاب تذكرة الحفاظ، ٤، ج، مكة، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م، ص ١٧٨ - ١٨٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الذهبي، سير.
٤. البخاري، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م)، التاريخ الكبير، ٨، دار احياء التراث، بيروت، ٢، ج، ١، ص ١٢٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البخاري، التاريخ.
٥. المصدر نفسه، ٨، ج، ٢، ص ١٥٢ - ١٥٣.

بعده ابو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) ولم يحصل في المركز الكبير الثاني في الشام وهو حمص ما حصل في دمشق من تمايز كبير في درجات الفقهاء ، فبرز منهم العديد في وقت واحد مثل علي بن عياش الألهاني (ت ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م) <sup>٦</sup> وأبي اليمان الحكم بن نافع البهراني (ت ٢٢١ هـ / ٨٣٥ م)، ولع في الثغور الشمالية اسم ابي اسحق ابراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري (ت ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م) <sup>٨</sup>.

وتباينت أصول هؤلاء الفقهاء ومنابتهم، فقد كان الأوزاعي — حسب رواية — من سبى السند في الأصل ، وكان الوليد بن مسلم من رقيق الأخماس قبل أن يشتري حريته من مالكيه ليصبح مولى عتق . أما اسماعيل بن عياش (ت ١٨١ هـ / ٧٩٧ م) المنعوت بمحدث الشام فكان مولى لعنس ، ويدل تلقيبه بالأزرق حيناً وبالأحمر حيناً آخر على أنه رومي الأصل <sup>٩</sup>. وكان الحكم بن نافع ابو اليمان الحمصي مولى امرأة بهرانية. كما كان بينهم عرب ، فسعيد ابن عبد العزيز تنوخي وأبو مسهر غساني ، وهشام بن عمار (ت ٤٥ هـ / ٨٥٩ - ٨٦٠ م) سلمى .

ومن ناحية أخرى تفاوتت أسر هؤلاء في الثروة ، فقد نشأ الأوزاعي يتيماً تعهده أحد السادة وأدخله الديوان بعد بلوغه مبلغ الرجال ، بينما ورث المولى اسماعيل بن عياش عن ابيه أربعة آلاف دينار ادعى انفاقها في سبيل العلم ، لكنه بقى ميسوراً بقية حياته وكريماً لا يرضى لأصدقائه من ضيافة في مزرعته سوى الخروف والخبيص <sup>١٠</sup>. أما عبد الله بن العلاء ابن زبر (ت ١٦٥ / ٧٨١ - ٧٨٢ م) أحد علماء دمشق فكان من أشرف أهلها <sup>١١</sup>.

وكان علم بعض من دعوناهم فقهاء وسيلة من وسائل رزقهم ، حيث عملوا في الوظائف الدينية من امامة المساجد والأذان فيها كما هو حال صفوان بن دينار الثقفي ولاء (ت ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ - ٥٤ م) <sup>١٢</sup> الذي كان مؤذناً في جامع دمشق . كما عمل بعضهم في التأديب مثل عمرو بن ميمون بن مهران (ت ١٤٥ هـ / ٧٦٢ - ٧٦٣ م) المؤدب في حصن مسلمة <sup>١٣</sup>.

٦. الذهبي، سير، ج ١٠، ص ٢٢٠ - ٢٢٨.

٧. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٢٨ - ٢٤١.

٨. العصفري، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ - ٨٥٥ م)، كتاب الطبقات، تحقيق اكرم العمري، بغداد ١٩٦٧ م، ص ٢١٧ م، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: العصفري، الطبقات.

٩. المزي، ابو الحجاج يوسف المزي (ت ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ - ١٣٤٢ م)، كتاب تهذيب الكمال، نسخة مصورة عن النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية، دار المأمون للتراث (دون تاريخ)، ج ١، ص ١٠٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المزي، تهذيب.

١٠. الذهبي، سير، ج ٨، ص ٣١٤ - ٣٥١.

١١. المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

١٢. المصدر نفسه، ج ١١، ص ٤٧٥.

١٣. المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

وكسب آخرون عيشهم بمزاولة النشاط الاقتصادي، فكان مروان بن محمد بن حسان الأسدي الدمشقي (ت ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) يعرف بالطاطري أو البطائني نسبة للأقمشة الرخيصة أي الكرابيس التي كان يبيعه<sup>١٤</sup>. وكان محمد بن المبارك بن يعلى القرشي الذي افتى بدمشق بعد أبي مسهر وتوفي (٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) قلانسيا<sup>١٥</sup>، وعمل أبو اليمان الحكم بن نافع الحمصي في الزراعة بسلمية حيث كانت له مزرعة يطلب فيها من يتردد عليه من التلاميذ أن يساعده في قطف الزعفران<sup>١٦</sup>. وقد اعتبرت هذه الاعمال كلها شريفة لا تحط من قيمة صاحبها في نظر أقرانه الذين اعتبروا العمل لدى السلطان مكروها بجميع أشكاله بدءاً بالقضاء وانتهاء بالخراج<sup>١٧</sup>. كما أعتبر أخذ المال مقابل تعليم الحديث منقصاً من العدالة، إذ أمسك بعضهم عن الأخذ من رواية هشام بن عمار السلمي الدمشقي للحديث رغم شهرته لأنه كان يبيعه ولا يحدث الجماعة إلا بعد دفعهم للمال<sup>١٨</sup>.

وقد تميز هؤلاء في ملابسهم المكونة من جبة تحتها شعار<sup>١٩</sup> ثم طيلسان<sup>٢٠</sup>، و يتتعلون خفا، وقد بطن خف للأوزاعي بجلد ثعلب. كما كانت العمامة المدورة بعذبتين أو بدونهما كعمامة الأوزاعي<sup>٢١</sup>، ويذكر ابن معين (٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م) الذي زار الشام بعد فترتنا بقليل انه لم يكن يععم إلا من كان مرجئاً<sup>٢٢</sup>. وربما سادت القلنسوة خلال الفترة العباسية التي سميت طويلة. وكان أبو مسهر عبد الأعلى الغساني يضع قلنسوة بعمامة سوداء عدنية. و يبدو أن البياض في لون الملابس السائد عند الأمويين، بقي عند البعض على الأقل كما هو الحال بالنسبة للفقيه السالف الذكر.

١٤. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥١٠-٥١٢.
١٥. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٩٠-٣٩١.
١٦. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣١٩-٣٢٤.
١٧. ابن سعد، محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) الطبقات الكبرى، ٨، ج، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧ م، ج ٧، ص ٤٧٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.
١٨. الذهبي، سير، ج ١١، ص ٤٢٥-٤٢٦.
١٩. الشعار، اللباس الداخلي الملاصق للبدن، انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م)، لسان العرب، ١٥، ج، دار صادر، بيروت، مادة (شعر)، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن منظور: لسان العرب.
٢٠. يعتقد دوزي: في المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، بغداد ١٩٧١ م، ص ٢٢٩-٢٣٠، أن الخمار هو ما يطرح على الرأس والكتفين أو على الكتفين فقط.
٢١. الذهبي، سير، ج ١١، ص ١١٩ و ١٢٨.
٢٢. القاضي عياض، أبو الفضل عياض موسى بن عياض اليحصبي السبني (ت ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذاهب مالك، ٤، ج، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٧ م، ج ١-٢، ص ٤١٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القاضي عياض، المدارك.

بهذا الشكل الخارجي كان هؤلاء العلماء يلقون معارفهم على المتحلقين حولهم من تلامذتهم في منازلهم أو مجالسهم في المسجد، كذلك الذي كان لأبي مسهر عند الحائط الشرقي في المسجد الأموي بين العشاء والعتمة. وقد ساد في هذه الفترة تدوين التلاميذ لما يسمعون من شيوخهم، بعد ما كانت بدايته في أواخر العصر الأموي حين لزم هشام ابن عبد الملك العالم الزهري أن يملئ علمه على بنيه مما جعله يأذن للناس بالكتابة قائلا «كنا نكره الكتاب حتى أكرهنا عليه الأمراء فرأيت أن لا أمنعه مسلما»<sup>٢٣</sup>.

وكان من مشاهير المدونين من تلاميذه أبو بشر شعيب بن حمزة الأموي ولاء الذي سمع منه ١٧٠٠ حديث دونها بضبط وخط حسن<sup>٢٤</sup>. ويبدو أن المكتوب بقي كمساعد على الحفظ وليس أصل العلم سواء للتلاميذ أو شيوخهم، فقد كان للأوزاعي ثلاثة عشر قنடاقا أو كراسا. وبلغ ما أخذ عن الوليد بن مسلم ٧٠ كتابا، ولو أنها صغيرة حسب قول الذهبي الذي يظن بأنه ليس منها ما يبلغ مجلدا. لكن الحاجة للشيخ ظلت قائمة إلى حد أنه هو الذي يصلح لتلاميذه ما أخذوه عنه. كما أن القواعد السائدة عند البعض أن العلم لا يؤخذ من صحفي. وقد خالف البعض هذه القاعدة، مما أدخل في دنيا العلم أناسا من غير أهلها. إذ يقول الأوزاعي: «كان العلم كريما يتلاقاه الرجال فيما بينهم، فلما دخل في الكتب دخل فيه غير أهله»<sup>٢٥</sup>. وتطرق بعضهم الآخر ضد الكتاب حتى لم يعتمدوا على المكتوب كمساعد للذاكرة، مثل عالم الجزيرة عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل القضاعي (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨-٨٤٩م) الذي لم يشاهد له كتاب قط وكل ما حدث به فمن حفظه<sup>٢٦</sup>. ومما استخدمه طلاب العلم الكاغد الفرعوني، أي أوراق البردي، على الأرجح.

و يستفاد مما تورده كتب الرجال أن مضمون هذا العلم ديني، ومع ذلك يمكن الافتراض أن شيئا ضروريا من علوم الحساب والرياضيات لتطبيق أحكام الشريعة في مجالات الخراج ومساحة الأراضي كان من جملة ما درسه البعض على الأقل، بدليل شغلهم لأغلب وظائف الخراج وتعديل أراضي الشام ومساحتها. أما نواحي هذا العلم الديني فكانت أقرب إلى الكتلة الواحدة التي يحيط بها العالم منها إلى العلوم المتميزة ذات الحدود الواضحة التي يختص العالم بواحد منها دون غيره.

وتشتمل هذه الكتلة على قراءة القرآن والحديث الذي سمعوه من شيوخ بلدهم، كما ارتحل العديدون لسماعه من خارجها وخاصة من المدينة، كما فعل أبو مسهر وعبد الله بن يوسف أبو محمد الكلاعي لسماح الموطأ من مالك (١٦٦هـ/٧٨٢-٧٨٣م). وكذلك الفقه كأحكام جاهزة أو فتاوي أخذوها عن شيوخ بلدهم في هذه الفترة، وكان هؤلاء بدورهم قد

٢٣. الذهبي، سير، ج ٥، ص ٣٢٤.

٢٤. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٨٧-١٨٩.

٢٥. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١١٤-١١٥.

٢٦. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٣٤.



أخذوها عن الصحابة. وهكذا قال الأوزاعي «العلم ما جاء عن أصحاب محمد وما لم يجيء عنهم فليس بعلم»<sup>٢٧</sup>. أما سعيد بن عبد العزيز عالم الجيل التالي، فقال «العلم ما سمعنا عن الزهري ومكحول»<sup>٢٨</sup>، وجاء أبو مسهر لياخذ كل ما عند سعيد بن عبد العزيز بعد ما لازمته اثني عشر عاما.

وخصص بعض الدارسين الجزء الأكبر من اهتمامهم لناحية واحدة من كتلة العلم هذه، وانتجوا فيها، مثل: محمد بن عائذ القرشي (ت ٢٠٣/٨١٨ - ٨١٩م) على أخبار الماضي فجمع كتاب المغازي وكتاب الفتوح والسير<sup>٢٩</sup>. أما الوليد بن مسلم فيمثل التركيز على أكثر من ناحية، إذ اشتهر بكونه حافظا، ومع ذلك كانت له فتاواه وما حفظه من الأحكام حتى رأى أحد معاصريه أن كتب مصنفاة السبعين صلح ان يلي القضاء<sup>٣٠</sup>. وكذلك كان الأوزاعي يروي نحو الف حديث مسند وألوف من الموقوفة والمرسلة، لكنه هيمن كذلك على الحياة الفقهية، إذ بلغت فتاواه من الكثرة حدا جعل البعض يطلقون العنان لخيالهم بالمبالغة فيجعلون عددها سبعين ألف مسألة<sup>٣١</sup>. وأصبحت له مدرسة خاصة أو مذهب فقهي ساد في الشام والأندلس. مع وجود البعض ممن يأخذ عن غيره من الأئمة مثل عبد الله بن يوسف الكلاعي الذي كان عنده من مالك مسائل<sup>٣٢</sup>.

و يقوم هذا المذهب على الاستناد بعد القرآن على السنة وأقوال الصحابة ونبذ الرأي، فقد نصح الوليد بن مسلم بالقول «عليك بأثار من سلف وأن رفضك الناس وأياك وآراء الرجال وان زخرفوه لك بالقول»<sup>٣٣</sup>. ولم يقتصر تمييز الاتجاه السائد في الشام هذا عن اتجاهات الأمصار الأخرى على الأصول فحسب، بل تميز بالفروع أيضا في مسائل محددة عن الاتجاه السائد في العراق، وكذلك عن السيطرة في الحجاز<sup>٣٤</sup>. وكان شديدا على البدع ان يقول الأوزاعي «ما ابتدع رجل بدعة إلا سلب الورع».

و يبدو أن أهم البدع التي اشتغل فقهاء الشام بمحاربتها آنذاك كانت الجدل في

٢٧. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢٠.

٢٨. ابو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري، (ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م)، تاريخ ابو زرعة الدمشقي، ج ٢، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٠ م، ج ١، ص ٢٧٤ - ٢٧٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو زرعة، تاريخ.

٢٩. الذهبي، سير، ج ١١، ص ١٠٤ - ١٠٦.

٣٠. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣١٥.

٣١. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢٢.

٣٢. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

٣٣. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢٠.

٣٤. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢١.

شؤون الدين الذي استنكره الأوزاعي بقوله «إذا أراد الله بقوم شرا فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل». وقد تمحور هذا الجدل حول «الجبر والأختيار» وحول «صفات الله» ومارسه أفراد ينتمون إلى الجهمية التي تقول بالجبرية إلى حد الزعم بأن نسبة الأعمال يجب أن تكون لله ولا تكون للانسان الاعلى سبيل المجاز، أما من ناحية الصفات مثل العلم فيرون أن ربطها بالذات الالهية لنفي الضد عنها، لذلك دعوا بالمعطلة<sup>٣٥</sup>. وأتهم يحيى بن صالح الوحاظي (ت ٢٢٢ هـ/٨٣٧م) الذي كان صاحب رأي بأنه منها<sup>٣٦</sup>، وقد اعتبر الأوزاعي قولهم بدعة لأن السلف الصالح لم يتكلم فيه بقوله «كنا والتابعون متوافرون - نقول ان الله تعالى فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته»<sup>٣٧</sup> لكن الاستنكار الشديد وجهة الفقهاء في الشام نحو القدرية، الذين يقولون بخلق الانسان لأفعاله أو حرية الاختيار، وما يترتب على ذلك من مسؤولية الانسان عن الأعمال. ويرى J. Van Ess في مقالته عن القدرية أنه كان ينظر للقدرية في البصرة كمدرسة أو مذهب في العقيدة، بينما نظر إليها في الشام كحركة سياسية حيث ركز هنا على البعد السياسي لها الذي يتجلى في الحق بمحاسبة الأمام عن عمله، فاذا حاد عن الطريق القويم يجب أن يتنحى أو يخلع<sup>٣٨</sup>.

وقد بدأت ملاحقتهم في الشام منذ أواخر العصر الأموي، فقد أحرق الناس دار ثور بن يزيد الكلاعي (ت ١٥٣ هـ/٧٧٠م) فهرب من القتل مع رجال مذهبه، وهم محمد بن راشد وابن ثوبان وعبد الرحمن بن يزيد بن تميم السلمي إلى العراق.

كما نبذ الفقهاء علم هؤلاء لهذا السبب، وهو وجوب القيام على أئمة الجور، اذا امتنع أبو مسهر عن الأخذ من محمد بن راشد القدري لأنه «كان يرى السيف»<sup>٣٩</sup>. كما ربطوا بينهم وبين الخوارج، فعند الحديث عن القدري ابن ثوبان (ت ١٦٥ هـ/٧٨١-٨٢م) أشير لرايه بأنه لا يرى جمعة خلف ولاة الجور كمذهب الخوارج<sup>٤٠</sup>.

ومن التيارات التي سادت بين فقهاء الشام منذ العصر الأموي تيار النصب أو معاداة علي بن أبي طالب وآله رغم نهى الأوزاعي الذي يؤثر عنه قوله «لا يجتمع حب عثمان وعلي الا في قلب مؤمن» وقد نفى أبو عثمان الرجبي في حمص (ت ١٦٣ هـ/٧٧٩-٧٨٠م) شتمه له، لكنه أكد على عدم محبته له، وعدم الاعتراف بامامته بقوله للعراقيين: «لكم إمامكم

٣٥. B.Lewis, "Djähiliyya", E.I<sup>2</sup>, Vol.II (1965) pp.363-384.

٣٦. الذهبي، سير، ج ١٠، ص ٤٥٣-٤٥٦.

٣٧. المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢١.

٣٨. J.Van Ess, "Kadariyya" E.I<sup>2</sup>, Vol. II (1965), pp. 368-372.

٣٩. الذهبي، سير، ج ٧، ص ٢٤٤، ابو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ١٠٤.

٤٠. الذهبي، سير، ج ٧، ص ٣١٤.

ولنا إمامنا»<sup>٤١</sup>. ويبدو أن الأمر كان شائعا في حمص، حتى إن اسماعيل بن عياش عندما تحدث بفوائده - في وقت متأخر من العصر العباسي - اعتبر مقدا لشيء جديد<sup>٤٢</sup>.

أما الاعتراف بامامته على الصعيد العام فقد تأخر كثيرا، إذ أعتبر هشام بن عمار (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩-٨٦٠م) متفردا بين فقهاء بلدة يربع بعلي<sup>٤٣</sup>. وقد يعكس شيوع النصب وجها من وجوه عصبية فقهاء الشام لبلدهم، فعبد الرحمن بن ابراهيم بن ميمون مولى الأمويين - وكان محدثا كبيرا وقاضيا لطبرية -، تراسى إلى سمعه وهو يحدث ببغداد سنة (٢١٢هـ/٨٢٧-٨٢٨م) ذكر البعض لأهل الشام بأنهم الفئة الباغية، وذلك ترديدا لما ذاع في جيش علي في موقعة صفين أثر مقتل عمار بن ياسر، فلم يحل مقامه ومقاله آنذاك دون الشتيمة المقذعة بتساؤله: من ابن الفاعلة الذي يقول ذلك؟ وأفتخر الأوزاعي بأن الشام مثل المدينة كمصدر لأخذ الحديث، بينما لا تتجاوز أحاديث العراقيين جدران بيوتهم<sup>٤٤</sup>. كما أعتبر أبو اليمان الحكم بن نافع أحد كبار علماء حمص وأبو مسهر عالم الشام في عصره أن العلم الموجود في بلدهم يكفي ولا يزيد عليه ما يمكن أن يحصلوا عليه في رحلاتهم<sup>٤٥</sup>.

أما مكانة فئة الفقهاء هذه في المجتمع فترتبط بدورها الإداري والعلمي الذي تعود جذوره الأولى إلى زمن الفتح وظروفه. فقد كان قادة الفتح والحكم بعد ذلك، وكذلك مستشاروهم من الصحابة. وتعاون الجميع في إدارة البلد وتسيير جميع مظاهر الحياة وفق أحكام الشريعة. وقد أدت التطورات اللاحقة - من تناقص أفراد الصحابة واحتكار الأسرة الأموية للحكم وانتقال الأهمية العسكرية لوجوه القبائل وكبار أعوان الأسر الحاكمة - إلى الحد من سعة الدور الذي يلعبه من تبقى من الصحابة والتابعين بعدهم، لكنه بقى كبير الأهمية، لأنه يتعلق بمتابعة الأشراف على توجيه الممارسة في أكثر مجالات الحياة ضمن إطار الشريعة، باعتبارهم ورثة للصحابة في مجال العلم بالدين، وفي تسميتهم تابعين ما يعبر عن ذلك.

ومن جهة ثانية كونت هذه الفئة شريحة اجتماعية خاصة، العلم رابطتها والتقدم فيه

٤١. ابن بدران، عبد القادر بن أحمد الدومي الحنبلي (ت ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دمشق ١٣٣٣هـ-١٣٥٢هـ، ج ٤، ص ١١٦-١١٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: بدران، مختصر.

٤٢. المزي، تهذيب، ج ١، ١٠٧.

٤٣. الذهبي، سير، ج ١١، ص ٤٣٣.

٤٤. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥١م، ص ٦٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ.

٤٥. الذهبي، سير، ج ٨، ص ٣١٦.

يرفع صاحبه إلى مكانه التشريف والتعظيم ، وفي مكانة كل من مكحول والأوزاعي ، رغم تواضع منبتهما ، دليل على ذلك . وقد عاشت هذه القيمة خلال العصر الأموي جنبا إلى جنب مع القيمة أو المعيار القبلي للشرف ، حتى اذا ما اجتمعت لشخص القيمتان بلغ مرتبة السيادة في موطنه . فعندما سأل هشام بن عبد الملك عن السادة في مناطق الشام أجيب بأنهم «رجاء ابن حيوة في فلسطين ، وعبادة بن نسي في الأردن ، ويحيى بن يحيى الغساني بدمشق ، وعمرو بن قيس الكندي في حمص ، وعدي بن عدي الكندي في الجزيرة»<sup>٤٦</sup> . ومن الطبيعي ان تحتفظ قيمة العلم بمكانتها في سلم سمو المراتب الاجتماعية في العصر العباسي ، هذا اذا لم تقل انها احلت عن ذي قبل بفعل تدهور القيمة القبلية المنافسة . ولمحاولة العباسيين ترسيخ شرعيتهم في الأذهان عن طريق دعمها بالقيم الدينية . وتتعدد لدينا الشواهد على تعاضم هذه القيمة لدى الناس والسلطة العباسية على السواء . فقد نقل عن شاهد عيان لأبي مسهر قوله «ما رأيت أحدا أعظم قدرا من أبي مسهر ، كنت أراه إذا خرج من المسجد ، اصطف الناس يسلمون عليه و يقبلون يده»<sup>٤٧</sup> . وأدى هذا بكبار الفقهاء إلى الاعتزاز بأنفسهم حتى نسب أبو مسهر إلى التكبر ، وإلى المحافظة على مظهر الوقار في مجالسهم ، إذ يقول الأوزاعي «كنا نضحك ونمزح ، فلما صرنا يفتدى بنا خشنا ان لا يسعنا إلا التسم»<sup>٤٨</sup> . أما الخلفاء العباسيون فقد ردوا على إباء بعضهم في النزول عند رغباتهم بل وحتى انتقاد تصرفاتهم لا بسعة الصدر والتفاضي فحسب بل بمحاولاتهم تقريبيهم . ويمكن تمييز ثلاثة اتجاهات في استجابة الفقهاء :

نرى الاتجاه الأول في رد الزهد والمتصوفين ، حيث حفلت الشام في مدنها وثغورها بعدد منهم يمثلون مرحلة الانتقال بين الزهد والتصوف . فالجوعى يمثلون التركيز على تعذيب الجسد مكنم الشهوات عن طريق الجوع الذي اعتبروه مخ العبادة . وابراهيم بن أدهم يمثل أولئك الذين يوجهون نظرهم لداخل النفس لمحاسبتها بغية تهذيبها . ورابعة الشامية التي تشابه معاصرتها رابعة العدوية وتختلط اخبارها بتلك التي انتسب للثانية ، يبقى تصوفهما واحدا متمحورا حول الحب الالهي . ومن المنطقي ان يكون رد هؤلاء الذي اداروا ظهورهم للدنيا سببا لزهدهم واحتقارهم للقيم الدنيوية التي تقدمها أي سلطة ، وزاد رد الجوعى على محاولات السلطة للتقريب ليقترب من الشتيمة عندما أشار إلى فعل صاحب له قبل هدية أصحاب السلطة زمن المأمون بأنه «أخذ دراهم اللصوص ولبس ثيابهم»<sup>٤٩</sup> .

وهناك اتجاه التعاون مع العباسيين منذ دخولهم لدوافع مختلفة وبأشكال متنوعة .

٤٦ . ابو زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

٤٧ . المزي ، تهذيب ، ج ٢ ، ص ٧٦٢ .

٤٨ . ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، مجموعة مخطوطات مصورة ، دار النشر والتوزيع ، دمشق ، ج ١٠ ، ص ٩٣ . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن عساكر ، تاريخ .

٤٩ . الذهبي ، سير ، ج ١٢ ، ص ٧٧ - ٧٩ .

تأتي في مقدمته فئة القدرية لارتباط مصالحيهم بهم ما دام الأمويون يضطهدونهم ، فتور بن يزيد الكلاعي كان برفقة القائد العباسي عندما استقدم الفقهاء إلى حماه ، وقضى الليل يتكلم في القدر . ويمكن التخمين بأن موضوع حديثه كان ضرورة القيام على أئمة الجور مما يجعل الثورة العباسية قياماً بواجب ديني ، لأن المقام لا يتناسب إلا مع هذا الجانب من فكر القدرية . وقد وثق العباسيون بهذه الفئة ، وركنوا إليها ، فقد عين المنصور عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان على بيت المال في بغداد ثم عينه المهدي على المظالم<sup>٥٠</sup> . ورغم أن يحيى بن حمزة بن واقد (ت ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م) كان أقل من السابقين بروزا بين القدرية – إذ كان يميل للقدر لكنه لم يكن داعية له – أي أن المنصور عند قدومه لدمشق عينه على القضاء ليبقى فيه بشكل يكاد يكون مستمرا مدة ثلاثين عاماً أي حتى وفاته<sup>٥١</sup> . وهناك وجه آخر لتقارب الفقهاء مع الخلفاء يتمثل بقبول الوظائف لديهم ، مع ما في ذلك من تقليل من شأن هؤلاء في الوسط العلمي . وفي الأمثلة على هؤلاء ما يقدم الدوافع لهذا العمل لعل أولها الحاجة ، فقد رد سويد بن عبد العزيز قاضي بعلبك (ت ١٦٧ هـ / ٧٨٣ – ٧٨٤ م) على من عاب عليه قبول القضاء بعد العلم والحديث بأنه ليس مثله اكتفاء فهو يلبس جيبته دون شعار تحته كما أنه استعار طيلسانه ، وأنه بالتالي مستعد لالتوي القضاء فحسب ، وإنما لتولي ما هو أسوأ منه ، وهو بيت المال<sup>٥٢</sup> . وقد قبل تولى هذه الوظيفة الأسوأ مروان بن حسان الطاطري ، ربما للخلاص من المهنة الوضيعة التي أمتنها<sup>٥٣</sup> ، وتولى معاوية بن روح الصدي بيت المال للمهدي أي خارج الشام أيضاً<sup>٥٤</sup> . وكان من الوظائف المالية التي ذكرتها كتب الرجال والتي تولاهها الفقهاء تعديل أرض الشام ، و يبدو أنها تحديد مساحات الأملاك وتعيين ملكيتها وإنتاجها . وأجريت هذه العملية ثلاث مرات في الشام ، وكان المعينون لها فقهاء اشتهر منهم القائمون بها زمن المنصور في أهم مدينتين : وهما حمص ، حيث قام بتعديلها كل من اسماعيل ابن عياش وحريز بن عثمان<sup>٥٥</sup> . وفي دمشق التي عدل أرضها كل من بقية بن الوليد الكلاعي ومحرز بن زريق ابن حسان الفزاري<sup>٥٦</sup> ولء ، وهضاب بن طوق<sup>٥٧</sup> . وفي التعديل الثاني الذي جرى أيام المأمون

٥٠. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي ثابت، (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)، تاريخ بغداد، ١٢ ج، ط ١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣١ م، ج ١٠، ص ٢٢٢ – ٢٢٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الخطيب البغدادي، تاريخ.
٥١. الذهبي، سير، ج ٨، ص ٣٥٥.
٥٢. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ص ٤٧٠.
٥٣. الذهبي، سير، ج ٩، ص ٥١٠ – ٥١٢.
٥٤. ابن عساكر، تاريخ، ج ١٦، ص ٧٨٢ – ٧٨٥.
٥٥. الذهبي، سير، ج ٨، ص ٣١٩.
٥٦. ابن عساكر، تاريخ، ج ١٦، ص ٢٧٦.
٥٧. ابن عساكر، تاريخ، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق ١٩٦٢ م، م ٢، ص ١٩٥ – ٢١٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن عساكر، تاريخ، (محمد دهمان).

الذي وزع مناصب التعديل في أجناد الشام سنة (٢١٤ هـ/٨٢٩ - ٨٣٠ م) عندما قدم إلى دمشق ووجه في ذلك إلى رؤساء أهل الجزيرة والموصل والرققة فقدم عليه منهم جماعة منهم : حرب وسفيان بن عبد الملك الخولاني ، فاستعفوه من التعديل ، فأعفاهم وصرهم . واجتلب لتعديل الشام مساحة العراق والأهواز والري<sup>٥٨</sup> . و يلاحظ أن هذا الاعتذار الذي جعل المأمون يلجأ لمعدلين من خارج البلاد تلا فترة تجلت فيها مظالم لأصحاب الأراضي في فلسطين خاصة، حيث رفضت ضياع في خلافة الرشيد مما اضطرفيما بعد إلى اغراء أكثرتها بالرجوع إليها مقابل التخفيف من خراجهم ، ودعوا (أصحاب التخفيف) وردت على آخرين أراضيهم فأصبحوا (أصحاب الردود)<sup>٥٩</sup> . وهذا يدعو للظن بأن يكون اعتذار الفقهاء ، راجعا لرفضهم ان يكونوا أدوات لايقاع الظلم بالناس . وتكرر الأمر نفسه عند التعديل الثالث زمن المتوكل عندما عهد به سنة (٢٤٠ هـ/٨٥٤ - ٨٥٥ م) إلى الكاتب أحمد بن مدبر من سامراء لتعديل دمشق والأردن<sup>٦٠</sup> .

ومن وجوه تعاون الفقهاء مع العباسيين قبول منح منهم ، و يلاحظ هذا بشكل واضح لدى فقهاء من أواخر الفترة، كما هو حال هشام بن عمار خطيب جامع دمشق (ت ٢٤٥ هـ/٨٥٩ - ٨٦٠ م) الذي تباهى بنيلة صلة بألف دينار من المتوكل<sup>٦١</sup> ، وأحمد بن عبد الملك بن واقد الحراني الأسدي ولاء، (ت ٢٢١ هـ/٨٣٦ م) الذي تلقى إقطاع ضيعة ، وكان يغشى السلطان بسببها ، مما جعل أهل بلده يسيئون الشاء عليه<sup>٦٢</sup> .

أما الاتجاه الثالث فنراه في موقف كبار الفقهاء وخاصة في دمشق وما حولها ، المتميز إلى أواخر العصر ، بالتترفع عن قبول الوظائف لدى الخلفاء ، والزهد في عطاياهم ، والأحجام عن تزكية ممارساتهم ، والتجرؤ على تبيان وجه مخالفة بعض إجراءاتهم للشرع إذا ما وجدوها كذلك . ورغم ترسخ قاعدة طاعة الأئمة لديهم خلال العصر الأموي وكراهيتهم للخروج عليهم ، الا أنها اهتزت من خلال ممارستهم في الشام خلال هذه الفترة ، فترأس بعضهم هيجة ، وتعاون آخر مع ثائرين ، وقاد ثالث ثورة .

وبدأت أول مجابهة بين فقيه كبير وبين السلطة العباسية منذ وصول العباسيين لأسوار دمشق بقيادة عبد الله بن علي (١٣٢ هـ/٧٤٩ - ٧٥٠ م) وكان على حكمها الوليد بن معاوية بن مروان وختن الخليفة مروان ، وظهر عجزه عن الدفاع عنها مما جعل الناس

٥٨ . بدران . مختصر . ج٤ ، ص ١١٠ .

٥٩ . البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

٦٠ . ابن عساکر ، تاريخ ، ج١٨ ، ص ١٧ ؛ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ٤٩٠ .

٦١ . الذهبي ، سير ، ج١١ ، ص ٤٢٣ .

٦٢ . المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٦٦٢ .

يهرعون إلى يحيى بن يحيى الغساني عالمهم في القضاء والفتوى، وممن أعتبر سيدا للمدينة بعد ما اجتمعت لديه قيمتا النسب والعلم منذ أيام هشام بن عبد الملك - كما سلف القول - طالبين منه الأمان لهم، ووافق الوالي الأموي على ذلك. وقد لبى العالم الدعوة، وطلب الأمان لدمشق فناله شفوياً وتوقف القتال. وعندما طلبه كتابة دعا عبد الله بدواة وقرطاس ثم ضرب ببصرة نحو المدينة فإذا الحائط قد غشيه المسودة، الذين استغلوا توقف القتال على ما يبدو وفعلوا ما فعلوه، فرفض الكتابة مدعياً أنه دخل المدينة قسراً. ولم يتراجع عن رأيه عندما أتهمه يحيى بن يحيى بالغدر، وطلب منه أن يعيد الوضع إلى ما كان عليه قبلاً. كما لم ينفع مع القائل العباسي تذكرة الفقيه له بأن قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم تفرض عليه السعي لإحقاق الحق وانكار المنكر. وأنهى عبد الله بن علي الجدل باحتجاز الفقيه سيد المدينة في مضر به هو بدعوى الخوف عليه من الناس، لأن الجميع سودوا، بينما لا يزال هو مرتدياً البياض قميصاً وعمامة. لكنه لم يغفل عن تكريمه شخصياً بالأمر ب نصب علم له بداره، والمناداة في المدينة بأن من دخل دار يحيى بن يحيى آمن، فلم يقتل فيها ولا في الدار المتداخلة معها أحد ممن انحسر فيها<sup>٦٣</sup>.

وبعد بسط عبد الله بن علي للسلطة العباسية بالقوة والتشفي من الأمويين بصنوف القتل والتنكيل حاول أن يكسو مجموع أعماله بلباس الشرعية والدين عن طريق السعي للحصول على مصادقة كبير فقهاء الشام الأوزاعي وموافقته فاستدعاه إلى حماه. وكان أول سؤال وجهه له شرعية القيام على الأمويين واعتباره جهاداً بالقول «أبعد مقامنا هذا ومسرنا رباطاً؟» فأجابة الأوزاعي بالنص الشرعي الذي يحدد ذلك ولم يحدد مدى انطباقه على خروج العباسيين وذلك بإيراد الحديث «من كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى امرأة يتزوجها أو دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه»<sup>٦٤</sup>.

وانتقل بعدها إلى السؤال عن دماء بني أمية، فاستند الأوزاعي إلى الأمان الممنوح لهم ثم نبذهم وقتلهم، ملمحاً بذلك إلى مذبة نهر أبي فطرس لثمانين أموياً بعد ما أعطوا الأمان. ولما حدد عبد الله السؤال حول جواز دمائهم من ناحية المبدأ، عاد الأوزاعي للاكتفاء بإعطاء النص الشرعي لإباحة دم إنسان دون تطبيقه على الأمويين، وهو عبارة عن نص الحديث: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدى ثلاث: الزاني بعد إحصان والمرتد عن الإسلام والنفس بالنفس»<sup>٦٥</sup>. ولما أراد عبد الله التضييق على الأوزاعي والحصول على جواب حول تطبيق شرط المرتد على الأمويين باعتبارهم غاصبين للخلافة من آل البيت وذلك بسؤال: أليس الأمر لنا

٦٣. ابن عساکر، تاریخ، ج ١٢، ص ٢١٢-٢١٧.

٦٤. أخرجه البخاري، (١٥٠٧/١) ومسلم (١٩٠٧) وأبو داود (٢١٠١) والترمذي (١٦٤٧) والنسائي (٥٨/١-٦٠) وابن ماجه (٢٤٢٧) ومالك في الموطأ (٤٠١).

٦٥. البخاري (١٧٦/١٢-١٧٧) ومسلم (١٦٧٦).

ديانة إذ وصى الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي. وكان جواب الأوزاعي بنفي ذلك لأن الأمر لو كان كذلك لما قبل علي بتحكيم الحكّمين<sup>٦٦</sup>. ومع ذلك ظل عبد الله على سياسة مقابلة هؤلاء الفقهاء بسعة صدر فسمح للأوزاعي بالمغادرة ثم أدركه رسوله بصلة مائتي دينار وزعها الأوزاعي قبل وصوله. ولم يتغير موقف الأوزاعي على صعيد الفكر المتعلق بمشروعية القيام على الأئمة، وهو ما فعله العباسيون. وكان ناشروه في خدمتهم القدرية، إذ أنه باشر بكتابة الردود على أقوال ثور في القدر. كذلك لم يكف عن التنبيه إلى ما يراه منافيا للشرع من تصرفات أصحاب السلطة العباسيين، فعندما ثار قوم بجبل لبنان ضد عامل خراج بعلبك، وأرسل الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله من قتل المقاتلة، وأخرج جماعات من النصارى من مواطنهم، وصودرت أملاكهم وبينهم ممن لا علاقة له بهذا الخروج، كتب الأوزاعي إلى الوالي رسالة طويلة فيها تأكيد على عدم جواز ذلك لأنه لا تؤخذ عامة بذنوب خاصة بموجب حكم الله «أن لا تزروا زرة وزر أخرى» ووصية الرسول صلى الله عليه وسلم «من ظلم معاهدا وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»<sup>٦٧</sup>.

وخلال الاستقرار الذي ساد الشام بعد ذلك لا تظهر إلى السطح أية أحداث ذات دلالة على معارضة الفقهاء للحكم، ولو أن الظن ممكن بأن كبارهم كانوا يبيطنون العداة إذ يظهرون تعاطفا مع الثائرين عليهم. فعندما قام أبو الهيثام عامر بن عمارة بن خريم المري بضبط دمشق لسنوات قليلة خلال فترة التقاتل بين العصبيتين القيسية واليمانية بين سنتي ١٧٦-١٨٠ هـ/٧٩٢-٧٩٦-٧٩٧ م طلب من عالم دمشق الكبير الوليد بن مسلم أن يحدث ابنه أبا عامر الذي لم يكف بالقبول وإنما صار، وهو في العقد السابع من العمر يركب إليه، فيحدثه حتى أصبح عند أبي عامر من كتبه ما لم يكن عند أحد غيره<sup>٦٨</sup>.

وعندما بدأت أوضاع الدولة في الاضطراب في خلافة الأمين، قفز الفقهاء إلى موقع القيادة في هيجات دمشق التي بدأت سلسلتها بهيجة القلة البلورية لمسجد دمشق عندما اكتشف فقدانها أمام المسجد شعيب بن اسحق القرشي الأموي ولاء من ثقات المحدثين وأهل الرأي (ت ١٨٩ هـ/٨٠٥ م)<sup>٦٩</sup> فجاء إلى وسط القبة الكبيرة التي بحذاء المحراب وأخذ قلنسوته وضرب بها الأرض وصاح بأعلى صوته: سرقت قلنكم فصاح الناس لا صلاة بعد القلة. ثم شاع بينهم أن داود بن عيسى صاحب شرطة الوالي منصور بن محمد المهدي قد أخذها لتقدم للأمين المعجب بالبلور، فهاجموا الشرطة وهزموا قائدها، فهرب إلى القصر حيث حوصر مع الوالي الذي طلب مشورة القاضي، فأشار عليه بتسليمهم قائد الشرطة، فأبى ثم قبل اقتراحه

٦٦. ابن عساکر، تاریخ، ج ١٨، ص ٩٥-٩٦.

٦٧. البلاذري، فتوح، ص ١٦٦-١٦٧.

٦٨. ابن عساکر، تاریخ، ج ١٧، ص ٢٨٦.

٦٩. الذهبي، سير، ج ٩، ص ١٠٣؛ ابوزرعة، تاریخ، ج ١، ص ٢٧٩.



بالاعلان عن تنازله عن الحكم، وأن يعهد به لأحدهم. وقدم هذا الأخير فخلع عليه منصور وهرب من المدينة ليلا مع قائد شرطته. لكن الأمين لم يعترف بما حصل وعين على المدينة سليمان بن جعفر<sup>٧٠</sup>.

ولم يهنأ الوالي الجديد بالهدوء طويلا، إذ انطلقت من دمشق حركة أقوى تسندها قوة اليمانية القبيلية بقيادة الخطاب بن وجه الفليس الذي تغلب على صيدا، كما زودها عالم دمشق الوليد بن مسلم بقوة معنوية كبيرة مبعثها الاعتقاد بحتمية خروج السفيناني المنتظر. فكان يقول: لولم يبق من سنة خمس وتسعين ومائة الا يوم واحد لخرج هذا السفيناني، وأن علاماته متوافرة في علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية وهو فقيه كبير أخذ عنه الناس علما كثيرا<sup>٧١</sup> بدمشق، واشتهر أيضا بلقبه أبي العميطر أو العميطر وهي كنية الحردون. وقد انطلقت ثورته من المزة بجوار دمشق، وانضمت إليه الغوطة وحلب والسواحل، واستمرت ثلاث سنوات، ثم انتهت بهربه بعد ما تكاثفت عليه قوى العباسيين وقيسية الشام.

واستقرت السلطة العباسية بدمشق خاصة بعد وصول عبد الله بن طاهر مرسلا من قبل المأمون، وإظهاره التودد للدمشقيين بجلبه قلة المسجد البلورية مدعيا وجودها ضمن نفائس الأمين. لكن نقمة فقهاؤها ظلت قائمة، إذا اعتبرنا موقف كبيرهم، أبي مسهر عبد الأعلى بن أبي ذرامة الغساني كمؤشر، فقد كانت لعدواته جذور عائلية تعود إلى وقت دخولهم، حيث كان جده وسميه عبد الأعلى الراوية للحديث بين القتلى، وبقيت آثار دماثة على الحائط عدة أجيال لم يغيروه<sup>٧٢</sup>. وظلت عداوته لهم تظهر بين الفينة والأخرى بشكل مباشر أو غير مباشر. فقد قبل القضاء لدى الثائر عليهم أبي العميطر. ولم يتوقف عن انتقادهم الصريح بعد اخماد الثورة، إذ أجاب على سؤال عن صحته بعد ابلاله من مرضه أنه أصبح في عافية «راضيا عن الله ساخطا على ذى القرنين كيف لم يجعل سدا بيننا وبين أهل العراق كما جعله بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج»<sup>٧٣</sup>. وخلال زيارة المأمون لدمشق، استفسر أبو مسهر وهو في مجلسه اليومي المعتاد في المسجد الجامع بين العشاء والعتمة عن ضوء ساطع منبعث من جهة دير مران على جبل قاسيون حيث نزل المأمون، فأجابوه بأنه من جمر عظيم جعل في طسوت كبار دليت من عند القبيبة بسلاسل وحبال حتى تضيء للخليفة الغوطة، فأجاب بآيات من سورة الشعراء «أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم

٧٠. ابن عساکر، تاریخ، ج ١٧، ص ٢٢٧.

٧١. ابن الاثير، ابي الحسن علي بن ابي الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٢٢ م) الكامل في التاريخ، ١٢، ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ م، ج ٦، ص ٢٤٩ - ٢٥٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الاثير، الكامل، الذهبي، سير، ج ٩، ص ٢٨٤.

٧٢. ابن عساکر، تاریخ، ج ١٦، ص ٥١٠ - ٥١١.

٧٣. الذهبي، سير، ج ١٠، ص ٢٢٤ - ٢٢٦.

بطشتم جبارين»<sup>٧٤</sup>. ولا يخفى ما فيها من تعريض بالعباسيين وتشبيه لهم بقوم عاد. وكان في الحلقة صاحب خبر للمأمون فرفعها إليه. وجاءت المجابهة بين الاثنين عندما أستقدمه المأمون إلى الرقة لامتحانه في خلق القرآن، وكان جوابه كمثل للاتجاه السائد في الشام وهو التمسك بقول السلف الصالح، انه غير مخلوق كقول الجمهور الأعظم، ولأنه لم يرد قول بذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو التابعين. وقد استغل المأمون اتجاهه الفكري، الذي يجعله يمسك عن الحديث في أي موضوع لا يعرف فيه قولاً للسلف، فسأله عن ختان الرسول صلى الله عليه وسلم وفيما إذا كان يشهد عند زواجه أو تزويجه، كي يظهره بمظهر الجاهل. ولما أجابه بأنه لا يدري لعنه ولعن من جعلوه قدوة لدينهم. ثم خير أبو مسهر بين السيف وبين القول بخلق القرآن فكان يقبل بذلك عند اقتراب السيف ثم يتراجع بعد ابعاده، فأمر المأمون بسجنه في بغداد حتى يستقر رأيه، وهناك قضى نحبه بعد حوالي مائة يوم في رجب ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م<sup>٧٥</sup>.

وإضافة لهذه المواجهة المباشرة بين بعض فقهاء الشام على الاقل وبين العباسيين، قام هؤلاء الأخيرون بالعمل ضدهم فكريا وبشكل غير مباشر أيضا. وتمثل هذا العمل بتغذية القوة المعنوية لأعدائهم وتسفيه ما ينشرونه من أفكار تدعم شرعية حكمهم.

وتجلى ذلك فيما تبناه الطرفان من فكرة المهدوية، ثم حورها كل طرف ليجعل المخلص الذي يأتي في آخر الزمان منتما إليه، وذلك في النبؤات أو الملاحم التي اشتهر الوليد بن مسلم بحفظها. وهكذا ثبتت في الشام فكرة السفيناني المنتظر، والذي كان يتجسد لديهم في رأس كل أموي يقود ثورة. بدأ ذلك عند سقوط الدولة وقيام الثورات في الشام على العباسيين ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ - ٧٥٠ م فجعلوا أبا محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية، قائد أهدا، في تدمير وحمص، على رأس الكلبية، السفيناني المنتظر. وأنضم إليه وبايعه ثائرو الشمال بقيادة أبي الورد مجزأة بن الكوثر رغم قيادته للتجمع القبلي المنافس وهو القيسية<sup>٧٦</sup>. وعند ثورة الشام سنة ١٩٥ هـ/ ٨١٠ م، ادعوا أيضا أن قائدها أبا العميصر هو السفيناني المنتظر، كما سلف القول. وبعد ذلك رأي المأمون سادات قضاة عدوة دائمة للعباسيين لأن ساداتها ينتظرون السفيناني حتى يكونوا من أشياعه<sup>٧٧</sup>. ويبدو أن انتظارهم لم يطل، فعندما قامت

٧٤. ابن عساکر، تاريخ، ج٣٩، تحقيق سكيئة الشهابي، دمشق، ١٩٨٦ م، ص ٣٩٦. وسيسار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساکر، تاريخ (سكيئة الشهابي).

٧٥. ابن عساکر، تاريخ، ج٢٩، (سكيئة الشهابي)، ص ٣٩٥-٣٩٦؛ القاضي عياض، المدارك، ج١- ٢، ص ٤١٨-٤١٩؛ الذهبي، سير، ج١، ص ٢٣٠-٢٣٨.

٧٦. ابن عساکر، تاريخ، ج١٦، ص ٢٦٢-٢٦٣؛ الطبري، محمد بن جرير (٢١٠ هـ/ ٩٢٢ م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٦٦ م، ج٧، ص ٢٦٢-٢٦٣. وسيسار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري: تاريخ.

٧٧. ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ٤٢٢.

ثورة المبرقع اليماني بفلسطين سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١-٨٤٢م ورفع فيها شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأدعى أنه أموي، قالوا: أنه السفيناني المنتظر، وبهذه الصفة انضمت اليه الألوف<sup>٧٨</sup>.

رد العباسيون لتقوية سلطانهم معنوا بالادعاء ان الرسول صلى الله عليه وسلم بشر به وبشكل محدد، فقد ادعى عبد الملك بن صالح أمير دمشق لهارون الرشيد سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤م ثم بعد ذلك للأمين، أنه وجد في ديوان دمشق رسالة موجهة من عبد الله بن عباس إلى معاوية وفيها لهجة تصالحية تنصحه بالكف عن السعي للوصول إلى الخلافة من خلال المطالبة بدم عثمان والادعاء بأن لديه وصية من الرسول صلى الله عليه وسلم لأن النبي قال للعباس «ان الله يستعمل من ولد العباس اثني عشر رجلا منهم السفاح والمنصور والمهدي والأمين والمؤمن»<sup>٧٩</sup>. كما دس العباسيون ضمن الملاحم والأحاديث فكرة انتصار الرايات السود المنطلقة من المشرق<sup>٨٠</sup>. ويبدو أن هذه الفكرة حرفت في الشام لتبدو واضحة البطلان فأصبحت «لتخرجن راية سوداء من خراسان حتى تربط خيولها بهذا الزيتون الذي بين بيت لها وحريستا، فقلنا والله ما بين هاتين القريتين زيتونة قائمة»<sup>٨١</sup>.

من ناحية أخرى يلاحظ ان النتائج الاخبارية أو التاريخية لعلماء الشام يحتوي في ثناياه على ما يصب في قناة معاداة العباسيين، كترديد الروايات الشامية التي تعطي الصورة الأموية اشراقا، كما هو حال الوليد بن مسلم الذي يروي عن صفوان بن عمرو رواية في فتح الشام مؤداها ان قادة الفتح الأربعة كانوا في حيرة واضطراب من أمرهم حول كيفية مواجهة الحشد البيزنطي، ثم ركنوا إلى رأي أبي سفيان الذي حدد لهم موقع معركة اليرموك وطريقة توزيع القوات فيه<sup>٨٢</sup>. أو يروي عن حاضرهم ما يشوه صورة العباسيين كالتندر على عيوب بعض خلفائهم كتلك القصة التي يرويها عن المنصور الوضين بن عطاء المحدث وصاحب الأخبار. وكانت له معرفة سابقة به فاستزازه المنصور وسأله عن عياله مما أطمعه بصله، فأخبره بأنهم ثلاث بنات وأمهم وخدام، فأجابه المنصور: «وانت أيسر العرب أربع مغازل في بيتك»<sup>٨٣</sup>. وقد انتقلت أعداد من هذه الروايات إلى المدرسة العراقية التي نقلت أخبار الشام من فتح ورجال عن رواة شاميين.

٧٨. الطبري، تاريخ، ج٩، ص ١٤٤-١٤٥.

٧٩. ابن عساکر، تاريخ، ج٩، ص ١٤٤-١٤٥.

٨٠. الإدريسي، عبد الله محمد الصديق الحسيني، المهدي المنتظر، راجعه وفهرسه احاديثه عبد العزيز عز الدين السيروان، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٨١. وسيشار لهذا المصدر عند وروبه فيما بعد هكذا: الإدريسي: المهدي.

٨١. ابن عساکر، تاريخ، ج١٠، ص ١٤٣.

٨٢. المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٧.

٨٣. المصدر نفسه، ج ١٧، ص ١٦٧.

فيروي ابن سعد في طبقاته عن الوليد بن مسلم الشامي حديثا مسندا للصحابي الشامي عبد الرحمن بن أبي عميرة وهو قوله «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يكون في بيت المقدس بيعة هدي<sup>٨٤</sup> إشارة لبيعة معاوية». كما يروي عن أبي مسهر بسند ينتهي إلى الصحابي نفسه أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا لمعاوية «اللهم اجعله هاديا مهديا اهده وأهد به»<sup>٨٥</sup>. ويروي ابن سعد أيضا عن هؤلاء ما يرسم للعباسيين والعراق صورة قاتمة كالقول : «ان المسودة لما دخلوا دمشق قتلوا كل من وجدوه في مسجدها ، ومنهم تابعون مثل يونس بن ميسرة وعبد الاعلى ابن مسهر الغساني جد ابي مسهر»<sup>٨٦</sup> وينقل عن ابن ابي اليمان الحكم بن نافع الحمصي خبرا فيه أن عمر بن الخطاب طلب من أهل الشام أن يستعدوا لمواجهة أهل العراق لأن الشيطان بيض فيهم وفرخ ، دعا الله ان يعجل لهم بالغلام الثقف<sup>٨٧</sup>.

٨٤. ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص٤١٧.

٨٥. المصدر نفسه، ج٧، ص٤١٧.

٨٦. المصدر نفسه، ج٧، ص٤٦٦-٤٦٧.

٨٧. المصدر نفسه، ج٧، ص٤٤٢.

## التنظيم الاداري في الشام

١٣٢ - ١٣٥٨ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٨ م

نجدة خماش \*

ارتبط التنظيم الاداري في بلاد الشام بالتنظيم الذي اتبعه العباسيون بعد استلامهم السلطة، فقد أصبحت الشام ولاية من الولايات التابعة لمركز الخلافة الذي انتقل من الشام الى العراق، وبقيت الشام تابعة بشكل مباشر أو غير مباشر الى بغداد حتى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م، عندما سيطر الفاطميون على دمشق والأقسام الجنوبية من الشام، وأخذت حلب تتأرجح في ولائها بين البيزنطيين والعباسيين والفاطميين.

ونظراً لأن العباسيين اعلنوا بعد تقلدهم الخلافة - أنهم ما جاؤوا الا للعمل بموجب كتاب الله وسنة رسوله<sup>١</sup>، وأن سلطتهم امتداد للخلافة الراشدة بعد فترة الملك الأموية<sup>٢</sup>، فقد نهج المنصور والخلفاء العباسيون من بعده نهج عمر بن الخطاب الذي اتبع المركزية في إدارة الولايات<sup>٣</sup>، وإذا كان

\* قسم التاريخ، جامعة دمشق، الجمهورية العربية السورية.

١. الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠/٩١٠ م)، تاريخ الامم والملوك، ١٠ ج، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، دار سويدان، بيروت، لبنان، ج ٧، ص ٤٢٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ، مؤلف مجهول، العيون والحدائق (من خلافة الوليد بن عبد الملك الى خلافة المعتصم)، اوفست، مكتبة المثني، بغداد، د.ت، ص ٢٠٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مؤلف مجهول، العيون؛ البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) انساب الاشراف، القسم الثالث، العباس بن عبد المطلب وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، ص ٨٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، انساب.

٢. البلاذري، انساب، القسم الثالث، ص ١٤٢. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٥، ٦٣. ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)، البداية والنهاية، ١٤ ج / ٧ م، دقق اصوله وحققه أحمد ابو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، ط ٣، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، م ٥، ج ١٠، ص ١٢٥، ٢٢٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية.

٣. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٧، ١٤٤، ٢٤١؛ البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، مصر، ١٩٥٩ م، ص ٣٢٢، ٣٢٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح، العسفرى، خليفة ابن خياط، (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)، تاريخ خليفة بن خياط، ٢ ق، تحقيق سهيل زكار، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٨ م، ق ٢، ص ١٥٦، ١٥٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: العسفرى، تاريخ؛ الازدي، ابوزكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م، ص ١٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الازدي، تاريخ.

عمر قد اتخذ هذا النهج لأنه كان يؤمن إيمانا عميقا أن المسؤولية أولا وأخيراً هي مسؤولية الخليفة<sup>٤</sup>، فان العباسيين كانوا يهدفون من وراء تطبيقها إلى توطيد وحدة العالم الإسلامي عن طريق توحيد الاجراءات الادارية التي كان الأمويون قد بدأوا بتطبيقها في نهاية دولتهم، وكان من الممكن لهذا التطور الذي بدأ في ظل الأمويين نحو إقامة حكم مركزي أن يستمر استمرارا طبيعيا لو لم تتغير الدولة، الا أن تغيير الدولة سارع بانجاز ذلك التطور.

وتجلت المركزية في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل بصدور كل التعيينات عن الحضرة (بغداد أو سامراء) إما من قبل الخليفة أو وزير التفويض كما يسميه الماوردي، أو من ينوب عن الخليفة في أي مجال من المجالات الادارية، كما تجلّت بوجود ديوان لكل ولاية يدير شؤونها المالية والعسكرية بشكل خاص، فقد وجد منذ عهد المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م) في بغداد ديوان لخراج الشام وجند الشام<sup>٥</sup>، وفي عهد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) جمع ديوان النفقات وبيوت الأموال والخزائن وديوان الشام لأبي سميرومولى لبني فهر من أهل الشام<sup>٦</sup>، وقلد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) ديوان خراج الشام ومصر وإفريقية وأذربيجان ومكة واليمن، علي بن صالح<sup>٧</sup>، أي أننا نجد في عهد الرشيد ما يشبه التقسيم الذي تجلّى في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٣٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩١١ م) عندما ضم احمد بن الفرات (الذي استخلفه الوزير عبيد الله بن سليمان على ديوان الخراج) دواوين الولايات كلها وألف منها ديواناً جديداً أسماه ديوان الدار<sup>٨</sup>، وضم هذا الديوان فروعاً ثلاثة: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد. وكان يتولى كلا من ديواني المشرق والمغرب كاتب مختص به<sup>٩</sup> أو قد يجمعان أحياناً لكاتب واحد<sup>١٠</sup>.

٤. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢١٠؛ ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)، تاريخ عمر ابن الخطاب، قدم له وعلق عليه: اسامة عبد الكريم الرفاعي، دار إحياء علوم الدين، دمشق، ١٣٩٤ هـ، ص ١٩٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي، تاريخ.
٥. العصفري، تاريخ، ق ٢، ص ٦٨٣.
٦. المصدر نفسه، ق ٢، ص ٦٩٩.
٧. الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الاياري، القاهرة، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م، ص ٢٧٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الجهشياري، الوزراء.
٨. الصابي، ابوالحسن الملّال بن الحسن (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م)، الوزراء أو تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، القاهرة، ١٩٥٨ م، ص ١٤٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الصابي، الوزراء.
٩. الطبري، تاريخ، ج ١٠، ص ٧٣؛ القرطبي، عريب بن سعد، (ت ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م)، صلة تأريخ الطبري، ليدن، ١٨٩٧ م، ص ٣٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القرطبي، صلة.
١٠. القرطبي، صلة، ص ٢٩.

ونحن اذا استثنينا الخليفة أبا جعفر المنصور، الذي نجح في جمع كل السلطات بيده من أمر ونهي وتعيين وعزل، وشحن الشغور والأطراف، وأهتمام بأمن السبل، والنظر في الخراج والنفقات والأحكام<sup>١١</sup> فان معظم الخلفاء من بعده كانوا يفوضون هذه السلطات إما لوزرائهم أو لنوابهم على الأقاليم.

وسواء أكان الوزير وزير تفويض أن تنفيذ- كما حاول النظريون أن يعكسوا واقع العلاقة بين الخلفاء والوزراء أدت الى تضيق سلطة البعض وتوسيع مهام الآخرين- فأن أهم واجبات الوزير كانت الاشراف على الدواوين، وضبط الأمور في الدولة كلها<sup>١٢</sup>، وما يرتبط بذلك من تعيين أو عزل للعمال والموظفين الذين يوكل اليهم أمر الادارة المالية في ولايات المشرق والمغرب<sup>١٣</sup>.

أما النواب عن الأقاليم، فانه مما يسترعي انتباه الباحث أثناء دراسته للتنظيم الاداري، هو هذا الاتجاه نحو تقسيم الدولة الى قسمين شرقي وغربي، وتقليد كل قسم لأحد القادة المتنفذين أو المظفرين أو أولياء العهود، فاذا كانوا صغار السن عين الخليفة من ينوب عنهم، وهؤلاء بدورهم كانوا يستخلفون العمال على ولاياتهم<sup>١٤</sup>.

١١. الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٧٠؛ ابن الاثير، أبو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) الكامل في التاريخ، ١٠ ج، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٥، ص ٤٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الاثير، الكامل.

١٢. ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م)، الفخري في الآداب السلطانية، تحقيق: محمد عوض ابراهيم، علي الجارم، دار بيروت، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٦٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الطقطقا، الفخري؛ الصابي، الوزراء، ص ١٢.

١٣. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٣٣؛ الجهشيارى، الوزراء، ص ١٧٧؛ ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ١٦٠؛ ابن مسكويه، ابو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م)، تجارب الامم، ج ٢، القاهرة، ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م، ج ١، ص ٢٨، ٤٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن مسكويه، تجارب.

١٤. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٤٨، ١٨٧، ٦٦٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٧٤، ١٩٧؛ الجهشيارى، الوزراء، ص ١٥٦، ١٩٠؛ ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج ٦، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ١٨٧٢. اعادت تصويره مكتبة المثنى ببغداد، د.ت، ص ٤٤٩، ٤٥١؛ الكندي، ابو محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م)، الولاة والقضاة، مطبعة الآباء واليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ م، ص ١٨٤، ١٩٣-١٩٥. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الكندي، الولاة؛ ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ٣، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي لدراسات العربية، دمشق ١٩٥١-١٩٦٨ م، ج ١، ص ٦٩، ٩٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العديم، زبدة الحلب؛ البلوي، ابو محمد عبد الله بن محمد المديني (من اعيان القرن الرابع الهجري) سيرة احمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، ١٣٥٨ هـ، ص ٧٧-٧٨؛ ابن كثير، البداية، ج ١١، ص ٣٢، ١٣٢؛ اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن

وإذا صحت الرواية الواردة في أخبار العباس وولده، نجد أن هذا التقسيم بدأ في وقت مبكر «عندما جعل ابراهيم الامام الى ابن مسلم، ان هو ظهر، ولاية خراسان وسجستان وكرمان وجرجان وقومس والري وأصبهان وهمدان، أي الجناح الشرقي من الدولة، وجعل ولاية أبي سلمة ما دون عقبة همذان من أرض العراق فالجزيرة والشام...»<sup>١٥</sup>. واتباع معظم خلفاء بين العباس هذا الاتجاه في التقسيم، فقد قلد المهدي المغرب كله من الأنبار الى افريقية وذلك سنة ١٦٣ هـ، وأمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، فكانت اليه اعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها، الى أن توفي المهدي سنة ١٦٩ هـ، وكتب الهادي الى يحيى بن خالد يأمره أن يقوم من أمر هارون بما لم يزل يتولاه<sup>١٦</sup>. وفي سنة ١٧٦ هـ ولى الرشيد جعفرأ المغرب كله من الانبار الى افريقية، قلد الفضل المشرق كله، فأقام جعفر بحضرة الرشيد وشخص الفضل الى عمله<sup>١٧</sup>، وعمد المأمون الى تعيين عبدالله بن طاهر على الجزيرة والشام ومصر والمغرب سنة ٢٠٦ هـ وصير اليه أعمالها، وأمر بحاربة المتغلبين عليها، وكان قد ولى سنة ٢٠٥ هـ أباه طاهر بن الحسين من مدينة السلام الى أقصى عمل المشرق<sup>١٨</sup> ويشير اليعقوبي الى أن عبدالله بقي أميراً على مصر والشام والجزيرة الى سنة ٢١٤ هـ بينما يشير الطبري وابن الاثير الى أن ولايته استمرت حتى سنة ٢١٣ هـ عندما ولى المؤمن عبدالله بن طاهر المشرق وولى ابن العباس الجزيرة والشام والعواصم، وولى أخاه أبا أسحاق المعتصم الشام ومصر، وأمر لكل واحد منهما ولعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف درهم<sup>١٩</sup>، وولى المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ) اشناس التركي الشام جميعه والجزيرة ومصر سنة ٢٢٥ هـ<sup>٢٠</sup>، وبقي اشناس في منصبه في خلافة الواثق (٢٢٧-٢٣٢ هـ) الذي ولاه من بابه الى

- = هبة الله (ت ٢٩٢ هـ/١٩٠٤ م) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، دار صادر، دار بيروت، ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م، ج ٢، ص ٤٥٦، ٤٧٩، ٤٨١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤١٥ م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، ج ٦، منشورات مؤسسة الاعلمي، بيروت، ج ٤، ص ٢٩٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، تاريخ.
١٥. مؤلف مجهول (من اعيان القرن الثالث الهجري) أخبار العباس وولده، معهد الدراسات العليا، بغداد، ص ١٣٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مؤلف مجهول، أخبار العباس.
١٦. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٤٨، ١٨٧؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٧٤؛ الجهشيارى، الوزراء، ص ١٥٦. الا أن الجهشيارى يذكر ان المهدي امر خالد بن يحيى بن برمك ليتولى ذلك كله.
١٧. الجهشيارى، الوزراء، ص ١٩٠؛ اما اليعقوبي فيذكر ان الرشيد استخلف جعفر على الشامات والجزيرة سنة ١٧١ هـ/٧٨٧ م، ج ٢، ص ٤١٠.
١٨. ابن مسكويه، تجارب، ج ٦، ص ٤٤٩، ٤٥١؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤٥٦، الكندي، الولاة، ص ١٨٤؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٩٧.
١٩. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٢٠؛ مؤلف مجهول، العيون، ص ٣٦٣؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٢١٦.
٢٠. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٩٦؛ الكندي، الولاة، ص ١٩٣-١٩٥.



آخر عمل المغرب<sup>٢١</sup>. فلما توفي سنة ٢٣٠هـ، صيرت مرتبته وأكثر أعماله الى ايتاخ التركي<sup>٢٢</sup> وولى المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) ابنه جعفرأ العهد ولقبه المفوض الى الله، وضم اليى موسى بن بغا وولاه افريقية ومصر والشام والجزيرة....، وولى أخاه أبا أحد العهد بعد جعفر ولقبه الناصر لدين الله الموفق، وولاه بغداد والمشرق سنة ٢٦١هـ<sup>٢٣</sup>. ويؤكد النقد والطرز هذا الانقسام، إذ بينما تحمل النقود المشرقية والطرز كتابات يرد فيها اسم الموفق، نجد اسم جعفر المفوض الى الله على النقود والطرز في الغرب<sup>٢٤</sup>، وعقد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) لابنه الاميرأبي العباس على الشام ومصر وهو ابن أربع سنوات وولى عليهما نيابة عنه مؤنس المظفر، سنة ٣٠١هـ<sup>٢٥</sup>. أما ابن العديم فيذكر أن المقتدر ولى مؤنس المظفر الخادم الشام ومصر نيابة عن ابنه أباي العباس سنة ٣٠٦هـ<sup>٢٦</sup>. ويبدو أن المقتدر عاد فأكد تقليده لمؤنس على الشام ومصر سنة ٣٠٩هـ، ولقبه المظفر وأمر أن يكتب ذلك في المراسلات الى الآفاق<sup>٢٧</sup>.

يتضح مما تقدم ارتباط الشام ومصر إداريا، ذلك أن التقليد، وان كان يتضمن غالباً المغرب كله من الانبار الى افريقية، فان افريقية كما هو معروف، خرجت عن نطاق حكم العباسيين المباشر ابتداء من سنة ١٨٤هـ، كما أن الجزيرة والثغور والعواصم، كانت تسند إدارتها أحياناً لنائب مستقل، كما فعل الرشيد عندما جعل الجزيرة والثغور والعواصم لابنه القاسم سنة ٢٨٦هـ<sup>٢٨</sup>، وجعلها المأمون لأبنة العباس<sup>٢٩</sup>. أي ان النائب عن المغرب كله كان في الواقع مسؤولاً عن إدارة هذين الاقليمين

٢١. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٦٩؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٧٩.
٢٢. اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٨١؛ الكندي، الولاة، ص ١٩٥.
٢٣. البلوي، سيرة، ص ٧٧-٧٨؛ ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ٣٢٣؛ ابن كثير، البداية، ج١١، ص ٣٢؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ٢٩٩.
٢٤. Stanely, S. Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, London, 1875-1889, nos. 352, 355, 356, 353, 358, 366, 374

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : Catalogue of Oriental :

٢٥. ابن مسكويه، تجارب، ج١، ص ٣٢؛ ابن شداد، عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم، (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م، ص ١٢٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن شداد، الاعلاق.
٢٦. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٩٤.
٢٧. ابن كثير، البداية، ج١١، ص ١٣٢؛ ابن مسكويه، تجارب، ج١، ص ٧٦.
٢٨. الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٢٧٥، مؤلف مجهول، العيون، ص ٣٠٣؛ ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ٢١٢.

بشكل رئيسي، ولم تفصل مصر عن الشام إدارياً الا في خلافة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م). وفترة فوضى الأتراك (٢٤٧-٢٥٦هـ/٢٦١-٢٦٩م)، حينما ضم المتوكل لابنه وولى عهده المنتصر لله سنة ٢٣٥هـ مصر مع المغرب والجزيرة والعواصم والشعرين وقنسرين وطسايح السواد والحرمين وحضرموت...، وجعل أجناد حمص ودمشق والأردن وفلسطين لأبنة المؤيد<sup>٣٠</sup>، وعقد بايكباك لأحمد بن طولون على مصر<sup>٣١</sup>، وكان بايكباك من أكابر قواد الأتراك ومقيماً بالحضرة، فاستخلف بها من ينوب عنه فولى أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ، ولكنه لم يستعمله إلا على مصر فقط (الفسطاط) دون باقي الاعمال كالاسكندرية وغيرها فلما قتل المهدي (٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٨-٨٦٩م) بايكباك وصارت مصر لياركوج التركي (يرد اسمه عند الكندي يارجوج) عقد لابن طولون لا على القصبه فقط، إنما على الاسكندرية وبرقة<sup>٣٢</sup>.

وعلى الرغم من الصلاحيات الواسعة التي منحها كل من المهدي ولرشيد لنوابهما على اقاليم الغرب<sup>٣٣</sup>. الا أن التعيينات كلها كانت تصدر باسم الخليفة، ولكن هذه التعيينات أخذت تصدر في الاحيان ابتداء من خلافة المأمون باسم من يعينهم الخلفاء نواباً عنهم. وازدادت امتيازات هؤلاء النواب في عهد المعتصم ومن جاء بعده، فعندما عين المعتصم اشناس التركي على الشام والجزيرة ومصر، توجه وألبسه وشاحين بالجواهر<sup>٣٤</sup>، وحينما توفي ترك الواثق لولده ضياعه وأمواله بحالها<sup>٣٥</sup>. ويذكر المقرئزي أنه لما اختص المعتصم بالأتراك، ووضع من العرب وأخرجهم من الديوان، فأسقط أسماءهم، ومنعهم العطاء، جعل الأتراك أنصار دولته وأعلام دعوته، وكان من عظمت عنده منزلته، قلده الاعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة، فيستخلف على ذلك العمل الذي تقلده من يقوم بأمره، ويحمل اليه ماله، ويدعي له منابره كما يدعي للخليفة<sup>٣٦</sup>، وكانت إقامة نواب الأقاليم الغربية

٢٩. الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٦٢٠؛ ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ٢١٦؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٦٧.

٣٠. الطبري، تاريخ، ج٩، ص ١٧٦؛ ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ٢٨٤.

٣١. الطبري، تاريخ، ج٩، ص ٣٨١؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ٢٩٨.

٣٢. الكندي، الولاة، ص ١٦٢؛ البلوي، سيرة، ص ٤٦؛ ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ٣٣٩؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ٢٩٨.

٣٣. الطبري، تاريخ، ج٨، ص ١٤٨، ١٨٧؛ الجهشيارى، الوزراء، ص ١٥٦، ١٩٠؛ ابن الاثير، الكامل، ج٥، ص ٧٤.

٣٤. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٦٩؛ الكندي، الولاة، ص ١٩٣-١٩٥.

٣٥. يعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٨١؛ الكندي، الولاة، ص ١٩٥.

٣٦. المقرئزي، ابوالعباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٤، مطبعة بولاق، ١٢٧٠هـ، ج١، ص ٥٨٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقرئزي، المواعظ.

بالحضرة، ولم يشذ عن ذلك الا عبدالله بن طاهر وابواسحاق المعتصم<sup>٣٧</sup>؛ أما عبد الله بن طاهر فلأنه كلف بتوطيد الأمن في الجزيرة والشام ومصر نتيجة للقوضى التي نجمت عن الصراع بين الأمين والمأمون، فلما أتم مهمته قدم بغداد سنة ٢١١هـ ومعه المتغلبون على الشام<sup>٣٨</sup>، استخلف على أعماله<sup>٣٩</sup>. وأقام أبو اسحاق المعتصم بالشام، لأن الخليفة المأمون أقام فيها في السنوات الأربع الأخيرة من حكمه، حيث دأب على غزو الروم انطلاقاً من الشام<sup>٤٠</sup>. وكانت إقامة أثناس وإيتاخ وموسى بن بغا وبايكباك في العاصمة، ولم يختلف الوضع عملياً بالنسبة للشام خلال السنوات الثماني والعشرين التي سيطر فيها الطولونيون عليها (٢٦٥ - ٢٩٢هـ/٨٧٨ - ٩٠٤م)، لأنهم كانوا يستخلفون على أجناد الشام، إلا أنهم لم يقيموا بالحضرة وإنما في مصر، وكانوا يتمتعون بصلاحياتهم كما ملة دون تدخل من الخليفة الذي قد يعتمد الى التدخل في شؤون نوابه المقيمين معه في العاصمة. ورغم أن مؤنس الخادم كان يستخلف على الشام ومصر، وكانت إقامته في العاصمة<sup>٤١</sup>، إلا أنه كان يغادرها أحياناً، كما فعل عندما توجه الى مصر لقتال الجيوش التي ارسلها الفاطميون الى مصر<sup>٤٢</sup> أو لغزو الروم<sup>٤٣</sup>، أو عندما نجح الوزير ابن الفرات باقناع المعتدربا بعد مؤنس الخادم، فشرح المعتدربا الوضع له، وذكر أن بقاءه بالحضرة يجعل الرجال ينضمون اليه، ومال السواد والأهواز وفارس لا يفي بنفقات الحضرة، فكيف ينفقات الجنده، وانه اذا أقام لم يرج من مال ديار ربيعة ومصر والشام شيء، في حين أنه اذا خرج الى الرقة، فانه يتوسط عمله، ويستطيع ان يرسل عماله في اقتضاء الأموال، وتهابه عمال المعادن والخراج بمصر والشام فيستقيم أمر الملك<sup>٤٤</sup>. ولكن المعتدربا اضطر الى إرجاعه نتيجة لهجوم القرامطة على الحجيج، إذ أوضح نصر الحاجب

٣٧. الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٦٢٠، ٦٢٥؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٦٤، ٤٨١؛ الكندي، الولاة، ص ١٨٥، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٨، ١٩٩؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٦٩؛ المقرئزي، المواعظ، ج١، ص ٥٨٥، ٥٨٦.

٣٨. الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٦١٨.

٣٩. الكندي، الولاة، ص ١٨٤، ٤٣٣؛ الصفدي، صلاح الدين (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) امراء دمشق في الاسلام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م، ص ٤٤، ٩١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الصفدي، امراء دمشق.

٤٠. ابن مسكويه، تجارب، ج٦، ص ٤٦٨ - ٤٦٩؛ الطبري، تاريخ، ج٨، ص ٦٢٥، ٦٥١، ٦٥٧؛ ابن كثير، البداية، ج١، ص ٢٧٤، ٢٧٨.

٤١. ابن كثير، البداية، ج١١، ص ١٣٢، ١٤٤.

٤٢. المقرئزي، المواعظ، ج١، ص ٦١٥.

٤٣. ابن مسكويه، تجارب، ج١، ص ١١٥.

٤٤. المصدر نفسه، ج١، ص ١١٥، ١١٦.

للمقتدر بأنه زعزع أركان الدولة، وعرضها للزوال بإبعاد مؤنس الذي يناضل الأعداء، ويدافع عن الدولة، وأشار عليه بمكاتبة مؤنس بالتعجيل إلى الحضرة<sup>٤٥</sup>.

### خلفاء بني العباس وإدارة الشام :

على الرغم من ارتباط الشام ومصر إدارياً، فإن الوضع الجغرافي والاستراتيجي والاجتماعي للشام، دفع خلفاء بني العباس الأوائل إلى توجيه اهتمام خاص لهذا الإقليم، فقد خرج البيزنطيون من صراعهم الاقتصادي الحربي ضد الأمويين ظافرين، وبقيت بيزنطة لمدة نصف قرن بعد سنة ٧٥٢هـ/ ٧٥٢م القوة الوحيدة التي تملك أسطولاً يسيطر على البحر الأسود، ولم يكن للأسطول الامبراطوري في القسطنطينية، وأساطيل مناطق إيجه وكبرهيرات Kibyrrhaeots وصقلية أي منافس حقيقي<sup>٤٦</sup>، لأن منطقة شمالي إفريقية بقيت عاجزة مدة عقود خسة، وتخلت مصر عن الاهتمام بالأسطول<sup>٤٧</sup>.

ولعل الشام هي الوحيدة التي كانت تمتلك أسطولاً، استطاع أن يستعيد قواه بعد هزيمة سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧م، إلا أنه بقي أسطولاً محلياً ضعيفاً، لأنه لم يقم بأي عملية هجومية حتى سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٣م، حينما حدثت معركة بحرية عند شواطئ قبرص بين الأسطول الشامي والبيزنطي، وأسر فيها قائد الأسطول البيزنطي، ولعل خسائر المسلمين كانت أيضاً كبيرة، إذ انقضت بعد ذلك ست عشرة سنة قبل أن نسمع بعمليات هجومية يقوم بها الأسطول الشامي<sup>٤٧</sup>. وكان المنصور يدرك الخطر الذي يحدق بدولته نتيجة عدم امتلاك العباسيين لأسطول قوي في البحر المتوسط، لذلك تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها، وبنى ما احتاج إلى البناء منها، ثم لما استخلف المهدي استتم ما بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها، ويذكر البلاذري أن الخليفة هارون الرشيد، أقام

٤٥ . المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢١، ١٢٢.

٤٦ . Lewis, Archibald Naval Power and Trade in the Mediterranean, AD. 500-1100, Princeton University Press, New Jersey, 1957, p. 98

وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : Lewis, Naval Power

٤٧ . E.N., Brooks. The Relations Between the Empire and Egypt from a New Source in Byr Zeit, 1913, XXII, pp. 383-384.

وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : Brooks, « The Relations»

٤٨ . Lewis, « Naval Power», p. 102

من الصناعة ما لم يقيم قبله<sup>٤٩</sup>، ووجه حملة بحرية لغزو قبرص بقيادة حميد بن معيوف الذي كان قد ولاه سواحل بحر الشام الى مصر<sup>٥٠</sup>. وبلغ الاهتمام بالأسطول أوجه في خلافة المتوكل الذي أمر بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة نتيجة لهجوم البيزنطيين على دمياط<sup>٥١</sup>.

أما العامل الثاني الذي دفع خلفاء بني العباس الى الاهتمام بالشام فهو أن الشام كانت مسرحاً للقبائل العربية التي كان لها دورها السياسي والاداري والعسكري في خلافة بني أمية، وقد أدرك أبو مسلم الخراساني أثر انتصاره على عبد الله بن علي هذه الأمور، فحاول أن يتألف أهل الشام، فأطلق الاسرى ووهب لكل اسير اربعة دراهم ولم يقتل الا ابا غسان العكي لشهادته بما شهد به لعبدالله بن علي، وكتب ابو مسلم الى المنصور يعلمه أن أهل الجزيرة والشام بمواضع من الثغور مشحنة للعدو، وأنها لا تسد الا بهم، وسأله الصفيح عنهم، ووفد معه اليه عدة من أشرفهم، فصفيح عنهم المنصور، وأمر برد قطائع الحارث بن عبد الرحمن لأنه أعجب بكلامه واعتبره أخطب القوم<sup>٥٢</sup>.

ويتجلى اهتمام خلفاء بني العباس بالشام في أن معظم قضاتها، حتى نهاية القرن الثالث، كانوا من أهل الشام، بينما كان العديد من قضاة مصر عراقيين (من الكوفة أو البصرة)<sup>٥٣</sup>، كما أن معظم ولاتها كانوا من آل العباس حتى عهد المأمون، وهذا أمر لا نلاحظه في مصر ايضا. فقد كان عبدالله بن علي واليا على الشام في خلافة أبي العباس<sup>٥٤</sup>، وبقي والياً على الشام كله حتى ربيع الآخر سنة ١٣٦ هـ، حينما ورد الكتاب بولايه صالح بن علي بن عبد الله بن العباس مصر وفلسطين والمغرب<sup>٥٥</sup>، ولذلك فانه حينما عزم عبد الله بن علي على ادعاء الخلافة، سار حتى نزل قنسرين، وعين

٤٩. البلاذري، فتوح، ص ١٣٧.

٥٠. ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٢٠٦.

٥١. البلاذري، فتوح، ص ١٦٧؛ المقرئ، المواعظ، ج ٣، ص ٦.

٥٢. البلاذري، انساب، القسم الثالث، ص ١٠٩؛ بدران، عبد القادر (ت ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، دار المسيرة، دمشق، ج ٣، ص ٤٥٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: بدران، تهذيب.

٥٣. ابن طولون، شمس الدين عماد بن علي بن محمود (٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م - ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م) الثغر البسام في ذكر من وُلي قضا الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٦ م، ص ١٢-١٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن طولون، الثغر الكندي، الولاة، ص ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩٤، ٤٣٣.

٥٤. ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٤٨؛ ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٥٦؛ القلقشندي، أحد بن علي، (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)، مآثر الانافة في معالم الخلافة، ج ٣، تحقيق عبد الستار أحد فراج، الكويت، ١٩٦٤ م، ج ١، ص ١١٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، مآثر.

٥٥. الكندي، الولاة، ص ١٠٢؛ المقرئ، المواعظ، ج ١، ص ٥٧٥.

الولاية على الأجناد، وولي الحكم بن ضبعان على فلسطين<sup>٥٦</sup>، التي أصبحت تابعة إدارياً لصالح بن علي، فعهد صالح إلى إرسال أبي عون، ومحمد بن الأشعث الخزاعي وغيرهم إلى فلسطين فهزموا الحكم ابن ضبعان<sup>٥٧</sup>.

وفي خلافة المنصور يبرز اسم صالح بن علي كوال على الشام والشغور<sup>٥٨</sup>، ويبدو أنه اتخذ حلب مقاماً له، فابن العديم يذكر أنه رأى فلوساً عتيقة كتب على أحد الجانبين منها (ضرب هذا الفلوس بمدينة حلب سنة ١٤٦ هـ) وعلى الجانب الآخر (مما أمر به الأمير صالح بن علي أكرمه الله)<sup>٥٩</sup>، كما أنه أبتنى لنفسه قصرأ بقرية بطياس قرب حلب، وكان أكثر مقامه به<sup>٦٠</sup>.

ويذكر ابن عساكر أن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله كان والياً للمنصور على دمشق والشام كله، وأنه ولي الشام سنة ١٤٠ هـ<sup>٦١</sup>، ونجد كولاة على الأجناد، في خلافة المنصور، عبد الله بن صالح على حمص، والفضل بن صالح على دمشق، وقد وليها تسع سنين، وهو الذي عمل الأبواب للمسجد والقبة في الصحن والمعروفة بقبة المال<sup>٦٢</sup>، ومحمد بن إبراهيم على الأردن، وعبد الوهاب بن إبراهيم على فلسطين<sup>٦٣</sup>. ورغم أن هؤلاء الولاة كانوا من أهل بيته، فقد كان شديد المراقبة لهم، وحينما بلغه أن عبد الوهاب قد عسف بأهل فلسطين أظهر المنصور إنكاراً شديداً وعزلة<sup>٦٤</sup>. وولي المهدي

٥٦. البلاذري، أنساب، القسم الثالث، ص ١٠٥، ١٠٦.
٥٧. الكندي، الولاة، ص ١٠٢.
٥٨. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٣٩٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٦٨، ج ٥، ص ٧٢؛ بدران، تهذيب، ج ٥، ص ٣٤٤.
٥٩. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٦٠.
٦٠. ابن شداد، عبد الله (ت ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م)، العلاقات الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق دومينيك سورديلي، دمشق، ١٩٥٣ م، ص ٢٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن شداد، العلاقات، (دومينيك). ابن الشحنة، محمد (ت ٨٩٠ هـ/١٤٨٥ م) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت، ١٩٠٩ م، ص ٥٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الشحنة، الدر المنتخب.
٦١. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة بن عبد الله الشافعي (٤٩٩ هـ/١١٠٥ م — ٥٧١ هـ/١١٧٥ م) تاريخ مدينة دمشق (عبادة بن أوفى — عبد الله بن ثوب)، تحقيق: شكري فيصل، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ص ٢٢٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ.
٦٢. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م — ٧١١ هـ/١٣١١ م)، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، تحقيق مأمون الصاغري، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ج ٢٠، ص ٢٠.
٦٣. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٣٨٤.
٦٤. الجهشاري، الوزراء، ص ١٣٩.

على بن سليمان بن عبد الله الجزيرة وقنسرين<sup>٦٥</sup>، فأنشأ أثناء ولايته مدينة سميت المحمدية<sup>٦٦</sup>، وجمع المهدي لآبراهيم ابن صالح بن علي دمشق والأردن وبقي والياً عليهما حتى خلافة هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ. وحينما ثار أهل الجوف، بينها وقيسها، في مصر لتشدد والي مصر موسى بن مصعب الخثعمي في استخراج الخراج، ومضاعفة ما كان يؤخذ على الفدان، ووضعه خراجاً على أهل الاسواق<sup>٦٧</sup> أرسل المهدي الفضل بن صالح الى مصر فدخلها في محرم سنة ١٦٩ هـ مع جند عظيم أتى بهم من الشام، وعلى قيادة مقاتلة كل جند قائد منهم، فكان على أهل قنسرين عنبة بن سعيد الحرشي، وعلى أهل حمص جهم بن عبد العزيز البهراني، وعلى أهل دمشق قطبة بن سعيد القيني، وعلى أهل فلسطين زيادة بن فائد اللخمي<sup>٦٨</sup>. واعتمد الرشيد كالمصور والمهدي بالدرجة الاولى على ولاة من أهل بيته في إدارة الشام، بينما لا نرى هذا الاتجاه في تعيين ولاة مصر مثلاً، ونظراً لاهتمام الرشيد بمنطقة الثغور، فانه ما أن بويع خليفة سنة ١٧٠ هـ حتى عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم<sup>٦٩</sup>. ورغم هذا الاجراء الاداري الذي قام به هارون الرشيد، فانه يلاحظ أن الجزيرة وقنسرين والعواصم كانت تسند غالباً لوال واحد، وان كانت الروايات المتعلقة بتحديد منطقة نفوذ الوالي غير دقيقة، فابن العديم مثلاً يذكر أن الرشيد ولي عبد الملك بن صالح حلب وقنسرين وأنه اتخذ منبج مقراً له<sup>٧٠</sup>؛ ولكننا نستنتج مما يورده البلاذري، أنه كان والياً على العواصم أيضاً، لأن البلاذري يحدد المناطق التي دخلت ضمن نطاق العواصم، ويذكر أن منبج كانت عاصمتها<sup>٧١</sup>. ويورد اليعقوبي<sup>٧٢</sup> أن عبد الملك بن صالح كان يتولى الجزيرة وبعض الشام عندما خرج الوليد بن طريف الحروري سنة ١٧٩ هـ، وهذا يعني أن عبد الملك كان والياً على قنسرين والجزيرة والعواصم، ونلاحظ كذلك اختلافاً في أسماء ولاة دمشق عند أندلاع العصبية أو فتنة ابي الهيثم سنة ١٧٦ هـ، الا أن هناك اتفاقاً على أنهم من آل العباس<sup>٧٣</sup>، فلما طالت الفتنة، أرسل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي (وكان مسؤولاً عن

٦٥. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٦٧.  
 ٦٦. البلاذري، فتوح، ص ١٩٤.  
 ٦٧. الكندي، الولاة، ص ١٢٥.  
 ٦٨. المصدر نفسه، ص ١٢٩؛ المقرئ، المواعظ، ج ١، ص ٥٧٨.  
 ٦٩. البلاذري، فتوح، ص ١٣٨؛ الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٧٤؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٨٣.  
 ٧٠. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٦٢.  
 ٧١. البلاذري، فتوح، ص ١٧٤.  
 ٧٢. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤١٠.  
 ٧٣. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٥١؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٩٢-٩٣؛ ابن كثير، البداية، ج ١١، ص ١٦٨. بدران، تهذيب، ج ٢، ص ٤٠٩.

الجناح الغربي) الى الشام ومعه القواد والعساكر والأموال، فقتل زواقيلمهم، والمتلصصة فيهم، ولم يدع ربحاً ولا فرساً «فسكن الفتنة وأطفأ النائرة، وعاد الناس الى الأمن والسكون»<sup>٧٤</sup>. وكان من نتيجة هياج العصبية في الشام أن أكثر الرشيد مقامه في الرقة؛ وإذا كان الدينوري يذكر أنه أختار الرقة لأنه استطابها<sup>٧٥</sup>، فان الطبري وابن الأثير يذكران أسباباً أخرى، منها قلق الرشيد الناجم عن محبة أهل الشام لبني أمية وهياج العصبية، بالإضافة الى ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبل، وانه لولا هذه العوامل ما فارق بغداد ما كان حياً، ولا خرج منها ابداً<sup>٧٦</sup>. ولعل الوالي الوحيد الذي استطاع أن يحقق التوازن بين الحيين، وأن يسلم من لقب يلقيه به أهل جند دمشق، وهو أخوه هارون الرشيد، ابراهيم بن محمد بن المهدي المعروف بابن شكله، ذلك أنه كان يعتبر قريشاً فوق العصبيات، كما يستنتج من كلامه الذي وجهه لأشراف مضر وعين حين قال: «إن الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب، فجعل مضر عمومتهما وجعل يمن خوولتها، وافترض عليها حب العمومة والخوولة، فليس يتعصب قرشي الا للجهل بالمفترض عليه»<sup>٧٧</sup>. وقد ولي ابراهيم جند دمشق مرتين، وليها في المرة الأولى مدة سنتين، وفي المرة الثانية أربع سنوات، وربما كانت ولايته الثانية سنة ١٨٦هـ، لأن ابن عساكر يذكر أن الرشيد ولاه الموسم سنة ١٨٦هـ، وأنفذ اليه عهده الى دمشق، وأمره بالاستخلاف على عمله والخروج الى مكة ليحج بالناس<sup>٧٨</sup>. كما يمكننا أن نستنتج مما يذكره ابن عساكر أو ولايته الأولى كانت قبل الفتنة<sup>٧٩</sup>، وكان الرشيد قد أجرى عليه كل سنة ٣٠ ألف دينار عمالة<sup>٨٠</sup>.

ويتجلى نفوذ القبائل العربية في الشام خلال الصراع بين الأمين والمأمون، لذلك نصح عبد الملك بن صالح، الأمين بالاعتماد على أهل الشام في قتال طاهر بن الحسين قائد المأمون، لأن أهل الشام ضرستهم الحرب وأدبتهم الشدائد، وكلهم منقاد الى طاعته، وأنه اذا وجهه اليهم، اتخذ له منهم جنداً يعظهم نكايتهم في عدوه<sup>٨١</sup>. فولاه الأمين وفق رواية ابن الأثير الشام والجزيرة، وقواه بمال

٧٤. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٦٢؛ ابن الأثير، ج ٥، ص ١٠٣.  
 ٧٥. الدينوري، احمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)، الاخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٣٩٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الدينوري، الاخبار.  
 ٧٦. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٣١٧. ج ٩، ص ١٧٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ١٢١.  
 ٧٧. بدران، تهذيب، ج ٢، ص ٢٦٨.  
 ٧٨. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٣.  
 ٧٩. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٢؛ ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٢٩٠.  
 ٨٠. بدران، تهذيب، ج ٢، ص ٢٦٨.  
 ٨١. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ١٥٠.



ورجال، فسار حتى نزل الرقة وكتب رؤساء أهل الشام وأهل القوة والجلد والبأس فأتوه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة فأكرمهم ومناهم، وكان من سوء حظ الأمين أن مرض عبد الملك بن صالح واشتد مرضه، وحدث الخلاف بين جنود خراسان المقيمين في عسكر الشام، والزواقل، واشتد القتال بينهم وأكثرت الابناء القتل في الزواقل، فلما سمع عبد الملك ذلك ضرب بيده على يد وقال: «واذلاه تستضام العرب في دورها وبلادها»، فغضب من كان قد أمسك على الشر من الأبناء وتفاقم الأمر وتراجع أهل الشام<sup>٨٢</sup>، وتقلب كل قوم على ناحيته، حتى استطاع عبدالله بن طاهر أن يعيد الأمور إلى نصابها. ورغبة في توطيد الأمن في الشام وفي الاستفادة من مقاتلتها<sup>٨٣</sup>، نلاحظ أن المأمون يجعل إقامته في الشام ما بين ٢١٤ - ٢١٨هـ أثناء غزوه لبلاد الروم، واتخذ دير مروان في دمشق مقراً له<sup>٨٤</sup>، كما أنه أثناء إقامته في الشام فرق مالا عظيماً، ربما أراد به تألف أهل الشام، والبرهنة على أنه ينظر لعرب الشام كما نظر لعجم خراسان<sup>٨٥</sup>.

وإذا كان المعتصم قد بدأ بشراء الأتراك في أيام المأمون وجعلهم دعامة أيام خلافته، اشترى من كان ببغداد من الأتراك والفراغنة والاشروشنية<sup>٨٦</sup>، وجعل لأشناس الشام جميعه والجزيرة ومصر، فان سيطرة الأتراك على شؤون الخلافة في العاصمة وإدارة الولايات إنما بدأ في عهد المتوكل، إذ إن كلا من أشناس وإيتاخ في خلافة المعتصم والوائق أسند إدارة الجزيرة وقنسرين والعواصم لولاءة من بني العباس ومن ولد صالح بن علي نظراً لأهمية هذه المنطقة الثغرية<sup>٨٧</sup>. ويشير ابن العديم إلى أنه قرأ في كتاب نسب صالح بن علي، أن الشاربيمان - كان أحد قواد المتوكل وخصيصاً عنده - ولي في أول أيام المتوكل علي بن اسماعيل ولي الشاربيمان جند قنسرين والعواصم عيسى بن عبيدالله بن الفضل بن صالح<sup>٨٨</sup>. ولكن عندما جعل المتوكل ولاية العهد لابنه محمد المنتصر لله، وولاه قنسرين والعواصم والشغور وديار مضر ووربيعة والموصل وغير ذلك من البلاد سنة ٢٣٥هـ، جعل المنتصر نائبه على الجزيرة

٨٢. المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٥٠. مؤلف مجهول، العيون، ص ٣٢٨.

٨٣. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٦٣١؛ ابن مسكويه، تجارب، ج ٦ (احداث ١٩٨ - ٢٥١)، ص ٤٦٤.

٨٤. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٦٢٤. مؤلف مجهول، العيون، ص ٣٧١، ٣٧٦؛ ابن مسكويه، تجارب، ج ٦، ص ٤٦٤؛ ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١.

٨٥. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٦٥٢، ٦٥٤؛ بدران، تهذيب، ج ١، ص ٤١٨؛ ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٢٧٨؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٢١٦.

٨٦. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩.

٨٧. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٧٠، ٧٩.

٨٨. المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٢.

وقنسرين والعواصم بغا الكبير<sup>٨٩</sup>، فلما قتل المتوكل، قدم بغا على المنتصر، وسير المنتصر وصيفا الى الثغر الشامي. وولى المستعين (٢٤٨ - ٢٥١هـ/٨٦٢ - ٨٦٥م) سنة ٢٥٠هـ موسى بن بغا على قنسرين وحمص، وتوجه اليها حين عاث أهل حمص على عاملهم الفضل بن قارن، وكان الوالي على حمص قبل الفضل بن قارن، كيدر بن عبدالله الأشروسني<sup>٩٠</sup> وعامله على دمشق نوشري بن طاجيل التركي<sup>٩١</sup>. وأنفذ المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ/٨٦٩ - ٨٩٢م) أما جور التركي لمحاربة عيسى بن الشيخ الذي تغلب على دمشق، وامتنع عن حمل المال الى العراق، وعارض المال الذي أرسله ابن المدبر صاحب خراج مصر الى العراق وقيمته ٧٥٠ ألف دينار<sup>٩٢</sup>، وهزم أماجور عيسى بن الشيخ، فقلده المعتمد دمشق وأعمالها، وفق رواية ابن الأثير<sup>٩٣</sup>. أما البلوي فيذكر أنه بعد دخوله دمشق تقلد أعمال الشامات كلها، واستخلف عليها خلفاء من قبله<sup>٩٤</sup>. ويؤكد المقرئ ما ذكره البلوي من أن أماجور تقلد أعمال الشام كلها، لأنه عندما توجه أحمد بن طولون الى الشام سنة ٢٦٥هـ كان الولاية على فلسطين والأردن ودمشق وحمص من قبل أماجور باستثناء قنسرين والثغور، ولكن بعض المؤرخين يستخدمون تعبير والي دمشق لأنه جعل إقامته في دمشق<sup>٩٥</sup>. ومن الطبيعي أن يكون عمال الطولونيين على أجناد الشام من الاتراك، فأحمد بن طولون نفسه كان من الترك (الطغرغز)<sup>٩٦</sup>، وكان من ولايتهم أحمد بن وصيف، وهو ابن وصيف الكبير التركي، وكان المهدي قد أجبره على المقام بدمشق على سبيل النفي<sup>٩٧</sup>، وأحمد بن يدغباش وكان ملك الترك أهدى أباه الى المعتصم، وكان يدير أمر دمشق لما وليها علي بن أماجور بعد موت أبيه، ثم وليها خلافة لأحمد بن طولون<sup>٩٨</sup>، وبرز اسم طنجح ابن جف الفرغاني كوال على دمشق من قبل حمارويه (٢٧٠ - ٢٨٣هـ) طوال خلافة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ/٨٩٢ - ٩٠١م)<sup>٩٩</sup>، ثم وليها بدر الحمامي

٨٩. المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٢.  
 ٩٠. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤٩٦.  
 ٩١. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٦؛ ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٣٢٣.  
 ٩٢. الكندي، الولاية، ص ٢١٤. كان المستعين قد ولى سنة ٢٤٩هـ بغا الصغير على فلسطين ولكنه قرر البقاء في العاصمة، وعقد لعيسى بن الشيخ على الرملة، وقيل انه اعطى بغا اربعين الف دينار على ذلك أو ضمنها اليه. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ٢٦٤، ٣٧٢.  
 ٩٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٣٥٩.  
 ٩٤. البلوي، سيرة، ص ٥٢.  
 ٩٥. المقرئ، المواعظ، ج ١، ص ٥٩٢؛ الكندي، الولاية، ص ٢١٩؛ البلوي، سيرة، ص ٩٢ - ٩٣.  
 ٩٦. ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ٢٩٧.  
 ٩٧. البلوي، سيرة، ص ٩٢؛ بدران، تهذيب، ج ٢، ص ١٠٩.  
 ٩٨. بدران، تهذيب، ج ٢، ص ١١٨.  
 ٩٩. المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٩٠؛ القلقشندي، مآثر، ج ١، ص ٢٦٦.

من قبل هارون بن خارويه (٢٨٣ - ٢٩٢هـ) في أيام المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥هـ/٩٠٢ - ٩٠٧م)، وكان والياً على دمشق عندما وجه المكتفي سنة ٢٩١هـ محمد بن سليمان الكاتب مع جماعة من القواد الى الشام ومصر لأخذ الأعمال من هارون لما ظهر من عجزه، وذهب رجاله بقتل من قتل منهم القرامطة<sup>١٠٠</sup>، وكان وصيف بن صنورتكين عاملاً لهارون على فلسطين، فكتب الى محمد بن سليمان بالسمع والطاعة، ثم توجه محمد بن سليمان الى القسطنطينية فدخلها سنة ٢٩٢هـ، وأطلق من في السجون، وسكن الناس ودعا في اليوم التالي على المنبر لأمر المؤمنين المكتفي بالله وحده<sup>١٠١</sup>.

وبقي الولاية على أجناد الشام من الأتراك بعد انتهاء حكم الطولونيين حتى سنة ٣٣٦هـ-١٠٢ حينما انقسمت الشام الى قسمين، فسيطر سيف الدولة الحمداني على جند حصص وقنسرين والثغور، وسيطر الأخشيديون على جند دمشق والأردن وفلسطين. وبقي الولاية على مناطق الأخشيديين من الأخشيديين ومواليهم<sup>١٠٣</sup>، بينما اعتمد سيف الدولة على أمراء بني حمدان العرب كولاية وقادة بالإضافة الى غلمان كان قد اصطنعهم<sup>١٠٤</sup>.

#### الموظفون الاداريون في الشام وصلاحياتهم

لم يعد هناك مبرر في العصر العباسي لمنح الولاية الولاية على الحرب الا في المناطق الثغرية، لأن الولاية على الحرب إنما تعني الجهاد ضد أعداء الدين، وبما أن العصر الأموي كان عصر فتوحات، فان الولاية على الولايات الهامة الاساسية التي تنطلق منها جيوش الفتح كان يعهد اليهم بالولاية على الحرب بالإضافة الى الولاية على الصلاة والخراج، وقد منحت هذه الصلاحيات في العصر العباسي للولاة الذين جمعت لهم أجناد الشام مع الثغور، أو الذين جمعت لهم الجزيرة وقنسرين والثغور<sup>١٠٥</sup>، أما الولاية على الأجناد، فكانوا على صلاتها وخراجها في بادئ الأمر، وربما جمع للوالي بالإضافة الى الصلاة والخراج ما يسمى المعاون، فقد جمع الرشيد لأخيه ابراهيم بن محمد بن المهدي الصلاة والخراج والمعاون، والمعاون هي الأموال التي تجبي إضافة الى أموال الخراج والزكاة<sup>١٠٦</sup>، ولكن ما إن بدأ التعيين يصدر عن

١٠٠. ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ١٠٨ - ١٠٩.

١٠١. الكندي، الولاية، ص ٢٤٥.

١٠٢. المصدر نفسه، ص ٢٤٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ١١٢؛ ابن كثير، البداية، ج ١١، ص ١٠٠.

١٠٣. الصفدي، أمراء، ص ١٧، ٢٧، ٤٠، ٤١، ٥٥.

١٠٤. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٩، ١٣٧، ١٤٨؛ ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ٢٤٢.

١٠٥. البلاذري، فتوح، ص ١٩٤؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤٣٤؛ الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٦٧، ٣٧٣،

ج ٩، ص ٢٥٤؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٦١، ٦٤، ٧١.

١٠٦. بدران، تهذيب، ج ٢، ص ٢٧٣؛ ولزبد من المعلومات عن المعادن، انظر: المواعظ للمقرئ، الذي يسمى المعادن

والمراقف باسم الاموال الحلالية، ج ١، ص ١٩١ - ١٩٢.

نواب الخلفاء الذين أسندت اليهم إدارة أقاليم الجناح الغربي أو اقليمي الشام ومصر، حتى يلاحظ الباحث فصلاً بين الصلاة والخراج، كما يلاحظ اعتباراً من خلافة المعتصم، أن الوالي على الجند أصبح يطلق عليه اسم صاحب المعونة<sup>١٠٧</sup>. والكلمة مأخوذة من العون أي الظهير على الأمر، والاسم العون والمعونة<sup>١٠٨</sup>. ذلك لأننا لو استثنينا ثورات الشام في فترة توطيد سلطان بني العباس، لوجدنا أن الأمن كان مستتباً حتى هياج العصبية في الشام في خلافة الرشيد سنة ١٧٦ هـ، ثم هاجت المنطقة بكاملها نتيجة للصراع بين الأمين والمأمون، وأضطر كل من الرشيد والمأمون إلى إرسال قوات لتهدئة الأوضاع في الشام، فلما جاء المعتصم وبدأ الاعتماد على الأتراك، هذا العنصر الجديد الذي لم يكن قادراً على فهم الأسس المعنوية التي قامت عليها الدولة العباسية، ولم تكن له خبرة بالإدارة، فقد ازدادت الفتنة، وكان لا بد من إبقاء قوة عسكرية إلى جانب الوالي أو العامل على الجند، يستطيع بها إخماد الفتنة، ولذلك أطلق عليه — كما يبدو — اسم صاحب المعونة، لأن صاحب الشرطة والمكلف بتوطيد الأمن لم يكن لديه من القوات ما يساعده على القضاء عليها، ولكن هذا لا يعني أن هذه القوات كانت كبيرة إلى الحد الذي لا يضطر معها العامل إلى الاستنجاد بقوات عمال الاجناد الآخرين، أو بقوى المركز، ففي سنة ٢٤٠ هـ وثب أهل حمص بعاملهم على المعونة وأخرجوه، وأخرجوا عامل الخراج، فولى المتوكل عليهم محمد بن عبدويه<sup>١٠٩</sup>، ولكنهم لم يلبثوا أن وثبوا بعاملهم على المعونة محمد بن عبدويه، وأعانهم عليه قوم من نصارى حمص، فكتب إلى المتوكل بذلك، فكتب إليه المتوكل يأمره بمناهضتهم، وأمدّه بجند من دمشق مع صالح العباسي التركي عامل دمشق، وجند من جند الرملة وأمره أن يقسو على رؤوس الفتنة وأن يضربهم بالسياط ضرب التلف، وأن يخرب ما بها من الكنائس والبيع، ولا يترك في المدينة نصرانياً إلا أخرج منها<sup>١١٠</sup>. وفي خلافة المستعين وثب أهل حمص بعاملها كيدر بن عبد الله الأشراسني، فخرج اليهم في جماعة من الجند، فهزم ولحق بحماة، وقتلوا من الجند جماعة وصلبواهم، فولى المستعين عبد الرحمن بن حبيب الأزدي، وربما أراد تألفهم بتعيين وال عربي من الأزد اليمانية، ولكنه توفي على أربع مراحل منها، فولى الفضل بن قارن، ثم بلغ الفضل أن أهل حمص يريدون الوثوب عليه، فأخذ جماعة منهم وضرب أعناقهم، فوثب أهل حمص بالفضل سنة ٢٤٩ هـ واستجاشوا عليه بأحياء كلب، فتحصن منهم بقصر خالد بن يزيد بن معاوية وكان قد جدده، فحاصروه وقتلوه، ولما قتلوه خافوا عامل دمشق، فزحفوا إليه، فوجه اليهم بعسكر من البابكية وغيرهم فهزمهم وانصرفوا إلى

١٠٧. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٦٢، ٢٩٤؛ الطبري، ج ٩، ص ١٩٩.

١٠٨. ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م)، لسان العرب، ج ١٥، دار صادر، بيروت، د. ت، (مادة عون). وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن منظور، لسان.

١٠٩. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ١٩٧؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٩٤.

١١٠. الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ١٩٩؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٩٥.

حصص ، فوجه المستعين موسى بن بغا في ستة آلاف من الموالي الى حمص ، فدخلها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ، فانتهبت ، وطرحت النار في منازلها وانتهبت أموال التجار<sup>١١١</sup> .

وفي عهد المستعين وثب بالأردن رجل من لحم ، فطلبه صاحب الأردن فهرب ، فقام مكانه رجل من اعوانه يعرف بالقطامي ، وكثف جمعه ، فجمع الخراج وكسر جيشاً بعد جيش أنفذهم اليه صاحب فلسطين ، وبقي مسيطراً على الوضع حتى أرسل المستعين مزاحم بن خاقان التركي في جمع من الاتراك وغيرهم ، ففرق جمعهم ونفاهم<sup>١١٢</sup> . هذه أمثلة متعددة تشير الى رفض العرب لولايتهم من الاتراك من جهة ، والى وجود قوات عسكرية من الاتراك وغيرهم الى جانب الوالي الذي أطلق عليه ابتداء من عهد المعتصم اسم العامل على المعونة أو صاحب المعونة ، واستمر هذا التعبير الى عهد الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ / ٩٣٣-٩٤٠ م) فمسكويه في صدد الحديث عن بدر الخرشني الذي كان يتولى الحرب في ديار مضر ثم خرج وعاد الى الحضرة يقول : «فلما خلت من صاحب المعونة قصدها علي بن حمدان فغلب عليها»<sup>١١٣</sup> .

والى جانب الوالي او صاحب المعونة ، الذي كان له كاتب يقوم بالمكاتبات وحاجب<sup>١١٤</sup> ، وجد في كل جند عامل على الخراج أو صاحب خراج ، وقد يجمع جندان لصاحب الخراج اذا جمع للوالي جنندان أيضاً ، وكان عامل الخراج يعين من قبل الوالي اذا كانت ولايته على الصلاة والخراج ، أو من قبل الخليفة أو من ينوب عنه ، فاذا كان العامل على الخراج قد عين من قبل الوالي ، تولى الوالي إرسال الخراج الى خزينة الدولة بعد سد نفقات الولاية ، وقد يتولى هذه المهمة بنفسه احياناً ، فقد كان الليث بن الفضل كلما أغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال والحساب الى الخليفة هارون الرشيد<sup>١١٥</sup> . وعندما جمع لأحمد بن طولون ولاية الخراج مع الصلاة ، وجاء كتاب الموفق ثم المعتمد بارسال المال ، خرج بنفسه مع تحرير خادم الموفق ليسلم المبلغ الى والي العريش من قبل أماجور والي الشام<sup>١١٦</sup> . أما اذا كان صاحب الخراج معيناً من الحضرة فقد يرسل من يقوم بحمل المال أو يقوم هو بحمله الى العاصمة<sup>١١٧</sup> . وكان صاحب الخراج هو المسؤول عن التعديل الذي يتم بين فترة وأخرى ، فقد ولي

- ١١١ . يعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج ١٠ ، ص ٣٢٣ ؛ الطبري ، تاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٧٦ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .  
 ١١٢ . يعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .  
 ١١٣ . ابن مسكويه ، تجارب ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .  
 ١١٤ . بدران ، تهذيب ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .  
 ١١٥ . الكندي ، الولاة ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .  
 ١١٦ . البلوي ، سيرة ، ص ٧٩ .  
 ١١٧ . الكندي ، الولاة ، ص ٢١٤ ؛ البلوي ، سيرة ، ص ٥٠ .

المستوكل أحمد بن محمد خراج دمشق والأردن سنة ٢٤٠ هـ، فعدل دمشق والأردن، وحل كل أرض ما تستحقه<sup>١١٨</sup>. كما أن الاراضي التي كان يموت أصحابها كانت تتحول أحياناً الى ضياع خلافة، فقد كان في فلسطين في أول خلافة هارون الرشيد طاعون جارف ربما أتى على جميع أهل البيت فخرت أرضهم وتعطلت «فوكل السلطان بها من عمرها وتألف الاكرة والمزارعين فصارت ضياعاً للخلافة»<sup>١١٩</sup>. أما الاسلوب المتبع في جباية الخراج في الشام، فليس ثمة من نص واحد يشير اليه، ولكن بما أن الضمان كان متبعاً في مصر منذ أواخر خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ/ ٧٢٤-٧٤٣ م)<sup>١٢٠</sup> وكان مسبقاً في العراق في عهد المنصور والمهدي (والأما شجب ابويوسف هذا الاسلوب في كتابه الخراج الذي كتبه للخليفة هارون الرشيد) أمكننا القول انه ربما اتبع في الشام كذلك، لا سيما وأن العباسيين حاولوا تطبيق إجراءات موحدة في كل الاقاليم التابعة لهم. ثم إن الضمان يسهل مهمة صاحب الخراج كما يتضح من الصورة التي يعطينا اياها المقريري، اذ يذكر أن متولي الخراج كان يجلس في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط في الوقت الذي تنهياً فيه قبالة الأراضي، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالربع سنين لأجل الظماً والاستبحار، فاذا انقضى هذا خرج كل من كان تقبل أرضاً الى ناحيته، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدب لذلك، ويحمل ما عليه من الخراج في إبانة على اقساط، وبحسب له مبلغ قبالاته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائب مقدرة<sup>١٢١</sup>.

وكان هذا الاسلوب في الجباية أيسر وأبسط وأسهل للدولة من الاسلوب الذي اتبع في العهدين الراشدي والأموي، لأن عدد الذين يتقبلون الأراضي محدود نسبياً، وأسماءهم مسجلة لدى كتاب الخراج، فيسهل مطالبتهم بالمبالغ التي فرضت عليهم في حال تأخرهم عن دفعها، بينما كان كل من يملك أرضاً مسؤولاً عن دفع خراج أرضه وجزية رأسه الى الجباة الذين كان يرسلهم عامل الخراج الى

١١٨. بدران، تهذيب، ج٢، ص ٦٢-٦٣؛ اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٩٠.

١١٩. البلاذري، فتوح، ص ١٦٣.

١٢٠. يذكر المقريري في المواعظ، ج١، ص ١٥٠. أن قبالة الاراضي بدأت بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها، وما يذكره المقريري والكندي نستنتج أن ذلك حدث في خلافة هشام بن عبد الملك. المواعظ، ج١، ص ١٤٦، ١٤٧؛ الكندي. الولاة، ص ٧٦، ٧٧. المقريري ابو العباس احمد بن علي، البيان والاعراب عما بأرض مصر الاعراب، القاهرة، ١٣٥٦ هـ، ص ٥٠-٥١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقريري، البيان.

١٢١. المقريري، المواعظ، ج١، ص ١٥٠.

القرى والنواحي، وإن كنا نفهم من النص الذي يورده أبو عبيد والنص الذي يورده ابن عساكر أن القرية كانت مسؤولة عن مبلغ الخراج متضامنة<sup>١٢٢</sup>. ويذكر المقرئ أن الجوالي (جزية الرؤوس) كانت تجبي بسر من رأى ومدينة السلام، وقصب المدن المشهورة على شهور الأهلة، وما كان من جماجم أهل القرى في الخراج والضياع والمستغلات على شهور الشمس، ولذلك فإن أصحاب الدواوين في أيام المتوكل، لما نقل سنة ٢٤١ هـ إلى سنة ٢٤٢ هـ، جبا الجوالي لهاتين السنتين في وقت واحد<sup>١٢٣</sup>.

وأصبحت أعمال الخراج والضياع في خلافة المقتدر تقلد لشخص واحد أو اثنين بعد أن كان عامل الخراج لكل جند مسؤولاً تجاه الوالي أو مرتبطاً بالمركز، فقد أخذ علي بن عيسى الوزير خطة في مجلسه بما عقده للحسين بن أحمد من ضمان أعمال الخراج والضياع بمصر والشام بعد النفقات الراتبية، واعطاء الجيش في تلك النواحي<sup>١٢٤</sup>، كما أن ابن الفرات في وزارته الثالثة سنة ٣١١ هـ كتب باستحضار محمد بن علي المادرائي، فناظره ابن الفرات على المال الباقي عليه وعلى الحسين بن أحمد من ضمان أجناد الشام ومصر، وعن حق بيت المال في ضمانه<sup>١٢٥</sup>، وكان الوزير الخصبي قد أقر علي بن عيسى على ما كان إليه من الاشراف على مصر والشام، ولذلك ورد في الخبر سنة ٣١٣ هـ «بمسير علي بن عيسى إلى مكة حاجاً من مصر ومجيء سلامة حاجبه بغداد ومعه سفاتيح بـ ١٤٧ ألف دينار بآثار واستدراكات إثرها»<sup>١٢٦</sup>. ويذكر مسكويه أن ما حمل من أموال مصر والشام في عهد المقتدر كان يزيد عن ما حمل منها في أيام المعتضد بـ ٣٦٠٠٠٠ دينار<sup>١٢٧</sup>.

وأدرك ابن حوقل العقود التي عقدها أبو المسك كافور، لمن يضمن أجناد فلسطين والأردن ودمشق ما بين سني ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩ هـ إلى سني ٣٤٨، ٣٤٩ هـ ويذكر أسماء الأشخاص الذين عقد لهم الضمان فيقول: «... وعقدت على خزرون، فلسطين والأردن وكذلك جند دمشق عقدت على خزرون، وعلي أبي الحسن علي بن محمد، وعلي بن مالك، فكانت تكون في يد كل واحد منهم سنين بخمسمائة ألف دينار» وكان من عادة كافور أنه «إذا عقد على بعض عماله أو أجباً عليه شيئاً من أعماله، طالبه قبل وجوب المال عليه بشيء منه على طريق القرض منه، وكانوا بحسن نظره أغنياء،

١٢٢. أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ/ ٨٣٨ م) كتاب الاموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨ م، ص ٥٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو عبيد: الاموال، ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ٥٩٣.

١٢٣. المقرئ، المواعظ، ج ١، ص ٥١٨.

١٢٤. ابن مسكويه، تجارب، ج ١، ص ١٠٧.

١٢٥. المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤؛ الصابي، الوزراء، ص ٣١٣، ٣١٤.

١٢٦. ابن مسكويه، تجارب، ج ١، ص ١٤٦.

١٢٧. المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٩.

ويعتسب بذلك لهم مما تحت أيديهم ويحب عليهم ولم يعقد في وقته على أحد من أوليائه، عقد تدبير الا وربح فيه مثله، من حيث يعلمه ويتقرره ويقول: «إذا لم يختص اولياء بالنعم صارت الى الاعداء بالكظم، فهم صنائعي وأولادي»<sup>١٢٨</sup> وهذا يعني أنه لم يكن يحاسبهم على الأسلوب الذي يتبعونه في الجباية، أو على المبالغ الاضافية التي يجيئونها، طالما أنهم يقدمون له مبلغاً من المال على سبيل القرض أولاً ثم بقية المبلغ المقرر عليهم.

وإذا كان للوالي على الجند الحق في تعيين عامل الخراج — إذا كانت ولايته على الخراج — فقد كان له حق تعيين صاحب شرطته حتى لو كانت ولايته على الصلاة فقط، وهذا ما كان يؤدي الى عزل صاحب الشرطة اذا ما عزل الوالي، لأن الوالي الجديد كان يفضل أن يعين كصاحب شرطة، الرجل الذي يستطيع الاعتماد عليه والثوق به<sup>١٢٩</sup>. لأن أهم واجبات الولاية كان ضبط الأمن وقد ورد في تاريخ دمشق أن أماجور والي الشام (٢٥٦ — ٢٦٥ هـ) كان اميراً مهاباً لعمله شجاعاً لا يتجاسر أحد على أن يقطع في جميع اعماله الطريق، وللدلالة على أهمية ما حققه أماجور من أمن يورد ابن عساكر عن المحاملي الحراني قوله: رأيت أماجور الأمير في النوم فقلت: ما فعل الله بك، قال: غفري، قلت، بماذا؟ قال: بضبطي طريق المسلمين وطريق الحاج<sup>١٣٠</sup>. وأحب أهل دمشق سعد الأيسر التركي والي دمشق من قبل خارويه لأنه فتح طريق الشام للحجاج بعد أن كان الحج قد بطل ثلاث سنين لتغلب الأعراب عليه، فلما قتله خارويه إغتم الناس بدمشق لقتله، ودعوا على من قتله، وافتتن الناس، فاضطر خارويه أن يتوجه الى دمشق لتهدئة الناس وبعث الى طريق الحاج من أصلحها، وفرق في دمشق مالا عظيماً على الفقراء والمساكين والمستورين وأهل العلم فمال الناس اليه<sup>١٣١</sup>.

وكان لكل جند صاحب بريد، كما كان هناك صاحب خبير الناحية الذي يكتب بأخبار ناحيته الى صاحب البريد، وهذا بدوره يكتب الى الخليفة أو من ينوب عنه<sup>١٣٢</sup>، فقد ولى المنصور مولاه طريفاً بريد مصر والشام والجزيرة<sup>١٣٣</sup>. وعندما نكب الرشيد البرامكة قلد البريد والخزائن مسروراً الخادم، وكان يخلفه عليه ثابت الخادم، وعلق الجهشيارى بأن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف

١٢٨. ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصل (ت حوالي ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) صورة الارض، دار مكتبة الحياة، ص ١٥٩ — ١٦٠. ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة.
١٢٩. الكندي، الولاية، ص ١٠١ — ٢٤٩؛ بدران، تهذيب، ج ١، ص ٢١٢، ج ٢، ص ٣١٩. ونجد في تاريخ دمشق ذكراً لعامل الخراج وعامل المعونة وصاحب الشرطة في عهد المعتصم، ج ٥، ص ٣١٩.
١٣٠. بدران، تهذيب، ج ٣، ص ١٠٦.
١٣١. المصدر نفسه، ج ٦، ص ١١٧.
١٣٢. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٣.
١٣٣. الجهشيارى، الوزراء، ص ١٠١.



خريطة لم تفص ١٣٤، مما يدل على إهمال أمور البريد في نهاية خلافة الرشيد .

ويذكر ابن العديم وجود محتسب في حلب منذ خلافة المهدي ١٣٥، وكان من الواجب الا يتولى هذا المنصب إلا القضاة والعدول ١٣٦، وكان للمحتسب مكانته حتى في تنبيه القضاة، فقد أمر ابراهيم بن محمد بن علي التميمي محتسب بغداد يوماً على باب القاضي أبي عمر المالكي محمد بن يوسف الذي أصبح قاضي قضاة بغداد سنة ٣١٧ هـ، فرأى الخصوم عكوفاً على بابه والشمس قد ارتفعت عليهم، فبعث حاجبه اليه يقول : «إما أن تخرج فتفصل بين الخصوم، وإما أن تبعث فتعتذر اليهم إن كان لك عذر حتى يعودوا إليك بعد هذا الوقت» ١٣٧ .

أما صاحب المظالم فان الطبري يذكر قدوم خاقان خادم الرشيد مع نفر من وجوه أهل طرسوس يشكون الى الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤١ - ٨٤٦ م) صاحب مظالم كان عليهم يكنى أبا وهب ١٣٨؛ ويذكر ابن العديم أن المتوكل ولي طاهر بن محمد بن اسماعيل بن صالح على المظالم بجند قنسرين والعواصم والنظر في أمور العمال ١٣٩. والمعروف أن من ينظر في المظالم يجب أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره الى سطوة الحماية وثبت القضاة، فيحتاج الى الجمع بين صفات الفريقين ١٤٠، ولذلك كان يقوم بالنظر في المظالم عادة الخلفاء أو وزراء التفويض أو نواب الأقاليم ١٤١، وأكبر الظن أن صاحب المظالم الذي يرد ذكره في الطبري أو عند ابن العديم كان مسؤولاً عن تنفيذ ما عجز القضاة عن تنفيذه وإمضاء ما قصرت يدهم عن إمضائه، فاذا كانت هذه مسؤولياته جاز أن يكون صاحب المظالم هذا كما يقول الماوردي دون من ذكر في القدر والخطر شريطة أن لا تأخذه في الحق لومة لائم ١٤٢ .

واذا كان الوالي في العصر الأموي يخول في كثير من الاحيان حق تعيين القضاة، فان هذا لم يطبق في العصر العباسي الا في السنوات الأولى وهي فترة التوطيد، أو خلال الفتنة بين الأمين والمأمون ١٤٣، أما بعد ذلك فان تعيين القضاة في الأقاليم كان يصدر عن الخليفة أو قاضي قضائه، وهذا

١٣٤ . المصدر نفسه، ص ٢٦٥ .

١٣٥ . ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٦١؛ بدران، تهذيب، ج ٢، ص ٢٢٥ .

١٣٦ . ابن كثير، البداية، ج ١١، ص ١٦٦ .

١٣٧ . المصدر نفسه، ج ١١، ص ١٧٣ .

١٣٨ . الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٧٣، ج ٩، ص ١٤١ .

١٣٩ . ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٧٢ .

١٤٠ . الماوردي، الاحكام، ص ٧٧ .

١٤١ . المصدر نفسه، ص ٧٨؛ ابن مسكويه، تجارب، ج ١، ص ٢٨ .

١٤٢ . الماوردي، الاحكام، ص ٧٧ .

١٤٣ . ابن طولون، الثغر، ص ١٢؛ الكندي، الولاة، ص ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧؛ بدران، تهذيب، ج ٣، ص ٣٨٠ .

يجعل القاضي مستقلا عن الوالي قادراً على إصدار أحكامه بنزاهة، وظل القاضي نتيجة لذلك يشغل منصبه في عهد ولاية عديدين، فقد بقي يحيى بن حمزة البتليهي (من بيت ليا) الفقيه والمحدث قاضياً على دمشق مدة ثلاثين سنة<sup>١٤٤</sup>، وكذلك ولي عمرو العدوي القضاء زمن الرشيد بعد يحيى بن حمزة الى أن مات في الفتنة بين الأمين والمأمون<sup>١٤٥</sup>. ورغم أن أبا يوسف (ت ١٨٢هـ) هو أول من لقب قاضي القضاة، لأنه كان يستتبع في سائر الاقاليم التي يحكم فيها الخليفة<sup>١٤٦</sup>، فاننا نلاحظ من دراستنا للقضاة الذين يرد ذكرهم في المصادر أن تعيين القضاة بقي باسم الخليفة حتى نهاية خلافة الرشيد وان كان يأخذ رأي قاضي قضائه، فلما كانت خلافة المأمون نجده يصير لعبدالله بن طاهر نائبه على الجزيرة والشام ومصر والمغرب جميع اعمالها<sup>١٤٧</sup>، بما في ذلك عزل القضاة وتوليبتهم، فعزل عبدالله بن طاهر القاضي ابراهيم بن الجراح، ثم جمع أهل مصر لينتخبوا لأنفسهم قاضياً<sup>١٤٨</sup>، ولكن المأمون— أثناء اقامته في الشام— لم يول خالد بن حلي أبا قاسم الكلاعي الحمصي قضاء حصص، الا بعد أن استقدمه، وبعد أن استشار قاضي قضائه، يحيى بن أكثم<sup>١٤٩</sup>، ثلاثة من شيوخ حصص وسألهم رأيهم في خالد، فلما تبينت كفاءته ونزاهته، أمر المأمون بالخلع فخلعت عليه، وولاه القضاء<sup>١٥٠</sup>، وترك المعتصم والوائق تعيين القضاة الى قاضي القضاة ابن أبي داود<sup>١٥١</sup>، الذي ولي اسماعيل بن عبدالله بن خالد قضاء دمشق، وولي يحيى بن أكثم قاضي قضاة المتوكل<sup>١٥٢</sup> محمد بن هشام بن ميسرة قضاء دمشق، ثم نقله الى قضاء حصص<sup>١٥٣</sup>، فلما سيطر أحمد بن طولون على الشام استبقى قاضي دمشق، عبد الحميد بن عبد العزيز الذي كان قد ولي من قبل قاضي القضاة، جعفر بن عبد الواحد، سنة

- ١٤٤: ابن طولون، الثغر، ص ١٣— ١٤؛ ابن العماد، ابو الفلاح عبد الحي بن أحد العكري، (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٨، المكتب التجاري، بيروت، ج ١، ص ٢٨٨. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العماد، شذرات.
- ١٤٥: ابن طولون، الثغر، ص ١٤.
- ١٤٦: وكيع، محمد بن خلف (ت ٣٠٦هـ/ ٩١٨م)، أخبار القضاة، ج ٣، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٤٧م، ج ٣، ص ٢٥٦؛ سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: وكيع، أخبار، ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ١٨٠.
- ١٤٧: مسكويه، تجارب، ج ٦، ص ٤٤٩، ٤٥١؛ البعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤٥٦؛ الكندي، الولاية، ص ١٨٤؛ الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٦١٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٩٧.
- ١٤٨: الكندي، الولاية، ص ٤٣٣.
- ١٤٩: ابن خلكان، وفيات، ج ٢، ص ٢١٧.
- ١٥٠: بدران، تهذيب، ج ٥، ص ٣٣.
- ١٥١: ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٨، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨/ ١٩٧٢، ج ١، ص ٨٤.
- ١٥٢: الطبري، تاريخ، ج ٩، ص ١٨٨.
- ١٥٣: ابن طولون، الثغر، ص ١٨— ٢٠.

٢٦٤هـ-١٥٤، وضم اليه قضاء الأردن وفلسطين<sup>١٥٥</sup>. وجمع ابن طولون لعبد الله بن محمد العمري قاضي قنسرين والعواصم قضاء الثغور الشامية وجند حصص<sup>١٥٦</sup>، كما ان بكار بن قتيبة قاضي مصر منذ سنة ٢٤٦هـ بقي قاضيا حتى وفاته سنة ٢٧٠هـ، ولكن هؤلاء القضاة أصبحوا مسؤولين تجاه ابن طولون ويمتثلون لأمره، وتحمل ذلك بوضوح حينما أقام ابن طولون بدمشق وأحضر قضاة أعماله، وكتب كتاب خلع الموفق على نسخ وطلب من القضاة التوقيع عليه، وأنفذ الى كل عمل من أعماله نسخة تقرأ على المنبر، لأن الموفق منع أحاه المعتمد من التوجه الى الرقة والاجتماع بابن طولون سنة ٢٦٩هـ<sup>١٥٧</sup>. ونظراً لأن بكار بن قتيبة رفض لعن الموفق، فان ابن طولون عمد الى سجنه ولكنه لم يعزله<sup>١٥٨</sup>. وأقامت مصر بعد موت بكار بلا قاض، حتى أظهر محمد بن عبدة، ولاية من الخليفة المعتمد، فولاه خاروية القضاء بعد أن كان ولاية المظالم<sup>١٥٩</sup>، ولم يعين خارويه قاضياً الا إثر الاتفاقية التي عقدت مع المعتضد سنة ٢٧٩هـ، حيث جعل اليه المعتضد الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال له ولأولاده مدة ٣٠ سنة<sup>١٦٠</sup>، وجمع هارون بن خارويه لأبي زرعة محمد بن عثمان الدمشقي قضاء مصر وفلسطين والأردن ودمشق<sup>١٦١</sup>، وكان ابوزرعة يذهب الى قول الشافعي، وهو الذي أدخل مذهب الشافعي دمشق زحكم به القضاة، وكان الغالب عليها حتى ذلك الوقت مذهب الأوزاعي<sup>١٦٢</sup>. فلما قضى محمد بن سليمان الكاتب على الطولونيين سنة ٢٩٢هـ نجد عودة الى تعيين القضاة من قبل الخليفة او قضاي قضاته، الا أن القضاة لم يعودوا شاميين كلهم وانما أصبح منهم الكوفي والبصري والقزويني والبلخي، واذا كانت أحكام القضاة حتى العقد السابع من القرن الثالث الهجري تعتمد على أحكام الأوزاعي، فان قضاة الشام في عهد المقتدر ومن جاء بعده كانوا يحكمون وفق المذهب الذي ينتمون اليه، فكان منهم القاضي المالكي والشافعي والحنفي<sup>١٦٣</sup>.

١٥٤. وكيع، أخبار، ج٣، ص ٣٢٤.

١٥٥. البلوي، سيرة، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

١٥٦. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٧٧؛ ابن طولون، الثغر، ص ٢٣.

١٥٧. البلوي، سيرة، ص ٢٩٤، ٢٩٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ٥١؛ المقرئ، المواعظ، ج١، ص ٦٠٣.

١٥٨. الكندي، الولاية، ص ٤٧٧-٤٧٨.

١٥٩. المصدر نفسه، ص ٥١١.

١٦٠. المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

١٦١. المصدر نفسه، ص ٤٨٠.

١٦٢. ابن كثير، البداية، ج١١، ص ١٢٢؛ ابن طولون، الثغر، ص ٢٢.

١٦٣. ابن طولون، الثغر، ص ٢٢.

ولم يختلف الوضع عندما سيطر الأخشيدي على الشام، (٣٢٣-٣٢٧هـ) (٣٣٠-٣٣٤هـ) ١٦٤، فقد ورد الكتاب من قاضي قضاة بغداد الى الحسين بن أبي زرعة بالولاية فبقى على القضاء حتى وفاته سنة ٣٢٧هـ، وكان الحسين كبير القدر كريماً جواداً، اتسعت ولايته وجمع القضاء بمصر والشام وكثرت نوابه ١٦٥ وولى الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م) الحسين بن عيساً بن هروان قضاء مصر، ولكنه لم يتوجه الى مصر وانما عين نواباً من قبله ما بين ٣٢٩هـ-٣٣١هـ ١٦٦. وبقي الحسين بن عيسى قاضياً على مصر حتى جاء كتاب المستكفي، (٣٣٣-٣٣٤هـ/٩٤٤-٩٤٥م) بتعيين عبدالله بن احمد بن شعيب ٣٣٣هـ وكان خليفة الحسين في مصر ١٦٧. ويرد في تاريخ دمشق لابن عساكر عن عبدالله الفـرغـانـي في تاريخه أن الحسين ابن عيسى لم يكن يصلح لتقليد الحكم لخلوة من الأحكام، وانما كان يتقلد ذلك طلباً للجاه وصيانة للنعمة ١٦٨. وتولى عبدالله بن محمد الحسن ابوبكر الاصفهاني الشافعي قضاء دمشق ٣٣٢هـ ثم «ولي قضاء مصر من جهة محمد بن صالح بن أم شيبان في آخر ٣٣٩هـ، وكان قد امتنع أن يخلف ابن أم شيبان فقبل له يكون ابنك محمد خليفة وأنت الناظر ففعل»، ثم ولي قضاء دمشق سنة نيف وأربعين من قبل المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٦-٩٧٤م) ١٦٩.

وإذا كان الأخشيديون قد تركوا أمر تولية القضاة للخلفاء فان سيف الدولة عزل قاضي حلب احمد بن محمد بن مائل بعد دخوله حلب سنة ٣٣٣هـ وولى على القضاء أبا حسين علي بن عبد الملك بن بدر بن الهيثم الرقي ١٧٠، وربما يعود ذلك الى أن الاقرار بولاية الأخشيدي وخلفائه من بعده على مصر ودمشق والأردن وفلسطين كان يأتي من قبل الخليفة ١٧١، بينما استولى سيف الدولة على حلب استيلاء واستخلصها من والي الأخشيدي، كما أنه في الاتفاقية التي عقدها ناصر الدولة مع مرز الدولة البويهية سنة ٣٣٥هـ تقرر أن يكون في يد ناصر من حد تكرت الى الشمال، و يضاف الى أعماله مصر والشام على أن لا يجمل شيئاً عن الموصل وديار ربيعة، ويكون الذي يجمله عن مصر والشام ما كان يجمله

١٦٤. عهد الخليفة الراضي الى الاخشيدي بولاية مصر مضافا الى ما بيده من الشام فدخلها سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م ثم سيطر راق

على الشام باستثناء جند فلسطين سنة ٣٢٧هـ، فلما قتل سنة ٣٣٠هـ استعاد الاخشيدي سيطرته على الشام. ابن

الاثير، الكامل، ج٦، ص ٢٥٦؛ الكندي، الولاة، ص ٢٨٦

١٦٥. ابن طولون، الثغر، ص ٢٨

١٦٦. الكندي، الولاة، ص ٤٩١

١٦٧. المصدر نفسه، ص ٤٩٢

١٦٨. بدران، تهذيب، ج٤، ص ٣٥٢

١٦٩. ابن طولون، الثغر، ص ٢٩

١٧٠. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ١١٢

١٧١. المقرئ، المواعظ، ج١، ص ٦١٨

الأخشيدي محمد بن طفج<sup>١٧٢</sup>، ولكن سيف الدولة أخفق في استخلاص كل الشام من أيدي الأخشيديين، وبالتالي أخفق بالسيطرة على مصر، ولذلك عجز ناصر عن الوفاء بالتزاماته؛ فسار معز الدولة سنة ٣٣٧هـ من بغداد الى الموصل وهدفه السيطرة على جميع بلاد ناصر الدولة، ولكن تحرك عساكر خراسان نحو جرجان والري واستنجد أخيه ركن الدولة به، أجبره على مصالحة ناصر الدولة على «أن يحمل عن ما تحت يده من الجزيرة والشام ثمانية ألف ألف درهم كل سنة، وأن يخطب له ولأخويه عماد الدولة وركن الدولة»<sup>١٧٣</sup>، أي أن التزام ناصر الدولة وسيف الدولة كان بالدرجة الأولى تجاه البويهيين بينما بقي التزام الأخشيديين اتجاه الخلفاء العباسيين.

وختاماً يمكن القول إن الوظائف الادارية بلغت أوجها في العراق والأقاليم في القرن الهجري، ويستطيع الباحث أن يأخذ صورة عن الأعمال التي كانت في كل اقليم من العهد الذي أخذ المتوكل على المنتصر بالله تجاه أخويه، ابراهيم المؤيد والمعتز بالله، «بأن لا ينقصهما شيئاً من أعمالهما، من الصلاة والمونة والقضاء والمظالم والخراج والضياح والغنيمه والصدقات وغير ذلك من حقوق اعمالهما، وما في عمل كل واحد منهم من البريد والطرارز وخزن بيوت الأموال والمعادن ودور الضرب وجميع الأعمال التي جعلها أمير المؤمنين وجعلها الى كل واحد منهما»<sup>١٧٤</sup>. وكان المتوكل كما أشرت الى ذلك سابقاً قد جعل أجناد حمص ودمشق والأردن وفلسطين لابنه ابراهيم المؤيد بالله، وهذا يدل على أنه وجد في الشام كل هؤلاء الموظفين القائمين على الأعمال المذكورة. ولكن الأوضاع اختلفت عندما قلد الخليفة الراضي بن رائق إمارة الجيش وجعله أمير الأمراء سنة ٣٢٤هـ وولاه الخراج والمعادن في جميع البلاد والدواوين، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر، وأنفذ الخلع اليه<sup>١٧٥</sup>. وأصبح ابن رائق وكتابه ينظرون في الأمور جميعها، وكذلك كل من يتولى إمرة الأمراء بعده، وصارت الأموال تحمل الى خزائنها ويتصرفون فيها كما يريدون، ويطلقون للخليفة ما يريدون، وبطلب بيوت الأموال<sup>١٧٦</sup>، فلما سيطر البويهيون سنة ٣٣٤هـ لم يبق للخليفة وزير، وإنما أصبح له كاتب يدير أقطاعه واخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد<sup>١٧٧</sup>، وأقطع معز الدولة قواده وأصحابه، القرى جميعها

١٧٢. مسكويه، تجارب، ج٢، ص ١٠٨.

١٧٣. المصدر السابق، ج٢، ص ١١٥؛ ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ٣٢٩؛ ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص ٢٣٧.

١٧٤. الطبري، تاريخ، ج٩، ص ١٧٧، ١٧٨.

١٧٥. ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ٢٥٥.

١٧٦. المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٥٥؛ ابن كثير، البداية، ج١١، ص ١٨٤؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٢٨٢.

١٧٧. ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ٣١٥؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص ٢٨٨.

التي للسلطان وأصحاب الأملاك، فبطل لذلك أكثر الدواوين، وزالت أيدي العمال<sup>١٧٨</sup>، ولم يبق شيء يقال له إدارة بل أصبحت الإدارة، إدارة أمراء الأطراف، والشأن في السلطان شأنهم، وليس للخلفاء سلطة أو نفوذ أو قدرة على محاسبة هؤلاء الأمراء. صحيح أن الأخشيديين كانوا يدينون بالولاء الاسمي والرمسي للخليفة كما دان له سيف الدولة<sup>١٧٩</sup> وغيره من المتغلبين، إلا أنهم كانوا يديرون المناطق التي يسيطرون عليه وفقاً لما يؤمن مصالحهم، فاخشيد بعد أن انفرد بدمشق أخذ يصادر اغنياءها ويستصفي أموالها<sup>١٨٠</sup>، وقد رأينا أن كافور لم تكن تهمه مصلحة الرعية في الشام بقدر ما كان يهيم أن يحصل على الأموال المترتبة على كل جند، ولا يحاسب الذين يعقد لهم الضمان على الأموال الإضافية التي كانوا يجيئونها، وخسر سيف الدولة دمشق لأنه أخذ يطالب أهلها بوائع الأخشيديين وأسبابه، ولأنه أحب أن يملك غوطتهم<sup>١٨١</sup>. ونظراً لكثرة غزواته وسخائه استحل مصادرة رعيته بدعم من قاضيه أو الحصين علي بن عبد الملك الذي اشتهر عنه قوله «كل من هلك فليسيف الدولة ما ترك». لأنه كان إذا كات إنسان أخذ تركته لسيف الدولة<sup>١٨٢</sup>. وبعد أن كانت بيوت الأموال في الشام في مساجدها<sup>١٨٣</sup>، أصبحت في قصور أمرائها، فحينما دخل نقفور فوكاس حلب سنة ٣٥١هـ استولى على كان في قصر سيف الدولة من أموال وهي ثلثمائة بكرة مائة عين (ذهب) ومائتين ورق (فضة)، بالإضافة إلى ما لا يحصى من خزائن السلام<sup>١٨٤</sup>. ونظراً لضعف السلطة المركزية من جهة، وعدم وجود جهاز إداري قوي في إمارة سيف الدولة، فإنه ما أن أصيب بالفالج، وبعد هزيمته أمام الروم سنة ٣٥١هـ ودخولهم حلب حتى كثر الخارجون عليه من ولايته، كما طمع الروم بأرض الشام والجزيرة<sup>١٨٥</sup>، وازداد طمعهم إثر وفاة سيف الدولة، فقد دخل الروم الشام سنة ٣٥٨هـ ولم يمنعم أحد، فسار ملك الروم في البلاد إلى طرابلس

١٧٨. Samir Shamma, «The Ikhshidid Coins of Filastin», al-Abhath, American University of Beirut, Vol, XXII, No. 142, 1969, pp. 32-46.

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : Shamma, «The Ikhshidid Coins»

١٧٩. الأزدي، أبو الحسن علي بن ظافر بن حسين (ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م) أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والشغور، تحقيق ابن عتيمة الرواف، دار حسان، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٣٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الأزدي، أخبار.
١٨٠. كرد علي، محمد، خطط الشام، ج ٦، دمشق، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، ج ١، ص ٢١٤. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : كرد علي، خطط.
١٨١. ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٣١٨؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٧.
١٨٢. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٢.
١٨٣. الاضطخري، ابواسحاق ابراهيم بن محمد (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مسالك الممالك، ط ٢، تحقيق دي خويه، ١٩٢٧م، ص ١٨٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الاضطخري، مسالك الممالك.
١٨٤. الأزدي، أخبار، ص ٣٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٣.
١٨٥. الأزدي، أخبار، ص ٣٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٧، ٩، ١٤.

وأحرق بلدها وقصد حصص، وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها، فاخرقها ملك الروم، ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها نهياً وتخريباً، وأقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد<sup>١٨٦</sup> أما في أجناد الشام الجنوبية فان الاخشيديين نظراً لخوفهم من خطر الفاطميين المتزايد فانهم اضطروا الى مهادنة القرامطة الذين قرروا مع ابن طنج أن يحمل اليهم في كل عام ٣٠٠ ألف دينار، فلما استولى جعفر بن فلاح الكتامي سنة ٣٥٨هـ على فلسطين والأردن ودمشق، أمرهم ذلك لأنهم ادركوا أن جعفر لن يدفع لهم هذا المبلغ، فاستولوا على دمشق والأردن وفلسطين سنة ٣٦٠هـ<sup>١٨٧</sup>، وبقيت في يد حسين القرمطي الى سنة ٣٦٣هـ حينما استعاد الفاطميون البلاد، ولم تنزل أجناد الشام، دمشق والأردن وفلسطين، في أيدي نواب الفاطميين حتى تغلب الترك على الشام ففتقرت بلادها في أيدي المستولين عليها.

١٨٦. الازدي، أخبار، ص ٣٨-٣٩؛ ابن الاثير، الكامل، ج ٧، ص ٣٤.  
 ١٨٧. ابن الاثير، الكامل، ج ٧، ص ٤٤؛ القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن عماد التميمي (ت ١١٦٠م) فيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٨٣، ص ١.

## نظرة في الأحوال الحضريّة لبلاد الشام في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع للهجرة

عبد الجبار ناجي \*

يجد الباحث أمامه عند دراسة الأحوال الحضريّة لبلاد الشام خلال العصر العباسي وبوجه خاص خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، نخبة من المصادر الجغرافية العربية، وهي مصادر قد اتسعت دائرة معلوماتها إلى حقبات تاريخية متقاربة من نهاية القرن الثالث إلى نهاية القرن الرابع للهجرة، وهي حالة تثير بحد ذاتها الاهتمام، لا سيما إذا أدركنا أن أغلب كتب الجغرافيين المتأخرين قد تأثرت بالأوصاف الجغرافية لأولئك المتقدمين، وفي حالات اقتبست معلوماتها أو كررتها.

ولكن هذه المؤلفات التاريخية، على الرغم من أهميتها، لا توفر تغييرات حضرية شافية. صحيح أنها تقدم إشارات مفصلة في بعض الأحيان بشأن الانجازات والأعمال العمرانية التي قام بها الخلفاء العباسيون أو عمالهم وولاتهم في هذه المدينة من بلاد الشام أو تلك، لكنها واقعيًا إشارات لا تكفي لفهم الواقع الحضري للمدن والمراكز الحضريّة الموجودة. وملاحظة الجغرافي ابن حوقل الذكوية بخصوص مدينة طرسوس خير دليل على ما ذكر أنفاً، فالمدينة، كما تشير المعلومات، مدينة استحدثها الخليفة العباسي المأمون، وفق إحدى الروايات، وقد وصفها ابن حوقل آنذاك بأنها مشهورة جداً حتى قال ما نصه «فكانت المدينة المشهورة والمستغنى شهرتها عن تحديدها»<sup>١</sup> غير أن طرسوس هذه شهدت تحولات مفاجئة أدت بالنهاية إلى أن تهلك «فهلكت وهلكوا - يقصد أهلها - وذهبت وذهبوا وكانهم لم يقطنوها حتى صاروا كما قال جل ذكره «هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا»<sup>٢</sup>.

\* قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة البصرة، الجمهورية العراقية.

١. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ن، ص ١٦٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة.

٢. سورة مريم، آية ٩٨.



والمعروف ان العامل السياسي المتمثل بهجمات الروم يعد العامل الرئيس في حدوث مثل هذه التحولات التمدنية. وهذه مجرد إشارة لالقاء الضوء على قيمة المعلومات التي أوردها الجغرافيون دون غيرهم.

وهناك مسألة غريبة حول موقف ابن خلدون - على الرغم من أنه متأخر جداً عن الحقبة الخاضعة للبحث - من الواقع التمدني لبلاد الشام خلال عرضه الرائع لأحوال المدن العربية والإسلامية، إذ إنه يكثر من الاستشهادات المؤيدة لنظريته بمدن المغرب، وهو أمر يسهل علينا تفسيره لأنه من أهالي المنطقة، لكنه يكثر أيضاً من الاستشهاد بمدن العراق ومصر بما يتلاءم وأفكاره في نشوء المدن وتطورها، بينما لا يقدم سوى استشهاد أو أكثر عن واقع التمدن في بلاد الشام، وقد كررها ابن الأزرق في بدائعه في الفصل الخاص (بأن المدن والأمصار في المغرب وأفريقية قليلة)، وهنا يشير ابن خلدون إلى ما يقابل هذه السمة من قلة المدن والأمصار في المغرب وكثرتها من الجانب الآخر في بلاد الأندلس والشام ومصر والعراق. وهو يعزو هذه الظاهرة إلى غلبة البداوة في المغرب، وغلبة التأثير بالأجانب في بلاد الشام، الأمر الذي أدى إلى ترسيخ الأسس الحضريّة لمدينة هذا الإقليم<sup>٣</sup>.

لقد تضمن وصف المقدسي للأقسام الجغرافية لبلاد الشام بعداً حضرياً طريفاً حين يقول: «إقليم الشام جليل الشأن ديار النبیین ومركز الصالحين ومعدن البدلا ومطلب الفضلا»، ثم يضيف العناصر المهمة الآتية إذ يقول: «ثم به دمشق جنة الدنيا وصغر البصرة الصغرى والرملة البهية وخبزها الحواري، وإيليا الفاضلة بلا لاوى، وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء، وجبل بصرى وكرومه فلا تنسى، وطبرية الجليلة بالدخل والقرى»<sup>٤</sup>. والمهم أن اختيار المقدسي لهذه المراكز الحضريّة يثير تساؤلاً، هل اختارها كنماذج حضريّة؟ أم أنها بحد ذاتها كانت تمثل مراكز حضريّة رئيسية لتقسيمات إدارية أوسع؟ أم اختارها لكونها تقوم بوظيفة المدينة - القصبّة (العاصمة) أم غير ذلك؟ وعند الوقوف على الأوصاف الجغرافية لهذه المدن نجد أن دمشق وصغر وحمص وطبرية والرملة كانت بالفعل تقوم بوظيفة العاصمة، فدمشق عاصمة كورة أو جند دمشق، وصغر قصبّة كورة الشراة، وحمص قصبّة جند حمص، وطبرية قصبّة الأردن والرملة قصبّة فلسطين. أما إشارته المخصصة لمدينة إيليا وجبل بصرى فإنه اختيار هادف لما للأولى من وضع ديني، وللثانية من أهمية اقتصادية.

٣. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٨، ص ٢٩٢؛ ابن الأزرق، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن علي الفرناطي (ت ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م) بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: سامي النشار، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨م. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأزرق، بدائع.
٤. المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله بن المفلح البشاري (ت ٧٦٣هـ / ١٣٦٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٦م، ص ١٥١ - ١٥٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.

و يقدم المقدسي تقسيما جغرافيا آخر لبلاد الشام يعد أيضا محاولة ناجحة من الجانب الحضري إذ يقول: إن بلاد الشام أربعة صفوف، فالصف الأول هو الذي يلي بحر الروم وهو السهل، ويتكون من رمال منعقدة، ويضم من المدن الرملة وجميع مدن السواحل. أما الصف الثاني فهو الذي يتكون من الجبل فيه قرى وعيون ومزارع، ويضم مدن بيت جبريل وإيليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وأنطاكية، أما الصف الثالث فهو الأغوار، ويشتمل على قرى وأنهار ونخيل ومزارع، ويضم عدة مدن مثل: ويلة وتبوك وصغر وأريحا وبيسان وطبرية وبنائس، والصف الرابع يمثل سيف البادية، ويشتمل على جبال عالية باردة، وقرى وعيون وأشجار، ويضم مدن ماب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب. أما الجبال أمثال جبل زيتا وصديقا ولبنان واللكام فتقع في الصف الثاني<sup>٥</sup>.

وفي مجال ثالث يقسم المقدسي الاقليم الى ست كُرر (نواحي) متبعا في ذلك ترتيبا جغرافيا، والكور هي: قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشرارة<sup>٦</sup>. وفي الوقت نفسه فإنه يذكر التقسيم الذي درج عليه المؤرخون والجغرافيون، وهو تقسيم عسكري، اداري الى حد ما، ذلك المتعلق بالأجناد بما له علاقة بالجند الذين تم توجيههم زمن الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، وهي: جند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص. واعتمادا على البلاذري فإن حمص وقنسرين كانتا (شيئا واحدا)، وكانت الجزيرة الفراتية تابعة عسكريا واداريا الى قنسرين.

وصار تقسيم بلاد الشام الى أجناد من الناحية العملية هو التقسيم المتعارف عليه، وظل كذلك خلال العصر الأموي حينما جند الخليفة عبد الملك بن مروان الجزيرة فأفرد لها جندها. ومع ذلك فقد بقيت قنسرين مضمومة الى جند حمص الى أن قام يزيد بن معاوية بفرد قنسرين مضيفا اليها أنطاكية ومنبج ونواحيها، وجعلها جندا قائما بذاته. وقد أجرى الخليفة العباسي هارون الرشيد تعديلات على ذلك حين أفرد قنسرين بكورها وجعلها جندا واحدا، ثم أفرد توابع قنسرين وهي منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وأطلق عليها تعبير العواصم<sup>٧</sup>. ويظهر من الاجراءات السابقة أن هناك اختلافا في عدد أجناد الشام، فهي من الجانب العسكري قسمت الى اربع جهات، والواقع أن شيخ الربوة - في فترة متأخرة - يثير مسألة تاريخية حين يقول إن بلاد الشام كانت أثناء سيطرة الروم مقسمة الى أربعة أقسام هي: قسبة دمشق، وقسبة طبرية (الأردن) وقسبة حمص وقسبة إيليا (تسمى فلسطين). وكان الروم يعينون عاملا على كل قسم من هذه الاقسام الأربعة يدعى

٥. المصدر السابق، ص ١٨٦.

٦. المصدر السابق، ص ١٥٣.

٧. البلاذري، ابو العباس احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م)، فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٥٠ هـ، ص ١٢٧، ١٢٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

(بطريق)<sup>٨</sup>. إن هذه التقسيمات الأربعة هي ذاتها التي دعيت أثناء العمليات العسكرية في عصر الخليفيتين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أجنادا. أما بخصوص قنسرين فإنها بعد فصلها أيام خلافة يزيد بن معاوية صارت جندا خاصا، ومع هذا يبدو أن موضوع جند قنسرين ظل موضوعا مختلفا عليه، فابن الفقيه الهمداني قسم الشام الى أربعة أجناد وأخرج قنسرين منها، وقد استند في ذلك إلى قصة تدور حول رجل توجه بسؤال الى كعب الأحبار بشأن المكان الذي جاء منه الرجل، فلما عدد كعب الأجناد الأربعة، ولم يكن الرجل قادما من أي منها، قال كعب: «من أي جند اذن؟» فأجاب: من قنسرين. فقال كعب: (ليست تلك من الشام: تلك قطعة من الجزيرة يفرق بينها الفرات<sup>٩</sup> وقد نهج اليعقوبي الذي سبق ابن الفقيه هذا النهج.

والحقيقة أن التحديد الذي اعتمده ابن الفقيه للأجناد الأربعة يتعلق بحدود نهر الفرات، أي بمعنى أدق يشمل التقسيمات الأربعة التي كانت واقعة ضمن سيطرة الروم. أما الجغرافيون الآخرون فقد اتبع ياقوت الحموي وشيخ الربوة وابو الفداء<sup>١٠</sup> تقسيم الأجناد الى خمسة معتمدين على رواية البلاذري التاريخية، كذلك فعل المؤرخون الذين دأبوا على تقسيم الشام وفق نظام الأجناد، وصارت رواية البلاذري المصدر الأساس لرواية الأجناد العسكرية، وفي إحدى الروايات الطبرية التي يرجع تاريخها الى سنة ٢١٨ هـ/ ٨٢٣ م زمن الخليفة المأمون يظهر أن هذا المؤرخ يؤيد التقسيم الرباعي، إذ ان المأمون كتب الى أخيه أبي اسحاق بانه «قد فرض على جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل» في حين ذكر أن المأمون كتب الى العباس حول ما فرض على قنسرين والجزيرة<sup>١١</sup>، أي أنه فصل جند قنسرين عن بلاد الشام وجعله مع الجزيرة الفراتية. وما عدا ذلك فان الطبري في أحداث أخرى وقعت قبل سنة ٢١٨ هـ يشير الى قنسرين وكأنها كانت منضمة الى حمص ودمشق، فيذكر في حوادث سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٨ م أن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس كان عاملا على قنسرين وحمص ودمشق قد حج بالناس في تلك السنة<sup>١٢</sup>، في الوقت الذي كان فيه ابراهيم بن صالح زمن

٨. شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري (ت ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نسخة مصورة عن طبعة ليزج، ١٩٢٢ م، ١٩٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: شيخ الربوة، نخبة الدهر.
٩. ابن الفقيه، ابو بكر احمد بن محمد بن اسحاق الهمداني (ت ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ م)، مختصر كتاب البلدان، تصوير مكتبة المثنى، بغداد، ص ١٠٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر البلدان.
١٠. ياقوت الحموي شهاب الدين ابو عبد الله (ت ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٨ م)، معجم البلدان، ٥ ج، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٠٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحموي، معجم البلدان.
١١. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ١٩٢. ابو الفداء، عماد الدين بن اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م)، تقويم البلدان، بعناية م. رينوم. ديسلان، باريس ٢١٨٥٤، ص ٢٢٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابو الفداء، تقويم.
١٢. الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م)، تاريخ الامم والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ج ٨، ص ٦٣١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.
١٣. المصدر السابق، ج ٨، ص ٥١١.

الخليفة المهدي أو قبل ذلك واليا على فلسطين<sup>١٣</sup>. وتتجلى هذه النظرة الغامضة عند الطبري بشأه: قنسرين في أحداث سنة ١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م عندما عزل الخليفة محمد بن هارون أخاه القاسم عن جميع ما كان الرشيد قد ولاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور<sup>١٤</sup>، وكان الطبري قد أفرد عمل الشام لوحده، وجعل قنسرين والعواصم والثغور عملاقا بذاته.

ومن جانب آخر فان الطبري يشير في أحداث سنة ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م الى أن والي حمص وقنسرين وبعلبك والغوطة وهوران والجولان والأردن كان عبد الله بن علي، بينما كان صالح ابن علي واليا على البلقاء وفلسطين<sup>١٥</sup>. فهل يعني ذلك أن هذه المدن صارت أعمالا مستقلة بمعنى أقسام ادارية مضافة الى الأجناد؟ فالمعروف عند الجغرافيين أن بعلبك مثلا كانت مدينة ناحية البقاع ضمن جند دمشق، فهل يعني أن الطبري أشار إليها نيابة عن دمشق؟ يبدو أن الجواب لا يؤيد هذا إذ إن الغوطة وهوران والجولان كانت عبارة عن رساتيق تقع ضمن جند دمشق<sup>١٦</sup> ايضا.

والظاهر أن المشروع الاداري - العسكري الذي أنجزه الرشيد قد جعل تقسيم الأجناد ستة عندما أفرد في سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م العواصم والثغور وجعلها جندا، بينما ظلت حمص لوحدها تمثل جندا، وبقيت قنسرين، كما كانت، مستقلة لوحدها. ومع هذا فان هناك رأيا آخر حول هذا التقسيم؛ فان رسته الجغرافي في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي يوضح بأن هذا النظام كان أيام الخلفاء الراشدين وبصورة خاصة في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه مقسما الى أربعة أجناد، ثم ازداد عددها فصارت خمسة عندما أفرد يزيد بن معاوية قنسرين، والمهم أن ابن رسته عند بداية حديثه عن إقليم الشام يقول: إن كور الشام هي حلب وقنسرين وأنطاكية وشيرز وحماة وحمص وفامية وبعلبك ودمشق وطبرية وابلية، والهارونية والكنيسة السوداء والعواصم وأنطاكية وتيزين وقورس ومنبج ودلوك وربعان<sup>١٧</sup>. وبالامكان توضيح هذا الخلط عند ابن رسته بخصوص تقسيمه بلاد الشام الى أجناد، وفي جانب آخر الى كور، ان تقسيم الأجناد ربما صر أقل شأنًا الى جانب التقسيم الجغرافي الاقتصادي الكور، وهي مسألة مهمة في التحديد الذي ذكره ابن رسته الذي بادر الى هذا التقسيم. ومنذ صار تقسيم الشام الى كور أكثر شيوعا، وهو النظام الذي سار عليه المقدسي عند تقسيمه الاقليم الى ست كور فقط لا إحدى عشرة كوره، كما وردت عند ابن رسته، وكور

١٣. المصدر السابق، ج ٨، ص ١٤٨.

١٤. المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧١.

١٥. المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٦٧.

١٦. ابن الفقيه، مختصر البلدان، ص ١١٥؛ ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٦٠ - ١٦٦؛ المقدسي، احسن، ص ١٥٤.

١٧. ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر (ت ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ م) الاعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ص ١٠٧.

وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن رسته، الاعلاق.

المقدسي هي قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشرارة<sup>١٨</sup>. وكور الشام عند ابن حوقل هي الاجناد الخمسة مضافا اليها العواصم<sup>١٩</sup> والثغور. ويبدو أن اصطلاح الكورة قد تبدل في العصور المتأخرة، إذ دأب شيخ الربوة على تقسيم بلاد الشام الى ممالك وعددها ثماني ممالك مضيفاً الى الأسماء المعروفة مملكة حماة ومملكة الساحل ومملكة صفد ومملكة الكرك ومملكة غزة<sup>٢٠</sup>.

وفي الوقت الذي أشار فيه الطبري الى اقسام بلاد الشام باسم الاجناد نجد أن اليعقوبي في تاريخه لم يستخدم هذا التعبير، بل استخدم تعبير إقليم كإقليم حمص، وكذلك استخدم اصطلاح الكور<sup>٢١</sup> (جمع كورة).

ومصطلح الجند، كما هو واضح تاريخياً، مصطلح عسكري - اداري استخدم في بلاد الشام فقط دون غيرها من الأقاليم الاسلامية، إذ يقول ياقوت الحموي «ولم يبلغني أنهم استعملوا ذلك - أي الجند - في غير بلاد الشام». والتعبير لغوياً أطلق على كل مدينة فيها جند، فالتجنيد يعني التجميع وجندت جنداً أي جمعت<sup>٢٢</sup> جنداً. ويوضع البلاذري هذا المفهوم فيشير الى أن هناك تبايناً في تفسير تسمية الأجناد، فقال بعضهم: إن المسلمين قد أطلقوا على فلسطين جنداً لانه جمع كوراً، وكذلك الحال بشأن دمشق وحمص والأردن وقنسرين، في حين رأى البعض الآخر أن كل ناحية بها جند يقبضون اعطياتهم فيه سمي جنداً<sup>٢٣</sup>. والمناسب ذكره أن هناك رأياً طريفاً لمعنى الجند أورده بعض اللغويين العرب، ففي لسان العرب لابن منظور ان الجند هو المدينة والاقليم<sup>٢٤</sup>.

وقد ظل استخدام هذا المصطلح تاريخياً مطبقاً في التقسيم الاداري في العصر العباسي. أما مصطلح الكورة فيشير الى البعد الحضري أكثر من كونه اصطلاحاً عسكرياً إدارياً، وربما

١٨. المقدسي، احسن، ص ١٥٤.
١٩. ابن حوقل، صورة، ص ١٥٥.
٢٠. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٠٦-٢١٢.
٢١. اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م)، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، بيروت، د.ب، ج ٢، ص ٤٤٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ.
٢٢. الجوهري، زين الدين محمد بن ابي بكر (ت ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م) مختار الصحاح، المطبعة الاميرية، القاهرة، ١٩٣٨، (مادة جند). وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الجوهري، الصحاح.
٢٣. البلاذري، فتوح، ص ١٢٧-١٢٨؛ الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٠٢. وانظر كذلك:
- D. Sourdel, "Djund", El<sup>2</sup>, Vol. II, pp. 601-602; Levy, The Social Structure of Islam, Cambridge; 1965, p. 413; S.D. Goitein, "Cairo: An Islamic City in the Light of the Geniza Documents", in IRh H. Lapidus (ed.) Middle Eastern Cities, University of California Press, Berkeley, 1966.

٢٤. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م)، لسان العرب، ١٥ ج، دار صادر، بيروت، د.ت (مادة جند)، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن منظور، لسان.

يشير أيضاً الى البعد الاقتصادي. فالكورة تعني كل صقع أو ناحية تشتمل على قرى عديدة، وأنه لا بد أن يكون لهذه القرى قسبة أو مدينة رئيسة أو نهر يجمع أسم الكورة<sup>٢٥</sup>. وواقعياً فإن أجناد الشام جميعها تتضمن مثل هذه المواصفات التمدنية، فهناك مدن كبيرة تتبعها مدن أصغر ثم قرى وأنهار. أما الاقليم فإن تحديده يشابه كثيراً تحديد معنى الكورة، وهو كل ناحية تشتمل على مدن وقرى، لكن الاقليم عند أهل الأندلس لا يتضمن هذا المعنى إنما يقصد به القرية الكبيرة الجامعة<sup>٢٦</sup>.

وعلى الرغم من وضوح الخصائص الحضرية لهذه التعبيرات الثلاثة. فإن المتتبع للأوصاف الجغرافية لكل من الأجناد والكور والاقاليم في بلاد الشام سيجد غموضاً أو بالأحرى اضطراباً في استخدامها. فبينما ساد الاتفاق على أن بلاد الشام مقسمة عسكرياً إدارياً الى خمسة أو ستة أجناد أو كور - يجد الباحث أن هذه الكور قد شملت هي الأخرى على كور عدة، وأن التعبير قد أطلق أيضاً على المراكز الحضرية الصغيرة كالمدينة الصغيرة أو القرية. فاليعقوبي وابن خرداذبة يقولان مثلاً أن كور قنسرين هي: كورة معرة قنسرين (وقيل مصرين) وكورة سرمين وكورة رعبان وكورة دلوك وكورة حلب وكورة قورس وكورة الجومة وكورة مغنج وكورة انطاكية وكورة تيزين وكورة بالس<sup>٢٧</sup>. وفي هذا الوصف تناقض بين في استخدام مصطلح الكورة بأنها الناحية الكبيرة التي تشتمل على مدن وقرى، وبين الإشارة الى مدن ومواضع وصفت بأنها مدن صغيرة وقرى، فعلى سبيل المثال، إن سرمين ودلوك وقورس والنجومة هي مدن صغيرة لا يمكن أن تكون كوراً من الناحية الحضرية، أما رعبان فهي عبارة عن قلعة تحت جبل، ويصف البلاذري قورس بأنها مسلحة لمدينة انطاكية<sup>٢٨</sup>. والأكثر أهمية أن البلاذري وصف كلاماً من دلوك وبالس وقاصرين (معرة قاصرين) بالعواصم<sup>٢٩</sup>. وفوق هذا كله فإن هناك تناقضاً آخر بين ما تم ذكره من رواية تاريخية تفيد بأن الخليفة العباسي هارون الرشيد قد أقر في سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م كلاماً من منيخ ودلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين واطلق عليها تسمية العواصم، فكيف وضعها اليعقوبي وابن خرداذبة على أنها ضمن كورة قنسرين. والحالة نفسها من التناقض وجدت في أوصاف اليعقوبي وابن خرداذبة لكورة فلسطين إذ يقولان أن كورة فلسطين هي: كورة عمواس وكورة اللد وكورة يافا وكورة بينا قيسارية وكورة نابلس وكورة سبسطية وكورة بيت

٢٥. الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩؛ D. Sourdel, "Kura" E.I<sup>2</sup>, Vol. V, pp. 397-398.

٢٦. الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٢.

٢٧. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م)، كتاب البلدان، بريل، ليدن، ١٨٩١ م، ص ٣٢٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، بلدان؛ ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت ٢٧٤ هـ / ٨٨٥ م)، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٨٩، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، المسالك.

٢٨. البلاذري، فتوح (طبعة بريل، ١٩٦٨)، ص ١٤٩.

٢٩. البلاذري، فتوح، ص ١٥٤، ١٥٦؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٧٩١.

جبرين وكورة غزة وكورة عسقلان<sup>٢٠</sup>. لكن الأوصاف الجغرافية لبنت جبرين (أو جبريل) مثلاً إنها مدينة سهلية، وأن يافا (أويافنة) مدينة صغيرة تقع على البحر<sup>٢١</sup>، وقد عد المقدسي يبنا قرية صغيرة لم تكن تبلغ مرتبة المدينة، وكذلك الحال بالنسبة لعمواس<sup>٢٢</sup>. وكذلك يذكر اليعقوبي وابن الفقيه الهمداني بأن لكورة الأردن كورا هي: كورة طبرية وكورة السامرة وكورة بيسان وكورة جرش وكورة عكا<sup>٢٣</sup> وكورة قدس.. الخ. في الوقت الذي يصف فيه المقدسي قدس على أنها كانت مدينة صغيرة تقع على سفح جبل، وأن بيسان مدينة تقع على النهر، وأن عكا مدينة حصينة تقع على البحر<sup>٢٤</sup>. ويصف جرش (وذكرها المقدسي جش) بأنها قرية، أما صور فهي مدينة حصينة تقع على البحر<sup>٢٥</sup>. والغريب في هذا الموضوع أن اليعقوبي حينما يذكر قدس، التي وصفها المقدسي بكونها مدينة صغيرة، يقول إنها كانت من أجل كور الأردن<sup>٢٦</sup>.

ولم يقتصر هذا الغموض والاضطراب في أوصاف الجغرافيين واستخدامهم لتعبيرات الكورة على هذا إنما تجاوزه الى موضوع الاقليم ايضاً، فيذكر ابن الفقيه الهمداني عن خراج حمص و يقول: وأقاليم حمص كثيرة منها إقليم سلميه واقليم تدمر<sup>٢٧</sup>. بينما يشير اليعقوبي الى سلميه واصفاً اياها بمدينة تقع في البرية بناها عبد الله بن صالح<sup>٢٨</sup>. ووصف المقدسي تدمر بأنها من المدن التي اختلت أوضاعها التمدنية في عصره<sup>٢٩</sup>، حوالي نهاية القرن الرابع الهجري.

ومقارنة ببقية المراكز الحضرية التي شملتها أقاليم العالم الاسلامي فان اقاليم بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي شهدت تنوعاً وتعددًا في مراكزها

٢٠. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٩؛ ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٠٣، عن موضوع المدينة انظر:

I.M. Lapidus, "Muslim Cities and Islamic Society", in Middle Eastern Cities, p. 75.

٢١. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٤.

٢٢. المصدر السابق، ص ١٧٦.

٢٣. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٧-٢٢٨؛ ابن الفقيه الهمداني، مختصر البلدان، ص ١١٦.

٢٤. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦١، ١٦٢.

٢٥. المصدر السابق، ص ١٦٣.

٢٦. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٧-٢٢٧.

٢٧. ابن الفقيه، مختصر البلدان، ص ١١٠.

٢٨. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٤.

٢٩. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٥٦.

الحضرية سواء كان ذلك من ناحية عدد المدن التي أطلق عليها اسم مدن القصباء أم في عدد القرى والقرى الكبيرة. وهي ظاهرة تستحق الدراسة والتمعن. حقيقة أن المنطقة تعد من الناحية الجغرافية من المناطق الواسعة إذ احتوت خمسة أو ستة أجزاء كبيرة في الوقت الذي كانت فيه مساحة العراق أو الجزيرة الفراتية أصغر منها، غير أنها مقارنة بإقليم الجزيرة العربية (و يسمى أحياناً عند بعض الجغرافيين بديار العرب) تعد أقل رقعة باعتبار أن ديار العرب آنذاك اشتملت على الحجاز واليمن وحضرموت وعمان والبحرين. ففي بلاد الشام أكثر من سبعين مركزاً حضرياً عدا القرى والقرى الكبيرة التي لم تدخل ضمن هذه التصنيفات التي يبدو أن عددها كثير، إذ يقول ابن حوقل مثلاً عن فلسطين «و بفلسطين نحو عشرين منبراً على صغر موقعها، ولا أحيط بأجمعها وهي من أخصب البلاد»<sup>٤٠</sup>. ويذكر المقدسي نصاً مهماً يقول فيه «وفي هذا الإقليم قرى أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة... غير أنها على رسوم القرى معدودة فيها»<sup>٤١</sup>. ولجرد المقارنة فإن فيليب هوسر Hauser ذكر بأن أول احصائية للتمدن في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٩٠ م قد أظهرت بأن هناك أربعة وعشرين مركزاً حضرياً، وأن اثنين من هذه المراكز الحضرية كان يقطنها أكثر من خمسة وعشرين الف نسمة<sup>٤٢</sup>.

وفي هذه المناسبة، وقبل الخوض في تصنيف تلك المراكز الحضرية في بلاد الشام للقاء الضوء على واقع التمدن هناك خلال الحقبة التاريخية المعنية، لا بد من جعل آراء كل من Issawi لابيدوس Laibodas و بنت Benet مقدمة لمناقشة أنماط التمدن في بلاد الشام. فالبروفيسور تشارلز عيساوي يذكر خلال عرضه لأصناف المدن أن أغلبية المدن الكبيرة في الأزمنة اليونانية - الرومانية كانت عبارة عن موانئ بحرية صالحة لاستقبال السفن التجارية الكبيرة «كما هو الحال بشأن أكثرية المدن الأوروبية في التاريخ الحديث». إلا أن الحالة بخصوص مدن الشرق الأوسط تختلف حسب رأيه إن أكثرية المدن الكبيرة كانت مدناً برية. ويعقب على هذه السمة قائلاً: إن المسلمين ربما قلدوا في ذلك أو عادوا إلى التقليد القديم الشائع عند البابليين والمصريين والأرمن والفرس<sup>٤٣</sup>. ويضيف بأن أكثر الموانئ

٤٠. ابن حوقل، صورة، ص ١٥٩.

٤١. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٥٥.

٤٢. Philip Hauser (ed), "Urbanization: An Overview", The Study of Urbanization, USA, 1966, p. 7.

٤٣. Charles Issawi, "Economic Change and Urbainzation" in Middle Eastern Cities, University of California Press, Berkeley, 1966, pp. 116-107; H. Pirenne, Medieval Cities, Princeton, 1925, p. 24.  
Issawi, "Economic Change" وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :



الكبيرة المعروفة في العصر الروماني قد انكشمت وتقلصت أهميتها «يبدو أن البروفسور عيساوي في هذا الاستنتاج يعزوسبب الانكماش الى الفتوحات الاسلامية، وهو رأي سبق أن طرحه هنري بيرنيه كما هو معروف». ومن بين الآراء في بحث البروفسور عيساوي رأيه الذي يشير فيه الى أن أكثر المدن التي أوجدها العرب هي مدن معسكرات تقع على حافات الصحراء، ويزيد على ذلك قوله: أما المدن الأخرى فقد استخدمت لقرون عديدة على أنها مدن تجارية برية desert ports لتسهيل مرور القوافل، أما المدن الأخرى فإنها تعد مدن ملوك<sup>٤٤</sup>.

أما بشأن ملاحظة لايبديوس فإنه ذكر بأن هناك صنفا واحدا في مدن الشرق الأوسط منذ بداية تاريخ التمدن في هذه المنطقة، ومنذ بدء الحضارة. ففي الأزمنة القديمة والوسيطه كانت المدن عبارة عن مراكز للتنظيم الاجتماعي والسياسي ومراكز للنشاط الثقافي<sup>٤٥</sup>.

ومع أن طريقة تناولهما للموضوع بشكل مختلف لكن الاستنتاجات يبدو أنها متقاربة بخصوص التمدن في الشرق الأوسط، وهي استنتاجات بالغة الأهمية، غير أننا نرى بأن رأي الأستاذ عيساوي إنما يعكس مواقف بعض الآراء الجاهزة كأراء سوفاجيه واكسفير بلانهول وهنري بيزينه ممن وجد بأن التمدن العربي والاسلامي لا يرقى الى مستوى التمدن اليوناني والروماني، وبأن الفتوحات الاسلامية قد قللت من شأن مدن حوض البحر المتوسط، وهذا الرأي قابل للنقاش إذا ما نظرنا الى الأحوال التمدنية في بلاد الشام ومصر ومدن البحر المتوسط، والى الأصناف المتعددة لمدن المنطقة، وقد سلطت على ذلك بعض الضوء في دراستي عن (المدن العربية الاسلامية).

ومن الجانب الآخر فإن البروفسور بنيت قد شدد في دراسته «ايدولوجية التمدن الاسلامي» على النزعة البدوية في تأسيس الأمصار الاسلامية، قائلا: إن العرب (الغزاة) في سوريا قد فضلوا سكنى المدن الصغيرة الصحراوية كتدمر والرصافة وخنصرة وحوارن في الوقت الذي بقيت السيادة للعناصر الأصلية (التعاري) في المدن الكبيرة أمثال دمشق وأنطاكية وحمص وبيت المقدس<sup>٤٦</sup>. لقد خص بنيت هذه الحالة بالنسبة الى القرن الأول الهجرة، ولكن مع ذلك فإن هنالك عدة أدلة أوردها اليعقوبي تؤكد سكنى العرب في المدن الكبيرة والصغيرة على حد سواء، والأكثر أهمية أن أغلبية هذه المدن لم تكن صحراوية كما

Issawi, op. cit., p. 107.

.٤٤

Lapidus (ed.), Middle Eastern Cities, University of California, Berkeley, 1966. ٤٥ (Introduction), p.v.

F. Benet, "The Ideology of Islamic Urbanization" in International Journal of Comparative Sociology, Vol. IV. (1963) p. 216. ٤٦

استنتج بنيت، فكان في مدينة طبرية قوم من الأشعريين وهم الغالبون عليها<sup>٤٧</sup>. و يقول اليعقوبي: إن الغالب على سكان مدينة دمشق أهل اليمن، وبها أيضا قوم من قيس، أما كورة الغوطة فإن أهلها من غسان و بطون من قيس، وبها قوم من ربيعة. والبثنية من كور دمشق ومدينتها أذرعات كانتا مكانا لسكنى العرب أيضا، فأهلها قوم من اليمن وقيس، أما أرض البلقاء بما في ذلك مدينتا عمان واريحا فأهلها من قبيلة قيس وبها جمع من قريش<sup>٤٨</sup>. وعن مدينة الجولان فإن أهلها قوم من قيس وأكثرهم من بني مرة. أما بخصوص جند فلسطين فيقول اليعقوبي: إن أهله أخلاط من العرب من لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة<sup>٤٩</sup>، وأهل مدينة حماة من اليمن والأغلب وتتنوخ، أما أهل مدينة حمص فهم من اليمن من طي وكندة وحمير وهمدان<sup>٥٠</sup> وغيرهم.

إن دراسة متمعنة لأصناف المراكز الحضرية في بلاد الشام لا تجعلنا في موقف مؤيد إزاء القول بأن أكثرية موانئه كانت برية مقارنة بسيادة سمة الموانئ البحرية في الغرب. كذلك فإن أنماط المدن في هذه المنطقة متنوعة، ولم تكن ذات نمط واحد أو نمطين، ولا يغلب عليها صفة مدن الملوك او مدن الأمراء. ومراكز بلاد الشام الحضرية -دون شك- هي مراكز قديمة تاريخيا، وقد امتد تاريخ وجود بعضها الى عصور قبل الميلاد، لذلك فإن مناقشة الآراء السابقة الذكر تعد غير واقعية إذا ما قصد بها -يعني الآراء- المدن العربية التي أسسها العرب فعلا، وهي مسألة لا اعتقد بصحتها لأن البروفسور عيساوي يشير -دعما لفكرته- الى دمشق وحلب وهما مدينتان قديمتان كما هو معروف. فقد وجدت في بلاد الشام أصناف من المدن منها: صنف مدينة القصبه، وصنف المدينة (فقط). وهناك مدينة كبيرة وفي المقابل هناك مدينة صغيرة. وعند تشخيص الأوصاف الجغرافية لكل صنف من هذه الاصناف وجد بأن هناك تفهما للصفات والشروط والمستلزمات التي اشتملت عليها كل واحدة من هذه الاصناف من المدن. ليس هذا فحسب إنما هناك بضعة إشارات تحمل أهمية بالغة أوردها الاصلحري وابن حوقل والمقدسي وبقية الجغرافيين، وقد اعتمدنا إشارات المقدسي بشكل خاص، في بعض المناسبات، لما تحمله من مضامين حضرية مباشرة. لقد صنف المقدسي المدن وفقا لأهميتها على الشكل الآتي. فقد جعل الأمصار كالمملك (طبعا حسب ترتيبها الهرمي)، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجال<sup>٥١</sup>. وبالنسبة للمقدسي فإن هناك نوعا

٤٧. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٧-٢٢٨؛ الهمداني، ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب (ت ٢٣٤هـ/٩٤٦م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الكوع، بغداد ١٩٨٩م، ص ٢٤٥، ٢٤٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الهمداني، صفة.

٤٨. المصدر السابق، ص ٣٢٥-٣٢٦؛ صفة، ص ٢٤٥-٢٤٦، هناك تفصيلات أكثر من هذا الموضوع.

٤٩. المصدر السابق، ص ٢٢٩، الهمداني، صفة، ص ٢٤٥-٢٤٦.

٥٠. المصدر السابق، ص ٣٢٤.

٥١. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٧؛ انظر:

Oleg Graber, "Cities and Citizens" in Islam and Arab World ed. by B. Lewis, 1976, p.90.

من الحتمية في التمدن، إذ إن لكل إقليم كورا ولكل كور قسبة، ولكل قسبة مدنا، ويستثنى من هذه القاعدة الجزيرة الفراتية والمشرق والمغرب. والاستثناء الآخر الذي أشار إليه المقدسي هو أنه ينبغي أن لا يفهم بأن كل مدينة قسبة هي بحد ذاتها مصر<sup>٥٢</sup> فهو جعل الأمصار كالملوك. وقد يتساءل المرء عن هذا الموقف لا سيما إذا فهمنا أن مرتبة المدينة القسبة هي كالعاصمة، فلماذا لم يعدها مصرأ إذن؟ ليست القسبة تعني مركز الإدارة، إذا كان هذا الشرط هو الأساس في المدينة المصر؟ هنا لا بد من القول بأن المقدسي كان هادفا عندما وضع المصر على رأس السلم الهرمي للتمدن العربي والاسلامي، وأن المصر ينبغي أن تتوافر فيه خصائص ومستلزمات محددة قد لا تكون موجودة دائما في المدينة - القسبة، إذ بينما هناك ثمانية عشر مصرا في بلاد الشام هناك في المقابل سبع وسبعون قسبة. ووفقا لهذه القاعدة فان حلب وحمص وطبرية والرملة وصغر قصبات لكنها لم ترق الى مرتبة الأمصار. ما هي إذن شروط المدينة - المصر؟ لا أريد الخوض في ذلك من الجوانب الادارية والفقهية، فقد سبق أن تعرضت للموضوع في دراستي عن المدن، لكن شروط المصر عند المقدسي وغيره من الجغرافيين هي:

أ - حله السلطان الأعظم.

ب - حملت إليه الدواوين.

ج - قلدت منه الأعمال.

د - أضيفت إليه مدن الاقليم<sup>٥٣</sup>.

وبناء على ذلك فان هذه الشروط المحددة لا تنطبق، حسب رأيه، الا على مدينة دمشق في بلاد الشام والقيروان في الغرب وشيراز في بلاد فارس<sup>٥٤</sup>. ولذلك فان التصنيف السابق لأنواع المدن والمراكز الحضرية في بلاد الشام جاء وفق هذا التحديد الدقيق. وكان المقدسي، والى حد ما ابن حوقل، واضحين جيدا في مواقفهما ازاء المراكز الحضرية التي لا تتمتع بمثل تلك المواصفات، فابن حوقل نراه عندما يتحدث عن المدن الرئيسية في كورة فلسطين يعقب على ذلك قائلا «و بفلسطين نحو عشرين منبرا على صغر موقعها»<sup>٥٥</sup>. وفي مجال آخر يتحدث عن جند قنسرين فيقول أن مدينتها قنسرين (أي مدينة قسبة) ويعقب على ذلك القول بقوله «غير أن الامارة والأسواق ومجمع ناسها والعمارات انتقلت الى حلب»<sup>٥٦</sup> وهي إشارة ذكية تدعم القاعدة الحضرية بأنه ليس من الضروري أن تكون مدينة الكورة مدينة قسبة، لأنها قد لا تتمتع بشروط هذا الصنف من المدن. أما المقدسي فانه أكثر مباشرة في هذا الجانب، فهو أثناء وصفه مدن بلاد الشام يقول «وفي هذا الاقليم قرى أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة مثل

٥٢. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٧.

٥٣. المصدر السابق نفسه.

٥٤. المصدر السابق نفسه.

٥٥. ابن حوقل، صورة، ص ١٥٩.

٥٦. المصدر السابق نفسه.

داريا وبيت لهما وكفر سلام وكفر سابا غير أنها على رسوم القرى معدودة فيها»<sup>٥٧</sup>، وهنا رب سائل يثير سؤالاً بخصوص الأسس الحضرية التي اعتمدها موقف المقدسي هذا من تلك القرى الكبيرة حجماً ومساحة والكثيرة السكان مقارنة بمدن الجزيرة الفراتية لكنها بقيت في مرتبة القرى، أهو موقف يتعلق بعدد سكان تلك القرى مثلاً وأنه قليل لا يؤهلها للوصول إلى مرتبة المدن، أم ماذا؟ قبل الإشارة المباشرة إلى موقف المقدسي المتصنع إزاء هذا التساؤل، لا مندوحة من الإشارة إلى ملاحظة أبداها ابن حوقل تعد من الملاحظات التمدنية المهمة في هذا المجال، لكنها لا تتعلق بمدن بلاد الشام، فابن حوقل خلال حديثه عن مدينة الري في إقليم الديلم وضواحيها المتمثلة ببعض المدن الصغيرة كمدينة خوار - وكانت مساحتها لا تتجاوز ربع ميل غير أنها قد عدت مدينة في حين يذكر ابن حوقل «وللري سوى هذه المدن قرى تزيد في قدرها وجلالتها على هذه المدن - يقصد مدينة خوار وغيرها - كثيراً لا منابر فيها مثل سد وورزين ورامين وغير ذلك من القرى التي بلغني أن في أحدها ما يزيد أهلها على عشرة آلاف رجل»<sup>٥٨</sup> فابن حوقل هنا قد فهم أن مسألة توافر عشرة آلاف نسمة في موضع ما يؤهله أن يتحول إلى مرتبة المدينة الصغيرة، ومع ذلك لم يحدث مثل هذا في مدن الري المذكورة (أقصد هنا ما يتعلق بنظرية حجم السكان في تحديد صنف الموضع) فهل توجه المقدسي في تحديده أصناف المدن، وفي تمييزه القرية عن المدينة توجهها نحو كثافة السكان واتخاذها أساساً للتصنيف؟ هناك حالتان وقف منهما المقدسي موقفاً صريحاً: الأولى يتعلق بمسألة مدينة حلب التي كانت المدينة، القصبية لكورة قنسرين لكنها كانت غير كبيرة (بيدوان الإشارة إلى مساحة حلب)، وأن هناك قرى كبيرة وجليلة لكنها لم تتخذ مدناً، وفي رأيه أن السبب في ذلك يرجع إلى أن حلب «بها مستقر السلطان»<sup>٥٩</sup> بمعنى المؤسسات الإدارية. ويدعم هذا بمواقفه من مدينة قنسرين، إذ إنها كانت في زمانه قليلة السكان «قد خف أهلها»، وعلى هذا الأساس صارت مدينة حلب مدينة - قصبية لا قنسرين، وكان المقدسي يتوقع أن نظرتة هذه سوف تثير تساؤلاً عن الدوافع التي دفعته إلى أن يقلل من أهمية قنسرين إلى هذه الدرجة، فقال ما نصه: «فإن قال قائل لم جعلت قصبية الكورة حلب وها هنا مدينة على اسمها - يعني اسم كورة قنسرين - قيل له قد قلنا إن مثل القصبات كالقواد - هنا يدعم المقدسي تصنيفه السابق الذكر - والمدن كالجند ولا يجوز أن نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين إليها، وأنطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها اجناداً لمدينة خربة<sup>٦٠</sup> صغيرة يعني قنسرين» والظاهر أن المقدسي كان يتوقع هنا أيضاً أن يرد على هذا الرأي أو قد لا يقتنع به لأنه استثنى بعض المدن من هذه القاعدة، فعقب على قوله ذلك بقول آخر «فإن قال هلا استعملت هذا القياس في شيراز فأضفت إليها اصطخر ومدنها قيل لما وجدنا لشيراز مدناً

٥٧. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥.

٥٨. ابن حوقل، صورة، ص ٣٢٢.

٥٩. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥.

٦٠. المصدر السابق، ص ١٥٥ - ١٥٦.

أحدت بها وتباعدت اصطخر عنها استحسننا ما فعلنا»<sup>٦١</sup> أي أنه أخذ بمفهوم القرب الجغرافي في نظرتة هذه. إذن فالقديسي رأى في هذا الصنف من المدن ضرورة :

١. وجود المؤسسات الإدارية المركزية وأهمها وجود السلطان لأنه يعد قمة الهرم الإداري.
٢. جلاله المدينة - بمعنى كبر المساحة والأهمية، والكثافة السكانية.
٣. جمع الدواوين إليها - بمعنى الجانب المالي والاقتصادي والإداري.

والحالة الثانية التي تعرض لها المقدسي تتجلى في ملاحظته الذكية بشأن كورة فلسطين، إذ يذكر ما نصه «ولهذه الكورة قرى جلييلة ذات منابر أعمر وأجل من أكثر مدن الجزيرة، وهي مذكورة، غير أنه لما لم يكن لها - يعني لهذه القرى - قوة المدن في الأثيين ولاضعف القرى في الخمول، وتردد أمرها بين الرتبين وجب أن نستظهر بذكرها ونبين مواضعها»<sup>٦٢</sup>. فالعيار الذي ركز عليه المقدسي بشأن هذه القرى التي تشتمل على منابر والتي تتصف بكونها عامرة وجلييلة لكنها لم تبلغ مرتبة المدينة الصغيرة طبعاً، لا مدن القصبات، وهو أنها لم تكن لها قوة المدن في الأثيين. فما هو الأثيين؟ الواضح أن الكلمة معربة تعني المؤسسات أو النظام أو القانون، والمناسب ذكره أن ابن النديم أشار إلى مجموعة من الكتب الفارسية المعربة تحمل عنوان (أثيين) منها الكتاب الذي ترجمه عبد الله بن المقفع (أثيين نامة في الأثيين). وألف أبو عبد الله أحمد بن محمد الجيهاني الكاتب وزير صاحب خراسان الساماني كتاباً عنوانه (أثيين مقالات كتب العهود للخلفاء والأمراء)<sup>٦٣</sup>، وهنا ربما يكون معنى الكلمة (الرسوم)، وهناك كتاب (أثيين الضرب بالصوالجة) وربما تعني نظاماً أو قانوناً. وبذلك فإن الشرط الذي فرضه المقدسي هو شرط يؤكد على فكرة وجود المؤسسات الإدارية والسلطة أو حلول السلطان، أو أنها إشارة إلى وجوب توافر المسجد الجامع (كمؤسسة) والسوق والانتاج الذاتي، باعتبار أنه يشير إلى أن تلك القرى لم تصل إلى مرتبة ضعف القرى في الخمول، أي في عدم الفعالية والنشاط في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية. ومن المحتمل أيضاً أنه أدخل في الاعتبار عنصر توافر الكثافة السكانية في تعبيره (الأثيين).

لقد اشتملت بلاد الشام على خصائص تمدنية جامعة قلما نجدها مجتمعة في إقليم من الأقاليم الإسلامية، ففي كور بلاد الشام وأقسامه الجغرافية أصناف متنوعة من المدن والمراكز الحضريّة. إذ أشار الجغرافيون إلى صنف من المدن تجمعها خصال متشابهة تقريباً تعرف بمدن القصبات وعددها محدود بكور بلاد الشام على أساس أن لكل كورة قسبة وفقاً للقانون الذي افترضه المقدسي في صنف مدن القصبات. واعتماداً على دراسة عدد من هذه المدن فإن هناك عناصر متشابهة بينها، فهي تتصف بـ:

٦١. المصدر السابق، ص ١٥٦.  
٦٢. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، للبصرة، ١٩٨٦، ص ٨٥ - ٩٥.  
٦٣. F. Gabrieli, "Ā' in" E. 12, vol. I, pp. 306-307.  
ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، د. ت، ص ١٢٢، ١٥٢، ٣٦٤، ٣٧٦.

- أ ( كبر المساحة.  
 ب ( مستقر السلطة.  
 ج ( المسجد الجامع.  
 د ( وفرة المياه من الأنهار.  
 هـ ( مشهورة بانتاجها الذاتي من فواكه ومزروعات وبعض الصناعات المحلية.  
 و ( شوارعها منظمة وواسعة.  
 ز ( تحتوي على الفنادق والحمامات.  
 ح ( وفي بعض مدن القصبات تتوافر عناصر المنعة والحصانة ووجود القلعة<sup>٦٤</sup>.

وهناك صنف آخر من المدن يتميز عن مدن القصبات، وهي الأخرى اجتمعت فيها جملة خصائص مشتركة الى حد ما منها: المساحة وكثرة السكان، وتوافر المياه، ووجود المسجد الجامع، والسوق او الأسواق، ووفرة الانتاج، وفي بعض الأحيان توافر عنصر الحصانة لكنها تفتقر الى عنصر السلطة المركزية. فمدينة عمان في كورة فلسطين تميزت ب:

- أ ( أنها تقع على سيف البادية.  
 ب ( وفرة المياه (عدة الأنهار).  
 ج ( مسجد جامع.  
 د ( السوق.  
 هـ ( ذات قرى ومزارع (رساتيق).  
 و ( منتجة للفواكه<sup>٦٥</sup>.

ومدينة منبج في كورة قنسرين وصفت ب:

- أ ( انها مدينة خصبة وحصينة.  
 ب ( كثيرة الأسواق.  
 ج ( كثيرة القنى.

٦٤. انظر: اوصاف مدينة حمص وحلب والرملة في ابن حوقل، صورة، ص ١٥٨، ١٦٠، ١٦٣: المقدسي، أحسن

التقاسيم، ص ١٥٥، ١٧٥.

٦٥. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٥.

د ( مشهورة بانتاج الكروم (تصدر الى حلب) ٦٦.

ومدينة بعلبك في كورة دمشق بأنها: - .

أ ( إحدى مدن بلاد الشام الجليية.

ب ( بناء المنازل من الحجارة.

ج ( كثيرة الخيرات والغلات / إنتاج الفواكه.

د ( رخيصة الأسعار ٦٧.

وهناك صنّف آخر من المدن وصف بالمدن الصغيرة، ويبدو أن مرتبتها الحضرية دون

المدينة وأرقى من القرية. فقد وصفت مدينة شيزر وحماه من كورة قنسرين بالآتي :

أ ( أنهما صغيرتان.

ب ( نزهتان.

ج ( حصينتان.

د ( وفرة المياه.

هـ ( وفرة الانتاج الزراعي : الأشجار والفواكه والخضراوات ٦٨.

وكانت مدينة بالس الواقعة غرب نهر الفرات :

أ ( صغيرة.

ب ( عليها سور.

ج ( تقع على الطريق التجاري / فرضة.

د ( كثيرة البساتين والغلات الزراعية كالقمح والشعير.

هـ ( صناعة الصابون ٦٩.

أما مدينة سميساط وجسر سنجة فهما :

أ ( صغيرتان.

ب ( حصينتان.

ج ( وفرة المياه.

د ( وفرة المزروعات ٧٠.

وهذه النماذج من المدن تعكس الفكرة بأنه لا يشترط أن تتوافر فيها عناصر المساحة

(الكبر/ جليية) أو وجود المسجد الجامع وغيره من الخطط التي تميزت بها المدن الكبيرة،

٦٦. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٦؛ ابو الفداء، تقويم، ص ٢٧٤.

٦٧. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٥؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٢؛ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٠.

٦٨. اليعقوبي، معجم البلدان، ص ٣٢٤؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٣.

٦٩. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٥.

٧٠. المصدر السابق، ص ١٦٦.

وعلاوة على ذلك فقد ساد فيها النمط الزراعي.

وفي هذا المجال تردد عند الجغرافيين تعبير البلدة، أو بلدة كبيرة أو بلدة متوسطة أو بلدية صغيرة أو بلدة صغيرة كالقرية. ومع أن هذا التعبير قد ورد عند جغرافيين متأخرين أمثال ياقوت الحموي وأبي الفداء، فإن الأصطخري في القرن الرابع للهجرة قد أطلق تعبير بلد على مدينة صور<sup>٧١</sup> إلا أنها إشارة غير واضحة. ولعل المقصود بتعبير البلدة، وما شابهه من تعبيرات، هو الموضع الذي تكون مرتبته الحضرية إما صغيرة، وخصائصها قريبة من خصائص المدن الصغيرة أو القرية الكبيرة و يغلب على نمطها الاقتصادي الزراعة. فبلدة كفرطاب من كورة حمص هي:

١. بلدة صغيرة كالقرية.
٢. قليلة المياه.
٣. تعمل فيها القدور الخزفية.
٤. هي قاعدة ذات ولاية لها أعمال<sup>٧٢</sup>.

أما صرخد فهي:

١. جادة صغيرة ذات قلعة.
٢. ليس فيها ماء سوى ما يجتمع في البرك والسهاريح.
٣. تنتج الكروم<sup>٧٣</sup>.

والملاحظ أن هناك سمة تكاد تكون سائدة في أغلبية المراكز الحضرية لبلاد الشام وهي الحصانة والمناعة، وبيدهي أن السبب الأساس يرجع الى عامل جغرافي استراتيجي، لأن الإقليم يعد إقليم مواجهة مع الروم، وتعرض إبان العصر العباسي للعديد من الهجمات العسكرية. وقد عبر ابن حوقل والمقدسي خير تعبير عن آثار التحدي العسكري والبيزنطي على الأحوال الحضرية في مدن بلاد الشام، فيقول ابن حوقل ما نصه «وقد انتهى القول فيما قصدت ذكره من الشام... وقد استوفيت أيضا ذكره، ولا وجه لذكر ارتفاع ما خرج عن أيدي أهل الشام، والباقي من الشام في أيدي المسلمين وحكمهم فيه نافذ، وأمرهم فيه ماض، فهو ما كان على ساحل بحر الروم من حد طرابلس والى نواحي يافا وعسقلان، لأن اللاذقية وما تزال عنها وحاذها تحت جزيتهم ومقاطعتهم وما عدا ذلك فللروم وقبضتهم وحوزتهم قد استولت عليهم أسيافهم والحكم فيه اليهم»<sup>٧٤</sup> ويعقب المقدسي عند حديثه عن أوصاف إقليم الشام الاقتصادية ورفاهية أهله بقوله «الا أنهم - الأهالي - على خوف من الروم وفي جلا

٧١. الأصطخري، ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مسالك الممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، دار القلم، مصر، ١٩٦١، ص ٤٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأصطخري، المسالك.

٧٢. ابو الفداء، تقويم، ص ٢٦٣.

٧٣. المصدر السابق، ص ٢٥٦.

٧٤. ابن حوقل، صورة، ص ١٧٢.



والأطراف قد خربت وأمر الثغور قد إنقضى»<sup>٧٥</sup>. من هنا لا عجب أن تكون سمة وجود القلعة أو الخندق أو الحصون من السمات العامة السائدة في أكثر المراكز الحضريّة. ومع ذلك فإن هناك صنفا من المدن في هذا الاقليم قد عرفت بمدن الحصون وتميزت بجملة خصائص منبثقة من هذا السمة، فمدينة صور هي :

١. أحسن الحصون على البحر و يدخل إليها من باب واحد على جسر واحد.
٢. عامرة خصبة / جليلة.
٣. تحتوي على دار الصناعة (صناعة السفن) ومنها تخرج المراكب نحو الروم.
٤. بها صنائع<sup>٧٦</sup>.

ووصفت مدينة عكا بأنها :

١. مدينة حصينة تقع على البحر / حصنها منع.
٢. فيها جامع كبير.
٣. فيها غابة زيتون<sup>٧٧</sup>.

ووصفت مدينة بروجيه بأنها حصن حصين وحجر منيع<sup>٧٨</sup>.

أما أنطرطوس فوصفت بأنها حصن على البحر عليه سور من حجارة، وهي ثغر لأهل حمص<sup>٧٩</sup>.

ووصفت مدينة ميماس بأنها تقع على البحر، حصينة<sup>٨٠</sup>.

كما اشتهرت بلاد الشام بوجود عدد من المدن التي يمكننا أن نطلق عليها مدن التجارة والصناعة او مدن المرافئ أو الفرضة وهو صنف من المدن تجمعها خصائص تكاد تكون متقاربة. فمدينة بيروت مثلاً كانت تقوم بوظيفة المدينة الحصن والمدينة التجارية ، امتازت بأنها :

١. كانت تقع على ساحل بحر الروم.
٢. تميزت بمناعة حصنها وكان عليه سور.
٣. اشتهرت في عالم التجارة البحرية فالتجارات وارده عليها وصادرة منها.
٤. اشتهرت بوفرة النخيل وقصب السكر والغلات<sup>٨١</sup>.

---

٧٥. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٢.  
٧٦. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧؛ الاصلطخي، للسالك، ص ٤٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٣-١٦٤.  
٧٧. المقدسي، أحسن، ص ١٦٢؛ ابو الفداء، تقويم، ص ٢٤٢.  
٧٨. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٤.  
٧٩. المصدر السابق، ص ١٦٢.  
٨٠. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤.  
٨١. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٠.

ووصفت عسقلان بأنها تجمع المرتبتين مدينة حصن ومدينة تجارية وهي :

١. تقع على البحر.
٢. كثرة المحارس / لها قلعة.
٣. لها ميناء لكنه رديء.
٤. وفرة المياه في الآبار.
٥. لها جامع يقع في سوق البزازين.
٦. لها أسواق حسنة<sup>٨٢</sup>.

ووصفت مدينة يافا بأنها :

١. صغيرة تقع على البحر.
٢. عليها حصن منيع وهو حصن كبير.
٣. تعد خزانة فلسطين وفرضة الرملة.
٤. لها أسواق عامرة وكلاء للتجارة.
٥. ميناؤها جيد وكبير فيه مرسى للمراكب الواردة الى فلسطين.
٦. لها جامع<sup>٨٣</sup>.

أما (أيله) فقد وصفت بأنها :

١. مدينة تقع على طرف شعبة بحر الصين<sup>٨٤</sup>.
٢. فرضة فلسطين وخزانة الحجاز.
٢. عامرة، جليلة.
٤. ذات نخيل وأسماك<sup>٨٥</sup>.

ومن بين المدن التي اشتهرت بانتاجها الزراعي أو الصناعي مدينة أريحا التي عرفت بأنها معدن النيل والنخيل، وعرفت مدينتا حوران والبتنية بأنهما معدن القمح والحبوب<sup>٨٦</sup>. واشتهرت مدينة الحولة بانها مصدر الاقطان والازهار<sup>٨٧</sup> أما مدينة كابل في الحجرية فان بها مزارع القصب، وبها يطبخ السكر الفائق<sup>٨٨</sup>.

٨٢. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٢. المقدسي؛ احسن التقاسيم، ص ١٦٠.  
 ٨٣. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٩؛ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ ابو الفداء، تقويم، ص ٢٣٩.  
 ٨٤. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٩.  
 ٨٥. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٩.  
 ٨٦. المصدر السابق، ص ١٦٢، ١٧٤.  
 ٨٧. المصدر السابق، ص ١٦٠.  
 ٨٨. المصدر السابق، ص ١٦٢.

ومن الجانب الآخر فإن الجغرافيين العرب قد خصوا تعبير القرية او القرية الكبيرة للاشارة الى الموضع الذي يشتمل على خصائص ومواصفات دون خصائص المدينة الصغيرة، علما بأن موقف المقدسي السابق الذكر يؤكد أن هناك عدداً من القرى الكبيرة التي تتوافر فيها عناصر القوة لأن تحتل مرتبة المدينة كما هو الحال في بيت لها وكفر سلام وكفر سابا. و يلوح أن صنف البلدة الصغيرة كان ينظر إليها وكأنها قرية، فأبو الفداء (مع أنه متأخر عن العصر الذي ندرسه) يشير الى بلدة كفرطاب بأنها بلدة صغيرة كالقرية ووصفت بأنها:

١. قليلة الماء.

٢. يعمل فيها القدور الخزفية وتصدرها الى غيرها من المراكز<sup>٨٩</sup>.

وهي نظرة تدعم ما سبق ذكره بأن البلدة قد تعني الموضع الذي يمثل مرتبة بين المدينة والقرية. فالفرذاقية في كورة الاردن هي:

١. قرية كبيرة.

٢. فيها منبر.

٣. وفرة المياه.

٤. هي معدن الأعناب والكروم<sup>٩٠</sup>.

ووصفت كفرسابا بأنها:

١. قرية كبيرة.

٢. فيها جامع.

٣. تقع على جادة دمشق<sup>٩١</sup>.

ووصفت عاقر بأنها:

١. قرية كبيرة.

٢. لها جامع كبير.

٣. تقع على جادة مكة<sup>٩٢</sup>.

وقرية بينا تحتوي على:

١. جامع نفيس.

٢. وهي معدن التين الدمشقي الفائق<sup>٩٣</sup>.

٨٩. ابو الفداء، تقويم، ص ٢٦٣.

٩٠. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٣.

٩١. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٦.

٩٢. المصدر السابق نفسه.

٩٣. المصدر السابق، ص ١٧٦.

أما كفر سلام من قرى قيسارية فهي :

١. قرية كبيرة أهلة.

٢. بها جامع.

٣. تقع على الجادة<sup>٩٤</sup>.

### الخلفاء العباسيون ومدن بلاد الشام :

لقد سبق القول إن الأكثرية العظمى لمدن بلاد الشام لا تعد مدنا ومراكز حضرية مستحدثة من قبل العرب المسلمين، وإنما هي قديمة لم يسهم العرب المشاركون في عمليات الفتوح في تأسيسها، لذا فهي، في هذه الحالة، تختلف عن نماذج المدن العسكرية التي وضع العرب أسسها وفق منظور عربي إسلامي، تلك التي دعيت بالأمصار سواء كانت في العراق أم مصر أم المغرب، وتختلف عن المدن المؤقتة والمدن الشخصية التي أسسها الخلفاء أو الولاة في العراق والمشرق والمغرب والأندلس.

ومع ذلك فإن هذه الفرضية لا تنفي القول بأن العرب المسلمين لم يسهموا أبداً في تطوير الأوضاع التمدنية في بلاد الشام خلال العصرين الراشدي والاموي، لأن هناك عدداً من الاستشهادات التي تفيد كثيراً أن الخلفاء والولاة إبان هذين العصرين قد أسهموا بدرجات متفاوتة في عملية إعمار وتطوير عمران مدن بلاد الشام وتعزيز قدراتها الاقتصادية والاجتماعية<sup>٩٥</sup>. وهناك معلومات غير قليلة تبين أن الخلفاء العباسيين وولاتهم قد أولوا عناية واهتماماً خاصين بتتمة الأحوال العمرانية والحضرية في مدن بلاد الشام. ولعله من الصحيح القول أن التطورات السياسية التي شهدتها المنطقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وكثافة التحديات السياسية العسكرية البيزنطية قد دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاهتمام المتزايد بأعمار مدن المواجهة، مدن العواصم والثغور، فقد انصب الاهتمام خلال هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي نحو تقوية حصون هذه المدن وتجديد أو إعمار بناء قلاعها وحصونها وبناء الأسوار حولها، وفي الوقت نفسه تعزيز بنيتها الاجتماعية بنقل وتجنيد المتطوعة واسكانهم في هذه المدن. ومن الطريف ذكره أن هذه الحقبة شهدت تطوراً ملموساً في تأسيس المدن، لا سيما المدن الخاصة، وهو بناء الأسوار والحصون حول المدن المؤسسة، وهي ظاهرة لم نشهدها في المدن العربية الأولى (الأمصار)، إذ كانت مفتوحة للتوسع وانسياب الجيوش. فالبصرة مثلاً لم تكن مسورة، وأن أول سور شيد حولها كان زمن أبي جعفر المنصور

٩٤. المصدر السابق، ص ١٧٧.

٩٥. ذكرت الروايات أن معاوية قد أعاد بناء جبلة وانطرووس ومصر بانيس وأن سليمان، بن عبد الملك خلال ولايته استحدث مدينة الرملة ومصرها.

حين أمر واليه على المدينة، الهيثم العتكي، بتأسيس هذا السور سنة ١٥٥هـ / ٧٧١ م أي بعد حوالي عشر سنوات من تأسيس المنصور لمدينته المسورة المدورة.

وبالامكان القول إن أحوال مدن بلاد الشام ومراكزها الحضرية قد مرت بثلاث مراحل تاريخية في العصر العباسي، وهي مراحل انسجمت، بوضوح، مع التطورات السياسية في المنطقة، ففي المرحلة الأولى التي امتدت حتى نهاية القرن الثالث الهجري تقريباً توجه الخلفاء العباسيون الأول إلى التعمير والبناء من أجل المواجهة. أما المرحلة الثانية التي شغلت القرن الرابع الهجري فتزامنت مع شيوع ظاهرة التفكك السياسي للسلطة المركزية وسيادة الإمارات المحلية وتنافسها من جهة، وقوة التحديات السياسية - العسكرية البيزنطية من جهة ثانية. إذ شن هؤلاء هجمات ناجحة وأفلحوا في السيطرة على عدد من مدن الثغور والمدن الأخرى القريبة من خط المواجهة، لكنها كانت سيطرة وقتية إذ سرعان ما انسحبت قواتهم على أثر ردود فعل الحمدانيين وغيرهم. أما المرحلة الثالثة فهي تقع خارج إطار هذا البحث، وتزامنت مع تطور التحدي البيزنطي بهجمات منظمة أفلحت في الاستحواذ على العديد من المراكز الحضرية في بلاد الشام.

وعلى هذا الأساس يمكننا تحليل بعض الأوصاف الجغرافية لأوضاع التمدن، فابن حوقل الذي عاصر تقريباً حقبة منتصف القرن الرابع الهجري يتحدث مثلاً عن مدينة أنطاكية فيقول: «فاستولى عليها العدو وملكها». أما عن مدى تأثير هذا العامل على أحوالها الحضرية فيقول: إنها كانت مختلفة، وقد «أختلت قبيل افتتاحها في أيدي المسلمين، وهي الآن (خلال زمنه) أشد اختلالاً ورزوحاً»<sup>٩٦</sup>. فملاحظة ابن حوقل هذه تعبر بوضوح عن أوضاع مدينة أنطاكية وهي تواجه هجوم الروم وسيطرتهم عليها ثم استعادتها من قبل العرب، ثم إعادة سيطرة الروم عليها في سنة ٣٥٩هـ / ٨٧٢ م. كذلك الحالة بخصوص ملاحظة المقدسي عند تطرقه إلى مدينة حمص إذ وصفها قائلاً: «إن البلد شديد الاختلال متداع إلى الخراب»<sup>٩٧</sup>. وهو وصف يتفق بصورة واضحة مع الوصف الذي سبق ذكره من قبل ابن حوقل حين قال: «وكانت - حمص - أيام عمارتها صحيحة الهواء... ودخلها الروم في وقتنا هذا فاتوا على سوادها وأخر بوها»<sup>٩٨</sup>. وفي الوقت نفسه يشير المقدسي إلى أن سائر مدن كورة حمص كانت مختلفة «وسائر المدن مختلفة»<sup>٩٩</sup>. إن هذه الأوصاف الجغرافية - الحضرية لبعض مدن بلاد الشام ممكن وضعها ضمن المرحلة الثانية عندما اشتدت شوكة الروم، وتزايدت هجماتهم على المدن في بلاد الشام. فهل بقيت حمص مختلفة على أثر هذه الهجمات؟ واعتماداً على ما عرضه شيخ الربوة في القرن الثامن الهجري يتبين أن المدينة

٩٦. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٥.

٩٧. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦.

٩٨. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٢.

٩٩. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦.

شهدت عهداً جديداً حتى أنها صارت مملكة حسنة فيها كرسي الملك ودار الامارة ونيابة السلطة.<sup>١٠٠</sup>

ومن الخطأ الاستنتاج أن العباسيين (على أساس أن ثورتهم كانت موجهة ضد البيت الأموي) بعد نجاح ثورتهم، وانتقال مركز سلطتهم الى بغداد قد أهملوا المنطقة التي كانت منطقة حكم ونفوذ الخلفاء الأمويين، لأن الشواهد التاريخية والحضرية لا تؤيد مثل هذا الاستنتاج. ووفقاً لما أورده البلاذري الذي كان يتحدث بشأن اوضاع حصن المصيصة منذ خلافة معاوية بن ابي سفيان، فإن العباسيين منذ خلافة أبي العباس التفتوا الى هذا الحصن وغيره وعملوا على إعمارهم. والظاهر أن الروم، خلال الاضطرابات التي نشأت من المعارك بين الثوار العباسيين والأمويين، قد استثمروا هذه الفرصة فشنوا حملات مركزية على المصيصة، ويقول البلاذري إن الروم ألحوا عليها «في أول أيام الدولة المباركة» فهدموا الكثير من معالم المدينة العمرانية، وهجروا أهاليها، فأمر الخليفة المنصور سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م باعادة إعمار ما تهدم في المدينة، وقيل إن والي بلاد الشام، صالح بن علي، قد وجه جبريل بن يحيى لتولي أمور الاعمار، وكان حائطها آنذاك «متشعثاً» وأهاليها قليلين، فاتم هذا بناء سور حول المدينة وشجع على عودة الأهالي اليها. وبدأ جبريل عملية الاعمار سنة ١٤٠ هـ وانتهى منها بعد سنة في ١٤١ هـ / ٧٥٨ م. وبعد أن استكمل تعمير المدينة اطلق عليها اسم المعمور. ومن بين الخطط التي ابتناها في المصيصة المسجد الجامع أسسه في موضع هيكلي كان بها<sup>١٠١</sup>. ومن أجل تقوية بنيتها السكانية نقل المنصور اليها أهل الخصوص من صقالبة وفرس وأنباط، ووزع عليهم الخطط عوضاً عن منازلهم، وقدم اليهم اللعونات المالية لبناء دورهم، وأقطعهم القطن<sup>١٠٢</sup>.

وبالنظر للأهمية الاستراتيجية العسكرية للمصيصة فقد تابع الخلفاء العباسيون الذين أعقبوا المنصور إجراءات تعمير المدينة وتحسينها، فعندما تولى المهدي الخلافة فرض العطاء لألفي رجل، وشجع على نقل المقاتلة إليها وشحنها بالجند. وفي سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١ م بعث ابنه في حملة ضد الروم، وكان من بين نتائج هذه الحملة أن أشرف هارون على المدينة فعمل على تعميرها فرمم مسجدها، وزاد في عدد المقاتلة فيها، وشجع الأهالي على السكن فيها، وابتنى قصرأ يقع عند جسر اذنه على نهر سيحان<sup>١٠٢</sup>. ودليل على مدى اهتمام الخلفاء العباسيين الأوائل بحصون الشام ما ذكره البلاذري إذ قال: «فلما ولي ابو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها، وبنى ما احتاج الى البناء فيها، وفعل مثل ذلك

١٠٠. شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٠٢.

١٠١. البلاذري، فتوح، ص ١٧٠ - ١٧١؛ الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٥٠٩ - ٥١٠.

١٠٢. البلاذري، فتوح، ص ١٧٠؛ ابن الفقيه الهمداني، مختصر البلدان، ص ١١٢ - ١١٣.

١٠٣. البلاذري، فتوح، ص ١٧٢.

بمدين الثغور، ثم لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون»<sup>١٠٤</sup>. والمعروف أن المصيصة - جغرافياً - تتكون من موضعين أو مدينتين سميت إحداهما المصيصة، أما الثانية التي كانت تقع على جانبي نهر جيحان فسميت كفر بيا. وبناء على ما ذكره البلاذري فإن الخليفة هارون الرشيد هو الذي بنى هذه المدينة. (وفي رواية أخرى أن أعمال البناء بدأت أيام الخليفة المهدي). وقد أنشئت قنطرة من الحجارة تربط بين المدينتين. أما كفر بيا فقد وصفت بأنها مدينة حصينة وبنيت على نشز (مرتفع) من الأرض، وبنى الرشيد فيها المسجد الجامع. وهي مدينة جليلة أهلة بالسكان كثيرة الأسواق، وامتازت بأحوال اقتصادية جيدة. وقد وصفت منازلها بأنها كالكائنات. وأتم المأمون أعمال أبيه فالغى ما كان مفروضاً من غلة على منازل أهلها، وأمر ببناء سور حولها لم يستكمل بناؤه في أيامه وأتمه الخليفة المعتصم بالله<sup>١٠٥</sup>.

وعمر العباسيون مدينة طرسوس، ففي حوالي سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م عندما خرج الحسن بن قحطبة الطائي بحملة ضد الروم نزل في مرج طرسوس ثم توجه بعدئذ إلى داخل المدينة، وكانت حينئذ خراباً، فطاف في شوارعها وألقى نظرة على ما تهدم منها وأحصى عدد سكانها، وعند عودته إلى بغداد عرض ما شاهده على الخليفة واصفاً له ضعف أحوال المدينة اجتماعياً واقتصادياً وعمرانياً مشيراً إلى أهميتها العسكرية. فاهتم المهدي بشؤون المدينة وإعادة تعميرها، إذ أمر أن تبدأ عمليات البناء والتعمير أولاً في مدينة الحدث (وقد ذكر شيخ الربوة أن المهدي أطلق عليها اسم المحمدية). واستكمل بناء مدينة الحدث أثناء حياته، ثم أوصى لمن يأتي بعده ببناء مدينة طرسوس. ويرجع الفضل إلى هارون الرشيد في استكمال بناء المدينة، حين أمر هرثمة بن أعين أن يتوجه سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م بجيش إلى طرسوس بالصائفة قبل أن يصلها الروم، وأمره ببناء المدينة وتمصيرها. فوكل هرثمة فرح بن سليم الخادم ببناء المدينة. وقد اتخذت جملة إجراءات تهدف إلى تعزيز بنيتها الاجتماعية إذ توجه إلى بغداد ونظم توجيه المقاتلة إليها على دفعات. وفي الوقت نفسه كان العمل مستمراً في بناء المدينة الذي استكمل سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م. وبنى فيها المسجد الجامع، وأتم تحصينها، وأقطع أهلها الخطط، وأسكن الوافدين إليها. وقد ظلت طرسوس محافظة على مكانتها هذه في منتصف القرن الرابع للهجرة، إذ وصفها ابن حوقل قائلاً إنها كانت مدينة مشهورة للغاية ونسب بناءها إلى الخليفة المأمون فقال إنه هو الذي مصرها ومدنها وبنى لها سورين من الحجارة. والمهم أن ابن حوقل قد أدرك المدينة وشاهدها<sup>١٠٦</sup>.

أما بخصوص المدينة الأولى، الحدث، فإنها بقيت كذلك خلال القرن الرابع الهجري،

١٠٤. المصدر السابق، ص ١٦٧.

١٠٥. البلاذري، فتوح، ص ١٧٠ - ١٧١؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٧ - ١٦٨.

١٠٦. انظر عن اعمار المدينة البلاذري، فتوح، ص ١٧٢ - ١٧٤؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٦ - ١٦٧، ١٦٨؛ شيخ

الربوة، نخبة الدهر، ص ٢١٤.

ووصفت بأنها مدينة صغيرة تعرضت لهجوم الروم، لكن سيف الدولة الحمداني أعاد فتحها ثم انتزعها الروم ثانية من أيدي المسلمين. والحدث ثغر كان المسلمون يرابطون و يجاهدون منه فيغنمون<sup>١٠٧</sup>.

ومن بين أعمال الرشيد العمرانية الأخرى بناء مدينة عين زربة سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م (حسبما أورده الواقدي). ففي هذه السنة أمر الرشيد ببناء هذه المدينة وتحصينها وحث الناس والمقاتلة على سكنائها، فندب أهل خراسان وأقطعهم بها المنازل. وكانت مشهورة بوفرة النخيل والزروع وخصوبة الأرض ومسورة بسور<sup>١٠٨</sup>. وفي سنة ١٩٢ هـ و ١٩٤ هـ / ٨٠٨ م و ٨٠٩ م هجر أهل مدينة سسيه وهي مدينة تل عين زربة فهجرت المدينة وتخربت معالمها فأمر المتوكل بتعميرها، إذ أوكل علي بن يحيى القيام بأعمال التعمير.

وفي سنة ١٨٣ هـ / ١٧٩٩ م أمر الرشيد ببناء مدينة الهارونية، (وفي رواية أخرى أن أعمال البناء قد ابتدأت اثناء خلافة المهدي واستكملت في عهده). والهارونية حصن صغير يقع غرب جبل اللكام، وقد بقيت هذه المدينة الصغيرة عامرة إبان عصر ابن حوقل إذ أدركها ووصفها بأنها كانت «في غاية العماره»<sup>١٠٩</sup>. وشملت أعمال الرشيد مدينة أخرى إذ أعاد بناء ما تهدم من مدينة الكنيسة السوداء، وهي عبارة عن حصن، فقد أمر ببناء المدينة وتحصينها وتشجيع المقاتلة على سكنائها<sup>١١٠</sup>. وكان للرشيد دور في جعل العواصم منطقة مفردة لوحدها واتخاذ مدينة منبج مدينة - قسبة لها، وابتنى عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله في منبج أبنية مشهورة سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م<sup>١١١</sup>.

وقام الوالي عبد الله بن صالح بن علي ببناء مدينة سلمية التي كانت ضمن كورة حمص وهي مدينة تقع في البرية. وبعد بنائها أجرى إليها نهراً وعمر أراضيها فصارت مشهورة بزراعة الزعفران. وشجع ولده وأهله ومواليهم على اتخاذها مسكناً لهم، كما قطنها أخلاط من الناس من تجار ومزارعين<sup>١١٢</sup>.

وقد تعرضت فلسطين، خلال خلافة الرشيد، الى طاعون جارف أتى على أهلها وتخربت أراضيهم وهجرت المنازل. فوكل الرشيد الى والي فلسطين أن يقوم بتعميرها وتعمير أراضيها، وحث بالأكرة المزارعين على تعمير الأرض، وعمل هرثمة بن أعين الوالي على تشجيع المزارعين على العودة الى بلادهم، وخفف عن كاهلهم الخراج، وعاملهم معاملة

١٠٧. البلاذري، فتوح، ص ١٧٥ - ١٧٦؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٧.

١٠٨. البلاذري، فتوح، ص ١٧٤.

١٠٩. البلاذري، فتوح، ص ١٧٥ - ١٧٦؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٧، شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢١٤.

١١٠. البلاذري، فتوح، ص ١٧٦، ابن حوقل، صورة الدهر، ص ١٦٧.

١١١. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٦٥ - ١٦٦.

١١٢. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٤؛ البلاذري، فتوح، ص ١٤٠.



وشملت أعمال التعمير والبناء مدينة حلب، إذ يذكر ابن حوقل أن قلعة حلب قد أعيد تعميرها وتقويتها فصارت ملجأً لأهالي المدينة أثناء هجوم الروم عليها<sup>١١٤</sup>. وعمل سيف الدولة الحمداني على تعمير مدينة رعبان، وهي من مدن الثغور، عندما تعرضت لزلزال سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، إذ جند قطعة من جيشه للقيام بعملية التعمير، فأعيدت عمارتها خلال سبعة وثلاثين يوماً<sup>١١٥</sup>.

### الخلاصة

ان هذا البحث المتواضع عن الأحوال الحضريّة لمدن بلاد الشام في العصر العبّاسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري قد هدف الى إجلاء الأمور الآتية :-

١. كانت أمور بلاد الشام أو أجناده تابعة إدارياً لسلطة الخليفة العبّاسي خلال عصر الخلفاء الأول. وكانت تدار من قبل أكثر من وال. ففي سنة ١٢٥هـ/ ٧٥٢م كان الوالي على حمص وقنسرين وبعبك والغوطة وهوران والجولان والأردن عبد الله بن علي، بينما كان والي البلقاء وفلسطين صالح بن علي. وفي حالات أخرى يظهر من خلال الأحداث التاريخية أن هناك عاملاً واحداً على بلاد الشام، بصورة عامة، كما حدث سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م. ومع ذلك فإن إدارة الإقليم لم تتبع نمطاً واحداً، ففي سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م كان صالح ابن علي والياً على قنسرين وحمص ودمشق فقط<sup>١١٦</sup>. بينما كان إبراهيم بن صالح والياً على فلسطين فقط حوالي سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩م<sup>١١٧</sup> وفي سنة ١٩٤هـ يظهر أن القاسم أخ محمد بن هارون كان والياً على عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور<sup>١١٨</sup> في حين أن المأمون ولى أخاه أبا إسحاق سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٨م على الشام ومصر، وولى ابنه الجزيرة والثغور والعواصم<sup>١١٩</sup>. وفي سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م يظهر أن جند دمشق كان تحت ولاية إسحاق بن علي بن معاذ، وأن هناك عمالاً آخرين على كل جند من أجناد بلاد الشام<sup>١٢٠</sup> وكان هناك وال آخر على قنسرين والجزيرة.

١١٣. البلاذري، فتوح، ص ١٤٩، ١٦٣.

١١٤. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٣.

١١٥. ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١ - ٥٢.

١١٦. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٦٧، ٥١١.

١١٧. المصدر السابق، ج ٨، ص ١٤٨.

١١٨. المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٧٤.

١١٩. المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٥.

١٢٠. المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٤٦.

٢. على الرغم من تبدل أوضاع عدد من المراكز الحضرية في بلاد الشام سواء كان ذلك بفعل العوامل الطبيعية والاقتصادية كأثار الزلزال على انطاكية الذي أدى الى التقليل من أهميتها، أو كأثار تغير الطريق التجاري على مدينة بالس إذ اختفت آثارها ومعالمها، وكالآثار التي تعرضت لها مدينة عمواس حين تحول أهلها باتجاه السهل والبحر لتوافر مياه الأبار العذبة، فإن الأغلبية العظمى لمدن القصبات والمراكز الحضرية في الإقليم قد بقيت محتفظة بأهميتها وشهرتها الاقتصادية، وظلت أهلة بالسكان. والواقع أن تبدل أحوال بعض المراكز الحضرية قد ساعد بدوره على توسيع الكثافة السكانية لمراكز أخرى مثلما حدث في مدينة بانياس في كورة دمشق. إذ وصفت بانياس هذه بأنها «أرخبى وأرفق من دمشق»<sup>١٢١</sup>، ويرجع سبب ذلك الى أن أكثرية أهالي الثغور قد انتقلوا إليها عندما استولى الروم على مدينة طرسوس فزادوا في كثافتها السكانية «وهي في كل يوم في زيادة»<sup>١٢٢</sup>، وذلك مثلما حدث نتيجة تشجيع العباسيين وولاتهم على سكنى المدن التي عمروها أو بنوها ونقلوا عدداً من العناصر السكانية من المشرق أو العراق الى بعض مدن الثغور لتقوية بنيتها السكانية.

ومع ذلك فاننا ينبغي أن لا نقلل من الآثار السلبية التي نتجت عن العوامل السياسية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على مدن بلاد الشام وأهاليها، إذ أنهم كانوا دائماً «على خوف من الروم وفي جلا والأطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى».

والواقع أن العصور المتأخرة من تاريخ العباسيين شهد تحولات حضرية للكثير من المراكز الحضرية في بلاد الشام، ربما أكثر بكثير من التبدلات الحضرية التي وقعت في القرنين الثالث والرابع الهجريين. والذي يتتبع الأحداث التاريخية خلال الحروب الصليبية، وبعد سقوط بغداد وما حل ببلاد الشام من ويلات عسكرية، يجد اعتماداً على ما ذكره أبو الفداء بان مدناً من أمثال أرسوف وعكا وبيسان وطبرية وصور وعسقلان وقيسارية ومأن وتل حمدون وغير ذلك من المدن قد خربت أو دمرت ولم تعد لها أهمية.

٣. إن هناك تنوعاً في المراكز الحضرية لبلاد الشام، ولم تكن ذات نمط واحد، فهناك مدن القصبات ومدن التجارة أو المرافئ أو الموانئ الساحلية والفرضة، وهناك مدن حصون. كما أن هناك وضوحاً في الشروط والمستلزمات التي ينبغي توافرها في المراكز الحضرية المختلفة.

٤. لم يهمل العباسيون أحوال بلاد الشام الحضرية، واهتموا بشكل خاص بمدن الثغور والمدن الساحلية فضلاً عن عمليات الاعمار في المدن الأخرى.

١٢١. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٠.

١٢٢. المصدر السابق نفسه.

## طرق التجارة والحج في بلاد الشام في العصر العباسي

تيسير خليل الزواهرة\*

حدود بلاد الشام :

يحدد ابن خُرْداذبة<sup>١</sup> حد مصر من ناحية الشام بأنه يبدأ من موضع الشجرتين<sup>٢</sup> بين رَفْح<sup>٣</sup> والعريش<sup>٤</sup>، ومن بَرْقة<sup>٥</sup> إلى أَيْلَة، وقد وافقه في هذا التحديد كل من ياقوت

\* قسم التاريخ، جامعة مؤتة، المملكة الاردنية الهاشمية.

١. أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ/٩١٣ م)، المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩ م، ص ٦٠ - ٦١، ١٤٩، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، ابن خرداذبة، المسالك.
٢. الشجرتان، موضع بين العريش ورفع، وهو حد الشام من مصر، أنظر حول ذلك : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي (٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م)، معجم البلدان، ج ٥. ح دار صادر، بيروت، ١٩٧٩ م؛ الحديث عن العريش ج ٣، ص ٤، ٩، الحديث عن ذهلول ص ١١٣ - ١١٤. وسوف يشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا، ياقوت، معجم البلدان.
٣. رَفْح : بفتح أوله وثانيه، آخره جاء مهملة، منزل في طريق مصر بعد الداروم، أنظر : عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج ٤، حقه وضبطه مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م، ج ٢، ص ٦٦٣. سوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، البكري معجم ما استعجم، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٤ - ٥٥، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م)، صورة الأرض، ص ١٣٥ - ١٣٦، ١٥٣، ١٥٤، ١٧٠، وسوف يشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا، ابن حوقل، صورة الأرض..
٤. العريش : أول مدينة من عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم، كانت مورد القوافل، أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٣ - ١١٤، قارن ذلك بالبكري، معجم ما استعجم، ج ٣، ص ٩٣٨. حيث يعدها من الشام؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٣٥ - ١٣٦، أبو الفرج قدامة بن جعفر ابن قدامة (ت ٣٢٨ أو ٣٣٧ هـ/٩٣٧ أو ٩٤٨ م) نبذ من كتاب الحرج وصنعه الكتابة، منشور مع كتاب ابن خرداذبة المسالك والممالك، بريل، ليدن، ١٨٨٩، ص ٢١٩ - ٢٢٠، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، أبو الفرج ابن قدامة، نبذ.
٥. بَرْقة، اسم صقع كبير يحتوي على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٨ - ٣٨٩؛ محمد بن عبد المنعم الحميري (ت. ق ١٤ هـ/٨ م) كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار (معجم جغرافي). تحقيق احسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ط ٢، ١٩٨٠، ص ٩١، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، الحميري، الروض المعطار.

الحموي<sup>٦</sup> والحميري<sup>٧</sup> وابن حوقل<sup>٨</sup>، ويضيف ابن خردادبة<sup>٩</sup> بأن الطور<sup>١٠</sup> والقلزم<sup>١١</sup> وأيلة من كور مصر، وكذلك عدّها الحميري<sup>١٢</sup>، بينما يرى المقدسي<sup>١٣</sup> أن هناك تنازعا بين الشاميين والحجازيين والمصريين حول أيلة، وهو يرجح تبعيتها لبلاد الشام لأن أوطانها ورسومها شامية، وهي فرضة فلسطين على بحر القلزم. ويصرح ابن حوقل بأن حد مصر ينتهي بالنسبة للقادم من النوبة إلى بحر القلزم ويجاوز مدينة القلزم إلى طور سيناء، نحو ست مراحل<sup>١٤</sup>، ثم يعطف على تيه بني إسرائيل<sup>١٥</sup>، وهو ليس من أرض مصر، ماراً إلى

٦. ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٤ - ٥٥.
٧. الحميري، الروض المبطار، ص ٩١، ٣٣٥، ٥٥٢.
٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٣ - ١٥٤، ١٧٠.
٩. المصدر السابق، ص ٦٠ - ٦١، ١٤٩، ١٥٣ - ١٥٤، ١٧٠.
١٠. الطور: جبل بالشام هو جبل طور سيناء بينه وبين بيت المقدس ست مراحل قرب أيلة، انظر: معجم ما استمعهم، ج ٣، ص ٨٩٧ - ٨٩٨؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧ - ٤٩؛ الحميري، الروض المبطار ص ٣٩٧ - ٣٩٨؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، ٢ م؛ تصوير مكتبة المثنى، بغداد (د.ت) م ١، ص ١٨٨، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، الخطط المقرئية.
١١. القلزم: اسم جبل على البحر الأحمر، بين مدينة القلزم ومصر ثلاثة أيام، ومنها تحمل بضاعة مصر والشام والحجاز واليمن انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٧ - ٣٨٨؛ الحميري، الروض المبطار، ص ٤٦٦ - ٤٦٧؛ الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوبي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣، ص ٨٤، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، الهمداني، صفة جزيرة العرب، أبو عبيد، عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، تحقيق عبدالله يوسف الغنيم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ١٧ - ٢٠، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، البكري، جزيرة العرب.
١٢. الحميري، الروض المبطار، ص ٧٠، ٣٩٧ - ٣٩٨، ٤٦٦ - ٤٦٧.
١٣. شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد الشامي المقدسي البشاري، (ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، (د.ت) تصوير عن طبعة بريل سنة ١٩٠٦، ص ١٧٨ - ١٧٩، ٢٤٩. وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، المقدسي، أحسن التقاسيم.
١٤. المرحلة: المسافة بين المنزلين أو المسافة التي يقطعها السائر في نحو يوم. وجمعها مراحل أنظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب، ج ١٥، دار صادر، بيروت (د.ت)، مادة رجل، المجلد ١١، ص ٢٨٠ وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، لسان العرب.
١٥. تيه بني إسرائيل: يتصل حده بالجفار، وحد بطور سيناء، وحد بأراضي بيت المقدس، ليس تابعاً لمصر، كما أنه ليس من فلسطين، أنظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٤٨، ١٥٣ - ١٥٤، ص ١٥٧ - ١٥٨، ١٧٠؛ الحميري، الروض المبطار، ص ١٤٧.

بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفع نحو ثمانى مراحل، ثم يرجع إلى الساحل ماراً على بحر الروم إلى الاسكندرية نحو اثنتي عشرة مرحلة<sup>١٦</sup>. ويفصل بين حد فلسطين ومصر رمال تسمى الجفار تتصل من رفح على ساحل بحر الروم شمالاً إلى أيلة ورمال القلزم من جهة القبلة<sup>١٧</sup>، ويفهم من كلام الأدرسي أنه يخرج أيلة من حدود فلسطين حيث عدّ الشراة من أعمال فلسطين إلى حدود أيلة<sup>١٨</sup> ويعد المقرئزي أيلة أول حد الحجاز<sup>١٩</sup>.

ويعد ابن رُسته مدين وقلزم من أرض الشام، فحين حديثه عن الاقليم الثالث يقول « ثم يمر على بلاد الشام وفيها من المدن الحيار وسلمية . . . وغزة ومدين وقلزم، ثم يقطع إلى أسفل أرض مصر، ومنها الفرما وتينيس ودمياط . . . »<sup>٢٠</sup>

وأما حد جزيرة العرب مع بلاد الشام، فقد أورد الحربي<sup>٢١</sup> عدة آراء حول ذلك فيقول: زعم الخليل أن جزيرة العرب ما أحاط به بحر فارس، وبحر الحبش، والفُرات، ودجلة من المدن والأراضي حتى أصبح جزيرة، وقال الأصمعي بأن حدّها ما لم يبلغه ملك فارس والروم، وقال مالك بن أنس أن جزيرة العرب هي مكة والمدينة واليامة، وزعم ابن الكلبي أنها تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن، وقال أبو عبيدة: جزيرة العرب ما بين حفر أبي موسى إلى أقصى اليمن، وأما في العرض فما بين رمل يبرين إلى منقطع السّاوة.

ويورد أبو عبيد البكري<sup>٢٢</sup> أقوالاً أخرى حول مفهوم جزيرة العرب، فيذكر قول

١٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٢٦، ١٣٥.

١٧. المصدر نفسه، ص ١٤٦ - ١٤٨.

١٨. أبو عبدالله محمد بن محمد الأدرسي (٥٦٠هـ/١١٦٠م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ٩، روما، ١٩٧٤، ص ٣٥٤، ٣٥٥، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، الأدرسي، نزهة المشتاق.

١٩. الخطط المقرئزية، ج ١، ص ١٨٤.

٢٠. أبو علي أحمد بن عمر بن رسته (كان حياً سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م)، كتاب الاعلاق النفيسة، المجلد السابع، مطبعة بريل باليدن، ١٨٩١م، ص ٩٦ - ٩٨، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، ابن رسته، الاعلاق النفيسة.

٢١. إبراهيم بن اسحق بن إبراهيم بن أبي اسحق الحربي (٢٨٥هـ/٨٩٨م)، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات اليامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٥٣١ - ٥٣٢، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، الحربي، كتاب المناسك.

٢٢. البكري، جزيرة العرب، ص ١٧ - ٢٠، قارن ذلك مع الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٨٣ - ٨٥، وانظر: حول تفصيلات أسماء المدن في البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ١٠٣، ١٢٩ - ٣٣٠، ج ٤، ص ٩٢٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٨٦، ٥٢٥ - ٥٢٦، ج ٢، ص ٦٧، ج ٣، ص ٤٣٣ - ٤٣٤، ج ٤، ص ١٢٢ - ١٢٣، ٤٠٣ - ٤٠٤؛ الحميري، الروض المعطار، ١٢٢، ١٤٦ - ١٤٧، ٣٦٩، ٤٢٠، ٤٧٤.

الأصمعي الذي يفهم منه أنه تفصيل لما ورد عند الحربي حيث يقول: بأن حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما في العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أصول الشام، وأكثر ما يهمننا من الأقوال التي أوردتها البكري تحديده لشمال غرب الجزيرة العربية. حيث يسير هذا الحد إلى ساحل الطور وتيباء، وخليج أيلة حتى يبلغ قُلُومَ مصر ويخالط بلادها، «وأقبل النيل في غربي هذا العُتق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه، حتى وقع في بحر مصر والشام ثم أقبل البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين، فمر بعسقلان وسواحلها وأتى على صور ساحل الأردن، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق، ثم نفذ إلى ساحل حمص، وسواحل قنسرين، والجزيرة إلى سواد العراق.»

يقول ياقوت الحموي عن تيباء أنها «بليد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام»<sup>٢٣</sup> ولا يُعدها كل من الحِميري<sup>٢٤</sup> والإدرسي من الشام بل من الحجاز ويضيف الإدرسي عبارة أن بين تيباء وأول الشام ثلاثة أيام<sup>٢٥</sup>، أما المقدسي فله رأي آخر، فهي مدينة بادية العرب<sup>٢٦</sup>.

ويذكر البكري تحديد الجيهاني<sup>٢٧</sup> لجزيرة العرب فيقول حدّ جزيرة العرب من ناحية الشمال، يبدأ من ساحل أيلة فيستقبل الشرق في أرض مَدِين، ثم إلى تبوك ثم إلى دومة الجندل، ثم إلى البلقاء، ثم تيباء ثم ماب، وهي كلها من الشام، ثم يمضي في وادي شبيان ويكر، إلى أن يتصل بالكوفة والنجف والقادسية، والحيرة، ونجران السواد، وهذه على يسار الكوفة، وأما عن يمين هذا الخط مما يلي الجنوب فأرض الحجر ووادي القُرى واسمها

٢٣. ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٧.

٢٤. الحِميري، الروض المعطار، ص ١٤٦ - ١٤٧.

٢٥. الإدرسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

٢٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٨.

٢٧. الجيهاني، لم أجد في كتب التراجم الجيهاني المذكور باسم أبي نصر، سعيد بن غالب، ولكنني وجدت أبا عبدالله أحمد بن محمد بن نصر وزير صاحب خراسان وصاحب كتاب المسالك والممالك وغيره، وتنطبق الصفات على أبي عبدالله، انظر: محمد بن التديم (٤٣٨هـ/١٠٤٧م؟) الفهرست، يقول عنه كان حيا سنة ٣٦٧هـ/٩٧٨م، دار المعرفة، بيروت (د. ت)، ص ١٩٨، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الفهرست؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، ١٥ ج، مكتبة دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، المجلد الأول، ج ٢، ص ١٥٦، وسوف يشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا، كحالة معجم المؤلفين؛ أ. ي. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٢ ق، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٣، ١ ق، ص ٢١٩ - ٢٢٤، وسوف يشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا، كراتشكوفسكي.

القديم قرح، وهي أرض ثمود، وما دونها إلى الأغوار والتهائم والتجود إلى أن يصل بساحل حَضرموت، كل ذلك من أرض العرب وما يلي إلى الشمال من هذا فمن بلاد الأردن الشمالي<sup>٢٨</sup>. وتصل جبال الشورى بين بلاد الشام والحجاز وهي جبال عالية، ذات قرى عامرة، وثمار غزيرة<sup>٢٩</sup>.

يقول الدكتور عبدالله يوسف الغنيم أن البكري يعرض لتحديد الفقهاء للمنطقة التي تسمى جزيرة العرب، ثم يذكر تحديد علماء اللغة أيضاً<sup>٣٠</sup>، ويكاد الحربي يتطابق في نظره إلى حدود الجزيرة العربية من الشمال مع البكري<sup>٣١</sup>.

ويرى الدكتور الغنيم أن تحديد الجيهاني لأقسام جزيرة العرب هو الأفضل، وأن البكري قصد من تحديده، تعليل وصف جزيرة العرب بصفة جزيرة. لذلك أدخل مناطق شرقي النيل ومناطق في أعالي بلاد الشام في تحديده، ولكنه، أي البكري، نقض هذا التحديد بنفسه حين حدّد بلاد العرب عندما اعتمد تحديد الجيهاني لجزيرة العرب من جهاتها الأربع<sup>٣٢</sup>.

ولم يكن الحد الشمالي لجزيرة العرب واضحاً عند الجغرافيين العرب، فليس الخط الذي أشار إليه البكري والحربي إلا محاولة لتحديد المفهوم العائم عن الحدود بين الجزيرة العربية وبلاد الشام، فاتخذ كل منهما مراكز العمران نقاطاً فاصلة بين المنطقتين<sup>٣٣</sup>.

وحينما يأخذ البكري بتحديد الأصمعي المذكور فإنه يشير إلى مدلول سياسي في

٢٨. البكري، جزيرة العرب، ص ٢٠، حول المدن والمواقع المذكورة في هذا الهامش انظر: أبو الحسن يحيى بن أحمد بن جابر البلاذري، (ت ٨٩٢/٢٧٩م)، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٨٩هـ/١٩٧٨م)، ص ٧١ - ٧٤، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، البلاذري، فتوح؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٢ - ٣٥٣، الحميري، ص ٩٦ - ٩٧، ١٨٩، ٢٠٧ - ٢٠٨، ٢٤٥ - ٢٤٦، ٢٤٧ - ٤٤٨، ٥٠١ - ٥٠٢، ٢١٧، ٥٢٥، ٥٧٥؛ البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ٢٧٥، ٣٠٣ - ٣٠٤، ٣٣، ج ٢، ص ٤٢٦، ٥٦٤ - ٥٦٥، ج ٤ ص ١١٦٩، ١٢٠١، ١٢٩٩؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٨٩، ج ٢، ص ١٤ - ١٥، ٢٢٠ - ٢٢١، ٢٦٩ - ٢٧٠، ٣٢٨ - ٣٣١، ٤٨٧ - ٤٨٩، ج ٤، ص ٢٩١ - ٢٩٣، ٣٢٠ - ٣٢١، ٤٩٠ - ٤٩٤، ج ٥، ص ٣١، ٧٧، ٢٦٩ - ٢٧٢، ٣٤٥.

٢٩. البكري، جزيرة العرب، ص ٩٦ - ٩٧.

٣٠. أنظر: البكري، جزيرة العرب، ص ١٧ - ٢٠.

٣١. كتاب المناسك، ص ٥٣١ - ٥٣٢.

٣٢. البكري، جزيرة العرب، ص ٢٠.

٣٣. كذلك انظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥١ - ٣٥٥.

الحدود، حيث أخرج منها جنوبي بادية العراق التي كانت تتبع للفرس، وعندما جعل البكري الحدود شمالي الخط الذي أشرنا إليه آنفاً، بلاد الأردن الشمالي، فإن ذلك يعني ضم بعض المناطق التي تعد امتداداً طبيعياً لبلاد العرب إلى بلاد الشام، لأن تلك الأجزاء تتبع سياسياً لإمارات الغساسنة في الشام، فهو بهذا يأخذ بالمدلول السياسي للحدود أيضاً، ثم نجد البكري أخيراً يُخرج سيناء من حد جزيرة العرب ويجعلها من بلاد الشام، حيث يقول: إن حد جزيرة العرب الشمالي يبدأ من أيلة<sup>٣٤</sup>.

وأما الحد بين بلاد الشام والعراق، فإننا نجد ابن حوقل<sup>٣٥</sup> يحدد بلاد الشام من الشرق بالبادية، وقريب من هذا المفهوم تحديد البكري<sup>٣٦</sup> بأن حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق، ويذكر المقدسي<sup>٣٧</sup> أن أهل العراق يُسمون كل ما وراء الفرات شاماً، لكنه يستدرك عليهم بأن الشام كل ما قابل اليمن وكان الحجاز بينهما؛ ولا يتفق ابن رُسته<sup>٣٨</sup> مع هذا المفهوم فهو يقول عن نهر الفرات أنه «يقبل من الشمال حتى يمر بالجزيرة والرقة، ثم ينحدر إلى الكوفة، وفي غربيه بلاد الشام، وفي شرقيه الجزيرة». وبينما خلا تحديدا ابن حوقل والبكري من الدقة في تعيين الحد فإن المأثور عن أهل العراق وما ورد عن ابن رُسته أكثر دقة، وخرج المقدسي من مأزق ابن حوقل والبكري بأن حد البادية بشكل دقيق وفق ما رسمه من حدود للأقاليم فين حدودها التي لا تفصل بين العراق وبلاد الشام فقط بل بين بلاد الشام والجزيرة العربية وقال في ذلك «إعلم أن بين أقاليم العرب غير المغرب، بادية ذات مياه وغدران، وآبار وعيون، وتلال ورمال، وقرى نخيل، قليلة الجبال، كثيرة العرب مخيفة السبل، خفية الطرق، طيبة الهواء، رديّة الماء، ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق، ولا مدينة إلا تيماء»، ومن الناس من يعدها من الجزيرة وليست منها، ومنهم من يجزئها على الأقاليم، ومنهم من يجعلها من الشام<sup>٣٩</sup> ولما كان المقدسي يعي أهمية البادية فقد أفرد لها بحث خاص<sup>٤٠</sup> ويحدد المقدسي تخوم بادية العرب

٣٤. البكري، جزيرة العرب، ص ١٠٥ - ١٠٨.

٣٥. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٣، ١٧٠ - ١٧١.

٣٦. البكري، جزيرة العرب، ص ١٧.

٣٧. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١ - ١٥٢.

٣٨. ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ٩٣ - ٩٥.

٣٩. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٢.

٤٠. المصدر نفسه، ص ٢٤٨ - ٢٥٦.



قائلاً<sup>٤١</sup> «تأخذ من ويلة على مدائن قوم لوط، وتصعد إلى مآب، ثم على تخوم عمان، وأذرعات ورساتيق دمشق، وتدمر وسلمية، وأطراف حمص إلى بالس ثم ترجع إلى القرات، وتعطف على الرقة، وهي ليست من الشام، والرحبة والذالية إلى هيت، والأنبار، ثم على الحيرة والقادسية، ومغارب البطائح، ثم على سواد البصرة إلى عبّادان،» ومنهم من أضاف الشراة إليها، وأدخل مدنها فيها، وهذا أصح، وليس في هذه البادية مدينة إلا تيباء لذلك فقد قسم الطرق بين بادية العرب والمناطق الأخرى، فذكر الطريق بينها وبين الرملة، وبينها وبين مصر.<sup>٤٢</sup>

وإذا اتجهنا شمالاً نحو الجزيرة الفراتية، نجد المقدسي<sup>٤٣</sup> يفصل بين بلاد الشام والعراق بإقليم أقور ويقصد به إقليم الجزيرة بين الموصل والشام<sup>٤٤</sup> حيث يقول «إقليم أقور واسطة بين الشام والعراق، ومنازل العرب قبل الاسلام» وقد فصل في ذكر منازل العرب تلك فذكر ديار ربيعة من جهة العراق، ثم تليها غرباً ديار مضر، ثم ديار بكر<sup>٤٥</sup>. ويتفق ابن حوقل<sup>٤٦</sup> مع المقدسي في جعل سلمية وأقصى الغوطة حداً لبلاد الشام مع البادية.

وأما حدود بلاد الشام مع الروم (الشالية) فابن حوقل يقول حولها ما يلي<sup>٤٧</sup>: «وأما حدود الشام مما يلي الروم فانها الثغور المعروفة قديماً بثغور الجزيرة، وقد جمعت إلى الشام،

٤١. المصدر نفسه، ص ٢٤٨، انظر: حول أسماء المدن المذكورة في النص التالي: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١، ١٧٥؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٩٦ - ٩٨؛ البكري، معجم ما استعجم، ج ١، ص ١٩٧ - ١٩٨، ٢٥٩، ٣٠٦ - ٣٠٧، ج ٢، ص ٦٦٦، ج ٣، ص ٧٥١، ٩١٦، ج ٤، ص ١٣٥٧؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ١٣٠ - ١٣١، ٢٥٧ - ٢٥٨، ٣٢٨ - ٣٢٩، ٤٥٠ - ٤٥١، ج ٢، ١٧ - ١٩، ٤٣٣، ج ٣، ص ٣٤، ٣٦، ٥٨، ٦٠، ٢٤٠ - ٢٤١، ج ٤، ص ٧٤ - ٧٥، ١٥١، ج ٥، ص ٤٢١؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٩ - ٢٠، ٣٦ - ٣٧، ٩٢ - ٩٣، ١٣١، ٢٧٠، ٢٨٦، ٣٢٠، ٤٠٧، ٤١٢، ٥٦٧.

٤٢. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٩.

٤٣. المصدر نفسه، ص ١٣٧.

٤٤. ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٨.

٤٥. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٧، ابن قدامة، نبذ، ص ٢٤٦.

٤٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٠ - ١٧١.

٤٧. المصدر نفسه، ص ١٥٣ - ١٥٦، وانظر حول ملطية ومرعش، البكري، معجم ما استعجم، ج ٣، ص ٩٣٤، ج ٤، ص ١٢١٥، ياقوت، معجم البلدان ج ٥، ص ١٠٧، ١٩٢ - ١٩٣، الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٥.

وكانت بعضها تعرف بثغور الشام وبعضها الآخر تعرف بثغور الجزيرة، وكلها من الشام، وذلك أن كل ما كان وراء الفرات، فمن الشام، وإنما سُمي من مَلطية إلى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة، كانوا بها يرابطون ويغزون، لا أنها من الجزيرة وأعمالها. وكان يفصل بين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام الذي يبدأ من بلاد الروم، ثم يظهر في بلاد الاسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة، ثم يسمى بعد أن يجاوز اللاذقية، جبل بهراء، وتنوخ إلى حمص، ويستمر جنوباً حيث يعرف باسم جبل لبنان، وأهم مدن الثغور هي ملطية والحديث، ومرعش، والهارونية، والكنيسة السوداء، وعين زربة، والمصيصة، وأذنة، وطرسوس<sup>(٤٨)</sup>.

وأما بالنسبة لحد بلاد الشام من جهة الغرب فإن ذلك محدود ببحر الروم أو البحر الشامي<sup>(٤٩)</sup>

تطور الطرق وسبب اختيارها :

عاشت بلاد الشام والجزيرة العربية فترة الاتصال الحضاري منذ العصور القديمة وأصبحت الطرق التجارية تمثل عصب الحياة بين الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام ومصر<sup>(٥٠)</sup>، ويرجع الاهتمام بطرق التجارة ومراكز المدن إلى العصر السلوقي حين أنشأ سلوقس نيكاتور (٣١٢ ق. م - ٢٨٠ ق. م) في الجزيرة الفراتية وشمال سورية عدداً من المدن لأغراض عسكرية منها أنطاكية وسلوقية البحرية (السويدية) واللاذقية وأفامية، وصارت هذه المدن فيما بعد، مراكز الطرق التجارية بين الداخل والساحل وكان نهر العاصي حلقة الوصل بين المواليء المتوسطة في آسية الصغرى والجزر اليونانية ومصر. ثم كونت بعض المدن الداخلية في بلاد الشام حلقةً اقتصاديةً فيما بينها هو اتحاد المدن العشر

٤٨. حول المواقع المذكورة (مدن الثغور)، انظر ما يلي : البكري، معجم ما استعجم، ج ٢، ص ٤٢٩، ج ٤، ص ١١٤٧، ١١٦٢، ١٢٣٥؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٣ - ١٥٦؛ ياقوت، معجم البلدان ج ١، ص ١٣٢ - ١٣٣، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٢٩، ج ٤، ص ٢٨ - ٢٩، ١٧٧ - ١٧٨، ٤٨٥، ج ٥، ص ٥ - ٦، ١٤٤ - ١٤٥؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٠، ٣٨٨ - ٣٨٩، ٤٢٢، ٥٠٧، ٥١٠.

٤٩. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٣ - ١٥٦.

٥٠. سعد الراشد، «الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية، وصلتها ببلاد الشام في صدر الاسلام والخلافة الأموية، اعتماداً على الاكتشافات الحديثة»، بلاد الشام في صدر الاسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، المجلد الثاني، تحرير محمد عدنان البخيت واحسان عباس، عمان، ١٩٨٧م، ص ٤٦٩، وسوف يشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا، الراشد، «الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية».

«الديكابوليس»، فضمنت لنفسها مرور التجارة عبر الأردن وما إلى الشرق منها ثم إلى فلسطين وساحل البحر المتوسط ومصر فأصبحت بالتالي أسواقاً كبيرة لتبادل السلع<sup>٥١</sup>. ثم أنشأ تراجان طريقاً يصل بين العقبة وبُصرى ماراً بفيلاذلفيا (عمّان) وكابتلاياس (أم الجمال) متجنباً البتراء، وسماه الطريق الجديد "Via Nova" وهذه من أولى المحاولات لربط البحر الأحمر بالفرات بطريق متصل، ثم عمل ديوقلتيان على إتمام هذا العمل، فبنى طريقاً من بصرى إلى سُورا على الفرات عبر دمشق وتدمر وهو ما عرف بطريق ديوقلتيان "Starta Diocletiana" الذي كان هدفه أيضاً عسكرياً<sup>٥٢</sup>. وأمّا في القرن الخامس فكانت تجتاز بلاد الشام ثلاث طرق من الشمال إلى الجنوب وهي من عمل الرومان والبيزنطيين وهذه الطرق هي:

١. دمشق - بصرى - فيلاذلفيا - أيلة.
٢. اللّجون (الفلسطينية) - نيابوليس (نابلس) - إيليا (القدس) بئر السبع - الوسا (الخلصة) - البتراء<sup>٥٣</sup>.
٣. قيسارية - ديوسبوليس (لُدّ) - غزّة - رفح. أي كانت هناك ثلاث طرق رئيسية صحراوية عبر شرق الأردن وداخلي عبر فلسطين، ثم طريق ساحلي، ولم يكن العرب بمعزل عن تلك الطرق فكانوا كبير الصلة ببلاد الشام تجارياً، ورحلة الشتاء والصيف المعروفة خير دليل على ذلك. فقد كانت معرفتهم كبيرة بالطرق المؤدية إلى فلسطين ودمشق، وبعض موانئ البحر المتوسط (الروم) الشامية مثل غزّة وصور، فأكسبت هذه الصلات المتكررة تجار مكنة معرفة عميقة بأحوال بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي. لذلك نجد أبا بكر يوجه قادة الفتح لبلاد الشام عبر هذه الطرق، فوجه عمرو بن العاص إلى فلسطين وحدد له مسيرة عبر طريق العقبة (أيلة) واتبع يزيد بن أبي سفيان طريق تبوك في وجهته نحو دمشق، أمّا شرحبيل بن حسنة فاتمه عبر تبوك أيضاً إلى الأردن.

وسلك خالد بن الوليد طريقه عبر بلاد الشام أثناء مسيره من العراق إلى بلاد الشام

٥١. نقولا زيادة، «التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب» بلاد الشام في العهد البيزنطي، الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد عصفور، عمان ١٩٨٦، ص ١٠٤ - ١٠٥ وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا، زيادة، «التطور الإداري».

٥٢. المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

٥٣. المرجع السابق، ص ١٢٠.

من قرقيسيا إلى دومة الجندل، ثم تدمر ثم القريتين حتى وصل إلى مشارف دمشق<sup>٥٤</sup>.

وازدادت العناية بالطرق عامة وطريق الحج الشامي خاصة منذ الفتوح الاسلامية لبلاد الشام وحتى نهاية العصر الأموي لأسباب كثيرة منها: أن حركة الفتوح والهجرات القبلية المصاحبة لها كانت بحاجة إلى الاهتمام بالطرق، لتسهيل التنقل من مكان إلى آخر إما للفتح أو للاستقرار، كذلك أدت الحاجة الادارية بعد اتساع رقعة الدولة إلى الاهتمام بالطرق للحفاظ على استمرارية ورود المعلومات من العاصمة (دمشق) إلى الأمصار وبالعكس. فتمرير المعلومات العسكرية والمالية والادارية بحاجة إلى طرق جيدة مأمونة، وقد وصل الأمر إلى أن تكون هناك طرق خاصة بالمصدقين جامعي الزكاة، وبما أن هناك هجرات وحركات جيوش من مراكز الاستقرار وإليها فان الحركة التجارية سوف تنشط حيث يزداد تبادل السلع والبضائع وترتفع مستويات المعيشة نتيجة لزيادة الانتاج ونشاط البيع، كذلك زادت حركة الرحلات العلمية وهذا يتطلب اهتماماً كبيراً بالطرق التجارية. وأما الحج فإنه السبب الذي لا ينازع لحفز الهمم للاهتمام بالطرق، فمكة أصبحت ليس محجاً للعرب في الجزيرة العربية فقط بل هي منذ حركة الفتوح أصبحت محجاً لكل مسلم في أي أرض إسلامية لأن الحج إلى بيت الله الحرام في مكة هو الركن الخامس من أركان الاسلام، وكذا إتيان المدينة المنورة للسلام على رسول الله ﷺ، وهي اللبنة الأولى في صرح الدولة الاسلامية، فاكسبت بذلك المدينتان صفة القداسة والتبجيل لدى كل مسلم. فأصبحت بذلك زيارتهما واجبة لمن استطاع إلى ذلك سبيلا. من هنا زادت الحركة من الجزيرة العربية وإليها ولا منفذ للقادم إلى الحجاز من الشمال دون المرور ببلاد الشام لذلك زاد الاهتمام بطرق بلاد الشام، طرق تجارة كانت أو طرق حج، ولما صارت دمشق هي العاصمة فقد صار موكب الحج يخرج من دمشق إلى مكة، حيث يعنى ذلك سيادة الخليفة الأموي على الأمور وأنه صاحب الموسم، وكثيراً ما كان خلفاء بني أمية يحجون بأنفسهم لذلك زاد الاهتمام بطرق الحج<sup>٥٥</sup>.

ونجد اهتمام خلفاء بني أمية بالطرق واضحاً من خلال ما تركته لنا الآثار الدالة على ذلك. وقد أفاض سعد الراشد في ذكر اهتمام خلفاء بني أمية في مقاله المذكورة آنفاً<sup>٥٦</sup>.

٥٤. المرجع السابق، ص ١٢٣.

٥٥. صالح درادكة، «طرق الحج الشامي، قراءة في المصادر»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٧م، ص ٤٢٩ - ٤٣١، وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا، «طرق الحج».

٥٦. أنظر هامش رقم ٥٠، كذلك أنظر: كتابه حول «درب زبيدة». Saad A. Al-Rashid, Darb Zubaydah, The Pilgrim Road From Kufa to Mecca, Riyadh University Libraries, Riyadh, 1980, pp. 1-6.

وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا، al-Rashid, Darb Zubaydah.

وكانت هنالك شروط لا بد أن تتوافر في أيّ مركز أو مرحلة من الطريق حتى تكون نموذجية أو صالحة، فأول هذه الشروط توافر الماء العذب في الطريق<sup>٥٧</sup> كأن يكون قرب بحيرة ماء<sup>٥٨</sup>. أو في مسارات الأودية والأنهار للاستفادة من العشب حول مصاب الأنهار ومن المياه<sup>٥٩</sup>، أو قد يكون الطريق يزود بالماء من بئر جمع أو تنقل إليه المياه من مصادر قريبة لاسيما إذا توفرت عوامل أخرى تساعد على إبقاء الموقع موقعاً تجارياً أو ممراً بالرغم من عدم وجود الماء فيه ومثال ذلك منزل القرقر بين مصر والحجاز حيث اكتفي بالماء الزعق غير المستساغ فيه لعدم توفر مصدر عذب أو قريب من الطريق<sup>٦٠</sup> أو تكون ثغراً على بحر<sup>٦١</sup> أو برك مياه مصنوعة<sup>٦٢</sup>.

ويفصل المقدسي<sup>٦٣</sup> عن سفي المنازل بين مصر وويلة فيقول: «والمنازل بين مصر وويلة يسقى لها بالسواقي والغمر، ماء وحشة، وقربة رمل يحفر فيخرج عليهم منه ماء حلو كثير، ويؤبر: آبار حلوة في بقعة حسنة نيرة، والأجولي خزاه الله ماء يتورم من شرب منه وربما قضى نحبه وتجر ماء غير طيب ولا كثير الغدران، والعونيد غديران قريبان ماؤهما كرهيه في وسط الرملة. المحدثه، قناة حلوة قد حدثت بحجارة سود، التّبك غديران أحدهما أحلى من الآخر... الخ».

٥٧. إبن قدامة، نبذ، ص ٢١٩ - ٢٢٠، ابن حوقل، صورة الأرض، ١٦٠ - ١٦٢، ص ١٦٦ - ١٦٧؛ رضا جواد الهاشمي، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية ق ١٩، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٢١، وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا، الهاشمي، تجارة القوافل؛ البكري، جزيرة العرب، ص ٩٦ - ٩٧.

٥٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٤٦ - ١٤٧، ص ١٦٠.

٥٩. الهاشمي، تجارة القوافل، ص ١٩؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١، ٢٥٢، ٢٥٣؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٠ - ٣٥١، ج ٦، ص ٦٥١، «الراشد»، الحجاز وشمال غرب الجزيرة، ٤٧٧.

٦٠. أحمد بن (أبي يعقوب)، اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلام النفيسة، لابن رسته، ليدن، ١٨٩١، ص ٣٤٠ - ٣٤١، وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا: اليعقوبي، البلدان؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

٦١. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٤٠ - ٣٤١؛ الادريسي؛ نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٤٤؛ بنيامين التطيلي، ١١٦٥ - ١١٧٣، رحلة بنيامين التطيلي، تحقيق عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ط ١٩٤٥، ص ١٤١، وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا: رحلة بنيامين التطيلي.

٦٢. الراشد، «الحجاز وشمال غرب الجزيرة»، ص ٤٧٧؛ Al-Rashid, Darb Zubaydah, pp. 187-202.

٦٣. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٥٢ - ٢٥٤.

كذلك يعزز أهمية الموقع ليكون طريقاً للحجاج أو للتجارة طبيعة الموقع من حيث السهولة والصعوبة. مثل دمشق<sup>٦٤</sup>، وحمص<sup>٦٥</sup>، والرملة<sup>٦٦</sup> كانت في مستواه من الأرض، حيث أن الانتقال منها وإليها يكون سهلاً على دواب الحمل خاصة الجمال<sup>٦٧</sup>. وحينما يواجه الطريق مسلك صعب فإن السالكين يضطرون إلى اطالة الطريق لتفادي ذلك العائق كما هي الحال بالنسبة للقادم من مصر إلى الحجاز فإنه لولا اعتراض بحر القلزم لما اضطر للذهاب إلى أيلة متكبداً عناء السفر الطويل في الصحراء، والأمثلة كثيرة على هذه المسألة<sup>(٦٨)</sup>.

ولقرب أماكن العمران من بعضها أهمية في كون موقع معين يُصبح مركزاً تجارياً أو محطة نزول مثل الطريق بين الرملة ومصر<sup>٦٩</sup>. حيث تمر الطريق في القرى والعمران في مسافات أكثرها أربعة وعشرون ميلاً<sup>٧٠</sup>. وهذه مسافة يتمكن المسافر من قطعها في يوم واحد، ويعلل الجزيري سبب استطالة الطرق بأنه ما هو إلا لتجنب العوائق الطبيعية التي تعترض السُّفَّار أو لطلب الأُنس في الطريق أو لأسباب أخرى كقصد الحجاج زيارة المدينة المنورة للسلام على رسول الله ﷺ<sup>٧١</sup>. ومثال آخر على أثر اقتراب المساكن على طول الطريق ما ذكره الأدرسي<sup>٧٢</sup> عن الطريق بين الرقة وحمص، وما ذكره المقدسي<sup>٧٣</sup> عن الطريق بين الرملة قسبة فلسطين ورسايتها. ثم ما ذكره سعد الراشد<sup>٧٤</sup> عن المواقع الأثرية المكتشفة في منطقة الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية.

٦٤. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦١ - ١٦٢.
٦٥. المصدر نفسه، ص ١٦٢، ١٦٣.
٦٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٥.
٦٧. الهاشمي، تجارة القوافل، ص ١٩ - ٢٠.
٦٨. عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الجزيري (ت ٩٧٧ هـ/ ١٥٧٠ م)، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السفلية، القاهرة، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٧٤ م، ص ٤٣٨ - ٤٤١، وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا: الجزيري، درر الفرائد.
٦٩. ابن قدامة، نبد، ص ٢١٩ - ٢٢٠.
٧٠. الميل : يساوي  $\frac{1}{3}$  فرسخ أي حوالي ٢ كم، انظر فالتر هنتس، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمة عن الألمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠ م. ص ٩٤ - ٩٥، وسوف يشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا، هنتس، المكايل.
٧١. الجزيري، درر الفرائد، ص ٤٣٩ - ٤٤٣.
٧٢. الأدرسي، نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٤٩ - ٦٥٠.
٧٣. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٥.
٧٤. الراشد، «الحجاز وشمال غرب الجزيرة»، ص ٤٦٩.

وقد يصبح الموقع مهماً إذا كان يمثل مركزاً دينياً في نفوس الناس كما هي الحال بالنسبة للحرمين الشريفين حيث تزيد من طرق الحج لمدة أيام لمن يمر بالمدينة<sup>٧٥</sup> وكذلك تعريج كثير من الناس على القدس لزيارتها بعد الحج أو قبل الحج<sup>٧٦</sup>.

ولعل الناحية الاقتصادية ليست ببعيدة عن جعل قرية أو مدينة من المدن مركزاً تجارياً تمر به قوافل الحج والتجارة فوجود الأسواق كما هي الحال في منبج حيث يصفها ابن حوقل<sup>٧٧</sup> بأنها كثيرة الأسواق، ويؤيده الإدريسي<sup>٧٨</sup>. وزُغَر التي يصفها القزويني<sup>٧٩</sup> بأنها «أهلها سُودان غلاظ، ماؤها حميم وهوؤها جحيم، إلا أنها البصرة الصغرى والمتجر الرابع» ومعرة النعمان التي ليس فيها عين ولا ماء جار وتغلب عليها الرمال، لكنها ويشاركها في ذلك الحدث ومرعش ذات أسواق<sup>٨٠</sup> وكذلك اكتسبت عسقلان شهرتها من أسواقها لا من أشجارها التي تنعدم فيها<sup>٨١</sup>. والشيء نفسه ينطبق على عرقة وطرابلس الشام<sup>٨٢</sup> وحمص<sup>٨٣</sup> وصُور على البحر المتوسط<sup>٨٤</sup>. وقد يكون لتوفر المنتجات الزراعية في المنطقة أثر في أن تصبح مركزاً تجارياً أو ممراً للحجاج كما هي الحال بالنسبة لبيروت التي يوجد فيها النخيل وقصب السكر والغلات بالإضافة لتجارات البحر<sup>٨٥</sup>. وحمص التي كانت خصبة الأراضي، وشيّر وحماة اللتان كانتا كثيرتا الشجر والزرع والفواكه والخضر<sup>٨٦</sup>. ومدينة منبج التي كانت تزرع الفستق والسمسّم والكروم، وكان زبيبها يباع في حلب<sup>٨٧</sup> وملطية التي اشتهرت بالجوز واللوز والكروم والرمان وسائر الثمار الشتوية والصيفية، ومرعش والحدث اللتان كان لهما

٧٥. الجزيري، درر الفرائد، ص ٤٣٨ - ٤٤٣.

٧٦. ناصر خسرو، (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٤م، ص ٥٥ وسوف يشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: ناصر خسرو، سفرنامه؛ الجزيري، درر الفرائد، ص ٢١٠.

٧٧. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٦.

٧٨. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٥١.

٧٩. زكريا بن محمد بن محمود القزويني، (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د. ت) ص ٩٣، وسوف يشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: القزويني، آثار البلاد.

٨٠. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٥٢.

٨١. المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٥٧.

٨٢. المصدر نفسه، ص ٣٧٢ - ٣٧٤.

٨٣. المصدر نفسه، ص ٣٧٤ - ٣٧٦.

٨٤. رحلة بنيامين التظلي، ص ٩١ - ٩٣.

٨٥. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢.

٨٦. المصدر نفسه، ص ١٦٢ - ١٦٣.

٨٧. المصدر نفسه، ص ١٦٦.

زروع وثمار، والاسكندرونة التي كانت تزرع النخيل والغلات وكان الصنوبر يقطع من الشيات على ساحل البحر المتوسط ، أما عين زربة فكانت أشبه ما تكون بالغور ويزرع فيها النخيل . وهذه كلها من مدن الثغور<sup>٨٨</sup> وكانت ناحية جبال وناحية شرارة في جنوبي بلاد الشام خصبة وفيها كثير من أشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان<sup>٨٩</sup> . وفي وسط بلاد الشام كانت صيدا ذات كروم وفواكه وأشجار<sup>٩٠</sup> وفي دومة الجندل (الجوف) كان الانتاج الزراعي مزدهراً مثل التمر والحبوب<sup>٩١</sup> . والملاحظ على كل المناطق السابقة أنها مواقع تجارية ومراكز مرور للقوافل .

ويضاف إلى الشروط السابقة شرط أساسي إذا انعدم فإنه لا بقاء للمركز ونقصد به توافر الحصون والقلاع والموقع المحمي من العاديات .

فقد حافظت المراكز التي نذكرها تالياً على نفسها كمواقع تجارية ومرورية بسبب ما فيها من حصون وقلاع مثل مدينة صور التي كانت من أحسن الحصون على شط البحر<sup>٩٢</sup> وبيروت التي كان لها حصنها على البحر أيضاً<sup>٩٣</sup> . وانطرسوس على البحر المتوسط ، وكانت بلدتا شيرز وحمّاء حصينتين في ذاتهما<sup>٩٤</sup> . كما كانت حلب محصنة بقلعتها الشهيرة ووصفها ابن حوقل بأنها «على مدرج طريق العراق إلى الثغور»<sup>٩٥</sup> وكذلك كانت خناصر محصنة وهي على سيف الصحراء ضد البادية ولولا حصانيتها لعاث البدو فيها فساداً<sup>٩٦</sup> . وكان لحمص حصنها الخاص بها .<sup>٩٧</sup> وكانت الرقة، وهي من العراق، محصنة بحصن عريض يسير على متنه فارسان<sup>٩٨</sup> . كذلك كانت بعض القلاع الداخلية في بلاد الشام مثل قلعة القلمون<sup>٩٩</sup> . وكانت المراغة حصن عامر على طرف البادية لمنع تقدم البدو إلى العمران . في شمالي بلاد

٨٨ . المصدر نفسه، ص ١٦٦ - ١٦٧؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٥١ .

٨٩ . الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٧ .

٩٠ . المصدر نفسه، ص ٣٧٢ .

٩١ . الراشد، «الحجاز وشمال غرب الجزيرة»، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

٩٢ . ابن حوقل ، صورة الأرض، ص ١٦٠؛ رحلة بنيامين التيطلي، ص ٩١ - ٩٣ .

٩٣ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢ .

٩٤ . المصدر نفسه، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

٩٥ . المصدر نفسه، ص ١٦٣ - ١٦٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

٩٦ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

٩٧ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

٩٨ . المصدر نفسه، ص ١٤١ .

٩٩ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨ .



الشام من جهة سَلَمِيَّة<sup>١٠٠</sup>. ومن المدن المحصنة أيضاً الحَدَث ومَرَعَش<sup>١٠١</sup>. وكانت عَسْقِلان محصنة بسورين<sup>١٠٢</sup>. وهناك بعض الحصون على ساحل البحر المتوسط كحصن المِزْدَاسِيَّة ما حُوْز جُبَيْل<sup>١٠٣</sup>. وطرابُلُس وكان فيها قلعة عالية وريض كبير<sup>١٠٤</sup>.

ويذكر الرَّاشد<sup>١٠٥</sup> أن الآثار المعمارية واللُّقى الأثرية المكتشفة على أجزاء من الطرق التجارية القديمة تدل على الاستمرار في الاتصال الحضاري بين بلاد الشام والجزيرة العربية، ومن هذه الآثار قلعة الفَرَع المبنية بالأحجار البازلتية المنحوتة وهي قلعة رومانية. حيث تدل على أثر القلعة في الحفاظ على المواقع التجارية.

وهناك شرط أخير، وقد يكون نتيجة لكل الشروط السابقة لبقاء المركز التجاري أو المنزل منزلاً متميزاً ويأخذ صفة الاستمرارية وهو وجود المنازل والحمامات والفنادق التي بقدر ما تتوافر فيها الراحة والخدمات بقدر ما يكون المركز قادراً على الاستمرار والبقاء. ومن أشهر المدن التي توافرت فيها المنازل هي: حلب التي يقول عنها ابن حوقل «كان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة، ومحال وعِراضٌ فسيحة»<sup>١٠٦</sup>. ووقفت الأوقاف من الفنادق والدور والحمامات والخانات، فقد وقفت دار ضيافة في بُغراس<sup>١٠٧</sup>، وهذه كلها تجعل الإقامة متاحة في المدينة وبالتالي فإنها تساعد على وجود نوع من النشاط والحركة ويذكر البكري أنه كان في مُعان في جنوبي بلاد الشام حمام وعين عذبة<sup>١٠٨</sup> وكانت الرملة قصبه فلسطين ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة وأطعمة نظيفة، ومنازل فسيحة، ومساجد حسنة، وشوارع واسعة<sup>١٠٩</sup> ويذكر الرَّاشد أن عُمر بن عبد العزيز هو أول من اتخذ دار ضيافة وخانات للمسافرين فبنى الجُحفة على طريق الشام ومَكَّة<sup>١١٠</sup>

١٠٠. الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٤٩ - ٦٥٠.
١٠١. المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٥٢.
١٠٢. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٥٧.
١٠٣. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧٢.
١٠٤. المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧٢ - ٣٧٤.
١٠٥. سعد الراشد، «الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية»، ص ٤٧٦ - ٤٧٧.
١٠٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٣ - ١٦٥.
١٠٧. ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ١٦٧ - ١٦٩.
١٠٨. البكري، جزيرة العرب، ص ٩٦ - ٩٧.
١٠٩. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٥.
١١٠. سعد الراشد، «الحجاز وشمال غرب الجزيرة العربية»، ص ٤٧٣.

## الطرق من بلاد الشام واليهما:

بادئ ذي بدء يتحتم علينا الاقرار بأنه كان هنالك تباين في تسمية المنازل بين الجغرافيين القدامى ولعل ذلك بسبب تغير هذه الطرق عدة مرات في القرن السابع الميلادي، وقبل الخوض في أسباب التغير فاننا سوف نرتب الحديث عن هذه الطرق وفق ما ذكره كتاب الجغرافية التاريخية عند المسلمين. فأول هؤلاء تاريخياً هو أحمد ابن أبي يعقوب اسحق بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧. أو ٢٩٢هـ/٩٠٥م)<sup>١١١</sup> إذا ما أخذنا التاريخ الأول تاريخاً لوفاته. فبعد أن يذكر بغداد وسرّ من رأى لأنها مدينتا الملك<sup>١١٢</sup>. يبدأ اليعقوبي بذكر سائر البلدان والمسافات بينها وقسم العالم إلى أربعة أقسام المشرق والمغرب ومهب الجنوب (القبلة) ومهب الشمال<sup>١١٣</sup>. ثم بدأ بذكر المشرق (جهة الشرق بالنسبة لقاعدتي الملك بغداد وسرّ من رأى) ثم الرّبع القبلي، فبدأ بذكر الكوفة وخططها والمنازل منها وإليها<sup>١١٤</sup>، ثم المدينة الشريفة ومكة المكرمة وأعمالها والطرق إليها<sup>١١٥</sup> ثم يتناول الربع الثالث ربع الشمال.

ويتحدث في الربع الثالث عن الطريق لمن أراد أن يسلك من حلب إلى الثغور وإلى المغرب، فيقول بأنه يخرج من حلب إلى مدينة قنسرين، ثم إلى تلمّس وهو أول عمل جند حمص. ومنها إلى حماة ثم إلى الرّستن، ثم مدينة حمص<sup>١١٦</sup>. ثم من حمص إلى دمشق أربع مراحل الأولى منها جوسية وهي من حمص والثانية قارا وهي أول عمل جند دمشق والثالثة القطيفة، ومنها إلى مدينة دمشق<sup>١١٧</sup>. ولكنه يذكر طريقاً أخرى يسميها طريق البريد يتجه المسافر فيها من جوسية إلى البقاع ثم إلى مدينة بعلبك ثم إلى مدينة الرّمان، ثم إلى مدينة دمشق<sup>١١٨</sup>. ومنها إلى جند الأردن أربع مراحل أولها جاسم من عمل دمشق ثم إلى خسفين من عمل دمشق أيضاً، ثم إلى فيق ذات العقبة ثم إلى مدينة طبرية وهي مدينة الأردن<sup>١١٩</sup>. ثم جند فلسطين ثلاث مراحل ومدينتها القديمة لدّ، ثم نقلت إلى الرملة بعد بنائها<sup>١٢٠</sup>،

١١١. كراتشكوفسكي، ق ١، ص ١٥١ وما بعدها؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج ١، ص ١٦١.

١١٢. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٣٣ - ٢٩٨.

١١٣. المصدر نفسه، ص ٣٩٨ - ٣٠٨.

١١٤. المصدر نفسه، ص ٣٠٨ - ٣١٢.

١١٥. المصدر نفسه، ص ٣١٢ - ٣٢٠.

١١٦. المصدر نفسه، ص ٣٢٣ - ٣٢٥.

١١٧. المصدر نفسه، ص ٣٢٥.

١١٨. المصدر نفسه، ص ٣٢٥.

١١٩. المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

١٢٠. المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

ولا يذكر اليعقوبي المراحل الثلاث، الطريق بين جند الأردن وجند فلسطين. ثم يذكر بعد ذلك أن من أراد أن يسلك من الشام على فلسطين إلى مكة سلك جبلاً خشنة حَزنة حتى يصير إلى أيلة ثم إلى مَدِين ثم يستمر به الطريق مع أهل مِصرَ والمغرب<sup>١٢١</sup>. وهنا يغفل اليعقوبي مرة أخرى أسماء المراحل والأمكنة التي قد يمر المسافر بها.

ويتحدث اليعقوبي عن الطريق بين مصر وبلاد الشام من خلال حديثه عن الطريق لمن يسلك بين فلسطين ومصر فيقول «ومن خرج من فلسطين مغرباً يريد مصر خرج من الرملة إلى مدينة يُينا، ثم إلى مدينة عسقلان وهي على ساحل البحر، ثم إلى مدينة غزة وهي على الساحل أيضاً، ثم إلى رفح وهي آخر أعمال الشام، ثم إلى موضع يقال له الشجرتين، وهي أول حد مصر ثم إلى العريش وهي أول مَسالِح مصر وأعمالها<sup>١٢٢</sup>.»

ويتحدث بعد ذلك عن طريق الحاج المصري من أيلة حيث يقول «وبها يجتمع حاج الشام وحاج مصر والمغرب وحيث بها التجارات الكثيرة ثم يخرج الحاج إلى شرف البُعل ثم إلى مَدِين، ثم يأخذ من أراد الذهاب إلى مكة ساحل البحر إلى موضع يقال له عَيْنونا، ثم يمر في عدة منازل إلى أن يصل مكة، وأما من أراد الذهاب إلى المدينة فيفترق عن طريق مكة من مَدِين إلى منزل يقال له أغراء ثم إلى قالس، ثم يمر في عدة منازل إلى المدينة الشريفة<sup>١٢٣</sup>.»

وأما ابن رُسته (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م)<sup>١٢٤</sup> فقد بدأ حديثه عن الأمصار بالحديث عن مكة وأحوالها والكعبة المشرفة والمسجد الحرام، ثم عن المدينة المنورة والمسجد النبوي الشريف<sup>١٢٥</sup> ثم عجائب البلدان والبحار والأنهار<sup>١٢٦</sup>، ثم يبدأ بذكر الأقاليم السبعة وحدودها ثم تقسيمات كُور بلاد الاسلام وأخبارها وصفات بعض مدنها كبغداد وصنعاء وسبأ ومصر، والاسكندرية والقسطنطينية وملك الروم بها، وبلاد الهند والخَزَر والروسية وغيرها من الأمم<sup>١٢٧</sup>.

١٢١. المصدر نفسه، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

١٢٢. المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

١٢٣. المصدر نفسه، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

١٢٤. كراتشكوفسكي، ص ١٦٤ وما بعدها.

١٢٥. ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٢٤ - ٨٢.

١٢٦. المصدر نفسه، ص ٨٢ - ٩٦.

١٢٧. المصدر نفسه، ص ٩٦ - ١٦٣.

ثم يبدأ بعد ذلك بذكر الطرق من مدينة السلام إلى أقصى خراسان وطرق المشرق<sup>١٢٨</sup> ثم الطرق من بغداد إلى مكة ومنها إلى المدينة المنورة<sup>١٢٩</sup>. ومن الكوفة إلى البصرة ومن البصرة إلى مكة ومن البحرين إلى مكة<sup>١٣٠</sup>. ثم من مصر إلى مكة بحرًا<sup>١٣١</sup>. حيث تمر طريق مصر بأيلة ومنها إلى شرف النمل التي يسميها اليعقوبي شرف البعل، ثم إلى مدين، ثم إلى الأغراء، ثم إلى منزل ثم إلى الكلابة ثم إلى شِعب، ثم إلى بدأ، ثم إلى سَرَحتين، ثم إلى البيضاء ثم إلى وادي القرى ثم عدة منازل تشترك مع قافلة الشام فيها<sup>١٣٢</sup>.

وأما قافلة أهل الشام أو طريق أهل الشام إلى المدينة المنورة، فتبدأ من دمشق إلى منزل ثم إلى منزل آخر ثم إلى ذات المنازل ثم إلى سرغ ثم إلى تبوك، ثم إلى المحدثه، ثم إلى الأقرع. ثم إلى الجنيبة ثم إلى الحجر ثم إلى وادي القرى حيث تلتقي هنا مع طريق أهل مصر ثم إلى الرحبة، ثم إلى ذي المروة، ثم إلى المر، ثم إلى السويداء، ثم إلى ذي خشب، ثم إلى المدينة<sup>١٣٣</sup>.

ثم يتابع ذكر الطرق بعد ذلك من بغداد إلى الأمصار الأخرى وبين الأمصار نفسها. <sup>١٣٤</sup>.

وأما أبو القاسم عبدالله بن أحمد بن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م)<sup>١٣٥</sup> فقد بدأ حديثه عن صفة الأرض وبنية الخلق وقبلة أهل كل بلد، ثم ألقاب الملوك<sup>١٣٦</sup> وقد قسم العالم كما فعل اليعقوبي إلى أربعة أركان المشرق والمغرب، والجري (الشمال) والتمين (الجنوب)، ثم بدأ الحديث عن المشرق<sup>١٣٧</sup>. أما حين حديثه عن المغرب فبدأه بالحديث عن الطريق من بغداد (مدينة السلام كما يُسميها) إلى المغرب والذي يهمننا ذكره هنا هو الطرق منذ أن تدخل في حدود بلاد الشام. وأول هذه الطرق من الرقة إلى دوسر ثم إلى بلس وقد

- ١٢٨ . المصدر نفسه، ص ١٦٤ - ١٧٤ .  
 ١٢٩ . المصدر نفسه، ص ١٧٤ - ١٨٠ .  
 ١٣٠ . المصدر نفسه، ص ١٨٠ - ١٨٢ .  
 ١٣١ . المصدر نفسه، ص ١٨٣ .  
 ١٣٢ . المصدر نفسه، ص ١٨٣ .  
 ١٣٣ . المصدر نفسه، ص ١٨٣ .  
 ١٣٤ . المصدر نفسه، ص ١٨٤ - ١٩١ .  
 ١٣٥ . كراتشكوفسكي، ص ١٥٥ - ١٥٨ .  
 ١٣٦ . ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٤ - ١٨ .  
 ١٣٧ . المصدر نفسه، ص ١٨ - ٧٢ .

عبرت الفرات ثم إلى خُشاف يذكُرها ياقوت خُشاف<sup>١٣٨</sup> ثم إلى النَّاعورة ثم إلى حلب ثم إلى قنسرين وكورها ثم من قنسرين إلى شيزر، ثم إلى حمّة، ثم إلى حمص، ومن حمص إلى جوسية ستة عشر ميلاً<sup>١٣٩</sup>، ثم إلى قارة ثلاثون ميلاً، ثم إلى النبك اثنا عشر ميلاً، ثم إلى القطيفة عشرون ميلاً، ثم إلى دمشق أربعة وعشرون ميلاً<sup>١٤٠</sup>. ثم يذكر بعد ذلك الطريق من دمشق إلى طبرية<sup>١٤١</sup>. ومن دمشق إلى الكُسوة اثنا عشر ميلاً، ثم إلى جاسم أربعة وعشرون ميلاً. ثم إلى فيق أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال<sup>١٤٢</sup> ثم يذكر الطريق بين كورة الأردن كورة فلسطين فمن طبرية إلى اللجون عشرون ميلاً، ثم إلى قلنسوة عشرون ميلاً، ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى بيت المقدس ثمانية عشر ميلاً، ومن بيت المقدس إلى مسجد إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، ثلاثة عشر ميلاً مما يلي القبلة<sup>١٤٣</sup>.

ويذكر ابن خرداذبة طريقاً أخرى من الرملة تتجه إلى الساحل إلى مدينة يافا طولها ثمانية أميال<sup>١٤٤</sup>، كذلك يذكر طريقاً آخر من بيت المقدس باتجاه البحيرة المُنْتِنَة طولها أربعة أميال<sup>١٤٥</sup>.

ثم يكمل ابن خرداذبة ذكر الطرق بين الشام ومصر فيذكر أن الطريق تخرج من الرملة إلى أزدود، اثنا عشر ميلاً، ثم إلى غزّة عشرون ميلاً، ثم إلى رَفَح ستة عشر ميلاً ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلاً في رَمَل<sup>١٤٦</sup> ونلاحظ هنا أن الطريق بين أزدود ورَفَح ساحلية، ثم تتعطف إلى الصّحراء بين رَفَح والعريش كما يذكر ابن خرداذبة «في رمل» ثم يتابع الطريق سيرة إلى الوّاردة من أعمال إلى مصر ثمانية عشر ميلاً...<sup>١٤٧</sup>.

وبعد أن يستكمل الطرق نحو الغرب يعود ابن خرداذبة إلى ذكر الطرق من بغداد

١٣٨. خشاف برية بين، بالس وحلب، ياقوت، مع بلدان، ج ٢، ص ٣٧٠.

١٣٩. الجبل: انظر حاشية رقم (٧٠) من هذا البحث.

١٤٠. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٧٢ - ٧٧.

١٤١. المصدر نفسه، ص ٧٧ - ٧٨.

١٤٢. المصدر نفسه، ص ٧٨.

١٤٣. المصدر نفسه، ص ٧٨ - ٧٩.

١٤٤. المصدر نفسه، ص ٧٩.

١٤٥. المصدر نفسه، ص ٧٩.

١٤٦. المصدر نفسه، ص ٨٠.

١٤٧. المصدر نفسه، ص ٨٠.

باتجاه الشمال نحو الموصل ونصيبين وديار ربيعة وأرزن ثم إلى آمد والرقة ذات اليسار وسنجار وقرقيسيا<sup>١٤٨</sup>.

ويفيض حديثاً عن الطرق من الرقة إلى الثغور التي يعرفها بأنها الثغور الجزرية والثغور هي سلغوس وكيسوم وشمشاط، وملطية وزبطرة والحداث ومرعش وكَمَخ وحِصن منصور وقورس ودلوك ورعبان. وأما المسافات بينها فمن الرقة إلى عين الرومية ستة فراسخ ثم إلى تل عبدا سبعة فراسخ، ثم إلى سروج سبعة فراسخ، ثم إلى المزنية ستة فراسخ ثم إلى سُميساط سبعة فراسخ، ثم إلى حصن منصور ستة فراسخ، ثم إلى ملطية عشرة ثم إلى زبطرة خمسة فراسخ، ثم إلى الحداث أربعة فراسخ، ثم إلى مرعش خمسة فراسخ ثم إلى عمق مرعش والعُمق كل مَرَج حوله جبال، ومن ملطية إلى كَمَخ أربعة فراسخ<sup>١٤٩</sup>. ونلاحظ هنا ذكر أسماء طرق لم تذكر مع الثغور. وأسماء في الثغور لا نجد لها ذكراً في الطرق ويبدو أنه ليس كل ثغرٍ موصل بطريق.

ولم ينس ابن خرداذبة الطرق الداخلية في بلاد الشام فذكر لنا الطرق بين عين التمر إلى بصرى فمن عين التمر إلى الأخدمية ثم إلى الحفية، ثم إلى الخلط، ثم إلى سوى، ثم إلى الأجير، ثم إلى الغربية، ثم إلى بصرى<sup>١٥٠</sup>.

ثم عاد مرة أخرى يحدثنا عن طريق من الجزيرة إلى الساحل الشامي فيذكر الطريق من الرقة إلى دوسر، ثم داقين، ثم إلى جسر منبج ثم منبج، ثم إلى حلب، ثم إلى الأتاب، ثم إلى عمق، ثم إلى أنطاكية، ثم إلى اللاذقية، ثم إلى جبلة، ثم إلى طرابلس الشامية ثم إلى بيروت، ثم إلى صيدا، ثم إلى صور، ثم إلى قدس، ثم إلى قيسارية، ثم إلى أرسوف الشامية، ثم إلى يافا، ثم إلى عسقلان، ثم إلى غزة<sup>١٥١</sup>.

ثم يتناول بالحديث الطريق الراسية من الرقة إلى دمشق مروراً بحمص فيقول: من الرقة إلى الرصافة أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى الزراعة أربعون ميلاً، ثم إلى القسطل ستة وثلاثون ميلاً، ثم إلى سلمية ثلاثون ميلاً، ثم إلى حمص أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى شمسين ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى القطيفة عشرون ميلاً، ثم إلى دمشق أربعة وعشرون ميلاً<sup>١٥٢</sup>.

١٤٨. المصدر نفسه، ص ٩٣ - ٩٦.

١٤٩. المصدر نفسه، ص ٩٧.

١٥٠. المصدر نفسه، ص ٩٧.

١٥١. المصدر نفسه، ص ٩٧ - ٩٨.

١٥٢. المصدر نفسه، ص ٩٨.

ويورد ذكر طريق أخرى إلى دمشق عبر بَعْلَبَك ويسميتها طريق البريد: فيبدأ من حِصص إلى جُوسِيَّة أربع سكك<sup>١٥٣</sup>، ثم إلى بَعْلَبَك ست سكك، ثم إلى دمشق تسع سكك. ثم إلى دير أيوب سبع سكك ثم إلى طبرية ست سكك ثم إلى الرملة تسع سكك ثم إلى الجفار سبع عشرة سكة ثم إلى البادورية في مصر.<sup>١٥٤</sup>

كذلك يذكر لنا طرقاً في جنوبي شرق بلاد الشام بين دمشق والكوفة تبدأ من جهة العراق بالحيرة إلى القُطُطَانَة، ثم إلى البُقعة، ثم إلى الأبيض ثم إلى الحوشي، ثم إلى الجمع، ثم إلى الخطي، ثم إلى الجبة، ثم إلى القلوفي، ثم إلى الأعنك، ثم إلى أذرعات، ثم إلى منزل، ثم إلى دمشق<sup>١٥٥</sup>.

وكما أورد طريقاً للبريد بين دمشق وبعلبك فقد أورد طريقاً أخرى بين حلب والثغور الشامية. وهي من حلب إلى قنسرين سبع سكك، ثم إلى أنطاكية أربع سكك ثم إلى الاسكندرية (لعله يقصد الاسكندرونة) أربع سكك، ثم إلى المصيصة سبع سكك. وجيخان يشقتها، ومن المصيصة إلى أذنة ثلاث سكك ثم إلى طرطوس خمس سكك. وحينما يعود إلى ذكر سكك طريق المغرب يتفق مع ما أورده سابقاً حول السكك من حصص إلى دمشق، لكنه لا يتفق مع تلك التي كانت في الثغور. فكان البريد يبدأ من سر من رأى إلى جبلتا سبع سكك، ثم إلى السن عشر سكك ثم إلى الحديثة تسع سكك، ثم إلى الموصل سبع سكك، ثم إلى بلد أربع سكك، ثم إلى كفر توثا ست سكك، ثم إلى رأس عين عشر سكك، ثم إلى الرقة خمس عشرة سكة ثم إلى النقيرة عشر سكك، ثم إلى منبج خمس سكك، ثم إلى حلب تسع سكك ثم إلى قنسرين ثلاث سكك بينما قال عنها سابقاً سبع سكك، ثم إلى صوري عشر سكك، ثم إلى حماة سكتان، ثم إلى حِصص أربع سكك<sup>١٥٦</sup>.

ثم نراه يؤكد بعد ذلك درب السّلامة والطريق إلى خليج القسطنطينية، فمن طرسوس إلى العُليق اثنا عشر ميلاً، ثم إلى الرّهوة ثم إلى الجوازات اثنا عشر مثلاً، ثم إلى

١٥٣. السكة وجمعها سكك: هي الطريق المسكوكة التي تمر فيها القوافل من بلد إلى آخر، فإذا قيل من بلد كذا إلى بلد كذا، كذا سكة، فإنها يعنون الطريق مثال ذلك أن يقال: من بغداد إلى الموصل خمس سكك يعنون أن القاصد من بغداد إلى الموصل يمكنه أن يأتيها من خمس طرق، وحكي عن بعضهم أن سكك البريد، يراد بها منازل البريد في كل يوم، ويرجع ياقوت المعنى الأول، انظر: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨، ومعناها الذي نريده هنا وهو منازل البريد حيث نص ابن خرداذبة على سكك بين المناطق.

١٥٤. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٨، ١١٧.

١٥٥. المصدر نفسه، ص ٩٩.

١٥٦. المصدر نفسه، ص ٩٩، ص ١١٦ - ١١٧.

الجردقوب سبعة أميال، ثم إلى البذندون التي مات فيها المأمون سبعة أميال ثم يستمر في سرد الطرق حتى يصل إلى القسطنطينية<sup>١٥٧</sup>.

ويتفق ابن خرداذبة مع ابن رُستة في ذكره لمواقع طرق الحج الشامي مع تحريف بسيط فاليعقوبي يذكر أن الحجاج يمرون بعد أيلة على شرف البعل ويقول ابن رسته شرف النمل،<sup>١٥٨</sup> بينما يقول ابن خرداذبة حقل، وكذلك يذكر ابن خرداذبة موقع الرُحبية بعد وادي القرى بينما يذكرها ابن رسته الرحبة<sup>١٥٩</sup>.

وأخيراً يقدم لنا ابن خرداذبة معلومات طريفة عن التجار الروس الذين كانوا يتجرون مع الدولة الإسلامية بطريق البر عبر الأندلس أو من فرنجيه (فرنسه) فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طَنْجَة ثم إلى إفريقية ثم إلى مصر، ثم إلى الرملة، ثم إلى دمشق، ثم إلى الكوفة، ثم إلى بغداد، ثم إلى البصرة ثم الأهواز، وهناك طريق بري آخر عبر جُرجان على ظهور الابل إلى بغداد<sup>١٦٠</sup>.

وأما ابن قدامة، أبو الفرج بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي (ت ٣٢٨هـ/٩٣٧م أو ٣٣٧هـ/٩٤٨م)<sup>١٦١</sup> فإنه يتفق مع ابن رسته في ذكره لمنازل الحاج المصري والحاج الشامي فيما عدا أنه يحذف من طريق دمشق منزلين المنزل الأول والمنزل الثاني. وهو يتفق مع اليعقوبي في اسم المواقع بعد أيلة أنه شرف البَعْل، ويتفق مع ابن خرداذبة حول اسم الرحبية وليس الرحبة كما هي عند ابن رُستة<sup>١٦٢</sup>.

ويتفق ابن قدامة إلى حد ما مع ترتيب ابن خرداذبة فيما عدا المسافة بين المُزنية وسميناط فابن خرداذبة يقول سبعة فراسخ بينما ابن قدامة يقول أنها ستة فراسخ. كذلك يضع ابن قدامة كَمَخ قبل زِبْطرة في حين يضعها ابن خرداذبة في آخر قائمته، وبينما يبعدها ابن خرداذبة خمسة أميال عن ملطية نجدها عند ابن قدامة قد خرجت من السياق. وكذلك أهمل ابن قدامة ذكر عمق مرعش<sup>١٦٣</sup>.

١٥٧. المصدر نفسه، ص ١٠٠ - ١٠٢، ١١٠ انظر: هامش ١٢٣، وهامش ١٣٢.

١٥٨. انظر: هامش ١٣٣.

١٥٩. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٤ - ١٥٥.

١٦٠. المصدر نفسه، ص ١٥٤.

١٦١. كراتشكوفسكي، ص ١٦٥ - ١٦٦.

١٦٢. ابن قدامة، نبذ، ص ١٩٠ - ١٩١.

١٦٣. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٧؛ ابن قدامة، نبذ، ص ٢١٦.



ويقدم ابن قدامة الطريق من الرصافة إلى دمشق بشكل يدل على دقة في الوصف . وهو يتفق في بعض الأحيان مع ابن خرداذبة ويختلف معه أحياناً أخرى في الأبعاد وذكر المسافات . فالطريق المذكورة أعلاه تظهر لدينا كما يلي : من الرقة إلى الرصافة ثمانية فراسخ كما يقول ابن قدامة ، ولكن ابن خرداذبة يقول أربعة وعشرين ميلاً وهي نفسها إذ الفرسخ يساوي ثلاثة أميال . ثم تتفرع الطريق من الرصافة إلى طريقين : أحدهما صحراوي أو في البرية ووجهته دمشق ، والآخر في العمران ووجهته إلى حمص ، فأما طريق العمران فمن الرصافة إلى الزراعة أربعون ميلاً ومنها إلى قسطل ستة وثلاثون ميلاً ، وقسطل إلى سلمية ثلاثون ميلاً ، ومن سلمية إلى حمص أربعة وعشرون ميلاً ومن حمص إلى شمسين الشعر ثمانية عشر ميلاً . إلى هنا يتفق مع ابن خرداذبة في المسافات لكنه يختلف معه في حذف ال التعريف عند ابن قدامة لكلمة قسطل وزيادة كلمة الشعر على شمسين ثم ينفرد أبو الفرج بذكر وصول الطريق من شمسين إلى قارا حيث المسافة اثنان وعشرون ميلاً ، ومن قارا إلى النّبك اثنا عشر ميلاً ومن النّبك إلى القطيفة عشرون ميلاً ، ومن القطيفة إلى دمشق أربعة وعشرون ميلاً . ويتفق ابن قدامة مع ابن خرداذبة في ذكر القطيفة ودمشق وقارا والنّبك والمسافات بينها<sup>١٦٤</sup> .

وأما الطريق الصحراوي (البرية) من الرصافة إلى دمشق فمن الرصافة إلى الحربة واسمها بظلاميا خمسة وثلاثون ميلاً ومن بظلاميا إلى العذيب أربعة وعشرون ميلاً ومن العذيب إلى نهبيا عشرون ميلاً ومن نهبيا إلى القرينتين عشرون ميلاً ومن القرينتين إلى جرود ستة وثلاثون ميلاً ومن جرود إلى دمشق ثلاثون ميلاً<sup>١٦٥</sup> .

ويذكر ابن قدامة طريقاً آخر يسميه الطريق الأوسط . وهو من سلمية إلى دمشق . حيث يبدأ من سلمية إلى قرعايا ثمانية عشر ميلاً ، ومن قرعايا إلى ماء شريك عشرون ميلاً ، ومن ماء شريك إلى صدد ثمانية عشر ميلاً ، ومن صدد إلى النّبك خمسة وثلاثون ميلاً<sup>١٦٦</sup> .

ويذكر ابن قدامة الطرق من حمص إلى دمشق والأردن وفلسطين فمن حمص إلى جوسية ثلاثة عشر ميلاً ثم إلى إبعاث عشرون ميلاً ثم إلى بعلبك ثلاثة أميال ثم يسرة على جبل يسمى رمى خمسون ميلاً . ونجده يفرع الطريق من بعلبك إلى طبرية على طريق الدراج فمن بعلبك إلى عين الجرجر عشرون ميلاً ، ثم إلى القرعون وهو منزل في بطن الوادي

١٦٤ . ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ٢٦٨ ؛ ابن قدامة ، نبد ، ص ٢١٨ .

١٦٥ . ابن قدامة ، نبد ، ص ٢١٨ .

١٦٦ . المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

خمسـة عشر ميلاً. وأمّا الفرع الثاني من الطريق إلى جبال الأردن من دمشق، فالطريق المستقيم إلى الكسوة اثنا عشر ميلاً، ثم إلى جاسم أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى أفيق أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى طبرية ستة أميال، ثم يفترق هذا الطريق إلى الرملة فرقتين فمن طبرية إلى اللجون على الطريق المستقيم عشرون ميلاً، وأمّا الطريق الآخر إلى بيسان ستة عشر ميلاً، ثم إلى اللجون ثمانية عشر ميلاً، ثم من اللجون إلى قلنسوة على وادي عارا عشرون ميلاً، ثم إلى الرملة أربعة وعشرون ميلاً، ونلاحظ أن ابن قدامة يتفق هنا مع ابن خرداذبة من الكسوة وحتى قلنسوة حيث يزيد بعدها ابن قدامة وادي عارا بين قلنسوة والرملة. وكذلك إبرازه انفراد الطريق ثمانية عشر ميلاً إلى بيسان، وزيادة حرف الهمزة على فيق التي ذكرها ابن خرداذبة بدونها<sup>١٦٧</sup>.

بعد ذلك ينتقل ابن قدامة إلى الحديث عن الطريق بين فلسطين ومصر (بلاد الشام ومصر) فيذكر الطريق الساحلي حيث يتفق مع ابن خرداذبة في المسافات بين الرملة وأزدود وغزة ورّفح لكنه يفصل أن الطريق تسير عشرة أميال بين رّفح والعريش في بساتين وبقيّة الطريق في رمل ثم تستمر بعد العريش أربعة وعشرين ميلاً في رمل (صحراء)، ثم يشير إلى افتراق الطريق بعد العريش إلى طريق الجفار (الرمّل) إلى الورداء وطريق الساحل على البحر من العريش إلى المخلصة إحدى وعشرون ميلاً<sup>١٦٨</sup>.

من ناحية أخرى نلاحظ أن ابن قدامة يختلف مع اليعقوبي في الطريق الساحلي من الرملة إلى أزدود حيث يرى اليعقوبي الانتقال من الرملة إلى مدينة يّينا ثم إلى مدينة عسقلان، ثم إلى غزة<sup>١٦٩</sup>.

أما فيما يتعلق بطريق البريد (السكك) فإن ابن قدامة يتفق إلى حد ما مع ما ذكره ابن خرداذبة لكنه يختلف معه في أنه يذكر وجود سكة واحدة من أول عمل حمص، ثم سبع سكك من سكة المّرج التي تلي قنسرين إلى صوران (بذكرها ابن خرداذبة صوري) ويضيف أن هناك أربع سكك بين حمص والمحمدية من المحمدية إلى بعلبك خمس سكك، ويضيف ابن قدامة تسع سكك بين الرملة وسكة المعينة وسبع عشرة سكة بين سكة المعينة وآخر طريق الجفار (سكة الدارورة). بينما يذكر ابن خرداذبة سبع عشرة سكة فقط بين الرملة والجفار<sup>١٧٠</sup>.

١٦٧. المصدر نفسه، ٢١٩، انظر: الهامشين ١٧٨، ١٧٩.

١٦٨. ابن قدامة، نبذ، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

١٦٩. اليعقوبي، البلدان، ص ١٥٩.

١٧٠. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٩، ١١٦ - ١١٧؛ ابن قدامة، نبذ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

ثم يذكر ابن قدامة عدداً من السكك المتفرعة عن الطريق الرئيس مثل: سكك الطريق العادلة من منبج إلى الثغور الشامية، من حلب إلى قنسرين تسع سكك ثم إلى أنطاكية أربع سكك، ثم إلى اسكندرونة أربع سكك ثم إلى المصيصة سبع سكك ثم إلى أذنة ثلاث سكك، ثم إلى طرسوس خمس سكك، ثم إلى عين زربة سكتان وهناك طريق عادلة أخرى من طبرية إلى صور وهي سبع سكك<sup>١٧١</sup>.

وإذا ما انتقلنا إلى جغرافي آخر هو المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد البشاري (ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م)<sup>١٧٢</sup>. نجده يتحدث في موضوعات مختلفة في شؤون الأقاليم الإسلامية العربية منها والأعجمية، وحينما يتحدث عن هذه الأقاليم يتناول حدود الإقليم وأقسامه الإدارية، ثم يتناول شؤونه الاقتصادية والاجتماعية ومسالكه<sup>١٧٣</sup>. وأما حديثه عن الطرق فهو يذكر ذلك من خلال بيان المسافات التي يحددها أحياناً بالأيام وأحياناً أخرى بالمرحل، أو بالبريد. والملاحظ على الطرق التي يذكرها المقدسي أنه يزيد في عدد المواقع زيادة عما يرد لدى الجغرافيين الآخرين كابن خرداذبة وابن قدامة وغيرها، ويجعل إحدى المدن مركزاً ثم يفرع الطرق منها إلى المناطق الأخرى، ويجعل الطرق تخرج من هذا المركز أو ذاك، ثم يعيدها إلى مركز انطلاقها من جديد من طرق أخرى، ومن خلال المراكز المتفرعة عن المركز الأصلي يفرع الطرق إلى مناطق أخرى، ويبدأ بذلك من حلب شمالاً حتى عسقلان جنوباً، فلو أخذنا دمشق مثلاً على ذلك لوجدناه يذكر الطرق منها إلى طرابلس، أو إلى بيروت. أو إلى صيدا، أو إلى بانياس، أو إلى الحوران أو البثينة، وكذلك من دمشق إلى أقصى الغوطة أو إلى بيت سراً، وكذلك تتفرع الطريق من دمشق إلى الكسوة<sup>١٧٤</sup>، وتنطبق الحالة نفسها على الطرق من بيت المقدس إلى بيت جبريل، إلى مسجد إبراهيم إلى قاووس<sup>١٧٥</sup>. كذلك يذكر المقدسي طريقاً بين بيت المقدس مروراً بأريحا ثم بيت الرام، ثم إلى عَمَّان، ومن عَمَّان إلى مآب أو إلى الزرقاء ثم إلى أذرعان، ثم إلى دمشق<sup>١٧٦</sup>.

وينسجم المقدسي مع نفسه حين يذكر الطرق في بادية العرب، حيث أفرد لها بحثاً

١٧١. ابن قدامة، نبد، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

١٧٢. كراتشكوفسكي، ص ٢٠٨ - ٢١٥.

١٧٣. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٧.

١٧٤. المصدر نفسه، ص ١٩٠ - ١٩١.

١٧٥. المصدر نفسه، ص ١٩٢.

١٧٦. المصدر نفسه، ص ١٩٢.

خاصاً بها. فهو يقول عن طرق هذه البادية «وقد رأينا نحن (المقدسي) أن نفرزها ونفرد صورتها لأن أحداً من أهل الأقاليم الثلاثة عشر لا طريق له إلى مكة في البر إلا فيها، ولا غنى له عن معرفتها، وأيضاً فإن فيها مناهج لا تعرف ومياهاً قد تجهل، وفي ذكرها فوائد لا تحصى وأجر وحسبة لا تخفى، وقد سافرت فيها غير مرة، ومسحتها يمناً وشاماً، وشرقاً وغرباً، وتفحصت عن طرقها وسألت عن مياها وتبحرت في معرفتها، حتى حزت الكثير من أسبابها وعرفت معظم طرقها<sup>١٧٧</sup>.

وبهنا أن نذكر في هذا المقام: طريق الرملة التي تأخذ من السُّكرية إلى التُّليل مرحلتين، ثم إلى العَمَر مرحلتين، ثم إلى ويلة مرحلتين. وأما طريق الشراة فإن من صُغَر إلى ويلة أربع مراحل، وهاتان الطريقتان وإن كانتا في الشام فإن السلوك اليهما في بادية وحشة، وتَمَسُّ هذه البادية المذكورة، وطريق تبوك تأخذ من عَمَّان إلى مَعَانَ منهلين ثم إلى تبوك مثلهما، ثم إلى تيماء أربعاً، ثم إلى وادي القرى أربعاً. وهناك طريق آخر من وُبير: تأخذ من عَمَّان إلى وُبير ثلاث مناهل، ثم إلى الأجوَلِي أربع مراحل، ثم إلى نَجْر منهلين، ثم إلى تيماء ثلاث مناهل. وهناك طريق تدعى ببطن السُّر تأخذ من عمان إلى العونيد منهلين، ثم إلى المحدثة نصف نهار، ثم إلى النُبْك مثله، ثم إلى ماء نهاراً، ثم إلى الجربى نهاراً، ثم إلى عرفجا نهاراً ونصفاً، ثم إلى مَحْرِي ثلاثاً، ثم إلى تيماء أربعاً<sup>١٧٨</sup>. ويعلق المقدسي على نصه السابق بأنه «طرق العرب إلى مكة، وفيها كان بريد بني أمية، وإياها سلكت جيوش العُمَريين وقت فتح الشام، وهن قريبات آمنا، أصحابها بنو كلب، ويصحبهم كثير من أهل الشام يجتمعون في عَمَّان. وقد سلكتها غير مرة»<sup>١٧٩</sup>.

ويذكر المقدسي عند حديثه عن طرق العراق بأن الطريق القادم من الكوفة يمر بالأزرق ثم بعد يوم من المسير يمر بعَمَّان<sup>١٨٠</sup>.

نلاحظ على طرق المقدسي المذكورة أنفاً في بادية العرب أنها تنطلق أو تمر من عَمَّان، ثم تلتقي كلها مرة أخرى في تيماء، وأن تحديد المسافات كان بالأيام، أو بعدد موارد الماء (المناهل، والمراحل) كذلك نلاحظ أنها كانت طرق الفتح، وأن بني كلب كانوا المتحكمين بها.

١٧٧. المصدر نفسه، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

١٧٨. المصدر نفسه، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

١٧٩. المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

١٨٠. المصدر نفسه، ص ٢٥١.

وأما محمد بن علي بن حوقل النصيبي (٣٦٧هـ/٩٧٧م)<sup>١٨١</sup> فيقول عن منهجه أنه فصل بلاد الاسلام إقليمياً إقليمياً وصقماً صقماً، وكورة كورة لكل عمل وبين فيها الجبال والرمال (الصحارى) والطرق<sup>١٨٢</sup>.

يختلف ابن حوقل مع ابن خرداذبة بعض الشيء في ذكره للطرق بين الرملة والفسطاط فيزيد مرور الطريق إلى أبني نصف مرحلة، ولا يفرعها كما فعل ابن خرداذبة، ويذكر المسافات بالمراحل بينما يذكرها ابن خرداذبة بالأميال<sup>١٨٣</sup> وكذلك فإنه يختلف مع سابق ابن خرداذبة (اليعقوبي) حيث يذكر أن الطريق تمر من الرملة إلى مدينة يقال لهايبينا وهذا قريب في اللفظ والشكل من أبني، ثم إلى عسقلان، ثم إلى غزة<sup>١٨٤</sup>، ويختلف ابن قدامة أيضاً في ذكر هذه الطريق<sup>١٨٥</sup>.

ويصف ابن حوقل طريقاً عرضياً في شمالي بلاد الشام (الثغور) بين طرسوس على البحر غرباً والفرات شرقاً، فيذكر من جسر منبج إلى منبج ثم إلى قورس في حد قنسرين، ثم على العواصم في حد أنطاكية، ثم يقطع جبل اللكام إلى بيّاس، ثم إلى التينات، ثم إلى المثقب ثم إلى المصيصة ثم أذنة ثم إلى طرسوس وهذا هو الطريق المستقيم، وهناك طريق أخرى من بلس إلى حلب إلى أنطاكية<sup>١٨٦</sup>. وينفرد ابن حوقل بذكر تلك الطريق على هذا الشكل.

ويذكر لنا ابن حوقل المسافات الداخلية بين مدن الثغور<sup>١٨٧</sup> ولكنه لا يختلف كثيراً عن سابقه في كثير من الأحيان إلا في ترتيب مخارج هذه الطرق واتجاهاتها.

ويلاحظ أن ابن حوقل أهمل ذكر طرق الحج بين بلاد الشام والحجاز، وبين مصر والحجاز.

وأما الجغرافي الآخر ذائع الصيت أبو عبدالله محمد بن محمد الادريسي (ت ٤٩٣هـ/١١٠٠م) فقد صرفت النظر عن تفصيلاته في ذكر الطرق لأنه لم يعاين هذه

١٨١. كراتشكوفسكي، ص ٢٠٠ - ٢٠٤.

١٨٢. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥ - ١٦.

١٨٣. المصدر نفسه، ص ١٣٥ - ١٣٦.

١٨٤. انظر: هامش رقم ١٢٢.

١٨٥. انظر: هامش رقم ١٦٩.

١٨٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٠ - ١٧١.

١٨٧. المصدر نفسه، ص ١٧١ - ١٧٢.

الطرق باهتمام كبير، واعتمد فيها فقط على ما كتب عنها، وقد قال عنه كراتشكوفسكي «وأهم الأقسام بالطبع هي تلك التي أفردتها لأفريقيا الشمالية وإسبانيا وصقلية، ونواحي إيطاليا الأخرى، لأنها تعتمد قبل كل شيء، وذلك خلافاً للأقسام الأخرى، على الملاحظة الشخصية للمؤلف»<sup>١٨٨</sup>، ويقول كذلك «فاذا ما انتقلنا إلى الأقطار غير الأوروبية فإن الادريسي لم يكن يعرفها معرفة مباشرة باستثناء إفريقيا الشمالية. . . ويجب الاعتراف بأن مادته في هذا الصدد ليست بذات قيمة تذكر، بل إن الكثرة الغالبة من البحاث لا تعترف لها بأية قيمة إطلاقاً»<sup>١٨٩</sup>.

ولا تقل معلومات ناصر خسرو (٤٨١هـ/١٠٨٨م)<sup>١٩٠</sup> حول الطرق قيمة عن تلك التي قدمها الجغرافيون المسلمون، بل لعلها تزيد عنها قيمة في بعض الأحيان لأنه يصف ما شاهده أو ما عاناه بنفسه، ويعطينا تفصيلات عن الطرق وما فيها من علامات لا يجد الجغرافي نفسه حَفلاً بها لأن غرض الجغرافي أن يذكر أحوال الأقاليم عامة، بينما الرحالة وهو هنا ناصر خسرو حَفَلٌ بذكر طريقه فقط أكثر من أي صَفْعٍ آخر.

وإذا أخذنا مثلاً على الطرق التي يذكرها ناصر خسرو فإننا نجد أنه يتحدث عن الطريق من حلب إلى حَمَا (حمّاة) جنوبي حلب بعشرين فرسخاً حيث يقول: «وفي الحادي عشر من رجب سنة ٤٣٨هـ/١١ يناير ١٠٤٧م، خرجنا من حلب وعلى مسافة ثلاثة فراسخ منها قرية تسمى جُندِ قَسْرين، وفي اليوم التالي سرنا ستة فراسخ، وبلغنا مدينة سَرَمين التي لا سُور لها، وبعد مسيرة ستة فراسخ أخرى بلغنا مَعْرَةَ النعمان وهي مدينة عامرة، ولها سور مبني، وكانت أسواقها وافرة العمران وزراعة الناس الرئيسة القمح، وفيها شجر التين والزيتون. . . . وسرنا إلى كُويّات، ومنها إلى حَمَا (حمّاة)، وهي مدينة جميلة على شاطئ العاصبي، ومن حَمَا طريقان أحدهما بجانب الساحل غرب الشام والآخر في الجنوب، وهو ينتهي إلى دمشق»<sup>١٩١</sup>. ومن خلال النص السابق نجده ينفرد بذكر سَرَمين ومَعْرَةَ النعمان في طرق القوافل، وكذلك ينفرد بمعلوماته عن المناطق التي مر بها، كذلك يلاحظ على حديثه عن الطرق، أنه يقيس المسافة أحياناً بين المنطقة التي يعدها مهمة وبين مبدأ رحلته «ومن بلخ إليها - إلى بيت المقدس - ستة وسبعون وثمانمائة فرسخ»<sup>١٩٢</sup> وبين حلب

١٨٨. كراتشكوفسكي، ق ١، ص ٢٨٥.

١٨٩. المرجع نفسه، ص ٢٨٧.

١٩٠. كراتشكوفسكي، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

١٩١. ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥ - ٤٧.

١٩٢. المصدر نفسه، ص ٥٥.

ومياً فارقين مئة فرسخ. ١٩٣

وأفادنا بمعلومة اقتصادية هامة حينما ذكر أن في حلب مركزاً لتحصيل المكوس ممن يعبر من بلاد الشام، والروم، وديار بكر، ومصر والعراق، ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد<sup>١٩٤</sup>.

وفي ختام هذا الموضوع يحسن بنا الألماع إلى أن موقع الطريق كان له أثره على الناحيتين السياسية والعلمية، ويكفي أن نعطي مثلاً على ذلك وهو اختيار البيت العباسي لموقع الحميمة جنوبي الأردن الحالي مركزاً لدعوتهم لتولي الخلافة، وفي أواخر عهد الدعوة أقام في الحميمة عدد من زعمائهم بل ولد بعضهم فيها وأصبح لهم شأن فيما بعد، ومن هؤلاء، أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي ولد سنة (١٠٨هـ/٧٢٦م)<sup>١٩٥</sup> والخليفة المهدي الذي ولد سنة (١٢١هـ/٧٣٨م)<sup>١٩٦</sup> ومحمد بن سليمان بن علي الذي ولد سنة (١٢٢هـ/٧٣٩م)<sup>١٩٧</sup> وأبو جعفر المنصور الذي أقام فيها إلى فترة متأخرة من مراحل الدعوة العباسية<sup>١٩٨</sup>.

وقد كان لموقع الطريق أثراً أيضاً على نشر العلم ونكتفي في هذا المقام بذكر قول المقدسي في معرض حديثه عن قراءة عبدالله بن عامر والرد على الطاعنين فيه، الذي يفيدنا في التذليل على صحة ما ذهبنا إليه: أن أهل عانة كانوا يقرؤون بقراءة عبدالله بن عامر وأن قاضي البلد، طلب إليه أن يؤمهم العشائين فأمرهم على قراءة ابن عامر، لأسباب كثيرة منها: أنها أخذت مباشرة عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ورد على من قال بأن عامر مجهول وقراءته غير مشهورة بأنه لو كان ابن عامر بالحجاز أو بالعراق ما جهل، ولا شذت قراءته، لكنه كان بمصر متطرفاً، قل الواردون عليه والناقلون عنه. ويقول كان الأوزاعي إماماً من أئمة الفقه. وقد بطل مذهبه لبعده عن مكان الواردين، فلو كانا على سابلة الحج، لتشر مذهبهما إلى الشرق والغرب<sup>١٩٩</sup>.

١٩٣. المصدر نفسه، ص ٤٤ - ٤٥.

١٩٤. المصدر نفسه، ص ٤٤ - ٤٥.

١٩٥. خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط رواية بقي بن مخلد، ق ٢، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٦٢٩، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا، تاريخ خليفة ابن خياط.

١٩٦. المصدر نفسه، ٦٩٣.

١٩٧. المصدر نفسه، ٥٢٥ - ٥٢٧.

١٩٨. المصدر نفسه، ص ٦٦٧.

١٩٩. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٢ - ١٤٤.

### الطرق المائية في بلاد الشام وحوها :

ظهرت هناك نشاطات تجارية بحرية في بلاد الشام، حيث نخرت سفن التجار موانئ بلاد الشام في البحر المتوسط، ونفذ تجار الشام كذلك إلى موانئ البحر الأحمر. فكان التجار اليهود يركبون من فرنجة (فرنسة) في البحر الغربي (المتوسط) فيخرجون بالفرما، ثم يحملون تجارتهم على الدواب إلى مرافئ الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، ثم يعودون الطريق ذاتها<sup>٢٠٠</sup>، وهناك طريق آخر عبر المتوسط يتجه إلى القسطنطينية من ناحية وإلى أنطاكية من ناحية أخرى، ثم يسير التجار على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية، ثم يركبون الفرات إلى بغداد، ثم إلى دجلة (شط العرب) إلى (الأبلة)، ومنها إلى عُمان والسند والهند والصين<sup>٢٠١</sup>.

ومن موانئ بلاد الشام النشطة ميناء صور الذي كان فيه بعض الهنود الذين يملكون السفن<sup>٢٠٢</sup>. وميناء بيروت فُرصة دمشق على البحر المتوسط، ومرابط أهل دمشق للجهاد في البحر<sup>٢٠٣</sup>، ويصف ابن حوقل الحركة التجارية في هذا الميناء «وتجارات البحر عليها دارة، واردة وصادرة»<sup>٢٠٤</sup>، وكانت انطرسوس ثغراً لأهل حمص<sup>٢٠٥</sup>، وهناك ثغر عكا وهو مرفأً جيد محكم<sup>٢٠٦</sup>. وميناء الاسكندرونة والتينات<sup>٢٠٧</sup>.

ويذكر ناصر خسرو<sup>٢٠٨</sup> أن المكوس كانت تحصل في طرابلس من السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب، ويدفع العشر فيها للسلطان، بل وكان للسلطان سفن تسافر إلى بلاد الشام، وصقلية للمغرب للتجارة، وسكان طرابلس كلهم شيعة، إن هذه المعلومات تفيدنا أن خطأً بحرياً منتظماً كان يصل بين طرابلس والمناطق المذكورة آنفاً، ويفترض أن يكون معظم العاملين على السفن في هذا الميناء من الشيعة لأن أهل البلد كلهم من الشيعة.

٢٠٠. ابن خرداذبة، ص ١٥٣ - ١٥٤.

٢٠١. المصدر نفسه، ص ١٥٤.

٢٠٢. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠؛ رحلة بنيامين التليلي، ص ٩١ - ٩٣.

٢٠٣. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦١ - ١٦٢.

٢٠٤. المصدر نفسه، ص ١٦٢.

٢٠٥. المصدر نفسه، ص ١٦٢ - ١٦٣.

٢٠٦. الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٤٥.

٢٠٧. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٠؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٦، ص ٦٤٥.

٢٠٨. ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٧ - ٤٨.



ويقدم لنا ناصر خسرو وصفاً جيداً عن مفهوم الميناء فيقول: «والميناء اسم يطلق على الجهة التي بُنيت للمحافظة على السفن، وهي تشبه «الاسطبل» وظهرها ناحية الميناء، وحائطاها داخلان في البحر، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً، وقد سُدت السلاسل بين الحائطين، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء»<sup>٢٠٩</sup>.

ويشير القزويني<sup>٢١٠</sup> إلى أن الفرنج كانوا يحملون بضائعهم ومنها الفلفل في بحر الشام إلى أقصى المغرب.

وترد إشارة تفيد بوجود خط بحري بين بلاد الشام والحجاز حين الحديث عن أمر المهدي سنة ٢٦١هـ - ٨٧٤م باحضار أساطين الرخام لتبليط الكعبة المشرفة - حيث نقلت بحراً من الشام ومصر ونزلت بجدة ثم حملت على العَجَل إلى مكة<sup>٢١١</sup>.

ويعزز الادريسي<sup>٢١٢</sup> الاشارات السابقة حين يذكر وجود مجريين بين قبرص وطرابلس الشام، ومجرى ونصف بين قبرص وجبلة. كذلك يعلق على الطرق في البحر الأحمر بأنه لا يدخلها إلا الربابنة وأولو المعرفة بالبحر، ويذكر أن السير في البحر بالنهار فقط. وأما بالليل فلا يسير أحد فيه لصعوبة طرقه وتعاريج مسالكه، وكثرة معاطبه.

ومن ناحية أخرى فإنه يذكر أن السفن كانت تنشأ في مدينة القَلْزُوم<sup>٢١٣</sup> وهذا دليل على كثافة السير في هذا الخط الذي يصل في النهاية إلى عدن في الجنوب. ويعزز هذا الاستنتاج الاشارات التي أوردها عن وجود عدد من المراسي على هذا البحر (الأحمر) مثل شرم البنت، وشم البئر، ورأس أبي محمد، وهذه المراسي عديمة الماء العذب، ثم هناك مراسي العونيد، ومرسي ظبا، ومرسي وادي الصفراء ومرسي القويعة، وهذه ذات ماء قليل<sup>٢١٤</sup>.

٢٠٩. المصدر نفسه، ص ٥٠ - ٥١.

٢١٠. القزويني، آثار البلاد، ص ١٢٣.

٢١١. الجزيري، درر الفرائد، ص ٢١٦.

٢١٢. الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٤٨.

٢١٣. المصدر نفسه، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

٢١٤. المصدر نفسه، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

## أديان التجار وأصولهم :

ذكرنا وجود تجار كانوا يجوبون البحر المتوسط، وكذلك أن سكان طرابلس الشام كانوا من الشيعة، ونضيف إليهم ورود عدد من التجار الروس من جنس الصقالبة، حيث كانوا يخرجون من الأندلس أو من فرنجة إلى أن يصلوا إلى دمشق ومنها إلى بغداد<sup>٢١٥</sup>.

وكان التجار، يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية، والأندلسية، والصقلبية، وكانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب براً وبحراً<sup>٢١٦</sup>.

## مواد التجارة:

أهمها العنبر والعُود والمِسْك من السُّند والهند والصين<sup>٢١٧</sup>. والكافور والدارصيني<sup>٢١٨</sup>. والرُّخام<sup>٢١٩</sup> والفلفل<sup>٢٢٠</sup>. وكان التجار اليهود يجلبون من المغرب، الخدم والجواري والغلمان، والديباج، وجلود الحَزَّ والفراء والسُّمور والسيوف<sup>٢٢١</sup>. والصابون الجيد - والزيت والزيتون<sup>٢٢٢</sup> والزبيب والحوز والفستق واللوز، والكروم، والرِّمان والأقمشة<sup>٢٢٣</sup> والقمح والتين والقطن<sup>٢٢٤</sup>. ويقدم المقدسي<sup>٢٢٥</sup> أنواع المواد التي يتجر بها في بلاد الشام بشكل مفصل كما يلي: «والتجارات به (الشام) مفيدة، يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم، والصابون والغوط، ومن بيت المقدس الجبن والقطن، وزبيب العينوني، والدُّوري غاية، والتفاح، وقضم قريش الذي لا نظير له، والمرابا، وقدر القناديل، والأبر، ومن أرمحا نيل غاية، ومن صُغر ويسان النيل والتمور. ومن عمَّان الحبوب والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق المطارح، والكاغِد والبَزَّ، ومن قَدس ثياب المنيرة

٢١٥. ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٤ - ١٥٥.

٢١٦. المصدر نفسه، ص ١٥٣.

٢١٧. ابن خرداذبة، المسالك، ص ٦١.

٢١٨. المصدر نفسه، ص ١٥٣ - ١٥٤.

٢١٩. النهرواني، ص ١٠١؛ الجزيري، درر الفرائد، ص ٢١٦.

٢٢٠. القزويني، آثار البلاد، ص ١٢٣.

٢٢١. ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٣.

٢٢٢. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١.

٢٢٣. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٥ - ١٦٧؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥ - ٤٧.

٢٢٤. ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥ - ٤٧.

٢٢٥. أحسن التقاسيم، ص ١٨٠ - ١٨١، كذلك أنظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٥ - ١٦٧؛ ناصر

خسرو، سفرنامه، ص ٤٥ - ٤٧؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ج ٥، ص ٣٥٧، ٣٧٢ - ٣٧٤، ج ٦،

٦٤٥، ٦٥٢.

والبليسيّة والحِبال، ومن صور السكر، والخرز، والزجاج المخروط، والمعمولات، ومن مآب قلوب اللوز، ومن بيسان الرز، ومن دمشق المعصور والبليسيّ وديباج، ودُهْن بنفيسج دون، والصفريّات، والكاغد، والجوز، والقطين، والزيب ومن حلب، القطن والثياب، والأشنان، والمُغرة، ومن بعلبك المّلابن».

### مخاطر الطرق

يذكر ابن حوقل<sup>٢٢٦</sup> أن الخناصر - حصن مجاذي قنسرين إلى ناحية البادية وعلى شفيرها وسيفها، كان في وقته مغنياً للمجتازين عليها، لأن الطريق انقطعت في داخل الشام على التجار لاعتراض الولاة سيبلهم من ناحية وضعف هؤلاء الولاة أحياناً عن رد الروم وحماية الطرق من ناحية أخرى، بل يذكر ابن حوقل تعاون الولاة مع الأعراب الذين أصبحوا خفراً وأدلاء على الطرق. ويذكر ابن القلانسي<sup>٢٢٧</sup> أن أمير مكة أرسل أشقياء الأعراب ورجاله خلف الحجاج حين غضب على الحجاج لأنهم لم يدفعوا له ما يرضيه سنة (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) وجمع سيف الدولة علي بن حمدان عند انصرافه عن لقائه صاحب مصر، وقد هلك جميع جنده، المعروف بأبي حصين القاضي، فقبض من التجار الذين كانوا في بالس، ولم يأذن لهم بالرحيل حتى دفعوا أحمال بزّ وأطواف زيت وغير ذلك، مرتين في شهور قليلة<sup>٢٢٨</sup>.

وتعطل حجاج الشام في سنتي (٣٥٦هـ/٩٦٦م)، (٣٥٧هـ/٩٦٧م) بسبب هلاك كثير من الحجاج القادمين من خراسان بالعطش، ولم ينج أحد من الشام ومصر، لخطر الطريق وقطع الأعراب لها<sup>٢٢٩</sup>. وعاث عسكر الفاطميين سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) بدمشق، فلما كان في بعض الأيام خرج قوم من المغاربة يطلبون الطريق فظفروا برفقة قافلة في طريق الحرجلة، قد أقبلت من حوران، فأخذوها، وقتلوا منها ثلاثة نفر، فجاء أهل القتلى وحملوهم وطرحوهم في المسجد الجامع، فكثر الناس عليهم، وبالغوا في المقال، والانكار لأجلهم، وغلقت الأسواق، ومشى الناس بعضهم إلى بعض<sup>٢٣٠</sup>.

٢٢٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٤ - ١٦٥.

٢٢٧. حمزة بن أسد بن علي التميمي ابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، تاريخ دمشق ٣٦٠-٥٥٥ هـ، تحقيق سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢٠٥، وسوف يشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: ابن القلانسي.

٢٢٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٥ - ١٦٦.

٢٢٩. الجزيري، درر الفرائد، ص ٢٤٤.

٢٣٠. ابن القلانسي، ص ١٠ - ١١.

ولكن كان هناك ولاية نهضت همهم لمواجهة الاعتداء على الطرق، وقد زودنا ابن القلانسي ببعض المعلومات حول ذلك. فيقول «وأما دمشق فكان اشتد بها غلاء السعر سنة (٣٧٠هـ/٩٨٠م)، وكان بكجور قد ولي حصص من قبل سعد الدولة أبي المعالي بن سيف الدولة بن حمدان، فواصل إليها الغلة مع العرب بحيث اتصلت مع الأيام، وعمرت الطرقات، وجعل فيها من يخفر سالكيها، وكانت العرب - البدو - قد طمعت في عمل دمشق وأفسدت الغوطة، وكان بها القائد أبو محمود واليها في ضعف، وضمن بكجور أعمال المغاربة، (قارا، وبرود، ومعلولا، والثنية، وصيدنايا والمعرّة وتلفيتا)، وغيرها من ضياع جبل سنير، فحماها من العرب والحرامية، وحسنت حال دمشق بذلك<sup>٢٣١</sup>.

ويشير ابن القلانسي إلى تعطيل الروم زمن ابن الشمشقيق (John I. Izmisces) الذي قدم إلى دمشق متولياً لها بين ٩٦٩ - ٩٧٦م (٣٥٩ - ٣٦٦هـ) فسار في طريق الساحل فنزل على صيدا، ثم انتقل إلى ثغر بيروت ثم توجه إلى جبيل ثم نزل على طرابلس، ثم رحل إلى أنطاكية ولم يصل دمشق<sup>٢٣٢</sup>.

كذلك أشار ناصر خسرو إلى خطر الحرامية والأشرار على الطريق بين عكة والرملة حيث قيل له «أن في الطريق أشراراً يتعرضون لمن يرون من الغرباء وينهبون ما معهم، فأودعت نفقتي في مسجد عكة»<sup>٢٣٣</sup>.

وما سبق نلاحظ أن الاعتداء على الطرق أو تهديدها قد اقترف في عصور الفوضى السياسية في بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين)، على أن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك اعتداء على الطرق فيما سبق فقد حصل ذلك حين خرج الوليد بن طريف سنة (١٣٨هـ/٧٥٥م) أحد بني حبي بن عمرو، ويقال لهم أضراس الكلاب من بني ثعلب، فخرج في شاطئ الفرات في ثلاثين، فلقي رجلاً مسلماً من أهل البصرة ومعه رجل نصراني فقتل المسلم وأخذ ماله وختل عن النصراني، وعات فساراً في منطقة نصيبين<sup>٢٣٤</sup>. وحتى هذه الحادثة فقد حدثت في عصر فوضى سياسية حيث انتقال الدولة من الأمويين إلى العباسيين لم يمض عليها أكثر من ست سنوات.

٢٣١. المصدر نفسه، ص ٤٢، ص ٤٨ - ٥٠.

٢٣٢. المصدر نفسه، ص ٢٧.

٢٣٣. ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥١ - ٥٣.

٢٣٤. تاريخ خليفة بن خياط، ق ٢، ص ٧٢٠ - ٧٢١.

## البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي

على ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة العرب

صالح موسى درادكة\*

تعتبر المنطقة التي اطلق عليها اسم بلاد الشام – سورية ولبنان والاردن وفلسطين – واحدة من أقدم البلدان الحضارية في العالم، وتضيف أعمال البحث والتنقيب الدليل تلو الدليل على عراقة هذه المنطقة، والدور المتميز لها في رفد الحضارات الانسانية. ونظراً لهذه الاهمية فقد تكثفت حولها الدراسات المختلفة.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات المشار اليها، وأهميتها في تغطية جوانب متعددة لحضارة بلاد الشام، فإن دراسة طرق المواصلات والبريد فيها في الفترة الاسلامية، لم تحظ باهتمام الدراسين، مع ان هذه الطرق كانت من أهم الركائز الحضارية في بلاد الشام.

وقد كانت دروب بلاد الشام منذ اقدم العصور حلقة وصل في شبكة المواصلات العالمية، سلكها الناس من مختلف الاصقاع عبر القرون، وتلاقت في هذه المنطقة المسالك القادمة من مختلف الجهات.

ولا تزال بلاد الشام تحتفظ بالكثير من الدلائل التي تقف شاهداً على وجود هذه الطرق وتراكمها منذ اقدم العصور، كهذه الآثار التي خلفتها على الطبيعة، والنصوص الجغرافية التي تحدثت عنها، وكذلك قصص الرحالة والمسافرين<sup>١</sup>... ان النقوش الادومية والنبطية المكتشفة تفيد ان الطريق القديم من (بترا) والمار بمدينة (معان) ووحدات (الجفر) في الاردن الحالي كان مستعملاً على الاقل منذ ايام الفينيقيين<sup>٢</sup>.

\* قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، المملكة الأردنية الهاشمية.

١. انظر: نكيثا اليسيف، «طرق المواصلات في بلاد الشام، ما بين القرنين السادس عشر والعشرين»، ترجمة بدر الدين قاسم الرفاعي، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٩٢٢ هـ - ١٣٥٨ هـ / ١٥١٦ م - ١٩٢٩ م ج ١، جامعة دمشق، ص ص ٢٩١ - ٢٩٧. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليسيف، «طرق المواصلات».

٢. C.P. Grant, The Syrian Desert: Caravans, Travel and Exploration, London, 1937. p. 35.

وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: Grant, The Syrian Desert:

ومن حسن الطالع أننا نملك وثائق عن الدروب والمسالك في العصر العباسي، و يعود الفضل في ذلك الى مجموعة من الجغرافيين والبلدانيين، الذين زدونا بقوائم للطرق والمنازل والمسافات، وقد فتح الجاحظ (٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) للبلدانيين باب التأليف في تقويم البلدان وخصائصها، وشرع لهم هذا المنهج فاقتفوا اثره وقلدوه، وتوسعوا من بعده في معلوماتهم، دون أن يغمطوه حقه، فهذا المقدسي (ت بعد ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) يقول: «وكتاب ابن الفقيه في معنى كتاب الامصار للجاحظ»<sup>٣</sup>.

ومع ذلك ينتقد المقدسي من تقدمه ممن ألف في البلدانيات فيقول: «ولكن من سبقنا الى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها، ولا طلب الفوائد التي أردتها»<sup>٤</sup>.

ومن الاوائل الذين ألفوا في مسالك البلاد الاسلامية ابن خرداذبه (ت ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م) الذي كان رئيس ديوان البريد في اقليم الجبال، وقد اشتمل كتاب «المسالك والممالك» على معلومات تاريخية لها قيمتها العلمية، ولا سيما الطرق بعامة وما يختص بطرق البريد وسككه بخاصة، و يعتبر ابن خرداذبه ثم معاصره قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م) الذي كان عاملا للخراج - من الرواد الذين تخصصوا في الطرق والمسافات وقوائم المنازل والمحطات، و بحكم عملهما في الادارة العباسية، أصبح لمعلوماتهما قيمة خاصة. أما اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) فوصف باسهاب طوبغرافية بغداد، واعتنى ابن رسته (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) على وجه الخصوص بطريق خراسان والطريق الذي يمتد من بغداد جنوبا الى الكوفة والبصرة وشيراز. وهؤلاء الأربعة من جغرافيين القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي. ثم حدث تطور في علم الطرق وظهر في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي الجغرافيون القياسيون الذين أعطونا الابعاد بالميل لكل اقليم على حدة، فعد هذا تقدما كبيرا في حقل الكتابة الجغرافية. ومن مشاهير هؤلاء الاصطخري (نبغ في سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م) وابن حوقل (كتب مؤلفه عام ٣٦٧ هـ / ٨٧٧ م) والمقدسي البشاري (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م) والاول فارسي الموطن يعطينا وصفا حقيقيا مسهبا عن فارس، والثاني لا يضيف اليه بالنسبة لبلاد الشام من حيث المادة الجغرافية. أما المقدسي فتميز عن غيره، لانه كتب جغرافيته بأسلوب خاص يختلف عن سبقه، فجاء كتابه عظيما جمع فيه ملاحظاته الشخصية عن كل ولاية، ووصف الاماكن والاعدادات واحوال السكان وحررفهم. فلعل كتابه اعظم من كل ما صنعه البلدانانيون العرب وأكثرهم اصاله فوصفه للامكنه والاعدادات والطبائع والتجارات والصناعات وتلخيصه لخصائص كل اقليم، يعدان خيرا ما كتب في سلسلة مصنفات العرب في

٣. المقدسي، محمد بن احمد (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٠٦، ص ٥٠. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، احسن التقاسيم.

٤. المصدر السابق، ص ٣.

العصور الوسطى<sup>٥</sup>.

ونحن ندين في موضوعنا للمعلومات التي أوردها المقدسي عن بلاد الشام إذ ان الحديث عن بلاد الشام جاء مختصرا ومبتسرا عند غيره، ذلك أن منبت معظم الجغرافيين الأوائل هو الاقاليم الشرقية من البلاد الإسلامية، فأولوها جل عنايتهم ومروا مرور الكرام على الاقاليم الأخرى. كما أن الثقل السياسي والإداري تحول إلى بغداد والاقاليم الشرقية في العهد العباسي، فاستأثرت بغداد وما حولها باهتمام الجغرافيين أكثر من غيرها كما جرت عليه العادة.

أما المقدسي بحكم أصله ونشأته فقد توسع في الحديث عن إقليم الشام بحكم معرفته به وسياحته فيه، وارتكزت معلوماته التي جمعها بنفسه على ما شاهده بعينه، أو جمعه من الثقات، أو ما أخذه من المصنفات. وحتى يحصل المقدسي على ادق المعلومات، اختلط بجميع طوائف السكان، ومارس مختلف أنواع المهن، وتعرض في كثير من الأحوال إلى المحن والأهوال، وقد جاء وصفه لحاله هذه في مقدمة كتابه<sup>٦</sup>.

ولم يكن هؤلاء هم كل الجغرافيين العرب، فالذين كتبوا عن المسالك والممالك الإسلامية كثر، ومنهم من قام بالرحلات ليجمع معلوماته بنفسه، نذكر منهم المسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) وناصر خسرو (ت بعد ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) وابن جبير (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وأخيرا الرحالة ابن بطوطة (ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م).

وتعتبر التجارة من أسباب حركة المواصلات، وقد نشطت في العصر الأموي في بلاد الشام، وأصبحت دمشق مركزا للثروة والحضارة العربية الإسلامية، وشهدت الفترة العباسية ازدهارا زائدا من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وحتى الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث أعيد النشاط التجاري بين سوريا وبلاد ما بين النهرين<sup>٧</sup>.

وكان لليهود شأنهم في النشاط التجاري العالمي، وكانوا أحيانا يظهرون على سواحل

٥. لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرسيس وكوركيس عواد، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية.

٦. انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٣. وحول هؤلاء الجغرافيين انظر: صالح درادكه، «طرق الحج الشامي في العهد الأموي، قراءة في المصادر»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي، تحرير: محمد عدنان البخيت، عمان ١٩٨٩م، ص ٤٢٧ - ٤٦١.

٧. Grant, The Syrian Desert. p. 65

البحر الابيض المتوسط وفي انطاكية والجابية في بلاد الشام<sup>٨</sup>. ثم يركبون في الفرات الى بغداد. ثم يركبون في دجلة الى «الابلة» ومن الابلة الى عمان والهند والصين، كل ذلك متصل بعضه ببعض<sup>٩</sup>.

لقد اعتاد الباحثون وسم الاسلام بطابع تجارة القوافل منذ القديم، واستمرت هذه الحالة حتى دخلت وسائل النقل الحديثة، فعبدت الطرق، ومدت السكك الحديدية في بلاد الشام، ويعود الفضل في شق هذه الطرق الى مساعدة القوافل القديمة، وترسم اثرها والسير على هديها الخالد<sup>١٠</sup>. كانت القوافل اكثر وسائل التجارة والسفر شيوعاً في القرون الاسلامية الزاهرة، وتشير كميات النقود الاسلامية الكبيرة المكتشفة الى مدى توسع تجارة المسلمين في العالم، فقد عثر على هذه النقود في اماكن متعددة من روسيا وفنلندا والسويد والنرويج هذا بالاضافة الى بعض المكتشفات المتفرقة في الجزر البريطانية وايسلنده وكذلك عثر على مثل هذه النقود في اواسط حوض الفولغا باقليم قازان، الا ان ما عثر عليه في منطقة البلطيق يفوق ما ذكرناه بكثير<sup>١١</sup>.

ولاشك في ان بلاد الشام شاركت في النشاط التجاري في العصر العباسي نظرا لاتساع رقعة البلاد ووحدتها، وارتفاع مستوى المعيشة، ووحدة النقد في البلاد الاسلامية، وشيوع الأمن والاستقرار في سائر الانحاء في الفترة العباسية الاولى بخاصة، بالاضافة الى الاهتمام بالطرق وتمهيدها، وحفر الآبار، وبناء المحطات والاستراحات عليها منذ العهد الاموي وخلال العصر العباسي.

ويمكن للمرء ان يدرك شيئا عن الثروة التي حازها امراء المال في ذلك العصر والسعة التي كانوا فيها من قصة ابن الجصاص الجوهري ببغداد، فقد ظل غنيا موسرا بالرغم من ان المقتدر صادر منه ستة ملايين دينار، وكان اول من عرف من هذه الاسرة التي نبغ فيها بعده

٨. هذا يعني انها ليست المكان المعروف والمشهور في حوران الذي ينسب اليه باب الجابية احد ابواب دمشق، فقد نكر الحميري في الروض المعطار: انها قنسرين وقال بين الجابية ومنبج اربعة فراسخ ومن حلب اليها ستة فراسخ.

الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص ١٥٣.

٩. ابن خردانبة، عبيدالله بن احمد (ت ٣٠٠هـ/٩١٣م)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ١٩٦٧، ص ١٥٣ - ١٥٤. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خردانبة، المسالك والممالك. وانظر: الخرائط الملحقه.

١٠. جي. ا.ج. كرامرز، «الجغرافية والتجارة»، تراث الاسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين باشراف سير توماس، ارنولد تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨، ص ١٢٥ - ١٦٥، ص ١٥٤.

وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: كرامرز، الجغرافية والتجارة.

١١. المرجع السابق، ص ١٥٥.



كبار تجار الجواهر<sup>١٢</sup>.

وقد ذكر الطبري: «انه لما استتبت الخلافة للعباسيين أولوا الطرق أهمية ووضعوا عليها المنائر والأميال والبرك»<sup>١٣</sup>، ثم ان المهدي في سنة ١٦٦ هـ/ ٧٨٢م أمر باقامة البريد بين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مكة واليمن بغالا وابلا ولم يقيم هناك بريد قبل ذلك<sup>١٤</sup>.

وقد ذكر المقدسي السلع التجارية لبلاد الشام في زمنه فقال: «والتجارات به مقيدة: يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم<sup>١٥</sup>، والصابون والقوط<sup>١٦</sup>، ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية، والتفاح وقضم<sup>١٧</sup> قريش الذي لا نظير له، والمرايا وقدور القناديل والابر، ومن أريحا نبل غاية، ومن صغرو بيسان النيل والتمور، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق<sup>١٨</sup> المطارح والكاغد وبز ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال، ومن بيسان الرز، ومن دمشق المعصور والعليعيس وديباج ودهن بنفسج دون الصفريات، والجوز، ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة، ومن بعلبك الملاين.... وأعلم أنه قد اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثون شيئا ولا تجتمع في غيرها، والسبعة الأولى لا توجد الا بها، والسبعة الثانية غريبة في غيرها، والاشنان والعشرون لا تجتمع الا بها وقد يجتمع اكثرها في غيرها<sup>١٩</sup>. وقال ناصر خسرو ان الواحد من اهل بيت المقدس يملك خمسين الف من ٢٠ من زيت الزيتون و يحفظونها في الآبار والأحواض و يصدرونها الى أطراف العالم»<sup>٢٠</sup>.

وكما نشطت التجارة البرية في بلاد الشام، فقد نشطت كذلك التجارة البحرية فقد ذكر

١٢. الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢ م) فوات الوفيات والذيل عليها، ج ٤، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ج ١، ص ٣٧٢.
١٣. الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك المشهور بتاريخ الطبري، ج ١٠، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ج ٨، ص ١٣٦. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.
١٤. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٦٢.
١٥. من الصناعات الغذائية.
١٦. القوط: نوع من النسيج.
١٧. قضم قريش: هو حبوب الصنوبر.
١٨. شقاق المطارح: جنس من الثياب المستطيلة.
١٩. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٠ - ١٨١.
٢٠. المن الشرعي زنة ٢٦٠ درهما في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. انظر: فالتر هنتس، المكابيل والاوزان الاسلامية، ترجمه الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الاردنية ١٩٧٠، ص ٤٦.
٢١. ناصر خسرو، (ت ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م) سفرنامه (رحلة ناصر خسرو) الى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها الى العربية يحي الخشاب، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٢، ص ٥٦.

اليقوبي في اواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ان ميناء طرابلس الشام «عجيب يحتمل الف مركب»<sup>٢٢</sup> وكانت مدينة صور هي الميناء الحربي الاسلامي المواجه لبيزنطة، اذ كان بها دار للصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وكانت حصينة جليظة<sup>٢٣</sup> وأما انطاكية «سلوقية» فكانت في اثناء القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أهم ميناء تجاري في الشام<sup>٢٤</sup>. وذكر ابن خرداذبه أن الخليفة المعتصم حصنها<sup>٢٥</sup>.

وكانت بلاد الشام تزود البلاد الاسلامية الاخرى بالثلج. فقد ذكر العسكري في الاوائل، أن أول من حمل اليه الثلج الحجاج بن يوسف الثقفي<sup>٢٦</sup>. وكانت هجن خاصة تقوم بنقل الثلج الى مصر مستخدمة طرق البريد، كما كان ينقل أيضا بواسطة المراكب من السواحل الشامية<sup>٢٧</sup>.

ويعتبر الحج الى الاماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين من العوامل الهامة المنشطة لحركة المواصلات في العالم الاسلامي بعامة وبلاد الشام بخاصة. ذلك ان هذا العامل يرتبط بالعقيدة الدينية عند المسلمين والنصارى واليهود، فالحج هو ركن من اركان الاسلام الخمسة، وتأديته فرض عين على كل مسلم ومسلمة، كما تحتضن مدينة بيت المقدس مقدسات لا تتابع الديانات السماوية الاخرى الثلاث يحرص الجميع على زيارتها واقامة الشعائر الدينية فيها.

ومع امتداد العالم الاسلامي وتزايد عدد المسلمين، أصبح توافد الحجاج من كل فج الى المدن المقدسة في الحجاز ظاهرة سنوية تتميز بكثافة المسافرين وكبر حجم قوافلهم. وشهدت طرق الحج كذلك حركة واعمارا واهتماما من لدن المسؤولين في الدولة، أو أهل الخير من أثرياء المسلمين، وقد بنيت على طول طرق الحج المحطات وحفرت الآبار والبرك لحفظ المياه، كما وضعت العلامات الدالة على المسافات احيانا بين المحطات. وكان يرافق موسم الحج حركة اقتصادية نشيطة ساهم فيها الحجاج والتجار وسكان المناطق التي تمر فيها

٢٢. اليقوبي، احمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) كتاب البلدان، ملحق بكتاب الاعلاق النفسية لابن رسته، لندن، مطبعة بريل سنة ١٨٩١م، ص ٣٢٧. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليقوبي، البلدان.

٢٣. اليقوبي، بلدان، ص ٣٢٧؛ وانظر كذلك آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده، ط ٤، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٢، ص ٤٣٢. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: آدم متز، الحضارة الاسلامية.

٢٤. آدم متز، الحضارة الاسلامية، م ٢، ص ٤٣٢، ٢٥٥.

٢٥. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٣.

٢٦. العسكري، ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) الاوائل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢١٨. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: العسكري، الاوائل.

٢٧. ابن فضل الله العمري، شهاب الدين احمد (ت ٧٤٩هـ/١٢٤٩م) التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، بيروت، ص ٢٥٧-٢٥٨. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: العمري، التعريف.

الطرق، لهذا نشأت المراكز والمدن في المواقع الهامة من الطريق. ولقد علق آدم متز على الطرق المتجهة صوب مكة بقوله: «وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع انحاء العالم الاسلامي. ولم تكن فريضة الحج وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها امان الطريق أيضا في حماية قوافل الحج الكثيرة، التي كانت تنهال الى هناك من شتى النواحي، فمن ذلك ان كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة (٢٣١هـ/٩٤٢م) الى الشام ومصر، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليها من السلطان، وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البيزنطيين، ففي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م التحق كثير من اهل الشام بقافلة الحج، وقطعوا الطريق الشاسع من الشام الى العراق مارين بمكة، وكان فيهم قاضي طرسوس ومعه مائة وعشرون ألف دينار<sup>٢٨</sup>.

وقد استفادت مدينة بيت المقدس بوجه خاص في بلاد الشام من المزايا الدينية والتاريخية، مما جعلها تأخذ نصيبا من جموع الحجاج، وكان الذين لا يستطيعون الذهاب الى مكة من اهل الولايات الشامية يذهبون الى القدس في موسم الحج، و يقدمون فيها بعض الشعائر، فقد ذكر ناصر خسرو انه في بعض السنين كان يجتمع فيها اكثر من عشرين الف شخص، يقدمون الى بيت المقدس وفيهم من ديار الروم كثير من النصارى واليهود لزيارة كنيسة القيامة والكنيس<sup>٢٩</sup>. ومن الجدير ذكره ان قافلة الحج الشامي كانت ابرز قوافل الحج في العهد الاموي، من حيث حجمها وتنظيمها، ورعاية الدولة لها، وفي العهد العباسي بقيت واحدة من أشهر وأهم القوافل، لذلك كان درب الحج الشامي من أكثر الدروب حيوية ونشاطا.

وهناك علاقه وطيدة بين طرق المواصلات ونظام البريد في العصر العباسي وغيره في بلاد الشام، فمنذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) استفاد العباسيون من انظمة البريد التي كانت معروفة منذ القدم في سوريا وبلاد ما بين النهرين، والتي كان الفرس والرومان قد استخدموها لايصال رسائل الدولة، وزاد اهتمام الرومان بالبريد، وانشأوا له طرقا جديدة في بلاد الشام، بنوا فيها المحطات ووضعوا فيها الحاميات.

وكانت هذه الخدمات في الغالب مرافقة للخدمات العسكرية والتجارية ولم تفصل عنها، وكان اهتمام الرومان والبيزنطيين بالخدمات البريدية مركزا في حواضر بلاد الشام، وقانون ثيودوسيان (Theodosian Code) يحدد وظائفهم<sup>٣٠</sup>.

٢٨. آدم متز، الحضارة الاسلامية، ج٢، ص ٢٥٢؛ وانظر: نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الاسلامية، مكتبة مصر بالقاهرة، ١٣٧٢هـ/٩٥٣، ص ١٠٥. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: سعداوي، نظام البريد.

٢٩. ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٥.

٣٠. Grant, The Syrian Desert, p.235.

ونظراً لتوحيد بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين في الدولة الإسلامية، فقد انتعشت خطوط المواصلات ما بين هذين الاقليمين، وأصبحت الطرق تقطع الصحراء الفاصلة بينهما، ومع هذه الوحدة بدأت الخدمات البريدية الصحراوية مع بداية قيام التنظيمات في الدولة العباسية.

ولم يكن البريد ابتكاراً عربياً، وإنما اقتبس عن الامم السابقة، فهناك من يدعي ان اصل الكلمة مستمد من اللفظة اللاتينية (Veredus) أو اليونانية (beredos) وربما جاءت هذه الكلمة من أصل آشوري (Post horse) وتدل على خدمات البريد والمخابرات في الدولة الإسلامية بما في ذلك الركوبة والساعي ومحطة البريد<sup>٣١</sup>. والبريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً، ومعناه في الاصطلاح، أن تجعل خيل مضمرة في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحاً وهكذا حتى يصل البريد الى المكان المقصود<sup>٣٢</sup>.

وذهب ابن الاعرابي الى ان لفظة البريد فارسية اصلها «بريده دم» وتعني محذوف الذنب لان بغال البريد كانت عند الفرس محذوفة الأذنان كالعلامة لها، فعربت وخففت ثم سمي الرسول الذي يركبها بريداً، والمسافة التي بين السكنين بريداً، والسكة موضع كان يقيم فيه الفيوج المرتبون من بيت اوقبة، أو رباط وكان يرتب في سكة بغال، وفي هذا المعنى جاء قول الشاعر امرئ القيس<sup>٣٣</sup>:

على كل مقصوص الذنابي معاود      بريد السرى بالليل، من خيل بربرا

وكذلك قول مزّود أخي الشماخ بن ضرار يمدح الأوسي:

فدتك عراب اليوم أمي وخالتي      وناقتي الناجي إليك بريدها<sup>٣٤</sup>

ويستفاد من هذا الشعر كما هو واضح ان العرب استخدموا في بريدهم البغال المقصوفة الأذنان والجمال.

واستخدم الجمل (سفينة الصحراء) في البريد والاسفار الصحراوية منذ هذه الفترة، وتابع العباسيين على ذلك المماليك والأتراك العثمانيون كما استفاد الانجليز في العصر

٣١. D. Sourdel, «Barid», E.1<sup>2</sup>, Vol. 1, pp.1045 - 1046.

وانظر: ابن منظور ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م) لسان العرب، ج ١٥، دار صادر، بيروت، ج ٢، مادة «برد» ص ٨٦. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: لسان العرب.

٣٢. انظر: حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط ٤، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٧٠، ص ٢٢٦. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: حسن ابراهيم حسن، النظم الإسلامية.

٣٣. لسان العرب، ج ٢، ٨٦، مادة «برد».

٣٤. المصدر السابق نفسه، ص ٨٧.

الحديث من بريد الجمال (dromedary post) ليكون جسرا بين سوريا والعراق<sup>٣٥</sup>.

وأول من وضع البريد في الاسلام معاوية بن ابي سفيان، أما عبد الملك بن مروان فقد أحكمه ونظمه وأولاه عنايته واهتمامه، فمهد طرقه ومحطاته<sup>٣٦</sup>.

وقد اهتم خلفاء بني العباس منذ البداية بجهاز البريد، فلما ظهر ابو العباس السفاح على الامويين، وجه موسى بن كعب في ثلاثين رجلا على البريد الى عبد الله بن علي<sup>٣٧</sup>. ومنذ عهد الخليفة المنصور تطور نظام البريد، وأصبح البريديون بالإضافة الى أعمالهم المعتادة، عيون الخليفة في الاقاليم والولايات وحيثما وجدوا، على عمال الدولة وموظفيها وكل ما يتعلق بشؤون البلاد، يبعثون بأخبارهم على عجل الى الخليفة بواسطة رؤسائهم<sup>٣٨</sup>. وقد اعتبر المنصور ان الملك لا يقوم الا بأربعة اركان هي: القضاء والشرطة وجهاز بيت المال والبريد الذي جعله أخطرها لانه عينه على العاملين فيها<sup>٣٩</sup>.

كذلك أولى كل من المهدي والرشيد البريد عنايتهما، ووصل البريد في عهد المأمون درجة متقدمة، فقد جيء بالرطب الازاز من العراق وهو في بلاد الروم في يومه الذي طلبه فيه<sup>٤٠</sup>. ورغم اهتمام بني بويه بالبريد بشكل عام الا انهم قطعوه عن الخليفة حتى لا يعلم من الامور شيئا. وقد اهتم المماليك باحياء نظم البريد والعناية بها حتى عادت الى سابق عهدها<sup>٤١</sup>.

و يستنتج من النظام الاداري العباسي ان مؤسسة البريد كانت اكثر مؤسسات الدولة أهمية، وأن بناء الخانات وحفر الآبار على طول الطرق الصحراوية، وكذلك الحفاظ على الامن فيها، مما شجع السفر على هذه الطرق لمختلف الغايات، وقد تحقق الامان على هذه الطرق لدرجة ان المرأة كان بإمكانها السفر على أي طريق من هذه الطرق ماشية أو راكبة. وكان السعاة العاملون في مصلحة البريد يختارون من العرب العسكريين ممن يتمتعون باللياقة

٣٥. Grant, The Syrian Desert, p. 235.

٣٦. انظر: العمري، التعريف، ص ٢٣٩، والقلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ١٤ ج، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ج١٤، ص ٣٦٨. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الاعشى.

٣٧. الطبري، تاريخ، ج٧، ص ٤٣٢.

٣٨. حسن ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص ٢٢٨.

٣٩. المرجع السابق نفسه.

٤٠. العمري، التعريف، ص ٢٤١.

٤١. المصدر نفسه.

الجسدية، والقدرة على الخدمة ليلا ونهارا، بالإضافة الى الذكاء والرشد والبراعة، وقد اعتبر هؤلاء في العصر المملوكي من خير رجال الدولة المقربين من السلطان<sup>٤٢</sup>.

واستخدم العرب وسائل اخرى في مراسلاتهم، منها الحمام الزاجل الذي استخدم اولاً في الموصل ثم استخدمه الفاطميون بمصر وبالغوا في العناية به، حتى جعلوا له ديوانا وألغوا الكتب في انسابه، فقد صنف في الحمام ابو الحسن بن ملاعب الفوارس البغدادي كتابا للناصر لدين الله الخليفة العباسي، كما صنف فيه ايضا الفاضل محي الدين البغدادي بن عبد الظاهر، كتابا سماه: «تمائم الحمام»<sup>٤٣</sup>.

والمراسلة بواسطة الحمام الزاجل عرفت منذ أيام الرومان، واستخدمها القرامطة على نطاق واسع في العراق وسوريا، في القرن الثالث الهجري، والايوبيون في فترة صراعهم مع الصليبيين<sup>٤٤</sup>، وقد ذكر العمري ما يزيد على خمسة وعشرين مركزاً للحمام في الديار الشامية في زمنه<sup>٤٥</sup>.

واستخدم المسلمون في مراسلاتهم ايضا النار والدخان، وكانت تتباشر من على مناظر خاصة اقيمت في المرتفعات ليشرق بعضها على بعض، وفي الغالب كانت هذه المناظر تقع على طرق المواصلات او تقربها. ويستخدم الموكلون بها النار في الليل، والدخان في النهار، وللقائمين عليها رموزهم ومصطلحاتهم التي يفهمونها، واعتبرت هذه الوسيلة اسرع انواع المراسلات<sup>٤٦</sup>.

ومن العوامل التي ساهمت في تنشيط حركة المواصلات ورسم الطرق، حركة الجيوش والمقاتلة باعدادهم الكبيرة، فبلاد الشام منذ اوائل الفتح الاسلامي اصبحت مسرحاً لتحرك الجيوش في مختلف الجهات واستفاد الجند من طرق البريد والطرق الاخرى، كما استخدموا قوافل البريد وسعته كإدلاء نظراً لخبراتهم في معرفة الطرق.

وقبل أن نتحدث عن طرق المواصلات في بلاد الشام لا بد من التعرض لشبكة الطرق القديمة في هذه المنطقة وذكر اشهر خطوطها، لان هذه الخطوط قديمة جداً وبعضها يعتبر امتداداً لطرق تجارة البخور التي استخدمها المكيون في رحلة الشتاء والصيف بين اليمن وبلاد الشام، أو جزءاً من طريق الحرير القادم من الصين والذي كان يمر من ايران عبر سوريا الى البحر الابيض المتوسط.

وقد اعتمد الانباط على التجارة في الدرجة الاولى، لان معظم بلادهم كانت صحراء لا

٤٢. Grant, The Syrian Desert, p. 239.

٤٣. العمري، التعريف، ص ٢٥٤ - ٢٥٥؛ وانظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٤، دمشق، ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٩٠.

٤٤. متز، الحضارة الاسلامية ج ٢، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

٤٥. العمري، التعريف، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

٤٦. انظر: العمري، التعريف، ص ٢٥٦ - ٢٦١. ذكر العمري مجموعة المناظر التي بين دمشق وغزة في عهده.

تصلح للزراعة، لذلك احتلت تجارة القوافل المقام الاول في حياة الانباط، وكان خيرا ما يعين حدود الانباط هي الطرق التجارية، فكانت السلع العربية الجنوبية والهند تصل إما عن الطريق القديم (طريق البخور) الموازي برا للبحر الاحمر، حيث كانت المدينة الحدودية إجرا (Egra) (الحجر)، فيما يبدو، وإما بحرا حيث تنزل السلع في الحوراء (Leuce Come) أو أيلة (العقبة) وكلتاها ميناءان نبطيان، ومن أيلة قد تحمل عبر شبه جزيرة سيناء الى غزة. وان لم تذهب تلك القوافل نحو تلك الوجهة، اتجهت شمالا باتجاه الشرق الى بترا، التي كانت مركزا تجاريا مزدهرا في القرن الرابع قبل الميلاد، وربما كانت بترا تتلقى السلع مباشرة ايضا من القوافل القادمة من الخليج العربي، ومن بترا كانت الطريق تتجه صوب الشمال شرقي البحر الميت، وهذه الطريق تمر أيضا في ارض نبطية حتى حسابان (Esbus) ومن ثم تسلك الطريق المباشرة الى الموانئ الفينيقية خلال ارض رومانية مارة بفيلاذلفيا (عمان) وجرش (Gerasa). وهناك طريق بديلة تتجه شمالا شرقا على طول حافة الصحراء ملتفة حول ارض رومانية الى بصرى (Bostra) وهي مدينة نبطية، وهناك كانت الطريق تتشعب فيؤدي فرع الى الساحل مخلفا المنطقة النبطية عند اذرعاع (درعا الحالية). و يدور الثاني حول جبال حوران من الشرق ويصل في النهاية الى دمشق، وكان هذا الفرع الثاني تحت سيطرة الانباط. ومن بترا كانت تتفرع عدة طرق منها ما يتجه الى غزة فسيناء الى مصر، ومنها ما يتصل بالطريق الملكي الذي يمر بمنطقة البحر الميت. وقد دلت الحفريات التي اجريت في تل الخليفة (عصيون جبر) وايلات، على وجود طريق قديم بين فلسطين و بلاد العرب. ومن الضروري ان نعرف ان الطرق التجارية النبطية المهمة هي تلك التي تصل بترا عبر وادي عربة والنقب الى البحر الابيض المتوسط. ومن بترا تخرج البضائع الثمينة الى سوريا وفلسطين ومصر وأوروبا محمولة برا أو بحرا كما ذكرنا<sup>٤٧</sup>.

ومن المعلوم ان الرومان استولوا على بلاد الشام، وقاموا بتطوير الطرق في انحاء بلاد الشام كافة، وبنوا فيها طرقا جديدة رئيسية، ورفعوا مستواها عما هو محيط بها، وهي معلمة جيدا بالحجارة الميلية (Mile Stones) ورفضوها وجعلوا الخدمات الضرورية على طولها.

كانت شبكة الطرق الرومانية كثيفة في بلاد الشام تربط جميع المدن والمواقع الداخلية والساحلية والصحراوية، لابل اصبحت كل مدينة ملتقى لعدد من الطرق القادمة من مختلف الاتجاهات. ومن ابرز الطرق الرومانية في بلاد الشام الطريق الذي يخترق سوريا من الشمال الى دمشق ثم الى بصرى ودرعا، حيث تخرج فروع من دمشق الى البحر الابيض، وكذلك من درعا الى البحر الابيض غربا، وجنوبا الى جرش ومن بصرى الى عمان ومنها الى مؤاب وبترا

٤٧. انظر: ذلك عند Nelson Glueck, Deities and Dolphins, New York, 1965, pp. 44-69. و أ. هـ. م. جونز، مدن بلاد الشام، ترجمة احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط ١، عمان، الاردن ١٩٨٧، ص ١١٧-١١٨. وسيسار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: جونز، مدن بلاد الشام.

والبحرالاحمر. وكان يطلق عليه طريق تراجان الجديد (Via Nova Traiana) وتتشعب من الخط الرئيسي فروع كثيرة تربط معظم مدن بلاد الشام، ولا تزال معالم هذا الطريق وفروعه واضحة في اجزاء كثيرة من بلاد الشام<sup>٤٨</sup>.

واعتمادا على ما جاء عند جغرافيين العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) نجد ان بلاد الشام في العصر العباسي كانت تحظى بشبكة من الطرق الكثيفة والمنظمة لدرجة تبعث على الاعجاب، وبخاصة في الاجزاء الغربية المكتظة بالسكان. وقد قسم الجغرافيون بلاد الشام عند حديثهم عن دروبها ومسالكها الى كور، بدأوها في الغالب بكور الثغور الشامية والجزيرة، ثم كورة حلب وما يتبعها، وكورة حمص، وكورة دمشق وكورة الاردن، وكورة فلسطين. وقد أوجزهؤلاء الحديث عن الطرق العرضية التي تقطع الصحراء الفاصلة بين اقليمي الشام والعراق. ومن اشهر الطرق في الشمال تلك التي تخرج من منبج الى الثغور الشامية، لتربطها بكل من حلب وقنسرين وانطاكية والاسكندرية على البحر الابيض المتوسط<sup>٤٩</sup>.

وقد أورد كل من ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر اسماء مدن الثغور ومقدار المسافات بين كل مدينة وأخرى وقدروها بالسكك (البرد) <sup>٥٠</sup>، وقد قدرها المقدسي بالايام والمراحل والبرد<sup>٥١</sup>. ويستدل من التقاء الطرق في حلب أن هذه المدينة كانت عقدة المواصلات التي تربط مناطق الثغور وشمال بلاد الشام وجنوبها والبحر الابيض المتوسط<sup>٥٢</sup>، وقد قال الاصلطخي

#### ٤٨. حول الطرق الرومانية انظر:

1. Aharoni(Y), The Roman Roads to Aila, I.E.J., IV, 1954, pp. 1-16.
2. Good Child (E.G.), The Coast Road of Phoenicia and Its Roman Milestones, *Berytus*, IX, 1949, pp. 91-127.
3. S. Mittmann, The Old Roman Road From Gerase to Adraa, *ADAJ*, XI. 1966, pp. 56-88.
4. H.C. Butler, Trajan Road From Basra to the Red Sea, *Ancient Architecture in Syria*, Leyden. 1907. pp. 1.28.
5. C. P. Grant., The Syrian Desert, Caravans, Travel and Exploration, pp. 33-72.

٤٩. قدامة بن جعفر (ت ٢٢٨هـ/٩٢٩م وقيل ٢٢٧ هـ/٩٤٨م) الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر ١٩٨١، ص ١٢٩. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج.

٥٠. ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٩٩؛ قدامة، الخراج، ص ١٢٩.

٥١. احسن التقاسيم، ص ١٩٠.

٥٢. ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ج ٥، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ (مادة حلب).



عنها، انها على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات<sup>٥٣</sup>، ولعل الأبواب السبعة لحلب تشير الى كثرة الطرق المؤدية اليها والخارجة منها، وأسماء هذه الابواب تشير الى ذلك مثل باب حمص، باب الرقة، باب قنسرين، باب اليهود - لعله كان يضيف الى حي اليهود في المدينة - باب العراق، باب دار البطيخ، باب انطاكية، ومن ثم باب الأربعين<sup>٥٤</sup> وقد مر بهذه المدينة الرحالة ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ووصف سورها وقال انه يرتفع خمسة وعشرين ذراعاً، كما وصف قلعتها العظيمة المنيعة، وقال انها مدينة عامرة، وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد<sup>٥٥</sup>. ويلاحظ ان القوافل اتخذت الطرق القديمة ما بين حلب والفرات، وذلك إما باتباع نهر الفرات بالاتجاه الشمالي الغربي الى مسكنه وهي ثباسكوس القديمة (The ancient Thapascus) ثم تتجه غرباً لتعبر الواحات القديمة لمدينة الطيبة (Taiyiba) ثم الى حلب. وتوجد طريق أخرى أبعد شمالاً كانت مستعملة قبل الفترة الرومانية وتصل ما بين أعالي الفرات عابرة الفرات في زيوقما (Zeugma) أو تل الاحمر وتعتبر الى شمال غرب حلب مباشرة الى انطاكية بطريق منبج (Herapolis)<sup>٥٦</sup>. وكان الرشيد أول من أفرد العواصم وجعل مدينتها منبج<sup>٥٧</sup>. وقد اعتبر خسرو هذه المدينة اول مدن الشام<sup>٥٨</sup>، أما الاصطخري فقد ذكر ان قسبة العواصم هي انطاكية<sup>٥٩</sup>.

وتخترق بلاد الشام شبكة من الطرق شمالاً وجنوباً، تعتمد على طريقين دوليين قديمين استخدمهما الانسان منذ اقدم العصور وحتى الآن. وهذان الخطان هما الخط الساحلي الذي يربط الثغور الجزيرية في الشمال وبلاد الروم بالاسكندرية على البحر المتوسط وانطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وقدس وقيسارية ويافا وعسقلان واسدود وغزة، ثم يستمر جنوباً حتى يدخل الاراضي المصرية. وتتفرع من هذا الخط فروع متعددة تصل المدن الداخلية، وتتلقى بالخط الرئيسي الثاني الداخلي الموازي للطريق الساحلي. وأهم هذه الخطوط الفرعية: الخط الذي يصل طرابلس على البحر المتوسط بمدينة بعلبك ثم بدمشق، وكذلك خط آخر يصل طرابلس بمدينة طبرية، حاضرة جند الأردن، ويخرج من طبرية ليرتبط بالخط الساحلي مروراً باللجون والرملة ومن ثم الى غزة حيث يستمر الطريق الى مدينة القسوط في مصر<sup>٦٠</sup>. وهذا الخط - من حيث المبدأ - يحاذي ساحل البحر الابيض المتوسط ما

٥٣. أبو اسحاق ابراهيم بن محمد، «المسالك والممالك» ص ٦١.

٥٤. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥.

٥٥. خسرو، سفرنامه، ص ص ٤٤ - ٥٥.

٥٦. Grant, The Syrian Desert, pp. 40-41.

٥٧. ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٥.

٥٨. خسرو، سفرنامه، ص ٤٤.

٥٩. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٦٧.

٦٠. انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٨؛ وقدامة، الخراج، ص ١١٩.

لم يكن الشاطيء شديد الوعورة فتبعد عنه الطريق. وإذا كانت المنطقة الخلفية مؤلفة من تضاريس عالية متعامدة مع البحر كان لابد من اختراق هذا الحاجز بممرات داخلية. ذلك هو شأن الجبال في شمال هذا الخط كجبال طوروس. وإذا تألف الساحل من كثبان رملية او مستنقعات جانبته الطريق ايضا. ومن هذا الطريق الساحلي تتفرع الخطوط باتجاه الداخل<sup>٦١</sup>. وتعتبر غزة آخر مواقع بلاد الشام على هذا الطريق وكانت متجرا للسلع المختلفة القادمة من جنوب الجزيرة العربية ومن سوريا ومصر<sup>٦٢</sup> وسميت غزة هاشم، لان هاشم بن عبد مناف شيخ قريش وصاحب ايلانها توفي في غزة في احدى رحلاته التجارية ودفن فيها<sup>٦٣</sup>. وقد سلك عمرو بن العاص الطريق الساحلي من المدينة الى فلسطين مرورا بميناء أيلة (العقبة) عندما بعث ابو بكر الجيوش لتحرير بلاد الشام من الروم، وكان يطلق على هذا الطريق اسم «المعركة»<sup>٦٤</sup>. وتذكر الرملة كواحدة من مراكز المواصلات، فقد كانت مدينة فلسطين، على الجادة، فحاج الشام والثغور ينزلونها<sup>٦٥</sup>، وهي همزة وصل ما بين الخطوط الداخلية والساحلية، ومن بين المدن الداخلية الهامة بيت المقدس التي كانت ولا زالت محجا لا تباع الديانات السماوية الثلاث، ونظرا لاهميتها اصبحت عقدة مواصلات بين الداخل والساحل كما تشير الى ذلك ابوابها الثمانية وهي: باب صهيون، باب التيه، باب البلاط، باب جب ارميا، باب سلوان، باب اريحا، باب العمود، وباب محراب داود<sup>٦٦</sup>.

أما الخط الداخلي فيبدأ من الحدود الرومية شمالا ثم يتجه نحو الجنوب، الى منبج وحلب و يتجه فرع آخر الى الرقة، وهذه المدن الثلاث تعتبر مراكز مواصلات، ومن الرقة يسير طريق الى حمص ودمشق على الرصافة، حيث يتفرع الطريق الى فرعين أحدهما الى دمشق في البرية، والاخر يتجه الى حمص في العمران. ومن حمص تتفرع مجموعة طرق الى بعلبك وقارا والنبك ثم الى دمشق. والطريق الذي يمر ببعلبك هو طريق البريد<sup>٦٧</sup>.

٦١. انظر: اليعاقبة، «طرق المواصلات في بلاد الشام»، ص ٢٩٤.  
 ٦٢. انظر: محمود الغول، «غزة في نقوش جنوب جزيرة العرب»، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، ج٢، الجامعة الاردنية، وجامعة اليرموك، ١٩٨٢، ج١، ص ٣٦٧-٣٧٦.  
 ٦٣. انظر: القالي، ابو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) كتاب ذيل الامالي والنوادر، ج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٢٠٤. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: القالي، الامالي.  
 ٦٤. الطبري، تاريخ، ج٢، ص ٢٨٧.  
 ٦٥. ابن الفقيه الهمداني، أبي بكر احمد بن محمود (ت ٣٤٤هـ/٩٤٥م) مختصر كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، ص ١١٦. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، وقارن ياقوت معجم البلدان، ج٢، ص ٦٩.  
 ٦٦. انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٧.  
 ٦٧. انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٨، ٢١٨؛ قدامة، الخراج، ص ١١٧؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٠.

ونظرا لموقع الرقة واتصالها بالعراق عن الطريق الذي يتبع شاطئ الفرات الايمن المتجه نحو الشمال الغربي، فقد اصبحت معلما بارزا في الطريق السورية الصحراوية. ولكن طريق البريد الرئيسي هو الذي يصل الرقة بالطريق الدائري المتجه من الموصل. وكذلك كانت تتجه من الرقة ثلاث طرق بريد نحو الجنوب والغرب وكلها تمر من المدينة البيزنطية القديمة الرصافة، وكان بإمكان ساعي البريد ان يسافرأرأسا من الرصافة الى حمص، أو الى دمشق أو أي مكان آخر بواسطة الطريق الروماني المسمى (ستراتا ديوكليتيانا Strata Diocletiana) سواء الى دمشق أو الى بصرى اسكشام، عن طريق الطيبة، السخنة، وتدمر<sup>٦٨</sup>.

وتعتبر مدينة دمشق قلب شبكة المواصلات في بلاد الشام، ففيها تلتقي الطريق الطولية والعرضية القادمة من داخل بلاد الشام أو من خارجها. لذلك أسهب الجغرافيون والمؤرخون في وصفها وذكر فضائلها، وخطتها وجمالها ومسجدها وقلعتها ومآثرها<sup>٦٩</sup>. وقد قال ابن حوقل: «وهي أجل مدينة بالشام، في أرض مستوية»<sup>٧٠</sup>. ويستمر سير الطريق الدولي الداخلي من دمشق جنوبا الى بصرى أو أنذرات (درعا الحالية) ثم الى الزرقاء وعمان وسرخ (المدورة) ثم الى تبوك والمدينة المنورة ومكة<sup>٧١</sup>. والطريق من دمشق الى المدن الحجازية هو طريق الحج الشامسي المشهور، وهو يتبع في الاقاليم الشامية طريق تراجان Nova Via Triana الروماني وهو الطريق الذي عرف بالتبوكية في صدر الاسلام سلكته جيوش الفاتحين وهي تتجه لتحرير الأردن ودمشق وحمص من سلطان الروم<sup>٧٢</sup>. ويرتبط هذا الجزء من الطريق مع فلسطين وجنوب سوريا يمر ببترا متبعا أثر القوافل القديمة، ولا تزال بعض المعالم لهذا الطريق الذي يتفرع الى فرعين ابتداء من بصرى ودرعا، فخط درعا يصل جرش ثم عمان، وخط بصرى يصل خربة السمرا (قرب المفرق)، والزرقاء ويمر شرق عمان، ليلتقي الخطان جنوب عمان: ويستمر الخط الى بترا حيث يتفرع الى الحميمة وخط يتابع سيره الى ايله (العقبة). كانت قوافل الحجاج تحط رحالها في بصرى في الذهاب والاياب، ولكن عندما وهنت الدولة الاسلامية في العهود المتأخرة، انعدم الامان على طريق بصرى وأصبح الحجاج يسلكون طريقا يبعد الى الغرب منها<sup>٧٣</sup> الى درعا والمزيريب. وترى آثار خط أخير يمر من شرق

٦٨. انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٨، ٢١٨؛ ٢٢٨. قدامة، الخراج، ص ١١٧-١٢٧.

Grant., The Syrian Desert. p. 237

٦٩. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٥٦-١٦٠.

٧٠. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠.

٧١. أنظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٠؛ قدامة، الخراج، ص ٨٥؛ ابن رسته، أبو علي احمد بن عمر (ت ٢٩٠ هـ/٩٠٢ م) الاعلاق النفيسة، ليدن، مطبع بريل سنة، ١٨٩١، ص ١٨٢. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن رسته، الاعلاق النفيسة.

٧٢. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٥.

٧٣. هورست كلينكل، أثار سورية القديمة، ترجمة فاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٥، ص ٩٧. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: كلينكل، أثار سورية.

البترا مختترقا معان والجفر تصل الى واحة الجوف، وتلحظ خطأ ثالثا يتجه من الصحراء السورية شمالا نحو الازرق ثم يتابع مسيره في منخفض وادي السرحان نحو تيماء وحایل في الجزيرة العربية<sup>٧٤</sup>.

وتعود أهمية الطرق في جنوب بلاد الشام الى كونها تعبر بين منطقتين قاحلتين تعيقان التجارة. فالجوف تقع في الزاوية الشمالية لصحراء النفوذ - من المناطق الرملية العميقة التي تعيق حركة الجمال المحملة اضافة الى ندرة المياه في هذه المنطقة - والى الشمال من الجوف يوجد شريط اقل صحراوي ولكن صخري وجبلي تتخلله ممرات من الأراضي البركانية والاحجار البازلتية. وتتجنب القوافل المرور من الممرات لان الحمى الصوانية كثيرا ما تغطي سطحها مما يؤثر ايضا على سير الجمال فوقها. وتمتد منطقة اللانا (البركانية) في حوران نحو الشرق لاكثر من ستين ميلا. وهذا لا يعني ان الممرات لم تكن تعبر من قبل المسافرين<sup>٧٥</sup>.

هذا ولم يتحدث جغرافيو العصر العباسي الا قليلا عن الطريق العرضية التي تصل غرب بلاد الشام بالمراكز الصحراوية الشرقية وبلاد العراق. وقد ذكروا الطريق الواصل من الكوفة الى دمشق مروراً باذرع<sup>٧٦</sup>. وكذلك الطريق من عين التمر الى بصرى<sup>٧٧</sup>. وهذا هو الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد من العراق الى اليرموك مروراً بمدينة تدمر بناء على أمر الخليفة أبي بكر<sup>٧٨</sup>.

وتذكر المصادر الاسلامية ان الطريق الرئيسي ما بين بغداد ودمشق تمر بمدينة هيت على الفرات<sup>٧٩</sup> ولعله هو نفسه الطريق الذي عرف منذ العهد الروماني<sup>٨٠</sup>. وهذا الطريق عصب المواصلات في شرق سوريا، فمنذ العصور الشرقية القديمة، يسلك التجار الطريق القادم من الفرات على ظهور الدواب، ولا بد من المرور بتدمر اذا كانت وجهتهم بلاد الشام<sup>٨١</sup>، وعليه فقد ازداد عدد الطرق التي تمر بتدمر في الذهب والاياب، وتحولت هذه المدينة بفضل الطرق التجارية الى قلب مملكة مترامية الاطراف تستحوذ على شبكة واسعة من طرق المواصلات التي كانت تمتد الى الشمال من صحراء جزيرة العرب وبادية الشام. وقد استفاد المسافرون

٧٤. Grant., The Syrian Desert., p. 37.

٧٥. Ibid, p. 38.

٧٦. ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٩.

٧٧. المصدر السابق، ص ٩٧.

٧٨. ابي اكرم، سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩، ص ٣٣٣ - ٣٤٠. سيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: اكرم، سيف الله.

٧٩. انظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٦٠. ابن الاثير، الكامل في ج ١٠، ص ٢١٩.

٨٠. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ١٨/٢، ٤٢٠/٥ - ٤٢١.

٨١. كليتيكل، آثار سورية القديمة، ص ٩٧.

في العهد الاسلامي من الطرق الرومانية وبخاصة تلك المعبدة في أيام الشتاء، اذ كانت الدواب تتجنب الوحل والاراضي الرخوة لهذا توسع في استخدام الجمل في هذه الاسفار الطويلة بفضل ما تميز به هذا الحيوان على غيره<sup>٨٢</sup>.

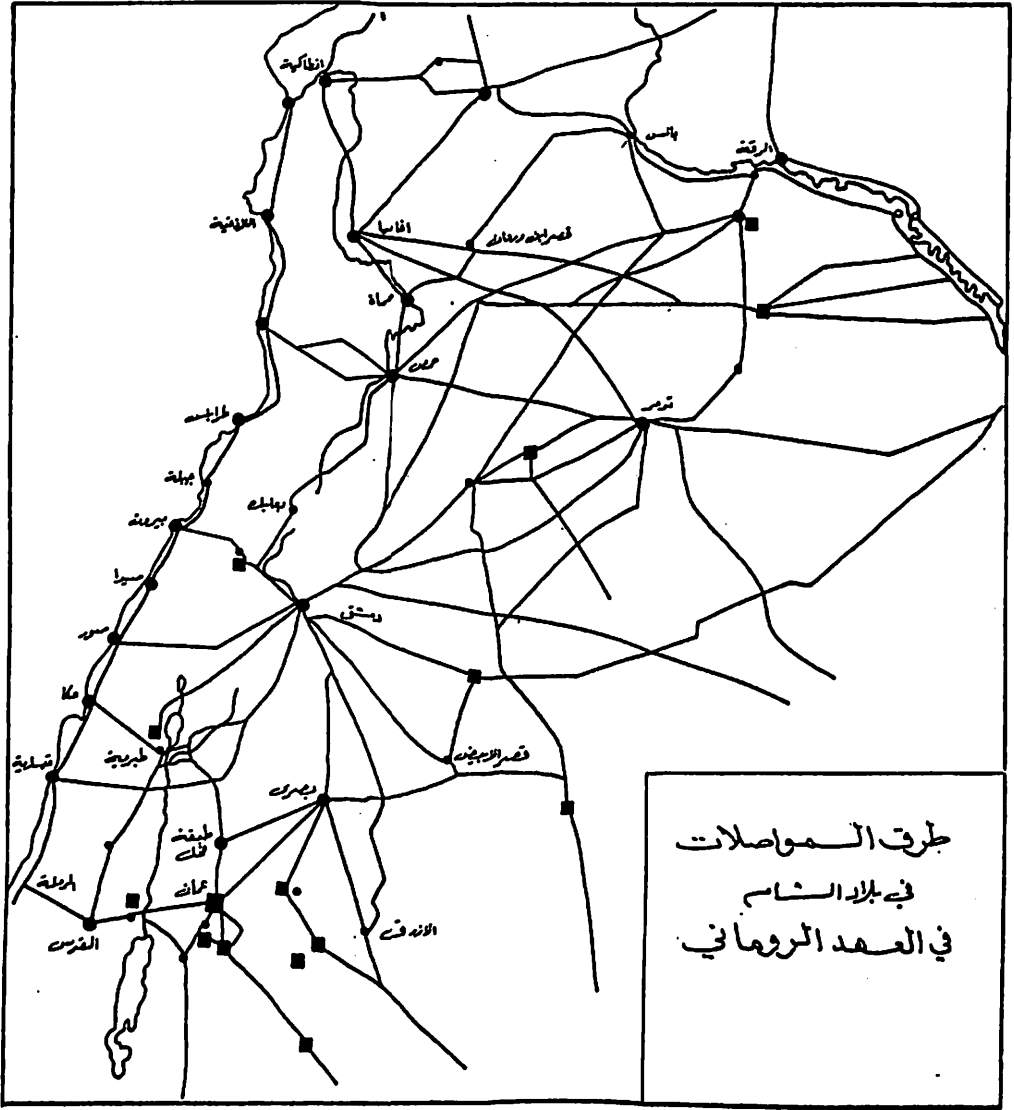
واعتمادا على ما أورده الجغرافيون العرب الاوائل من وصف لشبكة الطرق في بلاد الشام نجد ان كثافة هذه الطرق تزداد الى درجة كبيرة في المناطق العامرة الاهلة بالسكان.

ومجمل القول ان نظام البريد والعناية بالطرق وتنظيم كل متطلبات الراحة والأمن عليها بلغت درجة تثير الاعجاب، حتى يمكن ان يقال و بحق في عاصمة العباسيين بغداد ما قيل من قبل عن روما عاصمة الامبراطورية الرومانية وهي في أوج ازدهارها «كل الطرق تؤدي الى روما» ويشير الى هذه الحقيقة قول ابن خرداذبه: «ان مجموع سكك البريد في العراق بلغ في عهده (تسعمائة وثلاثين) سكة<sup>٨٣</sup>». والاستثناء الذي يخرج هذه القاعدة عن صدقها هي الفترات التي كانت بلاد الشام وأي جزء من الامبراطورية العباسية تتعرض فيه الى الفتن والحروب المحلية والخارجية، وما ينجم عن مثل هذه الاحوال من اضطراب حبل الامن وتقطع شرايين البريد وتمزيق طرقه ونسف سككه. وقد استفاد من نظام الطرق هذا كل المسافرين من جند وحجاج ورحالة وطلبة علم وتجار. ولعل الفضل يعود الى هذه الطرق في نشأة وتطور العلوم الجغرافية عند العرب.

٨٢. المرجع نفسه، ص ٩٨. وانظر: Grant., The Syrian Desert. p. 46.

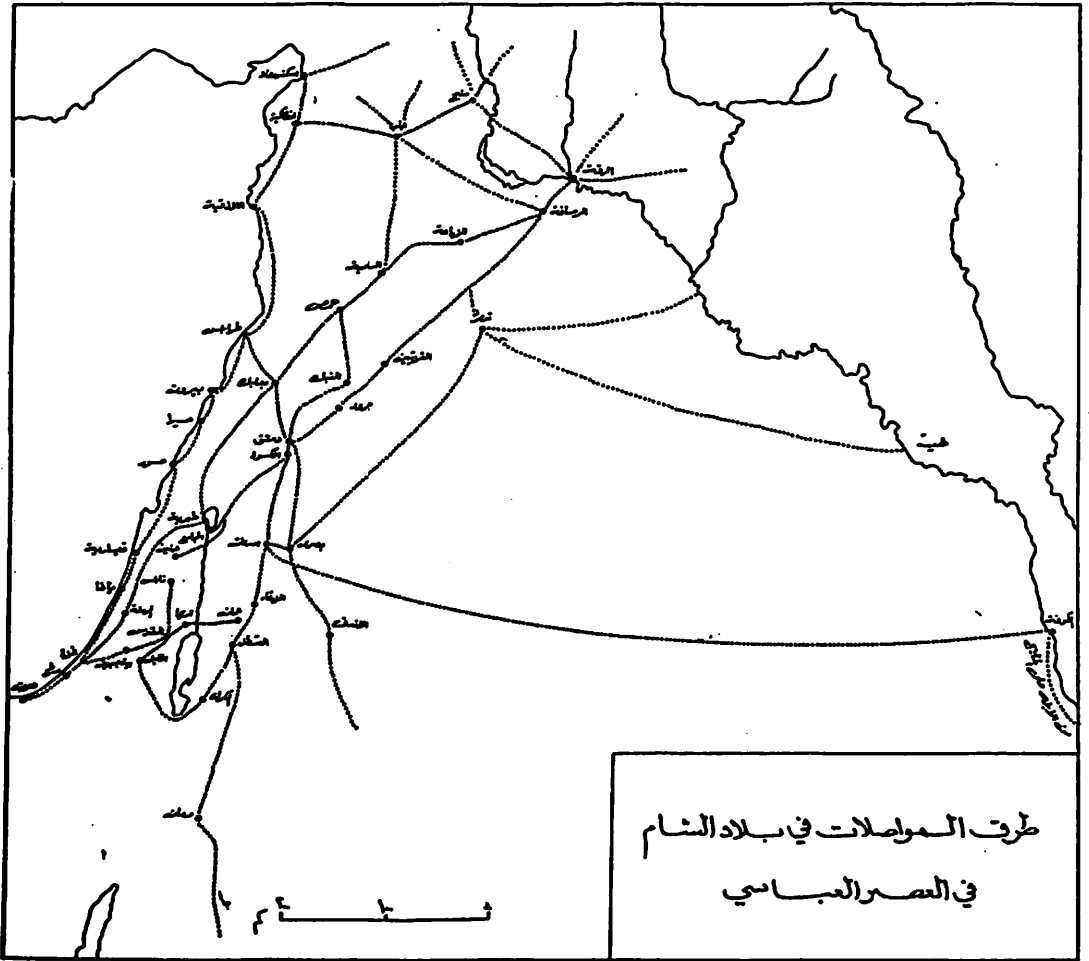
٨٣. ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٥٢؛ وانظر: سعداوي، نظام البريد في الدولة الاسلامية، ص ٨٠-٨١.

ملحق (١)



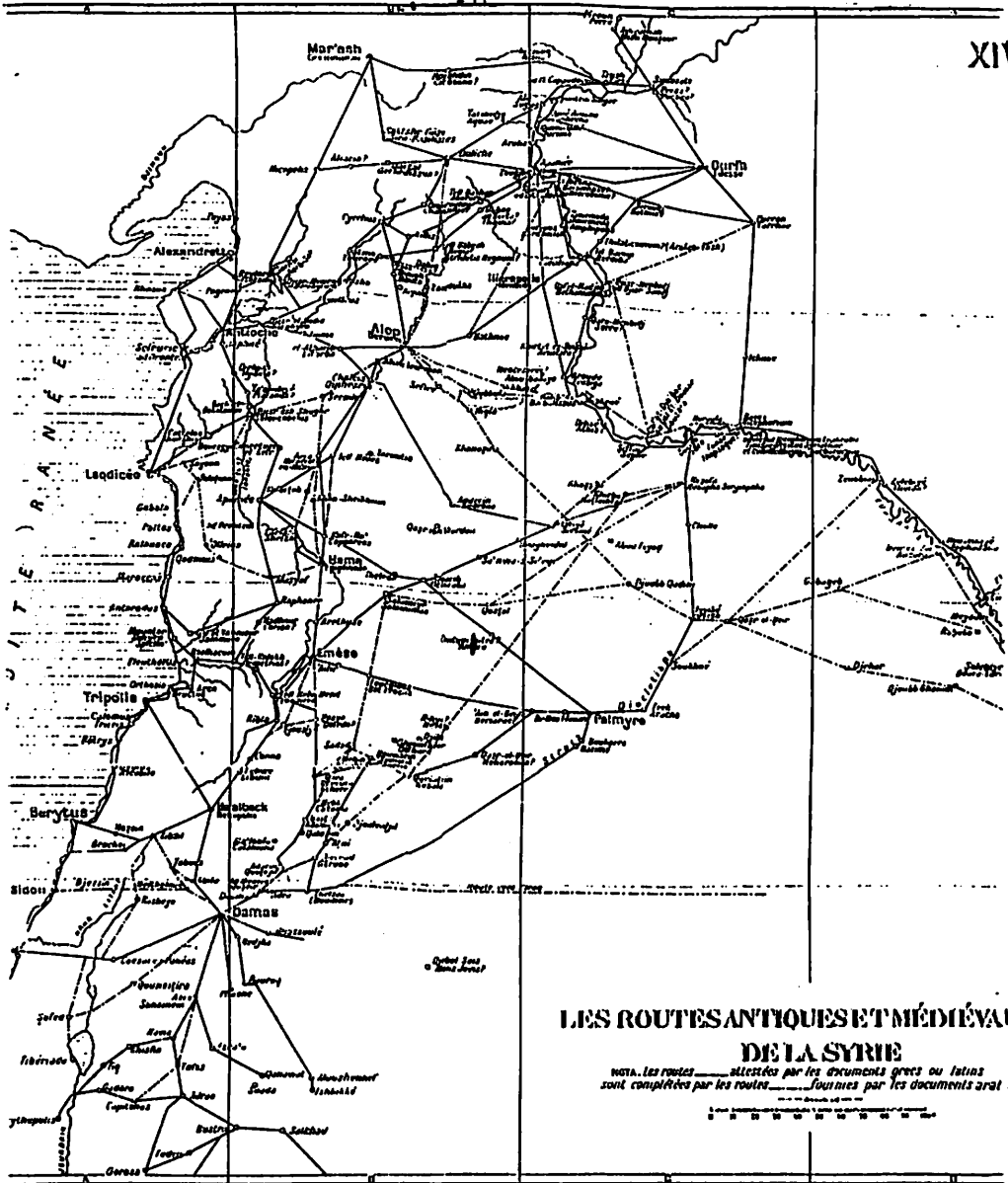
« عن ابن خلدون، القسطنطينية - ١٦٨٤ »

ملحق (٢)



ملحق (٣)

XIV



RENE DUSSAUD من كتابه

نقلا عن

TOPOGRAPHIE HISTORIQUE DE LA SYRIE ANTIQUE ET MÉDIÉVALE



## النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة

محمد أحمد زيود\*

كانت بلاد الشام في هذه الفترة جزءاً من عالم إسلامي كبير تأثرت بأحواله السياسية والاقتصادية، وتبعت في بعض الأحيان الخلافة العباسية في بغداد، كما اتحدت مع مصر في ظل كل من الدولتين الطولونية والأخشيديّة، وخلال العصر الفاطمي خضعت معظم بلاد الشام للسلطة الفاطمية في القاهرة.

وعلى الرغم من الظروف السياسية لبلاد الشام في هذه الفترة فقد ظهر تقدم التجارة بريح ميزانها حيث كان بصفة عامة لصالح بلاد الشام، إذ إن ما كانت تصدره بلاد الشام أكثر بكثير مما كانت تستورده، كما أن الأزدهار التجاري ترك علامات واضحة على تطور العديد من المدن الشامية، وكانت التجارة أحد العوامل الهامة في تطوير وتحسين الوضع الاقتصادي للعديد من المدن في الشام وخاصة الساحلية بالإضافة لبعض المدن الداخلية كحلب ودمشق والرقّة وبيت المقدس وغيرها، وتواصل الرخاء التجاري والصناعي لبلاد الشام، ويؤيد ذلك دخلها وما كان يرتفع منها من خراج.

وعلى الرغم من التمزق السياسي للعالم الإسلامي كان بإمكان كل فرد من سكان دار الإسلام الانتقال من بلد إلى آخر والعمل فيه دون قيد، أما بالنسبة للتجار فمعظم الذين عملوا في التجارة المحلية كانوا من أهل البلاد، وكان لهم أيضاً دور كبير في التجارة الخارجية، لكن وجد تجار من خارج بلاد الشام، ومن خارج ديار الإسلام ساهموا في العمليات التجارية بشكل فعال.

\* قسم التاريخ، جامعة دمشق، دمشق، الجمهورية العربية السورية.

وكان للتقدم<sup>١</sup> الصناعي ، والنشاط الزراعي<sup>٢</sup> ، ولوقوع بلاد الشام<sup>٣</sup> ، وامكاناتها الدفينة ، وطبيعة سكانها ، الأثر الواضح على النشاط التجاري وازدهاره في بلاد الشام ، وكان

- ١ . فليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢ج، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٩، ج١، ص ٩٩، ٣٠٤، ٣٠٥ و ج٢ ص ١٨٧، ١٩٦، والمرحلة الجامعية حتي، تاريخ؛ محمد كرد علي، تاريخ الحضارة في القرون الوسطى والحديثة، المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة، ص ٤٥، والمرحلة الجامعية كرد علي، تاريخ؛ سيد عمود خليفة، تاريخ المنسوجات، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د.ث، ص ٩٧ وما بعدها والمرحلة الجامعية خليفة، تاريخ؛ علي الحسيني، تاريخ سورية الاقتصادي، ص ٤٢ وما بعدها، والمرحلة الجامعية الحسيني، تاريخ؛ ريسلر، جاك. س، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، مراجعة فؤاد الالهواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص ١٢٥. والمرحلة الجامعية ريسلر، الحضارة؛ لاندو، روم، الاسلام والعرب، نقله الى العربية منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م، ص ٣٧٧، والمرحلة الجامعية لاندو، الاسلام؛ عربي العاصي، مدخل الى دراسة تاريخ الحرفة، ص ٥٥، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : العاصي، مدخل .
- ٢ . الاصطخري، ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (عاش في القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي) المسالك المالك، ليدن، ١٩٢٧، ص ١٦٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الاصطخري، المسالك؛ ابن حوقل، محمد بن علي (ت حوالي ٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ١١٥، ١٦٢، ١٦٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن حوقل، صورة؛ المقدسي، محمد بن أحمد (ت سنة ٣٧٥هـ / ٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حققه دي غويه، بريل، ليدن، ١٩٠٦، ص ١٥٩، ١٦٦، ١٧٤، ١٧٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : المقدسي، أحسن التقاسيم؛ ابن الفقيه، أحمد بن محمد الهمداني (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م)، مختصر كتاب البلدان، ص ١٠٢، ١٠٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن الفقيه، كتاب البلدان؛ ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤٧، ٥٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ناصر خسرو، سفرنامه؛ أبو الفداء، عماد الدين أسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، تقويم البلدان، حققه رينود وديسلون، باريس، ١٨٤٠، ص ٢٤٧، ٢٥٥. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : أبو الفداء، تقويم؛ ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ج٦، ليبزيج، ١٨٨٦، أعادت تصويره بالوافست مكتبة الاسلامي، طهران، ١٩٦٥، ج١، ص ٢٦٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ياقوت، معجم .
- ٣ . حتي، تاريخ، ج١، ص ٣، ٤، ٥، كرد علي، خطط الشام، ج٦، دار العلم للملايين، دمشق، ط٣، ١٩٨٣م، ج٤، ص ٢٣٣، ٢٣٤. والمرحلة الجامعية كرد علي، خطط؛ فتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ج٣، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ج٣، ص ٣٣٦، والمرحلة الجامعية فتحي عثمان، الحدود الاسلامية؛ الحسيني، تاريخ، ص ٤٢. ابراهيم أحمد العدوي، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٥٩، والمرحلة الجامعية العدوي، الدولة الاسلامية؛ موس. ل. ب، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مراجعة الباز العريفي، عالم الكتاب، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٦، والمرحلة الجامعية موس، ميلاد .

للإسلام وتعاليمه وقيمه الأثر الواضح على التجارة وازدهارها<sup>٤</sup>. فمن المعلوم أن ارتفاع التجار المسلمين بأخلاقهم وتسامحهم من العوامل الهامة التي أثرت على نشاط الحركة التجارية، كما كان للمساهمة الفعالة للعرب والمسلمين في خدمة النهضة العلمية والحضارية بشكل عام والحركة التجارية بشكل خاص أثرها أيضاً. وتوجوا أعمالهم بما قدموه من كتب ومصورات وملاحظات قيمة في وصفهم الممالك والأقاليم، وإيضاح الطرق والمسالك وبيان المسافات، وأوضحت هذه الكتب والمعارف مناطق السلع والمتوجات، ولفتت الانتباه بكل دقة للأهمية الاقتصادية لكل مدينة أو بلد<sup>٥</sup>. ووضعوا خلاصة تجاربهم في كتب علمية قيمة. ويعد كتاب (المسالك والممالك) لابن خردادبة خير مثال عنها وأكبر دليل للمسافرين والتجار.

وفي العصر الطولوني إتسمت سياسة أحمد بن طولون بخدمة التطور الحضاري بشكل عام والنواحي الاقتصادية<sup>٦</sup> بشكل خاص، فقد حرص على توفير الأمن والحماية للتجار وترك لهم حرية التصرف، ولم يمارس ابن طولون التجارة، وامتنع عن ذلك رغبة منه في أبعاد

- ٤ . الشيباني، الامام محمد بن الحسن (ت ١٨٩هـ / ٨٠٤م)، الكسب، تحقيق سهيل زكار، نشر عبدالهادي حرصوني، دمشق، ١٩٨٠م، ص ٣٢، ٣٤، ٣٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الشيباني، الكسب؛ ابن بسام، محمد بن أحمد، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق وتعليق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص ٢٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن بسام، نهاية؛ متر، آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢ج، ترجمة محمد عبدالهادي أبوريده، القاهرة، ١٩٤٠-١٩٤١، ج ٢، ص ٣٧٤، والمرحلة الجامعية، متنز، الحضارة الاسلامية؛ الدوري، عبدالعزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط ٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١١١، والمرحلة الجامعية الدوري، تاريخ العراق. عطية مشرفة، نظم الحكم في مصر في العصر الفاطمي، ص ٣٠٠، والمرحلة الجامعية عطية، نظم الحكم.
- ٥ . انظر : عبدالمعتم ماجد، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٣٠-٢٤٠، المرحلة الجامعية ماجد، تاريخ.
- ٦ . الكندي، محمد بن يوسف، ولاية مصر، تحقيق حسين نصار، دار بيروت، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٢٢٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الكندي، ولاية؛ ابن الداية، ابو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م)، كتاب المكافاة وحسن العقبى، تحقيق محمود محمد شاکر، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص ١٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن الداية، المكافاة؛ البلوي، أبو محمد ابن محمد المدني، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، المكتبة العربية، دمشق، ١٣٥٨هـ، ص ١٩، ١٩٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البلوي، سيرة؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤ج، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩-١٩٨٣م، ج ٣، ص ١٢٩، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : حسن إبراهيم، تلويح.

الدولة عن ممارسة التجارة والتسلط عليها، وقام بإصلاحات كثيرة في المجال التجاري فأصلح العملة وتشدد في عيار دينار<sup>٧</sup> الأحدي، ورفع الميزان التجاري لدولته، واهتم ببناء السفن التجارية لهذه الغاية، وترك - عند ما توفي - أسطولا قيل أن مجموع قطعه الصغيرة والكبيرة بلغ نحو ألف<sup>٨</sup> قطعة، وحاول ابن طولون في كل من مصر والشام والعراق الافادة من طائفة التجار في تنفيذ مآربه وتثبيت حكمه والدعاية له، وبهذا سخر الاقتصاد لصالح السياسة وتمكن من تأسيس دولة قوية عسكريا وغنية اقتصاديا، هابها<sup>٩</sup> الأعداء وقدرها الأصدقاء، ويؤيد ذلك ارتفاع دخل كل من الشام ومصر في عهده وعهد ابنه فيما بعد. فقد وصل خراج الشام إلى أكثر من ٢ مليون دينار.

وتابع خوارويه سياسة أبيه في تدعيم أواصر دولته؛ فنشر الأمن، وأمن طريق الحج، وضرب تحركات الأعراب وتببع المتمردين واللصوص وقطاع الطرق وأخذ تحركاتهم<sup>١٠</sup>

٧ . البلوي، سيرة، ص ١٠٤-١٠٦، ١٩٠؛ الكندي، ولاة، ص ٢١٧-٢٢٣، ٥٠٨؛ ابن الداية، المكافاة، ص ١٧، ١٤٠؛ ابن سعيد، المغرب، ص ٩٩؛ المقرزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرزية، ج ٢، القاهرة، ج ١، ص ٩١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقرزي، خطط؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج ٢، ص ١٢٨؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر في العصر الطولوني، القاهرة، ص ١٠٧، ١١٠، ١١٥، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حسن أحمد، حضارة مصر؛ كرد علي، خطط، ج ١، ص ١٧٦. Zaky, M. H., Les Tulunides, Paris, 1933, p. 210-212. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Zaky, Les Tulunides.

٨ . البلوي، سيرة، ص ٣٤٩؛ ابن سعيد، المغرب، ص ١٣٢؛ ابن اياس، محمد بن أحمد بن اياس الخنفي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٥، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٤٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن اياس، بدائع؛ إبراهيم أحمد العدوي، الأساطيل العربية في البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ١١١، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العدوي، الاساطيل.

٩ . الكندي، ولاة، ص ٢٢١؛ البلوي، سيرة، ص ٦٠؛ ابن سعيد، المغرب، ص ٧٩، ٩٥؛ ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ٣، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق، ١٩٥١-١٩٦٨م، ج ١، ص ٧٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العديم، زبدة الحلب؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٢، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ج ٧، ص ٤٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تغري بردي، النجوم.

١٠ . ابن تغري بردي، النجوم، ج ٣، ص ٥٢؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨هـ/

فازدهرت الدولة في عهده وعمها الرخاء، وما يروى عن كرم خمارويه وتشجيعه للتجارة ما ذكره ابن سعيد<sup>١١</sup> «أن تاجرا من أغنياء خراسان وفد على دمشق ورأس ماله نحو مائة ألف دينار، وعنده من الذخائر ما يليق أن يقدم إلى عطاء السلاطين، فلما استقر بحضرة خمارويه قدم رقعة فيها تسمية ما جاء به من الذخائر إلى خمارويه، فلما وقف عليها كان فيها ما استحسنته وفيها ما لا يحتاج إليه فقال له خازنه: نأخذ منه ما يحتاج إليه الأمير بما يقدر أرباب التجارة، ونصرف عليه ما لا يحتاج إليه، فاغتاظ وقال: هذا فعل مثلك ممن لا تسمو نفسه إلى جسيمات الأمور ومخلدات المكارم وحسن الأحداث، والذي تقتضيه المروءة والهمة أن نأخذ منه ما قدم إلينا ولا نرد عليه منه شيئا».

وفي هذا ما فيه من تشجيع للتجارة والتجار وجذب لهم لكي ينطلقوا نحو دمشق وغيرها من المدن الطولونية.

ولا تزال قصة زواج ابنته من الخليفة العباسي من القصص شبه الأسطورية التي تروى حول ما تم فيه من انفاق وتحضير لأغنى وأفضل التحف وأحسنها<sup>١٢</sup> صنعا وكان في هذا تشجيع للتجارة وتأكيد لمقولة ابن خلدون «الدولة، السوق الأعظم للتجارة»<sup>١٣</sup>.

وتفيد الإشارة إلى أنه رافق العصر الطولوني تعاظم نفوذ القواعد العسكرية الإسلامية على الطرق التجارية البحرية فقد أصبح الموقف الإسلامي ازاء بيزنطة منذ سنة ٨٧٨هـ/٨٧٨م على عكس ما كان عليه بين عامي ١٣٠-٢٣٤هـ/٧٤٧-٨٢٧م،

= (١٤٠٥م) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، بيروت، ج٣، ص٣٣٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، العبر؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١ ص٨٢؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبد الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ج٩، بيروت، ج٦، ص٦١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل؛ الكندي، ولاة، ص٢٣٦-٢٣٧؛ كرد علي، خطط، ج١، ص١٧٧-١٧٨.

١١. ابن سعيد، المغرب، ص١٣٧.

١٢. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٨٥ وقيل أنه دخل معها مائة هاون من ذهب في جهازها وان المعتضد دخل خزانتها وفيها من المنائر والأباريق والطاسات وغير ذلك من الأنية الذهب فقال يا أهل مصر ما أكثر صفركم، فقال له بعض القوم «يا أمير المؤمنين إنها هو ذهب، وقال المعتضد أكرمها بشمع العنبر فوجدوا في خزنة الخليفة أربع شمعات من عنبر في أربعة أتوار (هو إناء صغير) فضة، فلما كان العشاء جاءت إليه وقدامها اربعائة وصيفة في يد كل واحدة منهن تور (وعاء) ذهب وفضة، وفيه شمعة عنبر فقال المعتضد لأصحابه (أطفئوا شمعنا واسترونا). انظر تفاصيل ذلك: ابن تغري بردي، النجوم، ج٣، ص٥٣.

١٣. ابن خلدون، المقدمة، ص٢٣٩؛ حسن محمود، حضارة مصر، ص١١٥، ١١٦-١١٧.

وأصبحت الدولة العربية الاسلامية في هذه الفترة سيدة في البحر المتوسط ومالكة لزام الأمور للطرق التجارية الدولية، وما أن حل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حتى انتقلت السيادة الكاملة في البحر المتوسط إلى المسلمين<sup>١٤</sup>. وكان من نتائج فترة السيادة الاسلامية على البحر المتوسط فيما بين ٢٦٢-٣٤٩هـ / ٨٢٧-٩٦٠م التأثير الايجابي على التجارة في البحر المتوسط وتجديد حيوية كل من بلاد الشام ومصر تجاريا، وانتعشت طرابلس وبيروت وصور وسائر الثغور الشامية بسبب إعادة فتح البحر أمام<sup>١٥</sup> التجارة الاسلامية، ووصل الرخاء التجاري والصناعي إلى كل من حلب ودمشق وبيت المقدس، ويؤيد ذلك ارتفاع نسبة الخراج وارتفاع دخل الشام<sup>١٦</sup> في هذه الفترة.

وفي العصر الأخشيدى اهتم الأخشيد بالنواحي الاقتصادية وعمل على نشر الأمن والاستقرار، وكثيرا ما سيرت الجيوش للقضاء على تحركات القبائل البدوية المنتشرة في بادية الشام<sup>١٧</sup>. وساهم هذا الأمر الذي ثبته الأخشيد في تدعيم التجارة وحماية قوافلها فيما بين

١٤ . ارشيبالد، القوى، ص ٢٤٧، ٢٤٩.

١٥ . لومبارد، الاسلام في فجر عظمته، ص ١٥٥-١٥٧؛ متر، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٣٦٣، ٣٧٦. ارشيبالد، ص ١٦٠، ٢٦١.

W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, 2 Vols, Leipzig; Vol. 1. p. 43

١٦ . ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٨٨٤، ص ٥٧، ١٠٣، ١١٧؛ ابن حوقل، المسالك، ص ٣٢٩؛ صرة، ص ١٥٩؛ اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر ابن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، كتاب البلدان، ملحق بالاعلاق النفسية لابن رسته، ليدن، ١٨٩١م، ص ٣٢٥، ٣٢٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : اليعقوبي، البلدان؛ متر، الحضارة الاسلامية، ج ٢؛ ص ٣٩، ٤١، ١٢٦؛ ارشيبالد، القوى ص ١٥٤؛ حسن أحمد محمود وسيد اسماعيل كاشف، حضارة مصر في العصر الطولوني، الانجلوالمصرية، القاهرة، ص ٢٤١، والمرحلة الجامعية حسن وسيد، حضارة مصر؛ فتحي عثمان، الحدود الاسلامية، ج ٣، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، والمرحلة الجامعية فتحي عثمان، الحدود الاسلامية.

١٧ . الانطاكي، يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ج ٢، بيروت، ١٩٠٩، ص ١٢١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الانطاكي، التاريخ؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٠٦؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وانباء الزمان، ج ٨، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، ج ٢، ص ٥٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن خلكان، وفيات؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ٣، ص ٢٥٢؛ المقرئ، خطط، ج ١، ص ٩٤؛ ابن اياس، بدائع، ج ١، ص ٤٣. متر، الحضارة الاسلامية، ج ١ ص ٤١؛ سيد اسماعيل كاشف، مصر في عصر الأخشيديين، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٣٥٤-٣٥٦، والمرحلة الجامعية سيد، مصر.

## مصر والشام والعراق والحجاز .

أما سيف الدولة الحمداني في حلب فقد قضى معظم أيامه في فرض سلطته في حلب، وكانت امارته محاطة بأطباع متعددة واتجاهات متنافرة<sup>١٨</sup>. وأفاد هذا حلب فعاشت بأحسن حال وسعت لمضاهاة بغداد والقطائع، وذلك لأهمية موقعها الجغرافي الممتاز<sup>١٩</sup>. ويرغم الأحداث العسكرية التي انتابتها فقد غدت في عهد سيف الدولة مقصد الأديباء والشعراء، والعلماء<sup>٢٠</sup> والتجار، وغدت من أغنى الحواضر، وامتلات أسواقها بالسلع والمواد، ولقد وصفت باتساع الثروة وبدت علائم النعم والترف والغنى على أهلها وفي أسواقها، وتجلى هذا الرواج بأعلى مظاهره في النشاط التجاري بالإضافة للتطور الزراعي والتقدم الصناعي، وأصبحت حلب محط أنظار الروم والمسلمين<sup>٢١</sup> وغيرهم. غير أنها لم تتمتع طويلا بهذا الرخاء والنعيم، فقد تعرضت للنكبة في أواخر أيام سيف الدولة وبعده إثر الخلاف بين سعد الدولة وقرغويه، واجبار هذا الأخير للتوقيع على هدنة مع بيزنطة تتضمن دفع غرامات مالية سنوية لها مع امتيازات تجارية كبيرة، وتسهيلات جعلت من

- ١٨ . ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٣-١٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ١٨٦؛ سامي الكيالي، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٧٠، والمرحلة الجامعية الكيالي، سيف الدولة؛ مصطفى الشكعة، سيف الدولة الحمداني، دار القلم، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٤٦، ١٥٤، ١٥٨، والمرحلة الجامعية الشكعة، سيف الدولة.
- ١٩ . الاصطخري، المسالك، ص ٤٦؛ نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٤٩، والمرحلة الجامعية زكي، طرق التجارة؛ أحمد أمين، ظهر الاسلام، ج ٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥، ج ١، ص ١٧٨، والمرحلة الجامعية أحمد أمين، ظهر الاسلام.
- ٢٠ . الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج ٤، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ج ١، ص ٢١، ٢٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الثعالبي، يتيمة؛ أحمد أمين، ظهر الاسلام، ج ٤، القاهرة، ١٩٤٥، ج ١، ص ١٧٨، والمرحلة الجامعية أحمد أمين، ظهر؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج ٣، ص ١٢٣؛ سامي الكيالي، سيف الدولة، ص ٧١.
- ٢١ . ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١٣٧، ١٣٩، ٢٥٧؛ ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ / ١٠٣١م)، تجارب الأمم، ج ٢، لندن، ١٩٠٩م، ج ٢، ص ١٩٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن مسكويه، تجارب؛ ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن محمد (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م)، تاريخ حلب، علق عليه أبو اليمن البتروني، تحقيق كيكراوتا، معهد الدراسات اللغوية الثقافية الآسيوية الأفريقية، طوكيو، ١٩٩٠م، ص ٣٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الشحنة، تاريخ؛ سامي الكيالي، سيف الدولة، ص ٧٢؛ الشكعة، سيف الدولة، ص ١٧٥.

حلب والمناطق التابعة لها والتي شملتها الاتفاقية منطقة نفوذ بيزنطية<sup>٢٢</sup>.

كما يمكننا أن نتذكر هنا الأعمال الإيجابية الكبيرة التي قام بها بكجور<sup>٢٣</sup> في ولايته بحمص سنة ٣٦٦هـ/٩٧٩م لأبي المعالي سعد الدولة الحمداني، وامتاز عمله فيها بصرف الهمة الى عمارتها وتأمين الطرق والسبل بين حمص ودمشق، وقد قام بإجراءات كثيرة أنقذ فيها دمشق من محتتها<sup>٢٤</sup> وحسن فيها أحوالها ونشر الأمن بين حمص وطرابلس ودمشق وبنى الأبراج في معظم المناطق الضعيفة ووضع القوات لحمايتها.

وفي العصر الفاطمي بذل الفاطميون ما في وسعهم للاستفادة من امكانات البلدين مصر والشام وخيراتها وموقعها الاستراتيجي العام، واعتمدوا سياسة قامت على التسامح الديني مع الطوائف، وفتحوا المجال أمامهم، وقاموا بمجهودات كبيرة لانشاء أسطول بحري تجاري وعسكري، وأكثروا<sup>٢٥</sup> من دور الصناعة لهذه الغاية، وساهمت هذه السفن في العمليات العسكرية والتجارية في مصر والشام من جهة والانطلاق من المراكز التجارية في الشام ومصر إلى بيزنطة والمدن التجارية الايطالية وغيرها من المناطق التي كانت تتاجر معها الشام ومصر من جهة أخرى، وبذل الفاطميون مجهودات كبيرة في بلاد الشام لتثبيت سلطة الدولة ونشر الأمن فيها.

٢٢ . ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١٦٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٠٤؛ الأنطاكي، التاريخ، ص ١٢٥-١٢٦.

٢٣ . الداوداري، أبو بكر عبدالله (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٢م)، الدرر المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، وهو الجزء السادس من كنز الدرر وجامع الفرر تحقيق صلاح الدين المنجد، ص ٢٠٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الداوداري، الدرر. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص ٢٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن القلانسي، ذيل؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٨٢، ج ٩، ص ١٧.

٢٤ . ابن القلانسي، ذيل، ص ٢٨، ٢٩.

٢٥ . المقرئزي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٨، ص ١٣٩، ٢٤٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : المقرئزي، اتعاظ؛ والخطط، ج ٣ ص ١١٤؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١ ص ٢٢٢؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٧٨؛ أحمد أمين، ظهر الاسلام، ج ١، ص ١٩٠؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٣١٦؛ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٠٩، ٢٩٤، والمرحلة الجامعية السيد، تاريخ الاسكندرية؛ وللمؤلف أيضاً، تاريخ البحرية الاسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، بيروت، ١٩٧٢م، ص ٨٨، والمرحلة الجامعية السيد والعبادي، تاريخ البحرية.



وكانت أهم المجهودات الفاطمية في بلاد الشام فيما يهم التجارة ويخدم العلاقات التجارية وخاصة مع بيزنطة وغيرها من المدن الإيطالية عملهم الدؤوب والمستمر لايجاد علاقة حسنة مع بيزنطة، ولذلك عملوا جادين في سبيل عقد المعاهدات والاتفاقات السلمية مع<sup>٢٦</sup> البيزنطيين، إدراكا منهم لأهمية التجارة وضرورة المبادلات التجارية، ونصت بنود بعض الاتفاقيات صراحة على إقامة علاقات تجارية بين الدولتين المتعاهدتين كمعاهدة سنة ٣٩٠هـ/١٠٠١م وغيرها. وتشير المصادر الى نشاط طرابلس الشام في التجارة الدولية في هذه الحقبة حيث كانت تستقبل السفن القادمة من الروم وبلاد الفرنج والأندلس والمغرب وتؤدي هذه ضريبة<sup>٢٧</sup> العشر للسلطة، كما انطلقت منها السفن الى هذه البلاد والأماكن الأخرى، وكانت حلب من أهم المراكز التجارية لعبور القوافل البرية منها واليها الى بلاد الروم، وتابعت طرابلس وصور<sup>٢٨</sup> نشاطهما التجاري فيما بعد.

وسنقدم فيما يلي بعض التفاصيل عن أهم المواد الزراعية والصناعية وغيرها من المواد التي اشتهرت بها بلاد الشام وكانت تجود بها وتصدرها الى بلدان الوطن العربي والاسلامي وبعض المناطق الأخرى. ونتطرق في الوقت نفسه لأهم المواد التي كانت تستوردها الشام من الأقاليم العربية والمجاورة.

٢٦ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥، ٤٨، ٨٣، ٨٤؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج١٤، القاهرة، ١٩١٣-١٩١٧، ج٣، ص ٤٦٣، ٤٦٤، ويشير لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢٩، ٤٦؛ المقرئ، الخطط، ج٢، ص ١٣٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ٢٤٣؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٤، ص ١٩٢؛ عبدالمعظم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، والمرحلة الجامعية ماجد، ظهور خلافة الفاطميين؛ أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج٢، بيروت، ١٩٥٥، ج٢، ص ٦٥، ٦٩، ٧٨، ٧٩، والمرحلة الجامعية رستم، الروم؛ حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٥٩، والمرحلة الجامعية حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية. Heyd: op.cit.vol. I, p. 105.

٢٧ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥، ٤٨، ٨٣، ٨٤؛ ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص ٣٣٣؛ ابن القلانسي، ذيل ص ٣٢.

٢٨ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٧؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٢٢٢؛ عمر عبدالسلام التدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٥١ وما بعدها، والمرحلة الجامعية التدمري، تاريخ؛ السيد والعبادي، تاريخ البحرية، ص ١٦٩؛ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٦م، ص ٨٥-٨٦، والمرحلة الجامعية السيد، صيدا.

## السلع المصدرة :

### ١ - المواد الأولية :

من المعروف ان مصر كانت خلال مراحل تاريخها بحاجة الى الأخشاب والحديد لبناء السفن وغيرها، واشتهرت بعض مناطق بلاد الشام منذ القديم بكثرة أشجارها ووفرة<sup>٢٩</sup> أخشابها، وكانت تزود مصر بها. ومصر بدورها كانت تحولها الى سفن حربية وتجارية تستخدم في البلدين<sup>٣٠</sup>. وكانت المنطقة الشمالية من بلاد الشام من أهم المناطق فيها لتصدير الخشب. ويزوي ابن العديم<sup>٣١</sup> ويؤكد ياقوت أيضاً أن التينات - وهو حصن على شاطئ البحر - كان يجمع فيه خشب الصنوبر الذي كان ينقل الى الشامات وبلاد مصر بكميات

٢٩ : الاصطخري، المسالك، ص٤٧؛ ابن حوقل، صورة، ص١٥٩، ١٦٧؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٢، ١٨٨؛ ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٣، دمشق، ١٩٨٨م، ج١، ص٧٦، ١٦٢، ١٦٣. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن العديم، بغية؛ ابن القلانسي، ذيل، ص٤٧؛ ابن شداد، الاعلاق، ج٢، ص١٠١؛ الادريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد الحسيني (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الخاص بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨، ص١٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الادريسي، نزهة؛ البدري، تقي الدين أبو البقاء عبدالله بن محمد (ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م)، نزهة الانام في محاسن الشام، القاهرة، ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م، ص٣١٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البدري، نزهة؛ حتي، تاريخ، ج٢، ص٢٥٩؛ كرد علي، خطط، ج٤، ص١٥٢، ١٥٤؛ هنري لامنس، تسريح الأبخار في ما يحتوي لبنان من الآثار، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٤، ج٢، ص١٨٢، ١٨٧، ٢٠٠، و المرحلة الجامعية لامنس، تسريح؛ الكيالي، سيف الدولة، ص١٨٠؛ مصطفى الشهابي، كتاب الأشجار والأنجم المثمرة، دمشق، ١٩٢٤، ص١٠-١٢، والمرحلة الجامعية الشهابي، الأشجار.

٣٠ . البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، بغداد، د. ت، ص٤٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البكري، المغرب؛ كرد علي، خطط، ج٤، ص١٥٤، ١٥٥؛ العسوي، الأساطيل العربية، ص١٦؛ لامنس، تسريح، ج٢، ص١٨٢، ٢٠٦.

٣١ . ابن العديم، بغية، ج١، ص٧٩؛ ياقوت، معجم، ج١، ص٤٣٦، ٦٣١، ج٢، ص٦٨؛ الاصطخري، المسالك، ص٤٧؛ ابن حوقل، صورة، ص١٦٧؛ ارشيبالد، القوى، ص٢٤٩، ٢٥٠؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤، ١٨٤؛ الادريسي، نزهة، ص١٢٠، ١٣٣؛ ابن بطوطة، رحلة، ج١، ص١٣٣؛ لامنس، تسريح، ج٢، ص١١٥، ٢١٦؛ حتي، تاريخ سورية، ص١٨٢، ١٨٥، ٢٩٨، ٣٠٥، ج٢، ص٢٠٢.

كبيرة، كما وذكر أيضا أن الجبل الأسود وهو بالقرب من جبل اللكام فيه أشجار كثيرة غير مشمرة كان يؤخذ منه الخشب الى البلاد التي حوله، وان المراكب كانت تجهز بالخشب من هذه المناطق الى الديار المصرية .

كذلك وجد الحديد في مناطق متعددة ببلاد الشام، وقد أجمع الكثيرون عن أرخوا لبلاد الشام على وجود معدن الحديد في لبنان<sup>٣٢</sup>، وخاصة في الجبال حول بيروت، وأشاروا إلى أن خواص الحديد فيه جيدة، وانه كان يستخرج منه كميات كبيرة تصدر إلى كل انحاء بلاد الشام، وبعض انتاجه كان يصدر<sup>٣٣</sup> الى مصر. كما وجد الحديد في بعض مناطق الجزيرة بجانب<sup>٣٤</sup> النحاس، وقد اعتاد قدماء المصريين حمله الى بلادهم، وأشار الى وجوده هناك ابن العديم ووصفه بمزايا فريدة وخاصة ما كان يستخرج منه بالمصيصة<sup>٣٥</sup>، ونظرا لميزات حديد بلاد الشام وخاصة اللبناني منه فقد كان الاقبال عليه كبيرا، ولا يستبعد لذلك أن تكون أسلحة دمشق ذائعة الشهرة خاصة السيوف<sup>٣٦</sup> الدمشقية كانت تصنع من هذا الحديد

- ٣٢ . المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٦٨ .
- ٣٣ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤؛ ابن شداد، الاعلاق، ج ١، ق ١، ص ١٥٣؛ ياقوت، معجم، ج ١، ص ٤٣٦، ٤٣١؛ ابن الشحنة، تاريخ، ص ١٩٤؛ حتي، تاريخ سورية، ج ١، ص ١٩٨، ٢٠٢، ٣٠٥ .
- ٣٤ . الغزي، كامل بن حسين، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج ٣، المطبعة المارونية، ١٣٣٢هـ، ج ١، ص ٤٧، والمرحلة الجامعية الغزي، نهر الذهب؛ الفارقي، تاريخ آمد وميافارقين، مخطوط، ورقة ١٢٩ ظ؛ ابن كثير، أبو الفداء اساعيل بن عمر الدمشقي (ت ١٣٧٤هـ / ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، ج ١٤، بيروت، ج ١٢، ص ١٩١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن كثير، البداية .
- ٣٥ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٤٩، ٥١ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤؛ الادريسي، نزهة، ص ١٦، ٣٦؛ لامنس، تسريح، ج ٢، ص ٢١٥، ٢١٦؛ حتي، تاريخ، ج ١، ص ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٥، و ج ٢، ص ١٠٢؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٦٠ .
- ٣٦ . الكندي، أبو يوسف يعقوب بن اسحاق (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م)، «رسالة الكندي في عمل السيوف»، نشر وتحقيق عبدالرحمن زكي، نشرة الفنون، جامعة القاهرة، المجلد ١٤، ج ٢، سنة ١٩٥٥-١٩٥٦م، ص ١-٣٦، والمرحلة الجامعية الكندي، رسالة؛ الطرسوسي، «تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء ونشر اعلام الاعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء»، نشره كلود كاهن، دورية المعهد الفرنسي بدمشق، العدد ١٢ (١٩٤٧/١٩٤٨م)، ص ١٠٣-١٠٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الطرسوسي، تبصرة؛ عفيف جهني، صناعة السيوف الدمشقية، (مقال أبحاث الندوة العالمية الأولى)، ص ٤٩٦، ٤٩٩، والمرحلة الجامعية جهني، صناعة السيوف؛ راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٣٩، والمرحلة الجامعية البراوي، حالة مصر؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ٢١٣، ٢١٤؛ السيد، تاريخ البحرية، ص ٢٤، ٢٥؛ الشكعة، سيف الدولة، ص ١٧٧ .

الجيد، وقد استهوت هذه السيوف العارفين بقيمتها فغدت مطلب كل فارس ومحارب من كل صوب. وكانت تمد بها معظم جيوش الشام ومصر. وما يفيد ذكره هنا أن خمارويه أمر بصناعة العديد منها وقدمها هدايا لعلمانه عندما أهدوا سيوفهم لشاعر مدحه<sup>٣٧</sup>.

وتؤكد بعض الدراسات الحديثة هذا الاتجاه بتصدير الحديد من بلاد الشام إلى مصر<sup>٣٨</sup>، كما كانت الشام تصدر الحديد والأصناف الجيدة من السلاح إلى العراق<sup>٣٩</sup> أيضاً، كما انتقلت طرائق صنع السيوف الدمشقية إلى الأندلس<sup>٤٠</sup> واهتم الأمراء هناك بتشجيع صناعتها في طليطلة وغيرها، وبرزت فيما بعد مزايا السيف الدمشقي في فترة الحروب الصليبية<sup>٤١</sup> ونقلوا فن صناعته إلى أوروبا.

ووجد النحاس في لبنان وجنوبي فلسطين<sup>٤٢</sup> وبجوار أرمحا وبالقرب من منابع نهر الأردن، وتوافر - كما أشرنا - بجانب الحديد في بعض مناطق الجزيرة وديار حلب وخاصة في جبل جوشن<sup>٤٣</sup>. واستخدم هذا النحاس مع الحديد في صنع الموازين والمكاييل وأزرار

٣٧ . «حقائق تاريخية» مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ٢ (١٩٢٩)، ص ٢٠، ٢٢؛ وانظر: التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، المستجاد من فعات الاجواد، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٦م، ص ٨٣٤، ٨٣٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: التنوخي، المستجاد.

٣٨ . حورية عبدالسلام، الحالة الاقتصادية في الفسطاط، (رسالة جامعية لم تنشر)، جامعة القاهرة، ص ١٠٧، والمرحلة الجامعية حورية، الحالة الاقتصادية: كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٩٩، البراوي، حالة مصر، ص ٢٦١.

٣٩ . يعقوبي، البلدان، ص ٣٥٠، ٣٧١؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج ٢، ص ٣١٧، ٣١٨؛ الدوري، تاريخ، ص ١٣٦.

٤٠ . حسن إبراهيم، ج ٢، ص ٣٠٨.

٤١ . أحمد يوسف، «صناعة الفولاذ الدمشقي في التاريخ العربي» محاضرة اسبوع العلم الثالث، دمشق، ١٩٧٢م، ص ١١١، والمرحلة الجامعية أحمد يوسف، «صناعة»؛ وانظر المؤلف نفسه، «مدخل الى تاريخ التكنولوجيا العربية»، عاديات حلب، سنة ١٩٧٥م، ص ١٢، والمرحلة الجامعية أحمد يوسف، «مدخل»؛ البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ / ١٠٥٨م)، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٥٥م، ص ٢٤٧، ٢٥٧، والمرحلة الجامعية البيروني، الجماهر؛ بهنسي، صناعة، ص ٥٠٢.

٤٢ . حقي، تاريخ، ج ١، ص ٩٥، ٣٠٥، ٣٢٧؛ لامنس، تسريح، ج ٢، ص ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٥.

٤٣ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ١٦١؛ الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ١٠٣.

الأبواب والشبابيك والأقفال وأقداح الشراب وغيرها من الصناعات<sup>٤٤</sup> المعدنية، واعتادت مصر أن تستورد من بلاد الشام النحاس كمادة خام أو<sup>٤٥</sup> مصنعا، ووجدت نماذج نحاسية مصنعة في مدينة الفسطاط، وقد لاحظ ذلك الرحالة ناصر خسرو وعندما زار مصر في العصر الفاطمي، ولفت نظره كثرة الأواني الكبيرة المصنوعة من النحاس، وكان يتسع الاناء الواحد لثلاثين مناً. وهي من القدور الدمشقية، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها مصنوعة من الذهب الخالص، وقد أشار الى وجود امرأة كانت تملك خمسة آلاف إناء من النحاس تقوم<sup>٤٦</sup> بتأجيرها، وتتقاضى درهما واحدا عن كل منها في الشهر. وصدر النحاس كمادة خام من منطقة<sup>٤٧</sup> ديار بكر بالإضافة إلى جوهر الزجاج.

### المسوجات :

كانت بلاد الشام تصدر أنواعاً عديدة من السلع الصناعية في مقدمتها المسوجات التي كانت من السلع الرئيسية في الصناعات الشامية، واختصت الشام بصناعة المسوجات الحريرية<sup>٤٨</sup> التي كانت تعتبر أغلى مادة في صناعة المسوجات، وكانت دمشق وطبرية وصور والرملة، وعسقلان، وغزة، وبعليك وحمص وحلب من أهم المراكز لصناعة الحرير

٤٤ . كي . ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله الى العربية وأضاف اليه تعليقات بلدانية وتاريخية وأثرية ووضع فهارسه بشرح فرنسيس وكوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٤٥، والمرحلة الجامعية ليسترانج، بلدان.

٤٥ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص١٠٤، ١٥٢؛ البراوي، حالة مصر، ص٢٥٤؛ عطية مشرفة، الحكم في مصر في العصر الفاطمي، ص٣٠١.

٤٦ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص١٠٤؛ ستانلي لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م، ص١٠٨، والمرحلة الجامعية ستانلي، سيرة.

٤٧ . أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٥.

٤٨ . ابن حوقل، المسالك، ص١٠١، ١٠٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠، ١٨١؛ الثعالبي، يتيمة،

ج١، ص٣٤؛ سيد محمود خليفة، تاريخ المسوجات، مطبعة حاضنة مصر، القاهرة، د. ت، ص٩٥،

٩٧ . المرحلة الجامعية خليفة، تاريخ المسوجات؛ لامنس، تسريح، ج٢، ص١٩٩؛ آشتور، أ.، التاريخ

الاقتصادي والاجتماعي في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالمهدي عيلة، دارقنينة، دمشق،

١٩٨٥، ص١١٤، والمرحلة الجامعية آشتور، التاريخ الاقتصادي؛ لومبار، الاسلام، ص٢١٢، ٢١٤،

٢١٨؛ صالح أحمد العلي، «ألوان الملابس العربية»، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد السادس

والعشرون، بغداد (١٩٧٥م)، ص٧١، ٩٦، ٢٧٧؛ كرد علي، خطط، ج٤، ص٢٠٧؛ ريسلر، جاك

س.، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، القاهرة، د. ت، ص١٢٥، والمرحلة الجامعية ريسلر،

الحضارة العربية؛ حقي، تاريخ سورية، ج١ ص٣٠٤، ٣٢٦، ٣٩٦.

وتصديره. ومن المرجح أنه كانت هناك مدن أخرى تنتج الحرير وتصدره، ويدلنا على ذلك الانطباع السائد بأن بلاد الشام كانت تصدر كميات ضخمة منه وربما كانت هناك مدن لبنانية<sup>٤٩</sup> وأخرى فلسطينية اشتهرت بهذا النوع من النسيج وصدرته بالإضافة إلى حلب<sup>٥٠</sup> التي كان لها شهرة خاصة بصناعته وخاصة في العصر الحمداني، وتحدثنا المصادر عن صور<sup>٥١</sup> بأنه كانت تصنع فيها الثياب البيض التي كانت تحمل إلى الآفاق بالإضافة إلى كل شيء حسن غالي الصنعة ثمين القيمة.

وكانت بلاد الشام تصدر إلى العراق والمناطق الشرقية المنتوجات الحريرية والقطنية والديباج<sup>٥٢</sup> والخز والميازر وغيرها. وهذا الصدد يروي ابن حوقل بأن سيف الدولة الحمداني صادر في فترة تقل عن ثلاثة أشهر قافلتين كبيرتين فيهما منتوجات سورية كانت في طريقها إلى الشرق. والسلع الرئيسية التي كانت تنقلها القافلتان هي المنسوجات (البن) وزيت الزيتون، وبلغت قيمة البضاعة المصادرة مليون دينار، وهو رقم يوضح بأن كمية المنسوجات

٤٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ المقرئ، أبو العباس أحمد (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، في ٣، تحقيق محمد مصطفى زياده، ط ٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦-١٩٧٠م، ج ١، ص ٧٤٨، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: المقرئ، السلوك؛ أبو الفداء، تقويم ص ٢٧١.

S. D., Goitein, A Mediterranean Society, Vol. 1, University of California Press, Berkeley 1967, pp. 103-104.

ويشار لهذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا: Gaitein, Society؛ فيصل السامر، الاصول التاريخية للحضارة العربية في الشرق الأقصى، وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٨٦، ص ٢٤٤، والمرحلة الجامعية السامر، الاصول؛ مصطفى الشكعة، سيف الدولة، ص ١٨٧.

٥٠ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي القرشي البغدادي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، أخبار الحمقى والمغفلين، المكتب التجاري، بيروت، ص ٩٥، ١٠٠، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: ابن الجوزي، اخبار؛ عطية مشرفة، نظم الحكم، ص ٢٩٤.

٥١ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٥، ١٨٠، ١٨١؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ٢٠١؛ علي الحسيني، تاريخ، ص ١١٧.

٥٢ . ابن حوقل، المسالك، ص ١١٩، ١٢٠؛ صورة، ص ١٦٥، ١٦٦؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٧٢؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٣٦؛ عبدالقادر سلمان المعاضيدي، واسط في العصر العباسي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨٣، ص ٤٢٦، والمرحلة الجامعية المعاضيدي، واسط؛ حمدان الكبيسي، أسواق بغداد حتى بداية العصر البهوسي، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٧٩، ص ١٩١، والمرحلة الجامعية الكبيسي، أسواق بغداد، الميازر جمع مئزر قطعة من القماش التي تستر العورة والتي تلبس من السرة إلى الأسفل.

الشامية المصدرة كانت<sup>٥٣</sup> هائلة ومتنوعة ومن أهمها الخز (وهو نسيج من الحرير الناعم، والديباج «وهو نسيج حرير موشى بالذهب»، والبز «وهو نسيج قطني ثمين». وغير ذلك من منسوجات الشعر والوبر<sup>٥٤</sup>. وهذه البضاعة المصادرة هي بالطبع بعض من السلع والمنتجات التي صدرت من الشام الى العراق وغيره من المناطق الشرقية، إذ لا يعقل أن تكون هذه المصادر كل المصدر بل ربما جزءاً بسيطاً منها. وربما تكون هناك مبالغة في مقدار هذه المصادر وزيادة قيمتها.

وكانت بلاد الشام تصدر أيضاً لمصر الأنسجة الشامية الحريرية الراقية<sup>٥٥</sup> الصنع، وذلك لأن مصر كانت تنتج كمية محدودة من النسيج الحريري، لا يكفي للاستهلاك والطلب المحلي، ولأن المنسوجات الحريرية غالية ولا يقدر على شرائها إلا الفئات الغنية والخاصة في المجتمع، وقد وجدت جماعات غنية كثيرة في مصر وخاصة في العصر الفاطمي، ولهذا الأسباب كانت مصر أكبر مستورد للحرير الشامي، وتؤكد ذلك وثائق (الجنيزا)، وكان جزء من الحرير الشامي المصدر الى مصر يستعمل في صناعة المنسوجات فيها حيث كان يحاك مع مادة الكتان<sup>٥٦</sup> الرخيصة، كما كانت بعض مدن الشام مثل الرملة<sup>٥٧</sup> وبيت المقدس وحلب تصدر مادة القطن دون الاشارة الى تصديرها كخيوط أو الى المادة الأولية التي يمكن أن تحول وتستخدم في المنسوجات وغيرها، علماً أن أكثر مناطق زراعة القطن كانت شمال بلاد الشام في حلب والجزيرة، خاصة أثناء<sup>٥٨</sup> العصر الحمداني، غير أن أكثر القطن الذي كان يزرع

٥٣. ابن حوقل، المسالك، ص ١١٩، ١٢٠؛ صورة، ص ١٦٥، ١٦٦؛ ابن العديم، بغية، ورقة، ص ٣٩؛ كرد علي، الاسلام، ج ٢، ص ٢٨٢.

٥٤. ابن سعد، ابو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ج ٨، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، ج ٥، ص ١٣٩، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا: ابن سعد، طبقات؛ الثعالبي، يتيمة، ج ١، ص ٣٤، ١٢٦؛ حسن حماني، الأزياء الشعبية وتقاليدها في سوريا، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧١، ص ٨، ٣٧، ٣٨، والمرحلة الجامعية حماني، الأزياء.

٥٥. ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٥٢؛ البراوي، حالة مصر، ص ٢٥٤؛ عطية مشرفة، الحكم في مصر، ص ٣٠١؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢١٢، ٢١٨.

٥٦. لومبارد، الاسلام، ص ٢١٢، ٢١٨. Goitein, Society Vol. I, pp. 102-103.

٥٧. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١.

٥٨. ابن حوقل، المسالك، ص ١٤٢؛ صورة، ص ١٨٧، ٢٠٧؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٠، ١٨٠؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٥٩.

ويتج كان يستهلك محلياً وبعضه كان يصدر الى مصر وغيرها، وكانت مصر أكبر مستورد<sup>٥٩</sup> للقطن الشامي إذ لم تكن قد أصبحت بعد منتجة له، وربما كان العراق يستورد أيضاً بعضاً من الانتاج الشامي للقطن وخاصة ما كان ينمو في شمالي بلاد الشام.

وتحدثنا المصادر عن نوعية إنتاج بعض المدن الشامية من المنسوجات الحريرية والقطنية وغيرها وتصديرها، وهذا الصدد يروي ابن العديم عن منطقة الثغور بأنه كان يعمل فيها ثياب كانت تسمى الشفايا وهي مثل رفيع الدبيقي<sup>٦٠</sup> تحمل الى كل بلد. وروى أيضاً نقلا عن الحسن بن أحمد المهلبى «المسالك والممالك»، القول عن المصيبة<sup>٦١</sup>، (يعمل بها الفراء وهي تحمل الى الآفاق وربما بلغ الفرو الواحد منها ما قيمته ثلاثين<sup>٦٢</sup> ديناراً). كما يذكر أن الرصافة اشتهرت بصناعة الاكسية والجوالق<sup>٦٣</sup> والمخالي وكانت تصدر منها الى سائر البلاد، كما كانت حمص وحمّة تصدران الثياب والحبال<sup>٦٤</sup>، وكان لحماة شهرة ببعض المنسوجات خاصة البياض<sup>٦٥</sup>.

### الزجاج :

كانت صناعة الزجاج عريقة<sup>٦٦</sup> ومتطورة في بلاد الشام، وكانت نوعية الزجاج الشامي

- ٥٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦١، ١٨٠، ١٨١؛ ابن حوقل، المسالك، ص ١٤٢؛ ياقوت، معجم، ج ٥، ص ١٤٥؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٤٥؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢١٣.
- ٦٠ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٦١، ٦٣. «الدبيقي نسبة الى دبقا من قرى مصر قرب تيس تنسب لها الثياب الدبيقية». ياقوت، معجم، ج ١، ص ٤٣٨.
- ٦١ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٥٠، ٥١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٥١.
- ٦٢ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٥١؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ١١٤، ٣٠٧.
- ٦٣ . القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٨م)، آثار البلاد وأخبار العباد دار صادر، بيروت، د. ت، ص ١٩٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القزويني، آثار البلاد.
- ٦٤ . زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٨م، ص ٩٩، والمرحلة الجامعية النقاش، العلاقات :
- ٦٥ . أحمد الصابوني، تاريخ حمّاء، شرح وتعليق قدرى الكيلاني، المطبعة الأهلية، حلب، ١٩٥٦، ص ١١٨. المرحلة الجامعية الصابوني، تاريخ حمّاء.
- ٦٦ . حتى، تاريخ، ج ١، ص ٢٩، ٩٩، ج ٢، ص ٣٠٤؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢١٩؛ بشير زهدي، «الزجاج القديم وروائعه»، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد العاشر، دمشق (١٩٦٠م)، ص ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، والمرحلة الجامعية زهدي، «الزجاج»؛ جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة خلف الله ومصطفى الامير وطه باقر، القاهرة، ١٩٥٧م، ج ١، ص ١٨٥، والمرحلة الجامعية سارتون، تاريخ؛ محمد بشير الهاشمي، الزجاج الاسلامي، ص ١٠؛ الحسني، تاريخ سورية، ص ١١٨.



راقية جدا، وبعد الفتح العربي شهدت بعثا جديدا وعادت الشام الى تصدير الرائع منه الى الغرب<sup>٦٧</sup> والشرق فصدرت حلب ودمشق وغيرهما مصنوعات الزجاجية الممتازة الى منطقة حوض البحر المتوسط وأوروبا<sup>٦٨</sup>، ونالت دمشق شهرة فائقة، فالثعالبي يعد صناعة الزجاج من خصائص الشام، وقال إنه يضرب به المثل في الرقة والصفاء فيقال «أرق من زجاج الشام» وقال بعض الحكماء «أرق بالعدو كما يرق بزجاج الشام» وكان زجاجهم هذا طرازا خاصا بلغوا فيه درجة كبيرة من الاتقان وخاصة الزجاج الملون المطلي بالمينا والذي كان يصدر لجهات كثيرة من العالم<sup>٦٩</sup>، ومنذ بداية القرن الثاني الهجري قامت دمشق بتصدير زجاجها المطلي بالمينا الى الأقطار المجاورة وخاصة الى مصر رغم ما عرف عن مصر بتقدمها بهذه الصناعة ومرد ذلك هو جودة الزجاج الشامي، ولهذا استهوى أهل الترف والأبهة في الفسطاط والقاهرة فيما بعد؛ ففي العصر الفاطمي غمرت أسواق<sup>٧٠</sup> القاهرة بانتاج دمشق

- ٦٧ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠؛ ياقوت، معجم، ج ١ ص ٦٣١؛ الجاحظ، أبو عثان عمر بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، المكتبات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الجاحظ، الدلائل والاعتبار؛ حقي، تاريخ، ج ١، ص ٩١، ج ٢، ص ٣٠٤؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٧٧؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢١٩؛ ديباند، م. س.، الفنون الاسلامية، ط ٢، ترجمة أحمد محمد عيسى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٣٠، و المرحلة الجامعية ديباند، الفنون؛ زكي محمد حسن، الكنوز الفاطمية، المجمع العربي للثقافة العلمية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٧٧، والمرحلة الجامعية زكي حسن، كنوز؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ٩٩.
- ٦٨ . زكي حسن، كنوز، ص ١٧٦؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ٥٩، ٩٩؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢١٩؛ ديباند، الفنون، ص ٢٣٨، ٢٣٩؛ زهدي، «الزجاج»، ص ١٣٤.
- ٦٩ . الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٥٠-١٥٧؛ ابن الجوزي، أخبار، ص ٩، ٨٥، ١٨٤، ٢١٦؛ ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص ١٢٠؛ ياقوت، معجم، ج ١، ص ٣١٦، ٤٣٧؛ زكي حسن، كنوز، ص ١٨٥؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ٢١٦؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٩٩؛ سرور، تاريخ الحضارة، ص ١٣٤؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج ٢، ص ١٣٤، ج ٤، ص ٣٩٦، ٣٩٧.
- ٧٠ . الثعالبي، لطائف، ص ١٥٧؛ ديباند، الفنون، ص ٢٢١، ٢٣٧، ٢٣٨؛ زكي حسن، كنوز، ص ١٨١، الراوي، حالة مصر، ص ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧؛ محمد نبيل عبدالعزيز، دمشق بين ١٠٥٤-١١٥٤هـ، رسالة (جامعية)، جامعة القاهرة، ص ١٣٣، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: محمد نبيل، دمشق؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج ١، ص ٢٦٩، ٢٧٠؛ عمر كحالة، الفنون الجميلة في العصور الاسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٢، ص ٢٤٧، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: كحالة، الفنون؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ٢١٧؛ عصام الدين عبدالرؤف، الحواضر الاسلامية الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٥١، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عصام الدين عبدالرؤف، الحواضر الاسلامية.

من الزجاج المطلي بالمينا، كما تسابق تجار أوروبا على استيراد الزجاج المطلي الفاخر الملون ولاقت تجارته أسواقاً رابحة لجمال تصميمه<sup>٧١</sup> وكمال صنعه .

وأما حلب فقد تقدمت بفن صناعة الزجاج منذ القرن الثالث الهجري / التاسع<sup>٧٢</sup> الميلادي، ومن النصوص التاريخية التي يستدل منها على تقدم حلب في صناعة الزجاج وتصديره حكاية من باب فضل القناعة من كتاب جلستان السعدي الشاعر الشيرازي «الایراني» تحدث فيها عن تاجر ثرثار أخبره أنه يستعد لرحلة جديدة، «فسأله سعدي : إلى أين ستكون السفارة؟ فأجابه التاجر : أريد أن أحمل الكبريت من إيران إلى الصين فقد سمعت أن له قيمة عظيمة فيها، ومن هناك آخذ الخزف الصيني إلى بلاد الشام ثم أحمل الدبباج الرومي إلى الهند، والفولاذ الهندي إلى حلب، وآخذ الزجاج الحلبي إلى اليمن والأقمشة اليمنية<sup>٧٣</sup> إلى إيران». وفي الواقع ذاع صيت حلب ومكانتها في إنتاج الزجاج وتصديره إلى أوروبا، وكان سوق الزجاج فيها مقصد التجار وقبلة الأثرياء والهواة، وكانت مصنوعات تعد من أئمن الهدايا لميزاتها الفنية<sup>٧٤</sup> البديعة كما صنع الزجاج في مدن أخرى من بلاد الشام وتطورت صناعته ومواصفاته في هذه الفترة، وذكرت المصادر كلا من الرقة وعكا وطرابلس وصور وصيدا في صناعته، ونظرا لمواصفاته فيها فقد صدر إلى بلاد الصين<sup>٧٥</sup>

- ٧١ . روم لاندو، الإسلام، ص٣٣٦؛ زكي حسن، كنوز، ص١٨١؛ زياده، دمشق، ص١١٠ كحالة، الفنون، ص٧٤٧؛ كرد علي، خطط، ج٤، ص٢١٧؛ ديباند، الفنون، ص٣٣٨، ٣٣٩؛ بشرزهدی، الزجاج، ص١٣٤؛ أبو الفرج العث، «الزجاج السوري»، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد ١٦، (١٩٦٦م)، ص٤٨، ٤٩، وسيشار لهذا المرجع عند صدوره فيما بعد هكذا : العث، «الزجاج» .
- ٧٢ . الفزوي، آثار البلاد، ج٢، ص١٢٣، ١٢٧؛ ريسلر، الحضارة، ص١٢١؛ العث، «الزجاج السوري»، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد ٧ (١٩٥٧م)، ص٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧ .
- ٧٣ . زكي حسن، كنوز، ص١٧٨؛ العث، «الزجاج»، ص٤٧ .
- ٧٤ . زكي حسن، كنوز، ص١٧٨؛ العث، «الزجاج»، ص٤٧ .
- ٧٥ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٠، ١٨٠، ١٨١؛ ابن جبير، رحلة، ص٢٤٦؛ لومبارد، الإسلام، ص٢١٩، ٢٢٠؛ ريسلر، الحضارة، ص١٢٢؛ الثعالبي، لطائف، ص١٥٠؛ ابن حوقل، المسالك، ص١٤٢؛ صورة، ص١٨٧، ٢٠٧؛ ياقوت، معجم، ج١، ص٣١٦، ٤٣٧؛ زكي حسن، كنوز، ص١٨٥؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٣٠٩، ج٤، ص٣٩٦، ٣٩٧؛ سرور، الحضارة، ص١٣٤؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص٣٠٩؛ كرد علي، خطط، ج٤، ص٢١٦؛ العث، «الزجاج السوري»، (الحولية ٧ / ١٩٥٧)، ص٥٠؛ حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص٢٣١؛ التدمري، تاريخ طرابلس، ص٢٣١ .

وغيرها، ويشير المقدسي إلى أنه كان يرتفع من فلسطين وخاصة من القدس<sup>٧٦</sup> المرابا، وقصور القناديل مع جملة ما يحمل منها من أنواع الصناعات المختلفة، وقد أشاد ناصر خسرو بالقناديل الكثيرة والثريات المذهبة<sup>٧٧</sup> والمفضضة التي لاحظها أثناء مروره في مدينة صور وغيرها من المدن الساحلية، ووصف أسواقها بالثراء التجاري.

كما كانت العراق تستورد كميات كبيرة من زجاج بلاد الشام<sup>٧٨</sup>. ونظرا لقيمتها الممتازة فقد كان - كما أشرنا - يرفع منه الكثير الى اليمن<sup>٧٩</sup> كذلك، ويمكن القول بأن الزجاج الشامي كان يصدر لشمال<sup>٨٠</sup> افريقية والأندلس وبيزنطة.

وتؤكد وثائق الجيزة تصديره بكثرة في الفترة الصليبية إلى مناطق أوروبا الغربية، وكان الصليبيون قد أقدموا على نهب كميات كبيرة من الزجاج السوري الملون ظنا منهم أن تلك الزجاجيات منحوتة من الحجارة<sup>٨١</sup> الكريمة، وكذلك أقبل تجار البندقية على زجاج مدينة صور وطرابلس وأكثرها من استيراد القطع المحطمة والسيئة الصنع وتذويبها ثانية وصنعها من جديد، وبهذه الطريقة نشأت صناعة<sup>٨٢</sup> الزجاج في البندقية، كما أن الرحالة والحجاج القادمين الى بيت المقدس قد أعجبوا بالأواني الزجاجية ويزخرفتها وبألوانها، وأخذوا منها الكثير، ويوجد منها الى اليوم الكثير في الكنائس<sup>٨٣</sup> والمتاحف الأوروبية.

- ٧٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ٢٢٤.
- ٧٧ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٤، ٥٠، ٥٦، ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٦؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢٢٠؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، ص ٣٢٦، ويشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : عاشور، تاريخ العلاقات؛ الأمير، تاريخ سورية، ص ١١٨.
- ٧٨ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٧٩؛ المعاصري، واسط، ص ٤٣٦.
- ٧٩ . زكي حسن، كنوز، ص ١٧٨؛ هونكه، شمس العرب، ص ٣٢٦؛ العشي، الزجاج، ص ٤٧.
- ٨٠ . زكي حسن، كنوز، ص ١٧٦؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢١٩؛ ديماندا، الفنون، ص ٢٣٨، ٢٣٩؛ زهدي، «الزجاج»، ص ١٣٤.
- ٨١ . لومبارد، الاسلام، ص ٢٢٠. ابن جبير، ص ٢٤٦.
- ٨٢ . لومبارد، الاسلام، ص ٢٢٠؛ وانظر : ابن جبير، رحلة، ص ٢١٦؛ فصل السامر، الاصول التلغرافية، ص ٢٤٩، ٢٥٠؛ العشي، «الزجاج»، ص ٥٥.
- ٨٣ . كحالة، الفنون، ص ٢٤٧.

## السورق :

كانت بلاد الشام تصدر الورق، وكانت دمشق وطبرية وطرابلس<sup>٨٤</sup> من المراكز الهامة لصناعة الورق وتصديره، وكانت طرابلس من أهم مراكز صناعة الورق في الشام في هذه الفترة وأعرقها، وزارها فيما بعد الرحالة ناصر خسرو<sup>٨٥</sup> وأطرى ورقها وقدمه على ورق سمرقند<sup>٨٦</sup>، وامتازت طبرية بصناعة الورق وتصديره، وذكر ذلك المقدسي البشاري، وأما ورق دمشق فقد اشتهر كثيرا وقد نوه بورقها مؤرخو الروم، وأثنى على ورقها المؤرخون العرب والمسلمون، ولهذا فقد كان<sup>٨٧</sup> ورقها مرغوبا ومطلوبا في أماكن كثيرة وبعيدة .

وكان الورق المعروف بورق الطير الذي تكتب به البطاقات وتعلق في أجنحة الحمام الزاجل صنفا من الورق الشامي الرقيق جدا وفيه كانت تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام<sup>٨٨</sup>، كذلك اشتهرت حلب بصنع الورق، واستمرت حلب تقدم نوعا من الورق الجيد وما زال فيها حي الى اليوم يسمى بحي «الوراقة» .

ونظرا لجودة ورق طرابلس ودمشق فقد كان الورق السوري مطلوبا في كثير من البلدان، وكانت تجارته رائجة وكان يصدر كميات كبيرة منه الى مصر<sup>٨٩</sup>. لأن استهلاكه المحلي كان كبيرا نظراً للتطور الفكري في القاهرة في العصر الفاطمي، كما أن نوعية الورق المصري لم تكن<sup>٩٠</sup> بمستوى الورق الشامي، أما العراق فقد كان يعد من المراكز الهامة لانتاج

٨٤ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ الثعالبي، لطائف، ص ١٢٦؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٦؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٣٦٠؛ سرور، تاريخ الحضارة، ص ١٣٥؛ حتي، تاريخ سورية، ج ٢، ص ٢٣١؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ٣٤٢؛ الاسلام والحضارة العربية، ج ٢، القاهرة، ١٩٦٨، ج ١، ص ٢١٥، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : كرد علي، الاسلام؛ لومبارد، الاسلام، ص ٢٢٤ .

٨٥ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨؛ حتي، تاريخ سورية، ج ٢، ص ٢٣١؛ كوركيس عواد، «الورق أو الكاغذ»، مجلة المجمع العلمي العربي، العدد الثالث والعشرون، دمشق (١٩٤٨)، ص ٤٢٩، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : كوركيس، «الورق»؛ التدمري، تاريخ طرابلس، ص ٢٥ .

٨٦ . ابن عساكر، مخطوط، مجلد ١، ورقه ٢٧٣، ومجلد ٤، ورقه ٢٢٧، ومجلد ١١، ورقه ٥٠، ومجلد ٢٩، ورقه ١٤٠؛ التدمري، تاريخ طرابلس، ص ٢٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠ .

٨٨ . أبو البدر، نزهة، ص ٣٦٣؛ كرد علي، الاسلام، ج ١، ص ٢١٥؛ كوركيس، الورق، ص ٤٢٩، ٤٣٠ .

٨٩ . القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٨٧، ٤٨٨؛ كرد علي، خطط، ج ٢، ص ٢٤٣، ٢٤٤ .

٩٠ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٨٧، وج ٦ ص ١٨٨، ١٩٤؛ Goitein, Society, Vol.I. p.81,

الورق ولذلك ربما لم يكن يستورد الورق الشامي بكميات كبيرة، لهذا فان معظم الورق المصنع في الشام كان يصدر الى مصر، وكان بعضه يصدر الى بيزنطة<sup>٩١</sup>، وكانت أوروبا الشرقية تبتاع ورقها من الشرق الأدنى مباشرة على ما يشهد بذلك اسم الورق<sup>٩٢</sup> الدمشقي .

### المحاصيل الزراعية المصدرة :

- الحبوب : كانت أهم المحاصيل الزراعية في بلاد الشام هي الحبوب وأهمها القمح ثم الشعير، وهذان المحصولان كانا يزرعان في كل الأراضي الزراعية في بلاد الشام<sup>٩٣</sup> تقريبا، وكانت الشام تعتمد في زراعتها هذه على مياه الأمطار ومعدل الأمطار السنوي كان عرضة للتقلب، وفي بعض السنين كان الإنتاج من القمح لا يكفي للاستهلاك المحلي، لهذا كان يستورد من مصر .

كانت صادرات بلاد الشام من الحبوب تذهب الى الجزيرة العربية<sup>٩٤</sup> والى العراق أحيانا على شكل أكياس من الطحين تحملها المراكب التي تمخر نهر الفرات مخترقة قناة نهر عيسى الى بغداد ومنها الى بقية المدن العراقية، وكانت الجزيرة الشامية تنتج بالاضافة الى القمح والشعير منتجات المنطقة الجبلية كالجوز واللوز والفسق والبندق والبلوط، وكانت تقوم بتصدير بعض من إنتاجها .

### الزيتون وزيت الزيتون :

اشتهرت بلاد الشام بزراعة الزيتون، ولشجرة الزيتون أهمية خاصة في بلاد الشام، وهي تزرع في أكثر المناطق<sup>٩٥</sup>، غير أن كثافتها أكثر ما تكون في فلسطين وبقية السهول

٩١ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٨٧، ٤٨٨ .

٩٢ . كرد علي، الاسلام، ج ١، ص ٢١٥؛ كوركيس عواد، «الورق»، ص ٤٣٠ .

٩٣ . الاصطخري، المسالك، ص ٤٦، ٤٧؛ ابن حوقل، صورة، ص ١١٦، ١١٧، ١٦٢، ١٦٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٠، ١٨٠؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥، ٧٤؛ ياقوت، معجم، ج ١، ص ٢٦٧، ٣٣٨، ج ٤، ص ٧٥؛ ابن العديم، بغية، ورقة ٢٢ ظ ٣٩؛ زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٨٤، ٣٤١ .

٩٤ . يعقوبي، البلدان، ص ٢٥٠؛ لومبارد، الاسلام، ص ١٩٢؛ سرور، تاريخ الحضارة، ص ١٥٠ .

٩٥ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٢، ١٧٤؛ الاصطخري، المسالك، ص ٥٨؛ ابن حوقل، صورة، ص ٥٤، ٥٥، ٧٠، ٧٣؛ ابن العديم، بغية، ورقة ٢٢ ظ، ١٠، ٤١، ١٦٤، ١٦٦؛ ياقوت، معجم، ج ١، ص ٣٥٢، ٣٨٣، ٥٦٧، وج ٤، ص ٤٧٦؛ أبو الفداء، تقويم، ص ٣٤١، ٣٥٣؛ الادريسي، نزهة، ص ٤، ٧، ١٣؛ جميل معللا وعبد المنان حلوة، زراعة الزيتون، ص ٥، وسيشار لهذا المرجع عند

الساحلية وما بين حلب وأنطاكية، ولذلك كانت أكثر السلع الزراعية التي تصدر من بلاد الشام هي الزيتون أو زيت الزيتون، ويذكر ناصر خسرو أن سواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها والزراعة وأشجار الزيتون تنبت بغير ماء، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد خمسين ألف «من» من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض ويصدرونها الى<sup>٩٦</sup> طرف العالم. ويبدو أن زيت الزيتون والصابون المصنع منه كانا من أهم المواد الزراعية التي كانت الشام تصدرها في العصور الإسلامية<sup>٩٧</sup>. وكان زيت الزيتون يصدر الى مصر والجزيرة العربية، وخاصة الى العراق والأقطار<sup>٩٨</sup> الشرقية الأخرى. ويروي ابن العديم أن منطقة حلب وبلد الأثارب الى جبل السحاق، هي بلد التين والزيتون وغيرها من السلع الزراعية الكثيرة تخرج عن الحد في الرخص وتحمل الى مصر والعراق والرقه، ويجهز منها الى كل بلد<sup>٩٩</sup>. وذكر الثعالبي «أن زيت الشام يضرب به المثل في الجودة والنظافة، وإنما قيل له الزيت الركابي لأنه يحمل على الابل من الشام، وهي أكثر بلاد الله زيتونا»<sup>١٠٠</sup>. ويؤكد شيخ الربوة فيما بعد أخبار نقل الزيت من نابلس الى الديار المصرية والى الحجاز وغيرها من المناطق، كما ويعمل من هذا الزيت الصابون الذي يحمل الى سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية والى غيرها من جزائر البحر الرومي<sup>١٠١</sup>. وما يدلنا على كثرة تصدير الزيت من

وروده فيها بعد هكذا : جميل معلا، زراعة الزيتون؛ علي نصوح الطاهر، شجرة الزيتون : تاريخها، زراعتها، أمراضها، صناعتها، يافا، ١٩٤٧، ص ١، ٦، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا : الطاهر، شجرة الزيتون؛ الشهابي، الأشجار، ص ١٠٧؛ وصفي زكريا، المفكرة، ص ٢٣، ٢٦، ٧١؛ لامنس، تسريح، ج ٢، ص ١٨٧؛ لومبار، الاسلام، ص ١٩٣، ١٩٤.

٩٦ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٥، ٥٦؛ ابن الجوزي، أخبار، ص ١٥٣؛ الداوداري، الدر، ص ١٧٩.  
٩٧ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٦ وما بعدها؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ١٠؛ ابن الشحنة، تاريخ، ص ١٤٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٨٧؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٥٨.

٩٨ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠؛ ابن الجوزي، أخبار، ص ١٥٣؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٦؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ١٠، ٤٣؛ الثعالبي، لطائف، ص ١٥٧؛ لومبار، الاسلام، ص ١٩٤؛ المعاضدي، واسط، ص ٤٢٧.

٩٩ . ابن العديم، بغية، ورقة ١٠ ظ، ٢٢ ظ، ١٥ ظ، ٤١، ١٦٤، ١٦٦؛ أبو الفداء، ص ٣٦٥؛ ابن الشحنة، تاريخ، ص ١٤٩؛ ابن شداد، الاصلاق، ج ١، ص ١٥٣؛ الثعالبي، لطائف، ص ١٥٧، ١٥٨؛ الكبيسي، أسواق، ص ١٩١.

١٠٠ . الثعالبي، لطائف، ص ١٥٧ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٤٩.

١٠١ . شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب (ت ٧٧٧هـ / ١٣٢٧م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبزيج، ١٩٢٣، ص ٢٠٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : شيخ

الشام الى العراق لإقدام سيف الدولة عام ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م عندما كان في بالس على مصادرتة هناك لبضائع التجار المصدرة الى العراق وبلغت قيمتها من الزيت والبز ما مقداره مليون<sup>١٠٢</sup> دينار، كما أشرنا سابقاً.

واستمر تصدير زيت الزيتون الى العراق لعدة قرون، وكانت عملية التصدير الشامية لهذه السلعة تتم الى مصر عن طريق البحر والى العراق كانت تنقل في القوارب التي كانت تسير في الفرات<sup>١٠٣</sup> الى بغداد ومنها الى بقية المدن والمناطق في العراق، أو أنه ينقل الى العراق بحمله على الإبل<sup>١٠٤</sup>. وكانت القيروان<sup>١٠٥</sup> في الشمال الإفريقي من أعظم المراكز التجارية أهمية حيث كانت تقوم باستيراد زيت الزيتون من مناطق طرابلس والساحل وتقوم بتصديره الى صقلية وإيطاليا.

### الفسق :

اتفق العلماء على أن سورية والمناطق الجنوبية الشرقية من آسيا الصغرى تعتبر مهداً لهذه الشجرة ومنها انتشرت في المناطق الجافة والحارة لمنطقة البحر المتوسط ومن هذه المناطق انتقلت<sup>١٠٦</sup> الى أوروبا، وتعتبر حلب من أشهر مناطق زراعة الفسق في العالم<sup>١٠٧</sup>، ولكثرة

الربو، نخبة الدهر؛ وانظر : المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٤٩؛ علي نصوح، شجرة الزيتون، ص ٩.

١٠٢ . ابن حوقل، صورة، ص ١٦٦؛ والمسالك، ص ١١٩؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٣٩.  
١٠٣ . يعقوب، البلدان، ص ٢٥٠؛ ابن العديم، بغية، ص ٤٠؛ المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٤٤؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٣٦، ١٥٤؛ البراوي، حالة مصر، ص ٢٣٣، ٢٣٤؛ محمد الزبيدي، العراق في العصر البويهي، التنظيمات السياسية الادارية والاقتصادية ٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٨م، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٩، ص ١٦٩، ويشار لهذا المرجع عند وروده فيها بعد هكذا : الزبيدي، العراق؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج ٢، ص ٣١٧.

١٠٤ . الجهشيارى، محمد بن عبدوس، (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م) الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٢٨٧، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الجهشيارى، الوزراء؛ الثعالبي، أبو منصور عبدالمك (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٩٠٨م، ص ٤٢٢، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الثعالبي، ثمار القلوب؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٨٣؛ لطائف، ص ١٥٧؛ الكبيسي، أسواق بغداد، ص ١٩١، ١٩٥.

١٠٥ . ارشيبالد، القوى، ص ٢٥٣.

١٠٦ . كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٨٣.

١٠٧ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ١٠، ١٦، ٤١، ١٦٧؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٨٣.

زراعته في حلب ومناطقها فإنه نسب إليها حيث عرف بالفستق<sup>١٠٨</sup> الحلبي، ولقد شجع الحمدانيون زراعته<sup>١٠٩</sup> في عصرهم، وتنتج حلب ومناطقها أشهر الأصناف وأجودها ثمناً<sup>١١٠</sup> من الفستق، وعلى هذا الأساس اعتبرت سورية الاقليم المثالي لهذه الشجرة، واشتهرت مدينة معرة النعمان بزراعته حيث وصفتها المصادر بأن أكثر أشجارها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر<sup>١١١</sup> والشام، ويقول ابن العديم<sup>١١٢</sup> إن حلب من أجل المدن وأنفسها ولها من الكور والضياح ما يجمع سائر الغلات النفيسة، «وكان بلد معرة مصرين إلى جبل السباق بلد التين والزبيب والفستق والسباق يخرج عن الحد من الرخص ويحمل الى مصر والعراق ويجهز إلى كل بلد»<sup>١١٣</sup>.

ويروي ابن الشحنة أن حلب كانت تصدر الفستق، وكان غالي الثمن خارج حلب، ولذلك كان الأغنياء فقط هم القادرين على شرائه، ويقول أيضاً كان ينقل على الجمال الى مصر، أما الأوروبيون فكانوا يشحنونه عن طريق البحر الى بلادهم حيث كانوا يبيعونه بأسعار مرتفعة<sup>١١٤</sup> في أوروبا.

## السكر :

عرف السكر وصنع في مناطق كثيرة ببلاد الشام، وتشير المصادر إلى أن السواحل

- ١٠٨ . ابن حوقل، صورة، ص ١٦٤؛ الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٤٢، ١٢٣، ١٢٥؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٥؛ فيليب حتي، مختصر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد جرجس نصار، مراجعة محمود يوسف زائد، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٢١٣، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : حتي، مختصر.
- ١٠٩ . درويش الجندي، الشعر في ظل سيف الدولة، مكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٢، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : الجندي، الشعر.
- ١١٠ . ابن حوقل، صورة، ص ١٦٤، ١٦٦؛ ابن العديم، بغية، ورقة، ١٦، ٤١، ١٦٧؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٨٣.
- ١١١ . ابن حوقل، صورة، ص ١٦٤؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٤١؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٥؛ محمد سليم الجندي، تاريخ معرة النعمان، ج ٣، تحقيق عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٣-١٩٦٧م، ج ١، ص ٧٧، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : الجندي، معرة النعمان.
- ١١٢ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٤١ وانظر : ابن حوقل، صورة، ص ١٦٤.
- ١١٣ . ابن حوقل، صورة، ص ١٦٤، ١٦٦؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ١٠، ١٦.
- ١١٤ . ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص ٢١٥، ٢٥٢؛ المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢٥٤؛ ابن شداد، الاعلاق، ج ١، ق ١، ص ١٥٣؛ ابن بطوطة، رحلة، ج ١، ص ٥٥، ٨٥؛ البراوي، حالة مصر، ص ٢٦١؛ حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦١٦.



الشامية وأرض الغور في منطقة الأردن كانت مهمة جدا في زراعة قصب السكر وفي إنتاج السكر وتصديره<sup>١١٥</sup>. وازداد انتاجه بعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والقرن الثاني، وكانت بلاد الشام تصدر قسما من انتاجها وخاصة الى مصر<sup>١١٦</sup> والعراق، ثم الى غيرهما من المناطق. وكان السكر يصدر الى الأقاليم الشرقية<sup>١١٧</sup> من العالم الاسلامي.

كما كان السكر الشامي يصدر الى أوروبا، وكانت طرابلس ودمشق بوجه خاص تمولان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله (رقائق أو ناعم أو بشكل حلوى<sup>١١٨</sup>). كما صدرت المنتوجات الشامية من السكر والأشربة<sup>١١٩</sup> الى الغرب والشرق وكانت تصنع في معظم مدن الساحل الشامي كصور التي كانت تعتبر من المراكز الهامة لصناعته. كما صدرت بعض منتوجات الشام من السكر الى بلاد الهند<sup>١٢٠</sup> كذلك، وأول إشارة لوصول السكر الى البندقية مؤرخة في عام<sup>١٢١</sup> ٣٨٦هـ/٩٩٦م.

- ١١٥ . الاصطخري، مسالك، ص٦١؛ ابن حوقل، صورة، ص١٦٢، ١٧٦؛ وله أيضاً : المسالك، ص١١٦؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦١، ١٦٢، ١٨٠؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧، ٤٩؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٥؛ ياقوت، معجم، ج١، ص١٤٧، ٢٠١، ج٤، ص١٧؛ الادريسي، نزهة، ص١٣؛ ابن شداد، الاعلاق، ج٢، ص١٠٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٧٨٧؛ ليسترانج، ص٤٩؛ فالح حسين، الزراعة في بلاد الشام في العصر الأموي، عمان، ١٩٧٨، ص١٠٦، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : فالح، الزراعة؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج٢، ص٣٠٧؛ حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص٢٥٥؛ سرور، تاريخ الحضارة، ص١٣٢، ١٣٣.
- ١١٦ . ابن حوقل، صورة، ص١٦٢؛ الاصطخري، مسالك، ص٦١؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٢، ١٨٠؛ المعاضدي، واسط، ص٤٢٧.
- ١١٧ . ياقوت، معجم، ج١، ص٢٠١، وج٣، ص٨٣٢.
- ١١٨ . ابن الشحنة، تاريخ، ص٢٦٢، ٢٦٣، نقلا عن ابن فضل الله العمري حيث يقول عن طرابلس «يجمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والبلح» وبها يصنع ويصدر منها؛ وانظر : ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧، ٤٩؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٣؛ فيليب حتي، لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فرحمة، مراجعة نقولا زياده، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م، ص٢١٤. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : حتي، لبنان، وله تاريخ العرب مطول، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، ط٣، دار الكشاف، بيروت، ١٩٥٨م، ص٧٨٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : حتي، تاريخ؛ التدمري، تاريخ طرابلس، ص٢٣٠.
- ١١٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠؛ حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص٢٥٥؛ سرور، تاريخ الحضارة، ص٣٢، ١٣٣.
- ١٢٠ . حتي، تاريخ العرب، ص٧٨٩.
- ١٢١ . لومبار، الاسلام، ص١٩٦.

## الصابون :

- اشتهرت الشام بصناعة الصابون وخاصة في فلسطين، ونابلس وبالس، وحلب والرقّة وسمرين<sup>١٢٢</sup>. وفي هذا المجال لا بد أن نعيد إلى الأذهان أن بلاد الشام وشمال افريقية كانا الصانعين الرئيسيين للصابون<sup>١٢٣</sup>.

ومن أهم مناطق صناعة الصابون وتصديره منطقة فلسطين<sup>١٢٤</sup>، وليس من الواضح أي المدن في فلسطين كان لها الصدارة في صنع هذه المادة، وإن كان المقدسي يشير الى تصديره من الرملة مع بعض المواد، غير أن المصادر تبين في الأزمنة اللاحقة بأن نابلس كانت دائما مركزا هاما لصناعة الصابون المصنوع من الزيت من النوعية الجيدة وكان يصدر لكل الجهات<sup>١٢٥</sup> والى جزر البحر المتوسط. ويذكر ابن حوقل بأن «بالس»<sup>١٢٦</sup> وهي مدينة على شط الفرات وأول مدن الشام يعمل بها الصابون الكثير والجيد، وكان يصنع على هيئة قطع جامدة، وكانت النورة تستعمل في تحضيره<sup>١٢٧</sup>. كما يشير المقدسي إلى أن أهم مراكز لصناعة الصابون وأجودها وفرة في القرن الرابع الهجري كان في مدينة الرقة<sup>١٢٨</sup> فهي معدن الصابون الجيد والزيتون على حد قوله، وكان يحمل منها<sup>١٢٩</sup> الى العراق الصابون مع الزيت والأقلام وغيرها من السلع.

١٢٢ . ابن حوقل، صورة ص ١٥٨، ١٦٥ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١، ١٦٢، ١٨٠ ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص ٢٥٤؛ لومبار، الاسلام، ص ١٩٤ فيصل السامر، الأصول التاريخية، ص ٢٤٤، ٢٤٥

١٢٣ . لومبار، الاسلام، ص ١٩٤.

١٢٤ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١، ١٦٢، ١٦٥، ١٨٠ ابن حوقل، صورة، ص ١٥٨، ١٥٩؛ لومبار، الاسلام، ص ١٩٤.

١٢٥ . شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٠٠ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٧٦.

١٢٦ . ابن حوقل، صورة، ص ١٦٥.

١٢٧ . ابن أبي اصيبعة، أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)، عيون الانباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٢٦٤. ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : ابن أبي اصيبعة، طبقات؛ الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن يحيى (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) البخلاء، تحقيق محمد علي الزعبي، مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٥٥م، ص ٢٢٣. ويشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الجاحظ، البخلاء.

١٢٨ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٠٤.

١٢٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١، ١٨٠؛ الكبيسي، أسواق، ص ١٩١.

كما نجحت صناعة الصابون كثيراً في حلب وبعض المناطق التابعة لها وخاصة في سرمين وادلب، وكان ينقل منه أنواع جيدة الى ممالك الروم والعراق وديار بكر، ويباع منه في حلب باليوم الواحد ما لا يباع في غيرها في شهر كامل<sup>١٣٠</sup>. ويأتي ابن بطوطة فيما بعد ليؤكد تقدم سرمين وذيوع شهرتها. بصناعة الصابون بحيث غدت من المراكز الهامة لإنتاجه وتصديره الى مصر وسائر بلاد الشام<sup>١٣١</sup>.

### ماء الورد :

اشتهرت بلاد الشام بأزاهيرها ووردها<sup>١٣٢</sup>، وتقدمت فيها صناعة الزهور والعمور، وكان للمسلمين ولع شديد بالعمور، واستعملوا المسك والعنبر والزعفران وكان لهم طيب يقال له الغالية<sup>١٣٣</sup>، وهو من المسك والعنبر، واختصت دمشق بالروائح العطرية وبماء الورد الذي كان يصدر لكثير من بقاع العالم كمصر، والجزيرة العربية والعراق، وأيضاً إلى السند والهند وحتى الى بلاد الصين<sup>١٣٤</sup>، ونظرا لجودة صناعة ماء الورد فقد عرف في مصر بالشامي،

١٣٠. ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص ٢٥٣؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ١، ق ١، ص ١٥٢؛ فيصل السامر، الأصول التاريخية، ص ٢٤٤، ٢٤٥.

١٣١. ابن بطوطة، رحلة، ج ١، ص ٨٥، ٨٦؛ البراوي، حالة مصر، ص ١٨٢؛ كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٥٩-١٦٢.

١٣٢. صلاح الدين المنجد، «المهلبى، المسالك والممالك»، مجلة معهد المخطوطات العربية جامعة الدول العربية، مجلد ٤، ج ١، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م)، ص ٦٥؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٣٤؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٢٨٢، ٢٨٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٧؛ البدرى، نزهة، ص ١٠٤، ١٠٨؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ١٦٥، ١٩٦؛ ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص ٢٥١، ٢٥٢؛ ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، تاريخ المزة وأثارها، تحقيق محمد عمر حمادة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٣، ص ٣٥. المرحلة الجامعية ابن طولون، تاريخ؛ كرد علي، غوطة دمشق، ط ٢، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٢، ص ٢٦. المرحلة الجامعية كرد علي، غوطة؛ لاندو، الاسلام، ص ٢٨٠؛ الكيالي، سيف الدولة، ص ١٨٣، ١٨٤.

١٣٣. يقال أن الذي ساهمها غالبية معاوية وذلك أنه سمعها من عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فاستطابها فسأل عنها فوصفها له فقال هذه «غالية». كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٥٦، ١٧٣؛ لاندو، الاسلام، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

١٣٤. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، (مجموعة محققين)، ج ٢، ص ١٨٢؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ١٩٥، ١٩٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٧؛ ابن طولون، تاريخ، ص ٣٤، ٣٥؛ حقي، تاريخ سورية، ج ٢، ص ٢٥٤.

وكان على درجة عالية من الجودة والتركيز، وكان أطباء مصر يصفونه بكثرة لمرضاهم «ويقولون عنه ماء ورد شامي»، وكثر الطلب عليه وخاصة أثناء الأوبئة والأمراض .

واشتهرت زهور لبنان وطيوب<sup>١٣٥</sup> البلقاء، وكانت من المواد التي تنقل الى مصر ايضا، كما كان لحلب ومناطقها شهرة خاصة بانتاج ماء الورد النصيبي<sup>١٣٦</sup> الذي كان يستخرج من مدينة الباب إحدى مدن منطقة حلب، ولا يوجد في الدنيا مثله، ولا تضاهيه سلعة مصدرة الى مصر من بلاد الشام على حد زعم ابن الشحنة، الذي ذكر أن دمشق كانت تصدر نوعا من ماء الورد الشامي السابق الذكر. ولا شك بأن مطالب رجال البلاط وغيرهم من الأعيان والتجار دفع بهذه الصناعة والمتاجرة بها الى الازدهار، فتعددت أنواعها وألوانها، وبهذا الصدد يذكر بأن طنج بن جف والذ الأخشيد «مؤسس الدولة الأخشيدية» كانت له في دمشق قبة مشبكة يتطيب فيها، فإذا ما تطيب لم يخف على أكثر أهل دمشق بخوره، ولقد قيل عن خزانة طنج للطيب كانت تحمل حين سفره على نيف وخمسين جملا<sup>١٣٧</sup>.

#### النيلة والزعفران :

عرفت بلاد الشام زراعة النيلة والزعفران وغيرها من المحاصيل الزراعية التي تستخدم في التلوين والصبغة<sup>١٣٨</sup>، وكان لها قيمة تجارية كبيرة، وتقوم بعض مناطق بلاد الشام بتصديرها الى مصر والعراق والأقطار الأخرى. ويقول المقدسي<sup>١٣٩</sup> بأن وادي الأردن كان ينتج كمية كبيرة ونوعية جيدة من النيلة، وخاصة في منطقة جرش حيث تقوم بتصديرها. ويذكر ابن حوقل<sup>١٤٠</sup> عن سكان زغر ووادي الأردن بأنهم كانوا يقومون بتصدير

- ١٣٥ . ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٥٩؛ لامنس، تسريح، ج ٢، ص ١٨١، ١٩٥ .  
 ١٣٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٥؛ ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص ٢٥١، ٢٥٢، ٢١٥ .  
 ١٣٧ . ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٥٠، ١٨٦؛ سيده كاشف، مصر في العصر الأخشيدى، ص ٢٧٦ .  
 ١٣٨ . ابن حوقل، صورة، ص ١٢٤، ١٥٠، ١٥٧، ١٦٩؛ المسالك، ص ٣٢٨؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤، ١٧٥، ١٨٠، ١٨١؛ الادريسي، نزهة، ص ٤٥؛ متز، الحضارة الاسلامية، ص ٢٤٨، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٨؛ لومبار، الاسلام، ص ٢١٥؛ نقولا زيادة، «جغرافية بلاد الشام»، المؤتمر الدولي الاول لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الاردنية، ١٩٧٤م، ص ١٧١ . المرحلة الجامعية زيادة، «جغرافية»؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٥٩ .  
 ١٣٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤، ١٧٥؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٣١٠، ٣١٨ .  
 لومبار، الاسلام، ص ٢١٥ .  
 ١٤٠ . ابن حوقل، صورة، ص ١٥٠؛ وله أيضاً : المسالك ص ١٢٤ .

النيلة الى عدة أقطار، وهناك مواد أخرى كالساق والفصّة وخشب البرازيل والزعفران كانت تنمو في بلاد الشام وتصدر أيضا الى مناطق بعيدة وصلت الى تونس<sup>١٤١</sup> وأماكن أبعد منها .

### الثلج :

ومن المواد الهامة التي كانت بلاد الشام تقوم بتصديرها الى العراق ومصر والجزيرة العربية مادة الثلج، وكل الثلج الذي كان يستهلك في مصر كان يستورد من الشام، وكان يحفظ في أوعية خاصة تحت الأرض في أيام الصيف الحارة وكان يباع بأسعار عالية جدا<sup>١٤٢</sup>، وكان تصدير الثلج يعتمد بصورة رئيسية على نقله والمحافظة عليه حتى لا يذوب، وفي ذلك من الصعوبة أكثر من توافره، ولقد عرف الأغنياء في مصر استعمال الثلج، وكان ينقل منه الكثير الى مصر في العصر الأخشيدي وخاصة الى قصر كافور الأخشيدي<sup>١٤٣</sup>، حيث كان يستعمل لتبريد الماء والمشروبات، كما كان ينقل الى منزل ابن عمار الوصي على الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، وكانت تصله منه كمية كل يوم تقدر بنصف حمل، وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي<sup>١٤٤</sup>، وزاد استهلاكه كثيرا في مصر الفاطمية، وذكر ناصر خسرو بأن الثلج كان يؤتى به يوميا من الشام الى مصر ولقصر الخليفة قُدِّر ما كان يصل منه بأربعة عشر حملا من<sup>١٤٥</sup> أحمال الجمال، وكان يخصص للوزراء كمية معينة منه يوميا، كما كان يخصص كمية منه للطبقة العليا في المجتمع، وأما عامة الناس فقد اقتصر إعطاؤه لهم في حالة المرض والتداوي من بعض الأمراض .

كما صدر الثلج الى العراق أيضا، وكان يحمل في الحراقات الى بغداد<sup>١٤٦</sup> ويقال بأن

١٤١ . ابن حوقل، المسالك، ص ٣٢٨؛ وله أيضاً : صورة، ص ١٥٧، ١٦٩؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٤؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٣١٨ .

١٤٢ . Goitein: Soceity, Vol. I, p. 115 .

١٤٣ . الغزولي، علاء النين البهائي الدمشقي (ت ٨٥١هـ / ١٤٤١م)، مطالع البدور في منازل السرور، ج ٢، مطبعة دار الوطن، القاهرة، ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م، ص ٧٧ . سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الغزولي، مطالع؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢١١؛ سيده كاشف، مصر في العصر الأخشيدي، ص ٢٧٤ .

١٤٤ . المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٣٦؛ الغزولي، مطالع، ج ٢، ص ٧١؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٤٨؛ الجندي، الشعر، ص ١٥ .

١٤٥ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٥٨؛ البراوي، حالة مصر، ص ٢٦٢ .

١٤٦ . البيهقي، إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٤٤٧ . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البيهقي، المحاسن؛ عريب بن سعيد، صلة تاريخ الطبري، نشر دي

ابن الفرات الوزير العباسي عندما تولى أمر وزارته كان الحر شديدا جدا فسقي في داره أربعين ألف رطل من الثلج في يوم وليلة، وكان هذا من الثلج المحمول من الشام الى العراق .

وفي العصر المملوكي قامت السلطات المصرية بجهود عظيمة لجلب الثلج من الشام الى مصر فجلبوه بحراً من طرابلس ويراً من دمشق الى القاهرة<sup>١٤٧</sup>، وكانت الجزيرة العربية تستورد الثلج من الشام، وكان موسم الحج فرصة كبيرة لبيعه بسعر غال، وقصة جميلة<sup>١٤٨</sup> بنت ناصر الدولة تؤكد وجوده في مكة حيث قامت أثناء تأديتها لمناسك الحج في عام ٣٦٦هـ/٩٧٦م بتوزيع المشروبات المصنوعة من الثلج والسكر على الحجاج، وأصبح للحج شهرة في هذا العام في العالم الاسلامي .

#### الفواكه الطازجة والمجففة :

اشتهرت سورية أيضا بتصدير الفواكه الطرية والمجففة، ومن أهم الفواكه التي كانت تزرع في بلاد الشام وتصدر، الأناناس، والتين، والمشمش، والدراق، والكرز، والخوخ، والأجاص، والسفرجل، والتفاح، والجميز، والرمان، واللوز، والجوز، والبندق، والكشمش<sup>١٤٩</sup>. كانت هذه الفواكه تنمو في معظم المناطق الخصبة في بلاد الشام وخاصة في فلسطين، وحول بعض المدن الزراعية كأنطاكية، وحلب، ومنبج، ومعرة النعمان، وشيرز، وحماة، وحمص، وبيعلبك، ودمشق<sup>١٥٠</sup>. والمنطقة الساحلية من الشمال والجنوب كانت أيضا

- غويه، ليدن، ١٨٩٧م، ص ٦١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : عريب، صلة؛ متر، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٤٨.
١٤٧. القلقشندي، الأعشى، ج ١٤، ص ٣٩٥-٣٩٧.
١٤٨. ابن تغري بردي، النجوم، ج ٤، ص ١٢٦.
١٤٩. ابن حوقل، المسالك، ص ١١٣، ١١٨؛ وصورة، ص ١٦٤، ١٧٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٣، ١٨٠؛ الاصلطخري، المسالك، ص ٥٨؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ١٦، ٤١، ١٦٧؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٣٢، ٥٤-٥٥، ص ٧٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٩٨؛ محمد سليم الجندي، معرة النعمان، ج ١، ص ٨٤؛ كرد علي، غوطة، ص ١١١، وما بعدها وخطط، ج ٤، ص ١٨٢، ١٨٣.
١٥٠. ابن حوقل، صورة، ص ١٦٤، المسالك، ص ١١٣؛ الاصلطخري، المسالك، ص ٥٨؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٢٥، ١٦٤، ١٦٦؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥، ٥٤، ٥٥، ٧٠؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٤، ١٦٦، ١٧٦؛ ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٣٠٨؛ الادريسي، نزهة، ص ٤، ٧؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢؛ لامنس، تسريح، ج ٢، ص ١٩٣؛ كرد علي، غوطة، ص ١١١؛ وخطط، ج ٤، ص ١٨٢.

تشتهر بزراعة الفواكه<sup>١٥١</sup>، وأما غوطة دمشق فقد كانت أكثر مناطق بلاد الشام إنتاجاً<sup>١٥٢</sup> لأنواع الفاكهة التي تنمو في بلاد الشام، وكانت بلاد الشام تصدر الأنواع الجيدة من الفواكه الى مصر، وورد في هذا الصدد أن أحمد بن طولون كان يكثر من أكل السفرجل بعد أن نصحه طبيبه الخاص «سعيد بن نوفل بفوائده للمعدة والأحشاء، ولهذا كان يحضر كمية كبيرة ووفيرة منه<sup>١٥٣</sup> من الشام، وكانت هذه الفواكه تأتي مع القوافل التجارية من الشام الى مصر وتوضع في دار التفاح وهذه الدار عبارة عن فندق في مواجهة باب زويلة ترد اليه هذه الفواكه ومنها توزع الى أسواق المدينة<sup>١٥٤</sup> ونواحي مصر، واستمرت هذه الدار حتى زمن صلاح الدين حيث حولت الى بستان، كما كانت تصدر الشام الى العراق جميع أنواع الفواكه والشمار بأنواعها<sup>١٥٥</sup> من تفاح وتين، وبلغ من قوة التجارة بين العراق والشام وتنظيمها أن الخضروات كانت تجلب أحياناً من الشام الى العراق<sup>١٥٦</sup> وكانت حركة النقل في هيت - حيث يعبر طريق الشام نهر الفرات - قوية لدرجة أن وارد العبارة هناك لسنة ٣٠٦هـ/ ١٨م بلغ ٨٠٢٥٠ ديناراً<sup>١٥٧</sup>.

وبين المقدسي<sup>١٥٨</sup> بأن الرملة كانت تصدر التين المجفف، والزبيب والخروب،

- ١٥١ . الاصطخري، المسالك، ص ٦١؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦١، ١٨١؛ ابن عساكر، تاريخ، ج ٢، ص ١٧٢، ١٧٩، ١٨٣؛ ابن حوقل، المسالك، ص ١١٤، ١١٦، ١٦٦؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٧٠؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ١٦٧؛ الادريسي، نزهة، ص ٢، ٣، ٤، ١٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٧؛ البدري، نزهة، ص ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، ٢١٠، ٢٤٩؛ حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ص ٦١٦؛ صفوح الخير، غوطة دمشق، دراسة في الجغرافية الزراعية، مراجعة تنظيم الموصفي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مديرية الترجمة والتأليف والنشر، دمشق، ١٩٦٦م، ص ٤٦٦ وما بعدها. والمرحلة الجامعية صفوح، غوطة.
- ١٥٢ . كرد علي، خطط، ج ٤، ص ١٨٢-١٨٤؛ غوطة، ص ١١١؛ صفوح، غوطة، ص ٤٦٠ وما بعدها؛ حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ص ٦١٦.
- ١٥٣ . ابن أبي أصيبعة، طبقات، ص ٤٨٥؛ حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٦١٦.
- ١٥٤ . المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٤٥٤.
- ١٥٥ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤، ١٨٠، ١٨١؛ حسن إبراهيم، تاريخ، ج ٢، ص ٣١٧؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٣٦-١٣٧؛ المعاضدي، واسط، ص ٤٢٧.
- ١٥٦ . التنوخي، أبو علي الحسن بن علي، (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، نشوار المحاضرة في أخبار المذاكرة، ج ٨، تحقيق عبد الشالحي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠-١٩٧٢م، ج ٢، ص ٢٠٥. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : التنوخي، نشوار؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٥٤.
- ١٥٧ . الدوري، تاريخ العراق، ص ١٥٥.
- ١٥٨ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠-١٨١؛ الجهشباري، الوزراء، ص ٢٨٧؛ الثعالبي، لطائف،

وكانت القدس تصدر أنواعا مختلفة من الزبيب والتفاح، والصنوبر. وكانت بيسان تصدر البلح، ومآب كانت تصدر اللوز، ودمشق التين المجفف والزبيب والبندق. كما كانت بعض المناطق تصدر كميات كبيرة من التين المجفف وغيره من الشام الى مصر<sup>١٥٩</sup>، والطلب على الفواكه الشامية المجففة كان كبيرا باستمرار، وذلك لأن أنواعاً قليلة من الفواكه كانت تنمو في المناطق المجاورة للشام كمصر والعراق والجزيرة العربية، بالإضافة إلى أن إنتاج هذه الأقاليم كان محدودا، ومع أن بعض المناطق كالجزيرة كانت تنتج أنواعا كثيرة من الفواكه إلا أنها لم تكن تضاهي في الجودة النوعيات الشامية والتي كانت مشهورة<sup>١٦٠</sup> وجيدة.

ويذكر الشابستي<sup>١٦١</sup> أن التفاح الشامي كان يضرب به المثل في الجودة والحسن والطيب، وأن مقدار ما كان يحمل منه سنويا الى العراق يقدر بحوالي ثلاثين ألف تفاحة توضع في أكياس خاصة من الجلد<sup>١٦٢</sup>. كما كان يحمل كميات كبيرة من الهليون من دمشق الى العراق ويوضع في أوان خاصة حتى لا يتلف<sup>١٦٣</sup>.

#### الصادرات الأخرى :

وهناك مواد أخرى صناعية وغير صناعية كثيرة كانت تصدرها بلاد الشام لكن ربما بكميات قليلة، يمكن أن نعد منها : الملح من سبخة الجبول والبحر الميت<sup>١٦٤</sup> والاسفلت من منطقة البحر الميت<sup>١٦٥</sup>، كذلك كان الرخام يصدر من الساحل الشامي وخاصة من

ص ١٥٧؛ وثار القلوب، ص ٤٢٢.

١٥٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠-١٨١.

١٦٠ . اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٢٤٥-٢٤٩.

١٦١ . الشابستي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م)، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥١، ص ٩٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الشابستي، الديارات.

١٦٢ . الثعالبي، ثار القلوب، ص ٤٢٢؛ ولطائف، ص ١٥٦؛ أحمد أمين، ظهر الاسلام، ج ٢، ص ٢٤٦.

١٦٣ . الكبيسي، أسواق بغداد، ص ١٩٠ وما بعدها.

١٦٤ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤؛ ابن خرداذبة، المسالك، ص ٧٩؛ ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٢٩؛ ابن الشحنة، تاريخ، ص ٤٧-٤٨.

١٦٥ . الاصطخري، المسالك، ص ٩٤؛ ابن حوقل، المسالك، ص ١٦٤؛ صورة، ص ١٦٩؛ ابن خرداذبة، المسالك، ص ٧٩؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، التنبيه والاشراف، غني بتصحيحه ومراجعته عبدالله اسماعيل الصاوي، دار الصاوي للطباعة والنشر والتأليف، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٦٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : المسعودي، التنبيه.



اللاذقية ومن بيت جبريل وكانت هذه المادة تصدر الى العراق ومصر<sup>١٦٦</sup>. وهناك الكثير من المواد المصنعة من المعدن والخشب كانت تصدر أيضا الى الأقطار المجاورة، كما كانت تصدر الحصر من منطقة بيروت<sup>١٦٧</sup> وضواحيها، وكانت الحيوانات تصدر أيضا أو تباع الى التجار الذين كانوا يمرون في الشام<sup>١٦٨</sup>، وكانت الجبنة ومنتجات الألبان الأخرى تصدر أيضا وخاصة من فلسطين<sup>١٦٩</sup>، وكانت لبعض مناطق الشام شهرة بانتاج العسل والشمع ولذلك فقد كانت تصدرها من هذه المناطق، وخاصة من عمان<sup>١٧٠</sup>، وللشام شهرة خاصة بعمل الحلوى والمربيات والمعجنات الكثيرة واللذيذة فكانت تصدر منها كميات كبيرة وخاصة من دمشق ونابلس<sup>١٧١</sup>. ويحدثنا المقدسي بأن زغر وبيسان كانتا تصدران البلح، كما يروى أيضا بأن بيسان كانت تصدر الرز<sup>١٧٢</sup>، وربما المقصود إنتاج الرز وبيعه في الأسواق المحلية كأسواق دمشق وطبرية والرملة والقدس. كما كانت الشام تنتج بعض أنواع التمور<sup>١٧٣</sup> وكان هذا الانتاج يسمح بتصديره أيضا.

واشتهرت بلاد الشام بجودة تربتها للنباتات الطبية، وبعد حركة الترجمة التي توسعت في العصر العباسي ودخول العرب المسلمين مجال الطب منذ القرن العاشر تم دراسة نباتات كثيرة والاستفادة منها وتحضير العقاقير الجيدة والمفيدة الحيوانية والنباتية، وبدأت بلاد الشام تصدر بعضا منها كترياق القدس المصنوع من أجسام الحبات المسحوق، وصمغ البيلسان من الشام، ومرهم جودي من فلسطين، والنعناع والراوند<sup>١٧٤</sup> من شرقي الأردن وغيرها.

١٦٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٢٥٨؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٤-٥٥.

١٦٧. ابن بطوطة، رحلة، ج ١، ص ٨٠.

١٦٨. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠؛ لومبار، الاسلام، ص ١٩٨-١٩٩.

١٦٩. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠.

١٧٠. المصدر نفسه، ص ١٨٠. Goitein: Society, Vol. I, p. 125.

١٧١. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠؛ ابن بطوطة، رحلة، ج ٢، ص ٨٠؛ لومبار، الاسلام، ص ١٩٦.

١٧٢. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠.

١٧٣. المصدر نفسه، ص ١٨٠.

١٧٤. المصدر نفسه، ص ١٨٠-١٨١؛ لومبار، الاسلام، ص ٢٢٥. وردت عن لومبار كما يلي «كان يجلب صمغ

البيلسان (من سورية) ومرهم جودي من فلسطين، والنعناع والراوند من شرقي الأردن». في حين يذكر المقدسي «ولا نظير لقطين وزيت الانفاق، وحوارى وميزر الرملة ولا المشقة وقضم قريش وهينوني وعودى وترياق وتروغ ومسيح بيت المقدس». المقدسي، ص ١٨١.

وكانت الشام تصدر الى الشرق الأقصى الصين والهند مواد كثيرة ومنها السكر والقطن والأقمشة والزجاج والورد المستخرج<sup>١٧٥</sup> بالمرزة «وكان يطلق عليه هناك الزهر» ثم العسل ودهن البيلسان وغير ذلك من مصنوعات الشام .

وكانت المدن الإيطالية كذلك مشغوفة بالمنتجات الشامية<sup>١٧٦</sup> وأهمها : القطن، والسكر، والزجاج، والورق، والصابون . واعتاد تجار البندقية حملها معهم من طرابلس الشام وغيرها من المراكز التجارية .

كما كانت الشام تصدر الى بيزنطة<sup>١٧٧</sup> الزجاج وبعض المواد الزجاجية والورق وكذلك الصابون، والفسق والفراء العالي الثمن والقيمة .

### السلع المستوردة :

اهتم الجغرافيون المسلمون في العصور الاسلامية بالانتاج والتصدير، ولم يعطوا الاستيراد الاهتمام الكافي في أوصافهم وكتاباتهم المختلفة عن الأقاليم والمناطق للعالم الاسلامي، ولذلك فقد جاءت معلوماتهم عن المواد المستوردة في بلاد الشام قليلة، ومع هذا هناك إشارات لبعض المواد التي كانت بلاد الشام تستوردها من العالمين الاسلامي والخارجي، فمع أن المنسوجات كانت إحدى أهم السلع والصادرات الشامية الا أنها كانت أيضا إحدى المواد المستوردة الرئيسية، وخاصة ما كان منها مصنوعا من الكتان، لأن سورية كانت بحاجة الى مادة الكتان، وكانت بعض مدن الشام تستورد هذه المادة كمدينة عسقلان التي كانت تستخدم جزءا كبيرا من الكتان المستورد في صناعاتها النسيجية التي كانت تقوم بصنعها، ولذلك فقد كان الكتان والمصنوعات الكتانية من المواد التي كانت الشام تستوردها

١٧٥ . ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٣، ١٥٤؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص ٢٧٠؛ شيخ الرتبة، نخبة الدهر، ص ١٩٨؛ لومبار، الاسلام، ص ٢٤٦، ٢٤٧؛ كرد علي، غرقة، ص ٦٥؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ١٢٨، ١٢٩؛ ريسلر، الحضارة العربية، ص ٩.

١٧٦ . ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٥٠، ٥١؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ ابن شداد، الاعلاق، ج ١، ق ١، ص ١٥٢؛ لومبار، الاسلام، ص ٢٤٦، ٢٤٧؛ حتي، تاريخ العرب، ص ٢٨٩؛ البراوي، حالة مصر، ص ٢١٧.

١٧٧ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠، ١٨١؛ ابن العديم، بغية، ج ١، ص ٥٠، ٥١؛ أبو الفداء، ص ٢٧٩؛ ابن الشحنة، تاريخ حلب، ص ٢٥٣؛ ابن شداد، الاعلاق، ج ١، ق ١، ص ١٥٢؛ لومبار، الاسلام، ص ٢٤٦؛ حتي، تاريخ العرب، ص ٢٨٩.

من مصر<sup>١٧٨</sup>، كما استوردت الشام الثياب الفاخرة والنفيسة والمصنوعة في بعض مدن مصر وليس لها نظير ومنها ما صنع في الاسكندرية والمنسوجة من الكتان وتباع كل زنة درهم بدرهم فضة، وما كان يدخل من هذه الثياب في الطراز فكان يباع بقيمة وزنه مرات عديدة من الفضة<sup>١٧٩</sup>، وارتقت صناعات دور الطراز في مصر كثيرا وذاعت شهرتها لما كانت تنتج من منسوجات كتانية وحريرية تقوم بتصديرها الى مختلف البلاد الاسلامية كالشام<sup>١٨٠</sup>.

ومما يذكر أن حلب كانت تصلها الأنواع الجيدة من الثياب الفاخرة من مصر في عهد سيف الدولة الحمداني، واستعملها هذا الأمير كهدايا لشعرائه وغيرهم، فقد روى<sup>١٨١</sup> الثعالبي «أن أبا بكر وأبا عثمان الخالدين وكانا من خواص شعراء سيف الدولة فبعث اليهما مرة وصيفة ووصيفا ومع كل واحد منها بكرة وتخت من ثياب مصر فقال أحدهما من قصيدة طويلة :

أتت الوصيفة وهي تحمل بكرة وأتى على ظهر الوصيف الكيس  
وبررتنا مما أجادت حوكه مصر وزادت حسنه تنيس

كما كانت مصر ترسل للشام كميات كبيرة من الشمع وخاصة الى بيت المقدس<sup>١٨٢</sup> وذلك لسد حاجة الأماكن المقدسة وكثرة استعمالها هناك، ويورد ناصر خسرو أنه رأى شمعة في قبة الصخرة كبيرة وطولها سبعة أذرع وقطرها ثلاثة أشبار ولونها كالكافور الزباجي، وشمعها مخلوط بالعنبر، يرسل منها الكثير كل سنة الى القدس ويكتب عليها اسم الخليفة الفاطمي.

كذلك اشتهرت مصر، ولا سيما مدينة الفسطاط بصناعة الأنطاع<sup>١٨٣</sup> وكانت تصدر منها كميات كبيرة الى بلاد الشام، كما كان يصنع بالفسطاط «الكمرانات» وخرايط الجلد،

- ١٧٨ . لومبار، الاسلام، ص٢١٢-٢١٣؛ والجغرافيا الاسلامية للعالم الاسلامي خلال القرون الاربعة الاولى ص٢٣٨-٢٣٩؛ Goitein: Society, Vol. I, p. 242.
- ١٧٩ . انظر : المقرئزي، الخطط، ج١، ص١٦٣-٢٦٦؛ لومبار، الاسلام، ص٢١٢؛ والجغرافيا، ص٢٣٨؛ خليفة، تاريخ المنسوجات، ص٩٩.
- ١٨٠ . ابن حوقل، المسالك، ص١٠٥؛ راشد البراوي، حالة مصر، ص١٣٦-١٤٠.
- ١٨١ . الثعالبي، يتيمة، ج١، ص٢٢؛ الجندي، الشعر في ظل سيف الدولة، ص٧٠.
- ١٨٢ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص٦٧.
- ١٨٣ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٠٣؛ المقرئزي، الخطط، ج١، ص٣٦٧؛ حسن إبراهيم، تاريخ الدولة، ص٥٩٠؛ السيد، تاريخ البحرية، ص١٧٩. «الانطاع : بساط من الجلد».

والسيور، والقسي التي فاقت قسي دمشق في دقة صنعتها حتى غدت مضرب الأمثال<sup>١٨٤</sup>. وكانت الشام تستورد الكثير من هذه المصنوعات الجلدية والجلود عامة.

وكانت مصر والشام تشكلان دولة واحدة في كثير من الأحيان، ولهذا فكثيرا ما كانت تحمل الغلال (القمح وبقية الحبوب) كما قلنا الى بلاد الشام وخاصة أثناء الأزمات والحروب الكثيرة التي شهدتها بلاد الشام وقد ذكر المقرئزي أن ما كان يحمل من ثغور الاسكندرية ودمياط وتيس الى عسقلان وصور عبارة عن مائة وعشرين ألف أردب من الغلال.<sup>١٨٥</sup> وظهرت الحاجة لغلات مصر وبدا التعاون وتبادل السلع أكثر وضوحا أثناء الغزو الصليبي<sup>١٨٦</sup> لبلاد الشام والحصار الذي ضرب على بعض المدن الشامية.

كما كانت مصر تصدر التحف الفاخرة الى الشام وغيرها، وقد ذكر المقرئزي أنه وجد في طرابلس الشام قطع من البلور النفيس مصنوع في غاية الاتقان وقطع منها عديدة مكتوب عليها اسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وكان بعض التجار قد اشتراها من جملة ما أخرج من خزائن المستنصر الفاطمي، وقد رفض أحد التجار أن يبيع قطعتين من هذه القطع بمبلغ ثمانمائة دينار لجلال الملك أبي الحسن علي بن عمار<sup>١٨٧</sup>، أمير طرابلس.

وكانت الشام تستورد أيضا المنسوجات المصنوعة من القطن وخاصة من الأقطار المجاورة لها كجزيرة الفراتية التي أصبحت منطقة هامة لإنتاج القطن وصناعته في العصر الحمداني<sup>١٨٨</sup>، بالإضافة الى أن منطقة الجزيرة ملاصقة للشام ومتداخلة معها وهذه المنطقة منتجة هامة للعديد من السلع، وكانت أهم مصدر للبضائع الى الشام، وكانت تصدر لها المنسوجات، والصوف، والحريز، والخيول والإسفلت والحديد، وأنواع أخرى من المنتجات

١٨٤ . حسن إبراهيم، تاريخ، ج ٤، ص ٣٩٨.

١٨٥ . المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٦٥ ونقل عن أبي الطوير؛ البراوي، حالة مصر، ص ٢٦٢.

١٨٦ . ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٢-١٤٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢١٩؛ واحداث سنة

٤٩٥هـ؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الانجلومصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١، ص ٣٥٦. المرحلة الجامعية عاشور، الحركة

الصليبية؛ السيد، تاريخ البحرية، ص ١١٠-١١١.

١٨٧ . المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤١٤-٤٢٤؛ زكي حسن، كنوز، ص ٤٥؛ البراوي، حالة مصر،

ص ٢٣٣-٢٣٤.

١٨٨ . ابن حوقل، المسالك، ص ١٥٠؛ صورة، ص ١٨٧-٢٠٦؛ المقدسي، أحسن التقاسيم،

Goitein: Society, Vol.I, p. 47.

ص ١٤٥-١٨٤؛ ابن العديم، زبدة، ج ١، ص ١٦٧.

المعدنية<sup>١٨٩</sup>.

كذلك استوردت الشام «الطين» وهو قريب من الخضار ويؤكل في آخر الطعام وأحسنه ما كان يجلب من ناحية «كران» وهو أخضر كالسلق وأشرق منه ولا نظير له<sup>١٩٠</sup>، ومنه أبيض ورد ذكره في كلام الشعراء<sup>١٩١</sup>، والنوع الأخضر منه يجلب بكثرة من بلاد قوهستان<sup>١٩٢</sup>، وكان الطين يصدر من المغرب الى المشرق من طليطلة فيحمل الى مصر والشام والعراق وبلاد الترك<sup>١٩٣</sup>، على أن كثيرا من الفقهاء حرموا أكل هذا الطين<sup>١٩٤</sup>.

أما العراق فقد اشتهرت منذ القديم ولا زالت بانتاج الأنواع الجيدة من التمور، ولذلك فكثيرا ما كان يصدر التمر<sup>١٩٥</sup> لبلاد الشام من العراق، وكذلك اشتهرت الموصل بانتاج أنواع الحبوب ولا سيما الحنطة<sup>١٩٦</sup>، وعرفت كذلك تجارة العسل، والملح، والمسوح، والستائر<sup>١٩٧</sup> الصوفية المخططة.

وكانت لأرمينيا علاقات تجارية مع بلاد الشام، واعتبرت من المناطق التي صدرت لها، ومن المواد الرئيسية التي كانت تستوردها الشام منها، السمك، والملح، والزرنيخ، والبغال من النوعية الجيدة<sup>١٩٨</sup>.

وكان لقبرص علاقات تجارية مستمرة مع بلاد الشام لم تنقطع، فالحرير الذي كان

- 
- ١٨٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٥؛ لسترانج، بلدان، ص ١٤٥-١٤٦.
- ١٩٠ . ابن حوقل، المسالك، ص ٢١٣. «الذي يشبه طعمه طعم البنجر»؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٣٠٧؛ لسترانج، بلدان، ص ٢٥٨.
- ١٩١ . الثعالبي، يتيمة، ج ٤، ص ١٠٧.
- ١٩٢ . الاصلطخري، المسالك، ص ٢٧٤؛ متز، الحضارة الاسلامية، ج ٢، ص ٢٠٧.
- ١٩٣ . الادريسي، نزهة، ص ١٨٨؛ متز، تاريخ الحضارة، ج ٢، ص ٣٠٧.
- ١٩٤ . متز، تاريخ الحضارة، ج ١، ص ٣٠٧.
- ١٩٥ . ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص ١٧٥؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٣٣؛ المعاضدي، واسط، ص ٤٢٦.
- ١٩٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٥؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٣٣-١٣٤؛ صبحي الصالح، النظم الاسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨، ص ٣٩٦. المرحلة الجامعية صبحي الصالح، النظم الاسلامية.
- ١٩٧ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٥؛ قدامة، الخراج، ص ٢٢٥؛ الثعالبي، ثمار القلوب، ص ٤٢٧؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٣٠، ١٣٣؛ صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ص ٣٩٦.
- ١٩٨ . ابن حوقل، المسالك، ص ٢٤٨؛ وصورة، ص ٢٨٥-٢٨٦؛ متز، تاريخ الحضارة، ج ٢، ص ٤٣٦.

يعد إنتاجه من اختصاص بلاد الشام كانت تستورده من قبرص<sup>١٩٩</sup> وبيزنطة .

وكانت قبرص تزود بلاد الشام بكثير من صادراتها، ويشير المقدسي الى أنها كانت تصدر كميات كبيرة من البضائع الى المسلمين بينما تذكر بعض المصادر بأن قبرص كانت تصدر المنسوجات<sup>٢٠٠</sup> والميعة والمصطكاوي الى بلاد الشام، وأكثر الواردات منها الى بلاد الشام كان يصل عن طريق صور كما كانت جزيرة كريت (اقريطش) تتاجر مع بلاد الشام، وكانت هذه تصدر لها العسل والجبن<sup>٢٠١</sup>، ويسمى بلغة الفرنج «كنديا» نسبة الى مدينة كندية أو الخندق قاعدة اقريطش .

وهكذا نرى أنه كان لبلاد الشام علاقات تجارية نشطة مع مصر بالدرجة الأولى، والعراق والجزيرة العربية بالدرجة الثانية، وتأتي بعد ذلك العلاقات التجارية مع الشرق وبيزنطة والغرب الأوروبي بالدرجة الثالثة، حيث كانت تصدر الكثير من انتاجها إلى هذه المناطق القريبة والبعيدة، ظهر ذلك من خلال استعراضنا للسلع التي كانت تصدرها بلاد الشام، كما أنها استوردت بعض المواد والسلع من هذه الأقاليم القريبة والبعيدة .

١٩٩ . ابن حوقل، المسالك، ص ١٥٠؛ وصورة، ص ١٧٤-١٨٤؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٥-١٤٦؛ ابن العديم، زبدة، ج ١، ص ١٦٧ . Goitein: Society, Vol. I, p. 47.

٢٠٠ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٨؛ الاصطخري، المسالك، ص ٥١؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٧٤-١٨٤؛ المسالك، ص ١٣٧ .

الميعة : الجامدة أو الناشفة مادة حمضية يابسة تستخرج من الاصطخرك أو اللبني، والميعة صمغ يسيل من شجر ببلاد الروم يؤخذ فيطبخ فما صفا منه فهو الميعة السائلة وما بقي منه شبه التجير فهو الميعة اليابسة (اللسان) . والمصطفى أو المصطفاء، شجر يستخرج منه صمغ يملك هذا الشجر المصطكاوي وهو معجون يستعمل كطلاء واق أو كإمادة لحشو الثوب في الجدران المخصصة .

٢٠١ . النويري الاسكندراني، محمد بن قاسم (ت ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م)، الامام بما قضت به الأحكام (مخطوط)، ص ١٢٣ . ويسميه ابن الأثير «قند»، انظر : ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٦٩؛ السيد والعبادي، تاريخ البحرية، ص ٣٩ .

## الأسواق في بلاد الشام في العصر العباسي

زريف المعاينة\*

من المعلوم أن دراسة الأسواق، تكتنفها مصاعب كثيرة، ذلك لأن معظمها تعرض للظروف الطبيعية القاسية، فتقوضت أسسها ومعالمها، بالإضافة الى الظروف السياسية والاجتماعية التي لا يقل أثرها عن العوامل الطبيعية.

ولعبت الأسواق، حيث الصناع والتجار، دورا حيويا في تاريخ بلاد الشام، ولم يقتصر دورها على الحياة الاقتصادية، بل تعداه الى النواحي الفكرية والاجتماعية.

ومن المعروف أن المسلمين عند تخطيط المدن كانوا يبدأون ببناء المسجد الجامع في وسط المدينة. سواء الدائرية التخطيط أو ذات المحاور المتعامدة، وبعد بناء الجامع يأتي دور السوق في المدينة وهي المركز التجاري الرئيسي حيث يلتقي فيه التجار والحرفيون ومنه يحصل السكان على حاجياتهم، وقد كانت السوق مقسمة إلى عدة أقسام، فنجد أن أصحاب الحرفة الواحدة والتجارة الواحدة مجتمعون في قسم واحد من السوق وذلك كنتيجة لتأثير الأوصاف، فقد كان أصحاب المهن المتشابهة متمين الى لجنة خاصة تنظم نشاطاتهم، ومعاملاتهم. وكان من تأثير التنظيمات المهنية تقارب ذوي المهنة الواحدة وتكتلهم ليسهل الاتصال بينهم، وجمع الضرائب منهم في وقت واحد. وكان هذا التقارب والتكتل يفيد أصحاب المهنة الواحدة<sup>1</sup> في مجال البيع والمنافسة فيما بينهم لتحسين مستوى حرفتهم، وقد أصبحت ظاهرة التقريب بين أصحاب الحرفة الواحدة أساسا لتخطيط الأسواق والمناطق التجارية لفائدتها الاقتصادية العظيمة.

\* قسم التاريخ، جامعة مؤتة. الكرك، المملكة الاردنية الهاشمية.

1. انظر: اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٠هـ) البلدان، تحقيق دي خويه، بريل ١٨٩٢م، ص ٧١ وسيشار اليه فيما بعد هكذا: اليعقوبي، البلدان.  
ابن عساکر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين (ت ٥٧١هـ - ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٤م، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٣٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن عساکر، تاريخ؛ ابن دقاق، إبراهيم بن محمد العلالي (ت ٢٩٠/١٣٨٨م)، كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، (١٣٠٩م) ج ٤، ص ٣٢ - ٣٤ و ٣٧ - ٤٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن دقاق، الانتصار.

ويمثل السوق المركز الحيوي للنشاط التجاري والاقتصادي، وأغلب المصادر وضعت مواقع الأسواق في المدن بجوار المساجد الجامعة<sup>٢</sup> وكانت المدن بصورة عامة أسواقا لما يحيط بها من قرى وأرياف، فهي مخازن لانتاجها ومراكز تبيع لها ما تحتاج اليه من مواد. وكان القرويون يأتون الى الأسواق الاعتيادية أو يحضرون الى أسواق تعقد في أيام خاصة من الأسبوع<sup>٣</sup>. وقد اشتهرت مدن بلاد الشام عند الجغرافيين العرب بتعدد أسواقها وقياسياتها وبنشاط الفعاليات التجارية فيها، فابن حوقل يصف مدينة حلب بأنها غاصة بأهلها كثيرة الخيرات (اذ كانت مشهورة بزراعة القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والمشمش والتين) وقد احتوت أسواقا حسنة وكانت أسعار الأغذية فيها وجميع المأكول والمشارب رخيصة<sup>٤</sup>. ووصف ناصر خسرو حلب في رحلته سنة ٤٣٨/٤٧ بأنها مدينة عامرة كانت محل تحصيل الضرائب والمكوس لما يمر بها من تجارات من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، واعتاد التجار على الذهب اليها للتجارة من أجل البيع والشراء، وصارت أسواقها تحتوي على بضائع وتجارات تمثل مختلف البلدان، وجلب هذا الموقع أيضا الرخاء الى أهاليها فقد وصفتهم المصادر بأنهم كانوا (يتنافسون في الملابس والهبات والمراكب والمنازل)<sup>٥</sup>.

٢. ابن عساکر، تاريخ، ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٣٠، المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٩٠هـ - ٩٩٩م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل ١٩٠٦م، ص ٥٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم؛ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ - ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني، بيروت (د.ت) ص ١٧٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ). رحلة ابن بطوطة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥م، ص ٨٨، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن بطوطة، رحلة.

٣. المقدسي، أحسن التقاسيم؛ ص ١٣٨. ابن عساکر، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٧، عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٣٨، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الدوري، تاريخ العراق.

٤. ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، (ق ٤هـ / ق ١٠م) صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص ١٦٣-١٦٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة.

٥. ناصر خسرو (توفي أواسط القرن الخامس الهجري)، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط ٢، ١٩٨٣م، ص ٤٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ناصر خسرو، سفرنامه؛ شيخ الربوة الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق أ. مهرا، بريل، ليدن ١٩٢٣م، ص ٢٥٠، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: شيخ الربوة، نخبة.



وأفضل وصف لأسواق قيسارية مدينة حلب موجود في الكتب الجغرافية، إذ إنها تشير إلى أن مجموعة هذه الأسواق كانت تقع بجوار المسجد الجامع. فابن جبير يقول بأن القيسارية كانت (مطبة بالجامع المكرم) وإن كل سباط (أي صف أسواق فرعية من هذه القيسارية كان يتصل بباب من أبواب المسجد). وقد كرر ابن بطوطة وصف ابن جبير في هذا الجانب، وقال: (إن القيسارية كانت تحيط بالمسجد الجامع، وإن كل سباط منها كان يجاذي بابا من أبواب المسجد). وأضاف ابن جبير أن القيسارية كانت عبارة عن «حديقة بستان نظافة وجمالا مطيفة بالجامع المكرم وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السباط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر»<sup>٦</sup>. والظاهر أن الأسواق في هذه القيسارية كانت موزعة الى قيساريات، كما هو الحال في تنظيم الأسواق في المدن الاسلامية الأخرى، بحيث كان المرء يخرج من سباط صنعة الى سباط صنعة أخرى، كما أن هذه الأسواق جميعا كانت مسقفة بالخشب و (كأنها في ظلال وارقة فكل سوق فيها تقيد الأبصار حسنا وتستوقف المستوقف تعجبا)<sup>٧</sup>.

ويستشهد ياقوت الحموي بقيسارية حلب متعجبا بصورة خاصة من النشاط الاقتصادي والتجاري في قيسارية باعة البز وهو من الأنسجة الرفيعة. فقال: إن هناك عشرين دكانا للوكلاء الذين هم متخصصون في بيع هذا الصنف من الأقمشة، وانهم كانوا يبيعون في كل يوم ما قيمته عشرون ألف دينار<sup>٨</sup>. وبهذا الصدد يذكر ابن الشحنة أن المدينة كانت من المدن المشهورة بصناعة الصابون حيث كان يباع فيها في اليوم الواحد من الصابون ما لا يباع في غيرها من المدن في عدة أشهر، واشتهرت أيضا بصناعة العطور، وذكر بأنه إذا ما جلب الى أسواقها مائة جبل من الحرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه<sup>٩</sup>. ومن عجائب حلب سوق الزجاج وكذلك سوق الزوقين، ففيها آلات عجيبة مزوقة<sup>١٠</sup>. وأيضا كانت جميع

٦. ابن جبير، رحلة، ص ١٧٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٨.

٧. ابن جبير، رحلة، ص ١٧٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٨.

٨. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ج ٥، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٢٨٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم.

٩. ابن الشحنة، أبو الوليد بن محمد بن محمد (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق يوسف سركيس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص ٢٥٠ - ٢٥٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الشحنة، الدر.

١٠. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ١٨٣ - ١٨٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: القزويني، آثار البلاد.

المدن والضواحي والقرى المحيطة بمدينة حلب حافلة بالأسواق المتخصصة والتجارات الرابحة، وكان بعضها مراكز للقوافل التجارية<sup>١١</sup>.

وجاء في المصادر الأولية أن دمشق اشتهرت بتعدد أسواقها وبنشاط الفعاليات التجارية فيها، وأن أسواقها - كما هو الحال في المدن الإسلامية - تقع بجوار المسجد الجامع، وتوضح لنا أسماء أبواب المسجد الجامع في دمشق طبيعة توزيع هذه الأسواق وخصائص كل سوق منها.

ففي هذا المسجد أربعة أبواب، باب قبلي يعرف بباب الزيادة، وله دهليز كبير متسع فيه حوانيت للخريز وغيرهم<sup>١٢</sup>، ومنه يذهب إلى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سباط الصفارين، وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي، من أحسن أسواق دمشق، ويموضع هذا السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان، فهدمها بنو العباس وصار مكانها سوق عامرة<sup>١٣</sup>، وفي الباب الشمالي هناك دهليز قامت بجانبه أعمدة قد قامت حولها شوارع مستديرة، فيها الحوانيت المنتظمة للعطارين وسواهم<sup>١٤</sup>. ودهليز الباب الغربي للمسجد، فيه حوانيت البقالين والعطارين، وفيه سباط لبيع الفواكه<sup>١٥</sup> وفيه حوانيت للشاعين<sup>١٦</sup>، والباب الشرقي للمسجد الأموي من أعظم أبواب المسجد ويسمى باب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل، وبجانبه هذا الدهليز أعمدة قد قامت حولها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجواهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة، وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار اليهود. ومنها دكان للشافعية، وسائرهما لأصحاب المذاهب، يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول، وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد<sup>١٧</sup>.

- ١١ . الأدرسي، محمد بن عبد الله (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٩، معهد الاستشراق - نابولي، روما، ١٩٧٩م، ج ٦، ص ٦٤٧، وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الأدرسي، نزهة؛ ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٦٦، ج ٣، ص ٦٦. ابن بطوطة، رحلة، ص ٩١.
- ١٢ . ابن جبير، رحلة، ص ١٨٨، ابن بطوطة، رحلة، ص ١٠٦.
- ١٣ . ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٤٦٦؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٨٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٠٦.
- ١٤ . ابن جبير، رحلة، ص ١٨٩.
- ١٥ . المصدر السابق، ص ١٩٠.
- ١٦ . المصدر السابق، ص ١٠٧.
- ١٧ . المصدر السابق، ص ١٠٧.

وأهل دمشق لهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب، والمتعشون يوم السبت ينقلون اليه دكاكينهم<sup>١٨</sup> وكان أيضا في جميع ضواحي وأرياف دمشق أسواق حافلة متخصصة وتجارة رابحة<sup>١٩</sup> وكانت معظم الأسواق في بلاد الشام ممتدة على طول البلد، ومسقوفة، وأسعارها رخيصة<sup>٢٠</sup> وكانت تسمية الأسواق وتخصصها متوقفة على نوع المواد التي تعرض في هذه الأسواق، وقد أورد ابن عساكر قائمة بأسماء أسواق وسويقات وسقائف دمشق بالكامل وكل ما تحويه، فهناك سوق الأبارين، وسوق الأبرين، وسوق الأساكفة العتق، وسوق الأكافين، وسوق البر، وكان بالأصل سوق السراجين فجعل سوقا للبر، وسوق البزورين، وسوق البقل، وسوق الجلادين، وسوق الجبالين، وسوق الحدادين، وسوق الحدائين، وسوق النحاسين، وسوق الحريميين، وسوق المطرزين، وسوق الخواصين، وسوق دار البطيخ، وسوق درب الحجر، وسوق الدقاقين، وسوق الدقيق، وسوق الرطابين، وسوق الرماحين، وسوق الريحان، وسوق الزقاقين، وسوق السراجين، وسوق الشعير، وسوق الصرف، وسوق الصفارين، وسوق الطير، وسوق علي، وسوق العوامين، وسوق الغزل، وسوق الفاكهة، وسوق القبابين، وسوق القطانين، وسوق القلانسيين، وسوق القمح، وسوق القناديل، والسوق الكبير، وسوق الكتانين، وسوق اللؤلؤ، وسوق المطرزين، وسوق المناخلين، وسوق التين. ومن السويقات سويقة باب البريد وسويقة باب توما وسويقة الحجامين وسويقة كنيسة مريم وسويقة الباب الشرقي، وسويقة الباب الصغير. ومن السقائف، سقيفة جناح، وسقيفة ابن عمير، وسقيفة عند بني عبد الصمد، وسقيفة القطيعي، وسقيفة كروس<sup>٢١</sup>. وأسواق مدينة دمشق أصبحت جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة، وصناعاتها نافقة وتجارتها رابحة<sup>٢٢</sup>.

١٨ . القزويني، آثار البلاد، ص ١٩١ .

١٩ . ابن بطوطة، رحلة، ص ١١٤، ١١٦ .

٢٠ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦ - ١٥٧؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج١٤، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج٤، ص ١٢٠. ويشار اليه فيما بعد هكذا : القلقشندي، صبح .

٢١ . ابن عساكر، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٣٠ .

٢٢ . الأدرسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٦٧، ٣٦٩ .

وأصبحت دمشق مركزاً للقوافل وسوقاً تجارياً كبيراً لاعتماد المدن البحرية مثل طرابلس، وبيروت، وصور وعكا على أسواقها المشتتة على جميع أنواع السلع التي تحتاجها<sup>٢٣</sup>. ووصفت مدينة حماة بأسواقها الحافلة، رخيصة الأسعار، المتخصصة بجميع الصناعات والتجارات<sup>٢٤</sup> وأن لها حوانيت يستعمل فيها المسافر حاجته إلى أن يفرغ لدخول المدينة، وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى<sup>٢٥</sup>.

وأما محص فكان المسافرون يقصدونها بالأمثلة والبضائع من كل فن، وأسواقها قائمة ورخيصة ومتخصصة ومفروشة بالحجر الصلد<sup>٢٦</sup>. وأغلب مدن الشام أسواقها متخصصة وحافلة تجمع بين المرافق السفرية والمتاجر الحضرية<sup>٢٧</sup> ووصفت مدينة منبج بأن «أسواقها فسيحة متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وأعلى أسواقها مسقفة، والتجارات بها دائرة وأموال متصرفة»<sup>٢٨</sup>.

ويذكر الإدريسي مدينة أنطاكية بأسواقها العامرة والصناعات النافقة ومعاملات مرفقة<sup>٢٩</sup>. أما طرابلس فأشتهرت بأسواقها الجميلة النظيفة، حتى أن الناظر يظن أن كل سوق قصر مُزين، وأن باب الوارد والصادر إليها كثير، وهي معقل من معاقل الشام مقصود إليها بالأمثلة وضروب الأموال وصنوف التجارات<sup>٣٠</sup>. ووصفت أسواق صيدا وصور بأنها جميلة نظيفة عامرة وأسعارها رخيصة، وكان يحمل منها التين والزيت والزبيب إلى بلاد مصر<sup>٣١</sup>. وكان أيضاً في بعلبك سوق حسنة عامرة، رخيصة الأسعار، وكان يصنع في هذه

- ٢٣ . حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٣١١ .  
 ٢٤ . ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٣٠٠؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٨١ .  
 ٢٥ . ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٣٠٠؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٨١؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٥ .  
 ٢٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٢-١٦٣؛ الإدريسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٧٤؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٨٢ .  
 ٢٧ . ياقوت، معجم، ج ١، ص ٤٠٩، ج ٢، ص ٤٧٨، ٢٣٥؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٧١، ١٧٤، ١٧٥ .  
 ٢٨ . الإدريسي، نزهة، ج ٦، ص ٦٤٥، ٦٥١؛ ياقوت، معجم، ج ٥، ص ٢٠٦؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٧٦-١٧٧ .  
 ٢٩ . الإدريسي، نزهة، ج ٦، ص ٦٤٥ .  
 ٣٠ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٧-٤٨؛ الإدريسي، نزهة ج ٤، ص ٣٧٢؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٤ .  
 ٣١ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٩-٥٠؛ الإدريسي، نزهة ج ٤، ص ٣٧٠؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨١ .

المدينة الدبس المنسوب إليها، وكذلك الثياب والأواني الخشبية<sup>٣٢</sup>.

ويمكن القول: إن الصناعة والتجارة في أسواق المدن الرئيسية في بلاد الشام نالت شهرة وأسهمت في زيادة الثروة، وتذكر المصادر الجغرافية عن بيروت بأنها ذات غلات متوافرة وتجارة البحر عليها دارة واردة وصادرة، وفيها معدن الرخام والحديد<sup>٣٣</sup>. وبيت المقدس مدينة مشيدة على قمة الجبل، وهي مدينة كبيرة، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وفي المدينة صناعات كثيرة لكل جماعة منهم سوق خاصة<sup>٣٤</sup>.

واستمدت أسواق بيت المقدس شهرتها كسوق ناقلة للتجارة بين الشرق والغرب، فقد كان معظم حجاج المسلمين يعملون على زيارة بيت المقدس بعد انتهاء فريضة الحج ويزيد عددهم على عشرين ألف شخص ومعهم أبنائهم، وهناك يتقابلون مع الحجاج المسيحيين واليهود، وتتاح الفرصة للطرفين لتبادل السلع. ويذكر أنه من كل عام يقام في بيت المقدس سوق كبير يند إليه تجار الأمم المختلفة حيث يتبادلون السلع ووجد فيها صناعة المسابح<sup>٣٥</sup> لكثرة من كانوا يزورون الحرم الشريف مما زاد في ازدهار صناعتها نتيجة رواج التجارة فيها.

ووصف المقدسي أسواق طبرية بأنها من الدرب الى الدرب<sup>٣٦</sup> كما يذكر ناصر خسرو أنه يوجد في طبرية صناعة للحصر، ويوجد بها المواد الأولية لذلك، ومنها حُصر الصلاة التي يحدد سعر الواحدة منها بخمسة جنيهاً مغربية<sup>٣٧</sup> وهناك أيضاً أسواق متخصصة في مدينة عسقلان<sup>٣٨</sup>. أما الرملة فكانت تحتوي على أسواق وتجارات ودخل وخرج<sup>٣٩</sup>، كما تمتلك مدينة عكا أسواقاً حافلة، إذ كانت ملتقى تجار المسلمين والنصارى، وكانت هذه المدينة تمتلك

٣٢ . ياقوت، معجم، ج ١، ص ٤٠٣؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٠٠؛ الفلقشندي، صبح، ج ٤، ص ١١٣.

٣٣ . ابن حوقل، صورة، ص ١٦٣؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٢؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨-٤٩؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٢.

٣٤ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٦، ١٨١.

٣٥ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨١؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٦.

٣٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦١.

٣٧ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٣.

٣٨ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ الادريسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٥٧؛ ياقوت، معجم،

ج ٤، ص ١٢٢.

٣٩ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٥؛ الادريسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٥٦.

كل ما يحتاج إليه من الأطعمة المطبوخة والنيئة، وفيها مصنع لصناعة السفن<sup>٤٠</sup>. كذلك وجدت أسواق عامرة متخصصة في كل من نابلس والحليل وغزة وعمّان وزيّنا، وعجلون<sup>٤١</sup>.

ومن خلال الوصف السابق لأسواق مدن الشام، برزت ظاهرة تخصص الأسواق وتعددتها، فلم تكن مدينة دمشق هي أول المدن التي برزت فيها ظاهرة تخصص الأسواق، ففي حلب وحماة وحمص وعسقلان وبيت المقدس كان أصحاب كل مهنة يجتمعون معا في محل واحد مكونين سوقا فرعية صغيرة داخل السوق الكبير، وتختلف أهمية الأسواق الفرعية باختلاف عدد من يعملون فيها، أو في المهن التي يمتهنونها<sup>٤٢</sup>. ويرى مؤلف كتاب «آثار الأول»<sup>٤٣</sup> ضرورة انفراد كل سوق على حده حتى لا تتجاوز البضائع الخسيسة مع البضائع النفيسة. وفي المدن الكبيرة، مثل دمشق وبيت المقدس، لا بد من تفرقة بائعي الطعام على مواضع كثيرة من المدينة لأن حاجة الناس إليه متكررة، وأن يكون موقع الصناعات المضرّة في أطراف المدينة مثل المسالخ والمذابح، ومسابك الزجاج والحديد والأجر وعمل الصابون وما أشبه ذلك.

وتعددت الأسواق في معظم مدن بلاد الشام، وتخصص كل واحد منها ببيع سلعة معينة، ومن المؤكد أن الإشراف الحكومي عن طريق المحتسب على الأسواق ساعد على بروز ظاهرة التخصص<sup>٤٤</sup>، وكانت تسمية الأسواق وتخصصها متوقفة على نوع المواد التي تعرض في هذه الأسواق<sup>٤٥</sup>.

وأصبح لكل تاجر وتجارّة شارع معلوم، لا يختلط قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة ولا يباع

٤٠ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٠، ٥٣؛ ابن جبير، رحلة، ص ٢١١.

٤١ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤، ١٧٥؛ ياقوت، معجم، ج ١، ص ٢٩٢، ج ٢، ص ٣٨٧، ص ١٥١؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٠؛ القلقشندي، صبح، ج ٤، ص ١٠٢.

٤٢ . ابن عساکر، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٣٠؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦١، ١٧٤، ١٨١؛ ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٢٨٤؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٧٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٨.

٤٣ . الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م)، آثار الأول في ترتيب الدول، المطبعة الميمنية، القاهرة: ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م، ص ١٨٩. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الحسن بن عبد الله، آثار.

٤٤ . الشيرزي، عبدالرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١١. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: الشيرزي، نهاية.

٤٥ . ابن عساکر، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٧؛ ابن جبير، رحلة، ص ١٨٩.

صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن بغيرهم<sup>٤٦</sup>. وعند ذلك أصبح من المحتم أن تبرز ظاهرة تخصص الأسواق بشكل واضح. فأقيم سوق البزازين الذين كانوا يقومون ببيع الأقمشة على اختلاف أنواعها، وسوق الحدائين وسوق الحبالين وسوق البقل وغيرها<sup>٤٧</sup>. ويظهر أن أسماء الأسواق أو نوع البضاعة المباعة فيها، كان يطغى في الأغلب على مجاوره من مواضع.

وظهرت أيضا هناك الأسواق الأسبوعية الريفية ونجدها في مناطق غير حضرية متوسطة الكثافة. والسمة العامة لتلك الأسواق هي أن المشترين والبائعين يقطنون على مسيرة نصف يوم منها على الأكثر، ويشكل البائعون حلقة يطلق عليها « دور » ويعرف كل من هذه الأسواق حسب يوم الأسبوع والمكان اللذين تنصب فيهما<sup>٤٨</sup>. وكان يقام بعض الأسواق الأسبوعية في المناطق الحضرية، مثل سوق الأحد في دمشق<sup>٤٩</sup> وتقع السوق خارج المدينة لأن كثافة العمران تجعل من إقامتها داخل أسوار المدينة أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلا. ولذا نجد بالمدينة سوقا ريفيا لها خصائص معينة منها : أنها أرض خلاء واسعة لأن الفلاحين وأهل المدن «القادمين للبيع والشراء» يجتمعون فيها، ومن خصائصها أنها سهلة الدخول والخروج للناس والدواب في ساعات الازدحام، وأنها أيضا مكان لا يحس فيه إنسان أنه تحت رحمة أي إنسان آخر، وأنها تستعمل فقط على نحو غير دوري فذلك يخفض من تكاليفها<sup>٥٠</sup>. وتتصف تلك الأسواق بالقذارة من جراء الماشية، ولذا فإن سوق الغنم والخيل والجمال بدمشق وسوق الدواب بحلب دائما تكون مترية نظرا لحركات انتقال الجمهور النشيطة<sup>٥١</sup>. ولهذا نجد الفلاح عندما يبيع بضاعته في السوق الريفية، ينطلق بعدئذ لقضاء مشترياته من إحدى الأسواق المتخصصة في المدينة، فهي ثابتة مستمرة يبيع فيها أهل المدن وتخص لصاحب السوق<sup>٥٢</sup>، وإلى جانب ما تشتمل عليه المدينة من أسواق

٤٦ . البعقوبي، البلدان، ص ١٤ .

٤٧ . ابن عساکر، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٧؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ ياقوت، معجم، ج ٤، ص ١٢٢؛ الأدرسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٥٧ .

٤٨ . شاليتيا، بدور، «الأسواق»، المدينة الإسلامية؛ كمبردج، ١٩٨٣م، ص ١١٠ . ويشير إليه فيما بعد هكذا : بدور، الأسواق .

٤٩ . ابن عساکر، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٧ .

٥٠ . بدور، الأسواق، ص ١١٢ .

٥١ . المرجع السابق، ص ١١٢ .

٥٢ . المرجع السابق، ص ١١٢ - ١١٣ .

دائمة وأسواق موسمية هناك سويقات عديدة وجدت في مدن الشام مثل دمشق ورسافة الشام إذ كان فيها سوقة عدّة عشرة دكاكين<sup>٥٣</sup>. وهناك في دمشق سوقة باب البريد، وسوقة باب توما، وسوقة الحجامين وغيرها،<sup>٥٤</sup> والسوقة هي سوق بدائية صغيرة يشتري سكان الحي منها ما يحتاجون إليه عموماً من سلع وأشياء<sup>٥٥</sup>. وكان لكل حرفة محل خاص في السوق، ولأهلها ما يميزهم عن غيرهم، سواء أكان ذلك في طراز حوانيتهم، أم في شكل لباسهم، أم طريقة عرضهم لنوع السلع التي يبيعونها. فمثلاً للهراسين مواضع فوق دكاكينهم فيها الحصر والموائد والمري، وخدام وطشوت وأباريق وأشنان، فإذا انحدر الرجل دفع دانقاً<sup>٥٦</sup>. ولا بد أن يكون لأصحاب الحرف الأخرى ما يميزهم وإن لم ترد نصوص واضحة بذلك.

وكما كان لظاهرة تخصص الأسواق مزاياها الحسنة، فقد كانت لها أيضاً مضارها، فمن مزاياها تخصص سهولة الإشراف الحكومي<sup>٥٧</sup>، كما أن الناجر الجشع لا يستطيع أن يرفع سعر سلعته خوفاً من جيرانه المنافسين له في السلعة نفسها. وفي هذه الحالة يقل احتمال حدوث الاحتكار، أو أي ارتفاع غير طبيعي في سعر البضائع. ثم إن المشتري يستطيع أن يتقّي أجود ما يحتاج إليه من هذا الصنف من السلع في وقت قصير لتقارب الحوانيت المعروض فيها البضائع المتشابهة. أما عيوب تخصص الأسواق فأهمها أن الفرد إذا ما أراد أن يشتري عدة أصناف من السلع كان لا بد له أن يتجول في المدينة أو البلدة كلها حتى يستطيع أن يجمع كل ما يحتاج إليه من الأسواق المنتشرة. ورغم تبلور ظاهرة التخصص التي توضح أن كثيراً من أهل السوق امتنن أو اختص ببيع نوع معين من البضائع، لكن هذا لا يمنع أن يتحول الفرد من بيع سلعة ما إلى أخرى عندما تستدعي الحاجة إلى ذلك، أو عندما يرتئي أنه سيحصل على ربح أكثر بتحويله إلى بيع بضاعة أخرى<sup>٥٨</sup>. وأسواق الشام لم

٥٣ . ابن عساکر، تاریخ، ج ٢، ص ٢٢٩؛ یاقوت، معجم، ج ٣، ص ٤٧.

٥٤ . ابن عساکر، تاریخ، ج ٢، ص ٢٢٩.

٥٥ . بلرو، الأسواق، ص ١١٤.

٥٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٩.

٥٧ . البشیرزي، نهاية، ص ١١.

٥٨ . الراغب الاصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب (ت ٥٠٢هـ / ١١٠٨م) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج ٢، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م، ج ٢، ص ٤٦٦. وسيشار إليه فيما بعد هكذا : الراغب الاصفهاني، محاضرات الأدباء.



تكن كلها متخصصة في بيع نوع محدد من السلع، وانما وجدت أسواق أخرى جامعة، وتباع فيها مختلف البضائع. فمثلا السوق الكبير في دمشق سوق عظمى تجتمع فيها أصناف التجارات والصناعات<sup>٥٩</sup>.

ووجدت في بلاد الشام أسواق الصرافة أو حوانيت الصرافة، إذ كان يتولى الصرافون عملية تبادل النقود من فئة إلى فئة أخرى فكانوا يحولون الدينار إلى دراهم وبالعكس<sup>٦٠</sup>. وحلوا مشاكل الفروق بين نوعيات وأوزان العملة في أسواق بلاد الشام، وأصبح الصراف من الظواهر الضرورية في الأسواق الإسلامية وعمله أشبه بعمل البنوك اليوم.

وظهرت أيضا أسواق للأيدي العاملة (أو مواقف) في بعض المدن الإسلامية<sup>٦١</sup>. والملاحظ على جميع الأسواق السالفة الذكر أن أغلبها كان مسقوفا بالخشب ومبلطة بالحجر الصلد<sup>٦٢</sup>، وكانت أيضا أسعارها رخيصة<sup>٦٣</sup>. كانت التجارة الداخلية تتركز في الأسواق التي تعتبر مركز الحياة الاقتصادية في بلاد الشام وتتنوع التجارات في هذه الأسواق، كتجارة المواد الغذائية من حبوب وفواكه وخضروات وغيرها، أو تجارة الماشية ومنتجاتها، أو تجارة الملابس بأنواعها<sup>٦٤</sup>. أما المقدسي<sup>٦٥</sup> فيذكر: أن التجارة في بلاد الشام مفيدة، يقول: «يرتفع من فلسطين الزيت والقطين، والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والقوط». ويرتفع من بيت المقدس: «الجبن والقطن والزبيب العيونوي والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له، والمرايا وقذور القناديل والأبر». وأهم المواد التي تصدرها بيسان النيل والتمور والرز،

- ٥٩ . ابن عساکر، تاریخ، ج ٢، ص ٢٢٩؛ الادريسي، نزهة، ج ٦، ص ٦٤٧؛ ياقوت، معجم، ج ٣، ص ٦٦٦؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٩١.
- ٦٠ . ابن عساکر، تاریخ، ج ٢، ص ٢٢٨؛ ناجي معروف وعبد العزيز الدوري، موجز تاريخ الحضارة العربية، بغداد، ١٩٤٨م، ص ٧٤.
- ٦١ . بلدرو، الأسواق، ص ١١٢.
- ٦٢ . انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦، ١٧٤، ١٨٥؛ والادريسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٧٤؛ ابن جبیر، رحلة، ص ١٧٨، ١٨٢؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٨.
- ٦٣ . انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦، ١٨٥؛ الادريسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٧٤؛ ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٣٠٠؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ٨٥؛ القلقشندي، صبح، ج ٤، ص ١١٣.
- ٦٤ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤، ١٧٥، ١٨٠، ١٨٢؛ ابن حوقل، صورة، ص ١٦٣، ١٦٧؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨؛ الادريسي، نزهة، ج ٤، ص ٣٦٧، ٣٦٩؛ ابن جبیر، رحلة، ص ٢١١؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٠٠.
- ٦٥ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠.

وتصدر عَمَّانَ الجيوب والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد والثياب المنيرة والبلعيسية والحبال، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات، ومن مآب قلوب اللوز. أما دمشق فتصدر «المعصور البلعيسي والديباج ودهن البنفسج والكاغد والجوز والقطن والزيت، وتصدر حلب القطن والثياب والاشنان، ومن بعلبك الملاين.

ويذكر المقدسي عن كورة فلسطين بأنه اجتمع ستة وثلاثون شيئا من أصناف الطعام لا تجتمع في غيرها. وكان العراق يستورد من أسواق الشام: المنسوجات الحريرية، والقطن، والمنسوجات القطنية، وزيت الزيتون، والسكر، والزجاج والأدوات الزجاجية، والفواكه من تفاح وزيتون وتين<sup>٦٦</sup>. وكانت التجارة بين العراق والشام قوية ومنظمة لدرجة أن الخضروات كانت تجلب أحيانا من الشام الى العراق<sup>٦٧</sup>، ويخبرنا اليعقوبي أن السفن كانت تأتي باستمرار محملة بالبضائع السورية وبالذقيق في الفرات، ثم تسلك نهر عيسى الى بغداد<sup>٦٨</sup>.

واعتبرت المنشآت السالفة الذكر من المؤسسات الأساسية التي تولت الدولة الانفاق على إنشائها<sup>٦٩</sup>.

وأيقن المنصور أن قوة الدولة وزيادة منعتها تتوقف على سعادة أفرادها، لهذا لم يرهق رعيته بالضرائب ولم يضع على الأسواق غلة<sup>٧٠</sup>، وبذلك استطاعت أن تنتعش فترة من الوقت. ولشدة اهتمام الخلفاء بالأسواق كان بعضهم يتفقد أحوالها وما يجري فيها بنفسه ليطمئن على أن الأمور تسير وفق المصلحة العامة. ولا يتوانون عن أن يضربوا بشدة على يد

٦٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠-١٨١؛ الدوري، تاريخ العراق، ص ١٤٠.

٦٧ . التنوخي، القاضي أبي علي المحسن بن علي (ت ٣٨٨هـ/٩٩٤م) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج ٨، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧١-١٩٧٣م، ج ٢، ص ٢٠٥. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: التنوخي، نشوار؛ الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ/٩٩٤م)، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥١م، ص ٩٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الشابشتي، الديارات.

٦٨ . اليعقوبي، البلدان، ص ١٨.

٦٩ . ابن الفضيحة الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م)، بغداد مدينة السلام، تحقيق صالح أحمد العلي، دار الطليعة للطباعة والنشر، باريس، ١٩٧٧م. ص ٤٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الفضيحة الهمداني، بغداد.

٧٠ . حسن أحمد محمود، العالم الاسلامي في العصر العباسي، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٦٦م، ص ١٨٦.

كل من يحاول إلحاق الضرر بها<sup>٧١</sup>، والدرهم والدينار هما النقدان الأساسيان اللذان بهما تم التبادل والتعامل والتقدير في جميع أنحاء الدولة العباسية<sup>٧٢</sup>. ولم تقتصر وسائل التعامل التجاري لدفع الأموال المستحقة على النقود في العصر العباسي، فقد استخدم الصك في التعامل كوسيلة من وسائل التجارة، كما استخدم في حالات أخرى لدفع العطاء أو الرزق. وهو أمر خطي يُدفع بواسطته مقدار من النقود أو الرزق إلى الشخص الوارد اسمه فيه<sup>٧٣</sup>.

واستخدمت بالإضافة إلى النقود والصكوك السفاتج (الحوالات) كوسيلة من الوسائل المالية في التعامل التجاري وهي «كتاب صاحب المال لو كي له أن يدفع مالا قرضاً يأمن به من خطر الطريق». ولقد خففت هذه الوسيلة من الصعوبات التي تنتج عن نقل النقود، بين الأقاليم الإسلامية المتباعدة وما تتعرض له من خطر السرقة والنهب، فهي مأمونة من الضياع خفيفة الحمل، قليلة التكاليف بعيدة عن متناول اللصوص<sup>٧٤</sup>. ولقد قام وكلاء التجار في الأقاليم الإسلامية المتباعدة بتحويل هذه السفاتج إلى نقود لأصحابها، بقيمة المبالغ التي أخذت منهم. وسارت الأسواق في تخطيطها وفق نظم وقواعد معينة. وكل هذه النظم حددت أسسها وقواعدها بعد أن تبلور نظام الحسبة، وأحكم إشراف الدولة على الأسواق،

٧١. ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن طاهر (ت ٢٨٠هـ / ٨٩٣م)، بغداد، تحقيق محمد زاهر الكوثري، مصر ١٩٤٩م، ص ٩٨. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن طيفور، بغداد.

٧٢. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م)، كتاب الخراج، بولاق، ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م، ص ٢٠، ٦٠؛ مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م). الجامع الصحيح، ٥ ج، صحيح مسلم، دار الطباعة العامة، مصر ١٣٢٩-١٣٣٢هـ، ج ٣، ص ٦٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: مسلم، الصحيح.

٧٣. انظر الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٤٠٧هـ / ١١٠٣م). مفاتيح العلوم، عُني بنشره إدارة الطباعة المنيرية، مطبعة الشرف، القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م، ص ٣٨؛ ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) المعارف، تحقيق محمد بن اسماعيل الصاوي، القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م، ص ٤٦. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، المعارف؛ ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الانصاري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) لسان العرب، ٢٠ ج، القاهرة ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م، ج ١٢، ص ٣٤٤.

٧٤. السرخسي، شمس الدين محمد بن أبي سهل (ت ٤٨٣هـ / ١٠٩٩م) كتاب المبسوط، ٣٠ ج، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، ج ١٤، ص ٣٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: السرخسي، المبسوط؛ الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ / ١٠٧٣م) نهار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر، القاهرة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م، ص ٥٤٥.

وعندئذ كان لا بد عند إقامة الأسواق، أن تكون في الاتساع والارتفاع وفق مقاسات معينة حددتها كتب الحسبة<sup>٧٥</sup>. وكانت الأسواق والحرف تحت إشراف المحتسب. وتبين كتب الحسبة مهامه ومنها: الإشراف على الأوزان والمقاييس، وعلى البيع ونوعية الانتاج، وعلى النقود المتداولة، وعلى الآداب العامة. وكان يتطلب من المحتسب أن ينظر في شؤون الأسواق، وأن يتأكد أن الموازين والأوزان والمقاييس صحيحة، وأن يمنع الغش في الانتاج والتلاعب في الوزن والقياس، وان يؤكد مراعاة الآداب العامة، وأن يمنع التزيف في النقد<sup>٧٦</sup>. وقرنت الحسبة «بالأمر المعروف والنهي عن المنكر»<sup>٧٧</sup>. ويشار لأول محتسب عباسي أيام المنصور، فقد ولي يحيى بن زكريا الحسبة في بغداد<sup>٧٨</sup>. ويشرف على الموازين والمكاييل والمثاقيل والدراهم، وتخفيض كميتها وذلك لكي تجري معاملات الناس بها دون غبن، أو تطفيف<sup>٧٩</sup>.

٧٥. ابن الاخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م)، معالم القربه في أحكام الحسبة، بعناية روين ليوي، مطبعة دار الفنون، كمبودج، ١٩٣٧م، ص ٨٧-٨٩، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن الاخوة، معالم؛ الشيرزي، نهاية، ص ١١-١٤.

٧٦. يحيى بن عمر (ت ٢٨٩هـ / ٩٠١م) النظر والأحكام في جميع أحوال السوق، تحقيق فرحان الدشراوي، الشركة التونسية، تونس، ١٩٧٥م، ص ٣١، ٣٢، ٤٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: يحيى بن عمر، الأحكام؛ الناصر للحق، الحسن بن علي الاطروش، (ت ٣٠٤هـ / ٩١٦م). الاحتساب، نشره سارجنت في مجلة. (Rivista Degl: Studi Orientali, Vol. XXVIII, 183, pp. 11-33) ص ١٣؛ الشيرزي، نهاية ص ١٩؛ ابن الاخوة، معالم، ص ٨٥.

٧٧. الماوردي، ابن الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)؛ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٢٤٠، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الماوردي، الأحكام؛ أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء الخنيلي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)؛ الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد حامد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٦٨. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: أبو يعلى، الأحكام؛ ابن تيمية، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) الحسبة في الاسلام، مؤسسة مكة للطباعة، مكة، د.ت، ص ١١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن تيمية، الحسبة.

٧٨. الخطيب البغدادي، الحافظ أبي بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج ١، ص ٧٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ.

٧٩. يحيى بن عمر، أحكام، ص ٣١، ٣٢؛ الشيرزي، نهاية، ص ١٠؛ ابن الاخوة، معالم، ص ١٤.

وكان الخليفة يعين المحتسب في العاصمة، أما في الولايات فكان يعين من قبل الأمير<sup>٨٠</sup>. ويساعد المحتسب في أعماله عدد من الأعوان، لأنه لا يستطيع الاحاطة بجميع الأعمال المنوطة به، وكان مسؤولو الأسواق وعرفاء الحرف والأصناف منهم<sup>٨١</sup>، فقد كان لكل مهنة أو صنف شيخ أو رئيس تعينه الحكومة، وهو الذي يمثلها<sup>٨٢</sup>، وكان المحتسب يتخذ من كل صنف أو مهنة عريفا من صالح أهلها، خيرا بصناعتهم، بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم، مشهورا بالثقة والأمانة، يكون مشرفا على أحوالهم، ويطلبه بأخبارهم، وبما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار<sup>٨٣</sup>. كما ترد الإشارة لعمال الأسواق من بين أعوان المحتسب، فهناك والي سوق الغنم، والعامل على دار البطيخ والقطن. وترد إشارة في عهود القرن الرابع الى الوالي على سوق الرقيق، والى «ولاية أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه، والتحرر من وقوع تجوز فيه وإهمال له... ولا يمشوا بيعا على شبهة ولا عقدا على تهمة»<sup>٨٤</sup> وفي زمن المعتضد كان من هؤلاء العمال من هو بمنزلة محتسب في المدن الأخرى، فيما كان محتسب بغداد في منزلة فوقهم<sup>٨٥</sup>، ويفترض في

٨٠. الصابي، أبو اسحق إبراهيم بن هلال (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، المختار من رسائل الصابي، نقحه وعلق على حواشيه شكيب ارسلان، دار النهضة، بيروت، د.ت، ص ١٠. وسيشار اليه فيما بعد هكذا : الصابي، رسائل؛ مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) تجارب الأمم، ج ٥، تحقيق دي خويه، مطبوع مع العيون والحدائق في أخبار الحقائق، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٩م، اوفست مكتبة المثنى، بغداد، ص ٢٠٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا : مسكويه، تجارب.

٨١. مسكويه، تجارب، ج ١، ص ٩٠؛ وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م) أخبار القضاة، صححه وعلق عليه عبد العزيز مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٤٧م، ص ٣٤٧. وسيشار اليه فيما بعد هكذا : وكيع، أخبار.

٨٢. ابن طيفور، بغداد، ص ١٧٤؛ الدوري، المؤسسات، ص ٦٠.

٨٣. الشيرزي، نهاية، ص ١٢.

٨٤. الصابي، رسائل، ص ١٦٤؛ التنوخي، نشوار، ج ٢، ص ٣٧.

٨٥. الصابي، رسائل، ص ١٧٦؛ ابن الجوزي، الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦ (من ج ٥ - ج ١٠)، مطبعة دائرة المعارف العشانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٨هـ، ج ٦، ص ٣١١. وسيشار اليه فيما بعد هكذا : ابن الجوزي، المنتظم.

المحتسب أن يكون عارفا بأحكام الشريعة<sup>٨٦</sup>. كما كان للمحتسب سجل خاص، كان يدون فيه قوائم بأساء الصّناع والتجار، وكان يؤثر إزاء اسم كل منهم موقع محله، ليتمكن من الوصول اليه بسرعة عند الحاجة<sup>٨٧</sup>. وكانت من مهام المحتسب أيضا مراقبة المعاملات المنكرة كالبيوع الفاسدة، وما منع الشرع منه، مع تراضي المتعاقدين عليه، فله انكاره، ومنعه، وزجرهم وتأديبهم<sup>٨٨</sup>، ومن اختصاصات المحتسب تفقد أحوال السوق وأهله، فقد جاء في عهد الطائع (٣٦٣-٣٨١) : على المحتسب أن يتصفح أحوال العوام في حرفهم ومتاجرهم، ومجتمع أسواقهم، ومعاملاتهم<sup>٨٩</sup>، وينظر في الموازين والمكاييل ليتأكد من دقتها، ويعتبر مسؤولا عن أي شكوى عنها<sup>٩٠</sup>، ففي عهد الطائع يفرض على ولاية الحسبة «أن يعيروا موازينهم والمكاييل، ويقرروها على التعديل والتكميل»<sup>٩١</sup>. فإذا وجد من يتلاعب بالمكاييل والأوزان، عاقبة المحتسب حتى يتراجع عن ذلك<sup>٩٢</sup>. كما كان على المحتسب أن يتفقد عيار المشاقيل والصنّج والحبات على حين غفلة من أهلها<sup>٩٣</sup>. وكان على المحتسب أن يراقب التلاعب بالأسعار، إلا أنه لا يحق له أن يلزم أرباب البضائع بيعها بسعر معلوم<sup>٩٤</sup>، ولم يكن

- ٨٦ . الماوردي، الأحكام، ص ٢٤١؛ أبو يعلى، الأحكام، ص ١٦٩؛ ابن الأخوة، معالم، ص ٧؛ الشيرازي، نهاية، ص ٦، ٨.
- ٨٧ . الشيرازي، نهاية، ص ٢٢؛ حسام السامرائي، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية، مكتبة الفتح، دمشق ١٩٧١م، ص ٢٤٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا : السامرائي، المؤسسات.
- ٨٨ . الماوردي، الأحكام، ص ٢٥٣.
- ٨٩ . الصايي، رسائل، ص ١٦٥؛ انظر العماد الاصفهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، البرق الشامي، مكتبة مودليان، اكسفورد، مجموعة Marsh رقم ٤٢٥، ص ١٩٩.
- ٩٠ . يحيى بن عمر، أحكام، ص ٣١، ٣٢؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ٥، ص ١٣٠، العماد الاصفهاني، البرق، ص ١٩٩.
- ٩١ . الصايي، رسائل، ص ١٦٥.
- ٩٢ . يحيى بن عمر، أحكام، ص ٣١، ٣٢؛ الصايي، رسائل، ص ١٦٤؛ ابن بسام، محمد بن أحمد، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص ١٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا : ابن بسام، نهاية.
- ٩٣ . يحيى بن عمر، أحكام، ص ٣١، ٣٢؛ الناصر، الاحتساب، ص ١٣؛ الشيرازي، نهاية، ص ١٩؛ ابن الأخوة، معالم، ص ٨٥؛ المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤ في ٢م، بولاق، ١٢٧٠هـ، ج ١، ص ٤٦٣. وسيشار اليه فيما بعد هكذا : المقرئ، الخطط.
- ٩٤ . يحيى بن عمر، أحكام، ص ٤٣، ٤٦.

له أن يتدخل في تحديد الأسعار. لأن المسعر هو الله<sup>٩٥</sup>، كما ينتظر منه أن يمنع الاحتكار وأحيانا الخزن<sup>٩٦</sup>، وفي حالة تواطؤ التجار واحتكارهم لأصناف الطعام كان من واجبه التدخل لاجبار المحتكرين على البيع، وذلك «لأن الاحتكار حرام، والمنع من فعل الحرام واجب»<sup>٩٧</sup> وعلى المحتسب أن ينهي عن قسم اليمين عند البيع، وعند النداء على السلعة، وأن يأمر السامسة إذا اشتروا السلعة أن لا يدفعوا للبائع دراهم الا برضاء<sup>٩٨</sup>.

وكان على المحتسب أن ينظر في النقد منعا لظهور النقد المزيف المخلوط بالنحاس، والدراهم الناقصة، وأن يتشدد في ذلك، ويعاقب المخالفين بالحبس، وله أن يشهر لهم في الأسواق أمام العامة<sup>٩٩</sup>. وكان على المحتسب أن يشرف على جميع الصنائع والحرف، وقد أسهبت كتب الحسبة في الحديث عن تدخل المحتسب وإشرافه على تلك الحرف والأصناف، وأفردت لكل منها فصلا خاصا لبيان شروط الصناعة، مع وصف دقيق لأعمال كل صنف، وأساليب التلاعب والغش فيها<sup>١٠٠</sup>، فكان المحتسب ينظر في جودة السلعة، ومنع الغش فيها<sup>١٠١</sup>. كان المحتسب يقوم بجولات تفتيشية في المدينة، يطوف الأسواق والأماكن الأخرى التي يباشر فيها اختصاصه، محاطا بأعوانه وغلماؤه، وميزانه مع أحد أعوانه<sup>١٠٢</sup>، وكان يفترض في المحتسب أن يقوم بواجباته على الوجه الأكمل، وأن لا يفرط في

٩٥ . الناصر، الاحتساب، ص١٤؛ الشيرزي، نهاية، ص١٩؛ ابن تيمية، الحسبة، ص١٨؛ ابن الأخوة، معالم، ص٦٤؛ المجليدي، أحمد سعيد، (ت ١٠٩٤ / ١٦٢٨م) التيسير في أحكام التسعير، تحقيق موسى لقبال، الشركة الوطنية، الجزائر، ١٩٧٠م، ص٨٤. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: المجليدي، التيسير.

٩٦ . يحيى بن عمر، أحكام، ص ١١٣.

٩٧ . الشيرزي، نهاية، ص١٢؛ وانظر: يحيى بن عمر، أحكام، ص١١٣؛ ابن تيمية، الحسبة، ص١٧؛ ابن الأخوة، معالم، ص٥٦.

٩٨ . الناصر، الاحتساب، ص ١٤ - ١٥.

٩٩ . يحيى بن عمر، أحكام، ص ٣٣.

١٠٠ . انظر: يحيى بن عمر، أحكام، ص ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٨؛ الشيرزي، نهاية، ص١٢، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٥؛ ابن بسم، نهاية، ص ٢١، ٢٥، ٢٧، ٣٤، ٤٤، ٤٧، ٥٠، ٥١، ٦٥.

١٠١ . يحيى بن عمر، أحكام، ص ٥٣.

١٠٢ . الشيرزي، نهاية، ص ١٢٨؛ ابن الأخوة، معالم، ص ٢٢٠.

ذلك، ولم يكن الخلفاء يتهاونون مع المحتسب إذا قصر في واجباته، فقد أقدم المنصور على قتل محتسب بغداد يحيى بن زكريا لسوء تصرفه<sup>١٠٣</sup>، كما أن المعتضد أنكر على المحتسب ترك النظر في أمر السوق، وأمره بمزاولة أعماله على أتم وجه «حتى لا يبخس أحد شيئا من حقه»<sup>١٠٤</sup> وقد ذكر لعلي بن عيسى الوزير أن محتسب بغداد، كان يكثر الجلوس في داره فكتب له يقول «الحسبة لا تحتمل الحجة، فطف بالأسواق تدر لك الأرزاق، وإن لزمت دارك صار الأمر كله عليك»<sup>١٠٥</sup>.

ثم إن تطور المجتمع العباسي نحو العناية بالتجارة والصناعة واتساع المدن، وزيادة رقابة الدولة على الأسواق كل ذلك أدى الى ظهور مهن وحرف مختلفة، كما أوجد شعورا بضرورة تنظيم الصناعات والتجار في الأزمات السياسية والاقتصادية التي كانت تتعرض لها أسواقهم بين الحين والآخر<sup>١٠٦</sup>.

وحدثت تطورات داخلية في تنظيم أهل الحرف أكسبتها إطارها العام، فأصبح لكل حرفة (رئيس) من أصحابها تعينه الحكومة عادة، أو تعترف به<sup>١٠٧</sup>.

وقد كانت كل طائفة من التجار، وأصحاب الحرف تتجمع في مكان واحد تتسمى به<sup>١٠٨</sup>، وسجل كل محتسب قائمة بأسماء الصناعات وأهل الحرف وحوانيتهم وأوضاعها للرجوع إليها عند الحاجة<sup>١٠٩</sup>.

ويبدو أن رابطة المهنة، ووجود الكثير من أهل الذمة في الحرف ولدت تسامحا وتعاوناً بين أهل هذه الحرف، بصرف النظر عن الفوارق الدينية، وبخاصة في الأوقات التي تتعرض

١٠٣ . الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ١، ص ٧٩.

١٠٤ . ابن الجوزي، المنتظم، ج ٥، ص ١٢٩ / ١٣٠.

١٠٥ . ابن بسام، نهاية، ص ١٥.

١٠٦ . اليعقوبي، البلدان، ص ٢٥٢-٢٥٣؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٧؛ ياقوت، معجم، ج ٧، ص ٢٣٣.

١٠٧ . اليعقوبي، البلدان، ص ٢٤٨.

١٠٨ . اليعقوبي، البلدان، ص ٢٤٥-٢٤٦؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١، ص ٨٠، ١١٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٢١.

١٠٩ . اليعقوبي، البلدان، ص ٢٤٥-٢٤٦؛ الشيرازي، نهاية، ص ٢٢؛ ابن بسام، نهاية، ص ٢١.



فيها مصالحهم للخطر<sup>١١٠</sup>.

ونجد أن أهل الحرف يشار اليهم بـ «الأصناف» و «أهل المهن» و «أهل الصنایع» ويمرور الزمن قويت الرابطة بين أهل الصنایع هؤلاء، وصار كل يشعر بالارتباط الوثيق بأهل صنفه، وصار من أقوالهم الماثورة «الصناعة نسب»<sup>١١١</sup>. ويتصل بالتماسك الحرفي، والشعور بالكيان لدى أهل الصنایع انتشار الانتساب الى المهنة بجوار الانتساب الى المدينة أو القبيلة.

وبلغ من تماسك أصحاب الحرف وتكتلهم أن الماوردي<sup>١١٢</sup> أصبح يرى في العرف الجاري بين أهل الصنایع أساساً يستطيع المحتسب الرجوع اليه حين ممارسة مهمته في مراقبة الأسواق وفض المنازعات بين أهلها.

ومن ذلك يتبين أن تكتل وتنظيم أهل الأسواق وتماسكهم كان قد بدأ بتجمعهم في أسواق ومحلات خاصة لكل صنف نتيجة الشعور بالمشاركة في الحرفة.

- 
- ١١٠ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٦ أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٣ .  
عبد العزيز الدوري «نشوء الأصناف والحرف في الاسلام» مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الأول - حزيران لسنة ١٩٥٩، ص ١٦٩ .
- ١١١ . يعقوبي، البلدان، ص ٢٣٨، ٣٤٦؛ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، البخلاء، تحقيق طه الحاجري، مطبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٥١-٥٢، وسيشار اليه فيما بعد هكذا : الجاحظ، البخلاء .
- ١١٢ . الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٣١ .

## حركة التجارة بين بلاد الشام والبلاد الإسلامية في القرنين الثالث والرابع للهجرة

### طه الطراونه\*

تفيد المعلومات المتوافرة عن النشاط التجاري في بلاد الشام في الحقبة التي ندرسها أن المنطقة كانت ذات مساهمة ملحوظة في الحركات التجارية بين مختلف الأقطار الإسلامية. فقد كانت بلاد الشام في هذه الفترة كما هو شأنها معبراً لتجارة الترانزيت بين الشرق والغرب، الأمر الذي كان له كبير الأثر في نماء مدنها الواقعة على خطوط سير القوافل البرية، ومدنها الساحلية ذات الموانئ للتجارية. وإضافة إلى ذلك، كانت الشام تصدر قسماً من إنتاجها الزراعي والصناعي إلى البلدان الإسلامية المختلفة، وتستورد منها بعض السلع.

ونلمح أهمية الشام كممر لتجارة الترانزيت من خلال ما ذكره ابن خرداذبة (ت حوالي ٣٠٠هـ/٩١٢م) في حديثه عن التجار اليهود الراذانية الذين كانوا يتقنون عدة لغات ويتاجرون ما بين الشرق والغرب بأنهم كانوا ينقلون بضائعهم عن طريق البحر المتوسط حتى الفرما في مصر، ثم ينقلونها إلى القلزم (السويس)، ومنها إلى جدة حيث تأخذ طريقها إلى الهند والصين، فيبيعون ما معهم ويعودون ببضائع تلك البلاد. ويذكر أنه كان هناك طريق آخر يسلكه أولئك التجار، وهو أن ينزلوا على أنطاكية، ثم ينتقلون برأ إلى الجابية، ومنها إلى الفرات حتى بغداد، ثم إلى دجلة فإلى الأبله، ومن ثم إلى عمان والهند والصين.<sup>١</sup>

ويذكر ابن خرداذبة في مكان آخر أن الشام كانت طريقاً لمجموعة أخرى من التجار هم التجار الروس الصقالبة الذين كانوا يخرجون من الأندلس أو من فرنجة (فرنسا) إلى بلاد السوس في المغرب الأقصى ثم إلى طنجة ثم إلى أفريقية (تونس)، ومنها إلى مصر، ثم إلى الرملة ودمشق ومنها إلى الكوفة، ثم إلى البصرة فالأهواز ففارس ثم إلى كرمان فالسند والهند والصين.<sup>٢</sup>

\* قسم التاريخ، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية.

١. ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٣م)، المسالك والممالك، ليدن، بريل،

١٨٨٩م، ص ١٥٣. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، المسالك.

٢. المصدر نفسه، ص ١٥٤ - ١٥٥.

ولعل قوافل التجار ما بين العراق والشام، أفادت من إصلاح الطريق بين البلدين، الذي أمر به الخليفة المتوكل عندما عزم على السير إلى الشام سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م، بحيث أقيمت المنازل والمرافق من أجل مروره<sup>٣</sup>.

ويبدو أن ذلك النشاط التجاري كان عاملاً مهماً في نهاء المدن الشامية. وإذا ما نظرنا ابتداءً إلى المدن الواقعة على خطوط سير القوافل التجارية البرية، نجد أن مدينة حلب ذات الموقع المرموق على خط التجارة الدولي القادم من الهند وفارس والعراق والجزيرة العربية، كانت عامرة مزدهرة بفضل تلك الحركة التجارية النشطة. فقد وصفها ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) بقوله: «وكانت مدينة عامرة غاصة بأهلها، كثيرة الخيرات، على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات»<sup>٤</sup>. ثم يمضي في وصفها مشيراً إلى حسن أسواقها، وكثرة حماماتها وفنادقها، واتساع محالها وجلال أهلها<sup>٥</sup>. وهذا أمر منتظر، لأن النشاط التجاري يشكل حافزاً قوياً لكثير من المصالح التي كانت تهض بتقديم الخدمات المختلفة للتجار من مطاعم وفنادق وحمامات، ومخازن للبضائع، وخانات وأغلاف للدواب، وما إلى ذلك.

وتؤكد أخبار الرحالة الذين مروا بمدينة حلب في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي عمران المدينة وأهمية التجارة التي تمر بها كعنصر فاعل في حياتها. فهذا الرحالة الفارسي ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م) الذي زار حلب سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م يصف المدينة بأنها عامرة، وأن فيها محطة لتحصيل المكوس عما يمر بها من تجارات من الشام وديار بكر ومصر والعراق، حيث كان يرد إليها تجار من جميع هذه الأقاليم<sup>٦</sup>. وينقل ياقوت الحموي عن ابن بطالان (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م) الذي زار مدينة

٣ . يعقوبي، أحمد بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، تاريخ يعقوبي، ٢ م، تحقيق: م. ث. هوتسا، ليدن : بريل، ١٩٦٩م، ٢٢، ص ٦٠٠. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا : يعقوبي، تاريخ.

٤ . ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (ت حوالي ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، كتاب صورة الأرض، بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩م، ص ١٦٣. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا : ابن حوقل، صورة الأرض.

٥ . المصدر نفسه والمكان نفسه.

٦ . ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥م، ص ٤٤. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا : ناصر خسرو، سفرنامه؛ لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ترجمة: محمود عبايرة، عمان : دائرة الثقافة والفنون، ١٩٧٠م، ص ٢٩٥ - ٢٩٧. سيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا : لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي.

حلب سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م خيراً ذا دلالة مهمة فيما يتعلق بالنشاط التجاري في المدينة حيث يقول: «من عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار، مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن.»<sup>٧</sup> وتوحي هذه الإشارة باستمرارية النشاط التجاري كعنصر فعال، كبير الأثر، في ازدهار حلب وراثتها، وتدلل على أن هذه المدينة لم تكن مجرد محطة تعبرها القوافل، بل مدينة مزدهرة تحتفظ لنفسها بقدر كبير مما يرد إليها من تجارات لتباع فيها، مما أدى إلى فتح وكالات تجارية لمجموعة من كبار التجار الذين ربما كانوا من خارج المنطقة، ويمكننا أن نستخلص من ذلك، ومن حجم القوة الشرائية في المدينة، أن عدد سكانها كان كبيراً في هذه الفترة، وأن للتجارة التي تمر بها كبير الأثر في ذلك.

وبالإضافة إلى حلب كانت بالس الواقعة على الفرات إحدى المحطات التجارية التي أفادت كثيراً من حركة التجارة ومرور قوافل التجار فيها حيث كانت منفذاً لأهل الشام على الفرات. لكن أهمية هذه المحطة تراجعت كثيراً لتحول طرق القوافل عنها بعد وفاة سيف الدولة الحمداني سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م<sup>٨</sup>. ومن هنا يمكننا أن ننظر إلى حالة بالس كشاهد على تأثير الأوضاع السياسية على النشاطات الاقتصادية في المنطقة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

ومثلما أفادت حلب وبالس من مرور قوافل التجارة البرية في شمال البلاد، نلاحظ الشيء ذاته في جنوبها. فقد كانت الرملة محطة تجارية ذات شأن كبير في جنوب بلاد الشام، حيث أسهمت التجارة كثيراً في تطورها وازدهارها. فقد كانت تحتوي على الكثير من الفنادق المعدة لنزول الغرباء والتجار، والعديد من الحمامات النظيفة؛ كما وصفت بأنها مركز تجارة دمشق، وأفضل محطة تجارية بين بحرين، وبأنها عامرة بالسكان وذات أسواق جميلة، وحركة

٧. الحموي، أبو عبد الله ياقوت (ت ٦١٨هـ/١٢٢١م)، معجم البلدان، ٥، بيروت، دار صادر-دار بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧م، ٢، ص ٢٨٤. عن ابن بطالان انظر اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ٢، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢٨٧.

٨. الاصطخري، أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ٤. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الاصطخري، المسالك؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ١٦٥.

## تجارية نشطة<sup>٩</sup>.

أما دمشق، قاعدة الشام ومدينتها الأولى، فكانت منذ عهد الآراميين الذين حلوا بها في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد مركزاً لا مندوحة عنه لقوافل التجار. وظلت تحتفظ بهذه المكانة عبر العصور اللاحقة. وتأكدت مكانتها وازدادت بعد علو شأنها السياسي في الدولة العربية الاسلامية منذ انتقال مركز الخلافة إليها في بداية الحقبة الأموية. وبقيت في الفترة التي ندرسها مركزاً ترد إليه، وتنطلق منه تجارات الشرق والغرب<sup>١٠</sup>.

وإلى جانب المدن التي ازدهرت نتيجة لمرور طرق التجارة البرية فيها، فقد ازدهرت مدن الساحل الشامي ذات الموانئ، وشهدت نشاطاً تجارياً ملحوظاً استحق التدوين من قبل الجغرافيين والرحالة. فمن هذه الموانئ كانت تنقل البضائع والسلع التجارية القادمة من الشرق، بحراً، إلى الغرب. وفي الوقت نفسه، كانت تعبر السلع والبضائع القادمة من الغرب، برأ، إلى الشرق. ففي شمال الساحل الشامي كانت أنطاكية أهم الموانئ التجارية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي<sup>١١</sup>. ويؤيد ذلك ما ذكره ابن خرداذبة في إشارته إلى قيام الخليفة المعتصم بتحسينها، وفي كونها محطة لتجار اليهود الراذنية إذ يقول بهذا الصدد: «... وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبله...»<sup>١٢</sup>.

وكانت طرابلس في هذه الفترة ميناءً تجارياً نشطاً بدليل المحطة التي كانت فيها لتحصيل المكوس على السفن التي كانت ترد إليها من بلاد الروم وبلاد الفرنجة، ومن المغرب والأندلس، وتدفع ضريبة العشر للفاطميين الذين كانوا يدفعون منها أرزاق الجند. إضافة إلى ذلك كان للفاطميين في طرابلس سفن تجارية تبحر إلى كل من بيزنطة وصقلية

٩ . المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م)، أحسن التباسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل، ١٩٠٦م، ص ١٦٤. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التباسيم؛ لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ٢٥٤ - ٢٥٥.

١٠ . Allen Tower, The Oasis of Damascus, (Beirut: The American University of Beirut, 1935), PP. 5-7.

١١ . آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ٢ م، ترجمة: محمد عبدالمهدي أبوريدة، بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ط ٥، ٢ م، ص ٢٥٥.

١٢ . ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٣.

والمغرب للأتجار معها<sup>١٣</sup>.

وإلى الجنوب من طرابلس، كانت بيروت أحد الموانئ الشامية الفعالة التي شهدت نشاطاً تجارياً قوياً في هذه الفترة. فقد كانت ميناء دمشق ومنفذ التجارة الواردة إليها من الشرق، حيث تأخذ طريقها بحراً إلى الغرب. ووصفها ابن حوقل أنها «فرضة دمشق وساحلها... وتجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة»<sup>١٤</sup>. وإلى جانب بيروت كانت الموانئ الجنوبية الأخرى كصيدا وصور وعكا ذات شأن في هذه الفترة. وقد وصفت بأنها كانت عامرة الأسواق، مليئة بالبضائع النفيسة، وفيها منازل للقوافل التجارية<sup>١٥</sup>.

وفي ضوء ما تقدم نرى أن بلاد الشام كانت طريقاً لتجارة الترانزيت بين الشرق والغرب، وأن تلك الحركة التجارية كانت عنصراً حيوياً في حياتها، وكان له بالغ الأثر في ازدهار مدنها.

ولكن بلاد الشام لم تكن جسراً تمر عليه البضائع فحسب، وإنما أسهمت بشكل ملحوظ في ذلك النشاط التجاري عن طريق تصدير بعض منتجاتها إلى الأقطار الإسلامية لا سيما المجاورة لها، وعن طريق استيراد بعض السلع من عدد من هذه الأقطار. ويدل حديث المقدسي عن تجارات الشام على تمتع هذه المنطقة بقاعدة إقتصادية إنتاجية وفرت الأساس الضروري للاسهام في نشاط تجاري متوازن، إن لم يكن راجحاً لصالحها، حيث يقول: «والتجارات به مفيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط، ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والابر، ومن أريحا نيل

١٣ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨؛ لي سترانج، فلسطين في العهد الاسلامي، ص ٢٨٧.

١٤ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٣.

١٥ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٢؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٠؛ الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ص ٧، روما، ١٩٧٤م، ص ٥، ص ٣٧٠، ولد الادريسي حوالي سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م أي بعد انقضاء قرن على الفترة التي ندرسها. ولا نعلم هل مر ببلاد الشام عند زيارته لآسيا الصغرى أم لا. إلا أنه يمكننا الأطمئنان إلى ما ورد عنده من معلومات لأنه استقاها من مؤلفات سابقة معاصرة لهذه الفترة، ومن تقارير أشخاص أرسلوا لمختلف البلدان. أنظر حول الادريسي، كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٣١٦ - ٣٢٠. وانظر أيضاً :

Wadie Jwaaidh, "al-Idrisi", Encyclopaedia Britannica, 19 Vols. (Macropaedia) 15th ed., pp. 198-99.

غاية، ومن صغرى وبيسان النبل والتمور، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد ويز، ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات، ومن ماب قلوب اللوز، ومن بيسان الرز، ومن دمشق المعصور والبلعيسي وديباج ودهن بنفسج دون والصفريات والكاغد والجوز والقطين والزبيب، ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة، ومن بعلبك الملاين...<sup>١٦</sup>.

أما وقد وقفنا بصورة عامة على قاعدة الشام الاقتصادية، فسنحاول من خلال بعض الأخبار المتفرقة التي تمكنا من الحصول عليها أن نقف على بعض ما كان يصدر منها، وعلى بعض الأقطار الإسلامية التي كانت تستورد منتجات الشام. فنظراً لانتشار زراعة الزيتون في مختلف أنحاء المنطقة، يبدو أنه كان هناك فائض في إنتاج الزيت يعد للتصدير. ويبدو أن مصر كانت أبرز الأقطار التي تستورد زيت الشام. يذكر ابن حوقل أن مصر في الزمن الذي كان يتجول فيه في البلاد الإسلامية (أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)، كانت تزود بحاجتها من الزيت من سفاقس في تونس لقلّة الزيت بالشام<sup>١٧</sup>. وتوحي هذه الإشارة إلى أن المألوف كان إستيراد مصر لحاجتها من الزيت من بلاد الشام، لكن عند ما قل الزيت بالشام تمجّبت إلى تونس. إلا أننا لا نعلم فيما إذا كان سبب قلّة زيت الشام يتعلق برداءة المواسم، أم نتيجة للقلق السياسي الذي كانت البلاد تعاني منه في هذه الفترة<sup>١٨</sup>.

ومهما يكن من أمر، فزراعة الزيتون المألوفة في المنطقة منذ القدم ظلت مستمرة، وإنتاج الزيت وتصديره ظلّ مستمرين تبعاً لذلك. ويؤكد هذا الأمر ناصر خسرو في وصفه لبيت المقدس حيث يقول: «فيها أرباب عائلات يمسك الواحد منهم خمسين ألف من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض ويصدرونها إل أطراف العالم»<sup>٢٠</sup>. لكن هذه

١٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠ - ١٨١ :

١٧ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٣.

١٨ . كانت بلاد الشام في هذه الفترة مسرحاً للصراع ما بين ابن رائق وعامل الاخشيد على دمشق، محمد بن طغخ، ثم استولى سيف الدولة الحمداني على حلب وحمص، ثم استولى على دمشق من الاخشيديين الذين عادوا إلى حكمها بعد قليل. أنظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي (ت ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ١٠م، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ٧م، ص ٢٠٣، ٣٠١. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل.

١٩ . المنّ : مكيال كان يساوي رطلين، ويعادل ٨١٩ غم في النظام المتري. انظر فالترهتس، الكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص ٤٦.

٢٠ . ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٢٠.

الاشارة لا تسعفنا - لسوء الحظ - في معرفة بلد واحد على الأقل من الأقطار التي كان الزيت الشامي يصدر إليها. غير أنه اعتماداً على إحدى الدراسات الحديثة في هذا المجال يتضح أن العراق كانت من بين البلدان التي تستورد جزءاً من زيت الشام وزيتونها في القرن الرابع الهجري<sup>٢١</sup>.

ونتيجة لانتشار زراعة الكروم في مختلف أنحاء الشام فقد كان إنتاجها من الزبيب وفيراً. وقد أشار المقدسي إلى ثلاثة مواقع اشتهرت به هي فلسطين (الرملة) وبيت المقدس ودمشق<sup>٢٢</sup>. ويضيف ابن حوقل إلى هذه الأماكن منبج، ويشيد بزيبها الذي اكتسب شهرة حسنة لطريقة صنعه باضافة الفستق والجوز والسمن إليه. ويذكر ابن حوقل أن زبيب منبج كان يحمل الى حلب وغيرها من البلاد<sup>٢٣</sup>. وإذا ما تذكرنا موقع حلب ومكانتها التجارية، فيمكننا أن نطمئن إلى الافتراض بأنه كان ينقل إلى هناك من أجل التصدير. ولنا أن نتصور حجم إنتاج الزبيب في المنطقة من خلال ما ذكره الجهشيارى (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، من أن حمص كانت تؤدي ألف راحلة من الزبيب لبيت المال في عهد هارون الرشيد، وأن جميع أجناد الشام كانت تؤدي ثلاثمائة ألف رطل من الزبيب<sup>٢٤</sup>. ويبدو أن مصر كانت المستورد الأول للزبيب الشامي حيث يذكر المقدسي في وصفه للخليل أن البلدة محاطة بالكروم والتفاح، وأن أكثره يحمل إلى مصر<sup>٢٥</sup>. ومن الواضح تعذر نقل العنب طازجاً إلى مصر، ولهذا كان يحمل إليها مجففاً.

وكانت الفاكهة الشامية - ولا سيما التفاح - من بين المنتجات التي كانت تصدر إلى مصر والعراق. وإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه قبل قليل من تصدير الكروم والتفاح الشامي إلى مصر يذكر المقدسي عند حديثه عن مصر ما يلي: «يجيء إليه أبدأ ثمرات الشام والمغرب وتسير الرفاق إليه من العراق والمشرق...»<sup>٢٦</sup>. أما عن وجود التفاح الشامي في

٢١ . عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط ٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٤٠. سيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي.

٢٢ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠.

٢٣ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٦.

٢٤ . الجهشيارى، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٣م) كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط ٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٢٨٧. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الوزراء والكتاب.

٢٥ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٢.

٢٦ . المصدر نفسه، ص ١٩٩.



العراق فيمكن استنتاجه من خبر أورده المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) في وصف مائدة أحد مياسير بغداد جاء فيه : « . . . ورفعت المائدة وقمنا من فورنا إلى موضع الستارة، فقد وضع بين أيدينا اجانة صيني بيضاء قد كومت بالبنفسج والخيري، وأخرى مثلها قد عبىء فيها التفاح الشامي، قدرنا مقدار ما حضر فيها ألف تفاحة»<sup>٢٧</sup>. وتوحي هذه الاشارة بأن التفاح الشامي كان يجد طريقه الى العراق، وانه كان يوجد بكثرة في بيوت الأثرياء وميسوري الحال .

كذلك وكان الخرنوب من بين الثمار الشامية التي تصدر الى مصر. وقد أوضح ذلك الشريف الادريسي في وصفه لبلدة الناعمة حيث يقول : «والناعمة مدينة حسنة واكثر نبات أرضها شجر الخرنوب الذي لا يعرف في معمور الأرض مثله قدرأ ولا طيباً، ومنها يتجهز به الى الشام والى ديار مصر واليها ينسب الخرنوب الشامي . . .»<sup>٢٨</sup>. كما كان هناك منتجات غذائية أخرى تصدر من الشام الى العراق أهمها الدقيق. يقول اليعقوبي : «ولهم نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير إلى فرضة عليها الأسواق وحوانيت التجار لا تنقطع في وقت من الأوقات . . .»<sup>٢٩</sup>. وإلى جانب ذلك يورد الجهشيارى خبراً يوحي بوجود مادة غذائية أخرى عالية الجودة وجدت في العراق هي الكعك الشامي حيث يقول : «دخل على أبي جعفر المنصور حبيب بن عبدالله بن رغبان الكاتب يوماً في شهر رمضان، فقال له : أتعطش يا بن رغبان؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، فقال : ما سحورك؟ قال : فرخ أو دجاجة أو لحم بارد من طبيخ أو شواء، قال : هذا الذي يعطشك! تسحر بما يتسحر به أمير المؤمنين، انظر الى كعكات من هذا الكعك الشامي، فاجعله في قدح واغمره بالماء من أول الليل، فاذا كان في السحر تجده قد مات، فاشربه، فانه طعام يعصم وشراب يروي»<sup>٣٠</sup>. لكننا لا نعلم فيما اذا كان ذلك الكعك الشامي يرد مصنعاً الى العراق، أم أنه كان يصنع

- ٢٧ . المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، م ٤، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط ٤، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٤م، ٤م، ص ٣٠٣. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا : المسعودي، مروج .
- ٢٨ . الادريسي، نزهة المشتاق، م ٥، ص ٣٧١ .
- ٢٩ . اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) كتاب البلدان، النجف : المطبعة الحيدرية، د. ت. ١٨، ص ١٨؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٥٣ .
- ٣٠ . الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ١٠٢ .

من الدقيق الشامي الذي سبقت الإشارة الى وروده الى العراق .

وما دمننا بصدد الحديث عن المنتجات الزراعية، تجدر الإشارة الى تصدير خشب الصنوبر من الشام إلى مصر ومناطق الثغور. فقد وجد مقطع لهذا النوع من الخشب في منطقة حصن التينات على الساحل الشمالي للبلاد بالقرب من الاسكندرونة<sup>٣١</sup>.

وإذا ما التفتنا الى جانب تصدير المنتجات الصناعية الشامية كالمنسوجات والآنية الزجاجية والأصبغة، فحري بنا أن نشير الى أن إنتاج مثل هذه المواد ذو جذور ضاربة في القدم تعود إلى أيام الفينيقين<sup>٣٢</sup>. وتشير بعض المعلومات المتوافرة عن هذا الشأن إلى استمرار إنتاج وتصدير هذه المنتجات عبر العصور. ففي القرن الرابع الميلادي، كانت الألبسة الكتانية وبعض الأقمشة المصبوغة بالأرجوان الحقيقي، تصنع في المنطقة وتصدر إلى أنحاء مختلفة من العالم القديم<sup>٣٣</sup>. ويبدو أن إنتاج هذه السلع وتصديرها ظلّ مستمرين في العصور اللاحقة بما فيها العصر الذي ندرسه. ففي وصفه لمدينة صور يذكر الشريف الإدريسي: «ويعمل بها جيد الزجاج والفخار، وقد يعمل بها من الثياب البيض المحمولة إلى كل الأفاق كل شيء حسن عالي الصفة والصنعة ثمين القيمة، وقليل ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها هواء وماء»<sup>٣٤</sup>.

وفي مكان آخر يشيد الإدريسي بمنسوجات دمشق ويؤكد تصديرها إلى أنحاء مختلفة من العالم حيث يقول: «ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد ويتجهز منها به إلى كل الأفاق والأمصار المصاوبة لها والمتباعدة عنها ومصانعها في كل ذلك عجيبة يضاهي ديباجها بديع ديباج الروم ويقارن ثياب تستر وينافس أعمال أصبهان، ويشف على أعمال طرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصمتة وبدائع ثياب تيس، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمّة فلا يعادلها

٣١ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٧ .

٣٢ . Philip Hitti, History of The Arabs, 10th. ed., (New York: St. Martin's press, 1981), pp. 346-7.

٣٣ . نعيم فرح، «ثلاثة مصادر تلقي بعض الضوء على جوانب الحياة الاقتصادية في الشام في العهد البيزنطي»، بلاد الشام في العهد البيزنطي: الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، جمعية عمال المطابع التعاونية الأردنية، عمان، ١٩٨٦م، ص ٢٠٢ .

٣٤ . الادريسي، نزهة المشتاق، م ٥، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

جنس ولا يقاومها مثال<sup>٣٥</sup>. لكن ولسوء الحظ ثانية فإنه لم يتوافر لدينا أية معلومات عن الأقطار التي كانت تستورد تلك المنتجات الصناعية الشامية ما عدا إحدى الدراسات الحديثة التي تشير إلى أن العراق كانت تستورد المنسوجات الحريرية والقطنية والآنية الزجاجية من الشام في القرن الرابع الهجري<sup>٣٦</sup>. وهناك أيضاً إشارة قلقية في أحد المصادر الأولية يفهم منها ظاهرياً أن الشام كانت تصدر نوعاً فاحراً من القماش عرف باسم النبكي (نسبة إلى النبك ما بين حمص ودمشق) إلى مصر، وكان يدخل في لباس الخلفاء الفاطميين<sup>٣٧</sup>.

نلاحظ مما تقدم أن مصر والعراق كانتا أبرز مستوردين لمنتجات الشام بشقيها : الزراعية والصناعية، وهذا أمر منتظر لمجاورة الشام لكلا القطرين، وتوجد معلومات صريحة بهذا الخصوص. وهناك أيضاً إشارتان مقتضبتان، نستطيع معها أن نضيف الجزيرة العربية، الجارة الجنوبية للشام، إلى الأقطار التي كانت تستورد السلع الشامية. فقد وصفت مدينة القلزم (السويس) بأنها فرضة مصر والشام، ومنها كانت تحمل حمولات الشام ومصر إلى الحجاز واليمن<sup>٣٨</sup>. وفي حديثه عن البحرين يشير ابن حوقل إلى وصول سلع من الشام إلى هذه المنطقة حيث يقول : « . . . وأوال وهي جزيرة كان لابي سعيد الحسن بن بهرام ولولده سليمان بها الضريبة العظيمة على المراكب المجتازة بهم . . . وبها أموال وعشور ووجوه مرافق . . . ومبلغها نحو ثلاثين ألف دينار، وما عدا ذلك من المال . . . وما كان يصل اليهم عن طريق مكة ومال عمان، وما وصل اليهم من الرملة والشام فمتساوٍ فيه اراء ولد ابي سعيد الباين . . . »<sup>٣٩</sup>.

وفياً يتعلق بالأقطار الإسلامية الأخرى، فقد وصفت مدينة الموصل بأنها فرضة لأذربيجان وأرمينية والعراق والشام<sup>٤٠</sup>، وفي هذا ما يوحي بأن بعض السلع الشامية كانت تنقل إلى مشرق العالم الإسلامي. أما في مغرب العالم الإسلامي، فقد كانت هناك صلات

٣٥ . المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

٣٦ . الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٤٠.

٣٧ . محمد بن عبيد الله السبكي، أخبار مصر في سنتين ٤١٤ / ٤١٥ هـ، تحقيق وليم ج. ميلورد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ م، ص ٣٧.

٣٨ . الاصلطخري، المسالك، ص ٣٠؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣.

٣٩ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٣.

٤٠ . المصدر نفسه، ص ١٩٥.

تجارية ما بين بلاد الشام وصقلية، وكانت طرابلس أشهر الموانئ التي تتاجر مع هذه الجزيرة<sup>٤١</sup>. ويبدو من خلال إقامة محطة لاستيفاء الضرائب على مراكب الشام في مدينة الفرما في مصر<sup>٤٢</sup>، ان حجم الصادرات الشامية إلى مصر، سواء كانت منتجات محلية أو سلعاً أعيد تصديرها، كان كبيراً. ولعل قسماً منها كان يتجاوز مصر إلى المغرب.

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب الآخر للحركة التجارية، وهو جانب الاستيراد، نجد أن العطور الفارسية ولا سيما ماء الورد كانت ترد إلى الشام كغيرها من أقطار العالم الإسلامي التي كانت تستورد تلك العطور كاليمن والحجاز ومصر والمغرب والأندلس<sup>٤٣</sup>. وإضافة إلى ذلك كانت بلاد الشام تستورد بعض الأقمشة، كالمنسوجات القطنية التي كانت تنتج في عرابان في إقليم الجزيرة<sup>٤٤</sup>، وبعض الأقمشة التسترية الفاخرة. وكدليل على وجود القماش التستري الفاخر في بلاد الشام ما رواه السعودي عند لقائه بالقاضي إبراهيم بن جابر في حلب سنة ٣٠٩هـ/٩٢٢م الذي تغيرت حاله من الفقر إلى الغنى حيث يقول: «ولقد أخبرت أنه قطع لزوجته أربعين ثوباً تسترياً وقصباً وأشبه ذلك من الثياب على مقراض واحد»<sup>٤٥</sup>. وحتى لو انطوى هذا الخبر على شيء من المبالغة، إلا أنه يسعفنا كشاهد على وجود الثياب التسترية في الشام.

وكان يرد إلى الشام على سبيل المتاجرة الرقيق الأسود والأبيض. فيقول المقدسي في تفصيل ذلك: «والخدم الذي ترى على ثلاثة أنواع: جنس يحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس، وجنس يحملون إلى عدن وهم البربر وهم شر أجناس الخدم، والجنس الثالث على شبه الحبش، وأما البيض فجنسان: الصقالبة وبلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيخصون ثم يخرجون إلى مصر، والروم ويقعون إلى الشام وأقور وقد انقطعوا بخراب الثغور»<sup>٤٦</sup>. ولعل بعض الرقيق الذي كان يأتي من بلاد ما وراء النهر وتجتاز به القوافل من تلك المناطق إلى خراسان ومن ثم إلى أسواق المدن الإسلامية في الغرب<sup>٤٧</sup>، كان يقع إلى بلاد الشام.

٤١ . تقي الدين عارف الدوري، صقلية: علاقتها بدور البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو

النورمندي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٧٣.

٤٢ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢١٣.

٤٣ . الاصطخري، المسالك، ص ١٩٢؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٦٠.

٤٤ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٠٠.

٤٥ . السعودي، مروج، م ٤، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

٤٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٢.

بعد هذا الاستعراض لحركة التجارة بين بلاد الشام والأقطار الإسلامية، نجد الإشارة إلى قضية في غاية الأهمية، وقد أثرت كثيراً على جميع النشاطات الاقتصادية بما فيها النشاط التجاري في المنطقة في الفترة التي ندرسها. وهي حالة القلق السياسي الذي شهدته البلاد منذ الربع الأخير للقرن الثاني الهجري، حيث كانت ما تنفك - تخرج من فتنة - حتى تقع في أخرى. فمن ثورة أبي الهيثم سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م - ١٧٧هـ/٧٩٣م، إلى خروج السفيناني سنة ١٩٥هـ/٨١١م، إلى ثورة القيسية وحركة المبرقع البياني سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م، إلى ثورات أهل حمص على عمالهم في سنوات ٢٤٠هـ/٨٥٥م، ٢٤١هـ/٨٥٦م، ٢٤٩هـ/٨٦٤م، ٢٥٥هـ/٨٦٨م. وقد شهدت البلاد ثورات أخرى تزامنت مع ثورات حمص قامت في الأردن سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م، وفي المعرة سنة ٢٤٩هـ/٨٦٤م، وفي فلسطين سنة ٢٥٢هـ/٨٦٧م، وسنة ٢٥٩هـ/٨٧٣م. وظلت البلاد مسرحاً للصراع ما بين القوى المختلفة الطامعة في الاستيلاء عليها كالتولونيين، والأخشيديين، والحمدانيين، والقرامطة، والفاطميين. أما أجزاءها الشمالية فكانت هدفاً دائماً للهجمات البيزنطية<sup>٤٧</sup>.

لقد ألمحت أخبار بعض تلك الاضطرابات والمنازعات الى الأضرار التي لحقت بالتجارة نتيجة لتلك الحالة القلقة، حيث يتضح أن أموال التجار وبضائعهم كانت عرضة للنهب من قبل الفريق الرابع في الصراع. وفيما يلي بعض الشواهد التي تساعد على توضيح الصورة: فعندما أرسل الخليفة العباسي المستعين القائد التركي موسى بن بغا الكبير لاختاد ثورة حمص سنة ٢٤٩هـ/٨٦٤م، أبيضت المدينة ثلاثة أيام، وطرحت النار في منازلها

٤٧ . لي سترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٥٠٢. سيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: لي سترانج، بلدان الخلافة الشرقية. لقد كانت تجارة الرقيق رائجة في بلاد ما وراء النهر في هذه الفترة. يقول الاصطخري في وصف خوارزم: «ويقع اليهم أكثر رقيق الصقالبة والخزر وما والاها مع رقيق الأتراك». ويقول في مكان آخر: «ويسمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر، وخير الرقيق بما وراء النهر تربية سمرقند». الاصطخري، المسالك، ص١٧٨، ١٧٠.

٤٨ . اليعقوبي، تاريخ، م٢، ص٥٩٩، ٦٠٥ - ٦٠٧، ٦١١، ٦١٧، ٦٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، م٦، ص١٢٢، ١٥٠، ٢٧٧ - ٢٧٨، ٣٨٥، ٤٠٩، م٧، ص١٤٩ - ١٥٠، ٢٠٣، ٢١١ - ٢١٢، ٢١٣ - ٣١٤، ٣١٨ - ٣١٩، ٣٤٤ - ٣٤٦، ٣٥٥ - ٣٥٨، ٣٨٢، ٣٩٤، ٤٠٣، م٨، ص٢٥٢ - ٢٥٣؛ أنظر أيضاً: J. Sauvaget, "Halab", E.I<sup>2</sup>, pp. 85-90.

وانتهبت أموال التجار<sup>٤٩</sup>. وعندما استولى البدو على سواد الشام عشية السيطرة الفاطمية عليها، خربت دمشق من فسادهم، واضطر كثير من أهلها الى النزوح عنها<sup>٥٠</sup>. وبعد وفاة سيف الدولة الحمداني أخذ غلامه قرعوية الذي استولى على المدينة يدفع جزية للبيزنطيين فرضت على بيوت الناس ومصالحهم وقام باحتكار التجارة في المدينة وبتحديد البيع والشراء حسب مصالحه. ويؤكد ذلك ابن حوقل بقوله: «وهي (حلب) الآن بخسة أميرها ودناءة نفسه مملوكة من جهتين: إحداهن أنها في قبضة الروم مجزية يؤدي كل انسان عن داره ودكانه جزية، والثانية أن أميرها اذا وردها متاع من خسيس ونفيس اشتراه من جالبه وباعه هو لأهلها على أقبح صورة وأخس جهة، وما يستثار بها من خل وصابون فهو يعمله ويبيعه وليس بها مبيع ولا مشتري الا وله فيه مدخل قبيح»<sup>٥١</sup>.

ثم يمضي ابن حوقل في الحديث عن المتاعب التي كان يسببها بعض الحكام للتجار كالتعدي على بضائعهم ومصادرتها. فيقول في وصفه لبالس: «ومن مشهور أخبارها أن المعروف بسيف الدولة علي بن حمدان عند انصرافه عن لقائه صاحب مصر، وقد هلك جميع جنده، انفذ اليها المعروف بأبي حصين القاضي فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر، ولم يطلق لهم النفوذ مع خوف ناهم فأخرجهم عن أحمال بز وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام في دفعتين بينهما شهر قلائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار»<sup>٥٢</sup>. وي طرح ابن حوقل هذه المشاكل التي كانت تواجه التجار في معرض انتقاده لحكام المسلمين لسكوتهم على سيطرة البيزنطيين على أنطاكية بقوله: «... وهي (انطاكية) الآن أشد اختلالاً ورزوحاً وفتحها الروم في أول سنة تسع وخمسين (٣٥٩هـ)، فما اضطرب فيها من قطع شعرة للروم ولا توصل في نصرتها برأي صحيح ولا مشلوم، وبجوارها من السلاطين والبوادي والقروم والملوك من قد أشغله يومه عن غده، وحرامه وحطامه عن أوجب الله تعالى والسياسة والرياسية عليه، فهو يلاحظ ما في أيدي تجار بلده ويشتمل عليه ملك رعيته ليوقع الحيلة على آخذه والشبكة على صيده والفتح على ما نصب له»<sup>٥٣</sup>.

٥٠ . ابن الأثير، الكامل، م ٧، ص ٣٥٥ - ٣٥٨، ٤٠٣.

٥١ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٣.

٥٢ . المصدر نفسه، والمكان نفسه.

٥٣ . المصدر نفسه، والمكان نفسه.

وقد نجم عن حالة الاضطراب السياسي في الشام اشتداد السيطرة البدوية على المنطقة وعلى طرق القوافل. ولعل في وصف المقدسي ما يلقي الضوء على تزايد تسلط البدو على قوافل الحج وقوافل التجارة وعلى حاجتها الى حراسة حيث يقول: «اعلم أنها بادية واسعة كثيرة العرب... ويخفرون القوافل، وعلى الجملة لا يمكن أن يعبر هذا الطريق الا بخفير أو قوة، وترى الحاج مع قوتهم يهتكون وتؤخذ أباعرهم وخزائهم»<sup>٥٤</sup>. ويشير ابن حوقل الى تفاقم خطر البدو، وتحول طرق التجارة، ويتوقع توقف النشاط التجاري نتيجة لذلك. وقد بين ذلك في حديثه عن الخنصرة حيث يقول: «والخنصرة وهي حصن مجاذي قسرين الى ناحية البادية وعلى شفيرها وسيفها كان يسكنه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكانت صالحة في قدرها مغوثة للمجتازين عليها في وقتنا، لأن الطريق انقطع في غير وقت من بطن الشام على التجار باعتراض السلطان عليهم وبما سرح الروم بالشام في غير وقت، فلجأوا الى طريق البادية لبوار السلطان واستيلاء الأعراب على الولاة وخفروا وساروا بالأدلاء، وعن قريب يكف التجار فقرهم وتنقطع سابلتهم وطرقهم له»<sup>٥٥</sup>. وأشار الى أن بالس كانت من ضحايا هذه الحالة حيث قال في وصفها: «وكانت فرضة لأهل الشام على الفرات فعفت آثارها ودرست قوافلها وتجارها بعد سيف الدولة...»<sup>٥٦</sup>.

لكن، وعلى الرغم من تلك المصاعب فإن النشاط التجاري عبر الطرق البرية لم ينقطع. فقد أفضت حاجة القوافل التجارية الى حماية الى بروز جماعات تمتهن خفر القوافل في المنطقة. ومثال ذلك أهل الرصافة، الذين كان أكثرهم من النصاري، واتخذوا من حراسة القوافل مهنة للعيش وكسب الرزق وذلك في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي<sup>٥٧</sup>.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن المراكب التجارية في البحر لم تسلم من الأذى، فقد كانت عرضة لخطر آخر يتمثل في الهجمات البيزنطية الدائمة عليها. ويوضح ابن حوقل ذلك قائلاً: «ألح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغاارة ونواحي مصر فهم يخطفون مراكبهم من كل أوب ويأخذونها من كل جهة، ولا غياث ولا ناصر، ومن المسلمين بناظر،

٥٤ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٥٢.

٥٥ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٤ - ١٦٥.

٥٦ . المصدر نفسه، ص ١٦٥.

٥٧ . لي سترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٣٧.

والمملك منهم هامل شاغر...<sup>٥٨</sup>. وعلى سبيل المثال هاجم البيزنطيون طرابلس سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وهاجموا بلدان الساحل الأخرى وخربوها، واستولوا على أنطاكية، وهاجموا حلب وأرغموها على دفع إتاوة لهم<sup>٥٩</sup>.

وأخيراً نخلص إلى أن بلاد الشام أفادت من النشاط التجاري المزدهر الذي عم العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وأسهمت فيه بتصدير بعض إنتاجها وباستيراد بعض السلع مما لا يتوافر فيها. واحتل نشاطها التجاري مع جاراتها مصر والعراق والجزيرة العربية المرتبة الأولى في علاقاتها التجارية مع أقطار العالم الإسلامي الأخرى. كما أن حالة الاضطراب السياسي التي سيطرت على البلاد في هذه الفترة أربكت مختلف النشاطات الاقتصادية بما فيها حركة التجارة.

٥٨ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٨٦ .

٥٩ . ابن الأثير، الكامل، م ٧، ص ٣١٣ - ٣١٤، ٣١٨ - ٣١٩ .



تجارة بلاد الشام الخارجية  
في العصر العباسي  
(١٣٢ - ٤٥١ هـ / ٧٥٠ - ١٠٥٩ م)  
نقولا زيادة\*

كانت نتيجة الفتوح العربية<sup>١</sup> في أيام الراشدين وأيام الدولة الأموية، قيام دولة الخلافة المركزية بعاصمتها المدينة المنورة أولاً، ثم الكوفة في أيام علي بن أبي طالب، ثم دمشق أيام بني أمية.

- \* استاذ شرف، قسم التاريخ، الجامعة الامريكية، بيروت، الجمهورية اللبنانية.
١. هذا القسم من البحث يرسم الاطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام للفترة كمي يمكن تناول تجارة البلاد الشامية الخارجية في غضون القرون الثلاثة المذكورة. ويمكن العودة الى المظان التالية للتوسع في الموضوع:
- ابن خرداذبة، عبيدالله بن عبد الله (ت ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م)، المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٨٩ م، اعيد تصويره بالافست، مكتبة المثنى، بغداد. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، المسالك.
- ابن حوقل، محمد بن علي (ت حوالي ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م) صورة الارض، مصورة عن طبعة، ليدن بريل، ١٩٣٦ م، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل: صورة.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، فتوح البلدان. اقسام الاول، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦ م، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.
- قدامة بن جعفر، (ت ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م)، نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، بريل، ليدن، ١٨٨٩ م، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة بن جعفر، الخراج.
- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ - ١٩٧٠ م، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.
- المقدسي، محمد بن احمد (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦ م، اوفست مكتبة الخياط، بيروت، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي: احسن التقاسيم.
- متز، آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ط ٤، ترجمة محمود عبد الهادي ابوريده، بيروت والقاهرة، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: متز، الحضارة.
- زيادة، نقولا، «تطور الطرق البحرية والتجارية بين البحر الاحمر والمحيط الهندي»، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، السنة الاولى، العدد الرابع (١٩٧٥)، ص ٦٩ - ٩٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: زيادة، «تطور الطرق».
- Eliyhu, Ashtor, A Social and Economic History of the Near East, London, 1976. Henceforth cited as: Ashtor, A Social.

وكانت الدولة مركزية السلطة، بمعنى أن العاصمة كانت تقرر، والولايات تقبل؛ هذا مع العلم أنه كانت ثمة ثورات عنيفة ضد الحكم الأموي في شمالي إفريقية مثلاً.

وبعد قيام الدولة العباسية انفصلت الأندلس عنها، وتحررت بعض الأجزاء عن دولة الخلافة وأقامت حكماً ذاتياً. لكن بين سنتي ٣٢٢ و٤٤٧هـ/ ٩٣٤ و١٠٥٥م قامت حكومات بويهية متعددة، وتشجعت أجزاء من دولة الخلافة فأعلنت ما يصح أن يسمى استقلالاً عن الأم، ووافق ذلك قيام دول ودويلات متعددة بحيث يمكن القول بأن مركزية الدولة - دولة الخلافة - انتهت.

وقد يكون من المناسب أن نتوقف هنا لحظةً لتفكير بالأمر الذي أصاب دولة الخلافة في هذه الفترة (٣٢٢-٤٤٧هـ/ ٩٣٤-١٠٥٥م). وهنا تبرز أمامنا بضعة تساؤلات تتطلب أجوبة عنها. ولعل السؤال الأول هو: لماذا حدث هذا الانقسام أو التقسم أو الانشطار أو التشطر في هذه الدولة؟ والسؤال الثاني هو ما الفرق - عقائدياً وعملياً - بين دولة الخلافة والدويلات التي قامت في ظلها؟

Lucy Boulnois, *The Silk Road*, trans. from French by Demis Chamberlain, New York, 1966. Henceforth cited as: Boulnois, *The Silk*. —

C. Cohen, "Points de Vue sur la Revolution Abbaside", *Revue Historique*, 1963, 295-335. Henceforth cited as: Cohen, "Points". —

D.R. Hill, *The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests*, London, 1971. —  
Henceforth cited as: Hill, *The Termination*.

F.M. Donner, *The Early Islamic Conquest*, Princeton, 1981. Henceforth cited as: Donner, *The Early*. —

D.S. Richards, (ed.), *Islam and the Trade of Asia*, Oxford, 1970. —

D.S. Richards, (ed.), *Islamic Civilization*, pp. 950-1150, Oxford, 1973. —

Richards, *Islamic*. —

M.A. Shaban, *Islamic History: A New Interpretation*, 2, A.D.750-1055 (A.H. 132-448) Cambridge, 1976. —

Shaban, *Islamic*. —

وثمة سؤال ثالث يتعلق بدور الجند في هذا الذي حدث؟ وأخيراً: فما هو مركز الإسلام بالنسبة لدولة الخلافة والدويلات التي قامت في أرضها، وللمجتمع الذي ظل يعيش في حدود الدولة الكبرى الأصلية.

يجب أن تلاحظ قبل كل شيء الأمور التالية:

أولاً: أن الدول والدويلات التي قامت كانت، من حيث عناصرها الحاكمة، متنوعة؛ فهناك الفرس والترك والأكراد والعرب. أما من حيث طبيعتها فهناك الدولة المستقرة التي تعتمد على الزراعة، والدولة البدوية — عربية كانت أم كردية التي ظلت، وإن استقرت نظرياً في عاصمة لفترة ما، يربط أمراءها وأفرادها عادات وتقاليد بدوية.

ثانياً: تنوعت وجهات النظر الدينية في هذه الدويلات. فهناك دويلات سنية، وثمة دويلات شيعية، وعندنا دويلات خارجية — يباضية، وأخيراً قامت دولة اسماعيلية (الفاطميون). لكن حتى بعض المؤسسات البدوية كانت لها نزعة اسماعيلية (القرامطة).

ثالثاً: حري بنا أن نتذكر أنه في القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين كان الإسلام قد أصبح دين الأكثرية من سكان دولة الخلافة.

رابعاً: إن السواد، وهو الجزء الخصب الغني المنتج من بلاد العراق، قد دمرت ترعه وموارده الزراعية. وقد أدى ذلك إلى تدهور العراق اقتصادياً. فأصبحت دولة الخلافة فارغة المركز. وبذلك أصاب البلاد مرض هو هجرة المواطنين القادرين والناهبين إلى مناطق أخرى مثل مصر وإيران. وحل محل النخبة الأصلية جماعات من أكراد زغروس، وديلم ساحل بحر قزوين الجنوبي، وبربر إفريقية.

ولنعد إلى الأسئلة. والذي نراه هو أن رقعة دولة الخلافة المتسعة والمتنوعة سطحاً وتضاريساً، كانت احد العوامل الرئيسية في هذا التقسم الذي أصابها. فقد كان من الطبيعي أن يشعر ابراهيم بن الأغلب، وهو الذي يتحكم بشؤون تونس، أنه أولى بأدارة الرقعة التي يحكمها من الخليفة وأقدر. لذلك فهو يطلب حرية التصرف، لكن في إطار دولة الخلافة. أما الثمن الذي يدفعه ابن الأغلب وخلفاؤه لقاء هذه الحرية فتقرر الظروف والأحوال. ولكن التقسم ازداد لما ضعفت السلطة المركزية، واعتمدت وزراء وكتاباً وأمراء جيوش مع إطلاق أيديهم. كان من الطبيعي عندها — وهو الذي حدث في العصر البويهى — أن يطمع لاحكام الاطراف فحسب، بل حتى بعض القربيين من العراق، في أن تكون لهم سلطة ذاتية. وأعانهم على ذلك اعتمادهم على المرتزقة من الجند (إذ لم يكن جميع الجند رقيقاً) التركي والفارسي والمحلي؛ سواء في ذلك أتراك المعتصم او غلمان الحمدانيين والبويهيين والفاطميين.

ولننتقل الى السؤال الثاني : ما الفرق — عقائدياً وعملياً — بين دولة الخلافة والدويلات الناشئة في ظلها ؟ شغل الأمويون بالفتوح والادارة وبعض الحروب الاهلية ، وكانت فترتهم قصيرة ، لذلك لعلهم تركوا جانباً العلاقة العضوية التامة بين الدولة والاسلام . أما العباسيون فقد قامت دولتهم معتمدة الاسلام أساساً . لذلك فإن حكامها كانوا يحاولون خلق بناء حكومة خُلُقِيَّة ضمن تعاليم الاسلام . فلم يكن همهم أن تكون دولتهم اسلامية اسماً ، بل إسلامية بمعنى الكلمة الكامل . وقد كانت هذه المحاولة الجادة الى درجة كبيرة ، يعلق عليها العباسيون — حكاماً — وخصومهم العلويون — ثواراً ودعاة حق أهمية كبرى . ولكن يبدو أن كل ما تم ، حتى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي هو التوصل الى القواعد الاساسية الدينية (الاسلامية) التي يجب أن تسير الدولة عليها ، لكن الحكم لم يسر عليها ، مع أنه قبلها ، ولندكر هنا أن الدولة الفاطمية كانت تعنى بهذه الناحية عناية كبيرة .

لكن حكام الدويلات لم يعنوا بذلك ، أي أنهم لم يكونوا يهتمون بأن يؤسسوا حكمهم على مثل هذه القواعد ولعلهم ، أدركوا أن اقامة مثل هذه الدولة لم ينجح . ولذلك فقد قبلوا بأن يكون الاسلام — بشرعه وتفسيره وفقهه — هو الذي يقبله الناس وتسير عليه الاحكام . فكانوا ينظرون الى الدولة — دولتهم — على أنها أداة لحفظ النظام بحيث تتمكن أجهزتها — على تنوعها — من جمع الضرائب والمكوس التي فرضتها على السكان — مباشرة أو تليزماً أو إقطاعاً . وكل أسلوب يحتاج الى ما يمكنه من القيام بعمله .

أما دور الجند في هذا التقسيم الذي اعترى دولة الخلافة فقد كان كبيراً . ففي سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م قضي على الجيش العباسي المرتبط بالخلافة . وقد كان قوامه عنصر الأتراك . وهنا دخل الغلمان (وهم مرتزقة تماماً) الذين كانوا يقاتلون فرقاً صغيرة في أعدادها (لم تكن تتجاوز الفرقة الواحدة بضع مئات) ، ومتعددة في أصولها ، وإن كان الغالب على قوادها أن يكونوا أتراكا . هذه الفرق كانت تدين بالولاء لزعمائها وقادتها لا للسلطان . فعندما تفقد مكانتها في دويلة ، أو عندما يفقد السلطان حكمه ، كانت تتبع الزعيم — القائد حيث يذهب ، ابتغاء الرزق والعيش . ولندكر ، على سبيل المثال ، أن ألبتكين ، الذي كان تحت إمرته نحو ثلاثمائة غلام ، لما وجد أنه لم يعد له خبز في بغداد (٣٦٤ هـ / ٩٧٥ م) قاد جماعته الى مراغ على مقربة من دمشق ، ثم التحق بالبلاط الفاطمي في القاهرة . ومع أن بعض فرق الجند لم تكن من الغلمان ، فإن موقف هذه الفرق من الدولة أو الدويلة لم يكن يختلف . فهؤلاء الجند كانوا يلتحقون (مع قائدهم وباشرافه) بصاحب الكيس الكبير (كيس النقود) .

أشرنا إلى العلاقة التي أراد حكام دولة الخلافة أن يقيموا صلتهم بالاسلام عليها ؛ ولم يتم لهم ذلك . والدويلة لم تُعن بذلك مبدئياً . ولكن ماذا كان موقف الناس في بقاعهم المتباعدة والمتنوعة نحو

الاسلام؟ الناس قبلوا الاسلام عقيدة وعبادة ومعاملات. ولعلّ هذه جميعها كانت بحاجة الى مؤسسات ومنظمات تشرف على تطبيقها. ولكن الذي دخل في تفكير المسلمين هو أن الاسلام كان هو يتهم ومن ثم فإن المسلم - بقطع النظر عن موطنه - كان يشعر أن هذه الرقعة الواسعة هي وطنه وأن هؤلاء المسلمين هم أهله، وأن الدولة، حيث كانت، وكيفما حكمت، إنما هي رمز للاسلام. وليختلف الحكام فيما بينهم، فالمهم أن يحفظوا الأمن - إذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً - كي يستمر المواطن في القيام بعمله فلاحاً أو صانعاً أو تاجراً أو شيخاً أو معلماً؛ وكي يستطيع تأمين العيش له ولأسرته؛ وكي يتمكن من السفر والتنقل إما لأداء فريضة الحج، أو لطلب العلم، أو للتجارة.

وبدا واضحاً لهم عملياً، ولنا تاريخياً، أنّ الحكومة المركزية لم تكن حاجة لا بد منها، وأنّ الدولة تستطيع أن تُسيّر الأمور، بل وأن الدولات (أو الامارات) البدوية التي لم تكن لها حدود معروفة كانت تحافظ على الطرق وتؤمن التنقل والسفر وتحول، في أحيان كثيرة، دون النهب والسلب.

وفقدت دولة الخلافة العاصمة الكبرى التي كان يتم فيها كل شيء، ويتخذ فيها كل قرار، ويصدر عنها. كل أمر، ويتشوق الناس للذهاب إليها، ثم - إن أمكن - العيش فيها، لأنها المدينة الكبرى. وظلت لبغداد أهميتها وظل لها اسمها الكبير وبهاؤها. لكن الفترة التي نتحدث عنها كان فيها عشرات من المدن - العواصم للدولات الكثيرة - التي كانت تنتشر (مع الزمن) من مراكش في أقصى المغرب الى نيسابور وفرغانة وسمرقند وبخارى وهراة في أقصى الشرق. وكل منها مر بها وقت كانت فيها عاصمة ومدينة علم وسوقاً كبيرة ومعرض أبنية ومتحف فنون. وهذا هو الذي جعل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والنصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، فترة نضج الحضارة العربية الاسلامية في جميع نواحيها الشرعية والنفعيّة والفكرية البحتة. ولسنا هنا في معرض ذكر الأسماء الكبيرة، ولو على سبيل التمثيل؛ فهذا يترك لحينه (وليس في هذا البحث).

وكانت اللغة العربية قد انتشرت في ربوع دولة الخلافة لغة الادارة والتشريع والعلم والطب والفلسفة والادب؛ كانت قد أصبحت لغة البلاط والنخبة والمتعلمين، ولغة التخاطب في جزء كبير من رقعة الدولة. صحيح أن لغات أخرى ظلت تستعمل عند فئات دينية كانت منتشرة في إطار دولة الخلافة، كما ظلت لغات أخرى، مثل لغات البربر في الشمال الافريقي، تستعمل في رقعة واسعة؛ لكن المهم هو أن اللغة التي اعتمدها المؤسسات والمنظمات والادارة ودور العلم والمستشفيات والمراسد ودور الحكمة كانت اللغة العربية، بها كتبت نظريات العلم وآراء الفلاسفة وكتب التفسير والأحاديث، وبها نُظمت القصائد ومدح أولو الأمر، وبها كتبت قصص الأبطال وروايات الصعاليك.

وهكذا بانتشار الاسلام واللغة العربية نشأت هذه الحضارة المتفتحة المبتكرة النشيطة الديناميكية العالمية النظرة. وهي التي عرفتها بلاد دولة الخلافة، مجتمعة أولاً ومقسمة فيما بعد؛

فكانت سمة سكان هذه الدولة وهو يتهم تقوم على أساسين الاسلام والثقافة العربية . والتفريق بينهما لم يكن متيسراً حتى أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .  
أما بعد ذلك فقد تبدل الأمر . ولكن فترة التبدل هذه لا تدخل في نطاق بحثنا الآن .

## (٢)

يبدو أن علاقات تجارية من نوع ما كانت تقوم بين المناطق الواقعة على سواحل البحر المتوسط والبلاد التي تمتد الى الشرق منها حتى المحيط الهادي (أي الصين) منذ أزمنة قديمة . وعلى كل فالذي نعرفه هو أن هذا التواصل التجاري أصبح شيئاً قوياً وفعالاً في القرنين الأولين للميلاد . وفي هذه الفترة كانت أربع دول تتولى شؤون المنطقة الواسعة هي : أسرة هان المتأخرة في الصين (٢٥ - ٢٢٠ م) والأمبراطورية الرومانية في الغرب . وكانت دولة كوشان الهندية تحتل شمالي الهند وأفغانستان (حوالي ٤٠ - ٢٢٠ م) فيما كانت دولة الفرثيين تحكم إيران والعراق وما إليهما (حوالي ٢٥٠ ق.م - ٢٢٦ م) . وهذه الدول الأربع ، مع ما قد يحدث بينها من نزاع أو خلاف أو حتى قتال ، كانت تشجع التجارة فيما بينها ، بحيث أن التجار كانوا يشعرون بالأمن . وفي هذه الأحوال نشأ الطريق البري - الصيني الشامي - المعروف باسم طريق الحرير<sup>٢</sup> .

ومن الطبيعي أن طريقاً برياً يزيد طوله على أحد عشر ألف كيلومتر ، ويمتاز أنواعاً مختلفة من الأراضين ، بين جبال شاهقة وصحارى عرقة ، باستثناء واحات «قليلة» ، ويتعرض لغزوات القبائل المختلفة - إن طريقاً من هذا النوع لا بد أن يتعرض لفترات تختلف أمناً وسلامة ، بحيث قد يتوقف السير فيه بالمرّة ، ولولعقود قليلة . إذ إن الأمر يعتمد على من يحكم الرقعة الاساسية ، أو النقاط الحساسة في وقت ما .

ومن هنا فقد قام في موازاة هذا الطريق البري ، - وإن كان متأخراً عنه بعض الوقت - ، طريق بحري يصل موانيء البحر الأحمر وجزيرة العرب الجنوبية ، مثل عدن وقنا (عش الغراب) ورأس فاتك ، ورأس غودفروا في القرن الأفريقي وموانيء الخليج العربي في الجهة الغربية من المحيط الهندي بالموانيء الهندية الواقعة في الساحل الغربي لبلاد الهند مثل بربريكون (باهاريبور) ، وبريغازا (برواخ) ، وموريريس (كرنقامور) ، وموانيء سيلان .

V.E. Smith, Oxford History of India (ed. P. Spears) Oxford, 1958, pp. 146-156. ٠٢

Henceforth cited as: Smith, Oxford; Boulnois, The Silk, pp. 60-73.

Simkin, The Traditional Trade of Asia, pp. 28-35, 83-43, 85f. Henceforth cited as: Simkin, Traditional

ولسنا هنا بمعرض الحديث عن أي من الطريقتين - البري أو البحري - ولو حتى باقتضاب . لكن كان لا بد من الإشارة الى ذلك كي نذكر أنفسنا بأن الاتصال التجاري بين الجهات القصوي من آسية في الشرق ومنطقة المشرق العربي هو قديم العهد . وعلى هذين الطريقتين كانت السلع تنقل من الغرب ، وفيها : زيت الزيتون والكهرمان والمرجان والخمور والأنمشة والزجاج والبخور والذبل (غلاف السلاحف) والحبوب والذهب واللؤلؤ والعاج الأفريقي الجيد والتمور، فيما كانت الهند تبعث بالذهب والفضة الهندي والنحاس والأخشاب والبتل والأرز والدهون الهندية والسكر والعقيق والياقوت الأزرق والكحل والقطن<sup>٣</sup> .

لكن المادة الرئيسية التي كانت موضع اهتمام المنطقة الغربية ، والتي كانت تأتي من الصين - برأ أصلاً وبحراً الى درجة ما - هي الحرير الصيني . ومن هنا فقد كان الاسم الغالب على الطريق البري هو طريق الحرير!

ولعل من أهم الأحداث التاريخية التي أثرت في الطريقتين البري (خاصة) والبحري (الى درجة أقل) هو قيام الدولة الساسانية (٢٢٦ - ٦٤١ م) التي كانت تسيطر على إيران والعراق مع توسع شرقاً في أفغانستان وبعض منطقة موشان القديمة . هذه الدولة كانت تشرف على الطريق البري - طريق الحرير - إشرافاً تاماً .

وكانت تقوم الى الغرب من الدولة الساسانية الدولة البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) خليفة الامبراطورية الرومانية . وكان الحرير قد عرف قماشاً في المشرق ومنطقة البحر المتوسط منذ القرن الثاني للميلاد ، وأصبح القماش الحريري المصبوغ بالأرجوان في المدن الشامية ، وخاصة اللبنانية منها ، مما يطمع فيه كل صاحب سطوة أو جاه أو ثروة<sup>٤</sup> ، بحيث كان توقف وصوله من الصين يؤدي الى أزمات .

وقد كان باستطاعة الساسانيين أن يسيطروا على تجارة الحرير سيطرة تامة . فدولتهم تفتقد الطريق البري الرئيسي وتفرعاته ، وتسيطر على طريق الهند/الخليج العربي البحري . ومن هنا نجد أن الدولة الرومانية ، ثم البيزنطية بعدها ، كانت مستعدة لعقد اتفاقات مع الساسانيين حول تجارة الحرير . ففي سنة ٢٩٧ م عقد بين ديوقلتيان إمبراطور رومه وفرسيس ملك فارس ، اتفاق يقضي باعتماد مدينة واحدة ممراً للحرير من فارس الى رومة !

٣ . زيادة ، «تطور الطرق» ، ص ٨٣ - ٨٧ .

٤ . راجع Boulnois, The Silk, pp. No. 117 passim.

وكانت المدينة نصيبين (او تراب). ولم يكن يسمح لأي اتفاق تجاري حول الحرير أو مبادلتها بأي سلعة أخرى أن يعقد أو يتم الا في هذه المدينة. وقد حرم هذا الاتفاق مدنا تجارية من أن تفيد من تجارة الحرير. وقد رؤي فيما بعد بأنه من الضرورة تيسير الأمر قليلا فعقدت معاهدة بين هونوريوس وثيودوسيوس الرومانيين ويزدجرد الأول الفارسي (٤٠٨ / ٤٠٩م) أضيفت بموجبها مدينة الرقة على الفرات وأرتشات (أرتكساتا) الى نصيبين، كمراكز لمرور الحرير. أما الاتفاق الذي عقد بين جستينان وكسرى الأول (٥٦٢م) فقد اتخذ من نصيبين ودارو مركزين لمرور الحرير، وكانت مدة الاتفاق خمسين سنة<sup>٥</sup>.

وفي القرن السادس نشطت التجارة في المحيط الهندي أيضاً، وكانت سيلان (سري لانكا) المركز الرئيسي للتجارة بين غرب المحيط الهندي وشرقه (ومن ثم الى اندونيسيا وجنوب الصين عن طريق بحري مباشر). وقد كان للساسانيين نوع من السيطرة أو الاشراف على هذه التجارة. والذي كان يهتمهم بشكل خاص هو السيطرة على نقل الحرير. فالدولة الساسانية، التي كانت تعرف تماما حاجة بيزنطة للحرير واهتمامها به كانت حريصة على أن تحتكره سواء أتى برأ (وهو الأهم والأكبر) أو بحرأ. و يبدو أن اتفاقاً كان قائماً بين الساسانيين ودولة أكسوم الحبشيه، وهي الدولة التجارية الكبرى في غرب المحيط الهندي (بعد أن ضعف مركز مصر التجاري في البحر الأحمر نسبياً)، على أن يظل الحرير حكراً ساسانياً، أي أن ينقل من سيلان عبر الخليج العربي فقط. فيما سمح لأكسوم وتجارها أن يعنوا بنقل الطيوب والافاوية والتوابل الى غرب المحيط الهندي والبحر الأحمر، بقطع النظر عن مصدرها (وكانت مصادر هذه يومها قد تعدت الهند الى اندونيسيا)<sup>٦</sup>

وكان من الطبيعي أن يكون لبلاد الشام دور في هذه التجارة، وإن كانت الدولة البيزنطية، في محاولتها التحايل على الاحتكار الساساني لتجارة الحرير، قد حاولت الالتفاف حول الطرق الواقعة تحت السيطرة الساسانية، وذلك في محاولة لاستيراد الحرير عبر طريق شمالي يمر ببحر قزوين والبحر الأسود ويعتمد ميناء طربزون (على البحر الأخرين) مركزاً تجارياً<sup>٧</sup>

وقد كان للشاميين دور في هذه التجارة وكان لليونان واليهود الى جانبهم حصة<sup>٨</sup>. على أن هؤلاء التجار جميعاً كانوا يقومون بعمل تجاري آخر في البحر المتوسط، وفي اتجاه الغرب. وكان لبيزنطة

Ibid, pp. 119, 146. .٥

Simkin, Traditional, pp 54-72; Boulnois, The Silk pp. 139, 139-137; Smith, Oxford, pp. 92, 160. .٦

Lewis, pp. 41-42; Simkin, Traditional, p. 58. .٧

Boulnois, The Silk, pp. 85-88, 137,ff. .٨



عمل تجاري جيد، ولو أنه محدود، مع ما تبقى من مناطق البحر المتوسط الغربية، إذ كانت حلقة الوصل بين الغرب (الأوروبي خاصة) الزراعي الغني والمشرق الصناعي؛ على أن هذا التبادل التجاري كان يقوم به التجار الشاميون واليونان واليهود<sup>٩</sup>.

ومما يجب أن يذكر بهذه المناسبة أن الحرير نقلت بذوره وشرانقه إلى بلاد الشام وجوارها في القرن السادس للميلاد<sup>١٠</sup>، لكن ذلك لم يقلل أبداً الحاجة للحصول على الحرير الصيني الأصلي، وذلك لسببين:

الأول هو أن ما نتج من الحرير لم يكن في مستوى الحرير الصيني، والثاني أن الكمية لم تكن كافية، حتى للأقمشة ذات الدرجة الثانية.

ولعل ما جرى بين الدولة الساسانية وبيزنطية بسبب الحرير في أيام جستنيان (٥٢٧-٥٦٥ م) يستحق أن يذكر هنا. فقد كانت حروب جستنيان، خاصة في غرب حوض المتوسط، تقتضي نفقات كبيرة، هذا إلى عنايته الكبيرة بأقامة الأبنية الرائعة في القسطنطينية. وكان احتكار الدولة البيزنطية لصناعة الحرير على اختلاف أنواع أقمشته وصبغها مصدراً مهماً للخزينة، لذلك كان وقوف الساسانيين في طريق توصيل الحرير الصيني إلى مصانع البيزنطيين الرسمية يهدد موارد الخزينة. فلا بد من الحصول على خيوط الحرير الخام. وهنا رفع الساسانيون أسعار الحرير، وطالب التجار بأسعار أعلى للحرير، وقامت خصومات بين أصحاب النفوذ في الدولة وبين التجار الذين كانوا مضطرين إلى شراء الحرير عن طريق الساسانيين. وبعد أخذ ورد، وإصدار قرار لجستنيان بتحديد سعر الحرير، وانتشار السوق السوداء، عاد الفريقان الرسميان إلى الاتفاق سنة ٥٦٢ م (بين جستنيان وكسرى) الذي ضمن وصول الحرير إلى المصانع البيزنطية لمدة خمسين سنة<sup>١١</sup>.

وفي مطلع القرن السابع وقعت حروب دامية بين البيزنطيين والساسانيين؛ وقد احتل الآخرون بلاد الشام، لكن هرقل (٦١٠-٦٤١ م) تغلب على خصومه أخيراً واسترد ما استولوا عليه.

على أن هرقل نفسه، الذي استعاد بلاد الشام من الساسانيين خسرها أمام الجيوش العربية الإسلامية التي جاءت من الجزيرة. وبعد معركة اليرموك (٦٣٦ هـ / ٦٣٦ م) وقعت بلاد الشام مجزأة

<sup>٩</sup> Lewis, pp. 45-47, 49-50.

<sup>١٠</sup> Boulnois, The Silk p. 146; Lewis. p. 34.

شهاب، موريس، دور لبنان في تاريخ الحرير، بيروت، ١٩٦٨ م، ص ١١-١٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: شهاب، دور لبنان.

<sup>١١</sup> Boulnois, The Silk, pp. 142-146.

تحت الحكم العربي الاسلامي، ثم تبعتها مصر، وفي سنة ٢٢ هـ / ٦٤١ م، كان العرب المسلمون يقضون على الامبراطورية الساسانية. وهكذا أنشأ العرب المسلمون في العقود الاولى من القرن السابع دولة تمتد من حدود فارس الشرقية شرقاً الى ليبيا غرباً. وفي مطلع القرن التالي توسعوا شرقاً الى ما وراء النهر وحوض السند، واتجهوا غرباً عبر الشمال الأفريقي الى شبه جزيرة ايبيريا.

### (٣)

ماذا كانت النتيجة الفعلية لهذا الأمر من حيث علاقته بالتجارة والطرق التجارية، والبرية منها خاصة؟

كان الشرق قبل الفتح العربية الاسلامية قد تغلب عليه الصين والساسانيون، مع احتمال قيام القبائل التركية بهجوم على الدولة الأولى فتعطل وحدتها الى أن يأتي من ينقذها. وقد جاءت أسرة تانغ (Tang) التي حكمت بين سنتي ٦١٨ م و ٩٠٦ م، فوحدت الصين بعد تمزق، قوتها في أيام الامبراطورين تشياي - تسونغ (Tai-tsung) من ٦٢٦ - ٦٤٩ م و كاو - تسونغ (Kao-tsung) الذي حكم من ٦٤٩ - ٦٨٣ م؛ وقد كان الأول منهما معاصراً لعصر الفتح العربية الاسلامية الأولى. وإلى الغرب من هذه كانت تقوم الدولة الساسانية (التي انتهى أمرها سنة ٦٤١ م). وبين هذه الأخيرة وبين الدولة البيزنطية حدود سياسية وعسكرية بطبيعة الحال، فضلاً عن الحدود التجارية التي كانت تعين نقاط انتقال التجار والسلع بين الساسانيين والبيزنطيين. وكانت سفن بيزنطة تستطيع أن تجوب البحر المتوسط ومعها السلع المطلوبة. وبلاد الشام التي كانت جزءاً من الامبراطورية البيزنطية كان لها مشاركة في تجارة المتوسط غرباً والتجارة البرية شرقاً. فلما فتح العرب المسلمون المناطق الشرقية وخاصة بعد الفتح الأموية، واحتلوا المناطق الغربية الى اسبانية، أصبحت طرق - من الناحية العملية - مكشوفة لمن يريد أن يستعملها من حدود الصين الى حدود اسبانية. وكان يترتب على الدولة الأموية، كي تستغل الطريق البحري الغربي أن يكون لها أسطول قوي يذرع البحر ويحافظ على البر. وهذا لم يتوافر للأمويين دوماً.

ومن هنا كانت التجارة البرية، - وللشام فيها حصّة - أيسر على الناس ما دام الأمن منتشراً! أما البحر فقد كان للبيزنطيين فيه دور لا يستهان به لولا أن الدولة لم تكن لها سياسة تجارية واضحة، بل إنها كانت تخلط بين السياسة والحرب والاحتكار التجاري<sup>١٢</sup>.

ومن هنا فقد كان دور بلاد الشام في تجارة البحر المتوسط في عهد الأمويين محدوداً، فالأسطول البيزنطي كان باستطاعته أن يمنع التجار الشاميين من الوصول الى فرنسا وما جاورها على ما كانت عليه

١٢. نقولاً زيادة، «الاسطول العربي في أيام الامويين»، بحث في تاريخ بلاد الشام: (بلاد الشام في العصر الاموي)، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد يونس العبادي، عمان، ١٩٩٠، ص ٧٢ - ٨١. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: زيادة، الاسطول العربي.

الحال في القرن السادس ومطلع السابع، بل انه كان باستطاعته حتى أن يمنع الشام من الاتجار مع مصر.

وفضلاً عن ذلك فإن محاولات البيزنطيين في تحويل التجارة الى بحر قزوين والبحر الاسود، وهي السياسة التي بدأت في القرن السادس، قللت من كمية السلع التي أصبحت تنقل عبر بلاد الشام. والملاحظ أن مصر أفادت بعض الشيء بسبب ازدياد التجارة البحرية في المحيط الهندي والبحر الأحمر. لكن الأمويين لم يعنوا بالخليج العربي وصلته بالمحيط الهندي. فقد كانوا، في الدرجة الأولى، دولة برية، حتى بالنسبة للشمال الافريقي. وكان من الضروري أن تقوم الدولة العباسية، وتنتقل من بلاد الشام الى «سُرَّةَ العراق» وتقيم عاصمتها في بغداد، حتى تصبح العناية بالخليج العربي أمراً طبيعياً. فالدولة العباسية، من هذه الناحية، هي الوريثة العملية / الطبيعية للدولة الساسانية؛ هذا فضلاً عن تشجيع التجارة البرية الشرقية.

أما في البحر المتوسط فقد كان يُعد للبيزنطيين دور مهم. ذلك بأنهم خلال المدة بين ١٣٤ و ٢١١ هـ (٧٥٢ و ٨٢٧ م)، كانوا هم المسيطرون على البحر المتوسط. ولم يتح للعرب المسلمين السيطرة على البحر المتوسط إلا حوالي سنة ٣١٥ هـ / ٨٢٧ م وهي سيطرة استمرت حتى سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م. لكن هذه السيطرة كانت، على العموم للدول العربية التي قامت في صقلية والاندلس وشمال افريقية. ولذلك لم يكن للمشاركة حصّة فيها<sup>١٣</sup>. هذا باستثناء الحملة التي قام بها ليون الطرابلسي سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م إذ هاجم سالونيك<sup>١٤</sup>.

#### (٤)

ونحن، عندما نحاول التعرف على التحرك التجاري الذي عرفه العالم العربي الاسلامي في القرون العباسية الثلاثة الاولى، كي ننفذ منه الى قراءة في الدور الشامي في ذلك كله يتوجب علينا أن ننتبه الى أمور متعددة في غاية الأهمية:

أولها: هو هذا النمو السكاني الذي عرفته هذه الرقعة بعد أن تم للعرب المسلمين فتحها والاستقرار فيها. ويعود هذا النمو الى عوامل مختلفة لعل أهمها انتشار الأمن والسلام فيها بعد فترات طويلة من الفوضى والحروب، الأمر الذي يشجع على تزايد السكان. ثم هناك الهجرات الكثيرة التي كان العالم العربي الاسلامي يتلقاها عبر هذه القرون الثلاثة. فهناك هجرة البدو من الصحراء الى الريف الأغنى والمدن الكثيرة. وأبرز مظاهر هذا الانتقال البدوي تلك التي عرفها الشمال الافريقي الذي أقصى بعض

١٣. Lewis, Naval Power, pp. 132-162.

١٤. Ibid, pp. 142-146, 156.

أهله نحو الصحراء عند بدء الفتوح، لكن بعد ذلك عاد هؤلاء أضعافاً إلى الأرض الطيبة، ولعل القبائل التي كوّنت جيوش الفاطميين أوضح الأمثلة على ذلك. وفي المشرق تمّ من ذلك الكثير، لكنه كان، فيما يبدو، انتقالاً مستمراً، إلا أنه لا يخلو من فورات. ولم يكن تنقل بني عقيل وبني كلاب في أنحاء العراق والجزيرة، وبلاد الشام إلا نموذجاً لهذا التنقل<sup>١٥</sup>. ومثل هذا يقال في الأكراد الذي تنقلوا بعض الشيء من جبال زغروس وجنوب شرق آسية الصغرى إلى الجنوب والجنوب الغربي<sup>١٦</sup>. وإذا تذكرنا الجند التركي الذي دخل المنطقة أيام المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) ومن خلفه والذين استقروا في سامراء لنحو ستة عقود قبل أن يجمّلوا إلى بغداد وضواحيها؛ ثم الأتراك السلاجقة الذين دخلوا رقعة الدولة العربية الإسلامية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، تأكدنا من أثر هؤلاء الأقوام في نمو السكان عدداً واختلاف عناصره.

ولندكر- فضلاً عن ذلك- الرقيق الذي حُمّل إلى الدولة العباسية، الأسود منه والأبيض، أي الإفريقي والصلبي. وقد كان عدد الزنج في سواد العراق كافياً لأن تقوم في المنطقة ثورة كان القضاء عليها مما أنهك الدولة العباسية (٢٥٥-٢٧٠هـ/٨٦٩-٨٨٣م). هذا بقطع النظر عما إذا كان الزنج بالذات كلهم رقيقاً أم لم يكونوا<sup>١٦</sup>. وقد كان الاتجار بالصلقالبة مورد رزق كبير لتجار الرقيق الذين كثر عددهم في الدولة العباسية. كما كان الخدم الصقالبة والجواري الروميات يُحملن إلى الدولة<sup>١٧</sup>.

إلا أن الأمر لم يقتصر على ازدياد السكان في رقعة الدولة العربية الإسلامية، بل إن الذي لا يقل أهمية عن ذلك هو تجمع السكان في المدن الكبيرة والبلدان الأصغر حجماً. ذلك بأنّ العرب بدأوا بتمصير الأمصار وبناء المدن أيام الخلفاء الراشدين؛ وسار الأمر كذلك أيام الأمويين. لكن نمو المدن الذي عرفته رقعة الخلافة في القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى من العصر العباسي كان أكبر وأعم. فعندنا على سبيل المثال بغداد بالذات، ولدينا القاهرة التي تلت زماناً ومكاناً الفسطاط والعسكر والقطائع. وشهد الشمال الأفريقي قيام مدن كثيرة، ونمو مدن أخرى في تلك الفترة مثل سجلماسة، وتاهرت، وتونس، ثم مراكش.

وإذا تذكرنا أنه منذ أيام الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) أخذ بعض متنفة الاطراف في الدولة يقيمون دويلات ظلت تحت راية الخلافة، وأنّ كلاً من هذه الدويلات كان لها

١٥. Kennedy, pp. 285-308.

١٦. Shaban, Islamic, pp. 2. 100-102; Kennedy, pp. 250-266.

١٧. ابن خردادبه، المسالك، ص ٩٢؛ متز، الحضارة، ج ٢، ص ١٥٨-١٥٩، ٣٧٢.

Lombard, L'Islam, pp. 198-200.

عاصمتها وبلاطها، أدركنا المعنى الذي نرمي اليه من قولنا: إن الحياة المدنية تقوت ونضجت في هذه الفترة. ومن المدن التي نمت نمواً كبيراً في بلاد الشام في هذه الفترة دمشق وحلب والقدس، والموصل في الجزيرة، وطرسوس في الثغور، وطرابلس وصور واللاذقية وجبيل على الساحل الشامي<sup>١٨</sup>.

وهذا كله كان يقتضي أن تلبي حاجات سكان المدن - القديمة والحديثة - إذ إن درجة الحضارة التي تمتعوا بها في تلك الفترات كانت عالية. كان السكان قد عرفوا السلع الاستهلاكية من طيوب وعبور وتوابل وأقمشة حريرية وقطنية وكتانية. فازدادت حاجات الناس، وكان على التجار أن يلبوا مطالبهم والتجار لا يتقاعسون عن ذلك مهما كانت الأخطار؛ إنهم يفرضون الأسعار التي يريدون، كما حدث (من قبل) من زيادة سعر الحرير لأن الدولة الساسانية احتكرت نقله وشدت الرقابة على استيراده وتصديره<sup>١٩</sup>.

وقد لبى التجار رغبة السكان، على اختلاف درجاتهم وأذواقهم، فزادوا في الاستيراد، ورفعوا الأسعار، على ما سنعرض له فيما بعد.

ويلى ذلك أمر ثانٍ وهو ازدياد عدد الجند في دولة الخلافة وما تفرع عنها من دويلات. والجند يحتاجون إلى أشياء في حياتهم وأعمالهم تختلف عن حاجات الناس العاديين. فهم يمتطون الجياد - على الأقل الفرسان منهم - ويقعقون بال سلاح، ويحملون التروس، لحماية أنفسهم، ويريشون السهام. وهذه جميعها أمور تحتاج إلى الخيول وإلى مواد أولية كالحديد والجلود (للتروس). وكثير منها كانت تستورد من خارج الدويلات أحياناً.

وكان للأسطول دور لا يستهان به في تلك الفترة، وفي البحر المتوسط على وجه التخصيص. والسفن بحاجة إلى الحديد والخشب لبنائها. والخشب كان قليلاً في بلاد الخلافة، والشرقية منها خاصة.

واقترضت إدارة الدولة الواسعة أن يُعنى أولو الأمر بالطرق، وذلك للبريد عصب الإدارة القوي. لكن الطرق كانت موضع عناية لسبب آخر وهو الحج. فانتشار الإسلام في الجهات المختلفة أدى إلى زيادة عدد الحجاج الذين كانوا يؤمنون بيت الله الحرام لأداء الفريضة. والعناية بطرق الحج الرئيسية - من العراق والشام ومصر (وكل منها تجمع الحجاج الواقعة بلادهم وراءها) - إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت موضع اهتمام كبير. وهذه العناية كانت تشمل حراسة الطرق وتأمينها، وإنشاء أماكن

١٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٨ - ١٦٩.

Lewis, pp. 213.

Lombard, L' Islam, pp. 133-134; Monnai, p. 175.

Boulnois, The Silk, p. 142.

يستريح فيها المسافرون، وأعلى تيسير الماء فيها لهم على الاقل<sup>٢٠</sup>.

وكان نَمّة طريقان رئيسيان يصلان بغداد بدمشق (وبعدها بغيرها من المدن) الأ ول الذي كان يخرج من بغداد إلى الموصل ومدينة بَلَر بحذاء دجلة، ثم يخترق ما بين النهرين إلى سنجار ونصيبين ورأس عين (رأس العين اليوم) والرقّة ومنبج وحلب وحماة وحمص وبعليك ودمشق. ومن هذه يتجه إلى طبرية والرّملة والقاهرة. أما الطريق الثاني فكان يسير من بغداد مع الضفّة الغربية للفرات ماراً بالأنبار، وكان يعبر إلى الضفة الغربية للفرات عند هيت، ثم يتجه إلى دمشق عبر الصحراء<sup>٢١</sup>، أو يسير شمالاً ثم يتجه نحو حلب وانطاكية. وكان نَمّة طريقان يخرجان من حلب فيتجه أحدهما إلى خلاط فأرمينية، والآخر نحو الموصل فالجزيرة (الفراتية)<sup>٢٢</sup>.

أما الطرق التي كانت تربط بين مدن الشام الشمالية فإن أكثرها كان يتصل بآمد (ديار بكر اليوم) ومن هذه تخرج طرق تتصل بمعظم الثغور التي بازاء بلاد الروم<sup>٢٣</sup>. ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة إلى بلاد الروم، سلك العرب منها اثنين في غزواتهم لتلك الديار. أولهما درب الحدث، وهو في الشمال الشرقي، وهو الذي يمر بمرعش ثم ينتهي بملطية وجوارها. والثانية هي درب الأبواب القليقية الضاربة شمالاً من طرسوس ومنها تستمر الطريق إلى القسطنطينية. وكان هذا الطريق هو الذي يسلكه سعاة البريد وقرمته وفود قيصر والخليفة<sup>٢٤</sup>.

وكان المقدسي الوحيد من جغرافيي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي الذي أفرد باباً خاصاً لبادية العرب في كتابه أحسن التقاسيم، وتحدث عن طرقها. وهذه البادية تمتد من و يله (أيله) إلى عبادان ثم إلى بالس مقوسّة؛ وفيها اثنا عشر طريقاً تسع منها طويلاً يؤدّين إلى مكة وثلاث عرضاً يؤدّين إلى الشام<sup>٢٥</sup>. وقد كانت هذه الطرق تستعمل أو تهمل أو تهجر بسبب تنقلات البدو وإغاراتهم على الحاج.

ولنذكر أنفسنا دوماً بالطرق التي كانت تقطع بلاد الخلافة إلى الشرق وتصل إلى الصين، وكذلك الطرق البحرية التي أصبحت - في الفترة التي نحن معنيون بها - تمتد من غرب المحيط

٢٠. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٤٠٥-٤٠٦.

٢١. قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢١٨-٢٢٠، متز، الحضارة، ج ٢، ص ٤١٢-٤١٣.

Lombard, L'Islam, pp. 38-39.

٢٢. لسترايج، غ. جي، بلدان الخلافة الشرقية، ط ٢، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بيروت ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م، ص ٢٥، ١١٣، ١٥٨، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لسترايج، بلدان.

٢٣. المرجع السابق، ص ٢٥.

٢٤. المرجع السابق، ص ١٦٤-١٦٥، ابن خرداذبه، المسالك، ص ١٠٠-١٠٢، وصف للطريق الذي يتجه من طرسوس إلى القسطنطينية إلا أن أكثر الأماكن الواقعة عليه لا يمكن تعيينها (لسترايج، بلدان، ص ١٦٥).

٢٥. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٨-٢٥٢.

الهندي الى بحر الصين الجنوبي عبر مضيق ملقا واندونيسيا. وقد اضاف العرب الى الطرق البرية التي كانت معروفة الطريق التجاري الى بلاد الروس في الشمال. وقد وصف ابن فضلان الذي زار بلاد الفولقا ٣٠٩هـ / ٩٢١م هذا الطريق بدءاً من بغداد<sup>٢٦</sup>.

وحري بنا أن نتوقف هنا قليلاً لتتحدث عن النقود التي شاع استعمالها في القرون العباسية الثلاثة الاولى. فالمعروف أنه قبل قيام دولة الخلافة كان ثمة نقدان يستعملان في العالم المتحضر— الدينار الذهبي في دولة البيزنطيين والدرهم الفضي في دولة الساسانيين. وقد استمر ذلك بعد الفتح العربية الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والامويين الى أيام عبد الملك بن مروان الذي سك النقد العربي الاسلامي. لكن الاساس ظل ذهباً في غرب الدولة وفضة في شرقها.

ويرى الباحثون أن كمية الذهب التي أصبحت تصل دور الضرب قد ازدادت في القرنين الاول والثاني الهجري (السابع والثامن الميلادي)، وتعليل ذلك هو أن الذهب الذي كان مخزوناً في قصور الاكاسرة وكنائس بلاد الشام ومصر وأديارها قد أخرج من مخائبه، ونبشت كذلك بعض قبور الفراعنة. لكن المهم ايضاً هو أن العالم العربي الاسلامي أصبح يجذب اليه ذهباً جديداً من مناجم جديدة، منها مناجم جبال الطاي وجبال أورال والتبت والدكن (جنوبي الهند) وأرمينية والنوبة والعلاقي وشرقي إفريقية. لكن التبر الذي كان يصل من السودان الغربي (عن طريق ورغلة وما إليها).— كان على ما يبدو— هو العنصر الرئيسي في زيادة كمية الذهب المتداول. ومع أن الفضة كانت تصل دولة الخلافة من القوقاس وجبال البُرز وشمالى إيران وبلاد الفرنجة، فإن كميتها لم تكن كبيرة، ولم تؤثر كثيراً في تطور النقد.

ونحن اذا نظرنا الى خارطة تظهر توزع النقود من حيث استعمالها في السوق، وفي حساب الدولة في القرنين الثاني والثالث الهجري (الثامن والتاسع الميلادي) وجدنا أن الدينار الذهبي ظل هو المستعمل في غربي الجزيرة العربية والاجزاء الشامية والمصرية والمغربية والاندرلسية من الدولة؛ فيما كان للدرهم الفضي سوق رائجة في أقصى الاجزاء الشرقية من دولة الخلافة (شرق إيران وما جاورها شرقاً)؛ أما الأجزاء الوسطى أي اذربيجان وأران والديلم وجرجان وطبرستان وشمال شرق الجزيرة العربية والعراق فقد كانت الاسواق (والدويلات) تتعامل بالنقدين على السواء.

وقد حافظت العاصمة على الحق في سك النقود أيام الامويين، الا فيما ندر؛ لكن الامر تبدل فيما بعد، فتعددت دور الضرب، وأصبح سك النقود الذهبية لا يخضع لمركزية إدارية. وبعد سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م أصبحت عاصمة كل دويلة تسك نقودها الخاصة بها، ولوا أنها تمسكت بالمحافظة على الدقة في الوزن.

٢٦. متز، الحضارة، ج٢، ص. ٣٧٢؛ أحمد بن فضلان بن العباس (كان حياً / ٣١٠هـ / ٩٢٢م) رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩، ص. ٦٧ — ١٧٢. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن فضلان، رسالة.

وقد تنبه المؤرخون الى أمر في غاية الأهمية فقد ظلت الضرائب والجبايات تحسب وتقيد بالدينار غربا وبالدرهم شرقاً حتى أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، ولكن منذ بدء القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أصبحت هذه تقدر بالدينار في المنطقتين. أما فيما يتعلق بالسوق فقد سبقت هذه القضية، الدوائر الرسمية<sup>٢٧</sup>، كما هو الحال دائماً.

هذه الأمور التي عرضناها - من حيث النمو السكاني وتجمع السكان في المدن والبلدان وقيام الدويلات وأثره في إنشاء العواصم والبلاطات، وازدياد الحاجة الى السلع الاستهلاكية «أو الكمالية كما كنا نسميها قبلاً»، وضخامة الجيوش وحاجة الجند الى الاسلحة والثياب وبناء الاساطيل، والعناية بالطرق، وانتشار النقد الموحد في أساسه - هذه الأمور جميعها كانت عوامل تنشيط للتجارة في العالم العربي الاسلامي أولاً، وبينه وبين العالم الخارج عنه ثانياً؛ وهذا ما نلاحظه في أمرين هامين، الاول: هو التنوع الذي طرأ على السلع التجارية وازدياد أصنافها بسبب نقل الكثير من النباتات الجديدة الى رقعة دولة الخلافة (وقد نقلت بعض النباتات منها الى المناطق الخارجية عنها ايضاً)، وتجمع الصناعات المهرة في المدن لتلبية حاجة الناس؛ والثاني: هو هذا التنقل المستمر للناس، حتى لكأن الطرق لا تكاد تفرغ من المسافرين حجاجاً وتجاراً وطلاب علم وباحثين عن المغامرات. ولعل مما يدل على هذا التنقل ما نلمسه في الكتب الادبية القديمة عن شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء كانت تضيق بهم سبل العيش في مكان، أو كانوا يتعرضون لمضايقة ما، فاذا بهم ينتقلون الى مكان آخر. وكانت الوحدة الحضارية والثقافية، المبنية على الشعور بالإسلام وانتشار اللغة العربية، مما يشجع القوم على الرحلة.

وأدت كثرة الذهب الذي وصل عالمنا يوماً الى نتيجتين مهمتين: الأولى: تدني قيمة المعادن الثمينة الذي تبعه ارتفاع في أسعار الحاجيات مما أدى الى التضخم المالي. والنتيجة الثانية: هي انخفاض قيمة الدينار الذهب في مقابل الدرهم الفضة. فقد كان الدينار، عند بدء قيام الخلافة، يساوي عشرين درهماً، فأصبح في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي يساوي ستة عشر درهماً في الولايات الشرقية؛ وكان الدينار يساوي خمسة عشر درهماً في مصر والمشرق في اواسط القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي؛ هذا الى تبدل في وزن الدينار من الذهب. فقد كان، عند البدء في نشره وانتشاره، يساوي ٤٢٥ من الغرام، فأصبح الوزن في عصر الرشيد ثلاثة غرامات، وهو ما يعادل وزن الدرهم من الفضة. وهذه القضية أثارت مشكلات كبيرة في الاسواق المالية التي كانت موزعة في هذه الرقعة الواسعة والمتباعدة مكاناً وزماناً. لكن على ما يبدو كان بيد الجهابذة وكبار الصرافين، الذين كانوا يعمرون الاسواق الكبرى في العالم العربي الاسلامي، حلول لجميع هذه القضايا على أساس استعمال السفتجة لنقل قيمة الأموال اللازمة بعد إيداع الأصل عندهم<sup>٢٨</sup>.

Lombard, Monnai, p. 185.

٢٧. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٧٥-٣٧٦.

Lombard, Monnai, p. 155ff.

٢٨.



ونحن عندما نستعرض التطور الذي أصاب النقد العربي الاسلامي حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي والدور الذي لعبه في التطور الاقتصادي والاجتماعي في دار الاسلام اولا وخارجها ثانياً، لا نستغرب أن يطلق موريس لومبار على الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي الى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي عصر الدينار<sup>٢٩</sup>.

أشرنا من قبل الى ان التطور الحضاري الذي عرفته المجتمعات التي عاشت في إطار دولة الخلافة والدويلات المتفرعة عنها أدى الى النظر الى الحياة والعناصر التي تتكون منها المعيشة اليومية في البلاط (والبلطات) وفي قصور الأغنياء نظرة يمكن أن يقال عنها إنها بلغت مستوى رفيعاً. فالملابس والمنازل والمآدب والمجالس اتخذت لها قواعد جديدة أقل ما يقال فيها أنها تقوم على تفهم معنى العيش الرفيه والتصرف الرفيع والاستمتاع بذلك كله. ومع أن قصور أولي الأمر كان لها السبق في هذه الأمور، فإن التاجر الغني، الذي أتيج له أن يتعرف على الدنيا وما فيها شرقاً وغرباً «أصبح هو يمثل الحضارة الاسلامية التي صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة في ذلك... وكانت التجارة الاسلامية في القرن الرابع [العاشر] مظهراً من مظاهر أبهة الاسلام، وصارت هي السيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد. وأخذت تجارة المسلمين المكان الاول في التجارة العالمية. وكانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الاسعار للعالم في ذلك العصر، في البضائع الكمالية على الاقل<sup>٣٠</sup>.

وما كان لهذه التجارة ان تتمتع بهذا النشاط لولا أن المجتمع العربي الاسلامي كان يتطلب الحصول على هذه السلع التي كانت سفنه وقوافله تنقلها من جميع الجهات لتودعها الاسواق التي تبغيها. ومع ما كان يعترض بلاد الشام وجارتها العراق ومصر من احداث تؤخر او تعيق التاجر، فإن هذا كان يتغلب على الصعوبات ليحصل، في النهاية، على السلع المطلوبة، ويحملها من بلاد الشام مثلاً واليها أو عبرها.

«وكان كبار التجار وأصحاب الصناعات هم المشتغلون بتجارة الترف والنعيم» و يعتبر المقدسي ان أقرب التجار الى الترف والنعيم في عصره، أي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، هم البزازون والعطارون، ويمكن ان تضيف اليهم، أصحاب الدهون (للتجميل) والخرازين والجوهرين<sup>٣١</sup>.

Ibid, pp. 219-222 & Lombard, Metaux, pp. 253-255.

٢٩.

٣٠. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

٣١. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٠١، ٤١٣؛ متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٨٩.

ونحن هنا نتحدث عن تجارة العالم الاسلامي عامة، مع أننا معنيون أصلاً بالحديث عن تجارة بلاد الشام الخارجية، مع الاهتمام بالعالم الاسلامي. وعذرنا هو أنه لا يمكن الانكفاء الى جزء محدود من العالم الاسلامي الواسع دون أن نرسم له الاطار العام، ثم ننتقل الى دارنا التي اخترناها لنرى ما كان فيها مما تحتاج اليه حضارة العصر، وما الذي تستطيع أن تبعث به الى الجيران الاقربين أو القوم البعيدين، ثم ما الذي كانت هي بحاجة اليه من سلع تنقل اليها استكمالاً لحاجتها. وسنتقف، بين الفينة والفينة، كي نلم، عند الحاجة، بما قد يعيق التجارة من السير في طريق معين بسبب أحداث تقع بين السكان المجاورين أو الأعداء المهاجرين، أو من أعمال شغب أو ثورة أو ما الى ذلك مما قد يقعد التجار عن العمل، أو يؤخرهم، أو يحملهم على البحث عن طريق آخر آمن.

وقد كانت المعادن، على اختلاف أنواعها، عماد الحضارة في تلك الأيام: من حديد لازم للآلة على اختلافها، ونحاس ضروري للحلل وما إليها، وذهب وفضة تحتاجهما دور الضرب لسك النقود ويحتاج الجوهري أولهما كي يصوغ منه الحلبي المرصعة.

والواقع أن بلاد الشام كانت فقيرة في المعادن. فالحديد موجود بكميات محدودة في لبنان وفي جبال الشراة على مقربة من البتراء وعلى مقربة من بصرى. ومن المهم أن نذكر أن هذه المعادن كانت قد استعملت من قبل، ومن ثم فلم يكن في البلاد ما يكفي للصناعة التي عرفتها دمشق، وهي صناعة الاسلحة والسيوف خاصة. واذن فلم يكن بد من استيراد الحديد الذي كان يصلها من مرعش، وهي أقرب معادن الحديد إليها، ثم من أرمنية وأذربيجان الغنيتين به. ولكن الأمر الأغرب هو أن دمشق كانت تستورد، عن طريق الخليج العربي والعراق، الفولاذ من الهند، وهو معد من حديد خام نقل الى الهند من شرق إفريقيا. هذه صناعة واحدة، عرفتها دمشق قديماً واشتهرت بها من أيام الرومان، واستطاعت أن تحافظ عليها وتنمّيها بسبب إمكان الحصول على المادة الأصلية اللازمة لها<sup>٣٢</sup>. وقد كانت مصانع دمشق تزود المناطق والقبائل المجاورة بالسيوف. وبهذه المناسبة يجب أن نذكر أن الذي يصدر الى أماكن بعيدة نسبياً — كان النصل فقط — أما الجفن والمسك فقد كان يصنعان في أماكن أخرى، وغالباً ما يكون ذلك محلياً.

ونحن إذا أخذنا المعادن النافعة من حيث علاقتها بالحاجات اليومية، وجدنا أن الأواني النحاسية كانت دوماً عوناً للإنسان في تيسير أموره وقضاء حاجاته. وقد كانت دمشق مشهورة بصنع

Lombard, L'Islam, pp. 178-196,  
Lombard, Metaux, p. 65ff.

٣٢. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٢٤.

الأدوات النحاسية، وكان النحاس الموجود في لبنان هو أساس الصناعة الدمشقية. لكن معدن النحاس في لبنان كان قليلاً، وقد استهلك معظمه حتى في الأزمنة القديمة. ومن ثم فقد كانت دمشق تستورد النحاس من معدن أرجانا في أعالي بين النهرين، ومعدن الخابور ومن قبرص، ثم تقوم بصنع الأبواب والأواني والدلاء وغيرها من الأدوات النحاسية<sup>٣٣</sup>. وقد روى المقدسي أن أبواب الجامع الأموي في دمشق كانت مصنوعة من الصفر المذهب<sup>٣٤</sup>. وقد كانت سلع دمشق النحاسية تصدر إلى مصر. فقد روى ناصر خسرو أنه يوجد في مدينة الفسطاط خمسة آلاف قدر من النحاس، يسع كل منها ثلاثين مٓتا [نحو خمسين لتراً] من الماء، وهي من صنع دمشق. وأضاف أن هذه كانت تُملأ يومياً بالماء<sup>٣٥</sup>.

وتعود أهمية الذهب، في الفترة التي نحن معنيون بها، إلى أنه كان الأساس في سك النقد في رقعة واسعة من العالم، فضلاً عن أن هذا النقد (العربي الإسلامي) نفسه كان المقبول للتعامل الرسمي والتجاري، ولحساب هذين الأمرين في هذا العالم بكلية. ويجب أن لا ننسى أن أسعار السلع التي كانت تصل هذا العالم، والذي كانت بلاد الشام جزءاً مهماً فيه من الناحية التجارية، كانت تدفع بالذهب إما نقداً (وهو الأقل على ما يبدو) وإما سبائك (وهو الأكثر).

وإذا كان الرجال يكتفون من الحلبيّ بالخواتم، فأنهم كثيراً ما رغبوا في أن يكون جفن السيف أو بيت الخنجر من الذهب. فهذا حلية الرجال. إلى هذا كان متفننو الصاغة يصنعون من الذهب مزهريات وقماثيل وصفار الحراب والسلاسل الدقيقة ومقابض المنشآت العاجية وغير ذلك كثير، وذلك كي تزين بها المنازل على اختلاف أنواعها.

وقد ذكرنا من قبل «السيولة» في الذهب التي عرفتها بلاد دولة الخلافة بسبب تعدد المصادر للحصول على هذا المعدن من قديم وحديث. وتحدثنا عن النقد بشكل خاص. وقد كانت دمشق، أيام الأمويين، دار الضرب الرئيسية في العالم العربي الإسلامي. ولكن هذا الدور زال عنها بانتقال الخلافة إلى العباسيين، ولم يعد إليها إلا فيما بعد.

Lombard, Metaux, p. 180ff.

٣٣

٣٤ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٥٨.

٣٥ ناصر، خسرو، (ت ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م) سفرنامه (رحلة ناصر خسرو)، ط ٢، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠ م، ص ١٠٤، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: خسرو، سفرنامه.

على أنه يجب أن لا يغيب عن البال أنّ الذهب كان يأتي الى بلاد الشام ومصر والعراق، أي بلاد الشام وجارتها، من أماكن قاصية على ما مرّ بنا. ويمكن القول إجمالاً إنّ ذهب السودان (الغربي) وتبره هما اللذان كان قوام صياغة الذهب، من نقود وحلي، في الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري / الثامن الميلادي الى الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. وكان هذا الذهب ينقل من مواطنه الى الشمال الافريقي عن طريق سجلماسة وورغلة الى فاس والقيروان وتاهرت، ثم يوزع في مراكز كبيرة هي الأندلس (ومنها الى غرب أوروبا) وصقلية ومنها الى الشرق. أما السوقان الرئيسيتان للذهب ولتوزيعه في الشرق فهما البصرة وخوارزم. ويمكن القول إجمالاً ان هذه الأسواق الأربع المذكورة (الأندلس وصقلية والبصرة وخوارزم) كانت تتعامل بالذهب الخام. أما أماكن صنعه في المشرق، فقد كان أهمها الفسطاط في مصر، ودمشق في بلاد الشام، وبغداد في العراق. وفي هذه الأماكن كانت تصنع الحلي المتنوعة التي ترسل منها الى الأسواق القريبة والبعيدة<sup>٣٦</sup>.

الا أن انتقال قبائل بني هلال وبني سليم من مصر الى افريقية في أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، واستقرار هذه الجماعة في تلك الجهات، أدى الى قطع الطريق بين الأجزاء الغربية من الشمال الأفريقي من جهة، وتونس ومصر والمشرق من جهة أخرى. وكان معنى هذا أن انقطع الذهب السوداني (الغربي) عن الوصول الى المشرق، واقتصرت تجارته، ولو الى فترة معينة، على غربي أوروبا. أما البلاد الشرقية فقد أصبحت تعتمد على ذهب منطقة أورال وعلى معادن أعالي النيل الى درجة أقل. وقد يكون أحد الأسباب التي أدت الى ضعف الدولة الفاطمية، وتأخر الحياة الاقتصادية - نسبياً - في المشرق هو نقص في الذهب في الأسواق<sup>٣٧</sup>.

يرى متزن أن اللباس كان عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التي يحتاج اليها جسم الانسان وهي: الطعام واللباس والسكن؛ وكانت صناعة [الأقمشة] والملابس أرقى الصناعات، وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستور ملونة تعلق على حيطانها. وكان أهم ما يعتبر ترفاً هو أن يكون الانسان حسن اللباس عندهم. وكان جمال المسكن يتلخص في أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستور الجميلة، وأن تكون أرضه مفروشة بالبسط<sup>٣٨</sup>.

والقماشان اللذان عرفا في المنطقة في الزمن الذي نتحدث عنه هما الكتان والقطن، من حيث

Lombard, Metaux, p. 211-222. ٣٦

Lewis, p. 165.

Lombard, Metaux, p. 232-234. ٣٧

٣٨. متزن، الحضارة، ج٢، ص ٣٥٠.

أنهما الأكثر شيوعاً. وقد كان القطن يزرع في شمالي سورية في المنطقة الممتدة من انحاء الفرات حتى مدينة حلب، وهذه المنطقة هي امتداد لمنطقة الحابور. فضلاً عن ذلك فإن القطن زرع في غور الأردن وفي الواحات المحيطة بدمشق وفي كليكيا. وكان القطن يُصدَّرُ إلى مصر ليحاك هناك. وكانت بلاد الشام تستورد من مصر، مقابل ما تصدره لها من القطن، الأقمشة الكتانية<sup>٣٩</sup>، التي كانت مصر مشهورة بها (منذ أيام الفراعنة).

وليس من اليسير أن ينسى الواحد منّا الأقمشة الحريرية المصبوغة بمختلف الألوان، وإن كان الأرجوان سيدها. لقد كانت بلاد الشام قد قادت الكثير من أهميتها في صنع الأقمشة الحريرية وصبغها أيام نجستيان (٥٢٧-٥٦٥ م) بسبب القيود التي فرضها على هذه الصناعة لتمكين الاحتكار الرسمي من السيطرة التامة على كل ما ينتج منها. لكن القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي شهد عودة النشاط إلى صناعة الأقمشة الحريرية في بلاد الشام. فتدفقت الحرائر على بلاد الروم من أنطاكية والاسكندرية<sup>٤٠</sup>.

ومما يجب تذكره— عندما نتحدث عن التجارة، بالنسبة لبلاد الشام وغيرها من مناطق الخلافة— هو أن بعض الأقطار كان يختص بصنف معين من مجموعة أصناف سلعة معينة، فكان من الطبيعي أن يتبادل القطران هذين الصنفين. فبلاد الشام، ودمشق خاصة، كانت تنتج الحرير المصبوغ، فيما كانت الابله والبصرة تنتج، في الوقت نفسه، أي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي مثلاً، الخبز الجيد. فكان من الطبيعي أن يجد المشتري مصنع أي من المدينتين في أسواق المدينة الأخرى. وهذا ما كان يحدث لا في تجارة الأقمشة الحريرية وحدها، ولكن في كل صناعة تختلف أساليب إنتاجها بين مكان وآخر، كما كان يحدث، على سبيل المثال، في تصدير أقمشة من دلتا مصر إلى الشام وبالعكس<sup>٤١</sup>.

٣٩. المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٥٠-٣٥١.

Lombard, L'Islam, pp. 182-183.

راجع أيضاً المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٠٨، ٢٠٣.

Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic World, Cambridge, 1983, pp. 31-41. Henceforth cited as: Watson, Agricultural.

٤٠. شهاب، دور لبنان، ص ٢١.

Boulnois, the Silk, pp. 181-184.

Lombard, L'Islam, p. 185.

٤١.

وما دمننا قد تحدثنا عن الأقمشة والثياب فلنشر هنا الى الاصبغة النباتية وأهمها النيلة والقرمس والزعفران، وكانت هذه تستعمل للتلوين بالأزرق والأحمر والأصفر على التوالي. وكانت النيلة تزرع— في بلاد الشام— في زغر (وقد ورد اسمها صُغْرَ ايضاً) في فلسطين، وكان العصفراً أو الزعفران (وعرف باسم الورس أيضاً) يُزرع في الشام، أما القرمس (أو القرمز) فكان ينمو في أرمينية ومنها كان يحمل الى بلاد الشام لاستعماله في تلوين الاقمشة الصوفية<sup>٤٢</sup>.

وعرفت بلاد الشام ثلاثة أنواع من الحبوب التي كان القوم يستعملونها لصنع الخبز وهي الحنطة والشعير والذرة (البيضاء). وقد دجنت هذه في أنحاء مختلفة من العالم القديم: فالحنطة يبدو أنها فلسطينية (اربحا)، والشعير آسيوي (؟)، والذرة هندية أو على الاقل وصلت المشرق من الهند عن طريق الخليج العربي. وكانت أراضي كثير في بلاد الشام تصلح للحنطة، بحيث أن البلاد كانت تصدرها الى العراق. وقد ازدادت حاجة العراق الى الحنطة بعد أن تلفت أراضي السواد إذ تهدمت الترع والقني نتيجة لحرب الزنج والحروب الاهلية المتعددة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. وكانت الحنطة تنقل من شمالي سورية الى انحناءة الفرات، حيث تحمل من هناك نهرياً الى بغداد والمدن الأخرى. وكانت بلاد الشام تصدر الحنطة الى بلاد العرب برأ. ومع أن الشعير كان يستعمل لصنع الخبز أحياناً، فقد خص بالخيل والحمير فيما بعد. والذرة كانت تزرع في بلاد الشام في منطقة حلب في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، لكن هذا لم يكن زمن وصولها البلاد— فقد عرفت قبل ذلك<sup>٤٣</sup>.

ويبدو أن الارز كان معروفاً في فلسطين في فترة تمتد من القرن الثالث الى القرن الثامن للميلاد، ومن المرجح أنه زرع يومها في غور الأردن. وقد ذكر المقدسي (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) أن الارز كان يزرع في منطقة بيسان في الغور<sup>٤٤</sup>.

٤٢. ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٢٤؛ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٤؛ متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣١٤-٣١٧.

٤٣. Ibid, pp. 163-164; Watson, Agricultural, pp. 9-14. ياقوت الحموي، شهاب الدين ابي عبد الله (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م) معجم البلدان، ٥ ج، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ٢٨٢-٢٩٠ (مادة حلب). وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت: معجم، المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٠، متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

٤٤. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٠.

Lombard, L'Islam, pp. 164.

Watson, Agricultural, pp. 15-19.

وكانت شجرة النخيل قد وصلت الى فلسطين قبل الفتح العربي، ولكنها بعد الفتح انتشرت في شمالي سورية. ولكن تمور بلاد الشام ما كان لها أن تزاحم تمور العراق<sup>٤٥</sup> لا كما ولا نوعاً.

لكن نوعين من الفاكهة كان لبلاد الشام قصب السبق فيهما في المشرق - العنب والتفاح. فالمقدسي يتحدث عن الأعناب والكروم في الجليل (شمالي فلسطين) ثم يعود فيفضل ذلك من حيث مشتقات العنب كالزبيب والخمور، فيشير الى ذلك بالنسبة لجلب عاملة (جبل عامل) والخليل وعسقلان. وقد كانت خمور بلاد الشام تصدر من اللاذقية وتنقل بحراً الى الهند<sup>٤٦</sup>. وكان أحسن التفاح في ذلك العصر تفاح الشام حتى كان مضرب المثل في الحسن<sup>٤٧</sup>.

وقد عرفت بلاد الشام قصب السكر بعيد الفتح العربية، إذ انتشرت زراعته من بلاد فارس التي وصلتها أيام الساسانيين. وقد شاعت زراعته في أنحاء كثيرة من بلاد الشام - في غور الأردن بين بيسان وأريحا وغوطة دمشق ثم السهل الساحلي من أنطاكية جنوباً. وتركزت صناعة السكر في طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا. وقد ذكر المقدسي أن كابل (وهي اليوم قرية الى الشمال من عكا) كان ينتج فيها سكر فائق<sup>٤٨</sup>. وقد وصلت أول شحنة سكر الى البندقية سنة ٩٩٦م.

وشجر الزيتون من نباتات حوض البحر المتوسط، وكانت بلاد الشام معدن الزيتون وزيته في المشرق، وهو أجدد أنواع الزيت. وكانت المدن الشامية المختلفة تبعث الى مصر والعراق وبلاد العرب حاجتها من زيت الزيتون أيام الأمويين والعباسيين الأوائل. وكانت صناعة الصابون، التي تعتمد على الزيت، من صناعات بلاد الشام الرابعة، وكان الصابون يُصدر جنوباً وشرقاً<sup>٤٩</sup>.

روى المسعودي عن الأتروج والتارنج أنهما جلبا من أرض الهند بعد سنة ٣٠٠م فزرعا بعمان ثم نُقلا الى البصرة والعراق والشام حتى كثرت زراعتهما في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر؛ وما كان يُعهد ولا يعرف فعدمت منه الروائع الطيبة

٤٥. ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٦٠؛ المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٦.

Lombard, L'Islam, p. 166.

٤٦. المقدسي، احسن التقاسيم؛ ص ١٦٠، ١٨٠؛ متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٠٩.

Lombard, L'Islam, p. 166.

٤٧. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٠٩.

٤٨. ابن حوقل، صورة الارض، ص ٢٥٠؛ ٢٥٤، المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٢، ١٨٠؛ متز، الحضارة، ج ٢،

ص ٣١١.

Lombard, L'Islam, p. 167; Watson, Agricultural, pp. 24-30.

٤٩. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٢، ١٧٤، ١٨٠.

واللون الحسن . الا أن الامر تبدل بعض الشيء ولو في أجزاء معينة ؛ فالمقدسي يقول عن هاتين الشجرتين إنهما تزرعان في فلسطين ، ولكنه لا يشير الى انعدام الرائحة واللون<sup>٥٠</sup> .

يقول موريس لومبار : «ان الفترة الممتدة من القرن الثالث المحري — القرن الخامس الميلادي / من القرن الثامن الى القرن الحادي عشر، شهدت نقلة كبيرة في تاريخ الغلات الغذائية [في المشرق العربي] سواء لجهة الأصناف التي وصلت حديثاً [الى المنطقة] أو لجهة تقنية الانتاج<sup>٥١</sup> . ونحن اذا تصفحنا ورقات المقدسي وابن حوقل والمسعودي (في مروج الذهب مثلاً) وجدنا أسماء نباتات من خضار وفواكة لم تكن معروفة قبل أن تتيح لها أحوال العالم العربي الاسلامي الجغرافية والتجارية ان تنقل من أقاصي شرق آسية الى المشرق، فنزرع في مناطق بلاد الشام — مثل القلقاس والسبانخ والاشمار الحمضية<sup>٥٢</sup> .

وكان الجمّل النجدي ، أي ذو السنام الواحد ، هو المعروف في المشرق . وقد انتشرت تربية الأبل في شمالي سورية والجزيرة الفراتية . ولا شك في أن مراعي سورية الشمالية كان لها أثر في جذب الجمال الى المنطقة . لكن لم نقع على خبر تصدير الجمال من تلك البقعة الى الخارج<sup>٥٣</sup> .

أما الخيل فقد كانت أنواعاً منها الخيول السورية ، التي نشأت في بلاد الشام أيام الرومان ، ولعلها كانت نتيجة تهجين نوعين من الخيل الواحد من إيران والثاني شمالي وصل البلاد مع التجار . وهذا الحيوان (الفرس السوري) كان يعتمد مراعي بادية الشام ، وكان له سوق في شمال الجزيرة العربية . الا اننا نرجح أنه كان يضاف الى قافلة الخيول التي كانت تصدر سنوياً الى الهند ، والتي قد يبلغ عددها خمسة آلاف سنوياً . وقد أشرنا من قبل الى أن أمراء الهند وأثرياءهم كانوا حريصين على استعمال الخيول في مواكبهم الرسمية ، لكن هذه الخيول لم تكن تصلح للتوليد هناك واذا ولدت فان المهر منها كان صغيراً وضعيفاً . ومن ثم فقد كان على القوم أن يستوردوا الخيول سنوياً ، وكانت موانئء

٥٠ . المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٩ ، تحقيق باربييه دمينار وياوه دكوتل ، ط ٢ ، طهران ، ١٩٧٠م ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ — ٤٣٩ . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : المسعودي : مروج ؛ المقدسي ، احسن التقاسيم ، ١٦٦ — ١٨١ .

٥١ . Lombard, L'Islam, p. 168.

٥٢ . يراجع المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٢٠٣ منز ، الحضارة ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

Watson, Agricultural, pp. 9-73.

٥٣ . منز ، الحضارة ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ ؛

Lombard, L'Islam, p. 168-169.



الجزيرة الواقعة في جهات عُمان هي المراكز لتصدير الخيول، الى موانئ الهند<sup>٥٤</sup>. وقد ذكر المقدسي أن الخيول كانت تصدر ايضا من جزيرة ابن عمر<sup>٥٥</sup>.

ومن الحيوانات التي نقلت الى سورية من الهند الجاموس. وقد أرتوي أن الجاموس وصل العراق مع الغجر (الزط أو التور)، وما ساعد على انتشارها في سواد العراق في أيام بني أمية، ازدياد البطائح في تلك المنطقة. وقد روي أيضا ان انتشار المستنقعات في شمالي بلاد الشام أدى الى وجود السباع بكثرة هناك. ولما كان الجاموس أكبر عدو للسباع فقد نقلت أربعة آلاف منه لمقاومة السباع والمهم أن الجاموس تأقلم في سهل الغاب الذي كان مغموراً بالمستنقعات<sup>٥٦</sup>.

ونشطت تجارة الرقيق في العصور العباسية المبكرة، وانفتحت امام تجارها أسواق جديدة للحصول على الرقيق وأسواق كبيرة لامتصاصه. اما الأسواق التي كان الرقيق يُجمع منها فهي السوق الصقلية (الاوروبية) والسوق التركية (الشرقية) والسوق الافريقية (السوداء). وقد زاد في نشاط تجارة الرقيق اتخاذ الغلمان جنوداً في أيام ابن طولون في مصر وبني حمدان في شمالي بلاد الشام وبني بويه وقد جاء هذا بعد اتخاذ المعتصم الاتراك جندا له. ويرى البعض أن مزارع قصب السكر في السواد احتاجت الى اليد العاملة، فسد الرقيق الافريقي من منطقة الزنج في شرقي افريقية الحاجة. لكن كان ثمة رقيق افريقي ينقل من السودان الغربي الى مصر.

وقد كانت طريق الرقيق الصقلبي الى سورية من مصر، اما الرقيق التركي فكان يصل مصر عن طريق بلاد الشام. وأما الرقيق الافريقي فقد كان يصل السودان الغربي ومن الحبشة عن طريق مصر. لكن الرقيق الافريقي الآتي من شرقي القارة فكان نقله يتم عن طريق جزيرة سوقطري فعدن ثم براً من زبيد الى دمشق. ومن دمشق كان ينقل الى بغداد (أو سامراء لما كانت سوقاً وبلاطاً). وقد كان ثمة مراكز لخصي الرقيق (على اختلاف أنواعه). ومن هذه المراكز البعيد (بالنسبة لبلاد الشام) والقريب، لكن السلطة كانت تصل في النهاية الى الأسواق التي تتطلبها. أما المراكز الرئيسية للخصي فهي قرطبة وفردان وبراغ وأرمينية وخوارزم وأسوان<sup>٥٧</sup>.

٥٤. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٤٨. Lombard, L'Islam, p. 169-170.

٥٥. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٤٥.

٥٦. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٤٦. Lombard, L'Islam, p. 172.

٥٧. لسترنج، بلدان، ص ٤٧١، ٤٨٠ - ٤٨١، ٥٠٢، ٥٣١، متز، الحضارة، ج ١، ص ٢٩٦ - ٣٠٣.

Lombard, L'Islam, p. 194-202.

وكانت الأخشاب دوماً قليلة في المشرق العربي. صحيح أن مصر كانت فيها غابات في الجنوب، لكن هذه اجتثت بسبب بناء السفن الحربية في مصر أيام ابن طولون وأيام الفاطميين خاصة<sup>٥٨</sup>. وظل المصدر الرئيسي للأخشاب، في الفترة التي نتحدث عنها، منطقة جبال أمانوس في شمال غرب بلاد الشام وجبال لبنان، وجبال النصيرية (أو الأنصارية) فيما بينهما موقعاً وإنتاجاً. وهذه المناطق كانت تزود بلاد الشام ومصر وبين النهرين بالأخشاب منذ القدم، واستمرت على ذلك. لكن الحاجة إلى الخشب لبناء السفن وما إليها كانت تسد بالتجارة مع الهند وأوروبا، وكانت بلاد الشام ومصر تعتمد على المنطقة الثانية في استيراد الأخشاب اللازمة لها<sup>٥٩</sup>.

وكان البردي والرق وسيلتي الكتابة والتدوين والمراسلة في مطلع العهود الأموية والعباسية الأولى، لكن الورق، وكان يسمى الكاغد (وهو اسمه بالتركية الآن) وصل العالم العربي الإسلامي في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي). والرواية التي تناقلها الكتاب العرب هي أن معركة نهر طلس، التي وقعت بين العرب وبين جيش صيني سنة ١٥٣ هـ / ٧٥١ م على مقربة من طشقند، والتي انتهت بانتصار العرب، أدت إلى وقوع عدد من الأسرى الصينيين بأيدي العرب المنتصرين. وقد أسكن هؤلاء الأسرى مدينة سمرقند، وهم الذين علموا المنتصرين صناعة الورق (الكاغد). وهذه الرواية فيها بذرة التاريخ، لكن الشجرة تظل قصة، فيما نرى. فقد كان الورق، من حيث أنه مادة للكتابة، معروفاً بعض الشيء في سمرقند وما إليها قبل معركة طلس.

والمهم أن سر الصناعة انتقل من الصين، التي عرفت الورق على الأقل منذ القرن الثاني للميلاد، إلى العالم العربي الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. وانتشرت صناعته انتشاراً سريعاً. ومن حسن حظ الكتاب والمؤلفين في العالم العربي الإسلامي أن جاء الورق في وقت كان هؤلاء في أشد الحاجة إلى مادة للكتابة أيسر امتلاكاً وأسهل استعمالاً وأرخص منالاً من البردي القليل الوجود والصعب التعامل معه.

وقد أنشئت أول مصانع للورق في بغداد حوالي سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م. وانتشرت الصناعة بعد ذلك غرباً. فالمقدسي يحدثننا عن مصانع الورق التي وجدت في طبرية ودمشق في بلاد الشام. ويروي ناصر خسرو، الذي مر ببلاد الشام في أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أنه شاهد مصانع الورق في طرابلس. وحري بالذكر أن البردي المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م، أما الوثائق

٥٨. زيادة، «الاسطول»، ص ٧٤-٧٨.

٥٩. الاصطخري: ابواسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي، (ت حوالي ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غوييه، بريل، ليدن، ١٩٢٧ م، ص ٦٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاصطخري:

المسالك، Lombard, L'Islam, p. 176.

المدونة على الورق (الكاغد) فيبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م<sup>٦٠</sup>.

وكان الاتجار بالمواد الطبية من الأمور البالغة الأهمية في العالم العربي الاسلامي . فهناك أولاً البلاط الخلافي ثم البلاطات الأصغر التي كان سكانها يعنون بصحتهم . وكان هناك مئات الألوف من التجار وغيرهم من أهل الشراء الذين كانوا كذلك يعنون بأجسامهم . فضلاً عن ذلك فان المستشفيات التي بنيت في طول البلاد وعرضها كانت بحاجة الى عقاقير وأدوية ، وكانت صيدلياتها تعنى بتحضير هذه الأشياء ، وإجراء التجارب على مواد جديدة . وقد كان للعالم العربي الاسلامي منفذان للحصول على المواد الاصلية او الخام لصنع العقاقير والدهون وهما : الصين برأ والهند واندونيسيا بحرأ (عن طريق الخليج العربي خاصة) . ولم يقصر القوم في استيراد ما يحتاجون .

وكان لبلاد الشام دور في استيراد الكافور وخشب الصندل والزيتون النباتية العلاجية . وكانت تشارك في إنتاج الاهليج الاردني والبلسم المقدسي والاصماغ المختلفة . وقد أورد لومبارشيثا سماه ترياق القدس ، كان يستعمل ضد لدغ الأفعى (ولعله كان موضعي الاستعمال) والأهليج هو ثمر جاف وحب قابض الخاصية ، وكان يجلب من الهند بكميات تجارية كبيرة ، مع أن اسمه يوناني الاصل . وكان يستعمل في طبخ العقاقير وتركيب التوابل<sup>٦١</sup> .

أشرنا ، في غير مكان من هذا البحث ، الى الطرق البرية والطرق البحرية . وقد آن لنا أن نشير الى الملاحة النهرية بالنسبة لبلاد الشام وجوارها .

كان العراقيون يستفيدون من نهري دجلة والفرات في نقل السلع من جهة الى جهة . وقد أشار المقدسي الى أن الجزيرة (الفراتية) ، وهي الاقليم الذي سماه أقور ، هي واسطة بين العراق والشام<sup>٦٢</sup> . وتبدو صحة هذا الحكم عندما نتذكر هذا القوس الذي يحيط ببادية الشام ، والذي يمتد من أيلة (العقبة) الى البصرة ، وتكون بالس ، على الفرات ، نقطة نصف الدائرة (التقريبية) في الشمال . وأهمية الجزيرة في هذه الوساطة هي أن الكثير من غلات الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ومحصولاتها ومصنوعات مدنها كانت تنقل الى الموصل برأ ، ومن هناك تحمل نهريا الى بغداد وغيرها من المدن العراقية . من

٦٠ . المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٠ - ١٨١ خسرو ، سفرنامه ، ص ٤٨ ؛ متز ، الحضارة ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ - ٣٦٧ . Lombard, L'Islam, pp. 190-192.

٦١ . لسترانج ، بلدان ، ص ٣٨٨ . (هامش ١٨) . Lombard, L'Islam, pp. 193-195.

Watson, Agricultural, p. 15 (no.6), 24 (nos. 5,6), 31 (no.4), 42 (no.2), 155 (no.13).

٦٢ . المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٣٦ .

ذلك : زيت الزيتون من الشام، وأخشاب البناء من أرمينية<sup>٦٣</sup>.

هذا فضلاً عما كان يرتفع من الجزيرة و يرسل الى العراق من حبوب وشحوم وعسل وجبن وقصب وسماق وفواكه مقددة وفواكة رطبة وسفرجل؛ ومن قطن وحديد وفحم وقير؛ ومن أسطال وسكاكين ونشاب؛ وموازين ودوابات وصابون وثياب الصوف والكتان؛ وفي مقدمة ما كان يصدر من الجزيرة (ولعل الشام كان يناله بعضها) هي الخيل الجياد<sup>٦٤</sup>.

إلا أن الملاحة التهرية كانت تتعرض للصوص. أو لقرصان النهر إذا صحت التسمية. ولأن دجلة والفرات يجتازان مناطق تقيم فيها قبائل بدوية تحتاج دوماً الى ما يتم موارد رزقها الشحيحة نسبياً، فإن التجار البرين أو النهريين. كانوا معرضين للغزو في أي وقت. فضلاً عن ذلك فإن المنطقة الأيرانية العراقية الشامية كانت تعاني في القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين، حروباً متنوعة تقوم بين الولايات المتمركزة في تلك الرقعة، وبين الولايات والقبائل، وفيما بين بالذات. كل حرب، مهما كانت العناصر المشتركة فيها والقائمة بها، تؤدي، في سيرها بدايةً ووسطاً ونهايةً، إلى فوضى ولصوصية ونهب<sup>٦٥</sup>.

على أن بعض مدن الشام، التي كانت ذات أهمية تجارية أضر بها اللصوص. الرسيون كما يسميهم متز، ويخص منهم بني حمدان. وقد وقع غضبهم على بالس وتجارها. فالمدينة التي كانت تقوم على شط الفرات من غربيه وهي أول مدن الشام من العراق، وكان الطريق إليها عامراً، ومنها الى مصر وغيرها سابل. وكانت فرضة لاهل الشام على الفرات فعفت آثارها ودرست قوافلها وتجارها بعد سيف الدولة الحمداني (٣٣٣-٣٥٦هـ / ٩٤٥-٩٦٧م). وهي مدينة عليها سور أزي، ولها بساتين فيما بينها وبين الفرات، وأكثر غلاتها القمح والشعير، ويعمل بها من الصابون الكثير الغزير. ومن مشهور أخبارها أن المعروف بسيف الدولة علي بن حمدان عند انصرافه من لقاء صاحب مصر، وقد هلك جميع جنده، أنفذ إليها [بالس] المعروف بأبي الحسين القاضي فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر، ولم يطلق لهم النفوذ مع خوف ناهم، فأخرجهم عن أحمال بز وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام في دفعتين، بينهما شهر قلائل وأيام يسيرة، ألف دينار<sup>٦٦</sup>.

٦٣. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٣٩٥.

٦٤. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٤٥؛ محمد الازدي، حكاية ابي القاسم البغدادي، مصورة عن طبعة هيدلبرج، ١٩٠٧. ص ١٠٧ (انواع السفن النهرية). سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: حكاية ابي القاسم.

٦٥. متز، الحضارة، ج ٢، ص ٤٠٠-٤٠١.

٦٦. ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٦٥-١٦٦. وبالس هي بريلس الرومانية (Barbalissus).

والى هذه الحادثة الوحيدة يضيف متزان بني حمدان الذين اشتهروا بالفروسية والشهامة، عرفوا الى جانب ذلك بالجور واتباع سياسة جنونية في الخراج. ومن أثر هذه السياسة أن مدينة بالس كانت على شط الفرات وأول مدن الشام من العراق، وكانت مدينة عامرة بتجاريتها، فلما كان عهد سيف الدولة، وهو أشهر بني حمدان، ثقل عليها الخراج حتى عفت رسومها، ودرست قوافلها، وتركها تجارها بعد عهد هذا الأمير<sup>٦٧</sup>.

وقد روى ابن حوقل أن الحسن بن عبد الله وهو سيف الدولة نفسه، «عمد... الى نصيبين واكتسح أشجارها وبذل ثمارها وعور أنهارها واستصفاها عمن كان دخل الى بلد الروم، واشترى من بعض قوم، واغتصب آخرين فملكها الا القليل، وجعل مكان الفواكه الغلات بالحبوب والسمسم والقطن والأرز، فصار ارتفاعها أضعاف ما كانت عليه وزادت ريعها وسلمها الى من بقي من أهلها... على منا صفات النصف من غلاتها الى أي نوع كانت، على أن يقدر الدخل ويقومه عينا ان شاء أو ورقا. و يعطي الحرات ثمن ما وجب له بحق المقاسمة، فيكون دون الخمسين.... وأهلها وقتنا هذا [في اواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي] على أفجح ما كانوا عليه»<sup>٦٨</sup>.

ولنذكر من مدن الشام طرسوس التي كان لها دور خاص لا في التجارة فحسب، ولكن لأنها كانت رباطاً كبيراً في المنطقة. وقد وصفها ابن حوقل بقوله: «فأما مدينة طرسوس فكانت المدينة المشهورة المُستغنى بشهرتها عن تحديدها، كبيرة استحدثها المأمون بن الرشيد ومدنها وجعل عليها سورين من حجارة. وكانت تشتمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكرع والسلاح والعمارة والخصب والثغلات والأموال، والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين... الى عزتاهم ونصر عام على من وليها من رجال الاسلام؛ فما غزا في بر أو بحر إلا وصحبه من الظفر والنصر والغنائم بالقسر والقهر ما ينطق الأخبار بتصديقه والآثار بتحقيقه. وكان بينها وبين حد الروم جبال منيعة... كالحاجز بين العملين. ورأيت غير عاقل مميز، وسيد حصيف مبرز، يشار اليه بالدراية والفهم واليقظة والعلم والفتنة والسياسة والرياسة، يذكر أنه كان بها مائة ألف فارس ويعملها، وذلك عن قريب عهد من الأيام التي أدركتها وشاهدتها [لعل المقصود حوالي سنة ٣٠٠ هـ]. وكان السبب في ذلك أن ليس مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والري وأصبهان وجميع الجبال وطبرستان والجزيرة. وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب إلا وبها لأهلها دار ورباط؛ ينزله غزاة تلك البلاد ويرابطون بها اذا وردوها. وترد عليهم الجرايات والصلوات وتدر عليهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة، الى ما كان السلاطين

٦٧. منز، الحضارة، ج ٢، ص ٤٠٢؛ راجع ايضاً: ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٩٨.

٦٨. ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٩٣ راجع ايضاً ص ١٩٨.

يتكلسفونه وأرباب النعم يعانونه و ينفذونه متطوعين و يتحاضون عليه متبرعين، ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها أوقاف من ضياع ذوات أكره وزراع وغللات، أو مسقف من فنادق ودور وحامات وخانات. هذا الى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق والكراع الغزير. فهلكت وهلكوا، وذهبت وذهبوا، وكانهم لم يقطنوها، وعفوا وكانهم لم يسكنوها»<sup>٦٩</sup>.

وبسبب ما أشرنا اليه من تبدل وتقلب في الأوضاع السياسية في المنطقة، كانت الطرق ومراكز التجارة، تتبدل وتتغير. فتُهجر طرق، وتقوم أخرى محلها.

ومجدد بنا، وقد وصلنا الى نهاية بحثنا (على اقتضابه) أن نضع أمام القارئ بضع نقاط بقصد التذكير لا التلخيص.

أولاً — كان التجار الشاميون، حتى مطلع القرن السابع للميلاد، هم سادة التجارة التي كانت تقوم بين المشرق وأوروبا المتوسطة. ولم يكونوا حملة للسلع فحسب، بل كانت لهم جوال منتشرة في شمال ايطالية وبلاد الغال، هي التي كانت تتنبه للأسواق وحاجاتها وتزودها بما يلزمها. وهذا الدور خسره التجار الشاميون، إلا أقله، بسبب التغير الذي أصاب المنطقة بدءاً بالفتوح العربية الاسلامية وقيام دولة الخلافة، وتبدل دور الخلفاء والعاصمة، ثم قيام الدولات والأمارات المختلفة (من أقصى الشرق الى أقصى الغرب).

ثانياً — يلاحظ، فيما يتعلق بالطرق التجارية المحلية، أو ما يشبه ذلك، الأشياء التالية :

أ — خسرت بغداد أهميتها كمركز تجاري كبير بعد ثورة الزنج بشكل خاص. وتحول الطريق الموصل بين الجزيرة (الفراتية) والخليج العربي شرقا واتجه نحو سيراغ بدل الأبله والبصرة.

ب — حافظت طرق أرمينية على أهميتها ودورها اذا أصبحت تجارة القسطنطينية تنتقل الى بلاد الشام (ثم الى مصر) عليها<sup>٧٠</sup>.

ج — عاد التجار الشاميون الى البحر بعض الشيء في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وغاد لطرابلس وبيروت وصور الكثير من نشاطها التجاري. لكن أسواقها الغربية كانت محدودة.

د — يلاحظ أن بلاد الشام، رغم ما أصابها من حروب أهلية وقبلية في القرن العاشر ظلت لها حياة اقتصادية — زراعية وصناعية ناشطة اصلا. يدل على ذلك أن ارتفاع الشام في مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي هو ٣٩٠٠٠٠٠ درهم، وقد قدر لويس هذا المبلغ بنحو مليوني دينار<sup>٧١</sup>.

Kennedy, p. 272 ff.

٦٩. المصدر نفسه، ص ١٦٨ — ١٦٩. راجع أيضاً

Lombard, L'Islam, p. 216.

٧٠.

Lewis, p. 168.

٧١. ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٧٢ — ١٧٣.

هـ — ظلت التجارة بين القسطنطينية وبلاد الشام قائمة، إذ إن كلاً من المنطقتين كانت تنقل إليها سلع من جهات مختلفة وكانت هذه السلع تتطلبها الأسواق في البلدين. لكن نقلها كان يخضع، من حيث اتباع الطريق، للأوضاع الآتية. وقد كان في القسطنطينية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تجار شاميون مقيمون للاهتمام بالتجارة والتجار<sup>٧٢</sup>.

ثالثاً — كانت التجارة العالمية في هذه الفترة بالذات تكاد تكون حكرًا على اليهود. والتجار الذين بدأوا العمل في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي استمروا على ذلك بل وسعوا نطاق عملهم. صحيح أنه كان ثمة تجار روس، لكن حتى هؤلاء كان المدبرون لأموارهم من التجار اليهود. وقد قال عنهم ابن خرداذبة: «فان الخارج منهم يخرج من الأندلس أو فرنجة [بلاد الغال أو فرنسه] فيعبر... إلى طنجة ثم إلى أفريقية [تونس] ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد [أو المكان البديل فيما بعد] ثم إلى البصرة [أو سيراف فيما بعد]... وبعد ذلك يمر التجار... بكرمان ثم يذهبون إلى السند». وكان متاعهم التجاري فيه جلود الخنزير وجلود الثعالب السود والسيوف<sup>٧٣</sup>.

ويسمى ابن خرداذبه التجار الآخرين، وهم الأكبر نفوذاً والأوسع مدى في تنقلهم وتنوع متاجرهم، التجار اليهود الراذانية، ويقول عنهم: «مسالك التجار الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفريقية والأندلسية والصقلبية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا يجلبون من المغرب الخدم والجواري والقلمان والديباج وجلود الخنزير والفراء والسمور والسيوف. ويركبون من فرنجة في البحر الغربي [المتوسط] فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم [قرب السويس] وبينهما خمسة وعشرون فرسخًا. ثم يركبون البحر الشرقي [الاحمر] من القلزم إلى الجاروجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين؛ فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يُحتملُ من تلك النواحي حتى يرجعون إلى القلزم. ثم يحملونه إلى الغدما [مركز التجارة البحرية بين مصر وبلاد الشام] ثم يركبون في البحر الغربي [المتوسط]؛ فرما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فيبيعونها للروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك... وإن شاقوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي، فيخرجون بانطاكية ويسرون على الأرض ثلاث مراحل... ثم يركبون في الفرات إلى بغداد، ثم يركبون في دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عُمان والسند والهند والصين. كل ذلك متصل ببعضه ببعض<sup>٧٤</sup>.

٧٢. Lewis, p. 174.

٧٣. ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٤ — ١٥٥.

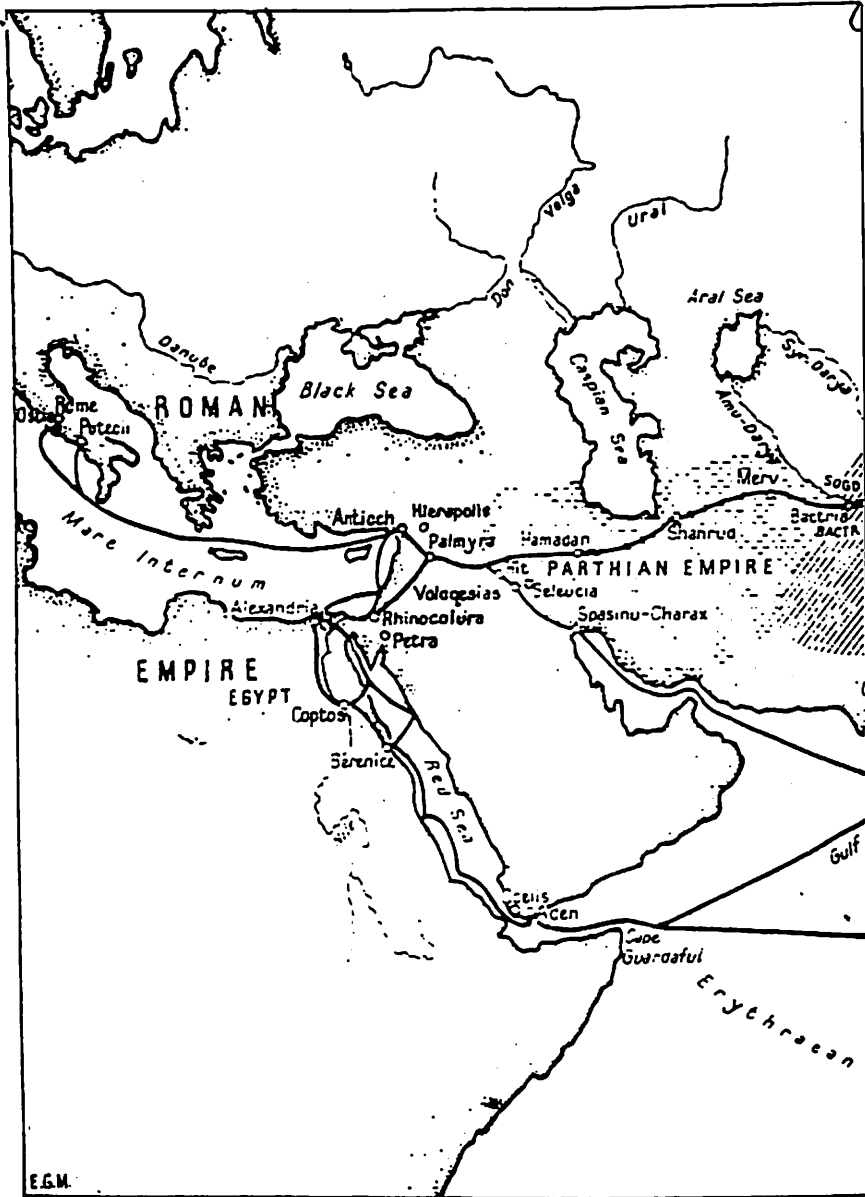
٧٤. ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٣ — ١٥٤؛ زيادة، «الاسطول العربي»، ص ٨٠ — ٨٣.

وقد نحسن صنعا - وعلى كلِّ فاننا لن نسيئه - إذا نحن وضعنا ثبتا بما كان يرتفع من بلاد الشام على ما أورده المقدسي، اذ يقول: «والتجارات به [أي إقليم الشام] مفيدة: يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والقوط؛ ومن بيت المقدس [بالذات] الجبن و[ثياب] القطن وزبيب القينوني والدوري غاية، والتفاح والمرابا وقدور القناديل والأبر؛ ومن أربحا نيل غاية؛ ومن صُغْر [زُغْر] وبيسان النيل والتمور؛ ومن عمان الجبوب والخرفان والعسل؛ ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد [الورق] وبز؛ ومن قدس ثياب... والجبال؛ ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات [أنواع من الحلو المصنوع من الطحين والسكر]؛ ومن مآب [مؤاب] قلوب اللوز؛ ومن بيسان الرز؛ ومن دمشق المعصور والبلعيسي وديباج ودهنُ بنفسج دون والصفريّات والكاغد والجوز والقطين والزبيب؛ ومن حلب الثياب والأشنان والمُفْرة؛ ومن بعلبك الملاين؛ ولا نظير... وحوارتي وميازر الرملية وسبح بيت المقدس»<sup>٧٥</sup>. وقد اوردنا من قبل بضعة أشياء تنتجها بلدانٌ وكور في إقليم الشّام.

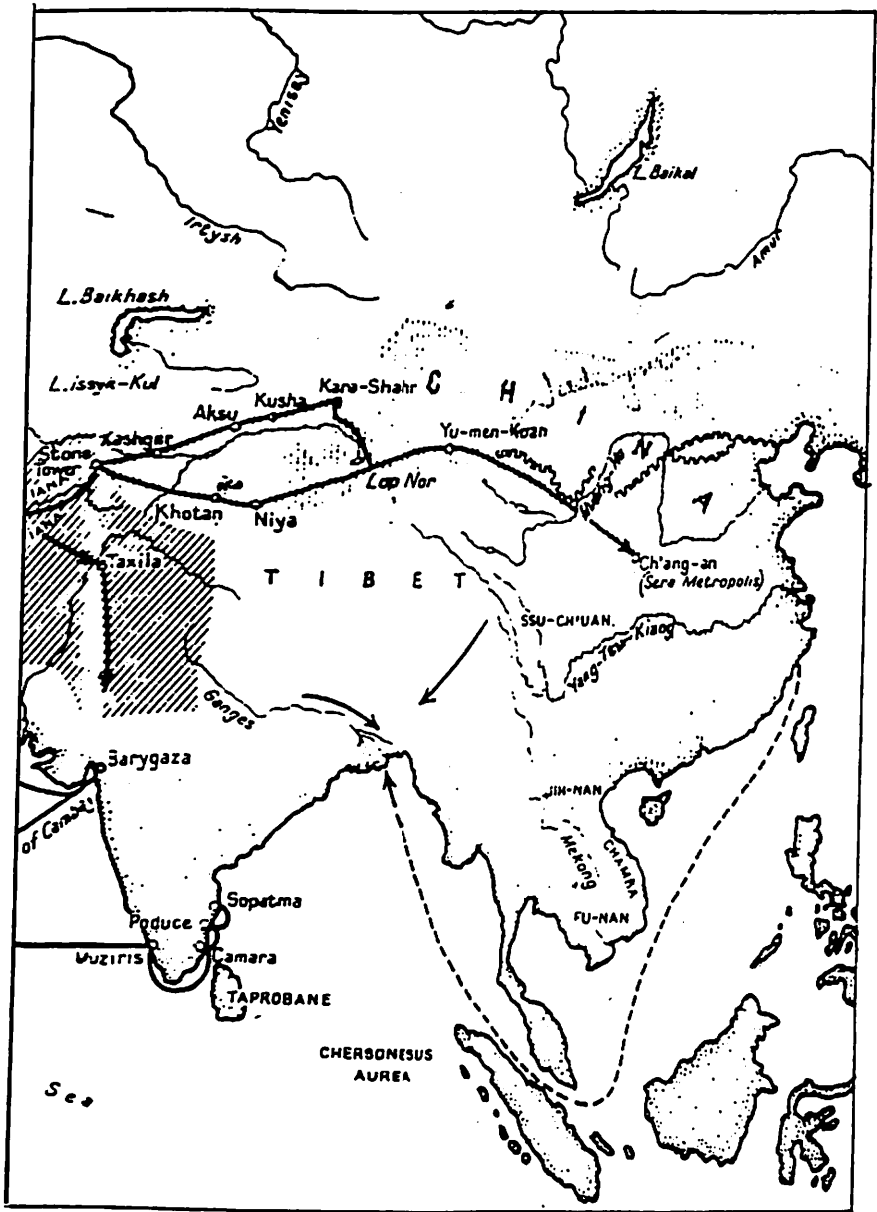
ولنذكر في خاتمة هذا المقال أنّ بلاد الشّام فيها أماكنٌ مقدّسة كثيرة، وأماكن محترمة أكثر. وهذه وتلك كانت تحمل الناس على القدوم الى الشام للزيارة والتبرك. وكثيرون من هؤلاء القوم كانوا يحملون شيئاً من التجارة إليها أوعلى الأقل منها.

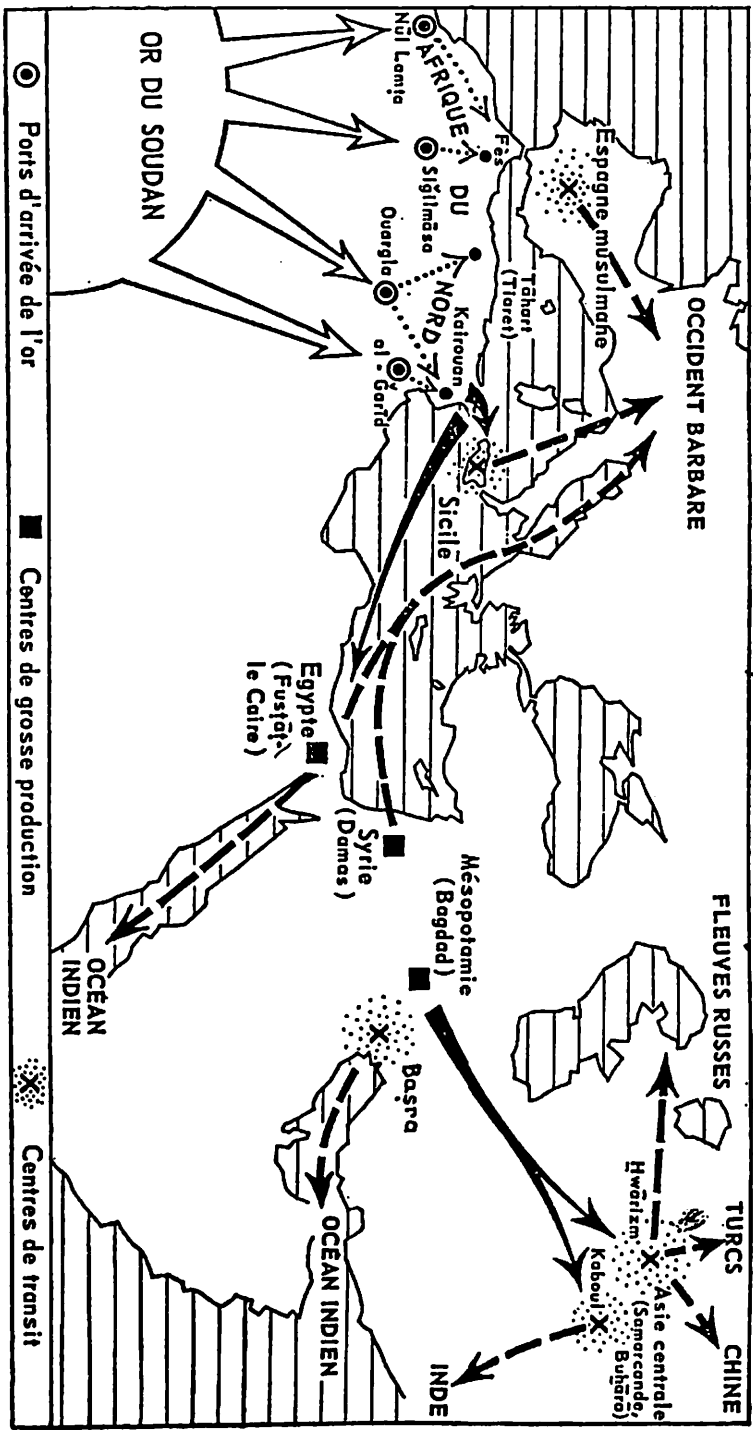
٧٥. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠ - ١٨١.



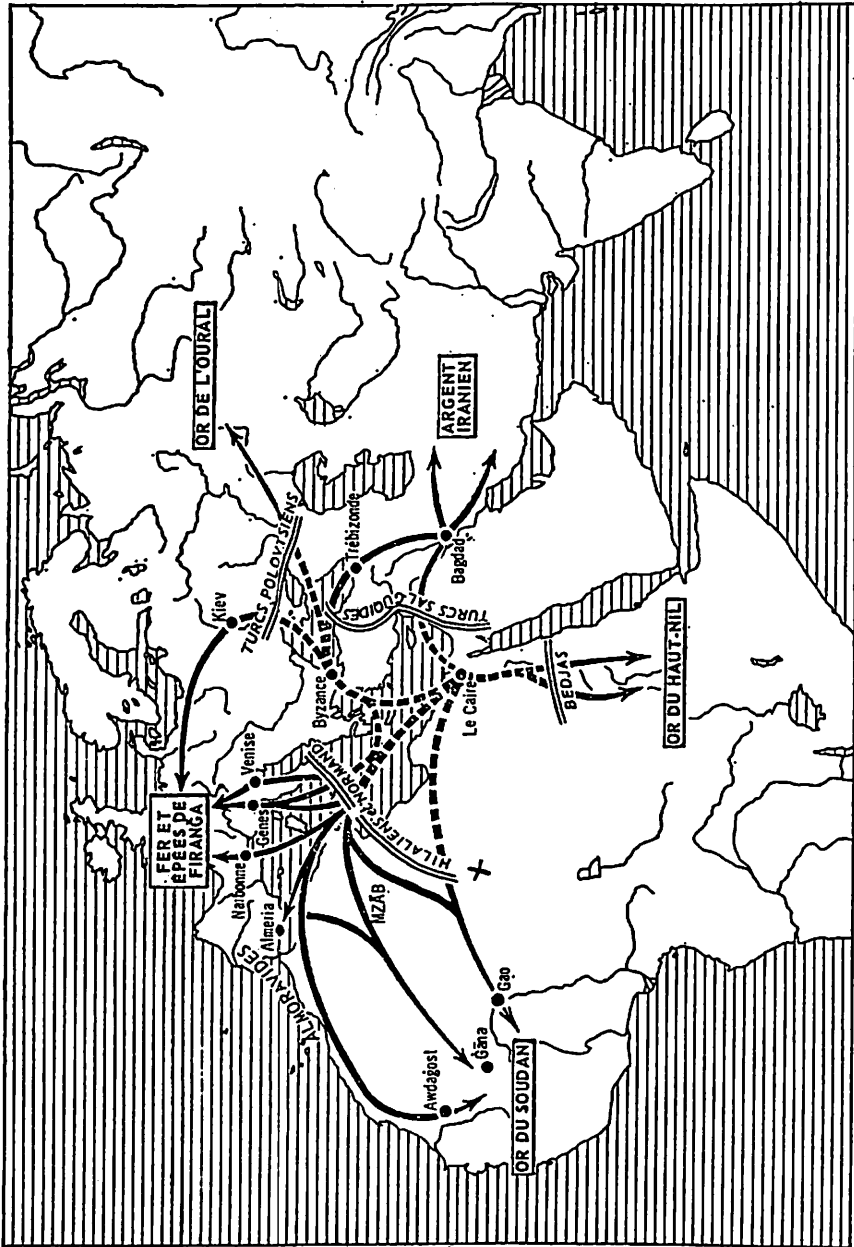


١. طريق الحرير حوالي ١٥٠ م.





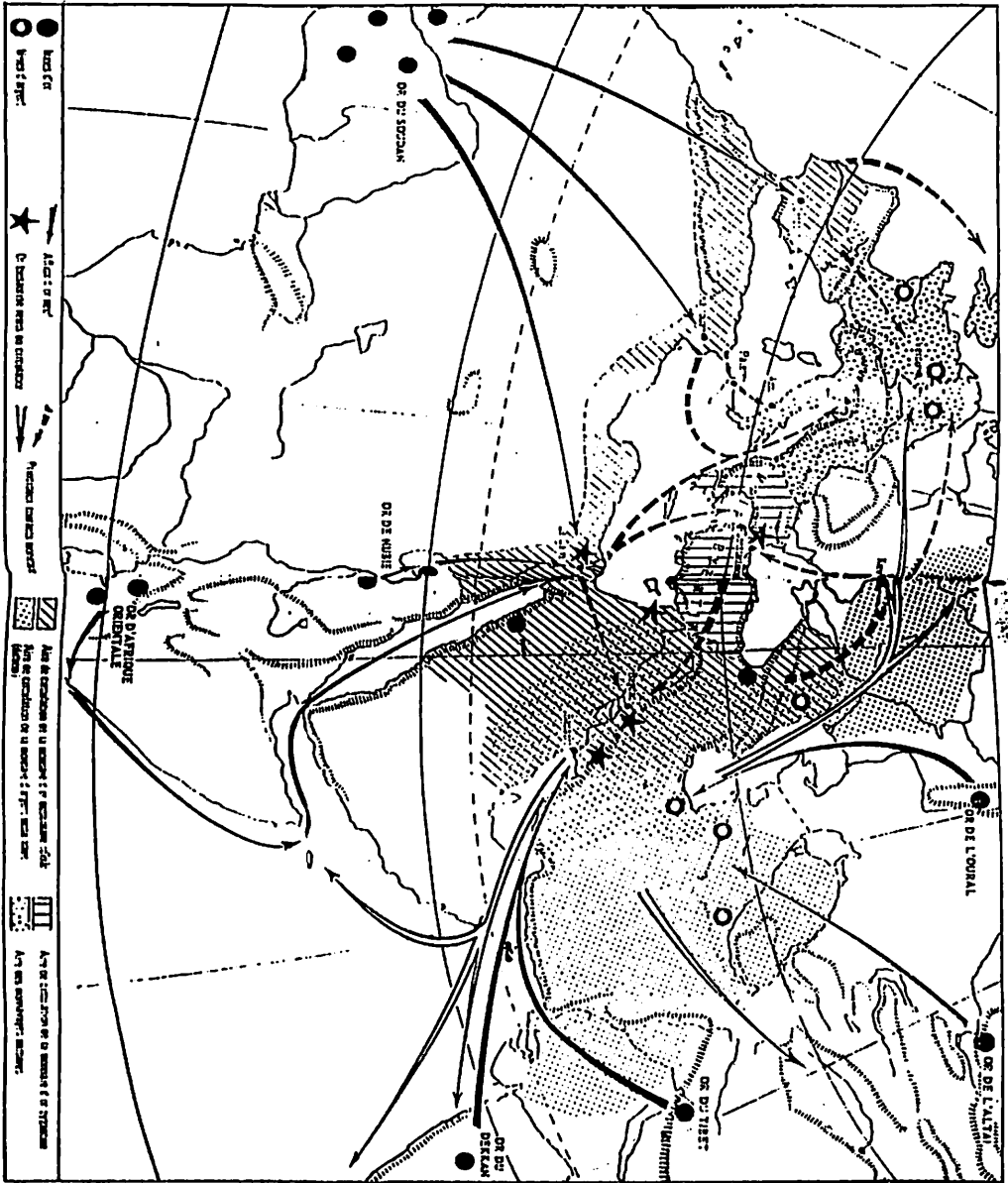
٢. تدفق الذهب على العالم العربي الاسلامي.



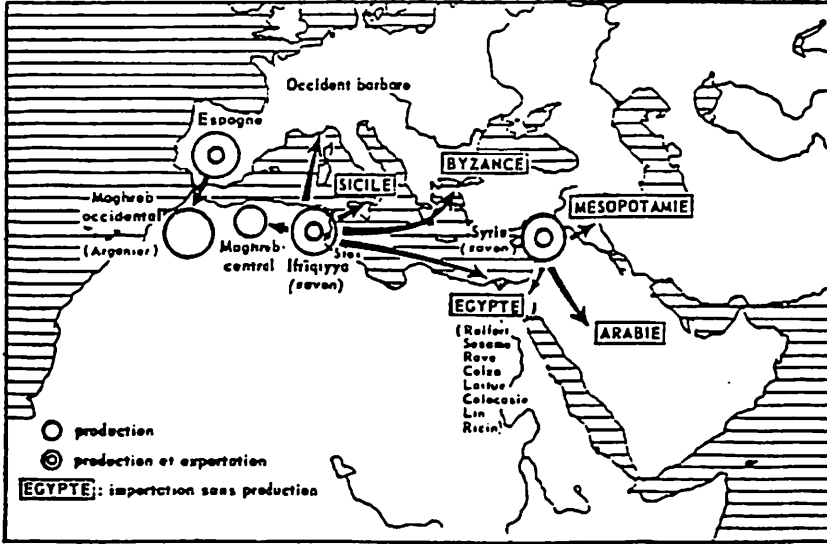
26. LA COUPURE DES ROUTES AU XI<sup>e</sup> SIÈCLE

٣. الغزوة الهلالية تقطع طريق الذهب الى المشرق.

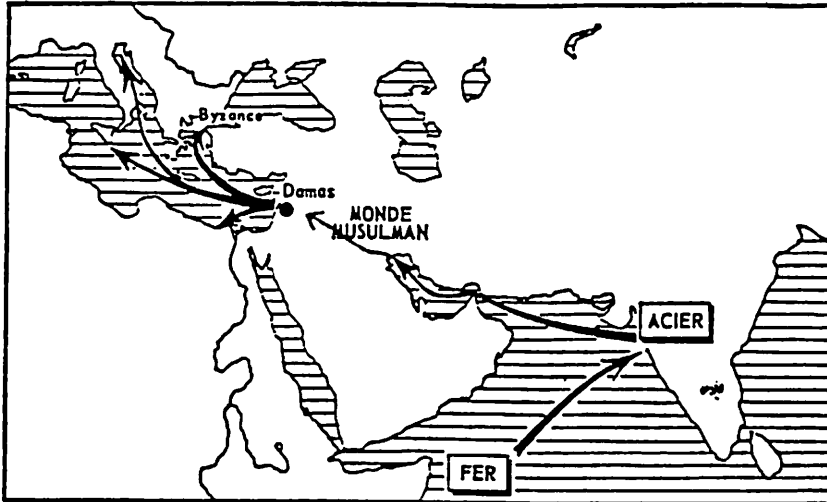
MÉTALX ET CÉRAMIQUES MONÉTAIRES APPLIÉS CONGRÈS NÉOLITHIQUES (VIII<sup>e</sup>-VII<sup>e</sup> SIÈCLES)



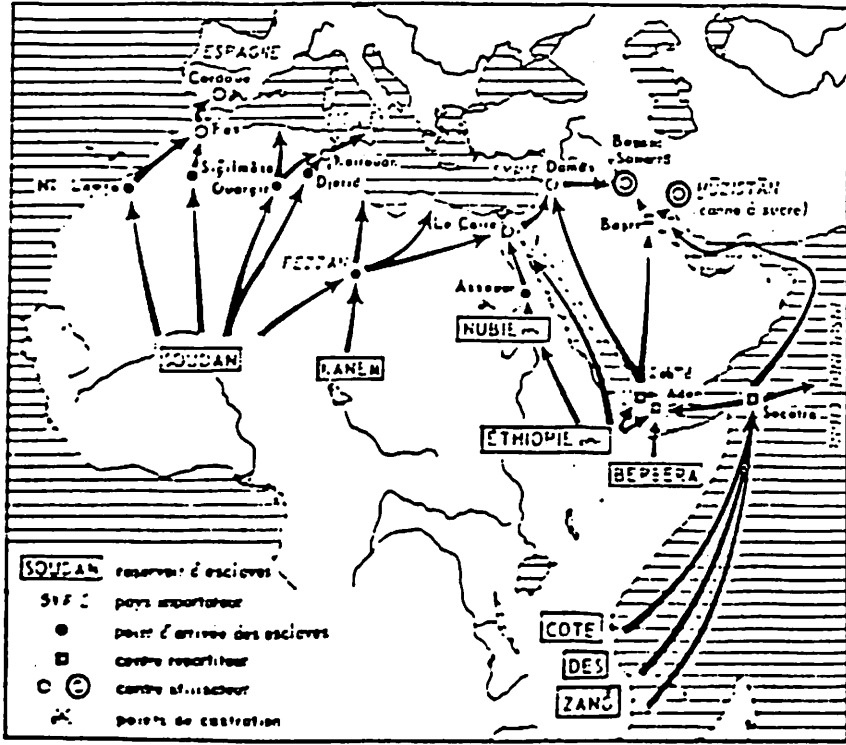
٤ . مناطق النقد المستعمل بين القرنين الثاني والخامس الهجريين / الثامن والحادي عشر الميلاديين.



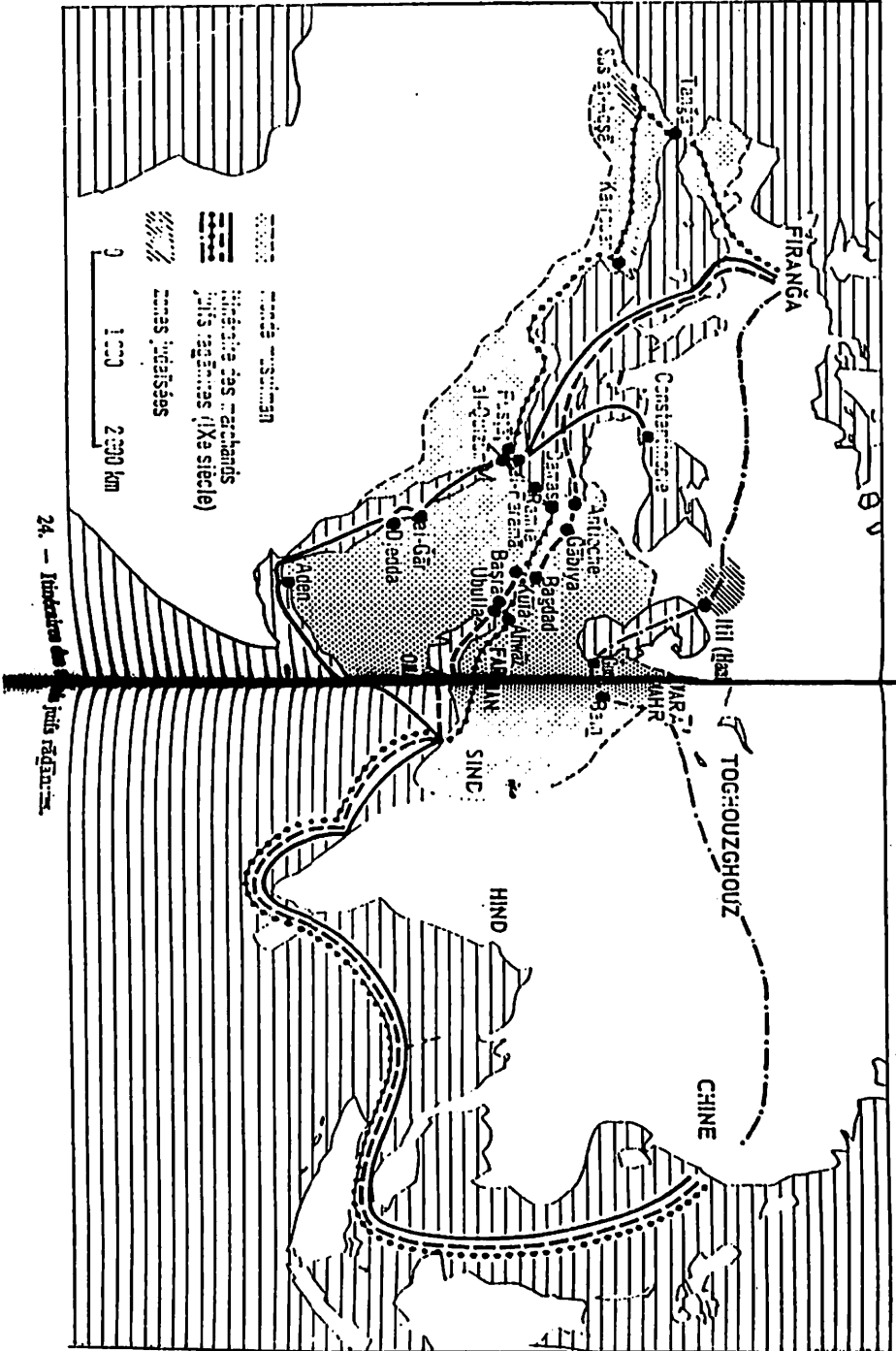
٥. تجارة زيت الزيتون وطرقها في البحر المتوسط (الناطق العربية الاسلامية).



٦. طريق نقل الحديد من شرق افريقية الى الهند (ليصبح فولادا) ثم الى بلاد الشام بطريق الخليج الفارسي.

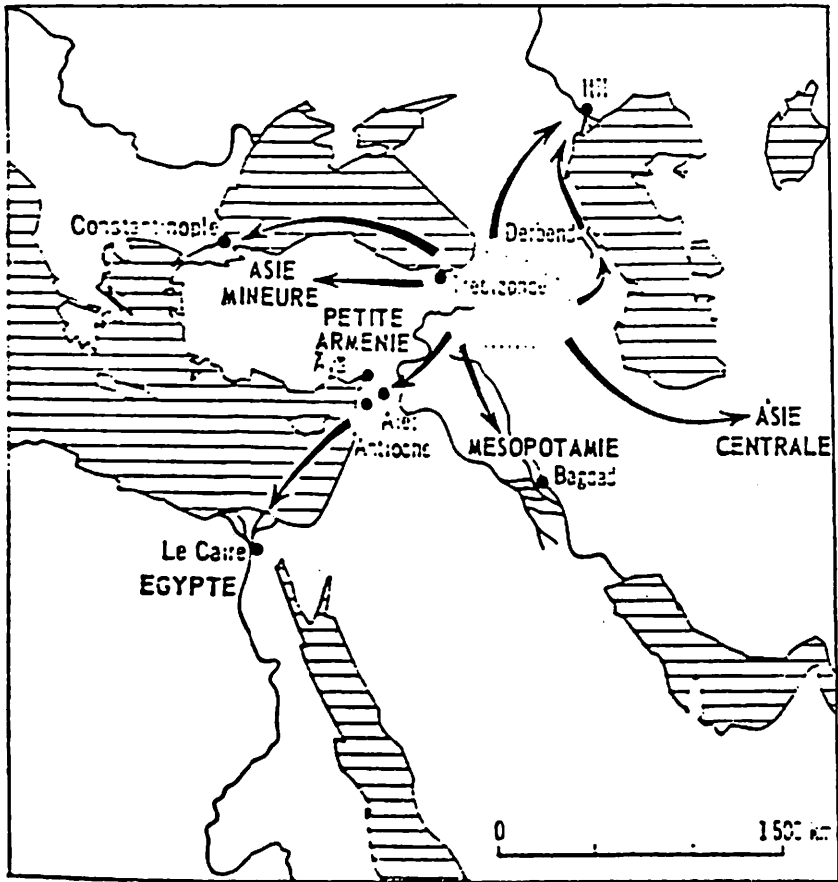


٧. تجارة الرقيق الافريقي وطرقها.

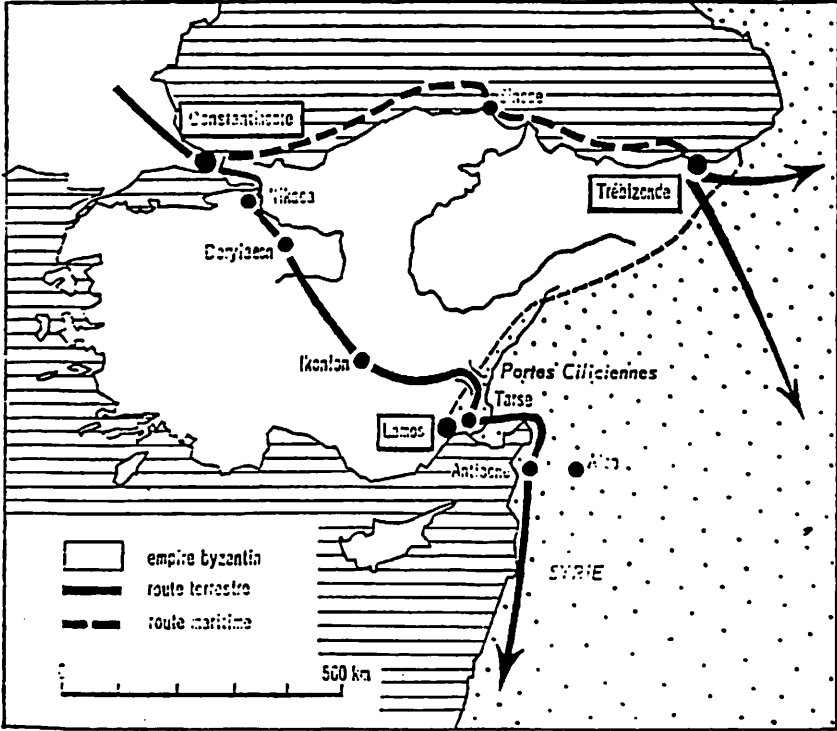


٨ . التجارة الراذانية وطرقهم .





٩. طرق التجارة في أرمنية وعلاقتها ببلاد الشام.



١٠. طرق التجارة مع بيزنطية ومراكزها - يلاحظ ارتباطها ببلاد الشام.

## بعض من ملامح الأوضاع المالية والتجارية في فلسطين في العصر العباسي

نبيه عاقل\*

هذه دراسة لبعض الأوضاع المالية والتجارية في فلسطين خلال القرون الثلاثة الأولى من حكم بني العباس لها. وقد حاولت من خلالها أن استعرض ما وقع لي من معلومات تتعلق بالضرائب والنقد والتجارة في فلسطين في الفترة التي تلت استيلاء بني العباس على السلطة وحتى استقر الأمر لهم في هذه البلاد. والمصادر، كما هو معروف، مقلة في ذكر مثل هذه الأمور، وعلى الباحث أن يتصيد الأخبار التي يستطيع استخلاص المعلومات الاقتصادية منها، وأن يقرأ الكثير الكثير ليستخلص القليل. كما أنه لا بد من التنبيه إلى أن الحديث عن فلسطين وحدها، يمثل صعوبة أخرى لأن أغلب المصادر تتحدث عن بلاد الشام ككل ولا تتحدث عن فلسطين فقط. ولغايات هذه الدراسة أجد ضروريا أن أحدد أمرين: أولهما الفترة الزمنية التي شملها هذه الدراسة، وثانيهما الرقعة الجغرافية التي تمثلها كلمة «فلسطين» في الفترة موضوع الدراسة.

أما في الزمان فهو الفترة التي تمتد من دخول فلسطين كجزء من بلاد الشام في ظل السيادة العباسية أي منذ العام ١٣٢هـ - ٧٤٩م، وحتى نهاية القرن الثالث للهجرة وبدايات القرن الرابع، وهي الفترة التي ترسخ فيها حكم بني العباس على هذه الأرض وغدت مع بقية أقاليم الشام جزءا من كل اقتصادي متكامل، في إطار دولة واحدة هي الدولة العباسية. أما من حيث المكان أو المقصود بـ«فلسطين» فلا بد من التذكير بأنه حين آل أمر الحكم إلى بني العباس لم يغيروا في الوضع الإداري الذي كانت عليه فلسطين قبل صيرورة الخلافة إليهم، وانهم إنما غيروا كلمة «جند» التي كانت تستعمل لتقسيمات بلاد الشام الإدارية زمن بني أمية، إلى كلمة «ولاية»، وأصبحت الرملة مركز ولاية فلسطين، كما أصبحت طبرية مركز ولاية الأردن. وقسمت ولاية فلسطين إلى اثنتي عشرة كورة هي: الرملة، وإيلياء، وعمواس، واللد، وبينه، ويافا، وقيسارية، ونابلس، وسبسطية، وعسقلان، وغزة، وبيت جبرين، ويضم إليها نواحي: زغر، وديار قوم لوط، والشراة، والجبال حتى أيلة<sup>١</sup>. أما الأردن، وكانت أصغر أجناد الشام، فكانت تقسم إلى ثلاث عشرة

\* قسم التاريخ، جامعة دمشق، الجمهورية العربية السورية.

١. الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ٤ ج، دمشق، ١٩٨٤، المجلد الثالث، ص ٢٦٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الموسوعة الفلسطينية.

كورة هي : طبرية، والسامرة، وبيسان، وفحل، وجرش، وبيت راس، وجدرا، وأبل، وسوسية، وصفورية، وعكا، والقدس، وصور<sup>٢</sup>. وسأتناول في هذه الدراسة المعلومات التي توافرت لي في مجالات : الخراج، والنقد، والتجارة .

## أ . الخـراج :

كما أن النظام الإداري لم يطرأ عليه تغيير زمن بني العباس، فكذا النظام الضريبي، فقد ظل من حيث الأسس والقواعد المتبعة في جباية الضرائب وأنواعها، كما كان عليه زمن بني أمية. ويذكر كاتب مادة «العصر العباسي» في القسم العام من الموسوعة الفلسطينية<sup>٣</sup>، أن مقادير الخراج كانت في النصف الأول من العهد العباسي نحو (٤٠٠) ألف دينار سنويا. ولم أعرف المصدر الذي استقى منه الكاتب هذه المعلومات، كما أنني لم أفهم ما قصده بصطلاح «النصف الأول من العهد العباسي»، لأن فترة حكم بني العباس، مقسمة الى عصور كما هو متعارف عليه (العصر العباسي الأول، العصر العباسي الثاني، العصر العباسي الثالث)، ولأن المصادر التي في متناولنا لا تؤكد مثل هذا الرقم. كما أنه لا بد لنا من أن نذكر أن ما هو متعارف عليه اليوم باسم فلسطين، كان يقع في ولايتين هما : الأردن وفلسطين، ولعله من المهم أيضا أن نذكر أنه اذا صح أن النظام الضريبي قد ظل من حيث الأسس والقواعد المتبعة في جباية الضرائب وأنواعها على ما كان عليه في زمن بني أمية، فانه لا يصح أن ندعي أن مقادير الخراج ظلت كما كانت في السابق. وفي مصادرنا شواهد كثيرة على ذلك، لعل أهمها نظام الالتزام الذي اتبع في تعيين الولاة. اذ إنه بمقتضى هذا النظام غدت وظيفة الوالي تعطى لمن يتعهد بدفع مقدار من الضريبة أكبر مما يتعهد به منافسه على المنصب. ومعروف أن العامل كان يتعهد أن يدفع مبلغا معيناً كل سنة الى بيت المال مقابل اطلاق يده في جباية الخراج والجزية وسواها من الضرائب، وأن ينفق ما ينفقه على النحو الذي يشاء. وقد ساد نظام الضمان هذا بشكل واضح في العصر العباسي الثاني عندما ساءت الأوضاع السياسية للسلطة المركزية في بغداد، واستولى على الحكم عناصر حكمت بأسماء الخلفاء، وما تبع ذلك من تدهور في الأوضاع الادارية والاقتصادية. ومؤكد أن نظام ضمان الولايات كان موجودا قبل العصر العباسي الثاني، اذ تولى إبراهيم بن الأغلب ولاية

٢ . المرجع السابق، ص ٢٦٢.

٣ . المرجع السابق، ص ٢٦٣.

أفريقية على سبيل الضمان بأربعين ألف دينار سنوياً<sup>٤</sup>. وما لبثت بعض ولايات الشام أن غدت تضمن بالاسلوب نفسه، ولمن يدفع مبلغاً أكبر. فقد عقدت ولاية فلسطين لنواب كافور بخمسمائة ألف دينار، وكثيراً ما كان كافور يطلب من عماله المال على سبيل القرض وذلك قبل أن يحين موعد الدفع. وكان مقابل ذلك، يسمح لعماله بجباية ما يشاؤون من المال ارضاء لهم، إذ كان يرى أن أولياءه يجب أن يتنعموا لثلاث سنوات قبل العودة إلى الأعداء<sup>٥</sup>.

كما أنه في العديد من المناسبات كان ما يجبي من ضرائب من بعض ولايات الشام لا يصل إلى بيت المال المركزي، بسبب استيلاء الثوار على بيت مال الولاية<sup>٦</sup>، أو بسبب غزوات البيزنطيين للبلاد، الأمر الذي كان يؤدي إلى انهك خزينة الولاية وحرمانها من مواردها. فقد حمل لؤلؤ، مولى ابن طولون، معه إلى بغداد زهاء ثلاثمائة خزانة، وكذا استولى الإمبراطور البيزنطي على ٣٩٠ بكرة دراهم من قصر سيف الدولة عدا ما أخذه من خزائن السلاح ومن البغال<sup>٧</sup>. هذا فضلاً عن التزييف في المصروفات الذي كان يقع في سجلات ديوان الخراج بأن تدفع أرزاق لأشخاص لا يؤدون عملاً أو كأن يحسب بين النفقات أرزاق لأشخاص غير موجودين على قيد الحياة<sup>٨</sup>.

ويؤكد كل ذلك حقيقتين أساسيتين في المجال المالي في العصر العباسي في فلسطين :

- أولهما : عدم ثبات مقدار ما كان يتحصل من مال هذه الولاية .  
 وثانيهما : العسف والجور الذي وقع على دافعي الضرائب نتيجة لسوء تصرف الولاة، من كان منهم قد عين في منصبه على أساس نظام الضمان، أو سواهم ممن كان يعتبر أموال الولاية نهباً له، يتصرف به على النحو الذي يخدم أغراضه الخاصة .

- ٤ . جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ٤ ج، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٢٦م، ج٢، ص٤٦. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : زيدان، تمدن .  
 ٥ . ابن حوقل، محمد بن علي النصيبي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨م، ص١٧٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن حوقل، صورة الأرض .  
 ٦ . في مصادر التاريخ العام نجد العديد من الأمثلة على استيلاء الثوار على ما في بيت المال من أموال، ولا سيما في فترات الاضطرابات والثورات الكبرى. ولسنا نجد ضرورة لضرب الأمثلة على ذلك ولا سيما خلال فترات الصراع بين القرامطة والسلطات المحلية في بلاد الشام .  
 ٧ . ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣ ج، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥١م، ج١، ص٨٠، ١٣٨، ١٣٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن العديم، زبدة حلب .  
 ٨ . جمال الدين سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٠٠. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : سرور، حضارة .

وليس أدل على ذلك من ثورة المبرقع اليماني التي هي ثورة فلاحية. وقد كان في كل قسبة، ومنها قصبات فلسطين، بيت مال يعلق على أعمدة في مسجدتها الجامع، وفيه تكدس الأموال، الأمر الذي سهل على الثوار أو من يقومون بالفتن مهاجمة المسجد والاستيلاء عليها.

والى جانب الضرائب التي كانت تجبى في بلاد الشام عموماً كالخراج والجزية والمكوس وسواها، كانت تجبى ضريبة من الفنادق في بيت المقدس وقد تفردت القدس بهذه الضريبة<sup>٩</sup>.

وقد ثقلت الضرائب على صغار أرباب الضياع، فعملوا على الإفلات من عبثها بأن الجأوا ضياعهم الى الكبراء والأقوياء، فكانوا يسجلونها بأسماء هؤلاء الكبراء لتخفيف عبء الخراج عليها وتغدو أرضاً عشرية، كما هو الحال في الاقطاعات، ولكنها تبقى في أيدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها، وان كانت بأسماء من الجأوا اليهم<sup>١٠</sup>.

ويسبب تعسف بعض الولاة في جمع الضرائب وكثرة الشكاوى التي كانت تتوارد الى الخلفاء حول ذلك، فقد اضطر الخليفة المأمون الى إعادة مسح الأراضي وتعديل الخراج عليها سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م. وقام المتوكل بعده بتعديل آخر سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م. وترك بعض سكان القرى في فلسطين قراهم لثقل الخراج الذي فرض عليها وظلم العمال أيام الرشيد، فلما وعدوا بالتخفيف عنهم عادوا الى أراضيهم. وقد سمي هؤلاء بـ «أصحاب التخفيف». كما وعد بعضهم بأن يرفع الظلم عنهم فعادوا الى قراهم فعرفوا باسم «أصحاب الردود»<sup>١١</sup>.

والذي يصل اليه الناظر في هذا الموضوع بعد أن يستقرىء ما في المصادر على قلة ما فيها من معلومات عن بلاد الشام، وفلسطين منها، هو أن الضرائب بأنواعها كانت تختلف من وقت الى آخر، وذلك حسب الزمان والأحوال. وقد ترك لنا بعض المؤرخين اشارات الى ما كان يحمل من هذه الأموال الى بيت المال في بغداد. ولا بد من أن ننبه قبل ذكر المعلومات التي استطعنا الوصول اليها أن هذه الأرقام لا تمثل واقع ما كان يجبى من ضرائب من ولايتي الأردن وفلسطين، لأنها أرقام، ان صدقت، فهي تمثل ما كانت تتلقاه الخزانة المركزية من

٩ . المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريل، ليدن ١٩٠٦م، ص ١٥٧، ١٨٢، ١٨٩. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.  
١٠ . آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢ ج، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٧م، ج ١، ص ١٩٧. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: متز، حضارة.  
١١ . الموسوعة الفلسطينية، ص ٢٥٨.

هذه الضرائب بعد اقتطاع المصروفات منها في أوقات السلم والأمن، أو ما تبقى مما جبي بعد أن سطت أيدي الغزاة البيزنطيين أو الثوار المحليين على ما في بيوت الأموال المحلية في الولاياتين. ولعل أقدم قائمة وصلتنا من العصر العباسي هي القائمة التي أوردها الجهشيارى والتي يمكن أن يستخلص منها أنه كان يحمل الى بيت المال في بغداد زمن الرشيد ستة وتسعون ألف دينار من الأردن، وثلاثمائة وعشرون ألف دينار من فلسطين، هذا فضلا عن أنه كان يحمل من جميع أجناد الشام ثلاثمائة ألف رطل من الزبيب<sup>١٢</sup>. ويورد قدامة بن جعفر قائمة مطولة يذكر فيها ما كان يرفع من ضرائب من الأقاليم الى مقر الخلافة سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م، وفيها يذكر أن ما كان يرفع من جند الأردن مائة ألف وتسعة آلاف دينار، وما كان يرفع من جند فلسطين مائة وخمسة وتسعون ألف دينار<sup>١٣</sup>. ويلاحظ المرء أن الرقم الذي يقدمه لنا قدامة عن جند فلسطين (١٩٥ ألف دينار) هو أقل بكثير من الرقم الذي يقدمه لنا الجهشيارى (٣٢٠ ألف دينار). وقد يكون سبب انخفاض هذا الرقم هو الاضطرابات والفتن التي نجمت في بلاد الشام خلال الفتنة بين الأمين والمأمون وبعد ذلك، ويصح هذا الانخفاض في عوائد الضرائب على جميع مقاطعات الشام، الأمر الذي يجعلنا نظن أن ذلك راجع الى ثورة نصر بن شبث العقيلي التي قامت سنة ١٩٨هـ/٨١٣م أو الى خروج العديد من مقاطعات الشام عن النفوذ العباسي. ويلاحظ قدامة بن جعفر أن حساب السنوات السابقة على فتنة الأمين والمأمون مفقودة من الدواوين لأن الدواوين أحرقت أثناء الفتنة<sup>١٤</sup>. ويؤدي بنا هذا القول إلى الافتراض بأن الأرقام الواردة في المصادر الأخرى (غير كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر) والمتعلقة بالفترة السابقة لعهد الأمين أما انها وقعت لأصحابها من مصادر غير وثائق الدواوين، أو أنها أرقام تقديرية اعتمدت على الرواية الشفهية، وهذا أمر يقلل من مصداقيتها.

وهناك قائمة أخرى يقدمها لنا ابن خلدون عن الجباية في عهد المأمون، وأغلب الظن أنها تعود للفترة التي تلت الفتنة واستقرار الأمور للمأمون، وفيها يذكر أن ارتفاع الأردن بلغ سبعة وتسعين ألف دينار. وأن ارتفاع فلسطين بلغ ثلاثمائة وعشرة آلاف دينار وثلاثمائة ألف

١٢ . الجهشيارى، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، القاهرة ١٩٣٨م، ص ٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الجهشيارى، الوزراء.

١٣ . قدامة بن جعفر (ت ٣١٩هـ/٩٣١م)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد، ١٩٧٩م، ص ١٧٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : قدامة، صناعة.

١٤ . قدامة، صناعة، ص ١٦٢.

رطل زيت. <sup>١٥</sup>. ومن قراءة مجموع الأرقام التي يقدمها ابن خلدون ويقول انها رفعت من أقاليم الشام عموماً الى حاضرة الخلافة، يلاحظ المرء أن ارتفاع الشام بأجمعه يصل الى مليون ومائتين وسبعة وعشرين ألف دينار. أي أن الجباية زادت على الضعف في الفترة ما بين ٢٠٤هـ (وهي السنة التي يعطينا قدامة بن جعفر الأرقام التي رفعت من بلاد الشام وما قبل سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م) (وهي السنة التي توفي فيها المأمون، وبالتالي تمثل الأرقام التي يعطينا ابن خلدون) <sup>١٦</sup>. ولسنا نملك تفسيراً لذلك الفارق إلا بما نوهنا به من فتن واضطراب في حبل الأمن زمن الفتنة.

وفي عهد الخليفة المعتصم انخفض خراج بلاد الشام عما كان عليه زمن المأمون. ويبدو ذلك بشكل واضح في دمشق التي انخفض خراجها من ٤٢٠ ألف دينار الى ١٥٠ ألف دينار، أي بمقدار الثلث تقريباً، وكذا فلسطين التي انخفض خراجها الى ٢٥٩ ألف دينار. أما في الأردن فقد ارتفع الخراج قليلاً حيث وصل الى ١٠٩ آلاف دينار <sup>١٧</sup>. وفي أواسط القرن الثالث، على ما يذكر المقدسي، بلغت جباية جند الأردن ٣٥٠ ألف دينار وجباية جند فلسطين خمسمائة ألف دينار <sup>١٨</sup>. والملاحظ في قائمة المقدسي هذه، ارتفاع جباية فلسطين الى ما يعادل جباية الشام بكاملها في القائمة التي تعود الى العام ٢٠٤هـ والتي ذكرها قدامة بن جعفر، كما أن جباية الأردن ارتفعت ارتفاعاً لم تبلغه من قبل، إذ تجاوزت ثلاثة أمثال ما جاء في كل القوائم السابقة. ولسنا نعرف مقدار صحة الأرقام الواردة في قائمة المقدسي هذه، ولكنها اذا صحت فإنها تدل على الظلم الفاحش والعسف الذي لحق بدفعي الضرائب من جراء جور الحكام ويطشهم بالناس لاستنزاف جميع موارد أرضهم وسواها مما يملكون لسداد المبالغ التي دفعها الولاة جراء التزامهم الولاية من جهة، ولجمع ما يستطيعون جمعه من أموال لأنفسهم. ويؤكد ظننا هذا أننا لا نعرف مما نجده في المصادر أنه جرى في هذه الفترة أي استصلاح للأراضي، أو زيادة في مساحات الأرض المزروعة، أو حدوث مواسم خصب خارقة للعادة.

وهناك قائمة للجباية تعود للعام ٣٠٦هـ/٩١٨م، وهي قائمة وزير المقتدر علي بن

- ١٥ . ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) مقدمة ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م، ص ١٥١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، مقدمة.
- ١٦ . أنظر: قدامة، صناعة، ص ١٧٨، وقارنه بما ورد عند ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥١.
- ١٧ . قدامة، صناعة، ص ١٨٤.
- ١٨ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٩.



عيسى . والملاحظ أن تبويب واردات بيت المال في هذه القائمة جاء مختلفا عما كان عليه في القوائم السابقة، الأمر الذي أدى الى ادخال نظام محاسبي جديد في الديوان المركزي لبيت المال . فحين تذكر جباية المشرق يذكر رقمين لكل بلد : يكتب أمام الأول أنه للخراج وأمام الثاني أنه للضياع . أما الأرقام التي ذكرت عن جباية المغرب، بما فيها بلاد الشام، فقد ذكر الرقم الأول وكتب أمامه كلمة «مال»، ثم ذكر الرقم الثاني مسبوqa بحرف « و » ثم أعطي مجموع الرقمين، وقد يكون المقصود بـ « و » هذه، ما جاء في القوائم المتعلقة بالمشرق، أي «الضياع» . وقد ورد في هذه القائمة ما يلي بالنسبة للأردن وفلسطين :<sup>١٩</sup>

جند فلسطين : ٨٠٧٥٠ مال و ٢٣٠٦٤٧ = ٣١١٣٩٧ .

جند الأردن : ٤٠٤٦٠ مال و ١٠٢٠٦٢ = ١٤٢٥٢٢ .

وقد يكون المقصود بهذه الأرقام، أن الرقم الأول يمثل ما كان يدفع نقدا وأن الرقم الثاني، يمثل قيمة ما كان يدفع عينا من أرزاق، وأن كنا لانملك برهانا على هذا الادعاء .

ويصعب تقدير خراج بلاد الشام في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وأغلب الظن أنه لم يكن ثابتا، فقد احتل البيزنطيون سواحل الشام شمال طرابلس، كما استولوا على بعض الثغور، الأمر الذي أدى الى عدم معرفة ما كان يجبي منها بدقة . يضاف الى ذلك أن بلاد الشام في هذه الفترة كانت تعيش فترة اضطراب سياسي، وتتنوع الحكم فيها دويلات واسر وقبائل شتى تتنازع على السيطرة عليها، على النحو الذي شرحنا بعضه في الجزء السياسي من هذه الدراسة . ويقدر ابن حوقل خراج الشام بعد دفع أرزاق العمال بتسعة وثلاثين مليون درهم<sup>٢٠</sup> . واذا اعتبرنا أن الدينار كان يساوي خمسة عشر درهما كان خراج الشام، حسبما جاء عند ابن حوقل، يعادل مليونين وستين ألف دينار، وهو رقم كبير بالنسبة لما ورد في القوائم السابقة .

ويقدم لنا المقدسي قائمة أخرى عن خراج الشام، لا نعرف تاريخها بالتحديد، ذكر فيها أن جباية فلسطين بلغت ٢٥٩ ألف دينار، وجباية الأردن ١٧٠ ألف دينار، وهي أرقام تقارب الأرقام الواردة في قوائم سابقة<sup>٢١</sup> .

١٩ . زيدان، تمدن، ج ٢، ص ١٠٧-١١١ .

٢٠ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

٢١ . وجدت ذكرا لهذه القائمة عند، أمينة بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠، ص ٣٢٦، دون أن تحدد رقم الصفحة التي نقلتها عنها . وقد بحثت في كتاب المقدسي، فلم أجد الصفحة التي وردت فيها هذه المعلومات . وقد أثبتتها على مسؤولية المؤلفة لأن الأرقام الواردة فيها مقبولة، وقد تكون صحيحة، وقد يكون سبب عدم عثوري عليها هو اختلاف =

ان دراسة متأنية للمعلومات التي تمدنا بها قوائم الدواوين أو المعلومات المنقولة عنها خلال الفترة موضع الدراسة توضح لنا الأمور التالية :

- ١ . ان الجباية كانت تتدهور خلال فترات الاضطرابات والثورات .
  - ٢ . ان جباية فلسطين والأردن زادت بشكل ملحوظ في أواسط القرن الثالث للهجرة ، وقد تكون هذه الزيادة في الضرائب التي فرضت على المزارعين هي من جملة الأسباب التي حدثت بالمربقع البياني القيام بثورته في فلسطين ، هذه الثورة التي استقطبت عددا من الفلاحين .
  - ٣ . ان الزيادة غير المقبولة في جباية فلسطين والأردن في أواسط القرن الثالث ، أو حتى ثبات مقاديرها في الفترات التالية ، هي دليل على أساليب القهر والعنف التي اتبعتها الولاة والحكام في جباية الضرائب سدادا لالتزامهم من جهة ، وتحقيقا لربح مادي شخصي على حساب الفلاحين وصغار الملاك ، من جهة أخرى ، وذلك أمر استجد في مجال الجباية الضريبية في العصر العباسي ، ولم يكن معروفا زمن خلافة بني أمية .
- ب . النقود :

في مجال الحديث عن النقود لا بد من التذكير بداية بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الاسلام ، وقد اختلف الباحثون في السنة التي ضربت فيها النقود العربية ، فجعلها بعضهم في العام ٧٤هـ أو ٧٥هـ وأغلب الظن أن ذلك كان سنة ٧٦هـ / ٦٩٥م<sup>٢٢</sup> . وقد سميت الدنانير التي ضربها عبد الملك بالدمشقية وجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا الاحبة بالشامي ، وكتب الى الحجاج بن يوسف أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطا من قراريط الدينار<sup>٢٣</sup> . ويذكر سمير شما أن

= الطبعات المستعملة من قبلها وقبلي .

٢٢ . الدينوري ، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ٣١٦ . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الدينوري ، الأخبار ؛ ابن قتيبة ، أبو عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) ، المعارف ، تحقيق وتقديم ثروت عكاشة ، القاهرة ، ١٩٦٠ . ص ٢٤١ . الخ . وانظر أيضا قدامة بن جعفر ، ص ٥٩ ، الذي يقول ان النفود ضربت في العام ٧٥هـ . وانظر أيضاً ما جاء حول هذا الموضوع في بحث سمير شما ، المقدم الى الندوة العالمية الأولى للأثار الفلسطينية ، ونشر في وقائع الندوة ، في الكتاب العنون : «دراسات في تاريخ وآثار فلسطين» ، مطبعة جامعة حلب ، حلب ، ١٩٨٤ . وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : شما ، دراسات .

٢٣ . البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) فتوح البلدان ، بيروت ، د . ت ، ص ١٠ . وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البلاذري ، فتوح . المقرئزي ، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) =

عبد الملك أصدر دينارا عربيا عام ٧٤هـ «عليه صورة ترمز الى الخليفة واقفا يهيم باستلال سيفه من غمده رمزا للقوة والتحدي لامبراطور القسطنطينية الذي كان طامعا باسترداد مدن الشام»<sup>٢٤</sup>.

ولم أجد ما يخالف هذه التواريخ لبدء عملية تعريب النقد، الا ما جاء في حوليات الآثار الأردنية التي تذكر أنه عثر بقضاء نابلس من فلسطين على مجموعة من الدينار الأموية ظهر أن بعضها أقدم من ذلك وتعتبر أقدم عملة عربية خالصة وجدت حتى الآن، وأنها سكت سنة ٧٣هـ وهي من عهد عبد الملك أيضاً<sup>٢٥</sup>. وبذلك يمكن القول أن عملية تعريب النقود بدأت في العام ٧٣هـ/٦٩٢ م.

ويمكن القول أيضا أن النقود التي ضربت زمن عبد الملك وبعده تتميز بخلوها التام من الاشارات المسيحية. وقد كانت من الذهب والنحاس، أما الفضة فليس منها الا نماذج نادرة جدا مغطاة بالفضة<sup>٢٦</sup>.

وفي العصر العباسي ظلت النقود المتداولة في جنوبي بلاد الشام تسك في دور الضرب فيها، ولكنها غدت تحمل اسم الخليفة العباسي فقط عوضا عن الخلفاء الأمويين. وظلت الحال كذلك حتى نهاية خلافة الرشيد، حين غدت النقود تحمل اسم الخليفة أو أسماء بعض من ولي الشام أو فلسطين من ولاية وأمرء و نواد.

وفي خلافة الرشيد حدثت عصبية بالشام بين أهلها وتفاقت الأمور فيها فعقد لجعفر ابن يحيى على الشام. وجاء جعفر ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال، وأسكن الفتنة وأطفأ النائرة، فازداد اكرام الرشيد له<sup>٢٧</sup>. «وقد ظهر فلس من ضرب مدينة الرملة عليه اسم

٢٤ = النقود القديمة الاسلامية، تحقيق و اضافات عماد السيد علي محمد بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٧. ص ٣٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : المقريري، نقود.

٢٤. شبا، دراسات، ص ٢٦٠.

٢٥. حول ذلك انظر : حولية دائرة الآثار العامة، عمان، ع ٦، ٧ (١٩٦٢م)، ص ٧٦-٧٩.

٢٦. محمد الخولي، «نقش السكة على النقود الفلسطينية في صدر الاسلام والعهد الأموي»، بحث منشور في وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب، حلب، ١٩٨٤، ص ٢٧٤. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : الخولي، «نقود فلسطينية».

٢٧. انظر : تفاصيل أوفى حول هذا الموضوع في، الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ج ٨، ص ٢٦٢.

جعفر، نشره الاستاذ عبد الرحمن فهمي بموسوعته تحت رقم ٢٧٤٣ ولكن سنة الضرب عليه مطموسة»<sup>٢٨</sup> . كذلك ظهر فلس من ضرب طبرية ضرب عام ١٨١هـ/٧٩٧م وعليه اسم الخليفة هارون الرشيد . وأغلب الظن أن هذين الفلسين إنما ضربا بفلسطين تخليداً لذكرى إيقاف الفتنة التي قامت فيها على يد جعفر بن يحيى وزير الرشيد<sup>٢٩</sup> .

وعندما أجرى المأمون في العام ٢١٦هـ/٨٣١م إصلاحات في قبة الصخرة ببيت المقدس أصدر نقدا ضرب في القدس، وذلك في العام ٢١٧هـ/٨٣٢م . وهذا النقد هو النقد الوحيد الذي يحمل كلمة القدس، وهو موجود في متحف القدس . كما أصدر في السنة نفسها نقدا في كل من الرملة وغزة وعكا<sup>٣٠</sup> .

ومن الأمثلة على النقود التي كانت تحمل اسم الخليفة وأسماء الولاة الذين كانوا يحكمون الشام أو فلسطين، دينار ظهر لأول مرة في عهد ابن طولون يحمل اسم الوالي المحلي مع الخليفة . ففي سنة ٢٦٦هـ/٨٧٩م ضربت الدنانير التي تعرف بالأحمدية، وعليها اسم أحمد بن طولون مع اسم الخليفة . وكان عيارها جيدا . وفي المتاحف نماذج كثيرة منها . وقد ضرب في فلسطين من تلك النماذج نيف وثلاثون دينارا<sup>٣١</sup> . ومعروف أن الطولونيين أصدروا نقدا ذهبيا يعد بعشرات الملايين من الدنانير وبعض النقد الفضي، وقليلاً من الفلوس النحاسية، وأكثر الذي ضربوه في مصر وفلسطين<sup>٣٢</sup> .

وبعد ان استرد الخليفة المكتفي فلسطين على يد قائده محمد بن سليمان، وقضى على الدولة الطولونية ودخل الفسطاط في العام ٢٩٢هـ/٩٠٤م، وعادت بلاد الشام ومصر الى حظيرة الخلافة العباسية، حمل محمد بن سليمان معه الى الخليفة ما بلغ نحواً من مليوني دينار طولوني . وقد تتبع العباسيون الدنانير الطولونية وسحبوها من التداول وأعادوا ضربها من جديد . الا أن محمد بن سليمان قبل أن يعود الى بغداد ضرب دينارا عباسيا صرفاً في الرملة عاصمة فلسطين عام ٢٩١هـ / ٩٠٤م فور استيلائه عليها . ويذكر سمير شيا أن نسخة من هذا الدينار موجودة في روسيا، وأنه شخصياً يملك دينارا ضرب في الرملة في السنة التالية ٢٩٢هـ / ٩٠٤م، ويقدم لنا وصفه<sup>٣٣</sup> . واستمرت دار الضرب في الرملة بعد الطولونيين

٢٨ . شيا، «دراسات»، ص ٢٦١، والموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، ص ٢٦٣ .

٢٩ . شيا، «دراسات»، ص ٢٦١ - ٢٦٣ .

٣٠ . المرجع السابق، ص ٢٦٢ .

٣١ . الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، ص ٢٦٣ .

٣٢ . شيا، «دراسات»، ص ٢٦٣ .

٣٣ . المرجع السابق، ص ٢٦٣ .

تسك الدنانير ولكن باسم الخليفة فقط، وثمة منها في المتاحف مجموعة ضربت في الرملة ما بين سنتي ٢٩٥ - ٣١٢هـ / ٩٠٧ - ٩٢٤م، وعليها اسم الخليفة المقتدر على وجه واسم ولي عهده على الوجه الآخر، وكانت هناك دور ضرب في مدن فلسطينية أخرى : كأيلة وإيليا وبيت جبرين وطبرية وصفورية وعسقلان وعكا وقيسارية وبيني<sup>٣٤</sup>. وقد استمر ضرب الدنانير في طبرية والرملة أثناء العهد الأخشيدي. ومن نهاذجها دنانير ضربت سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٦م<sup>٣٥</sup>. ويلاحظ أن الدنانير التي ضربها الإخشيد سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م كان عليها اسمه وحده فقط، وذلك أثناء خصومته مع الخليفة وابن رائق، ولكنه عاد بعد ذلك وأثبت اسم الخليفة في الدنانير الجديدة التي ضربها، وكذلك فعل ابنه أنوجور<sup>٣٦</sup>. ويبدو أن عيار الدنانير التي ضربت زمن الأخشيديين لم يكن ثابتا، وأن الدنانير التي ضربت في السنوات الأخيرة من حكمهم كانت أقل عيارا من الدنانير التي ضربت قبلا، وقد يكون سبب ذلك الضائقة المالية التي سادت اقتصاد البلاد في أخريات حكمهم<sup>٣٧</sup>.

ويذكر كاتب مادة «العصر العباسي» في الموسوعة الفلسطينية أنه «لم يعثر على دراهم تحمل اسم فلسطين (الرملة) قبل سنة ٢٩٣هـ وهي سنة سقوط الطولونيين. أما الفلوس النحاسية فالنماذج الباقية منها تكشف عن أنها ضربت في الرملة زمن الرشيد<sup>٣٨</sup>. ولا أعرف المصدر الذي اعتمده الكاتب في ادعائه هذا، ولكن واقع الحال يختلف عن ذلك كثيرا. فقد نشر الأستاذ محمد الخولي بحثا في موضوع «نقش السكة على النقود الفلسطينية في صدر الاسلام والعهد الأموي» يتضمن استعراضا للسكات الفلسطينية التي اشتهرت خلال العصر الأموي، ويتضمن هذا الاستعراض المصنف وفق الترتيب الهجائي وصفا مفصلا لكل أنواع العملات التي وجدت في فلسطين منذ ما قبل الفتح العربي وخلال حكم الراشدين والأمويين. ويشتمل هذا الوصف على : النموذج، والوجه، والخلف، والقطر، وعدد النماذج المتوافرة منه، ومكان حفظها، والمصدر الذي استقى منه معلوماته<sup>٣٩</sup>. وفي مجال حديثه عن سكات الرملة يقول : «تعتبر سكات الرملة من السكات الفلسطينية الشائعة.

٣٤ . أنظر : الخولي، «نقود فلسطينية»، ص ٢٧٧ وما بعدها.

٣٥ . أنظر :

Walker, John, A Catalogue of Muhammadan Coins in the British Museum, Arab-Byzantine and Post Reform Umayyad Coins, Vol. II, London, 1956, p. 195-197.

٣٦ . الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، ص ٢٦٣.

٣٧ . المرجع السابق، ص ٢٦٣.

٣٨ . المرجع السابق، ص ٢٦٣.

٣٩ . أنظر : الخولي، «نقود فلسطينية»، ص ٢٧٧ - ٢٨٨.

ويكفي لأخذ فكرة عن وفرة سكات هذه المدينة أن نعلم أن ووكر نشر حوالي ٣٦ فلساً، بالإضافة الى ما نشره لافوا وما نشره الاستاذ سميّر شيا مؤخرًا<sup>٤٠</sup>. وهذا، ولا شك، يدحض الادعاء بأنه لم يعثر على دراهم تحمل اسم الرملة قبل سنة ٢٩٣هـ / ٩٠٥م، ويؤكد عكسه تماماً.

كما ان ادعاء الكاتب نفسه بأن «الفاطميين بعد حكمهم الشام جمعوا الفلوس وأعادوا ضربها باسمهم». وهذا ما يعلل به الباحثون عدم العثور على أي فلس مضروب في الرملة أو طبرية أو عكا أو غزة أو غيرها بعد سنة ٢١٧هـ، أيام المأمون<sup>٤١</sup>، ادعاء غير صحيح اذ يذكر الأستاذ سميّر شيا معلومات قاطعة تدحض هذا الادعاء، فهو يقول إن سيف الدولة الحمداني دخل فلسطين «وضرب فيها درهما عام ٣٣٥هـ ذكر عليه الضرب (فلسطين) توجد منه قطعة في متحف القدس وأخرى في السويد». كما يذكر أن القرامطة الذين استولوا على فلسطين لمدد قصيرة قد «ضربوا في فلسطين ديناراً عام ٣٥٧هـ، كما ضربوا درهما فضياً عام ٣٥٨هـ وبقوا في فلسطين من عام ٣٦٠هـ الى عام ٣٦٣هـ فضربوا فيها دنانير في الأعوام ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٢هـ. ثم عادوا الى فلسطين وضربوا فيها دنانير في الأعوام ٣٦٥ و ٣٦٦ و ٣٦٧هـ. وكذلك فعل الفتكين القائد التركي أمير دمشق الذي انحاز الى معز الدولة بن بويه في بغداد ضد الفاطميين، فضرب ديناراً عباسياً في فلسطين عام ٣٦٧هـ ذكر عليه اسم معز الدولة البويهى<sup>٤٢</sup>. فاذا صح أن الفاطميين حرصوا بعد حكمهم الشام على جمع الفلوس واعادة ضربها باسمهم، فانه من الأولى أن يكونوا قد حرصوا على جمع الدنانير والدراهم، وهذا الذي يذكره الاستاذ شيا يدحض هذه المقولة ويؤكد وجود عملات فلسطينية متنوعة تعود الى الفترة التي سبقت الحكم الفاطمي ما تزال محفوظة في المتاحف والمجموعات الخاصة.

#### ج . التجارة :

لا نجد في مصادرنا ما يفيد بشيء حول موضوع التجارة في فلسطين في العصر الأموي، ويبدو أن سكوت المصادر عن هذا الأمر مرده الى عدم وجود نشاط تجاري واسع في هذا العصر في بلاد الشام عامة من جهة، والى اهتمام المصادر التي كتب معظمها في العصر العباسي، بالأمور السياسية زمن بني أمية أكثر من اهتمامها بما سواها من أمور، من

٤٠ . المرجع السابق، ص ٢٧٩ .

٤١ . الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، ص ٢٦٣ .

٤٢ . شيا، «دراسات»، ص ٢٦٥ .

جهة أخرى. ويعلل آدم متر عدم ازدهار التجارة زمن الأمويين بقوله : «وكان الأمويون أيضا لا ينظرون للتاجر بعين التقدير. . . لأنهم كانوا جيلا من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع، حتى لانجد لطبقة التجار شأنا في تاريخهم»<sup>٤٣</sup>. ويبدو أن القرن الثالث الهجري شهد انقلابا كبيرا في هذا المجال حتى غدا التاجر الغني هو ممثل الحضارة الاسلامية. وعندنا أن هذا أمر طبيعي، لأن الحضارة الاسلامية غدت في هذه الفترة كثيرة المطالب المادية، وليس سهلا أن تتوافر هذه المطالب في مكان واحد، فكان لا بد أن تلعب التجارة دورها في تأمين مواد الرفاه التي كثر الطلب عليها، وتزايد بمرور الأيام، ولم يحل القرن الرابع للهجرة حتى غدت التجارة مظهرا أساسيا من مظاهر أبهة الدولة الاسلامية، وصارت هي السيدة في بلادها، وأخذت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، واحتلت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية وغدت بغداد والاسكندرية هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر، ولا سيما في البضائع الكالية<sup>٤٤</sup>. وقد وصل الأمر الى حد أن بعض التجار الشاميين كانوا منذ القرن الرابع وحتى العصور الوسطى يستوطنون حوض نهر الرون<sup>٤٥</sup>.

وقبل الدخول في التفاصيل القليلة التي تسعفنا بها مصادرنا حول التجارة في بلاد الشام عموما، لا بد أن نذكر بأن هذه البلاد ومصر أصيبت منذ أوائل القرن الثاني للهجرة بانحطاط اقتصادي بسبب المنازعات الداخلية والاضطرابات الدموية التي عاشتها دولة الأمويين في أخريات أيامها والتي أدت بالتالي الى سقوطها. وقد ازداد هذا التدهور الاقتصادي وضوحا بعد تحطم الأسطول العربي على يد الروم سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، وما أعقبه من انهيار الدولة الأموية في الشام في العام ١٣٢هـ/٧٤٩م، وإهمال العباسيين المتعمد لشؤون هذه البلاد، وبرز الفتن القبلية والاقليمية فيها، وانقطاع موارد العطاء ورزق الجند وسوى ذلك من دخل الأرض وريع الزكاة والصدقات. وكما قلنا آنفاً، فإن تحسن الأوضاع الاقتصادية لم تظهر بوادره الا في القرن الثالث للهجرة. وتحتاج التجارة في ازدهارها ونشاطها - كما هو معروف - الى توافر عناصر عدة أهمها : إنتشار الأمن، وسهولة الانتقال من بلد الى بلد، وتوافر الحماية لأموال التجار وبضائعهم، الى جانب وجود أسواق تجارية لها متطلباتها

٤٣ . مترز، حضارة، ج ٢، ص ٣٦٤ .

٤٤ . المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٥ .

٤٥ . المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٦ .

من البضائع ومواد الرفاه. ولو أردنا أن نطبق هذه المقاييس على بلاد الشام قبل القرن الثالث لوجدنا أن هذه البلاد، كانت في معظم هذه الفترة لا تخضع في حكمها لوال واحد، بل كانت توزع ولايتها على حكام متعددين، فلكل جند وال مستقل عن الآخر تمام الاستقلال. وهذا مما يعيق العملية التجارية دونما شك، لأن التجار كانوا يضطرون لدفع مكوس عند انتقالهم من جند إلى آخر. وما يؤيد ذلك ما يذكره المقدسي عن بيت المقدس، إذ يذكر أنه كانت تفرض في هذه المدينة مكوس ثقيلة على البضائع، فضلا عن إجراءات أخرى كانت تتخذ وتؤدي إلى تقييد حرية التجارة. فقد كان على أبوابها وعلى ما يتناح بها رجال كانت وظيفتهم أن لا يدعوا أحدا يحمل بضاعة تنفع الناس الا ويجبرونه على بيعها فيها.<sup>٤٦</sup> كما فرض في الشام ضرائب حماية على كل من يملك مركبا، وكان الذي يأتي من ذلك يعادل ما يأتي من خراج الأرض.<sup>٤٧</sup> الأمر الذي يدل على ضخامة عدد الذين كانوا يملكون المراكب في هذه البلاد. ثم إن بلاد الشام في الفترة السابقة كانت مضطربة سياسيا، كما ذكرنا الأمر الذي أدى إلى انتشار الفوضى وسيطرة قطاع الطرق والأعراب على طرق القوافل، وما يستتبع ذلك من عمليات سلب ونهب. واضطر التجار بنتيجة هذا الوضع أن يسلكوا طرقا أخرى غير الطريق المارة ببلاد الشام لسلامة بضائعهم، كما اضطروا لاستئجار حرس لحماية قوافلهم من الاعتداءات، ولعقد اتفاقات أمن مع القبائل التي تسكن الطريق التي تمر بها هذه القوافل ودفع أتاوات لها مقابل عدم اعتدائها على ممتلكاتهم، والا هلك ما لهم ورجالهم<sup>٤٨</sup>، وكثيرا ما كانت تصادر أموال التجار من قبل السلطة الحاكمة. فقد عرف عن الأخشيد مصادرتهم للتجار الأغنياء، كما كان سيف الدولة وابنه من بعده يصادرون أموال التجار وبضائعهم. وإذا عزفوا عن مصادرة الأموال كان الحمدانيون يلجأون إلى احتكار بعض البضائع طلبا للربح، فكانوا يحتكرون بعض المنتجات الصناعية المحلية ويقومون بتسويقها لحسابهم كالصابون والخل وغير ذلك<sup>٤٩</sup>.

على أن كل ذلك، لم يمنع من استمرار التجارة الشامية، بسبب موقع الشام التجاري، وكونها مصدرا من مصادر الثروة الزراعية والصناعية، كما أن بلاد الشام الجنوبية ومصر، استفادت من ثورات العراق وفتنه في القرن الثالث (كثورات الزط والزنج،

٤٦ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٧ .

٤٧ . متر، حضارة، ج ١، ص ٢٢٠ .

٤٨ . المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٥٢ .

٤٩ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠ .



والقرامطة، وحركات الجند الأتراك... الخ). لتنشيط الطرق التجارية القادمة إليها، واستغلت ظروف العراق الصعبة في تحويل طرق التجارة لتمر في أراضيها. ولم تخف أهمية التجارة على الخلفاء أنفسهم، فوجهوا عناية خاصة للتجارة، وأقاموا المحطات على طرق القوافل، وأنشأوا المنارات في الثغور لهداية السفن. وشحنوا السواحل بالسفن لحمايتها من غارات لصوص البحار، وكلها أمور تعين على ازدهار التجارة، وتشجيع الناس على ممارستها، ولا سيما في الفترات التي كان يسود فيها الأمن وتهدأ الثورات.

ويمكن تقسيم التجارة في بلاد الشام الى قسمين : تجارة داخلية وتجارة خارجية . أما في المجال الداخلي، فقد كان النشاط التجاري يتمركز في الأسواق التي تقام في كل مدينة . وكان لكل طائفة من التجار سوق يختصون بها، وكانت الحوانيت تمتد على طول الشارع من الجانبين .<sup>٥٠</sup> واتخذت الأسواق أسماء السلع التي تتخصص ببيعها : كدار البطيخ لبيع الفواكه والخضار، وسوق الصاغة، وسوق السراجين، وسوق الزجاجين، وسوى ذلك .

وكانت موازيء فلسطين، وبخاصة عكا، تحصل على ما تحتاج اليه من السلع من سوق دمشق،<sup>٥١</sup> الى جانب ما كان يصلها من بضائع عن طريق البحر، سواء من بقية الموازيء السورية، أو من تجارتها البحرية عامة . واستمدت أسواق بيت المقدس شهرتها في هذه الفترة كسوق ناقلة للتجارة بين مغرب الدولة الاسلامية ومشرقها . فقد كان معظم الحجاج المسلمين يعملون على زيارة بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج . وهناك كانوا يتقابلون مع الحجاج المسيحيين، فتتاح الفرصة للطرفين لتبادل البضائع . ويقال أنه كانت تعقد في الخامس عشر من شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام سوق تجارية كبيرة في بيت المقدس، يفد اليها تجار الأمم المختلفة حيث يتبادلون السلع والبضائع<sup>٥٢</sup> . وكانت القرى المحيطة تصدر الى مصر العنب والتفاح، كما كانت الرملة مركزا تجاريا هاما، وبها فنادق جيدة . وكذلك كانت أيلة تنقل السلع من البحر الأحمر الى الشام وبالعكس<sup>٥٣</sup> .

وفي مجال التجارة الخارجية، يمكن القول أن حجم هذه التجارة لم يكن يتناسب مع موقع بلاد الشام الهام بين الشرق والغرب، ولا مع ما يتوافر في هذه البلاد من موارد

٥٠ . متر، حضارة، ج ٢، ص ٣٨٠ .

٥١ . المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٢ .

٥٢ . بيطار، الحياة السياسية، ص ٣٤٠ .

٥٣ . ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٦؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٤، ١٧٢ .

وخيرات . وقد لعب بعض التجار من الشام دور الوسيط في نقل السلع من المشرق ، وكانوا يستغلون موسم الحج ليسيروا في حماية قوافل الحجاج ، ويقدموا بهذه البضائع الى دمشق أو لبيعها الى تجار من الغرب . كما أن بلاد الشام كانت معبرا وطريقا للتجارة القادمة من أوروبا الى عاصمة الخلافة أو بلاد المشرق الأقصى . أما المنتجات الزراعية والحيوانية التي كانت تصدر من بلاد الشام ، ومنها فلسطين ، فكان أشهرها الزيتون والتين المجفف والخروب والزبيب والتفاح والقطن والحبوب والعسل وقلب اللوز والأرز والاشنان والجبن والأغنام<sup>٥٤</sup> . وأما المنتجات المصنعة المصدرة فكان أشهرها : الزيت والسبع والصابون والقوط والمرابا وقدور القناديل والخرز والزجاج المخروط والابر والكاغد والحبال والسكر ودهن البنفسج<sup>٥٥</sup> . ويمكن القول في نهاية حديثنا هذا أن تجارة بلاد الشام ، ومنها فلسطين ، كانت في الغالب والأهم تجارة داخلية ، ولم تلعب التجارة الخارجية دورا هاما في الحياة الاقتصادية . وكانت مدينة بيت المقدس بها لها من مكانة دينية عند المسلمين والمسيحيين ، هي أهم مدن الشام التي تجري فيها معاملات تجارية مع الخارج ، هذا فضلا عن بعض المواقيء الفلسطينية التي لعبت دورا في التجارة الخارجية .

ولا نعرف الكثير عن المعاملات التجارية والمالية في فلسطين في هذا العصر ، ولكن يمكن القول بوجه عام ، ان فلسطين كبقية بلاد الشام ، شهدت تقدما واضحا في هذا المجال ، ولا سيما في ابتداء وسائل دفع مأمونة ويعيدة عن اللصوص ، فشاغ استعمال السفاتج ولا سيما في القرنين الثالث والرابع ، كما شاغ استعمال الصكوك وكتب الاعتماد والأثمان ، مما سهل عمليات الدفع من جهة ، ووسع رقعة التعامل التجاري من جهة أخرى<sup>٥٦</sup> .

وبعد فهذه هي المعلومات التي أسعفتني بها المصادر التي وقعت لي والتي تعنى بهذا النوع من الأخبار . وأعترف أنها لم تساعدني على رسم صورة تعطي الملامح الواضحة لأوضاع فلسطين المالية والتجارية خلال الفترة موضوع البحث . على أني أستطيع أن أعد باتباع ما قد يقع لي من جديد في هذا المجال ، والله الموفق .

٥٤ . بيطار، الحياة السياسية، ص ٢٤٢ .

٥٥ . المرجع السابق، ص ٣٤٣ .

٥٦ . من أجل ما هو متوافر من تفصيلات قليلة حول هذا الموضوع ، أنظر : متز، حضارة، ج ٢، ص ٣٧٣ وما بعدها؛ وبيطار، الحياة السياسية، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

## مسكوكات ذهبية جنائية ضرب بلاد الشام (٣٦١ - ٣٦٧ هـ / ٩٧١ - ٩٧٨ م) محفوظة بمؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض

أحمد بن عمر الزيلعي\*

تحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي بمجموعة كبيرة من المسكوكات الإسلامية يبلغ عددها، حتى الآن، أكثر من ثلاثة عشر ألف قطعة، تمثل مختلف بلدان العالم الإسلامي وأسراه الحاكمة على مر العصور، وقد طلبت المؤسسة من قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود، المساعدة على تنظيم هذه المجموعة، وتسجيلها تمهيدا لعرض نماذج منها في متحفها الذي يحتل جانبا كبيرا من مبناها الفخم في مدينة الرياض. وقد لفت نظري - أثناء مساهمتي المتواضعة في هذا الصدد - وجود ستة عشر دينارا ذهبيا بين المجموعات الأولى التي تم تصنيفها وتسجيلها، اختيرت لتكون موضوع هذه الدراسة التي اقدمها لهذا المؤتمر الدولي، ولا أستبعد وجود دنانير أخرى مشابهة في المجموعات التي لم تفرز بعد. وعندما أبدت رغبتني في دراسة هذه المجموعة، تفضل علي المسؤولون في المؤسسة بالموافقة على تصويرها والسماح لي بنشرها<sup>١</sup>.

وتكمن أهمية هذه الدنانير في كونها تعود إلى الفترة التي شهدت فيها بلاد الشام غزوات متكررة من زعيم الأسرة الجنايبية، الحسن بن أحمد، المعروف بالأعصم ضد الدولة الفاطمية التي استولت على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨. وعلى الشام، بعد ذلك بستة أشهر، في

\* قسم الآثار، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١. يسرني بهذه المناسبة، أن أسجل كلمة شكر وعرقان لمعالي محافظ مؤسسة النقد العربي السعودي حمد السيارى، ومدير عام الخزينة والإصدار السيد أحمد خوقير، ومساعدته محمد صالح الباز ومحمد يمانى رئيس قسم التزييف، وكل من: فهد الفضلي وفيصل عبده ناصر. ومن قسم الآثار والمتاحف، أدين بالجميل والعرفان لزميلي رافت النبراوي، ومحمود فرح، وسعد الحلبي، وفؤاد العامرة وعلي أحمد، وزاهد أكبر، فلهم جميعا، ولكل من سدد لي يد العون والمساعدة خالص الشكر والتقدير.

٢. ابن الاثير، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ٩ج، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧م، ج٧، ص ٣٠، ٣١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الاثير: الكامل؛ ابن تفرى بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة، ١٤ج، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراقات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العاملة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، دت، ج٤، ص ٢٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تفرى بردي، النجوم.

محرم سنة ٣٥٩هـ / ٢٩٦٩. يضاف إلى هذه الأهمية، أنها أكبر مجموعة من المسكوكات الجنايبية المضروبة في بلاد الشام تنشر حتى الآن، على حد علمي<sup>٤</sup>. كما أنها من الناحية التاريخية تغطي فترة سبع سنوات هي تلك التي كانت فيها بلاد الشام هدفا ومجالا حيويا للجنايبيين في عهد الحسن الأعصم، ومنطلقا لغزواتهم لمصر، بغية تدمير الخلافة الفاطمية التي عملت على حرمانهم من نفوذهم في بلاد الشام والحجاز.

ولا بأس من إيراد نبذة تاريخية عن الأسرة الجنايبية، وعن غزواتها لبلاد الشام ومصر، وصراعها مع الخلافة الفاطمية، وعلاقاتها مع بعض الزعامات المحلية في تلك البلاد. فالأسرة الجنايبية تنسب إلى مؤسسها الحسن بن بهرام المعروف بأبي سعيد الجنايبي الذي أقام لنفسه وبنيته دولة في منطقة البحرين في حوالي سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م<sup>٦</sup>، عرفت باسم دولة القرامطة نسبة إلى طائفة من الاسماعيلية تنسب إلى حمدان قرط، مؤسس هذه النحلة<sup>٧</sup>. وعندما قتل أبو سعيد سنة ٣٠١هـ / ٩١٣، آل أمر الجنايبيين إلى ابنه الأكبر، وولي عهده سعيد بن الحسن بن بهرام. ولكنه عجز عن القيام بالأمر، فقام به أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان بن الحسن، وكان شجاعا قويا، استطاع المحافظة على نظام أسرته، وتوسيع رقعة دولته، وإقامة علاقة قوية مع الخليفة الفاطمي، عبيد الله المهدي، استمرت حتى وفاته بالجدي سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م<sup>٨</sup>. فتولى بعد أبي طاهر أخوه أحمد ابن الحسن، المعروف بأبي المنصور،

٢. ابن تغري بردي، النجوم، ج٤، ص ٢٣؛ علي أحمد اسماعيل، تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ط١، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٦٦، ٦٧. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: علي، تاريخ.
٤. سنأتي إلى ذكر ما نشر من مسكوكات الجنايبيين في بلاد الشام فيما بعد.  
انظر: الاحالة رقم (٥٧) أدناه.
٥. عرض جوهر الصقلي في خطاب الأمان الذي أعطاه للمصريين، بالقرامطة، واعتبرهم خطرا يهدد بلاد الشام، ويقف حائلا دون تنفيذ الفاطميين لمخططاتهم في تلك البلاد. انظر البيطار، أمينة، موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، ط٧، دار دمشق للطباعة، دمشق، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البيطار: موقف.
٦. ابن سنان، ثابت، «أخبار القرامطة»، منشور ضمن كتاب: أخبار القرامطة في الاحساء، الشام، العراق، اليمن، تحقيق سهيل زكار، نشر وتوزيع عبد الهادي حرصوني، دمشق، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ١٢، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سنان: أخبار.
٧. ابن الجوزي، أبو الفرح عبد الرحمن بن علي القرشي البغدادي (ت ٥١٧هـ / ١٢٠٠م)، القرامطة، تحقيق: محمد الصباغ، ط٢، منشورات المكتب الاسلامي، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص ٨، ٢٨، ٣٩، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي: القرامطة، ابن العديم، كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م)، «بغية الطلب في تاريخ حلب»، منشور ضمن كتاب أخبار القرامطة في الاحساء، الشام، العراق، اليمن، تحقيق سهيل زكار، نشر وتوزيع عبد الهادي حرصوني، دمشق، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص ٢٧٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العديم، بغية.
٨. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)، نهاية الارب في فنون الأدب، للمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج ٢٥، ص ٣٠٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: النويري، نهاية.

بناء على عهد من أبي طاهر نفسه<sup>٩</sup>. ولكن بعض رجال الدولة مالوا إلى تولية سابور بن أبي طاهر، فكتبوا بذلك إلى الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله، فجاء الرد بتولية أحمد، وإمضاء عهد أبي طاهر، على أن يكون سابور ولي عهده<sup>١٠</sup>. غير أن النزاع ما لبث أن شب بين سابور وعمه أبي المنصور أحمد، فقبض سابور على عمه أحمد، ووضعه رهن الاعتقال<sup>١١</sup> وتمكن أحمد من الخروج من معتقله، وقتل ابن أخيه سابور بن أبي طاهر، ونفى اخوته وأنصاره إلى جزيرة أوائل<sup>١٢</sup>. وهكذا كانت هذه الأحداث بداية لانقسام الأسرة الجنايبية إلى فريقين اثنين، أحدهما بزعامه أبناء أبي طاهر، والآخر بزعامه أحمد بن الحسن المنصور الذي قيل: إنه توفي مسموما على يد شيعة سابور سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م<sup>١٣</sup>. فالت مقاليد الامارة إلى ابنه الحسن بن أحمد الأعصم، وبالتالي آلت إليه زعامه الفريق المناوئ لبني طاهر<sup>١٤</sup>. فبالغ في نفي أنصار آل أبي طاهر حتى بلغ عدد من نفي منهم إلى جزيرة أوائل حوالي ثلاثمائة<sup>١٥</sup>.

ويبدو أن هذه الحوادث أدت إلى التقارب بين الحسن الأعصم، وبين العباسيين الذين عانوا الأمرين من غزوات أبي طاهر المدمرة، ثم من ابنه سابور الذي كانت قيادة العساكر الجنايبية منوطة به في عهد عمه المنصور<sup>١٦</sup>. وباعدت بالتالي بين الجنايبين والفاطميين الذين قيل بأنهم لم يخفوا تعاطفهم مع أنصار سابور ضد أنصار الحسن بن أحمد الأعصم<sup>١٧</sup>. وقد كان من ثمرة هذا التقارب مع العباسيين أن الخطبة أقيمت في مكة للخليفة

٩. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م)، تاريخ بن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ ج، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨، القسم الاول، ج ٤، ص ١٩٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، تاريخ: محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ط ٢، القاهرة، ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦ م، ص ٢٨. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: سرور، النفوذ.
١٠. ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ١٩٢.
١١. سرور، النفوذ، ص ٣٩.
١٢. ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ١٩٢.
١٣. المصدر السابق نفسه والمكان ذاته.
١٤. سرور، النفوذ، ص ٣٩.
١٥. المرجع السابق نفسه والمكان ذاته.
١٦. امينة، موقف، ص ٥٣، عن أعمال ابي طاهر ضد الدولة العباسية، انظر: على سبيل المثال المقرئ، نهي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، ٢ ج، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، ج ١، ص ١٨٠-١٨٤، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقرئ، اتعاظ، وللمؤلف نفسه كتاب المقفى، اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، ١٩٨٧، ص ٤٠١، ٤٠٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقرئ، المقفى.
١٧. البيطار، موقف، ص ٥٥.

العباسي المطيع جنبا إلى جنب مع الزعيم الجنابي، الحسن الأعصم، في موسم سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م<sup>١٨</sup>.

أما الفاطميون، فقد وجد الأعصم سببا في التخلي عن الدعوة لهم ومناصرتهم بعد استيلائهم على مصر والشام، ذلك أنه طالبهم بالاتاة السنوية التي كان يدفعها الاخشيديون له ولأسرته عندما كانت لهم السيطرة على هذين القطرين، ومقدار هذه الاتاة ثلاثمائة ألف دينار<sup>١٩</sup>. ولم يكتف الفاطميون برفض طلب الأعصم فقط، وإنما أخذوا يهددونه بتحويل الامارة إلى خصومه من بني أبي طاهر<sup>٢٠</sup>. وهذا السبب الذي تورده معظم المصادر التاريخية، لا يعده بعض المؤرخين المحدثين سببا مباشرا لغزو الجنابيين لبلاد الشام ومصر، وإنما يضيفون إليه أسبابا أخرى منها أن بلاد الشام كانت مجالا حيويا لنفوذ الجنابيين وسيادتهم، وأن استيلاء الفاطميين عليها يسلبهم هذه السيادة و يحد من نفوذهم ونشاطهم فيها<sup>٢١</sup>. هذا إلى جانب أن الفاطميين أنفسهم كانوا يخططون للقضاء على الأسرة الجنابية، وعلى نحلتهم القرمطية التي ارتبطت بالفوضى والنهب والسلب حتى لا تحسب تصرفاتهم السيئة على الفاطميين، ويذاع بين الناس أنهم من أصل واحد، يضاف إلى ذلك عزم الأخيرين على وضع حد لمنافسة الجنابيين لهم فيما استحوذوا عليه من بلاد غنية<sup>٢٢</sup>. ونحن - بالإضافة إلى ما سبق - نعتقد أن هذا التحول الواضح في علاقات الأسرة الجنابية يعود إلى حالة الخلافتين العباسية والفاطمية من حيث القوة والضعف، فر بما أدرك الجنابيون أن تعايشهم مع العباسيين، وتحسين علاقاتهم معهم، والعمل تحت شعاراتهم - رغم اختلاف العقيدة - يمكن أن يحقق لهم بعض المكاسب السياسية والاقتصادية أكثر من تلك التي يمكن أن يحققوها في ظل الخلافة الفاطمية القوية التي بسطت سلطانها على مناطق كانت مجالا حيويا لهم، ولعل تعايش البويهيين، وهم شيعة، مع العباسيين السنيين كان أقرب مثال لما عزم الحسن الأعصم ورجاله على انتهاجه، فقد أثر عنهم قولهم «لو فطنا لما فطن له ابن بويه لاستقامت أمورنا، وذلك أنه ترك المذاهب جانبا وطلب الغلبة والملك، فأطاعه الناس»<sup>٢٣</sup>. ولا شك في أنه كان للبويهيين دور كبير في هذا التحول، فقد قاموا بالوساطة بين الحسم الأعصم

١٨. الجزيري، عبد القادر بن محمد (ت ٩٧٧هـ / ٥٧٠م)، درر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ص ٢٤٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الجزيري، درر الفرائد.
١٩. ابن سنان، أخبار، ص ٥٧.
٢٠. ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ١٩٢، ١٩٣.
٢١. البيطار، موقف، ص ٥٥.
٢٢. سرور، النفوذ، ص ٤٠؛ البيطار، موقف، ص ٥٤.
٢٣. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦ (من ج ٥ - ج ١٠)، ط ١، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدرآباد، ج ٦، ص ٢٢٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي، المنتظم.

والخليفة العباسي المطيع وعملوا على حماية مقر إمارته في الأحساء من تعديات أبناء أبي طاهر. أثناء غيابه في غزو الشام ومصر، ودعموه بالأموال والأسلحة اللازمة لمحلاته ضد الفاطميين<sup>٢٤</sup>.

ومهما تكن الأسباب، فإن الجنابيين، بزعامة الحسن الأعصم، أعلنوا قطع علاقاتهم مع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، ورفعوا شعارات الدولة العباسية وكتبوا عليها «السادة الراجعون إلى الحق» وأشاعوا بين الناس أن الخليفة العباسي المطيع ولاهم شؤون مصر<sup>٢٥</sup>. ثم توجهوا إلى بلاد الشام سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م، وفي ركابهم بعض الزعماء الشاميين الذين كرهوا دخول بلادهم تحت السيطرة الفاطمية<sup>٢٦</sup>، وتمكنوا من قتل واليها من قبل الفاطميين، جعفر بن فلاح الكتامي، ودخول دمشق في ذي القعدة من السنة نفسها<sup>٢٧</sup>. فعمل الجنابيون على قطع الخطبة للمعز الفاطمي وأقاموها بدلا من ذلك للخليفة المطيع العباسي، وعملوا أيضا على تأمين الناس على أموالهم وأنفسهم، ثم ساروا إلى الرملة، ومدوا سيطرتهم على السواحل الجنوبية لبلاد الشام<sup>٢٨</sup>. وفي أوائل سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م، توجهوا إلى مصر وبصحبته عدد كبير ممن انضم اليهم من العساكر الأخشيدية والكافورية والعرب، بعد أن تركوا مدينة يافا محاصرة، فتهافت أمام زحفهم المدن المصرية حتى وصلوا القاهرة، وفرضوا حصارا شديدا عليها<sup>٢٩</sup>. غير أن جوهر الصقلي، قائد القوات الفاطمية، أحكم تحصينات القاهرة، واستعد لصد زحف القوات الغازية<sup>٣٠</sup>، فتمكن في النهاية من إجلاء هذه القوات التي عادت أدرأجها إلى بلاد الشام في ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ / كانون الأول ٩٧١ م، حيث أنضمت إلى القوات التي تركوها محاصرة ليافا. وهناك ضيقوا الخناق على من فيها، وحاصروها حصارا شديدا<sup>٣١</sup>. وفي محاولة يائسة من جوهر لفك حصار يافا، بعث من مصر نجده بحرية إلى رجاله المحصورين فيها، وبصحبة هذه النجدة أرزاق محملة على خمسة عشر مركبا<sup>٣٢</sup>. ولكن مراكب الجنابيين اعترضتها في البحر، وأستولت على ثلاثة عشر مركبا منها، ومع ذلك فقد

٢٤. انظر: ابن سنان، أخبار، ص ٥٧؛ المقرئزي، اتعاظ، ج ١، ص ١٨٧؛ ابن خلدون، تاريخ، ج ٤، ص ١٩٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٢٥، ص ٣٠٥.
٢٥. المقرئزي، اتعاظ، ج ١، ص ١٨٨، البيطار، موقف، ص ٥٦.
٢٦. انظر: النويري، نهاية، ج ٢٥، ص ٣٠٥-٣٠٧.
٢٧. ابن سنان، أخبار، ص ٥٧.
٢٨. المقرئزي، اتعاظ، ج ١، ص ١٨٨.
٢٩. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٤٢، ٤٣.
٣٠. البيطار، موقف، ص ٣١.
٣١. ابن سنان، أخبار، ص ٦٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٤٢.
٣٢. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٤٣.

تمكنت حملات جوهر البحرية من فك الحصار عن يافا، وإجلاء القوات المحاصرة لها إلى دمشق<sup>٣٣</sup>.

وفي سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م، حاول الجنابيون معاودة الكرة في غزوه لمصر، فعملوا على تنظيم صفوفهم، وأستولوا على الرملة، ثم وصلوا سيرهم صوب الديار المصرية حتى وصلوا تنيس<sup>٣٤</sup>. وكان في نيتهم مواصلة السير الى القاهرة، وأخذها من يد جوهر، لولا أن الأخير كتب إلى مولاه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يستعجله القدوم إلى مصر، فوصلها في رمضان ٣٦٢ هـ، «وهو يظن أن تؤخذ قبل أن يصل إليها»<sup>٣٥</sup>. وعندما دخل المعز القاهرة، كتب إلى الحسن بن أحمد كتابا طويلا «يذكر فيه فضل نفسه، وأهل بيته، وأن دعوة القرامطة كانت له، ولآبائه من قبله، وتوعدهم وتهدهم»<sup>٣٦</sup>. وكان الخليفة المعز يهدف من وراء كتابه هذا «أن يعلم من جواب القرمطي ما في نفسه، وهل خافه لما وافى مصر أم لا؟»<sup>٣٧</sup>. غير أن جواب الحسن كان مخيبا لآمال المعز، فقد جاء مختصرا، ومعبرا عن عزيمة صابغة لا تقبل التراجع، وهذا نص الجواب «وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله، ونحن سائرون على أثره والسلام»<sup>٣٨</sup>.

سار الجنابي بجموعه الغفيرة إلى مصر سنة ٢٦٣ هـ / ٩٧٣ م، وتوغل في الديار المصرية، وحاصر مدينة القاهرة، وضيق الخناق على من فيها، فلم يعد أمام المعز من حيلة إلا استمالة حسان بن الجراح، رئيس قبائل طيء، حيث رشاه بمبلغ مائة ألف دينار مقابل تظاهره بالهزيمة من بين صفوف الحسن الأعصم، أثناء احتدام المعارك<sup>٣٩</sup>. وهكذا فعل ابن الجراح، فأثر ذلك على معنويات رجال الزعيم الجنابي، وجعله في موقف حرج، لم يستطع معه تفادي الهزيمة التي حلت به وبرجاله، تاركين وراءهم نحو ألف وخمسمائة من أصحابه، وقعوا في أسر الفاطميين<sup>٤٠</sup>. ثم تراجع إلى بلاد الشام، حيث ولى عليها أبا المنجى، وعاد إلى مقره في الأحساء<sup>٤١</sup>. فاستطاع الفاطميين، بعد ذلك، بسط نفوذهم مرة أخرى على بلاد الشام التي ولوا أمورها ظالم بن موهوب العقيلي، بعد أن تحسنت علاقته معهم،

٣٣. ابن سنان، أخبار، ص ٦٠.

٣٤. المقرئزي، تعاض، ج ١، ١٨٨، البيطار، موقف، ص ٦٣.

٣٥. النويري، نهاية، ج ٢٥، ص ٣١٧.

٣٦. ابن سنان، أخبار، ص ٦١.

٣٧. النويري، نهاية، ج ٢٥، ص ٣٠٨.

٣٨. ابن سنان، أخبار، ص ٦١؛ النويري، نهاية، ج ٢٥، ص ٣١١؛ المقرئزي، تعاض، ج ١، ص ٣٠٢.

٣٩. النويري، نهاية، ج ٢٥، ص ٣١٢؛ المقرئزي، تعاض، ج ١، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

٤٠. ابن سنان، أخبار، ص ٦٢.

٤١. البيطار، موقف، ص ٦٥.



وساءت مع الحسن بن أحمد الجنابي<sup>٤٢</sup>.

وعلى الرغم من بقاء بلاد الشام في منأى عن غزوات الجنابيين طوال السنتين التاليتين - وإن يكن من المحتمل أنه كان لهم وجود في بعض أقاليمها، كما سيأتي - فإن نفوذ الفاطميين فيها لم يكن مستقرا، بسبب عدم تقبل أهل الشام لحكم المغاربة، ورغبة الكثير منهم في البقاء تحت النفوذ العباسي، ومما له دلالة: استقبالهم الحار لألفتكين التركي ورجاله الذين قدموا الشام من بغداد بعد الفتنة التي شبت بين الأتراك والبو يهيين سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م<sup>٤٣</sup>، ومبايعة أهل الشام لألفتكين الذي استخلفهم على الطاعة والمساعدة، والذي سارع إلى طرد الوالي الفاطمي، ريان الخادم، وقطع الخطبة للخليفة المعز، وإقامتها بدلا من ذلك للطائع لله في شعبان سنة ٣٦٤هـ/نيسان ٩٧٥م<sup>٤٤</sup>.

وهكذا يبدو أن مرحلة جديدة من الصراع بين الفاطميين والعباسيين في بلاد الشام قد بدأت إذ ما كادت هذه الأخبار تصل إلى أسماع المعز، جتى بادر باجراء محاولات لاستمالة ألفتكين إلى جانبه، ولكن دون جدوى<sup>٤٥</sup>. فعزم العزيز الذي تولى الخلافة بعد والده في منتصف ربيع الثاني سنة ٣٦٥هـ/كانون الأول ٩٧٥م، على وضع حد لنفوذ ألفتكين في الشام، فأرسل جيشا إلى الشام بقيادة جوهر الصقلي، حيث سيره حتى وصل إلى مشارف دمشق في نى القعدة من السنة نفسها، وفرض حصارا على المدينة<sup>٤٦</sup>. وبعد حرب دامت شهرين، أشار أهل الشام على ألفتكين بالاستعانة بالحسن بن أحمد الجنابي، ففعل ذلك، وسار الأخير إلى دمشق، فلما علم جوهر بقربه، رحل عن المدينة خوفا من وضع نفسه بين عدوين<sup>٤٧</sup>. وسارع الحسن فور وصوله إلى دمشق، إلى الاجتماع بألفتكين، حيث حشدا الجموع، وسارا على رأسها لملاحقة جوهر الذي رحل إلى عسقلان، بغية تأمين خطوط امداداته من مصر عن طريق البحر<sup>٤٨</sup>. ولكن ذلك لم يجد نفعاً، فقد وقع تحت طائلة حصار شديد من قبل المهاجمين، وأنقطعت عن جوهر الامدادات من مصر فراسل ألفتكين مبدياً رغبته في لقائه فتقدم ألفتكين إلى جوهر، واجتمعا راكبين فقال جوهر: «قد علمت ما يجمعنا من عصمة الاسلام، وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة، وأريق في الدماء، ونهبت

٤٢. المرجع نفسه، والمكان ذاته. وأنظر: النريزي، نهاية، ج٢٥، ص ٣١٢، ٣١٤؛ المقرئزي، اتعاظ، ج١، ص ٢٠٦.

٤٣. ابن سنان، أخبار، ص ٦٦.

٤٤. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٦٣.

٤٥. المصدر السابق نفسه والمكان ذاته.

٤٦. المصدر السابق نفسه والمكان ذاته.

٤٧. المصدر السابق نفسه والمكان ذاته.

٤٨. ابن سنان، أخبار، ص ٦٨؛ البيطار، موقف، ص ٧٣.

الأموال، ونحن المؤأخذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك للصلح والطاعة والموافقة»<sup>٤٩</sup>، فلم يوافقته الفتكين، واعتذر بسبب ارتباطه بالجنابي الذي أخرج جوهراً إلى الاستعانة به. فقال جوهراً: «إذا كان الأمر على ما ذكرت فأنني أصدقك الحال تعويلاً على أمانتك، وما أجده من الفتوة عندك، وقد ضاق الأمر بنا وأريد أن تمن علي بنفسي، وبمن معي من المسلمين، وتذم لنا وأعود إلى صاحبي شاكرًا لك، وتكون جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف، فأجابه إلى ذلك، وحلف له على الوفاء به»<sup>٥٠</sup>. فلما عاد الفتكين إلى الجنابي، وأخبره باعطائه الذمام لجوهراً قل له: «لقد أخطأت فان جوهراً له رأى وحزم ومكيدة وسيرجع إلى صاحبه، فيحمله على قصدنا بما لا طاقة لنا به، والصواب أن ترجع عن ذلك ليموتوا جوعاً، ونأخذهم بالسيف، فامتنع الفتكين عن ذلك وقال: لا أغدر! وأذن لجوهراً ولن معه بالمسير إلى مصر»<sup>٥١</sup>. وقيل: إن الفتكين اشتراط على جوهراً أن يعلق سيفه ورمح الجنابي على باب عسقلان، ويخرج جوهراً ورجاله من تحتها فقبل جوهراً ورجاله هذا الشرط، وخرج ومعه رجاله في صباح اليوم التالي على هذه الصورة، وعادوا إلى مصر»<sup>٥٢</sup>.

ولما عاد جوهراً إلى القاهرة أخبر العزيز بأمر الفتكين والحسن الأعصم، فقررا السير معاً إلى الشام، فالتقيا بهما قرب الرملة، في المحرم سنة ٣٦٧ هـ/ آب ٩٧٨ م، وتمكنا من هزيمة الفتكين وحليفه، وتشتيت قوتها، فقبض المفرج بن دغفل الطائي على الفتكين، وسلمه للعزيز مقابل مبلغ من المال، فعفا عنه العزيز وعاش في بلاطه مكرماً معززاً حتى وفاته سنة ٣٦٨ هـ/ ٩٧٨ م<sup>٥٣</sup>.

أما الحسن الأعصم، فقد تراجع إلى طبرية، حيث أدركته رسل العزيز داعية إياه إلى العودة ومقابلة العزيز ليحسن إليه، كما فعل مع الفتكين، ولكنه رفض ذلك. فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار، وجعلها له كل سنة، وعاد إلى الأحساء»<sup>٥٤</sup>. وقيل: إن العزيز عفا عنه، وأمر بأن يحمل إليه في كل سنة مبلغ سبعين ألف دينار، فقبل الحسن ذلك، وعجل إليه العزيز برزق سنة، فأخذه وعاد إلى الأحساء حيث وافته منيته في السنة نفسها»<sup>٥٥</sup>. وقيل إنه: لم يخرج من الشام إلا بعد أن تكفل له العزيز بدفع المال كان كافور الأخشيدي يحمله إلى

٤٩. ابن سنان، أخبار، ص ٦٩.

٥٠. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٩٤.

٥١. المصدر السابق نفسه والمكان ذاته.

٥٢. ابن سنان، أخبار، ص ٧٨.

٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٦٤؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج ٤، ص ١٣٣.

٥٤. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٦٤، ٦٥.

٥٥. ابن سنان، أخبار، ص ٨٠.

أبائه وعمومته كل سنة، وهو ثلاثمائة ألف دينار<sup>٥٦</sup>. وقيل: غير ذلك من الأقوال في وفاته، ومكانها، وفي ظروف عودته إلى الأحساء سنأتي إليها في حينها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن مسكوكات الجنابيين لم تنل إلا اهتمام القليل من الباحثين<sup>٥٧</sup>، ولعل ذلك يعود إلى قلة ما نشر منها على المستوى العالمي، فعلى حد علمي، يوجد منها ديناران فقط، محفوظان بدار الكتب المصرية بالقاهرة<sup>٥٨</sup>، وأخر بتركيا في أحد متاحف الآثار فيها<sup>٥٩</sup>. وهناك ستة دنائير أخرى أعلن عن بيعها في مزادات بيع العملات بلندن، أربعة نماذج منها في مزاد ١٨ شباط ١٩٨٦ م، ونموذجان في المزاد المنعقد في ١٧ آذار ١٩٨٧ م<sup>٦٠</sup>. ويعتبر هذا العدد قليلا جدا إذا ما قورن بالأعداد الكبيرة من النقود الإسلامية

٥٦. الأزدي، ابو منصور علي ظافر بن الحسين (ت ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م) أخبار الدول المنقطعة، تحقيق محمد بن مسفر الزهراوي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٤٦، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأزدي، أخبار.

٥٧. من هؤلاء السيد ناصر النقشبندي، «الدينار الإسلامي للملك الطوائف»، مجلة «سومر»، بغداد، العدد ٢ (١٩٤٧)، ج ٢، ص ٢٨٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: النقشبندي، الدينار، محمد باقر الحسيني «دراسات وتحقيقات إسلامية عن نقود الثوار والدعاية والشعارات»، مجلة المسكوكات، العدد ٥، (١٩٧٤)، ص ٤٦ - ٤٨. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الحسيني، «دراسات».

Lane - Poole, Stanley, Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cario, London, 1897, p. 337.

Lane-poole, Catalogue.: وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

Artuk, Ibrahim and Cevriye; Istanbul Arkeologi Müzeleri Teshirdeki Islāmi Sikkeler Katalogü, Istanbul, 1971, I, no- 891;

Artuk. Istanbul. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

Norman, D.N., Ra'afat El-Nabrawy, Jere, L. Bacharach, Catalog of the Islamic Coins Glass Weights, Dies and Medals in The Egyptian National Library, Cairo, California, 1982, p. 66, nos. 2260, 2261, pl, xi.

Ra'afat, Catalog: وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

٥٨. الأول وزنه ٣ر٧٢ جرام، وقطره ٢١ مم، والثاني وزنه ٢ جرام وقطره ٢١ مم، وعنهما انظر:

Lane - Poole, Catalogue, p. 337; Nicol and Others, Catalog, p. 66, nos. 2260-61.

Artuk, Istanbul, no. 891. ٥٩

Spink and Son, Important Collection of Islamic Coins, Auction 18, Zurich, 18th February, 1986, p. 33, nos. 102-105; Coins of the Arab World, Important Islamic Coins in Gold, Silver and Copper, Auction 22, London, 17 March, 1987, p. 41, nos. 197-80. ٦٠

Spink, Auction 22. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

المحفوظة في المتاحف والمعروفة للباحثين في مجال المسكوكات . ومن حسن الحظ، أن نتاح لي الفرصة في هذه الدراسة لنشر أكبر عدد من الدنانير الجنايبية، وهو ستة عشر ديناراً محفوظاً - كما أسلفت - ضمن مجموعات مؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض . ومن بين هذا العدد من الدنانير، نماذج فريدة لم ينشر - على حد علمي - ما يماثلها حتى الآن، مما يجعلها تمثل إضافة جديدة في ميدان المسكوكات الاسلامية عامة، والجنايبية بصفة خاصة. يضاف إلى ذلك ارتباطها الوثيق بالأحداث التاريخية التي كانت بلاد الشام مسرحاً لها، قبل استقرار الحكم الفاطمي فيها، وتسجيلها تسجيلًا دقيقاً لأسماء الأشخاص الذين تصدوا لسيطرة الفاطميين على بلاد الشام. ومن هؤلاء الحسن بن أحمد المعروف بالأعصم، وبنو أعمامه، إسحاق وكسرى وجعفر، وأبو المنصور المعزي (الفتكين التركي) والخليفان العباسيان المطيع لله، وابنه الطائع لله الذين سنأتي إلى التعريف بهم مبسوطاً فيما بعد.

ضربت هذه الدنانير في عدد من دور الضرب ببلاد الشام، هي دمشق، وطبرية وفلسطين. وتتميز بان أوجهها تشتمل على كتابات مركزية تتراوح أسطرها بين ٤ - ٦ أسطر، وهامشين أو إطارين من الكتابة، أحدهما داخلي: ويتضمن مكان السك وتاريخه. والآخر خارجي: ويتضمن الاقتباس القرآني المعروف من سورة الروم (الآيتان ٤، ٥). أما أظهرها فتكون من كتابات مركزية، عدد أسطرها ستة أسطر، ما عدا ديناراً واحداً (رقم ١٣ لوحة ١٣)، فان عدد أسطر مركز ظهره خمسة أسطر فقط. وهامش واحد يتضمن اقتباساً قرآنياً من سورة الفتح (الآيتان ٢٨، ٢٩)، أو من سورة الصف (الآية ٩).

وسوف نتناول فيمايلي كل دينار من هذه الدنانير الستة عشر على حده، مع تفسير وتوضيح ما جاء عليها من عبارات وأسماء أشخاص ذات علاقة بالحوادث التاريخية المسطرة في مقدمة هذه الدراسة. وهذه الدنانير هي: -

١ - دينار جنابي باسم الحسن بن أحمد، ضرب فلسطين سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م.

أ - الوجه :

مركز: لا إله إلا الله

وحدده

لا شريك له

السادة

الرؤساء

الهامش الداخلي : بسم الله، ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة إحدى وستين وثلثمائة.

الهامش الخارجي : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

## ب - الظهر:

مركز: : لله

محمد رسول الله

صلى الله عليه

وعلى آله

المطيع لله

الحسن بن أحمد

الهامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

الوزن ٢,٨٣ جرام

القطر:  $\frac{1}{2}$  ٢١ جرام

رقم التسجيل بالمؤسسة ٣٩٢

انظر: لوحة رقم (١)

يتضح من نصوص هذا الدينار، أن مركز الوجه يشتمل على خمسة أسطر متوازية بالخط الكوفي، منها الأسطر الثلاثة الأولى عبارة عن شهادة التوحيد التي تم تسجيلها هنا على النحو الذي سجلت به على النقود العربية الإسلامية منذ تعريبها في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ونعني بذلك الدينير والدرهم الأموية على حد سواء، مع اختلاف ترتيبها، حيث جاءت هناك على النحو التالي: «لا إله إلا الله وحده / لا شريك له»<sup>٦١</sup>. وقد استمر نص شهادة التوحيد يكتب بالترتيب نفسه، وفي المكان نفسه على النقود العباسية<sup>٦٢</sup>.

٦١. عبد الرحمن فهمي محمد، موسوعة النقود العربية وعلم النميات، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٩١-٣٢٧، رقم ١-٥٤١، ص ٣٢٠-٣٩٥، رقم ٥٤٢-٧٩٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فهمي، موسوعة: محمد ابو الفرج العشي، النقود العربية الإسلامية للحفظ في متحف قطر الوطني، الدوحة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١٢٥-١٥٢، ص ١٥٨-٢١٣. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العشي، النقود.

Nicol, Catalog, pp. 2-8.

٦٢. فهمي، موسوعة، ص ٤٥٩-٧٦٠، رقم ١٥٢٠-٢٧٣٦: العشي، النقود، ص ٢١٧-٥٥٨: Nicol, Catalog, pp. 13-39.

والطولونية<sup>٦٣</sup>، ولأخشيديية<sup>٦٤</sup>، وكذلك على النقود الفاطمية<sup>٦٥</sup> والأيوبية<sup>٦٦</sup> والملوكية<sup>٦٧</sup>.

ويلى شهادة التوحيد من أسفل، لقب «السادة الرؤساء» في السطرين الرابع والخامس على التوالي. ولعل هذا اللقب يعود إلى أن الجنابيين، بعد وفاة جدهم أبي سعيد، كانوا يطبقون نظام المشاركة في الحكم، ومرد ذلك أن أبا سعيد أوصى عند وفاته بأن يلى الملك ستة من أبنائه، ويحكمون الناس بالعدل والقسطاس، ولا يختلفون فيما بينهم حتى يعود، وكان يقابل هؤلاء الحكام، ستة من الوزراء، هم من أبناء بني سنبر، من رجال أبي سعيد المقربين فلعل هذا التقليد بقى مرعيا في الأسرة الجنابية حتى عهد الحسن الأعصم، حيث يذكر ناصر خسرو أن هؤلاء الستة كانوا يجلسون على تخت، ووزراؤهم يجلسون على تخت آخر، ثم يتشاورون ويصدرون أوامرهم بالاتفاق، وكان هؤلاء السلاطين الستة يسمون «السادات» ووزراؤهم يسمون «الشائرة»<sup>٦٨</sup>. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ربما جاء هذا اللقب من ادعائهم الانتساب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه<sup>٦٩</sup>. ويؤيد هذا الاحتمال ما يذكره ناصر خسرو أيضا من أن سلطانهم كان شريفا<sup>٧٠</sup>.

ويتضمن الهامش الداخلي للوجه عبارة «بسم الله»، يليها مكان السك وتاريخه، وهو

٦٣. فهمي، موسوعة، ص ٧٩٧-٨١٥، رقم ٢٩٠٥-٢٠١٦.

Grabar Oleg; The Coinage of the Tulunids, New York, 1957. passim; Nicol, Catalog, pp. 52-53.

٦٤. فهمي، موسوعة، النقود، ص ٨١٩-٨٢٤، رقم ٣٠١٧-٣٠٤٤.

٦٥. انظر: «مجموعة متحف الفن الاسلامي بالقاهرة» أرقام سجل ٢١٩٣٩/٤، ٢١٩٣٩/٣، ٢١٩٤٠، ٢١٩٤١/١، ٢١٩٤١/٢، ٢١٩٤١/٣، ٢١٩٤١/٤، ٢١٩٤١/٥، ٢١٩٤١/٦، ٢١٩٤١/٧.

Cf. Miles, George, Fatimid Coins, New York, 1951; Nicol, Catalog, pp. 54-66.

٦٦. Balog, Paul, The Coinage of the Ayyubids, London, 1980, passim; Nicol, Catalog, pp. 67-73.

Balog, The Coinage. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

٦٧. Balog, Paul, The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria, New York, 1964. passim; Nicol, Catalog. pp. 74-75.

٦٨. ناصر خسرو (ت ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م)، سفرنامه، ترجمة وتقديم وتعليق يحيى الخشاب، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠ م، ص ١٤٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: خسرو، سفرنامه.

٦٩. المقرئ، المقفى، ص ٤٠٠. وعن هؤلاء الستة انظر: المقرئ، أتعاضد.

٧٠. خسرو، سفرنامه، ص ١٤٢.

فلسطين سنة ٣٦١هـ / ٩٧١ م - ٢ م. أما الهامش الخارجي، فيشتمل على اقتباس قرآني من سورة الروم يمثل الآية الرابعة، وجزءاً من الآية الخامسة. وقد بدأ تسجيل هذا الاقتباس في العصر العباسي الأول، وعلى وجه التحديد في عهد الخليفة المأمون<sup>٧٦</sup>. واستمر ينقش على النقود الإسلامية حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م<sup>٧٧</sup>. كما ظهر هذا الاقتباس على النقود الذهبية والفضية التي تعود إلى عهد الدولتين الطولونية والأخشيدية.

ويتكون النص المنقوش على مركز الظهر في هذا الدينار من ستة أسطر يحتوي السطر الثاني منها عبارة «محمد رسول الله» ثم يليها في السطرين الثالث والرابع عبارة تتضمن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله رضي الله عنهم، وقد بدأ ظهور هذه العبارة على النقود العباسية منذ عهد الخليفة المهدي العباسي<sup>٧٨</sup>، ثم تلا ذلك ظهورها على النقود الأخشيدية<sup>٧٩</sup>. ويحمل هذا النص أيضاً في سطره الخامس، اسم الخليفة العباسي «المطيع لله» واسمه الفضل بن المقتدر، وكنيته أبو القاسم أو أبو العباس، بويع له بالخلافة في جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ / كانون الأول ٩٤٥ م، وتنازل عنها طائفاً مختاراً لأبنة الطائع لله في ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ / تشرين الأول ٩٧٤ م، بعد أن لبث في الخلافة حوالي تسعة وعشرين عاماً، وتوفي بعد ذلك بشهرين في المحرم سنة ٣٦٤هـ / كانون الأول ٩٧٤ م<sup>٨٠</sup>. ويلى اسم الخليفة، في السطر السادس، اسم الحسن بن أحمد، وهو بطبيعة الحال، الزعيم الجنابي، الحسن بن أحمد الأعصم، بطل الحوادث التي عرضنا لها سابقاً في المقدمة التاريخية لهذه الدراسة.

أما هامش الظهر، فيشتمل على اقتباس قرآني من سورة الفتح (الآيتان ٢٨، ٢٩) أو من سورة الصف (الآية ٩). وقد بدأ ظهور هذا الاقتباس على هامش وجه الدينار الأموية منذ تعريبها سنة ٧٧هـ / ٦٩٦ م، ولكن بصيغه تنتهي عند كلمة «كله». واستمر يسجل كذلك على الدينار الأموية ثم العباسية حتى عصر الخليفة المأمون، حينما ظهر هذا الاقتباس كاملاً، لأول مرة، على الدينار الذهبية، كما هو الحال على هذا الدينار، موضوع الدراسة<sup>٨١</sup>.

٧٦. فهمي، النقود، ص ٨٩ - ٥٨٠، رقم ١٩٦٤ - ١٩٧٤، ص ٥٩١، ٥٩٦، رقم ٢٠٠٣ - ٢٠٢٧.

Nicol, Catalog, pp. 30-35.

Nicol, Catalog, p. 39.

٧٧. العش، النقود، ص ٣٠٩.

٧٨. لم تصلنا حتى الآن نقود أموية مسجل عليها هذه العبارة المذكورة في المتن، وأن أول تسجيل لها ظهر على النقود العباسية، انظر: العش، النقود، ص ٣٠٨، ٣٣٧، ٣٥٦ - ٣٥٧.

٧٩. فهمي، موسوعة، ص ٨٢١، ٨٢٢، رقم ٣٠١٩ - ٣٠٨.

٨٠. الأزدي، أخبار، ص ٢٤٦.

٨١. انظر: مهذب البكري «درهم ضرب أرمينية سنة ٧٨هـ»، مجلة المسكرات، بغداد، (١٩٧٣ م)، عدد ٤، بغداد ١٩٧٣ م، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، درهم.

ثم استمر تسجيله ، بعد ذلك ، على النقود العباسية ، والطولونية والاشيدية ، والفاطمية ، والأيوبية ، والملوكية مما لا يخفى على كثير من المهتمين بعلم المسكوكات . وهذا بخلاف الدراهم التي سجل هذا الاقتباس ، على هامش ظهرها منذ تعريبها في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ - ٨ م<sup>٧٧</sup> ، واستمر هذا التقليد شائعا حتى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م .

والجدير بالذكر أن نموذجين مماثلين لهذا الدينار من حيث نقوشه ، وصيغه الأخرى ، سبق نشرهما من قبل<sup>٧٨</sup> .

٢ - دينار جنابي باسم الحسن بن أحمد ، ضرب فلسطين سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ - ٢ م .  
مثل رقم (١)

الوزن : ٣ر٤١ جرام

القطر : ٢٢ر٤ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٣٩٣

انظر : لوحة رقم (٢)

٣ - دينار جنابي باسم الحسن بن أحمد ، ضرب فلسطين سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ - ٢ م .  
مثل رقم (١)

الوزن : ٢ر٧٩ جرام

القطر : ٢١ر٨ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٣٩٤

٤ - دينار جنابي باسم الحسن بن أحمد ، ضرب فلسطين سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ - ٢ م .  
مثل رقم (١)

الوزن : ٤ر٤٤ جرام

القطر : ٢٢ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٣٩٥

وتجدر الملاحظة أن هذه الدينانير الأربعة تتفق جميعها من حيث مكان السك وتاريخه ، والنصوص المنقوشة عليها ، ولكنها تختلف من حيث الوزن والقطر ، مما يوحي بأنها لم تضرب في قالب واحد ، أو في أن واحد ، ولاختلافها في الوزن دلالات اقتصادية تخرج عن نطاق هذه الدراسة .

٧٧ . Artuk, Istanbul, no. 891; Nicol, Catalog, p. 66, no. 2266

٧٨ . الحسيني ، «دراسات» ، ص ٤٨ .



٥ - دينار جنابي باسم الحسن بن أحمد ، ضرب طبرية سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ - ٢ م .

أ - الوجه

المركز  
لا إله إلا الله  
وحده  
لا شريك له  
السيد  
الرئيس

الهامش الداخلي : بسم الله ضرب هذا الدينار بطبرية سنة إحدى وستين وثلاثمائة .  
الهامش الخارجي : مثل رقم (١)

ب - الظهر

مثل رقم (١) أيضا .

الوزن : ٣٫٩٠ جرام

القطر :  $\frac{1}{4}$  ٢٢ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٣٩٦

انظر : لوحة رقم (٥)

يلاحظ أن هذا الدينار يشبه الدينار السابق المضروب في فلسطين في كثير من الوجوه، ولكنه يختلف عنه في أن السطرين الرابع والخامس يشتملان على لقب «السيد الرئيس» المكون من كلمتين كل منهما في سطر، وأن هذا اللقب حل محل «السادة الرؤساء» المذكور في الدينار السابق . ومعروف أن لقب «السيد الرئيس» هو مفرد «السادة الرؤساء» وهو دون شك يخص زعيم الأسرة الجنبابية الحسن بن أحمد الاعصم، على الأقل في هذه الفترة<sup>٧٩</sup>. وربما كان السبب في اختفاء لقب «السادة الرؤساء» من هذه الدنانير وتلك التي ضربت سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م، هو اختلاف الحسن بن أحمد مع أبناء أعمامه وانفراده بالسلطة، في أواخر هذه السنة والسنة التي تليها، ويؤيد هذا الاحتمال عدم ذكر أسماء أي من أبناء أعمامه كسرى وإسحاق وجعفر خلال أحداث هذه الفترة، وظهورهم مرة أخرى في أحداث سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م. وبعودتهم إلى مسرح الأحداث ظهر لقب «السادة الرؤساء» مرة أخرى على السكة الجنبابية، كما سيأتي. كما يتميز هذا الدينار عن سابقه، في أن كلمة «الدينر» الواردة في الهامش الداخلي للوجه، أهمل فيها المد بالالف الذي يلي حرف النون، في حين أن النون جاءت ممدودة بالالف في الدينار السابق.

٧٩ . أشار إليه كل من النقشبندى في بحثه «الدينار»، ص ٢٨٢ والحسيني في بحثه «دراسات»، ص ٤٦ - ٤٨

Lane- Poole, Catalogue, p. 337; Nicol, Catalog, p. 66, no. 2261.

٦ - دينار باسم الحسن بن أحمد، ضرب فلسطين سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢ - ٣ م..

مثل رقم (٥)

الوزن: ٣ر٩٣ جرام

القطر: ٢١ر١ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٣٩٧

انظر: لوحة رقم (٦)

يلاحظ أن هذا الدينار، على الرغم من مماثلته لرقم (٥)، فإنه يختلف عنه في مكان الضرب، وتاريخه، وهو كما هو واضح أعلاه، (في فلسطين ٣٦٢هـ / ٩٧٢ - ٠٣). كما تجب الإشارة أيضا أن نموذجا مماثلا لهذا الدينار، تم نشره من قبل\*.

٧ - دينار جنابي باسم الحسن بن أحمد، ضرب فلسطين سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢ - ٣ م.

مثل رقم (٦)

الوزن: ٤ر١١ جرام

القطر: ٢١ر٢ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٣٩٩

انظر: لوحة رقم (٧)

٨ - دينار جنابي باسم الحسن بن أحمد، ضرب فلسطين سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢ - ٣ م.

مثل رقم (٦)

الوزن: ٣ر٤٣ جرام

القطر: ٢١ر٤ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٤٠١

انظر: لوحة رقم (٨)

٩ - دينار جنابي باسم ابي منصور المعزي، ضرب دمشق سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥ - ٦ م.

مثل رقم (٦)

أ - الوجه.

: لا إله إلا الله

وحده

لا شريك له

السادة

أبو منصور المعزي

الهامش الداخلي :  
الهامش الخارجي :  
مثل رقم (٨)  
المركز

: الله  
محمد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
وعلى آله  
الطائع لله  
السيد الرئيس

نص الهامش : مثل رقم (٨)  
الوزن : ٤ر٦٤ جرام  
القطر : ٢٤ر٦ مم  
رقم التسجيل بالمؤسسة ٤٠٤  
لوحة رقم (٩)

يتميز هذا الدينار عن سابقه بأن مركز الوجه يشتمل ، لأول مرة في هذه المجموعة على اسم أبي منصور المعزي الذي نقش في المكان الذي كان مخصصا لكلمة «الرؤساء» في الدنانير رقم (١-٤) وكلمة «الرئيس» في الدنانير رقم (٥-٨) وهو ، على أية حال ، يوحى بإضافة عنصر جديد إلى الأسرة الجنايبية من خارج نطاق هذه الأسرة ، وهذا العنصر هو أبو منصور المعزي ، فمن هو أبو منصور هذا؟ وكيف اخترق نطاق الأسرة الجنايبية ، وأصبح اسمه يذيل النقود المضروبة في عهدهم؟ وبالرجوع إلى المصادر المتاحة تبين أن أبا المنصور المعزي هو ألفتكين التركي الذي أشرنا إلى استعانته بالحسن بن أحمد الأعصم بناء على نصيحة أهل الشام له ، عندما حاصره جوهر الصقلي في دمشق سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م . فأبو منصور هي كنيته التي اشتهر بها<sup>٨٠</sup> ، والمعزي نسبة إلى معز الدولة بن بويه الديلمي ، والد بختيار الذي أشرنا إلى خروج ألفتكين إلى دمشق في عهده ، بسبب الفتنة التي قامت بين الأول وبين الأتراك في بغداد<sup>٨١</sup> . ويؤكد ما ذهبنا إليه وجود دينار ذهب منشور ، ضرب في دمشق سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، ويحمل اسم ألفتكين الصريح الذي جاء في مركز الظهر بعد اسم الخليفة العباسي الطائع لله ، ثم الحسن بن أحمد<sup>٨٢</sup> . ولا شك في أن ذلك الدينار مع هذا الذي هو موضوع الدراسة ، يؤكدان قيام التحالف الذي تم بين ألفتكين من جهة والجنايبين من

٨٠ . ابن تغرى بردي ، النجوم ، ج٤ ، ص ١٢٢ .

٨١ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٦٢-٦٣ .

٨٢ . Spink, Auction 22, p. 41, no. 179.

جهة أخرى، للوقوف أمام الزحف الفاطمي، ويؤكد كذلك بداية هذا التحالف، وهو سنة ٣٦٤ هـ وليس سنة ٣٦٥ هـ الذي أشارت إليه بعض المصادر العربية، وعرضنا له سابقا في المقدمة اعتمادا على ما جاء في تلك المصادر. كما يؤكد أيضا عدم انحسار النفوذ الجنابي عن بلاد الشام بعد هزيمتهم المهينة أمام تحصينات القاهرة، وعودة زعيمهم إلى الأحساء. ولا نستبعد، إن لم يكن في حكم المؤكد، أن الترتيب كان قائما بين الجنابيين والأترك قبل حصار جوهر لدمشق، واستتجاد الفتكين بالحسن الأعصم بدليل اعتراف الفتكين نفسه، بزعامة الحسن بن أحمد، على مدينة بمشق التي يتخذ الأول منها مقرا له، حيث سجل اسم الحسن ابن أحمد، قبل اسمه وبعد اسم الخليفة العباسي الطائع<sup>٨٣</sup>.

وينفرد هذا الدينار أيضا عن سابقه في هذه المجموعة، باشتماله على اسم الخليفة العباسي الطائع لله، واسمه عبد الكريم بن الفضل بن المقتدر، وكنيته أبو بكر، تولى الخلافة بعد أن تنازل عنها والده المطيع لله في ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م، ولبث فيها سبع عشرة سنة حتى خلعه بهاء الدولة بن عضد الدولة البويه في شعبان سنة ٣٨١ هـ / تشرين الثاني ٩٩٠ م، وتوفي في شوال سنة ٣٩٣ هـ / يولييه ١٠٠٣ م<sup>٨٤</sup>. أما الزعيم الجنابي، فقد أكتفى في هذا الدينار بتسجيل لقبه فقط «السيد الرئيس» (سطر ٦) بدلا من اسمه ولقبه كما هو الحال في الدينائر السابقة، وقد عرضنا لهذا اللقب سابقا.

١٠ - دينار جنابي، يحمل اسماء اسحق وكسرى وجعفر، ضرب فلسطين سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ - ٦ م

أ - الوجه.

المركز.

لا إله إلا الله

وحده لا شريك له

السادة الرؤساء

إسحاق وكسرى وجعفر

الهامش الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة خمس وستين

وثلاثمائة.

الهامش الخارجي: مثل رقم (٩)

٨٣ . Ibid. p. 41. no. 179

٨٤ . الأزدى، أخبار، ص ٢٥١، ٢٥٢.

ب - الظهر.

مثل رقم (٩)

الوزن : ٣٤٦ ر جرام

القطر :  $\frac{1}{3}$  ٢٣ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٤٠٥

لوحة رقم (١٠)

يشبه هذا الدينار في نص ظهره، الدينار الذي سبقه، أما الوجه، فإنه ينفرد بأن الثلاثة الأسطر الأولى في مركز وجه الدينار السابق، أدمجت هنا في سطرين اثنين فقط، حيث أصبح السطر الثاني والثالث هنا يشكلان سطرا واحدا يحتل السطر الثاني في النص المنقوش على وجه هذا الدينار، موضوع الدراسة. ويتميز السطر الثالث أيضا باشماله على لقب «السادة الرؤساء» الذي اختفى سابقا من بعض الدنانير، وتم توضيح السبب في اختفائه. ثم يلي ذلك في السطر الرابع أسماء كل من إسحاق وكسرى وجعفر، وهؤلاء الثلاثة هم من الزعماء الجنابيين ومن ذوي قرابة الحسن بن أحمد الأعصم<sup>٨٥</sup>، وكان الحسن قد أرسلهم إلى دمشق عندما استنجد به الفتكين، ووصلوا إليها قبل وصوله، ثم لحق بهم بعد ذلك. وربما كان هؤلاء الثلاثة مع الحسن الأعصم نفسه ثم أخيه النعمان الذي اشترك في بعض حملات الجنابيين على مصر<sup>٨٦</sup>، كانوا يشكلون معا لقب «السادة الرؤساء» بدليل عودة نقش هذا اللقب مرة أخرى على السكة الجنابية ببلاد الشام عندما عاد هؤلاء أو بعضهم إلى مسرح الأحداث.

ومن الاختلافات أيضا بين هذا الدينار وسابقه، مكان السك، حيث سك هذا الدينار في فلسطين، وسك الدينار السابق في دمشق، وكذلك في كتابة كلمة الدينار التي جاءت نونها ممدودة بالألف في هذا الدينار الذي بين أيدينا، وبدون مد بالألف في الدينار الذي يسبقه.

١١ - دينار جنابي، باسم ابي منصور المعزي، ضرب دمشق سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ - ٦ م

مثل رقم (٩)

الوزن : ٣٢٨ ر جرام

القطر : ٢٥٧ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٤٠٦

انظر : لوحة رقم (١١)

٨٥ . النويري، نهاية، ج٢، ص ٢٥٤.

٨٦ . المقرئزي، تعاظ، ج٢، ص ٢٠٢.

١٢ - دينار جنابي ، يحمل أسماء إسحاق وكسرى وجعفر ، ضرب فلسطين سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥ م ..  
مثل رقم (١٠)

الوزن : ٤ر١١ جرام  
القطر :  $٢٢\frac{1}{4}$  مم  
رقم التسجيل بالمؤسسة ٤٠٧  
انظر : لوحة رقم (١٢)

١٢ - دينار جنابي باسم أبي منصور المعزي ، ضرب دمشق سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥ م ..  
مثل رقم (٩)

الوزن : ٢ر٣٧ جرام  
القطر : ٢٣ر٨ مم  
رقم التسجيل بالمؤسسة ٤٠٨  
انظر : لوحة رقم (١٢)

١٤ - دينار جنابي ، باسم أبي منصور المعزي ، ضرب دمشق سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥ م ..  
مثل رقم (٩)

الوزن : ٢ر٣٧ جرام  
القطر : ٢٣ر٨ مم  
رقم التسجيل بالمؤسسة ٤٠٨  
انظر : لوحة رقم (١٣)

١٥ - دينار جنابي ، باسم أبي منصور المعزي ، ضرب طبرية سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م ..  
أ - الوجه .

: لا إله إلا الله  
وحدده  
لا شريك له  
السادة  
أبو منصور المعز  
ي

المركز

الهامش الداخلي : بسم الله ضرب هذا الدينار بطبرية سنة ست وستين وثلاث مائة  
الهامش الخارجي : مثل رقم (١٣)

ب - الظهر:

مثل رقم (١٣) الوزن:

٤٧٣ جرام

القطر: ٢٥ر٢ مم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٤١٣

انظر: لوحة رقم (١٤)

ينفرد هذا الدينار عن الدينار الذي يسبقه بأن نص مركز الوجه جاء في ستة أسطر بدلا من خمسة أسطر، حيث نقشت الياء الأخيرة من كلمة «المعزي» في السطر السادس بدلا من مكانها الحقيقي في السطر الخامس، كما أن مكان السك هو طبرية وتاريخه سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ - ٧ م، كما هو واضح أعلاه. وجاءت كلمه «ثلاث» مفصولة عن كلمة «مائة» في هامش وجهه الداخلي، وهو ما يختلف عن أسلوب كتابتها في الدنانير التي سبقتة، و يتفق مع الدينار رقم (١٦) أدناه.

١٥ - دينار جنابي، باسم السيد جعفر بن الفضل وابي منصور المعزي، ضرب فلسطين سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ - ٧ م

أ - الوجه .

المركز

: لا إله إلا الله

وحده لا شريك له

الطائع لله

السيد الرئيس

الهامش الداخلي: بسم الله ضرب هذا الدينار بفلسطين سنة ست وستين وثلاث مائة  
الهامش الخارجي: مثل رقم (١٤)

الظهر.

المركز

: لله

محمد رسول الله

صلى الله عليه

السيد جعفر بن الفضل

أبو منصور المعزي

الظهر.

مثل رقم (١٤)

الوزن : ٣ر٣٣ جرام  
القطر : ٢٤ر١ ملم  
رقم التسجيل بالمؤسسة  
انظر : لوحة رقم (١٥)

يلاحظ على هذا الدينار، أن السطرين الأول والثاني بمركز الوجه، يشبهان مثليهما في مركز الوجه بالدينار رقم (١٠) اعلاه، ويلاحظ أيضا تفرد هذا الدينار بتسجيل اسم الخليفة على السطر الثالث بمركز الوجه، بدلا من مركز الظهر، كما هو الحال بالنسبة للدينارين السابقتين، وبلي اسم الخليفة في السطر الرابع لقب «السيد الرئيس». كما يفرد عن سابقه، وعن الدينار الذي يليه، بخلو عبارة الصلاة على النبي من كلمة «آله» وكذلك باشماله على اسم السيد جعفر بن الفضل في السطر الرابع. والسيد جعفر هذا ليس جديدا على الدينارين الجنابية المتعلقة بهذه الفترة موضوع الدراسة، فقد وجد اسمه مهوراً على دينارين سابقين هما: رقم (١٠)، (١٢)، ولكنه ليس بمفرده، وإنما مع شخصين آخرين هما إسحاق وكسرى. ولنا أن نتساءل عن جعفر، وعن قرابته للحسن الأعصم وعن وجوده على هذا الدينار مع أبي منصور المعزي، وخلوه من زميليه السابقين كسرى وإسحاق! ونحن لا نملك الاجابة الدقيقة والمحددة على هذا التساؤل، وكلما نعرفه من بعض المصادر العربية المتاحة، أن جعفرا هذا هو ابن عم الحسن بن أحمد<sup>٨٧</sup>. وليس في المصادر ما يشير إلى اسم أبيه، باستثناء إشارة فريدة وردت عند المقرئزي الذي يذكر بأن جعفرا هو ابن عم الحسن بن أحمد، وأن اسمه جعفر بن أبي سعيد الجنابي، فاذا صح ما يذكره المقرئزي، فإن جعفرا هذا هو عم الحسن الأعصم وليس ابن عمه، ولن يصبح ذلك في حكم المؤكد ما لم نجد ما يدل على أن لقب أبي سعيد هو الفضل. ذلك لأنه ثبت بالدليل القاطع عن طريق هذا الدينار، أن والد جعفر هو الفضل. فاذا وجد من بين ذلك العدد الكبير من أبناء أبي سعيد الجنابي من يدعى فضلا، فإن جعفرا هذا هو ابن عم الحسن وليس عمه. أما كيف انفرد اسمه بهذا الدينار وجاء مقترناً مع المنصور المعزي؟ فمن الثابت أن ذلك يعود إلى ما ورد في بعض المصادر<sup>٨٨</sup> من أن كسرى وإسحاق عادا إلى الأحساء بعد حوادث السنة الأولى من قدومهما، وأن جعفرا بقي هناك بمفرده، وانضم إلى الفتكين الذي ظهر اسمه مقترنا مع اسم جعفر على هذا الدينار<sup>٨٩</sup>.

١٦ - دينار جنابي، باسم أبي منصور المعزي، ضرب دمشق سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م - ٨ م

أ - الوجه.

المركز : و

لا اله إلا

٨٧. انظر: النويري، نهاية الأرب، ج ٢٥، ص ٣١٥، ٣١٦، للمقرئزي، اتعاظ، ج ٢، ص ٢٤٠.

٨٨. المقرئزي، المقفى، ص ٤٠٥.

٨٩. النويري، نهاية، ج ٢٥، ٣١٥.



الله وحده  
لا شريك له  
السادة  
أبو منصور المعزي

الهامش الداخلي : بسم الله ضرب هذا الدينار بدمشق سنة سبع وستين وثلثمائة  
الهامش الخارجي : مثل رقم (١٥)

الظهر :

مثل رقم (١٤)

الوزن : ٣ر٨٤ جرام

القطر : ٢٥ ملم

رقم التسجيل بالمؤسسة ٤١٦

انظر : لوحة رقم (١٦)

ينفرد هذا الدينار عن الدينائر السابقة بوجود الحرف (و) في ناصية مركز الوجه، ومن المحتمل أن هذا الحرف هو الحرف الأول من اسم المشرف على دار السك ليكون مسؤولاً أمام الحاكم الذي أمر بسك هذا الدينار، في حالة نقص الوزن أو التلاعب بالعملة، أو كليهما معاً. كما ينفرد أيضاً بترتيب نص شهادة التوحيد في الأسطر الثلاثة الأولى بمركز الوجه على نحو الترتيب الذي ظهر في كتابات مركز الوجه على الدينائر والدرهم الأموية والعباسية والطولونية والاختشيدية وغيرها. هذا إلى جانب أن تاريخ سكه، وهو سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م، كما هو واضح أعلاه، يجعل منه قطعة فريدة بين هذه المجموعة، ولا يشبهه على حد علمي - إلا ديناراً واحداً أعلن عن بيعه في المزاد<sup>٩٠</sup>.

وتفرد هذا الدينار بالتاريخ المشار إليه يضعنا أمام حقيقة هامة تتعلق بوفاة الحسن بن أحمد الذي ظهر لقبه على هذا الدينار «السيد الرئيس»، فالنويري والمقريزي يشيران إلى أن الحسن بن أحمد توفي سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م<sup>٩١</sup>، ولا يشير غيرهما إلى تاريخ وفاته، وإنما إلى عودته إلى الأحساء، حيث وافته منيته بعد ذلك<sup>٩٢</sup>. غير أن بعض الباحثين المحدثين يشير إلى أن وفاة الحسن كانت في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م<sup>٩٣</sup>. فإذا سلمنا بصحة هذه الرواية،

٩٠. Spink, op. cit., pp. 41, no. 179.

٩١. النويري، نهاية، ج ٢٥، ص ٣١٦؛ المقريزي، اتعاظ، ج ١، ص ٢٤١، وانظر الاحالات رقم ٥٦، ٥٤.

٩٢. انظر: ابن الاثير، الكامل، ج ٧، ص ٦٤ - ٦٥؛ الأزدي، أخبار، ص ٢٧٢؛ ابن سنان، أخبار، ص ٨٠.

٩٣. سرور، النفوذ، ص ٣٩.

فان الاشكال المتعلق بلقب «السيد الرئيس» المنقوش على هذا الدينار، ينتفي؛ لأن المقصود به الحسن بن أحمد دون شك. أما إذا أخذنا برواية النويري والمقريري وغيرهما؛ فلا بد أن هذا اللقب يشير إلى الزعيم الذي خلفه، فمن هو هذا الزعيم يا ترى؟ وهل هو جعفر بن الفضل الذي سبقت الإشارة إليه في دنائير سابقة؟ ويجيب على هذا التساؤل أيضا النويري والمقريري فالاول يذكر أن الحسن توفي بالرملة، وتولى أمر القرامطة بعده ابن عمه جعفر، «واجتمع هو والفتكين على قتال جوهر، فقاتلوه بقية سنة ست وستين وثلاثمائة ثم رجع إلى بلده». و يذكر الثاني وفاة الحسن، وتولي جعفر لزعامة الجنابيين بعده، واتفاقه مع الفتكين ثم اختلافهما، وعودته إلى الاحساء وحمل جثمان ابن عمه معه، ودفنه هناك<sup>٩٥</sup>. وهذا يعني أن لقب «السيد الرئيس» انتقل إلى جعفر الذي أصبح زعيما للجنابيين بعد وفاة ابن عمه الحسن، ويعني من ناحية أخرى أن المعركة لم تنته بين الفاطميين والجنابيين بعد هزيمة الفتكين والأعصم على يد العزيز—كما أشرنا إلى ذلك سابقا—وانما استمرت بعد ذلك الوقت، ولم يقع الفتكين في أسر الفاطميين، ويتم الصلح بين الجنابيين والفاطميين إلا بعد المعركة المشار إليها بسنة على الأقل، وربما تم هذا الصلح بين العزيز وجعفر وليس بين الأول والحسن بن أحمد.

وبذلك نختم هذه الفترة التاريخية المهمة من تاريخ بلاد الشام، بهذه الأدلة المادية الأثرية التي تمثلت في هذه المجموعة من النقود الذهبية النادرة.

هذا وان قيمة هذه المجموعة من حيث أسلوب الخط العربي وزخرفته، جديدة بالاشارة، حيث ظهر على هذه النقود الذهبية نوعان من الخط الكوفي هما: الكوفي البسيط والكوفي المورق. فالخط الكوفي البسيط خط منسق الحروف والكلمات والأسطر، ولكنه خال من أي زخرفة؛ حيث جاء هذا الخط على الدنانير الجنابية الأربعة المضروبة بفلسطين سنة ٣٦١هـ/٩٧١م (أرقام ١، ٢، ٣، ٤ لوحات أرقام ١-٤). وقد بدأ ظهور هذا الخط على النقود العربية الاسلامية الخالصة منذ تعريبها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٣٧٧هـ<sup>٩٦</sup>. وظل مستخدما على النقود الاسلامية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة على

٩٤. النويري، نهاية، ج٢٥، ص ٣١٦.

٩٥. المقريري، اتعاظ، ج١، ص ٢٤١، المقريري، المقفى، ص ٤٠٥. انظر أيضا:

Madelung, W, "Karmati", E.I, Vol. IV, E.J.Brill, Leiden, pp. 660-665.

Madelung, "Karmati" وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

٩٦. فهمي، موسوعة، ص ٢٩١ ورقم ١، لوحة رقم ١، وليم قازان، المسكوكات الاسلامية (مجموعة وليم قازان)، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص ٣٢، رقم ١، ص ٢٠٤، ٢٠٦. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: قازان، المسكوكات؛ العش، النقود، ص ١٢٥.

أقل تقدير. فقد استخدم على النقود الأموية<sup>٩٧</sup> والعباسية<sup>٩٨</sup> والفلوس التي تحمل أسماء الولاة الأمويين بالمغرب<sup>٩٩</sup>، وكذلك على نقود الولاة العباسيين من بعدهم بالمغرب أيضا<sup>١٠٠</sup>. كما ظهر أسلوب الخط نفسه على النقود الذهبية الأغلبية<sup>١٠١</sup> والفاطمية<sup>١٠٢</sup> بالمغرب.

واستعمل إلى جانب الخط الكوفي البسيط نوع آخر من الخط الكوفي، هو الكوفي المورق. وفي هذا الخط تتخذ بدايات الحروف ونهايتها شكل أوراق نباتية؛ كأنصاف المراوح النخلية، والأوراق النباتية ذات الفصين أو الثلاثية الفصوص. ويلاحظ في هذا الخط أن العناصر النباتية تتصل بالحروف مباشرة دون أن يكون بينها فروع أو عروق نباتية، أي أنها تمثل رأس

Walker, John; A Catalogue of the Muhammadan Coins in the British Museum, Arab-Byzantine and Post Reform Umayyad Coins, Vol. II, (London, 1956), p. 84, no, 186; =

وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا :

Lane-Poole, Catalogue, no I; Tiesenhansen, W., Monnaies des Khalifes Orientaux (St. Petersburg, 1873), passim; Miles, George, "The Earliest Arab Gold Coinage", ANSMN, 13, New York, 1967, p. 214, pl. XLVI-7; Nicol, Catalog, p.2, nos. 44,45;

Bates, L.M, and Doran R.D, "The Art of Islamic Coinage," Treasure of Islam, Musee D' Art et D'Histoire, Geneva, 1985, p. 214, pl. XLVI-7.

٩٧. فهمي، موسوعة، ص ٢٩١، ص ٢٢٧ (لوحة ١ - ٨) قازان، المسكوكات، ص ٢٢٤، رقم ٢٦، ص ٢٠٦ - ٢١٥، العش، النقود، ص ١٢٧ - ٢١٠.

Bates; "The Art of Islamic Coinage", p. 360. nos. 389-90.

٩٨. فهمي، موسوعة، ص ٤٦٠ - ٤٧٠، لوجو ٥٥ - ٨٧. قازان، المسكوكات، ص ٢٨، رقم ٦٠، ٨٧، ص ٢١٦ - ٢٤٢. العش، النقود، ص ٢١٧ - ٥٦٤.

Bates; "The Art of Islamic Coinage", pp. 363-363;  
Nicol, Catalog, pp. 13-37.

٩٩. منها دراهم ضرب أفريقيا سنة ١٠٢ هـ وسنة ١٢٤ هـ. قرية، صالح، المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي الى سقوط دولة بني حماد، الجزائر، ١٩٨٦، ص ١٠٧، ١١٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: قرية، المسكوكات.

١٠٠. منها درهم ضرب العباسية سنة ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م، وآخر ضرب أفريقية سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م وعنهما انظر: قرية، المسكوكات، ص ١٢٧، ١٤٢ - ١٤٣.

١٠١. قازان، المسكوكات، ص ٢٥٧ - ٢٦٥، ومنها دنانير ضربت سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٩٦ هـ/ ٩٠٨ م، ولزيد من التفاصيل عنها انظر: قرية، المسكوكات، ص ١٩٠، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٢٣، ٢٢٤.

١٠٢. منها دينار ضرب المهدي ٢١٣ هـ/ ٩٢٥ م، يرجع إلى عهد عبد الله المهدي بالمغرب. انظر: قرية، المسكوكات، ص ٢٨٨. وكذلك جاء على دنانير اخرى ضربت في السنوات ٢١٨ هـ/ ٩٣٠ م، ٢١٩ هـ/ ٩٣١ م، ٢٢٢ هـ/ ٩٣٣ م، قرية المسكوكات، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٨.

الحرف نفسه، أو نهايته. وقد شاع هذا النوع من الخط في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وأقدم ما نعرفه من النماذج المتقنة يرجع إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وإن يكن من الثابت أنه عرف في وادي النيل منذ نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي<sup>١٠٢</sup>.

وقد جاء هذا الخط على كتابات كثير من نماذج هذا البحث، حيث ظهر بنهاية كلمة «الرئيس» بالسطر الأخير لكتابات مركز وجه النقود الذهبية المضروبة في فلسطين سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م (شكل رقم ٦، ٧، ٨، لوحة رقم ٦ - ٨)، وطبرية سنة ٣٦١هـ/٩٧١م (مسلسل رقم ٥ لوحة ٥)، وكذلك بنهاية كلمة «الرئيس» نفسها، في السطر الأخير من كتابات مركز ظهر الدينار المضروبة بدمشق سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م (مسلسل رقم ٩ لوحة رقم ٩). كما وضع هذا الخط في كتابات الدينار المضروبة في فلسطين سنة ٣٦٥هـ (مسلسل رقم ١٠، ١٢، لوحة رقم ١٠ - ١٢)، ودمشق سنة ٣٦٥هـ (مسلسل رقم ١١، ١٣، لوحة رقم ١١، ١٣)، وطبرية سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م (مسلسل رقم ١٤ لوحة رقم ١٤)، وفلسطين سنة ٣٦٦هـ (مسلسل رقم ٥ لوحة رقم ١٥).

وقد لوحظ أسلوب هذا الخط على نقود الفاطميين بالمغرب اعتباراً من عهد الخليفة القائم بالله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ/٩٣٤ - ٩٤٥م) : منها دينار ضرب القيروان سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م<sup>١٠٤</sup>، ودينار ضرب المهديّة سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م<sup>١٠٥</sup>، وآخر ضرب المهديّة أيضاً، ولكن سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م<sup>١٠٦</sup>، واستمر على بقية الدينار الفاطمية<sup>١٠٧</sup>. كما ظهر الخط الكوفي المورق على النقود البويهية أيضاً منها : دينار باسم بهاء الدولة ضرب سوق الأهواز سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م<sup>١٠٨</sup> ويظهر هذا الخط في نهاية كلمة «الدين» بالسطر الأخير لكتابات مركز الظهر.

١٠٢. حسن، زكي محمد، فنون الإسلام، القاهرة ١٩٤٨، ص ٢٣٨، ٢٣٩ شكل ١٦٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : حسن، فنون؛

مأمون يس عبدالله، الكتابة العربية وتاريخها وأنواعها، (د.م. د.ت) ص ٢٥. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : عبد الله : الكتابة.

١٠٤. قرية، المسكوكات، ص ٣١٩.

١٠٥. المرجع السابق، ص ٣٢٥.

١٠٦. المرجع السابق، ص ٣٢٩.

١٠٧. المرجع السابق، ص ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٦، ٣٧٤، ٣٨٤.

١٠٨. رمزي جبران بخعازي، «الوحدة والتنوع في النقود الإسلامية»، التنوع في الوحدة، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ١٦٩ رقم ٧. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : بخعازي : الوحدة.

ومن أنواع الزخارف النباتية التي جاءت على النقود الذهبية الجنبائية الورقة النباتية ذات الفصين التي نقشت أسفل كتابات مركز وجه الدينارين المضروبين بدمشق سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م (مسلسل رقم ١١، ١٢ لوحة رقم ١١، ١٣، شكل رقم ١). كما ظهرت أسفل كتابات مركز ظهر الدينار المضروب بدمشق سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م (مسلسل رقم ١٥ شكل رقم ١). أما الورقة النباتية ذات الثلاثة فصوص، فقد نفذت أسفل كتابات مركز الوجه والظهر الخاصين بالدينار المضروب بفسطين سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م (مسلسل رقم ١٢، ١٦ لوحة رقم ١٢، ١٦ شكل رقم ٢)، ويحمل هذا الدينار اسم إسحاق وكسرى وجعفر. وظهرت نصف المروحة النخيلية أسفل كتابات مركز ظهر الدينار المضروب بدمشق سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م (مسلسل رقم ١٦ لوحة رقم ١٦ شكل رقم ٣)، ويحمل اسم أبي منصور المعزي واسم الخليفة العباسي الطائع لله. أما الزخرفة النباتية التي تشبه الخفاف، فقد وردت أسفل كتابات مركز ظهر الدينار المضروب بطبرية ٣٦٦هـ/٩٧٦م (مسلسل رقم ١٤ لوحة رقم ١٤ شكل رقم ٤)، باسم أبي منصور المعزي، وعليه اسم الطائع لله أيضا. وهناك زخرفة تشبه حرفي ميم رأسيهما متقابلين على خط أفقي (لوحة رقم ١٣ شكل رقم ٥)، وقد جاءت هذه الزخرفة الميمية أسفل كتابات مركز ظهر الدينارين الثلاثة المضروبة بدمشق سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م (مسلسل رقم ٩، ١١، ١٣ لوحة رقم ٩-١٣ شكل رقم ٥).

والخلاصة أن هذه النقود الذهبية الجنبائية تثبت بجلاء أن علاقة الأسرة الجنبائية بالعباسيين كانت قوية حينما تم ضرب تلك النقود، والدليل على ذلك اعترافهم بشرعية الخلافة العباسية. وذلك بتسجيل اسم الخليفة العباسي المطيع لله، ومن بعده ابنه الطائع لله، في كتابات مركز نقودهم المضروبة ببعض دور السك ببلاد الشام، كفسطين، ودمشق، وطبرية. وفي الوقت نفسه، فقد سكت هذه النقود حينما كانت العلاقة بين الجنبائين والفاطميين متوترة وسيئة، وتحكمها حروب ومنازعات مكشوفة.

ويبدو أن السبب الرئيسي في ضرب هذه النقود هو اثبات وتأكيد تبعية البلاد الشامية المسجلة أسماؤها على هذه النقود، لحكم العباسيين والجنبائين وليس للفاطميين، على أساس أن السكة هي إحدى شارات الملك والسلطان الثالث. وفي الوقت نفسه، استخدمت هذه الدينارين كنوع من الدعاية السياسية، لتوهم الآخرين بأن هذه البلاد (فلسطين وطبرية ودمشق) قد دانت لهم، وربما ليس لأغراض اقتصادية. ومع أننا لا نغفل خيرات الشام، إلا أن الجنبائين كانوا غير قادرين على سك دينارين ذهب حتى في بلادهم الأصلية، الأحساء، حيث أن سكتهم في بلادهم كانت من الرصاص فقط، وكانوا يضعونها في زناجيل تنوء بها العصبة أولو القوة عند استخدامها في معاملاتهم التجارية، وكانت من السوء بحيث لا يتم التداول بها خارج مدينتهم<sup>١٠٩</sup>. وذلك بخلاف هذه المجموعة ذات القيمة التاريخية المهمة التي نوهنا عنها سابقا.

١٠٩ خسرو، سفرنامه، ص ١٤٢، وما بعدها.

ونخلص أيضا إلى أن هذه المجموعة تتجاوز قيمتها التاريخية إلى قيمتها الأثرية، وما تضيفه من جديد إلى علم المسكوكات، حيث يوجد بها عدد من الدنانير النادرة، سواء من حيث مكان سكّها، أو تاريخه، أو هما معا، أو الأسماء التي تحملها، كتلك التي ضربت في مدينة طبرية، وتلك التي ضربت في دمشق وفلسطين سنة ٣٦٥ هـ، وخاصة التي تحمل أسماء إسحاق وكسرى وجعفر، والدينار المضروب بفلسطين سنة ٣٦٦ هـ. ويحمل اسم جعفر بن الفضل، والذي لم ينشر له ولسابقيه، أمثلة مشابهة حتى الآن.

## أولاً : اللوحات

لوحة رقم (١)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب فلسطين سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٢



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين والمسجل تحت رقم ٣٩٢



لوحة رقم (٢)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب فلسطين سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٣



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٣

لوحة رقم (٣)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب فلسطين سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٤



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٤

لوحة رقم (٤)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب فلسطين سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٥



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٥

لوحة رقم (٥)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب طبرية سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٦



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بطبرية سنة ٣٦١هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٦

لوحة رقم (٦)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب فلسطين سنة ٣٦٢هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٧



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦٢هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٧

لوحة رقم (٧)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب فلسطين سنة ٣٦٢هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٩



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦٢هـ والمسجل تحت رقم ٣٩٩

لوحة رقم (٨)



دينار باسم الحسن بن أحمد ضرب فلسطين سنة ٣٦٢هـ والمسجل تحت رقم ٤٠١



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦٢هـ والمسجل تحت رقم ٤٠١

لوحة رقم (٩)



دينار باسم (ابو منصور المعزي) ضرب دمشق سنة ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٤



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بدمشق سنة ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٤



لوحة رقم (١٠)



دينار المسجد باسم كل من اسحق وكسرى وجعفر بفلسطين سنة ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٥



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بدمشق سنة ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٥

لوحة رقم (١١)



دينار باسم أبو منصور المعزى ضرب دمشق ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٦



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بدمشق سنة ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٦

لوحة رقم (١٢)



دينار يحمل اسم كل من إسحق وكسرى وجعفر ضرب فلسطين سنة ٣٦٥ هـ المسجل تحت رقم ٤٠٧



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦٥ هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٧

لوحة رقم (١٣)



دينار باسم أبو منصور المعزى ضرب دمشق سنة ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٨



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بدمشق سنة ٣٦٥هـ والمسجل تحت رقم ٤٠٨

لوحة رقم (١٤)



دينار باسم أبو منصور المعزى ضرب طبرية سنة ٣٦٦هـ والمسجل تحت رقم ٤١٣



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بطبرية سنة ٣٦٦هـ والمسجل تحت رقم ٤١٣

لوحة رقم (١٥)



دينار باسم أبو منصور المعزى ضرب فلسطين سنة ٣٦٦هـ والمسجل تحت رقم ٤١٤



رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦٦هـ والمسجل تحت رقم ٤١٤

لوحة رقم (١٦)



دينار باسم أبو منصور المعزى ضرب فلسطين سنة ٣٦٧هـ والمسجل تحت رقم ٤١٦

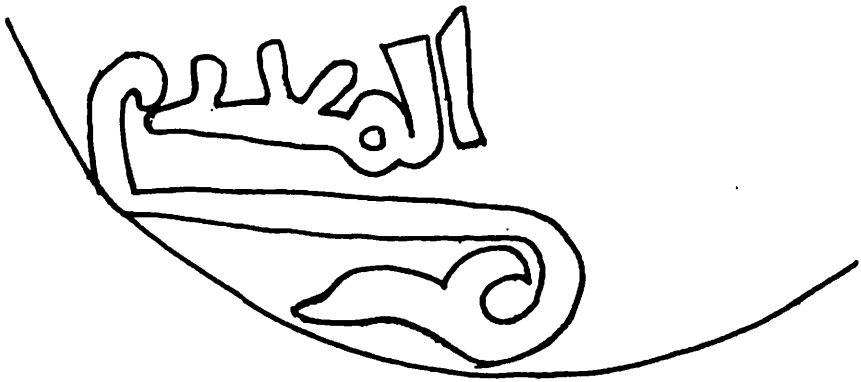
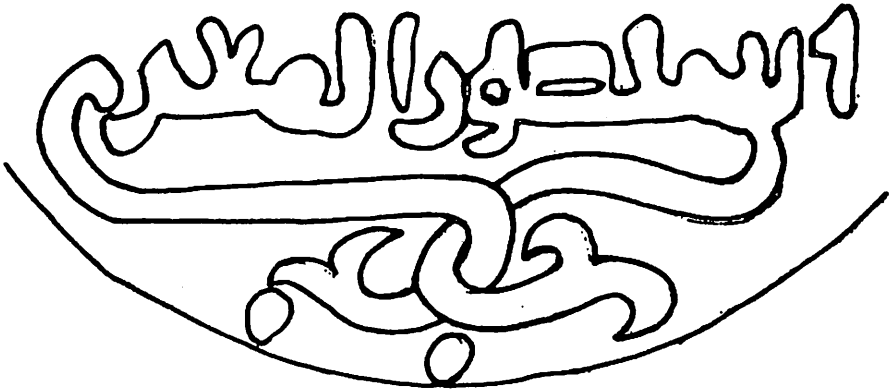


رسم توضيحي لكتابات وزخارف الدينار العلوي  
المضروب بفلسطين سنة ٣٦٧هـ والمسجل تحت رقم ٤١٦

## ثانياً : الأشكال

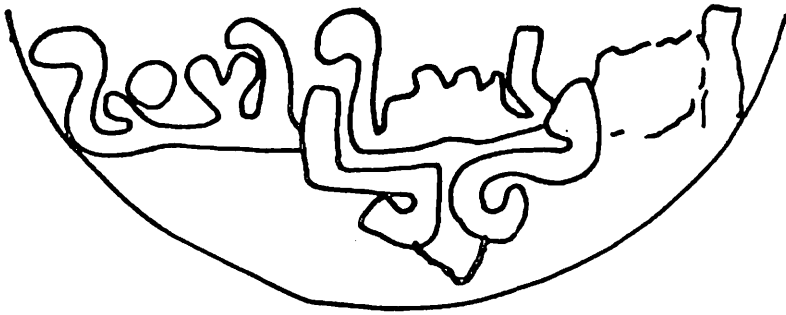
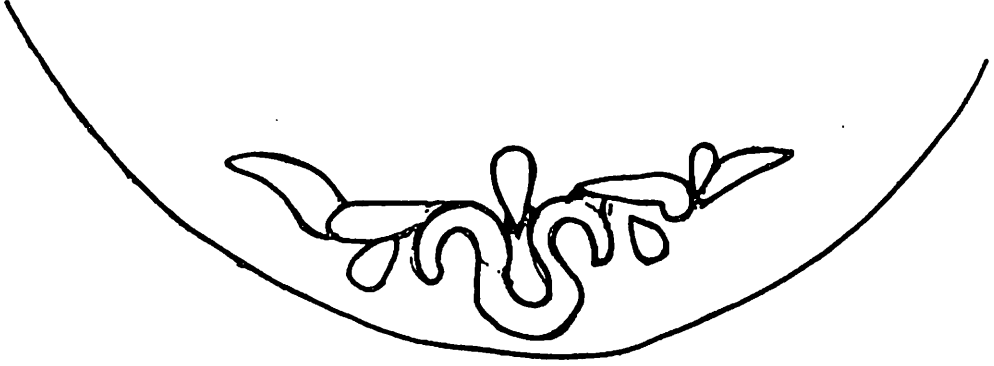


شكل رقم (١)



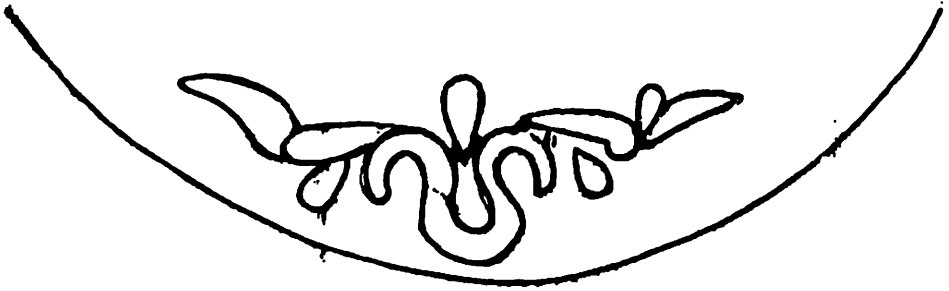
رسم توضيحي للورقة النباتية ذات الفصين

شكل رقم (٢)



رسم توضيحي للورقة النباتية الثلاثية الفصوص

شكل رقم (٣)



رسم توضيحي للزخرفة النباتية المعروفة بنصف المروحة النخيلية

## التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي لبلاد الشام

محمد عبد القادر خريسات\*

يرتبط التوسع العمراني لآية مدينة ارتباطا وثيقا باتساع خططها، وهي المؤشر على توسع العمران أو انحساره. ومع أننا قلما نجد مدينة اسلامية دون أن يؤلف لها تاريخ خاص - إن لم يكن أكثر - سواء كان ذلك في ذكر للخطط أم ترجمة للأعلام أم سرد لحوادث تاريخها بشكل عام إلا أننا لا نجد تعرضا لموضوع اتساع العمران أو انحساره بصورة مباشرة.

والمتتبع لتوسع عمران دمشق يجد صعوبات عديدة؛ فهي تختلف عن المدن التي أنشأها المسلمون كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وبغداد. فهذه المدن خططلها المسلمون، وبنوا خططها فكان من السهل تتبع التطور العمراني فيها.

أما دمشق فقد كانت مدينة عامرة عند الفتح. وعند الاستقرار فيها لم يخضع توزيع السكان للمعايير القبلية في المدن المستحدثة حيث ترتبط الخطط بأسماء ساكنيها. لقد جاء توزيع السكان في دمشق عند الفتح عشوائيا، ومن هنا فأننا لا نجد مسميات قبلية مثل التي في غيرها من المدن، وإن وجدت فإنها لا تتجاوز أصابع اليد، وهي دروب صغيرة، كدرب الأسديين ودرب القرشيين، ودرب (قصر) البجدالة وغيرها. وربما كان ذلك وراء عدم ذكر المؤرخين الأوائل لخطط دمشق كما ذكروا خطط غيرها من المدن<sup>١</sup>.

ومما يزيد من صعوبة تتبع خطط دمشق كثرة تغير الأسماء وتبدلها عبر الفترات التاريخية المختلفة، مما يجعل المرء يواجه صعوبة في تحديد كثير من المواقع. ولم يقتصر هذا الاختلاف على الدروب والمحلات بل تعداه إلى مواضع هامة مثل قبر معاوية بن أبي سفيان وأبواب دمشق ومقابرها. بل أننا نجد مؤرخا مثل ابن عساكر، الذي اهتم بخطط دمشق وذكر مواضعها، يحدد بعض المواقع في أماكن متعددة مثل مسجد وائلة بن الأسقع الليثي على سبيل المثال، فقد ذكره في قبلة الزلاقة<sup>٢</sup>، وعلى رأس درب الزلاقة، وقبلة دار ابن البقال، وعلى

\* قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، الملكة الأردنية الهاشمية.

١. انظر: اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م) البلدان، ليدن ١٨٩١ م، ص ٢٢٦، سيشار إليه عند وروده، اليعقوبي، البلدان.

٢. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٧٥١ هـ / ١١٧٦ م) تاريخ مدينة دمشق، المجلدة الثانية، القسم الأول، خطط دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، للمجمع العلمي العربي، دمشق م ٢، ق ١، ص ٥٨. وسيشار إليه عند وروده، ابن عساكر، تاريخ دمشق المنجد.

رأس درب ابن البقال<sup>٢</sup>. وجاء ابن كثير ليذكر بأنه عند حبس باب الصغير من القبلة احترق في فتنة تمرلنك، ولم يبق منه إلا رسومه، وعلى بابيه من الشرق قناة ماء<sup>٤</sup>.

وقد أشار ابن عساكر إلى هذا الأمر وقال<sup>٥</sup>: «ولا سبيل إلى تحقيق أمرها (الدور) لتغيير أوضاعها، ولكثرة نواحيها وأصقاعها و ينطبق ذلك على محلاتها، ودرو بها، وقياسرها».

ومن العوامل التي أدت إلى عدم تحديد مواضعها بدقة تعرض دمشق المستمر للزلازل والحرائق والسيول فكان من الصعوبة بمكان أن يتمكن المرء من تتبع أسماء المحلات والحارات والدروب، ولو أمكنه ذلك لاقتضى منه عدة مجلدات<sup>٦</sup>.

ومع هذه الصعوبات فقد حظيت دمشق بأكثر من مؤلف عنها، غير أن توسعها العمراني لم يبرز بصورة منسقة في المصنفات التي وصلت إلينا، ويعتبر أبو زرعة عبد الرحمن ابن عمرو الدمشقي (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) من أوائل الذين اهتموا بتاريخ دمشق حيث وضع عدة كتب تتعلق بدمشق منها: كتاب الطبقات، وتاريخ دمشق، وتسمية من نزل من الأنصار، وقبائل اليمن الذي نقل عنه ابن عساكر في تاريخه، وتسمية نفر قدموا الشام في إمارة عبد الملك، وتسمية من نزل الشام للجهاد فقتل فمات<sup>٧</sup>.

وأهتم بتاريخ دمشق أحمد بن حميد الشهير بابن أبي العجائز الذي توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وكان قاضيا على دمشق وصنف تاريخ دمشق، ومن كان بدمشق وغوطتها من بني أمية، وعنه نقل كل من ابن عساكر وياقوت الحموي<sup>٨</sup>.

٣. المصدر السابق، م ٢، ق ١، ص ١٢٤.

٤. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٤٦م)، البداية والنهاية، ١٤ ج، تدقيق وتحقيق: أحمد أبو ملحم وزملائه، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م، ج ٩، ص ٦٤. وسيشار إليه عند وروده، ابن كثير، البداية والنهاية.

٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٤١.

٦. يوسف بن عبد الهادي المعروف بالبريد (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٢م) نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق، نشره حبيب الزيات، مجلة المشرق، بيروت، م ٢٧، ١٩٢٩م، ص ١٩.

٧. أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) تاريخ أبي زرعة، ٢ ج، تحقيق: شكر الله القوجاني، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٠م، ج ١، ص ٧٠-٧١. وسيشار إليه عند وروده، أبو زرعة، تاريخ؛ وانظر: شاکر مصطفى، «مدرسة الشام التاريخية»، الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر، في تكري تسمائة سنة على ولادته، منشورات المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية، دمشق ١٩٧٩، ص ٣٤٥-٣٤٦. وسيشار إليه عند وروده، شاکر مصطفى، «مدرسة الشام التاريخية».

٨. شاکر مصطفى، «مدرسة الشام التاريخية»، ص ٢٨٦-٢٨٧، وانظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م). معجم البلدان، ٥ ج، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م، مادة جرود ونكره باسم أحمد بن حبيب. وسيشار إليه عند وروده، ياقوت: معجم البلدان.

وصنف أحمد بن المولى بن يزيد بن أبي بكر الأسدي (٢٨٦هـ/٨٩٩م)، وكان قاضيا على دمشق أيضا. كتابا ذكر فيه جامع دمشق، وفصل أمر الكنيسة وهدمها، وقصة بناء الجامع وزخرفته<sup>٩</sup>. وكتب أبو الحسين محمد بن عبدالله بن جعفر الرازي (٣٤٧هـ/٩٥٨م) في تسمية أمراء دمشق في أيام بني العباس، وصنف كتابا آخر عن أمراء دمشق وكانت آثاره من مصادر تاريخ دمشق الكبير<sup>١٠</sup>.

وكتب عن دمشق كذلك تمام بن محمد البجلي الرازي (ت ٤١٤هـ/١٠٢٣م)، وعبد العزيز بن أحمد الكتاني (٤٦٦هـ/١٠٧٢م) صاحب كتاب الوفيات. وأبو الحسن علي بن محمد بن شجاع الربيعي المشهور بابن أبي الهول (ت ٤٤٤هـ/١٠٢٥م) صاحب كتاب فضائل الشام وما ذكر فيها من الامارات والبقاع الشريفة. ويعتبر كتابه أول كتاب وصلنا في سلسلة كتب الفضائل الدمشقية<sup>١١</sup>.

وممن كتب في تاريخ دمشق عبد المنعم بن علي النحوي (ت القرن الخامس الهجري)، الذي نقل عنه ابن عساكر في ترجماته لولاية دمشق، ولم يبين ابن عساكر اسم الكتاب الذي نقل منه<sup>١٢</sup>، ومنهم أيضا هبة الله بن أحمد الأكفاني (ت ٥٢٤هـ/١١٢٩م)، الذي نقل ابن عساكر من كتابه المسمى جامع الوفيات الذي سجل فيه تراجم معاصريه، وذيل به على كتاب الوفيات لعبد العزيز الكتاني<sup>١٣</sup>. كما أورد الأكفاني معلومات عن العمران والرجال في كتابه تعداد أمراء دمشق<sup>١٤</sup>. ومن المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ دمشق مجير الکتامي (القرن السادس الهجري)، وقد نقل ابن عساكر عنه أسماء الولاية الفاطميين بدمشق<sup>١٥</sup>. ومنهم كذلك حمزة بن اسد بن علي بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، فقد ذكر تاريخا عاما لدمشق، أورد فيه أخبارا تفصيلية عن أحداثها زمن الفاطميين على وجه الخصوص<sup>١٦</sup>. وابراهيم بن

٩. ابن شداد، عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) الاعلاق الخطيرة في نكر امراء الشام والجزيرة، ج ٣، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٦٥م، ص ٢٣-٢٤. وسيشار اليه عند وروده: ابن شداد، الاعلاق الخطيرة.

١٠. انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك بن عبدالله (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، أمراء دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٥م، ص ٥، وسيشار اليه عند وروده: الصفدي، أمراء دمشق.

١١. شاكر مصطفى، «مدرسة الشام التاريخية»، ص ٣٩٣.

١٢. الصفدي، أمراء دمشق، ص ١٦.

١٣. المصدر السابق، ص ٦.

١٤. شاكر مصطفى، «مدرسة الشام التاريخية»، ص ٢٥٠-٢٥١.

١٥. الصفدي، أمراء دمشق، ص ٥.

١٦. انظر: ابن القلانسي، حمزة بن اسد بن علي بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، مقدمة المحقق ص، هـ وما بعدها. وسيشار اليه عند وروده: ابن القلانسي، تاريخ دمشق.

محمد الحنائي الذي نقل عنه ابن عساكر فيما يتعلق بمعالم دمشق وبعض المنشآت فيها<sup>١٧</sup>.

ومعظم هذه الآثار لم تبلغ إلينا إلا عن طريق الحافظ: ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م). في كتابه تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، وتسمية من حل من الأوائل أو اجتاز بنواحيها من واديها وأهلها. وقد خص ابن عساكر خطط دمشق وعمرانها بمجلد كامل سجل فيه المساجد والقنى (السبل) والحمامات والمدارس والربط والخانكة والمقابر والفنادق والقيساريات والرحى (الطواحين) والدروب، والأسواق. ومع أن بقية الكتاب ترجمة للأشخاص، إلا أن هذه التراجم لا تخلو من معلومات قيمة عن خطط دمشق وعمرانها. ولكنها في أحوال كثيرة تأتي مجردة دون تحديد مواقعها أو زمن عمرانها<sup>١٨</sup>.

ووضع الصاغاني الحسن بن محمد الحسن (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٩م) كتاباً أسماه دار السحابة في مواضع وفيات الصحابة. وجاء عز الدين بن شداد (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) فوضع كتاب الأغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، خص مدينة دمشق بمجلد منه، اتبع فيه طريقة ابن عساكر<sup>١٩</sup>.

وأورد معلومات متفرقة عن خطط دمشق كل من يقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في معجم البلدان، وابن خلكان (ت ٦٢٨هـ/١٢٥٨م) في وفيات الأعيان. وصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) في كتابه أمراء دمشق، وضرب الحوطة على جميع الغوطة. وجاء الحسن بن أحمد الأربلي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) ليتحدث عن خطط دمشق ومدارسها وربطها وجوامعها وحماماتها. وتبعه يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد في كتابيه: نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق، وثمار المقاصد في ذكر المساجد. وعبد القادر النعيمي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م) في كتابه المدارس في أخبار المدارس، ودور القرآن في دمشق، وابن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) في كتابه القلائد الجوهريّة في تاريخ الصلحية.

وفي العصر الحديث قام العديد من الباحثين بدراسة خطط دمشق وعمرانها، كان في مقدمتهم دارفيو الذي وصف دمشق في القرن السابع عشر (١٦٦٠ - ١٧٠١ م). وسوفاجيه، وديسو، وكرد علي، وصلاح الدين المنجد، وعبد القادر ربحاوي، ومحمد أحمد الدهان، وخالد معاذ، وأحمد رمضان أحمد وغيرهم.

١٧. شاكرمصطفى، «مدرسة الشام التاريخية»، ص ٢٩٢. وانظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، م ٢، ق ١ (المنجد)، ص ٢٢.

١٨. لمزيد من الاطلاع انظر: عبد القادر الريحاوي، «خطط مدينة دمشق عند اللورخ ابن عساكر»، الكلمات والبحوث والقوائد اللقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر، منشورات المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ١٩٧٩، ص ٧٩ - ١١٥. وسيشار اليه عند وروده: ريحاوي، خطط مدينة دمشق.

١٩. خالد معاذ، «دمشق في أيام ابن عساكر»، الكلمات والبحوث والقوائد اللقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر، منشورات المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ص ١٥١.

وكان من الممكن أن تمدنا كتب الوقف بمعلومات دقيقة ووافية عن الخطط والحركة العمرانية لاحتوائها على أسماء الواقفين، والمناطق التي أوقفوها، وبيان مواقعها وحدودها وأوصافها، إلا أن ذلك لم يصل إلينا في الفترات التاريخية الأولى. هذا مع العلم بأن الأوقاف المتأخرة، وسجلات المحاكم الشرعية تلقي كثيرا من الضوء على الخطط والحركة العمرانية لدمشق لا سيما في العصور الحديثة.

ولالقاء الضوء على التطور العمراني لدمشق، لا بد من تتبع ذلك منذ الفتح الاسلامي. لقد كانت المدينة عند الفتح بيضوية الشكل يحيط بها سور عظيم فيه عدة أبواب<sup>٢٠</sup>. ولما فتحت المدينة خلت منازل كثيرة من أهلها بسبب النزوح<sup>٢١</sup>، أو بسبب الوفاة في الحرب، فقام المسلمون بقسمة هذه المنازل. وأبقوا المنازل التي تم الصلح عليها لأهلها، فمساكنهم وكنائسهم مع دمائهم لم تسكن ولم تقسم<sup>٢٢</sup>.

و يذكر ابن عساكر أن خريم بن فاتك الأسدي أو أخاه سبرة تولى قسمة الدور بدمشق، فكان ينزل الروم في العلو، وينزل المسلم في السفلى لئلا يضر المسلم بالذمي<sup>٢٣</sup>.

ومن المرجح أن المدينة لم تجذب إليها أعدادا كبيرة من الفاتحين، لعدم توافر المنازل من جهة، وعدم رغبة المسلمين في الاستقرار فيها. وذكر اليعقوبي<sup>٢٤</sup> أن منازل القبائل كانت في ظاهر البلد لا في داخله لأن ظاهر دمشق أكثر سعة. ويؤكد ذلك النص الذي أورده ابن

٢٠. عن ابواب دمشق انظر: البلاذري، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م). فتوح البلدان مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨ م، ص ١٢٧. وسيشار اليه عند وروده: البلاذري، فتوح البلدان؛ قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٦ م) الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار رشيد، بغداد، ١٩٨١ م، ص ٢٩١. وسيشار اليه عند وروده: قدامة بن جعفر، الخراج؛ الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)، فتوح الشام (منسوب اليه)، ج ٢، مكتبة المحتسب، عمان. د. ت، ج ١، ص ٧٠، ٨٤. وسيشار اليه عند وروده: الواقدي، فتوح الشام؛ ابن الفقيه، أبو بكر احمد بن ابراهيم (ت ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م)، مختصر البلدان، ليدن (١٣٠٢ هـ)، ص ١٠٦. وسيشار اليه عند وروده: ابن الفقيه، مختصر البلدان؛ صلاح الدين؛ المنجد، «خطط دمشق»، مجلة المشرق، بيروت ١٩٤٨ م، ص ٤٢، ص ٢٤٣ وما بعدها.

٢١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٩.

٢٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (٧١١ هـ / ١٣١١ م) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، مراجعة روحية النحاس، دار الفكر، دمشق ١٩٨٤ م، ج ٣، ص ٢١٤. وسيشار اليه عند وروده: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق.

٢٣. المصدر السابق، ج ٨، ص ٤١، ج ٩، ص ٢٠٤؛ ابن الحوراني، عثمان ابن احمد السويدي (ت ١٠٠٠ هـ / ٥٩٣ م)، الاشارة الى اماكن الزيارة المسمى زيارات الشام، تحقيق بسام عبد الوهاب، مكتبة الغزالي، دمشق ١٩٨١ م، ص ٥١. وسيشار اليه عند وروده: ابن الحوراني، زيارات.

٢٤. اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)، البلدان، بريل، ليدن، ١٨٩١، ص ١١٣. وسيشار اليه عند وروده: اليعقوبي، البلدان.



عساكر<sup>٢٥</sup> عند زيارة أبي جعفر عبدالله بن محمد لدمشق وسؤاله عن الأرضين التي بأيدي أولاد الصحابة، يذكرون أنها قطائع لأبائهم قديمة. فقال له سليمان بن عتبة الغساني (ت ١٨٥هـ/٨٠١م): «يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل لما أظهر المسلمين على بلاد الشام، وصالحوا أهل دمشق كرهوا أن يقيموا بالبلدان دون أن يتم ظهورهم وإثخانهم في عدو الله فعسكروا في مرج بردى، ما بين المزة الى مرج شعبان جنبي بردى، مروجا كانت مباحة فيما بين أهل دمشق وقراها، ليست لأحد منهم، فلقاموا بها حتى أوطأ الله بهم المشركين ذلا وقهرا، فأجيا كل قوم محلهم، وبنوا فيها فرفع ذلك الى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم فبنوا الدور ونصبوا الشجر، ثم أمضاه عثمان بن عفان. فقال ابو جعفر: «قد أمضيناه لأهله». هذا وللغوطة دور في استقطاب عدد كبير من القبائل التي استقرت فيها لأن فيها منفرجا لهم ولمواشيهم<sup>٢٦</sup>.

ولم تذكر المصادر تفصيلات حول أسس توزيع المنازل، الا أنها أوردت أسماء بعض الصحابة الذين أقاموا بدمشق والأماكن التي سكنوا فيها والمساجد التي نسبت اليهم. وهذه وان جاءت مجردة في كثير من الأحيان الا أنها تعطي صورة لبعض ملامح العمران بدمشق عند الفتح.

لقد سكن أبو الدرداء في باب البريد، وكانت داره هذه هبة من معاوية، عرفت فيما بعد بدار العزى<sup>٢٧</sup>، وسكن وائلة بن الأسقع في الزلاقة داخل باب الصغير<sup>٢٨</sup>. وأيمن بن خريم ابن فاتك الأسدي عند رقاق عطا<sup>٢٩</sup>، وفضالة بن عبيد الانصاري بدرب الريحان قبلي

٢٥. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ١٨٢.
٢٦. صلاح الدين المنجد، «منازل القبائل العربية حول دمشق»، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م ٣٠، ج ١، ١٩٥٥م، ص ٦٤.
٢٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٩؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، (تحقيق مأمون الصاعرجي)، ج ٢٠، ص ١٠؛ النعمي، عبد القادر النعمي (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م) الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٨-١٩٥١م، ج ١، ص ٤٨٢. وسيشار اليه عند وروده: النعمي، الدارس؛ ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م) قضاة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٦م، ص ١-٢. وسيشار اليه عند وروده: ابن طولون، قضاة دمشق.
٢٨. أنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ٥٨، ص ١٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٦٤، النعمي، الدارس، ج ٢، ص ٣٠٨؛ ابن عبد الهادي، يوسف بن عبد الهادي، «نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق بدمشق»، نشر حبيب الزيات، مجلة المشرق، م ٣٧ سنة ١٩٣٩م، ص ١٩.
٢٩. أنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ٥٦، ص ١٣٤؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، (دمشق)، ص ٩٤. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق احمد راتب حموش ومحمد ناجي العمر، دار الفكر، دمشق ١٩٨٨م، ج ١٧، ص ٦٤؛ النعمي، الدارس، ج ٢، ص ٣٠٤.

الخضراء قريبا من سوق القمح<sup>٢٠</sup>. ويذكر ابن سعد<sup>٢١</sup> أن فضالة بن عبيد قد قام بينهاها. وأوس بن أوس في درب القلى<sup>٢٢</sup>، وي زيد بن نبيشه في سوق الريحان<sup>٢٣</sup>.

واتخذ ابو عبيدة دارأله في حجر الذهب<sup>٢٤</sup> بباب البريد وخالد بن الوليد عند باب توما<sup>٢٥</sup>، وجريير بن عبد الله البجلي عند حمام الحمى<sup>٢٦</sup>، ومالك بن عوف النصري على شارع البطيخ أو سوق دار البطيخ<sup>٢٧</sup>. وعمرو بن مرة الجهني بزقاق (درب) بني طلحة نسبة الى ابنه بباب توما<sup>٢٨</sup>. وواثله بن الخطاب العدوي في رحبة خالد عند باب توما<sup>٢٩</sup>.

وأقام بعض الأنصار في نواحي السوق عند باب توما<sup>٤٠</sup>. وبعضهم الآخر بباب البريد عند سوق القمح، فعرفت الدرب التي أقاموا فيها بدرب الأنصار<sup>٤١</sup>.

وسكن الحجاج بن علاط السلمي في سوق الطرائف أول سوق الطير، ثم صارت لابنه خالد فعرفت الدار والسوق بالخالدين بناحية القلانسيين<sup>٤٢</sup>. وسكن عبد المطلب بن ربيعة

٢٠. انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ٥٩، ١٢٨-١٤١؛ ابو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (١٦٥ هـ/١٢٦٦ م)، تراجم رجال القرنين السابع والثامن المعروف بالذيل على الروضتين، نشر عزت العطار، دار الجليل، بيروت ١٩٧٤ م، ص ٢٢٠؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، دمشق، ص ٩٨؛ النعمي، المدارس، ج ٢، ص ٢٠٩؛ ابن طولون، قضاة دمشق، ص ٦٥.

٢١. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م)، الطبقات، ج ٩، دار صادر، بيروت ١٩٨٥ م، ج ٧، ص ٤٠١، سيشار اليه عند وروده: ابن سعد، الطبقات.

٢٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١١٤.

٢٣. المصدر السابق، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١١٤.

٢٤. المصدر السابق، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١١٤، ١٢٩.

٢٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١١٤.

٢٦. المصدر السابق، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٥.

٢٧. المصدر السابق، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٥.

٢٨. المصدر السابق، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٦؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٩، ص ٢٨٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٢.

٢٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٦؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٢٥، ج ٩، ص ٢٩٢؛ النعمي، المدارس، ج ١، ص ٥٦٠.

٤٠. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٧.

٤١. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٨؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ٢٢٢؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، (دمشق)، ص ١٢٢.

٤٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٩؛ الصفي، أمراء دمشق، ص ٢٩.

الحارث الهاشمي بدرب الهاشميين داخل باب الجابية، زقاقاً ضيقاً، قطعة بن معاوية<sup>٤٣</sup>. وسكن سهل بن الحنظلية في منطقة حجر الذهب التي آلت الى معاوية بعد موته دون عقب، فوهبها معاوية للمضحك بن قيس<sup>٤٤</sup>.

وكان لعمر بن العاص عدة دور، إحداها في المنطقة من حدود الشعارين ناحية باب وسكن بعض الأسديين في درب الأسديين بباب الجابية منهم سبرة بن فاتك الأسدي وكان في شمال الزقاق<sup>٤٧</sup>. وعبد الله بن بكر بن خريم الأسدي الذي قدم مع خالد بن الوليد ونزل

وسكن بعض الأسديين في درب الأسديين بباب الجابية منهم سبرة بن فاتك الأسدي وكان في شمال الزقاق<sup>٤٧</sup>. وعبد الله بن بكر بن خريم الأسدي الذي قدم مع خالد بن الوليد ونزل داخل الجابية في درب الأسديين. ثم اشترى من بني محسن الأزديين دارهم وبناها حماماً. واشترى في زقاق سوق اليهود دوراً، منها دار الأقطع مولى ثقيف<sup>٤٨</sup>. وسكن في باب الجابية أيضاً عون بن حكيم مولى الزبير بن العوام<sup>٤٩</sup>. وابن محرز من موالي بني مازن من فزارة بالزلاقة داخل باب الصغير<sup>٥٠</sup>. وأوسط بن عمر (عامر) البجلي عند الباب الشرقي<sup>٥١</sup> وعبد الله بن أبي المهاجر المخزومي ناحية باب الفراديس<sup>٥٢</sup>.

وهناك عدة دور للصحابة لم تشر المصادر الى مواضعها كدار العباسي بن مرداس<sup>٥٣</sup>.

٤٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٩؛ وانظر المصدر نفسه ص ٧٧؛ ابو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)، الروضتين في اخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد احمد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٨. وسيشار اليه عند وروده، ابو شامة، الروضتين؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، (دمشق)، ص ٢٩٨.
٤٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٤٠.
٤٥. المصدر السابق، م ٢، ق ١، ص ١٤١، ١٦٢؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٩، ص ٢٣٢.
٤٦. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٩، ص ٢٣٢.
٤٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٤١؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، (دمشق)، ص ١٢٥.
٤٨. ابن عساكر، تاريخ دمشق (عبادة بن اوفى) تحقيق شكري فيصل وروحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ٤٦١.
٤٩. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٩، ص ٣٥٤.
٥٠. ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق سكيئة الشهابي، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٦ م، ج ٢٨، ص ٣٩٠.
٥١. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، (تحقيق مأمون الصاغري واحمد الحماني)، دار الفكر ١٩٨٤ م، ج ٥، ص ٧٧.
٥٢. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، (تحقيق سكيئة الشهابي)، دار الفكر دمشق ١٩٨٨ م، ج ١٥، ص ٣٠٤.
٥٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، (تحقيق روحية النحاس)، دار الفكر، دمشق ١٩٨٧ م، ج ١٢، ص ٥.

وأبي ريحانة شمعون الأزدي، وهو ممن شهد الفتح<sup>٥٤</sup>، وعثمان بن حيان المري<sup>٥٥</sup>، وعثمان ابن عبد الاعلى الأزدي<sup>٥٦</sup>.

و يذكر اليعقوبي أن الغالب على أهل دمشق كان من القبائل اليمانية، وبها قوم من قيس<sup>٥٧</sup>. وعلى ضوء المعلومات القليلة التي وردت عن الصحابة الذين استوطنوا دمشق، يلاحظ أن مناطق باب البريد، وحجر الذهب، وباب توما، وباب الجابية، وباب الفراديس قد جذبت إليها أعداداً أكثر من غيرها من المناطق الأخرى. وبشكل عام يلاحظ أن المناطق الغربية من دمشق كانت أكثر استقطاباً للمسلمين عند الفتح. وهذا يدل على أن سكان المناطق الشرقية منها قد بقوا في مساكنهم عند الفتح لا سيما في محلاتي اليهود والنصارى. كما أن الامتداد العمراني قد بقى داخل سور دمشق، ولم يمتد إلى خارجها باستثناء ما كان في المروج المجاورة للمدينة.

ولما آلت الخلافة إلى الأمويين أخذ العمران يتسع في دمشق وذلك وفق التطورات الطبيعية كاستقطاب دمشق للمهاجرين من أنحاء الدولة لا سيما أهل الحجاز الذين أطلق عليهم اسم الجالية<sup>٥٨</sup>. وكثرة القصور التي شيدها الأمويون في مختلف أنحاء دمشق حتى أن اليعقوبي ذكر أن أكثر منازل دمشق هي للأمويين<sup>٥٩</sup>.

وكان رائد الأمويين في العمارة هو معاوية بن أبي سفيان الذي كان ببناء الخضراء زمن عثمان بن عفان، وقد كانت جزءاً من أرض المعبد قبل الفتح، فقام معاوية بتجديدها. وقد بقيت قائمة إلى أن أحرقت سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأرذلهم<sup>٦٠</sup>.

٥٤. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، (تحقيق رياض عبد الحميد مراد)، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦م، ج ١٠، ص ٣٢٤.
٥٥. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، (تحقيق مأمون الصاغرجي)، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦م، ج ١٦، ص ٨٤.
٥٦. المصدر السابق، ج ١٦، ص ١٠٤.
٥٧. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٦.
٥٨. الزبيرى، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) نسب قریش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٣١٤؛ ابن عساکر، تاريخ دمشق (النساء) تحقيق سكينه الشهابي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ص ٢٥٩.
٥٩. اليعقوبي، البلدان، ص ٢٢٦.
٦٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٤٩-١٥٠. وعن الخضراء انظر:  
الهمداني، مختصر البلدان، ص ١٠٨-١٠٩؛ البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م). أنساب الأشراف، ج ١، ق ٤، تحقيق احسان عباس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٧٩، ص ١٤٧، ٥٤٢. وسيشار إليه عند وروده؛ البلاذري، أنساب الأشراف؛ ابن عساکر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٣-١٢٤. ويرى عيسى اسكندر المعلوف أن مكانها في البزورية/ قصر أسعد باشا العظم. انظر: عيسى اسكندر المعلوف، الآثار الشرقية، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م ٢، ج ١، (١٩٢٢)، ص ١٢٣.

ويبدو أن تسميتها بالخضراء، كانت نسبة إلى قبعتها وجدرانها التي طليت باللون الأخضر ويستدل على ذلك من أن سليمان بن عبد الملك بنى داراً بدرب ابن محرز، وجعلها داراً للامارة، عمل فيها قبة صفراء تشبيهاً بالقبة الخضراء<sup>٦١</sup>. أما جدرانها الداخلية فكانت مجصصة وقد طليت مع السقف باللون الأصفر، كما عمل داراً أخرى طليت حيطانها وسقفها باللون الأخضر<sup>٦٢</sup>.

وكانت جميع بيوت الخضراء من قبلة الجامعة والغرف المستجدة بها، ودار الخيل والمسكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل<sup>٦٣</sup>.

واتخذ معاوية داراً أخرى عرفت فيما بعد بدار ابن محرز، وقد وهبها معاوية لابنه يزيد وكانت من صدق أم خالد بن يزيد، وهي بالزلاقة<sup>٦٤</sup>.

وشيد خالد بن يزيد داراً سميت بدار الحجارة، ويبدو أنها فاقت الخضراء، فمما ذكره أبو زرعة قال: حدث أبي عبد رب الزاهد قال: لأبي الأخضر مولى خالد بن يزيد: خالد قد علم علم العرب والعجم ففي أي ذلك وجد بناء هذا الدار؟ يعني دار الحجارة<sup>٦٥</sup>.

ولم يقتصر امتلاك الدور على الرجال فحسب بل امتد إلى النساء أيضاً، فكانت لهند بنت معاوية دار بدرب القلي<sup>٦٦</sup>، ولرملة بنت معاوية دار في عقبة السماك في طرف زقاق الرمان ولها طاحونة باسمها بقيت إلى أيام ابن عساكر<sup>٦٧</sup>.

وفي الفترة المروانية ازدادت قصور الأمويين ومنازلهم داخل دمشق وخارجها. ففي داخل دمشق كان قصر لبشر بن مروان بن الحكم بعقبة الصوف<sup>٦٨</sup>. وذكر ابن عساكر - دون أن يحدد الموقع - داراً لداود بن مروان، وأخرى لعبد الملك بن مروان، وثالثة لعبد الله بن عبد الملك (ت ١٠٠ هـ)<sup>٦٩</sup>.

٦١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٨٥.

٦٢. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ١٢٠؛ وانظر المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٧٨.

٦٣. أبو شامة، الروضتين، ج ١، ق ١، ص ٤٢.

٦٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢٨، ص ٣٩٠.

٦٥. أبو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٢٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٨٥.

٦٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، (النساء)، ص ٤٥٩.

٦٧. المصدر السابق، ص ٩٥.

٦٨. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢١٢. وعقبة الصوف هي حارة مأذنة الشحم، كما عرفت بعقبة الكتان. انظر: ابن طولون، شهاب الدين (ت ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م) «حارات دمشق»، نشر حبيب الزيات، مجلة المشرق، م ٣٥ (١٩٢٧ م)، ص ٢٢.

٦٩. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٨، ص ١٥٥، ج ١٢، ص ٢٢، ج ١٥، ص ٢٦٤.

وكانت دار عبد العزيز بن مروان الى جانب المسجد، وقد انتقلت الى عمر بن عبد العزيز، وأقيم مكانها فيما بعد الخانقاه السميساطية. وذكر اليعقوبي أن عمر جاء اليها بعد مرضه فكثرت عليه الناس، فارتحل حتى صار الى حلب فكثرت عليه الناس، فارتحل الى حمص راجعاً يريد أن ينزلها، فلما صار الى أوائل حمص اعتل فمال الى موضع يعرف بدير سمعان فمات فيه»<sup>٧٠</sup>

واشترى عبد الملك بن مروان الخضراء من خالد بن يزيد بأربعمائة الف دينار وأربع ضياع بأربعة أجناد هي عمواس من فلسطين، وقصر خالد من الأردن، وأندركيسان من دمشق، ودير زكي من حمص<sup>٧١</sup>. وبني الوليد بن عبد الملك داراً على حصن سابق بباب البريد<sup>٧٢</sup>، والى جانبه في خارج الحصن كانت دار مسلمة بن عبد الملك في حارة القباب<sup>٧٣</sup>.

واتخذ سليمان بن عبد الملك دوراً في باب جيرون، أقيم مكانها مضيئة فيما بعد، وداراً كبيرة مما يلي باب الصغير، موضع الدرب الذي عرف بدر بن ابن محرز، واتخذها داراً للامارة وفرشها بالرخام، وجصص الحيطان وجعلها باللون الأصفر كما ذكرت<sup>٧٤</sup>. ويبدو أن صاحب الكواكب الدرية قد خلط بين أبي أيوب سليمان الخواص أحد الزهاد المعروفين، وكان معاصراً للأوزاعي، فذكر أن لسليمان بن عبد الملك داراً بجوار الخواصين، وقبره بها يزار، ويخلق شبابه ويطيب<sup>٧٥</sup>.

وكان ليزيد بن عبد الملك قصر، لكن ابن عساكر لم يحدد موضعه<sup>٧٦</sup>. أما هشام فاتخذ داراً عند باب الخواصين. وذكر ابن كثير<sup>١٧</sup> أن جزءاً منها أصبح من مدرسة نور الدين

٧٠. اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، قدم له محمد صادق بحر العلوم، النجف ١٩٦٤م، ج ٢، ص ٥١؛ وانظر: ياقوت، معجم البلدان، (السميساطية)؛ النعميمي، الدارس، ج ٢، ص ١٥١؛ ابن جبيرة ابو الحسين محمد بن احمد (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)، رحلة ابن جبيرة، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩، ص ٢٦٢.

٧١. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق. ١، ص ١٢٣-١٢٤.

٧٢. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ٤٤.

٧٣. انظر: ابو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٥٠٢؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ٤٤؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، دمشق، ص ٣٢؛ النعميمي، الدارس، ج ١، ص ١٧٨. والقباب هي مكان صنع الخيام.

٧٤. انظر: الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م) الاغاني، ج ٢٤، دار الكتب المصرية، ج ٦، ص ٧٦. وسيشار اليه عند وروده: الاصفهاني، الاغاني؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ١٧٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٨٥.

٧٥. ابن شهبة، بدر الدين (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) الكواكب الدرية. تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ص ٢٢٩.

٧٦. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٩، ص ٢٩٥.

١٧٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٦٥؛ وانظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م) تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام (١٢١-١٤٠هـ) تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٨م، ص ١٢٨، ٢٨٢. وسيشار اليه عند وروده: الذهبي، تاريخ الاسلام.

الشهيد التي يقال لها النورية الكبيرة. وعرفت بدار القبابين أي الذين يبيعون القباب وهي الخيام فكانت تلك المحلة داره<sup>٧٧</sup> ب. وذكر التنوخي (٥٧٧ هـ) أن داره كانت تسمى بالأيوان الأحمر، وهي دار قوراء مفروشة بالرخام، بين كل رخامتين قضيب من ذهب، وحيطانه كذلك. يجلس على طنفة حمراء، وعليه ثياب خز حمر.

ومن الدور التي ذكرت للأمو يبين كذلك دار لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بالكشك قبلي دار البطيخ العتيقة، في السوق الكبير وأقيم مكانها فيما بعد فندق الخشب الكبير<sup>٧٨</sup>. وكان لبني عبد العزيز بن الوليد أيضا مصنعة بباب البريد<sup>٧٩</sup>، وللعباس بن الوليد دار قبلة زقاق العجم ممايلي درب السلم والخضراء<sup>٨٠</sup>، وسميت الرحبة التي في باب توما برحبة خالد نسبة إلى خالد بن أسيد بن العاص<sup>٨١</sup>. وأقطع معاوية سعيد بن العاص، بعد أن استقر الأمر له، دارا بنواحي الديرماس عرفت بدار نعيم<sup>٨٢</sup> وكان لسعيد بن خالد بن عبد الله ابن خالد بن أسيد قصر بحيال قصر يزيد بن عبد الملك<sup>٨٣</sup>.

واتخذت نساء المروانيين قصورا لهن، فكان هناك قصر لأم حكيم بنت يحيى بن الحكم زوجة عبد العزيز بن الوليد كانت معاقرة للشراب فطلقها ومن قولها<sup>٨٤</sup> :  
 الأفسقياني من شرابكما الورد      وإن كنت قد أنفت فاسترهننا بردي  
 سوارى ودملوجى وما ملكت يدي      مباح لكم نهب فلا تقطعا وردى  
 واليهما ينسب أيضا سوق أم حكيم، وهو سوق القلائيين<sup>٨٥</sup> وقد خلطت المصادر بينها وبين أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة التي تزوجها عكرمة بن أبي جهل، ومن بعده خالد بن سعيد فقتل عنها بمرج الصفر. فسميت قنطرة هناك بقنطرة أم حكيم<sup>٨٦</sup>.

٧٧. التنوخي، ابو علي المحسن بن علي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) الفرج بعد الشدة، ج ٥، تحقيق عبود الشالحي، دار صادر، بيروت ١٩٧٨ م، ج ٤، ص ٢٨٧-٢٨٨.
٧٨. انظر: النعميمي، الدارس، ج ١، ص ١٧٨؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٥، ص ١٥٩؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (ممشق) ص ١١٦.
٧٩. الاصفهاني، الاغانى، ج ٧، ص ٧٨.
٨٠. ابن عساكر، تاريخ دمشق (عباده بن اوفى)، ص ٢٦٨.
٨١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٢.
٨٢. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٩، ص ٣٠٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٧٨.
٨٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٩، ص ٢٩٥.
٨٤. ياقوت، معجم البلدان، (قصر أم حكيم).
٨٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ٤٨، ٦٠؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق (النساء)، ص ٥٠٧؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (دمشق)، ص ١٠٠، النعميمي، الدارس، ج ٢، ص ٣٢٨.
٨٦. انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق (النساء)، ص ٥٠١؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٨، ص ٢٥٢.

وكان لأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوج الوليد بن عبد الملك دار قرب طاحونة الثقفيين عرفت فيما بعد بطاحونة القلعة<sup>٨٧</sup>، ولعبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية زوج هشام قصر الى الشمال الغربي من الجامع الأموي. ولأم عمر أو عمرو بنت مروان بن الحكم دار بناحية القلانسيين موضع دار الوكالة فيما بعد<sup>٨٩</sup>.

هذا في داخل دمشق، أما في خارجها فكان لعمر بن مبشر بن الوليد بن عبد الملك قصر في كسملين خارج باب السلامة<sup>٩٠</sup> ولحجاج بن عبد الملك قصر في محلة حجاج ظاهر بابا الجابية، واليه نسبت<sup>٩١</sup>. وكان لأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز دار في العقية خارج باب الفراديس، أصبحت فيما بعد داراً للضيافة<sup>٩٢</sup>.

وسكن عمر بن الوليد بن سعيد بن هشام بن عبد الملك في ربض باب الجابية<sup>٩٤</sup>، وأبو العميطر علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد في المزة، ورحبة البصل<sup>٩٥</sup>.

واتخذت عاتكة بنت يزيد قصراً لها خارج باب الجابية في المحلة التي نسبت إليها فيما بعد. وقد عاشت حتى أدركت مقتل ابن ابنها الوليد<sup>٩٦</sup>. وهذا يدل على أن العمران تركز الى الجنوب الغربي من دمشق. وتشير المصادر الى أن الأمويين قد قاموا باقطاع بعض الدور الى المقربين اليهم أمثال اسحاق بن عمارة العقيلي الذي أقطع داراً عند باب توما<sup>٩٧</sup>، ومسلم الختلي داراً خارج باب الفراديس آلت الى أحفاده فيما بعد<sup>٩٨</sup>، وعبد الله بن دراج، وقيل عبد الرحمن، برج الدارجية عند باب توما من الخارج<sup>٩٩</sup>، وصفوان بن أمية الجمحي رقاقا عرف

٨٧. ابن عساکر، تاریخ دمشق (النساء)، ص ٤٠٠؛ ابن منظور، مختصر تاریخ دمشق، ج ٢٨، ص ٢٠٠.  
 ٨٨. ابن عساکر، تاریخ دمشق (النساء)، ص ٢٢٤.  
 ٨٩. المصدر السابق، ص ٥٤٢.  
 ٩٠. ابن منظور، مختصر تاریخ دمشق، ج ١٩، ص ١٤٩.  
 ٩١. ياقوت الحموي، معجم البلدان، (قصر حجاج).  
 ٩٢. ابن عساکر، تاریخ دمشق (النساء)، ص ٤٨٠؛ ابن منظور، مختصر تاریخ دمشق، ج ٢٨، ص ٢٠٠.  
 ٩٣. ابن عساکر، تاریخ دمشق (النساء)، ص ٢٩٠.  
 ٩٤. ابن منظور، مختصر تاریخ دمشق، ج ١٩، ص ١٥٥.  
 ٩٥. المصدر السابق، ج ١٨، ص ١١٠.  
 ٩٦. ابن عساکر، تاریخ دمشق (النساء)، ص ٢٠٣؛ ياقوت، معجم البلدان، (أرض عاتكة).  
 ٩٧. ابن منظور، مختصر تاریخ دمشق، ج ٤، ص ٢٠٧.  
 ٩٨. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٧.  
 ٩٩. ابن عساکر، تاریخ دمشق، ج ٤٠، ص ٢٩٨؛ ياقوت، معجم البلدان، (الدراجية).



بزقاق صفوان آل لابنه عبد الله<sup>١٠٠</sup>. وقصر البحادلة الذي آل الى ابن بحدل، وعرف بعد بقصر ابن أبي حديد، وسميت المحلة بقصر البحادلة<sup>١٠١</sup> وخضير أو خضيرين بن ربيعة ولم يحدد ابن عساكر موضوعها<sup>١٠٢</sup> وترد دور في دمشق لكبار المتنفذين في الدولة أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كانت له عدة دور منها واحدة في الزاوية التي بقرب ابن أبي الحديد (قصر البحادلة)<sup>١٠٣</sup>، وروح بن زنباع الجذامي، وكانت داره بطرف البزوريين<sup>١٠٤</sup>، وعبيد الله بن زياد بناحية زقاق الدياتماس النافذ الى سوق الاساكفة العتيق قرب حصن جيرون<sup>١٠٥</sup>، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي بباب البريد، ألت لابنه اسحق الذي كان متوليا لديوان الزمنى أيام الوليد<sup>١٠٦</sup>. وأسد بن عبد الله القسري عند سوق القزازين بناحية دار البطيخ<sup>١٠٧</sup>، وخالد بن عبد الله القسري في مربعة القبر قرب القدم، كما ينسب اليه الحمام المقابل لقنطرة سنان بباب توما<sup>١٠٨</sup>، وسفيان بن الأبرد الكلبي في سوق الصياقلة، ودار أخرى بجيرون، وكان سفيان مع عبد الملك حين حاصر عمرو بن سعيد بن العاص<sup>١٠٩</sup>. ولاسماعيل بن عبدالله بن ابي المهاجر مولى بني مخزوم، دار ظاهر باب الجابية عند طريق القنوات وكان يؤدب أبناء عبد الملك<sup>١١٠</sup>. وعبيد بن رباح الغساني دار بباب البريد، وهي المعروفة بدار الكاس<sup>١١١</sup>. وحמיד بن عمرو بن مساحق القرشي، فسميت الدرب بدرب حميد بن درة نسبة الى درة أمه وهي درب السقييل (الصقييل) داخل باب توما بين رحبة خالد بن أسيد، ودرب طلحة بن عمرو بن مرة الجهني<sup>١١٢</sup> وأقطع البعض دورا بناوحي كنيسة اليهود كعطية بن قيس قارىء الجند، وعبدالله بن بشير الشيباني<sup>١١٣</sup>.

١٠٠. انظر: ابو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٥٠٢؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١١، ص ٨٩، ج ١٢، ص ٣٦٧.
١٠١. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٣٠٩.
١٠٢. المصدر السابق، ج ٨، ص ٧٨.
١٠٣. المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٠٠.
١٠٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٥٨.
١٠٥. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٥، ص ٣١٢-٣١٣.
١٠٦. المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٠٨.
١٠٧. المصدر السابق ج ٤، ص ٣٢٠.
١٠٨. النعمي، الدارس، ج ١، ص ٥٦٠.
١٠٩. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ١٩.
١١٠. المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٥٨.
١١١. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٥، ص ٢٩٥؛ الذهبي، تاريخ الاسلام (١٢١-١٤٠هـ)، ص ٤٨٢.
١١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٢.
١١٣. انظر: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٨٨؛ الذهبي، تاريخ الاسلام (١٢١-١٤٠هـ)، ص ١٧٩.

وكانت لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد دار بناحية قيسارية الخدم<sup>١١٤</sup> ولعمرو بن حفص بن شليلة الثقفي مولى الحجاج دار بناحية باب السلامة، ولعقبة بن عامر الجهني دار ناحية قنطرة سنان من نواحي باب توما، ولعوف بن مالك الأشجعي دار في سوق الغزل الضيق<sup>١١٥</sup>، ولعمر بن سعيد الأزدي دار في النبطون<sup>١١٦</sup>.

وامتد العمران في ظاهر دمشق الى محلة الراهب تجاه المصلى، وممن سكن بها الزهري<sup>١١٧</sup>. وامتد العمران كذلك الى خارج باب الفراديس وباب الجابية وباب توما، وقصر عاتكة، بالإضافة الى ما كان في باطن المدينة.

ومن الدور المهمة في دمشق في تلك الفترة دار الخيل، التي اقيم مكانها فيما بعد المدرسة الأمينية<sup>١١٨</sup>، ودار الذهب تجاه البروزية قرب سوق القمح<sup>١١٩</sup>.

ويمكن القول مما تقدم أن العمران في آخر الفترة الأموية قد امتد الى ظاهر دمشق وذلك لضيق مساحة المدينة المسورة، فكان من الضروري أن تتسع الى خارج الأسوار. فتوسعت نحو الشمال الشرقي في العقيبة وباب الفراديس، والى الغرب نحو باب الجابية على طريق القنوت، والى الجنوب الغربي حيث قصر حجاج وقصر عاتكة ومحلة الراهب.

ومن الطبيعي أن يكون للوظائف التي كانت تؤديها دمشق كعاصمة للأمم بين دور في اتساعها فقد استدعى ذلك إحداث تكتوينات معمارية كالقصور والدواوين والقناطر والمساجد والحمامات والقنى وما يتبع ذلك من أمور تنعكس على تخطيط المدينة واتساعها.

ويخيل للباحث لأول وهله أن العباسيين عندما تسلموا الخلافة أهملوا مدينة دمشق، وأن عمرانها لم يزد عما كان عليه في العصر الأموي. صحيح أن العباسيين ابتدأوا حكمهم بهدم سور مدينة دمشق حجرا حجرا كما يقول المقدسي<sup>١٢٠</sup> وخرّبوا دور الأمويين وعفّوا آثارها

١١٤. ابن عساکر، تاريخ دمشق، ج ٤٠، ص ٢٨٢.

١١٥. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٩٥، ج ١٩، ص ٢٠٠.

١١٦. ياقوت، معجم البلدان، (النبطون ووردت أيضا النبطيون).

١١٧. انظر ابو زرعة، تاريخ، ج ٢، ص ٧٠٣؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٥، ص ١٢٥؛ الذهبي، تاريخ الاسلام (١٢١ - ١٤٠ هـ)، ص ٢٤٧.

١١٨. النعمي، الدارس، ج ١، ص ١٧٨.

١١٩. النعمي، الدارس، ج ١، ص ١٢٢. وربما كانت هي دار الفلوس نفسها.

١٢٠. المقدسي، مطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م) البدء والتاريخ، ج ٦، مكتبة الخياط، بيروت، د.ت، ج ٦، ص ٧٢.

وانظر: الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧ م، ج ٧، ص ٤٣٨. وسيشار اليه عند وروده: الطبري، تاريخ؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٢، ص ١٤٥.

واستصفوا أملاكهم الا ان ذلك لم يمنعهم فيما بعد من الاهتمام بدمشق، وبناء سورها، وبناء دار إمارة سميت بالقصر<sup>١٢١</sup> ويتضح ذلك من النص الذي أورده ابن عساكر وجاء فيه: «لم يزل ملوك بني العباس تخف الى دمشق طلبا للصحة وحسن المنظر»<sup>١٢٢</sup>.

فعندما تسلم المنصور الخلافة اهتم بدمشق وبعث بقية بن الوليد بن صائد لمساحتها كما ولي الربيع بن حزيان على دار الضرب بها<sup>١٢٣</sup>. وهذا يؤكد أن العباسيين لم يجردوا دمشق من بعض الأدوار التي كانت تقوم بها أيام الأمويين. ويذكر ابن عساكر أن المنصور قد أحدث كنيسة لبنني قطيطة في الغورنق<sup>١٢٤</sup>. هذا مع العلم بأن دمشق قد أصيبت بزلزال في زمنه احترقت منه كتب الأوزاعي كما يذكر ابن عساكر<sup>١٢٥</sup>.

وقد قام الفضل بن صالح بن علي (ت ١٧٢هـ/٧٨٨م) والي دمشق بعمل أبواب للمسجد وبناء القبة التي في الصحن، وهي التي عرفت بقبة المال<sup>١٢٦</sup>.

ولما تولى المهدي الخلافة زار دمشق، فلما نظر الى الجامع الأموي قال لكاثبه ابي عبيدالله الأشعري (يا أبا عبدالله سبقتنا بنو أمية بثلاث: المسجد، الذي لا أعلم على ظهر الأرض مثله أبدا)<sup>١٢٧</sup>. وأضاف المهدي على المسجد قبة جديدة في الناحية الغربية من صحنه سميت بقبة عائشة وذلك في حدود سنة (١٦٠هـ/٦٧٦م) وجعلها لحواصل الجامع وكتب أوقافه<sup>١٢٨</sup>.

ويبدو أن منازل الأمويين وقصورهم بدأت تتعرض للعبث والخراب مما دفع والي دمشق للكتابة الى المهدي يعلمه أن منازل دمشق من الحيازة والمواريث ستهلك، وأن الرأي في بيعها، فانه اذا طال أمرها اندرس أثرها. فكتب المهدي الى يحيى بن حمزة أن يجلس في جامع دمشق وينادي على المنازل التي من المواريث والحيازة، فمن رغب في شيء باعه إياه. ففعل ذلك يحيى، ولم يتقدم الا محمد بن مرزوق مولى عثمان بن عفان فاشترى دارا من هذه الدور، ولم يشتر معه أحد شيئا<sup>١٢٩</sup>.

١٢١. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (دمشق)، ص ٢٧؛ وانظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢٨، ص ٢٩٠.

١٢٢. ابن عساكر، تاريخ، ج ١، ص ١٧٩؛ صلاح المنجد، «خطط دمشق»، مجلة المشرق، م ٤٢، ١٩٤٩م، ص ٤٤٤.

١٢٣. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٢٢، ج ٨، ص ٢٩٤.

١٢٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٢٩. وعن الغورنق انظر: جان سوفاجيه، دمشق الشام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦م، ص ٢٠. سيشار اليه عند وروده: سوفاجيه، دمشق الشام.

١٢٥. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٤، ص ٢٢٢.

١٢٦. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٠، ص ٢٧٧؛ الصفي، امراء دمشق، ص ٦٥.

١٢٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٥٨. وورد عن المأمون قوله: اني انما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم.

١٢٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٦٥.

١٢٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢٨، ص ٢٩.

ونظراً لقيام الفتن الداخلية في دمشق أيام الرشيد فقد هدم سورها على يد مولى المنصور السندي بن شاهك أمير دمشق من قبل موسى بن عيسى أثناء العصبية بين النزارية واليمانية، كما نهبت قرى اليمانية بنواحي دمشق وأحرقت<sup>١٣٠</sup>.

وفي زمن الأمين ثار أهل دمشق على واليهم منصور بن المهدي، عندما أمر صاحب شرطته داود بن عيسى بأخذ قلة من المسجد وإرسالها إلى الأمين الذي كان معجبا بالبلور. فلما علم إمام الجامع الأموي التفت إلى المصلين وقال: لا صلاة بعد القلة. فصارت مثلاً. واستمرت الفتن حتى عادت زمن المأمون<sup>١٣١</sup>.

وفي زمن الأمين كذلك قام أبو العميطر علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بثورته على العباسيين، وادعى الخلافة، وساعدته كلب في ثورته<sup>١٣٢</sup>. ويبدو أن نهبا حصل في دمشق زمن واليها سليمان بن منصور، ولم يسلم الوالي نفسه، ثم لم يعط القوم طاعة بعد ذلك إلى أن افتتح دمشق عبد الله بن طاهر سنة (٢١٠هـ/٨٢٥م).

وحظيت دمشق باهتمام المأمون الذي اتخذ قصره له بدير مران (٢١٥هـ/٨٣٠م). ومكانه يعرف بالسهم وهو قرب النيرب خارج دمشق بسفح قاسيون<sup>١٣٣</sup>. وقد أجرى المأمون الماء إلى معسكره من نهر منين، وبنى قبة في أعلى جبل دير مران، وصيرها مرقبا في أعلاها الناركي ينظر إلى ما في معسكره إذا جن عليه الليل<sup>١٣٤</sup>.

وقام المأمون أيضا بإرسال حرب بن محمد بن حيان الطائي (ت ٢٢٦هـ/٨٤٠م) لأجل مساحة دمشق فعدها سنة (٢١٤هـ/٨٢٩م)، وفرق المعدلين يعني المساحين في أجناد الشام لمساحتها<sup>١٣٥</sup>. وتبعه المعتصم فاتخذ له قصره بدير مران<sup>١٣٦</sup>. وفي أيام المعتصم بدأ العمران يمتد خارج الأسوار بصورة واضحة لا سيما خارج باب الفراديس، وأبدى الناس اهتماما بفلاحة الأرض وغرس الأشجار وجر الماء إلى الضياع خارج الأسوار. وهذه من العوامل الهامة التي

١٣٠. لمزيد من التفاصيل انظر: الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٧٦؛ ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٢٢م). الكامل في التاريخ، ج ١٢، دار صادر، بيروت ١٩٦٧م، ج ٦، ص ١٢٦-١٢٣. سيشار إليه عند وروده: ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ١٢٧-١٣٣.

١٣١. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٥، ص ٢٦٨-٢٦٩.

١٣٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢٤٩.

١٣٣. حبيب الزيات، «اليهود في الخلافة العباسية»، مجلة المشرق، م ٣٦، (١٩٢٨م)، م ٣٦، ص ١٥٥ نقلا عن الذهبي، تاريخ الإسلام مخطوطة باكسفورد، ج ٤، ص ١٨٢-١٨٣.

١٣٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٧٩؛ صلاح الدين المنجد، «خطط دمشق»، مجلة المشرق، م ٤٣، (١٩٤٩م)، ص ٤٤٤.

١٣٥. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٢٦٦-٢٦٧.

١٣٦. الاصفهاني، الاغانى، ج ٦، ص ١٥٩.

ساعدت على امتداد الرقعة العمرانية. ونلمح الاقبال على سكنى دمشق عندما سئل إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم (ت ٢٢٧هـ/ ٨٥٠م) والي المعتصم على دمشق عن سبب إقامته فيها فقد قال: لا يطيق نزولها الا الملوك اقل له: وكيف ذلك. قال: ما ظنك ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكل في غيرها الكبار<sup>١٣٧</sup>.

لكن هذا الاستقرار لم يدم طويلا، فبعد موت المعتصم سنة (٢٢٧هـ/ ٨٤١م) ثارت القيسية بدمشق وعاثوا وأفسدوا وحاصروا أميرهم فاضطر الواثق الى ارسال رجاء بن أيوب الحضاري الى دمشق، فنزل دير مران، ودعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا... فهزمهم وقتل منهم ألفا وخمسمائة وقتل من أصحابه ثلاثمائة، وهرب مقدمهم ابن بيهس، وصلح أمر دمشق بعد ذلك<sup>١٣٨</sup>.

وفي زمن الواثق تعرضت دمشق لزلازل مهول، سقط منه دور عديدة قتل تحتها خلق كثير، وامتدت الى أنطاكية فهدمتها، والى الموصل فاهلكت من أهلها ثمانين ألفا<sup>١٣٩</sup>.

وكادت دمشق أن تعود ثانية عاصمة للدولة الاسلامية أيام المتوكل (ت ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) فقد أرسل سنة (٢٣١هـ/ ٨٥٥م) أحمد بن محمد بن عبد الله أبا الحسن المدير الكاتب لتولي مساحة دمشق وانتقل اليها في صفر سنة (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، وأمر بنقل دواوين الدولة اليها، والبناء فيها، وتشيد قصر له بداريا. لكن مقامه لم يطل، وعاد أدراجه الى بغداد بعد أن حاول الأتراك قتله<sup>١٤٠</sup>. وفي أيام المتوكل تعرضت بلاد الشام لزلازل ذهبت منه اللاذقية وجيلة ومات عالم من الناس حتى خرج الناس الى الصحراء، وأسلموا منازلهم وما فيها. واستمر ذلك عدة شهور من سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م. ويذكر ابن كثير أنه هدم في أنطاكية لوحدها أكثر من ١٥٠٠ دارا<sup>١٤١</sup>.

وفي زمن المعتمد على الله بن أماجور والي دمشق فندقا في الخواصين<sup>١٤٢</sup> وقبل أن يلي

١٣٧. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٣١٧.

١٣٨. ابن الاثير، الكامل، ج ٦، ص ٥٢٨-٥٢٩.

١٣٩. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٣٤٧.

١٤٠. عن رحلة المتوكل انظر: اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٤؛ المسعودي علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٥هـ/ ٩٥٦م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ج ٤، ص ١١٥؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٢٧. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٢٩٦؛ ابن شداد، الاصلح الخطيرة، (دمشق)، ص ٣٣٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٨٨؛ حبيب الزيات، «دير صليبا بدمشق»، مجلة المشرق، م ٣٥ (١٩٣٧) م، ص ٣٥، ص ٢٦-٢٨، نقل من مخطوطة الدمشقي، محمد بن محمود، الدر المنلق من كل بحر وسقط المتحف البريطاني رقم ١٤٩٠٨ ولم يذكر رقم اللوحة.

١٤١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣٦٠؛ وانظر: اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٤٤.

١٤٢. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٣١-٣٢.

المعتضد بالله الخليفة خرج لقتاله ابي الجيش خمارويه، فنزل الراهب من دمشق، ثم خرج لقتال ابي الجيش عند طواحين الرمل<sup>١٤٣</sup>. وفي الفترة الطولونية تعرضت دمشق سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م لحريق عند كنيسة مريم. وأمر أحمد بن طولون باخراج سبعين الف دينار تعطى لكل من احترق له شيء، و يقبل قوله ولا يستحلف عليه<sup>١٤٤</sup> وتعرضت هذه المنطقة الى حريق آخر سنة (٣١٢ هـ / ٩٢٤ م)<sup>١٤٥</sup>. وعندما تقدم محمد بن رائق زمن الراضي لتخليص دمشق من الطولونيين أحرقت بعض أنحاء دمشق<sup>١٤٦</sup>.

وفي زمن الطولونيين تم بناء قصر في دير مران على نهر ثورة من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون وقتل فيه سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م. ويبدو أن هذا القصر اتخذ داراً للإمامة<sup>١٤٧</sup>.

فمدينة دمشق لم تتوقف عن الاتساع زمن العباسيين، بل نكاد لا نبالغ اذا قلنا إن معظم الخلفاء العباسيين خلال هذه الفترة قد أموا دمشق وأقاموا فيها، وإن حدثت فتن أثناء هذه الفترة الطويلة الا أنها لم تحد من هذا الامتداد.

لقد بدأ اتساع المدينة نحو الجنوب الغربي بمحلات : المصلى والراهب والسفليين والشماسة والقطائع وعويلة والمنبع. فعلى سبيل المثال كانت محلة الراهب عامرة في سنة ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م وما قبلها<sup>١٤٨</sup>. وقد بدأ العمران بالامتداد الى الراهب منذ أيام الأمويين، لكنه لم يكن ممتدا على طول الطريق. ويستدل على ذلك من أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك أمر الوليد بن روح بن الوليد بالإقامة بالراهب<sup>١٤٩</sup>. وهذا يدل على بعدها في ذلك الوقت عن المدينة دمشق، أما في العصر العباسي فقد أصبحت الراهب ضمن مدينة دمشق. هذا بالإضافة الى المحلات السابقة كقصر حجاج، وقصر عاتكة والمصلى.

وفي الجنوب أصبح العمران ظاهر دمشق في منطقة الشاغور البراني وذبح حوران قبلي الشاغور<sup>١٥٠</sup>، وفي الغرب برزت اللؤلؤتان الكبيرة والصغيرة وقينية وامتد العمران الى صنعاء والحميريين ومنازل بني رعين<sup>١٥١</sup>. وقد ذكر ياقوت على سبيل المثال بأن اللؤلؤة الكبيرة كانت

١٤٣. المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٤.

١٤٤. المصدر السابق، ج ٢، ص ١٢٦.

١٤٥. المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٥٢.

١٤٦. ابن عساکر، تاريخ دمشق (النساء)، ص ٥٨٥؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣٦٣.

١٤٧. سعيد ابن البطريق (٢٢٨ هـ / ٩٤٠ م)، التاريخ المجموع على التحقيق، مطبعة الاباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩ م، ص ٧٢؛ سيشار ابيه عند وروده: ابن البطريق، التاريخ المجموع؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٦، ج ٨، ص ٩١؛ الاصفهاني، الاغانى، ج ٦، ص ١٧٦.

١٤٨. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٧، ص ١٥٢.

١٤٩. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٤٢؛ وانظر: ابو زرعة، تاريخ، ج ٢، ص ٧٠٢.

١٥٠. ابن عساکر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٤٢.

١٥١. المصدر السابق، م ٢، ق ١، ص ١٤٢.

محلة كبيرة خارج باب الجابية في سنة (٢٦٢هـ/٨٧٥م)<sup>١٥٢</sup>. وقينية قرية كبيرة خارج باب الجابية سنة (٣٥٣هـ/٩٦٤م). وإلى الشمال الغربي نجد أن خماروية بن أحمد ابن طولون قد اتخذ قصر الإمارة في النيرب على نهر ثورا، فكان من المرجح أن العمران قد انتشر بين الرزة والنيرب حيث من المؤكد أن<sup>١٥٣</sup> اتخذ قصر للإمارة في هذه المنطقة من عوامل الجذب العمراني لها.

وفي الشمال امتد العمران إلى العقبية ومسطرا، والفرديس والعمارة والأوزاع وصاروجا والصدف ومقرى وشعبان ومرج الأشعريين وبيت لهيا<sup>١٥٤</sup>.

ومن خلال الاستعراض يلاحظ بأن دمشق قد توسعت كثيرا في العمران وليس كما ذكر سوفاجية<sup>١٥٥</sup> من أن «ظهور الدولة العباسية كان بدء عهد انحطاط في دمشق، وأن العباسيين بدأوا بتخريب القصور، وأن ظهور بعض الضواحي مثل العقبية في الشمال، والشاغور في الجنوب، وقصر حجاج في الجنوب الغربي، نشأت بداهة دون أن يكون لها تصميم يوجه تطورها. فأخذت المنازل تتابع على عمق قليل طول الطرقات الموصلة إلى أبواب السور، وهي في أكثرها ضواح زراعية يقيم فيها باعة الخضروات، ومن ثم فلا نغتر بأهميتها، ولا نستنتج منه ازدهار المدينة».

إن القارئ لهذا النص يوافق سوفاجية على أن الامتداد كان من الطرق الموصلة إلى أسوار المدينة، لكنه لا يوافق على أن العصر العباسي كان عصر انحطاط لمدينة دمشق. لقد امتد العمران في الجنوب الغربي نظراً لسهولة إيصال الماء عبر القنوات المختلفة. فكان ذلك أحد العوامل الرئيسية في ازدهار حركة العمران. وإذا كانت المحلات الجديدة التي نشأت هي أرض زراعية فإن جميع الأراضي التي كانت خارج الأسوار هي مروج وميادين وامتداد العمران إليها يؤكد التوسع الذي حصل في المدينة خلال هذه الفترة. ومما يذكر هنا أن بساتين الغوطة بلغت في عهد ابن شداد خمسة آلاف وثلثمائة وخمسة وأربعين بستاناً. وخمسمائة وخمسين كرماً. وأن ضياع الغوطة أصبحت كالمدين وهي: المزة وداريا وحرستا وبلاس، ودمر وبيت لاهيا (لهيا)، وعقربا الواقعة في الجنوب الشرقي وبها كلها جوامع. ومن الجانب الغربي يقع وادي البنفسج (وادي الشقراء) وطوله اثنا عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال وتشقه خمسة أنهار<sup>١٥٦</sup>.

صحيح أن العباسيين لم يتركوا آثاراً عمرانية بارزة في دمشق، وأن المصادر لم تذكر

١٥٢. ياقوت، معجم البلدان، (للؤلؤة الكبيرة).

١٥٣. ابن طولون، شمس الدين محمد «ت ٩٥٢هـ/١٥٤٦م»، «ضرب الحوطة على جميع الغوطة»، نشر محمد اسعد اطلس، مجلة للمجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٤٦م، م ١، ص ١٦١.

١٥٤. ابن عساکر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٤٣.

١٥٥. سوفاجية، دمشق الشام، ص ٣٠؛ وانظر عبد القادر ربحاوي، مدينة دمشق، دمشق ١٩٦٩م، ص ٦٠.

١٥٦. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (دمشق)، ص ١٣-١٤.

لهم الابناء دار الامارة دون أن يحدد مكانها الا أنهم حافظوا على الطابع العمراني لدمشق<sup>١٥٧</sup>. وليس أدل على الظلم الذي أوقع على العباسيين من ذكر ابن بطوطة بأنهم هدموا الخضراء وأقاموا مكانها سوقاً<sup>١٥٨</sup>. والشيء المؤكد أن الخضراء كانت في سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م)، وسنة (٣١٣هـ/٩٢٥م) مركزاً للشرطة وسجناً<sup>١٥٩</sup>. ويذكر المهلبي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) أن الخضراء، دار معاوية هي الآن مجلس للشرطة ودار الضرب<sup>١٦٠</sup>.

والجدير بالملاحظة أن العواصم أقدر على جذب العمران واتساعه من غيرها من المدن، ومن هنا كان الفارق كبيراً بين تطوره في بغداد وتطوره بدمشق. إن مقارنة بسيطة بين عمران بغداد وعمران دمشق في الفترة العباسية توضح لنا الصورة في أجلى معانيها.

لقد كانت مساحة دار الخيل في بغداد الف ذراع في ألف ذراع، يوقف فيها في الأعياد وعند ورود الرسل من البلاد في كل جانب خمسمائة فرس<sup>١٦١</sup>. في حين لا يرد ذكر لدار الخيل في دمشق، وحتى لو بقيت فانها لم تصل الى هذه المساحة.

ولما استوبا المعتضد بالله (٢٨٩هـ/٩٠١م) بغداد بسبب ارتفاع دكانها قال: كيف يفلح بلد يخالط هواه هذا؟ فأمر أن لا يزرع الأرز حول بغداد، ولا يغرس النخل، ثم خط الثريا وبنائها ووصلها بقصر الحسن وانتقل إليها<sup>١٦٢</sup>.

ونلمح التوسع العمراني الهائل في بغداد عندما احترقت المنطقة الواسعة بين النحاسيين والسماكية في بغداد سنة (٣٦٢هـ/٩٦٣م) احترق فيها ١٧٣٠٠ دكاناً، و٣٠ دار أجرة، و٣٣ مسجداً<sup>١٦٣</sup>.

وفي الوقت الذي كانت فيه محلات بغداد تتسع، وعمرانها يتواصل كانت محلات دمشق خارج الأسوار، تتراجع، وفي داخلها تصاب بالحرائق المتلاحقة زمن الفاطميين، فعلى

١٥٧. انظر: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ٤٨، ج ٣، ص ٨١.

١٥٨. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥م، ص ١٠٦.

١٥٩. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٣، ص ٤٨، ٨٩.

١٦٠. صلاح الدين المنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٧م، ص ٨٥، نقلاً عن الحسن بن احمد المهلبي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، «السالك والمالك». قطعة منشورة في مجلة معهد المخطوطات العربية، مايو ١٩٥٨م دون ذكر الصفحة.

١٦١. ياقوت، معجم البلدان، دار الخيل.

١٦٢. ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ج ٥، دار المعارف العثمانية (١٣٥٧هـ)، ج ٥، ص ١٤٤. يشار اليه عند وروده: ابن الجوزي، المنتظم.

١٦٣. المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٠، وقارن المصدر نفسه، ج ٨، ص ٦٢٨.



سبيل المثال عمر الخليفة المقتدي بأمر الله (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) لوحده تسع محلات في بغداد، وبنى الدار الشاطئية على دجلة والآثار العجيبة<sup>١٦٤</sup>. وكان لمركز بغداد كعاصمة للعباسيين الدور الرئيسي في ازدياد حركة العمران فيها.

وفي أواخر القرن الثالث الهجري بدأت دمشق تتعرض لكوارث متلاحقة. فقد قام القرامطة سنة (٢٩٠هـ/٩٠٢م) بحصار دمشق والتضييق على أهلها مما أدى الى اشراف سكانها على الهلاك ولم يبق منهم الا القليل<sup>١٦٥</sup>. وبعد مرور ثلاث سنوات تعرضت دمشق مرة ثانية لغزو القرامطة ومعهم جماعة من الأعراب والمتلصقة<sup>١٦٦</sup> مما دفع بأهل دمشق الى دفع أتاوة مقدارها (٣٠٠) الف دينار في السنة<sup>١٦٧</sup>. وكان من نتيجة ذلك أن دبت الفوضى بدمشق حتى أن قوما من أهلها حاولوا سنة (٢٩٥هـ/٩٠٧م) فتح السجن مما أدى الى قيام فتنة فيها<sup>١٦٨</sup>.

ولما استولى الفاطميون على بلاد الشام سنة (٣٥٨هـ/٩٦٨م) بدأت دمشق بالتراجع الى داخل أسوارها بسبب كثرة الفتن والحرائق، فنزح كثير من سكانها الى مناطق الشام الأخرى كما سنرى.

ومنذ اللحظة التي بدأ بها الفاطميون حكمهم لدمشق قامت ثورة عليهم سنة (٣٥٩هـ/٩٦٩م) تزعمها الشريف أبو القاسم بن أبي يعلي الهاشمي، وأبطل الخطبة للمعز الفاطمي وأعادها للمطيع لله. فقام المغاربة بنهب محلة قصر حجاج، وتوجهوا نحو المدينة، فعاثوا فيها، ونهبوا جزءاً منها مما دفع الناس الى الثورة عليهم، فقتلوا جماعة منهم. وكانت نتيجة هذه الفتنة أن اتى الحريق على عدد كبير من المحلات والدور<sup>١٦٩</sup>.

وبعد مرور أربع سنوات، وبالتحديد سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) سير المعز قائده ابا محمود الى الشام، فنزل ظاهر دمشق. لكن أصحابه بدأوا بالعبث والفساد، وقطع الطريق فاضطرب الناس وخافوا، وبدأ أهل القرى والمحلات الواقعة خارج أسوار دمشق بالنزوح عنها لشدة

١٦٤. ابن الاثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٢٩؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ٨، ص ٢٩٣.

١٦٥. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٥٢٣؛ انظر: ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٧٥.

١٦٦. القرطبي، عريب بن سعد، «صلة تاريخ الطبري»، ذبول تاريخ الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف/مصر/١٩٧٧م، ص ١٨-١٩. وسيشار اليه عند وروده: عريب، صلة.

١٦٧. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦١٥؛ الصابي، ثابت بن سنان بن قره (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م) تاريخ اخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٥٨. وسيشار اليه عند وروده: الصابي، اخبار القرامطة.

١٦٨. عريب، صلة، ص ٢٩؛ الصابي، اخبار القرامطة، ص ٦٤-٦٥.

١٦٩. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٥١١-٥٩٢.

نهب المغاربة وما تعرضوا له من قتل وتعذيب<sup>١٧٠</sup>.

ولقد صور القلانسي ما لاقاه أهل دمشق من المغاربة أفضل تصوير وقال : «أكثر من طلب الفتن من العوام، وطمعت المغاربة في نهب القرى وأخذ القوافل ظاهر البلد... فكثرت في البلد الفساد، وقطع الطريق على الصادر والوارد، وامتنع السفار من المجيء والذهاب وعدلوا في ذلك عن نهج الصواب، ونزح أهل القرى منها الى البلد، وخلت من أهلها واستوحش ظاهر البلد وباطنة»<sup>١٧١</sup>.

ومن المناطق التي نهبتها المغاربة قينية، واللؤلؤة الكبيرة، والقنوات، وألقوا النار في ناخية باب الفراديس فأدى ذلك الى حرق قسم كبير من البلد، وهلك فيه جماعة من الناس بالاضافة الى الأثاث والأموال. وبات الناس على أقبح صورة كما ذكر ابن الأثير<sup>١٧٢</sup>.

ويذكر القلانسي<sup>١٧٣</sup> أن منطقة باب الفراديس كانت من أحسن المناطق العمرانية في دمشق وقال : «وكان هناك من البنيان الرشيح الغاية في الحسن والبهاء ما لم يرمثه، وهو أحسن مكان بظواهر دمشق». ومن المناطق التي أحرقت بباب الفراديس ونواحيها، مسجد القاضي، ودور بني حذيفة، والمنطقة الواقعة بين الفاخورة وحمام قاسم وكنيسة ماريوحنا، ودرب الفحامين، ودرب القصارين، ومسجد معاوية في قينية، ودرب السماقي وما حوله الى حمام العجمي في العقيبة، وزقاق المشاطين، والقنوات، وباب الحديد، والمظلمة إزاء دار الحمامي الى الطريق الأخذ الى حجر الذهب، وقصر عاتكة، وسوق الجعفري، وقصر حجاج.

وأدى ذلك الى تخريب المنازل، وقطع الماء عن البلد، فبطلت القنوات والحمامات ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد<sup>١٧٤</sup>.

واستمرت هذه الفتنة مدة ثلاثة شهور. وتقررت المصالحة لكن الفتنة لم تتوقف وعاون جند جيش بن الصمصامة نهب المحلات، وطرح النار فيها<sup>١٧٥</sup>.

ولما وصلت الأخبار للمعز لدين الله الفاطمي (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م)، استبشع هذه الأحداث، وطلب من والي طرابلس، ريان الخادم بالتوجه الى دمشق وتقديم تقرير عن أحوالها، فلما وصلها، وجد أن الأحداث قد غلبوا على المدينة، وليس للأعيان أية سلطة أو رأي

١٧٠. المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٤٠ - ٦٤١.

١٧١. القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٠.

١٧٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦٤٠ - ٦٤١؛ الصابئ؛ تاريخ اخبار القرامطة، ص ٦٥ - ٦٦.

١٧٣. القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٢ - ١٤.

١٧٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦٤٠ - ٦٤١؛ القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٢٠.

١٧٥. القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٨.

وان الأعراب قد استولوا على سواد المدينة وما يتصل به<sup>١٧٦</sup>.

وبعد وفاة المعز لدين الله تجددت الفتنة بدمشق عند رفض الفتكين التركي البيعة للعزیز بالله وكتب اليه : «هذا بلد أخذته بالسيف، وما أدين لأحد بطاعة، ولا أقبل منه أمرا». فأرسل العزیز له جيشا. ولما أحس الفتكين بالخطر جمع وجوه أهل دمشق ومشايخهم وأشرفهم وأخبرهم بأنه خارج الى بلاد الروم لعدم قدرته على مقاومة جيش العزیز، فقام أهل دمشق يدفعهم الخوف من المغاربة وقالوا : «إنا اخترناك وسياستنا على أن لا نمكنك من تركنا ومفارقتنا أو نألوك جهدا من نفوسنا ومساعدتنا، ونفوسنا دونك، وبين يديك في المدافعة عنك وجددوا له التوفقة على الطاعة والمناصحة»<sup>١٧٧</sup>.

ولم يكتف أهل دمشق بذلك بل طلبوا من الفتكين الاستنجاد فالقمرطي، أبي محمد الحسن بن أحمد كي يساعدهم في دفع المغاربة، وتطورت الأحداث بعد ذلك حتى أن العزیز خرج بنفسه للقاء الفتكين وأوقع به الهزيمة، وألقى القبض عليه فيما بعد<sup>١٧٨</sup>.

وبعد تولية بلتكين التركي على دمشق استمر الصراع بينه وبين قسام الحارثي، وهو من العامة سيطر على دمشق، ما بين سنة (٣٦٨هـ - ٣٧٠هـ) وخلال هذه الفترة دخل أصحاب بلتكين أطراف دمشق، وملكوا الشاغور، وأحرقوا ونهبوا. ورافق ذلك غلاء الأسعار، والقحط مما أدى الى طمع العرب بها، فنزل بنو عقيل ظاهر دمشق، وأفسدت الغوطة. ولقد أدت هذه الأفعال الى هجرة عدد كبير من أهل دمشق الى أعمال حمص، مما أدى الى تعميرها، وزيادة الغلات بها نظرا لزيادة عدد سكانها<sup>١٧٩</sup>.

وفي سنة (٣٧٢هـ / ٩٨٢م) تعرض ربض الباب الشرقي الى الحريق من قبل الأتراك وانتقلت الحرائق الى أماكن متعددة مما أدى الى حرق عدة مواضع ومساجد، وعمها الخراب بعدما كانت عليه من حسن العمارة. وكل هذا يجري أمام أهلها، ولا حول لهم ولا قوة الا أن يقولوا : انتقم الله ممن أضلنا، وأحرق دورنا، وشئتنا، وتركنا مطرحين على الطرقات<sup>١٨٠</sup>.

ومما أدى الى كثرة الفتن، والنهب والفساد والحرائق كثرة تغير الولاة، وتعديات جندهم على أهل دمشق. ولم يظهر من ولاة هذه الفترة من منع جنده من دخول المدينة ونهبها الا ما كان من سليمان بن جعفر بن فلاح سنة (٣٨٧هـ / ٩٩٧م) حيث عسكر بظاهرها وقال :

١٧٦. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦٤٢، ٦٥٧؛ الصابئي، تاريخ اخبار القرامطة، ص ٦٥.

١٧٧. القلاسي، تاريخ دمشق، ص ٢٠؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦٥٧ - ٦٥٨.

١٧٨. لمزيد من التفاصيل انظر : ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص ٢١؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٦٥٨، ٦٩٧.

١٧٩. ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص ٤١، ٤٢، ٤٨؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٦، ٨، ١٧.

١٨٠. ابن القلاسي، تاريخ دمشق، ص ٧٨ - ٧٩.

معني عسكري، وأن دخلت دخلوا معي، ولم أمن من أن يمدوا أيديهم الى ما يثقل به الوطأة منهم. فأخلى له أهل دمشق قرية بيت لها<sup>١٨١</sup>.

وفي أواخر القرن الرابع تعرض سور دمشق الى التلثم في جميع جوانبه، وهدم المغاربة بعض الدور، وقتل عدد من أهل الغوطة والمرج وذلك زمن جيش بن محمد بن الصمصامة الذي أغرق في الظلم، وأوغل في سفك الدماء والجور حتى هلك سنة (٣٩٠هـ/٩٩٩م)<sup>١٨٢</sup>.

وفي أيام بني الجراح تعرضت دمشق للنهب مرة بعد أخرى مما دفع النصارى الى النزوح من دمشق الى اللاذقية وأنطاكية، وبعضهم الى بلاد الروم<sup>١٨٣</sup>.

ونلمح الفوضى في إدارة دمشق زمن الفاطميين مما ذكره القلانسي<sup>١٨٤</sup> أثناء ولاية عبد الرحيم بن الياس، ولي عهد المسلمين الذي وصل الى دمشق في جمادي الأولى، فأقام حتى ربيع الأول سنة (٤١١هـ/١٠٢١م) فلم يشعر الا وقوم جردوا اليه من مصر، فهجموا، عليه، وقتلوا جماعة من أصحابه، وساروا به في يوم الجمعة لثلاث بقين من ربيع الأول وأعادوه الى دمشق في رجب سنة (٤١٢هـ/١٠٢٠م). ونزل في القصر في المزة... ثم أخذوه مرة ثانية الى مصر، فأكثر الناس في التعجب من اختلاف الآراء في تدبير هذه الولايات، وتنقل الأغراض والأهواء فيها،.... وشاروا فيما بينهم، وتشاكوا ما ينزل بهم من الأحوال المضطربة والأعمال المختلفة.

وأدت هذه الفوضى في الحكم الى ثورة محمد بن أبي طالب الجزار على ولي العهد، واجتمع اليه كثير من أحداثها، ومن رعاها أهل حوران... وطرحوا النار في المدينة فأحرقت قطعة كبيرة منها، وقتل قاضيها، وتسلط الأحداث عليها، وغلت الأسعار بسبب ذلك، فاجتمع على الناس الجوع والحريق والنهب والقتل<sup>١٨٥</sup>.

وقد عبر أحد الشعراء عن ذلك بقوله<sup>١٨٦</sup>:

لهم خبر قد شاع في الشرق والغرب  
وخوف فقد حق البكاء مع الندب  
وطاف عليها طائف السخط من ربي  
كبعض ديار الكفر بالخسف والقلب  
فأصبح بعد الأنس ينكرها قلبي

وأضحت دمشق في مصاب وأهلها  
حريق وجوع دائم وبليية  
فأسفوا أن المدينة أحرقت  
وأضحت تلالا قد تمحت رسومها  
وأحرقت الأبواب من كل جانب

١٨١. المصدر السابق، ص ٨٦.

١٨٢. المصدر السابق، ص ٨٨ - ٨٩.

١٨٣. ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٠١ - ٢٠٢.

١٨٤. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١١٤.

١٨٥. ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٢٢٦ - ٢٢٨.

١٨٦. ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٩، ص ٢٢٨.

وبعد هذا التاريخ يبدو أن دمشق لم تتعرض الى حرائق ونكبات، ويستدل على سبيل ذلك مما ذكره ابراهيم بن أبي الليث الكاتب في دمشق، الذي قدم اليها سنة (٤٣٢هـ/١٠٤٠م) وقال: «ثم أمرنا بالانتقال الى البلد الذي تمت محاسنه، ووافق ظاهره باطنه، أزقته أرجه، وشوارعه فرجه، فحيث ما كنت شممت طيبا، وأين سعيت رأيت منظرا عجيبا»<sup>١٨٧</sup>.

لكن فترة الأزدهار هذه لم تدم طويلا، اذ عادت الفوضى الى المدينة سنة (٤٤٣هـ/١٠٥١م) بعد وفاة واليها انوشتكين الدزبري، ففسد أمر الشام، وطمعت العرب وخرجوا في نواحيه<sup>١٨٨</sup>. وكانت أقسى المظالم والويلات التي حلت بأهل دمشق ما كان سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) زمن معلى بن حيدرة بن منزو الذي تسلم الامردون ولاية فلم يلق أهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة في ولاية ما لقوه من ظلمه وسوء فعله وقاسوه من اعتدائه، ولؤم أصحابه، ولم تزل هذه المظالم حتى خربت دمشق، وجلا عنها أهلها وهان عليهم مفارقة أملاكهم وسلوهم عن أوطانهم.... وخلت الأماكن من قاطنيها، والغوطة من فلاحيتها<sup>١٨٩</sup>.

وكان أكثر الأمور فداحة ما تعرض له الجامع الأموي من حريق في منتصف شعبان سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) عندما قامت الفتنة بين العساكر وأهل دمشق، وطرحوا النار في المدينة مما أدى الى حرق المسجد فازداد قلق الناس لهذا الحادث وخسروا إحدى العجائب حسنا وبهاء ورونقاء وسناء<sup>١٩٠</sup>.

ولم يترك الفاطميون دمشق سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م) الا بعد أن اشتد غلاء الأسعار بها وعدمت الأقوات ونفذت الغلات فاضطر الناس الى أكل الميتات، وأكل بعضهم بعضا الى أن خطب للمقتدي يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م)<sup>١٩١</sup>. ونتيجة هذه الأوضاع نزح عدد كبير من أهلها، وقد ذكر ابن الجوزي انه لم يبق منهم سوى ثلاثة آلاف انسان بعد خمسمائة ألف، أفنأهم الفقر والغلاء والجلاء، وكان بها مائتان واربعون خبازا فصار بها خبازان، والأسواق خالية، والدار التي كانت بثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنائير فلا يشتريها أحد<sup>١٩٢</sup>.

ومع واجب التدقيق في النص الذي أورده ابن الجوزي، الا أنه يدل دلالة قاطعة على

١٨٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٦؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (دمشق)، ص ١٤.

١٨٨. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٥٠٠-٥٠١.

١٨٩. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٦١.

١٩٠. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٦٢؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٥٩.

١٩١. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٦٢؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٥٩.

١٩٢. الريحاوي، مدينة دمشق، ص ١٧. ولم يذكر مصدر ابن الجوزي.

التراجع الذي منيت به دمشق أيام الفاطميين مما أدى الى تراجع عمرانها، وظهور أزقة داخل أسوارها تحمل أسماء الفئات التي كانت تثير الخراب والدمار في دمشق. ومنها على سبيل المثال حارة المغاربة، وزقاق العيارة في القصارين في باطن دمشق<sup>١٩٢</sup>، وزقاق السودان خارج باب الفراديس ومحلة الزطبالشاغور الجواني<sup>١٩٤</sup>، وزقاق العبيد بمحلة سويقة صاروجا<sup>١٩٥</sup>.

وخلال قرن من الزمن لم يترك الفاطميون أثرا يذكر في دمشق باستثناء الفوارة التي شيدت سنة (٤١٦هـ/١٠٢٥م) في وسط جيرون، وجر الماء إليها من ظاهر قصر حجاج، واقامة قناطر عليها، وعقد قبة سقطت عام (٤٥٧هـ/١٠٨٢م) فأعيدت ثم سقطت اعمدتها وما عليها في حريق اللبادين فيما بعد<sup>١٩٦</sup>. وقبة أبي نواس سنة (٣٦٩هـ/٩٧٩م)، والقبة الشرقية التي بنيت على باب مسجد علي سنة (٤٠٠هـ/١٠٠٩م)<sup>١٩٧</sup>.

لقد ادت الاضطرابات المستمرة خلال الحكم الفاطمي الى انحسار العمران خارج الأسوار ونزوح الناس أما الى الداخل او عن دمشق نهائياً مما أدى الى قيام الأبنية في الفرجات والمساحات الخالية من العمران، والمناطق المجاورة للأسوار، والتعدي على الأزقة والشوارع. ومما يدل على ذلك ما ذكره المقدسي عن دمشق بأن منازلها ضيقة، وأزقتها غامة، وأحزابها رديئة، والمعاش بها ضيقة<sup>١٩٨</sup>.

وعبر ابن عساكر، وهو القريب من هذه الفترة أحسن تعبير عن ذلك وقال: أكثر ظاهر البلد منازل للقبائل، وقرى متصلة، وأبنية متقاربة. فخرّب أكثر ذلك في الفتن والحروب والحصارات، وبأد أهله، وتمادى على الخراب الى الآن. وكل موضع حفر الا وجد فيه أثر العمارة من سائر نواحي البلد من قبله وشرقيه وشامه وغربه<sup>١٩٩</sup>.

لقد أثر النزوح الى الخارج، وانعدام الأمن على عمران المدينة، فبنت مجموعة من الحارات المستقلة، بل هي مدن صغيرة بأبوابها ومساجدها وحماماتها وسويقاتها<sup>٢٠٠</sup>.

١٩٣. انظر سجل المحكمة الشرعية، دمشق شريط مصور، مركز الوثائق، الجامعة الاردنية، حجة ١١٦، محرم سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م.

١٩٤. انظر: سجل المحكمة الشرعية، دمشق، حجة دون رقم، رجب سنة ١١٥٥هـ/١٧٤٣م.

١٩٥. انظر: سجل المحكمة الشرعية، دمشق، ج ٥٦، رمضان ١١٨٩هـ/١٧٧٥م.

١٩٦. انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ٣٢؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (دمشق)، ص ٥٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٦٦؛ النعمي، الدارس، ج ٢، ص ٣٩٠.

١٩٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٦٥.

١٩٨. المقدسي، ابو عبدالله محمد بن احمد (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مكتبة خياط، بيروت، تصويرو عن طبعة بريل، ١٩٠٦م، ص ١٥٧.

١٩٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، م ٢، ق ١، ص ١٤٣.

٢٠٠. سوفياجيه، دمشق، الشام، ص ٢٨.

## بعض المشاهير الذين سكنوا دمشق في الفترة الراشدية والأموية

### محلة باب البريد وحجر الذهب :

- ١ - أبو الدرداء.
- ٢ - أبو عبيدة عامر بن الجراح.
- ٣ - سهل بن الحنظلية.
- ٤ - قبيصة بن ذؤيب الخزاعي (الأموية).
- ٥ - عبده بن رباح الغساني (الأموية).
- ٦ - مصنعه لأبناء عبد العزيز بن الوليد.

### الباب الصغير :

- ١ - وائلة بن الأسقع في نواحي الزلاقة.
- ٢ - ابن محرز واليه نسبت درب ابن محرز.
- ٣ - سليمان بن عبد الملك (القبة الصفراء).

### باب الجابية :

- ١ - أيمن بن خريم الاسدي (درب الأسديين).
- ٢ - مجموعة من الأسديين (درب الأسديين).
- ٣ - عون بن حكيم.
- ٤ - عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث الهاشمي في درب الهاشمية داخل باب الجابية.
- ٥ - اسماعيل بن عبد الله بن أبي مهاجر (خارج باب الجابية طريق القنوات).
- ٦ - عمر بن الوليد بن عبد الملك (ربض باب الجابية).
- ٧ - حجاج بن عبد الملك (ظاهر باب الجابية واليه نسبت محلة حجاج).

### سوق القمح ودرب الريحان الى الجنوب من الخضراء :

- ١ - مغالة بن عبيد (قريباً من سوق القمح).
- ٢ - مجموعة من الانصار (درب الانصار في سوق القمح).
- ٣ - يزيد بن نبشية (سوق الريحان).
- ٤ - روح بن زنباع الجذامي (البزورية تجاه سوق القمح).

### درب القلى :

- ١ - أوس بن أوس.
- ٢ - هند بنت معاوية بن ابي سفيان.

### باب توما :

- ١ - خالد بن الوليد.
- ٢ - وائلة بن الخطاب العدوي (رحبة خالد).
- ٣ - مجموعة من الانصار.
- ٤ - عمرو بن العاص.
- ٥ - خالد بن أسيد (رحبة خالد).
- ٦ - اسحاق بن عمارة العقيلي.
- ٧ - حميد بن عمرو القرشي (وبه سميت درب حميد بين رحبة خالد ودرب طلحة بن عمرو الجهني).
- ٨ - طلحة بن عمرو الجهني (درب طلحة).
- ٩ - عقبة بن عامر الجهني (قنطرة سنان).
- ١٠ - خالد بن عبد الله القسري (نسب اليه الحمام المقابل لقنطرة سنان).

### حمام الحمى :

- ١ - جرير بن عبدالله.
  - ٢ - عمرو بن العاص (عين الحمى).
- دار البطيخ العتيقة (سوق البطيخ)
- ١ - مالك بن عوف النصري.
  - ٢ - أسد بن عبدالله القسري (في القزازين ناحية البطيخ).

### القلانسيين :

- ١ - الحجاج بن علاط السلمي (سوق الطرائف أول سوق الطير).
- ٢ - أم عمر (عمرو) بنت مروان بن الحكم (موضع دار الوكالة).

### جيرون :

- ١ - عمرو بن العاص (سقيفة كردوس).
- ٢ - عبيد الله بن زياد (الديماس قرب حصن جيرون).
- ٣ - سعيد بن العاص (الديماس).
- ٤ - سفيان بن الابرذ الكلبي.

### درب الحجارة :

يزيد بن عبد الملك.

### عقبة السماك :

رملة بنت معاوية (في طرف زقاق الرمان).



### عقبة الصوف (مأذنة الشحم) :

بشير بن مروان.

### جوار المسجد الاموي :

- ١ - عبد العزيز بن مروان (جنوب الجامع).
- ٢ - عبده بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية زوج هشام بن عبد الملك (شمال غرب الجامع).
- ٣ - العباس بن الوليد بن عبد الملك (زقاق العجم مماليك درب السلم والخضراء).

### الخواصين :

هشام بن عبد الملك (الأيوان الأحمر).

### الكشك :

الوليد بن عبد الملك (قبلي دار البطيخ في السوق الكبير).

### سوق القلائيين :

أم حكيم بنت يحيى بن الحكم.  
طاحونة الثقفيين (طاحونة القلعة فيما بعد) : أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان.

### باب السلامة :

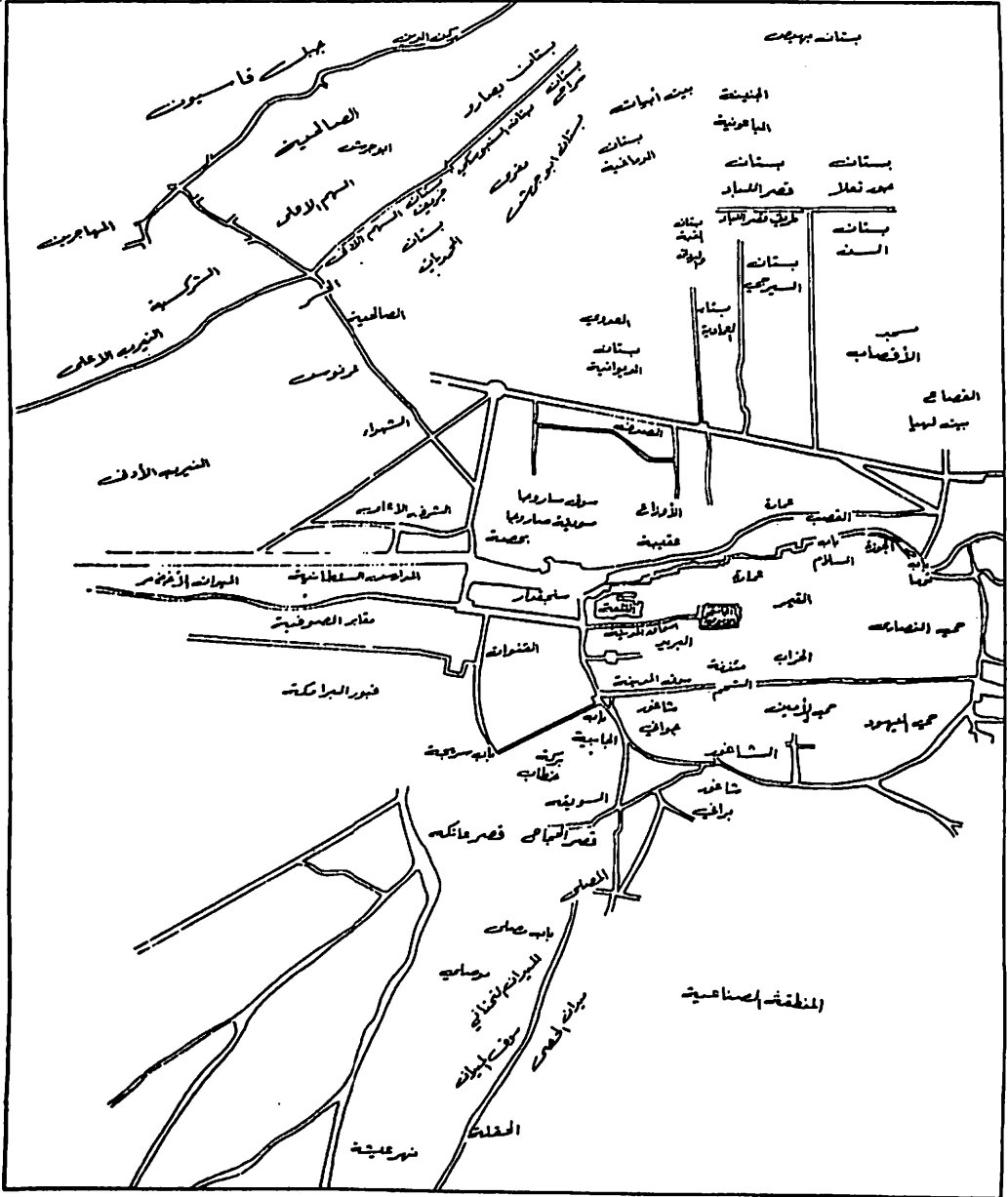
- ١ - عمزوبن حفص الثقفي.
- ٢ - عمر بن مبشر بن الوليد (كسملين خارج باب السلامة).

### باب الفراديس :

- ١ - أم البنين بنت عبد العزيز (العقيبة خارج باب الفراديس).
- ٢ - مسلم الختلي.

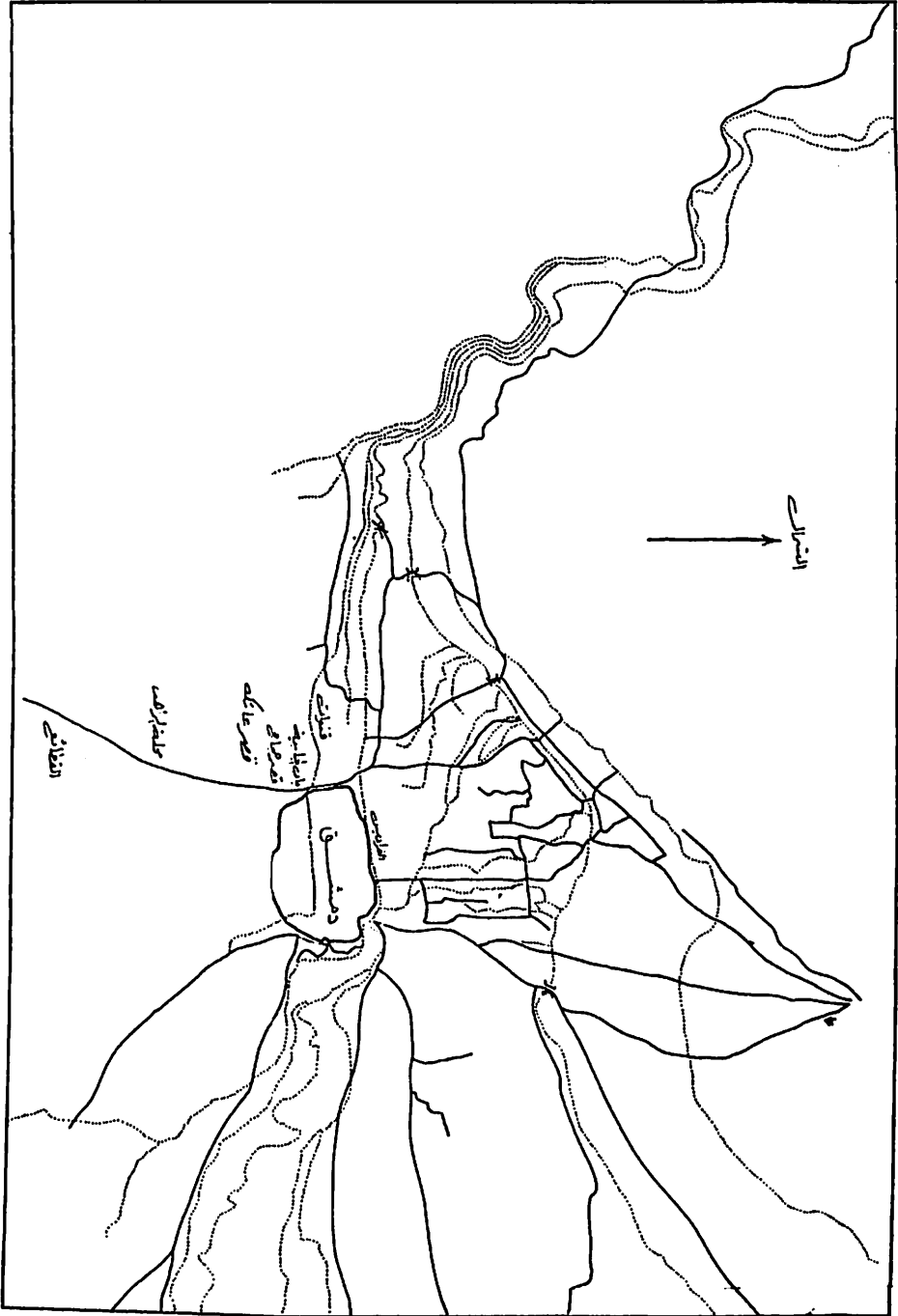
المزة	ابو العميطر علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد (في رحبة البصل)
قصر عاتكة	عاتكة بنت يزيد
زقاق صفوان	صفوان بن أمية
قصر البحادلة	١ - البحادلة
	٢ - الحجاج بن يوسف الثقفي
سوق الصياقلة	سفيان بن الأبرد الكلبى
مربعة القدم	خالد بن عبد الله القسري
قيسارية الخدم	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد
النييطون	عمرو بن سعيد الأزدي
الراهب	الزهري

- محلة اليهود  
سوق الغزل :  
ومن الدور البارزة :  
دار الخيل  
دار الذهب
- ١ - عطية بن قيس  
٢ - عبد الله بن بشير الشيباني  
عوف بن مالك الاشجعي  
اقيم مكانها فيما بعد المدرسة الامينية  
تجاه البزورية قرب سوق القمح



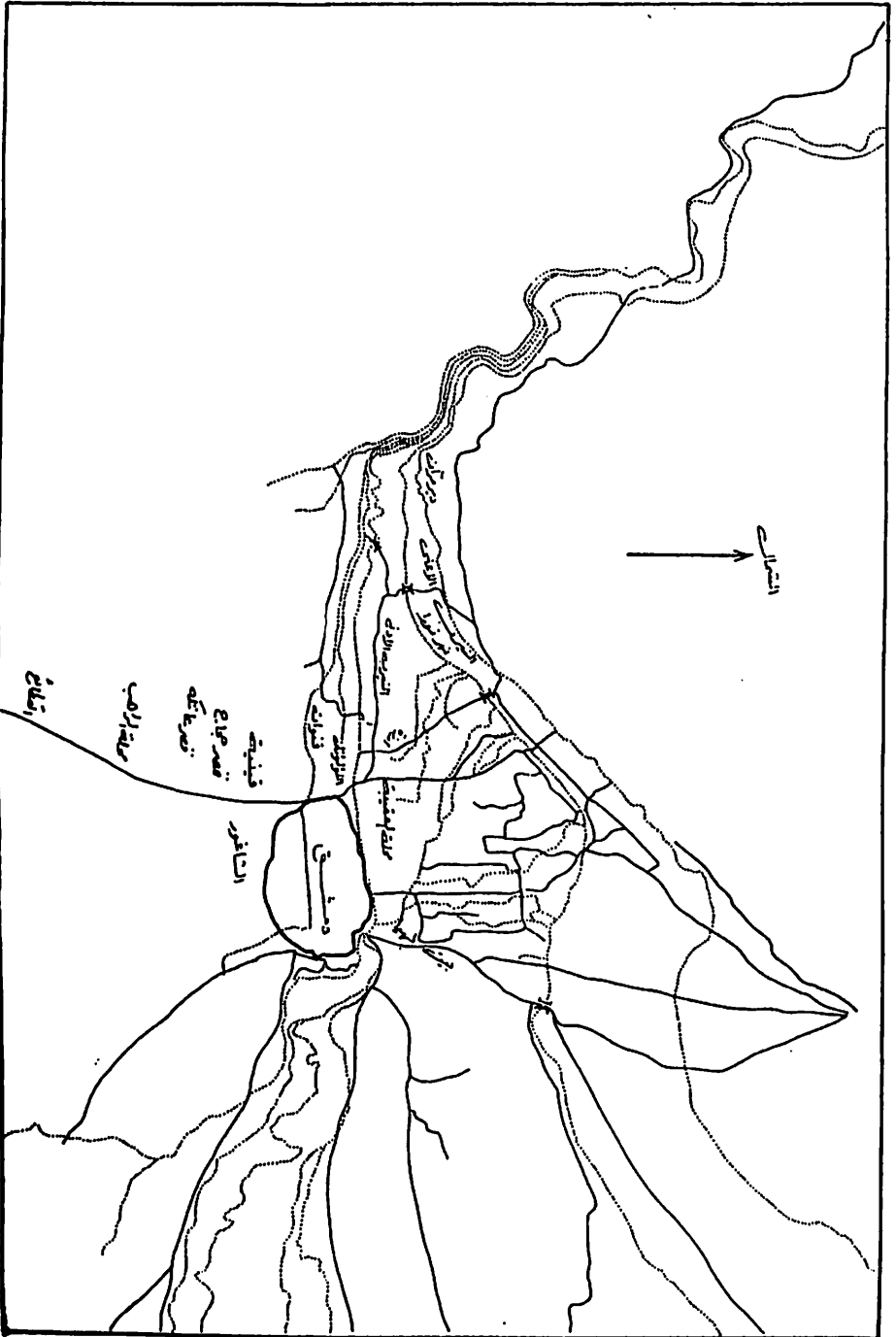
شكل ١- أحياء دمشق القديمة وتطورها.

• منه بنام الجاهية •



وهو تاريخ دمشق، أبيه الأندلسية

شكل ٢- دمشق في العصر الأموي



موسسة تاريخ دمشق، الجزء الثالث، الصفحة ١٠٠

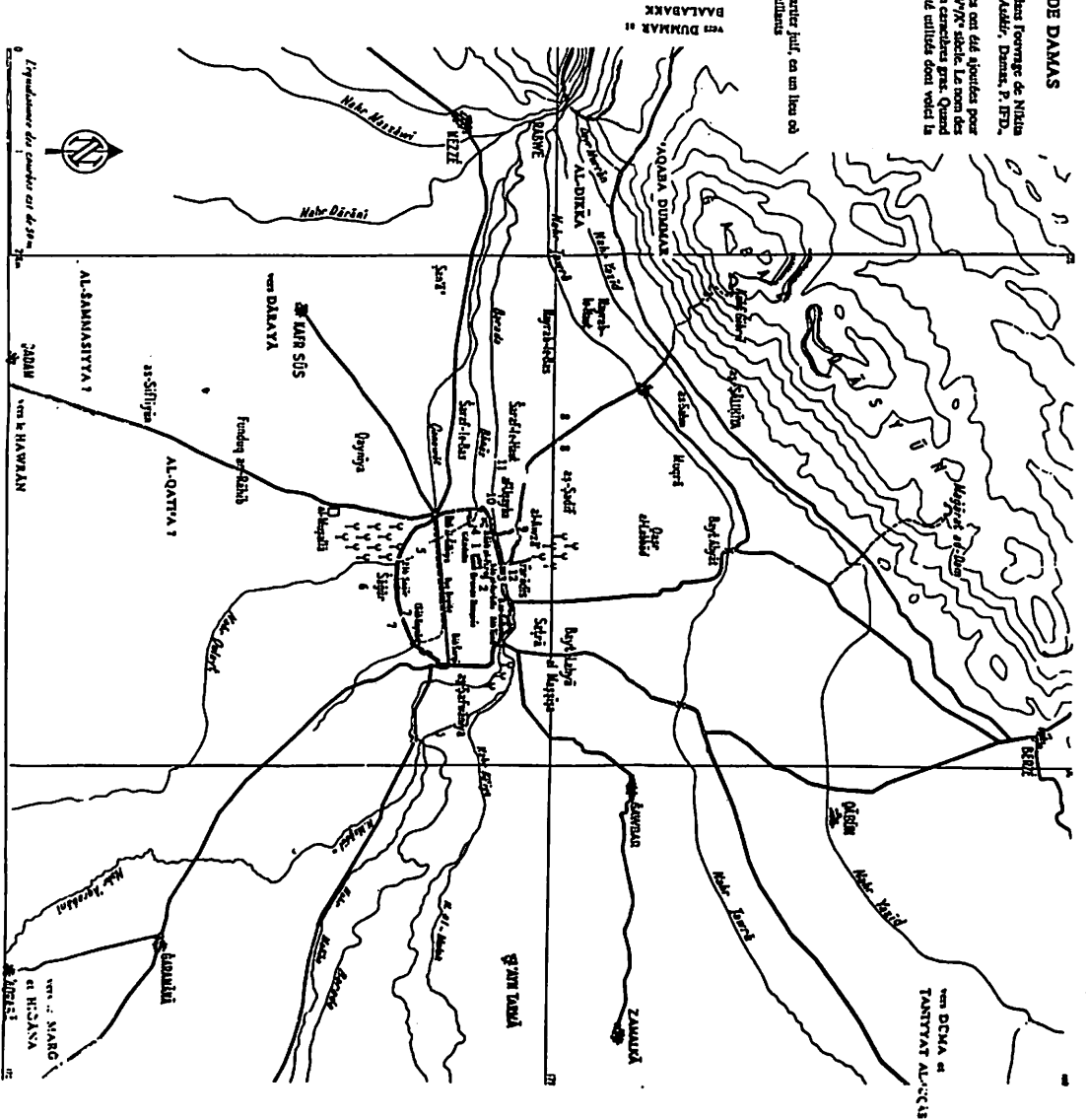
# شكلا ٢ - دمشق في العصر العباسي

CARTE DES ENVIRONS DE DAMAS

La carte utilisée est celle qui figure dans l'ouvrage de NIKON BAKSETERF. *La description de Damas d'après Yaqûb, Damas, P. ETD, 1939.*

Quelques indications complémentaires ont été ajoutées pour rendre de rendre compte de la topographie au XVIII<sup>e</sup> siècle. Le nom des lieux cités a été porté sur leur emplacement en caractères gras. Quand cela n'était pas possible, des numéros ont été utilisés dont voici la légende :

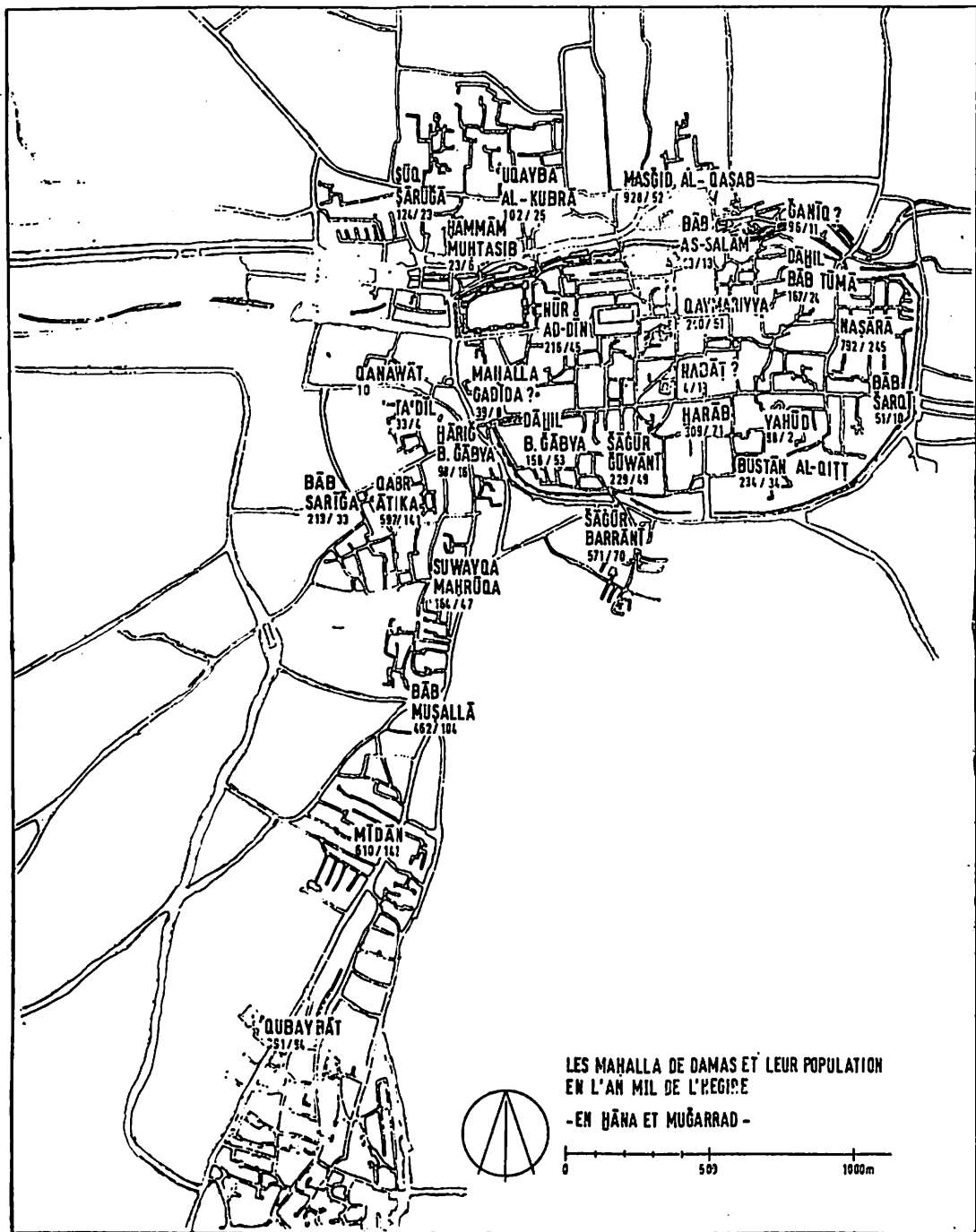
- 1 Bab al-Bandar (grande Mosquée)
- 2 Qaymâh
- 3 Bab al-Abyad (al-Zahiriyya)
- 4 Bab al-Dabab et Qasr al-Faythiyya
- 5 Zaqiq 'Ahlî
- 6 Siq al-Qaymâh et Siq al-Dawâb
- 7 Al-Baqiyya et al-Hayr : à proximité du quartier juif, en un lieu où l'emplacement de la ville était utile pour les sassanides
- 8 Boudan al-Wazar et Zaqiq al-Hammâm
- 9 Hospital vicine
- 10 Bab al-Jandî, porte de la forteresse
- 11 Focionis
- 12 Siq al-Astheniyya

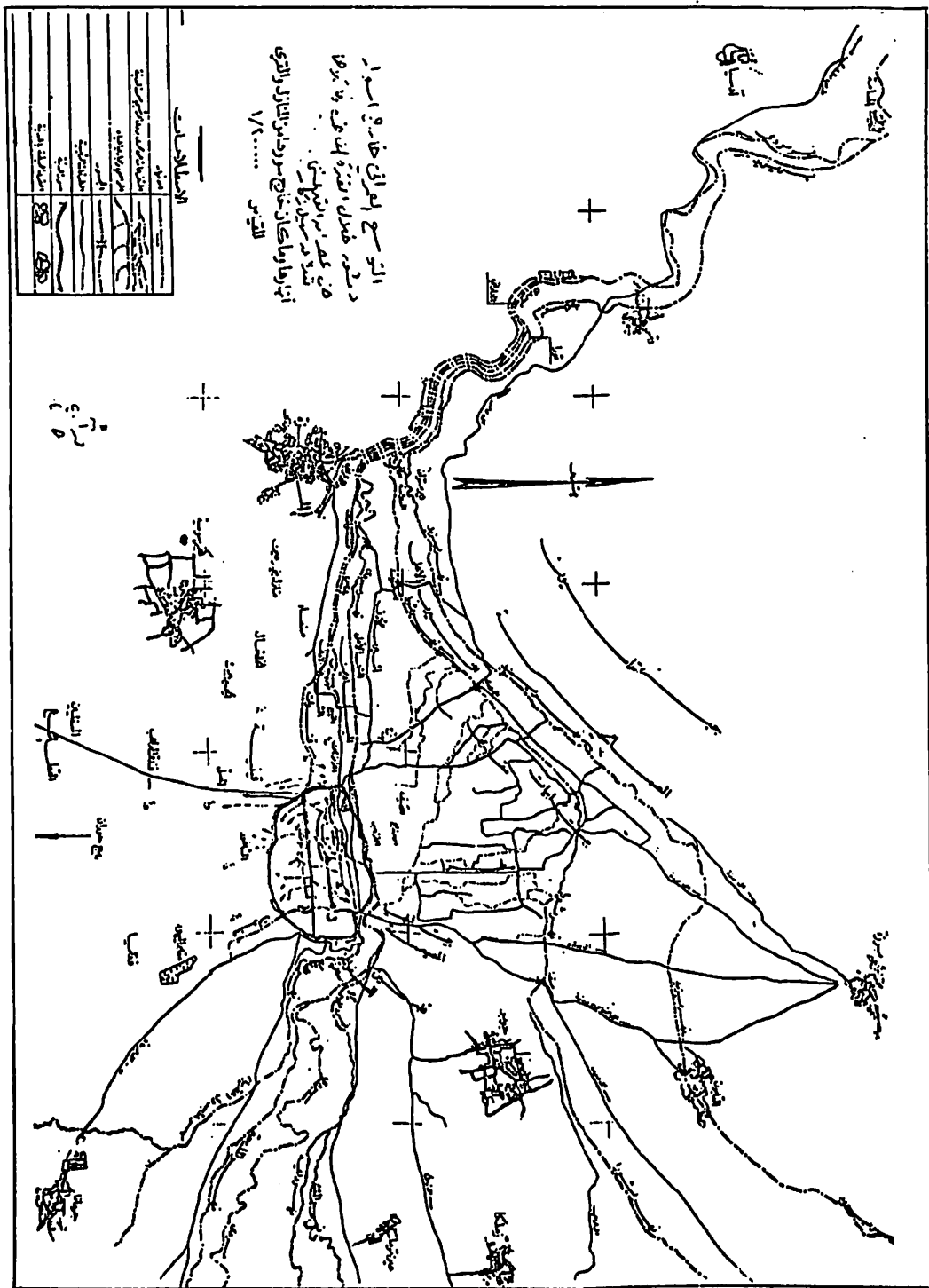


Carte des environs de Damas

التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي لبلاد الشام

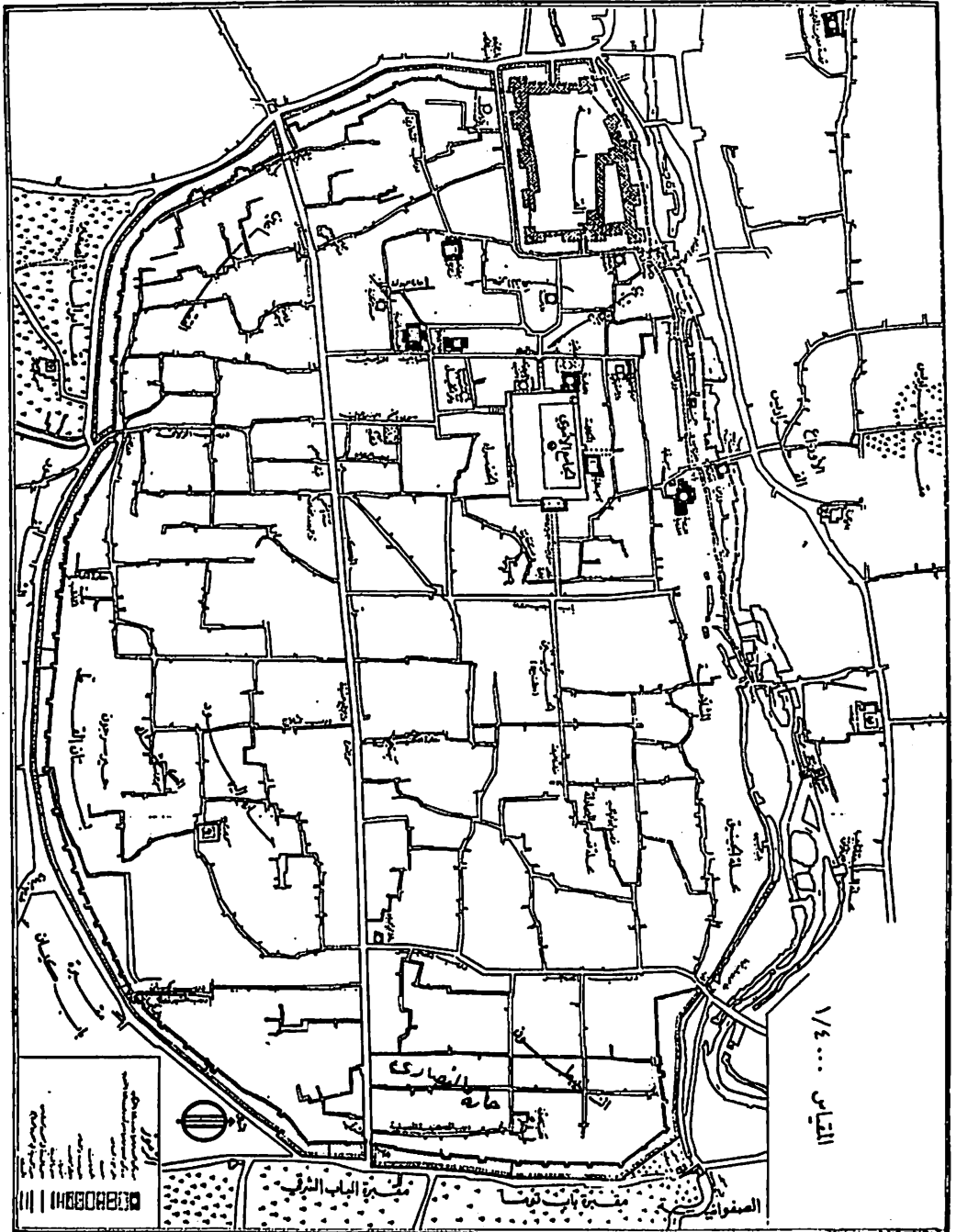
Plan III











## «حَمَارُ الْقَرْيَةِ، فَارَسُ الْبَادِيَةِ، عَلَامُ الْقَلْعَةِ»

### ثلاث شخصيات في الفترة الانتقالية في بلاد الشام

#### تيري بيانكي\*

١. مقدمة :

بلاد الشام على الهامش :

يعتبر القرنان الرابع والخامس الهجريان/العاشر والحادي عشر الميلاديان، مرحلة من المراحل الانتقالية لبلاد الشام. فقد واجهت تلك البلاد في العقود الأخيرة من العهد الأموي، والقرن الأول من الخلافة العباسية فترة حرجة، تعود بأهم أسبابها للحرب البحرية بين المسلمين والبيزنطيين. وثم أدى استقرار القراصنة في جزيرة كريت «التي كانت قاعدة لهم»، إلى إغلاق الملاحة البحرية وعرقلتها في المتوسط. وبالتالي تم التخلي عن الخط التجاري الممتد من المتوسط الى اليمن، عبر هضبة شرقي الأردن، فالقسم الشمالي من الجزيرة العربية، استبدل به الخط التمثيل بالطريق العراقي البحري والنهري والبري - الخليج، والنهري، والجزيرة - ماراً بشمال سوريا.

يضاف إلى ذلك فوضى القبائل البدوية، التي كان من المستحيل إيقافها نهائياً، وذلك لأنها كانت ضخمة العدد، وقد استمرت على تمسكها بشخصيتها البدوية، سواء بعقد التحالفات أو بنقضها.

هذا مما جعل بعض القبائل كالقيسية نتيجة لاحتفاظها بشخصيتها البدوية لاقت صعوبة لقبولها في جيش الخليفة، مما حداها على مضايقة القبائل اليمانية التي تميل الاستقرار.

وهناك بعض القبائل البدوية الصغيرة التي فقدت دورها في حماية القوافل المارة في منطقتها كقوافل الحج، والقوافل التي تحمل الأموال الى مركز الخلافة، حل محلها فرق خاصة من الجيش تقوم بهمة الأمن، أو فرق مسلحة من قبل بعض القبائل الكبيرة. وهذا أدى إلى إفقار هذه القبائل الصغيرة والتي كانت منتفعة من الوضع السابق. فأصبحت في حالتها هذه تتقبل بسهولة الثورة أو العصيان، إذا ما سنحت لها الفرصة.

وفي نهاية القرن الثالث / التاسع، وبداية القرن الرابع / العاشر، طغت الدعاية القرمطية على كل الأحداث من حين أنها أشارت الى الفروق المادية بين طبقات الناس، وبرز ذلك من خلال

\* جامعة لومبيير، ليون الثانية، ليون، فرنسا.

تحريض الفقراء على مهاجمة الأغنياء وقوافل الحج. وكان ردع السلطة لهذه الهجمة شديداً. وكانت الخريطة الجغرافية للقبائل البدوية معقدة جداً، ومتقاربة كثيراً لما كان موجوداً إبان عهد هارون الرشيد. إذ ذكرت المصادر وجود ما يزيد عن ثلاثين قبيلة مختلفة النسب واللقب كانت موجودة بالقرب من دمشق. ثم نلّس التبسيط المثير لها في القرنين الرابع والخامس / العاشر والحادي عشر، إذ إن بلاد الشام لم تعد تضم بأكملها أكثر من خمس عشرة قبيلة. منها مجموعة قبائل حافظت على هويتها الشخصية المتميزة، وأصبح من الواضح جداً أنها أكثر قوة من السابق. وشغل بعض أفرادها مناصب في الجيش، وبهذا الشكل تطور الحال ليصبح لها مطامع سياسية في المستقبل البعيد.

## ٢. إقليم من دون جهاز حكومي واسع:

لم تعد دمشق— منذ سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م— مقرأً لسلطة خلافة، بل أصبحت مركز جند، يقوم الموظفون ببعض الأعمال القليلة. ولم تكن هناك إدارة تقوم بوظائف ثابتة. كما كان حالها في السابق عندما كانت تحت السلطة الأموية.

وتقدم المصادر التي وصلتنا، كتراجم ابن عساكر شهادة واضحة على التطور الضعيف في نظام الدولة. وبما يدعو إلى الدهشة أننا عندما نتابع تطور الحياة في هذه المدينة قلما نثر على ذكر «الديوان»، أو «المحتسب» في الفترة الفاطمية. على الرغم من أن النصوص قدمت لنا صورة عن الفسطاط والقاهرة في تلك الفترة ودلت على ظهور براعم الديوانية (البيروقراطية) بشكل كبير.

كما أن الكتمان المحيط بأماكن ممارسة السلطة في دمشق، يفسر لنا بوضوح قلة تراجم رجال الدولة، وبالتالي يمثل قلة وجود هؤلاء في نظام الدولة مثل ذلك قلة الإشارات إلى مراكز السلطة والدواوين<sup>١</sup>.

## ٣. الصورة المتناقضة للطاعين إلى السلطة:

وفي مثل هذه المدينة لم يكن هناك نظام تسلسل اداري، أي ارتقاء تدريجي مرحلي، كما تغيب عملية انتخاب الصفة. على مثل ما كان الحال في مصر— الفسطاط، حيث إن النظام الإداري الذي كان فيها للموظفين سمح لليهود والمسيحيين بمثل هذا الأرتقاء في الدواوين الحكومية، وبالتالي خضع الكتاب في مصر الفسطاط للسلطة العسكرية والمدنية، بخلاف دمشق حيث فتح المجال فيها

١. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) رفع الامر عن قضاة مصر وكتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق ريفون جست، ص ٦٥٢ - ٦٥٣؛ المقرئ، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) اتعاظ الحنفيا باخبار الأئمة الخلفاء، ج ٣، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٧٣-١٩٧٢، ص ٢١ - ٢٤.

أمام شخصيات قوية معاصرة للعب مثل هذا الدور.

وسيتطرق هذا البحث إلى تصنيف شخصيات من نماذج توصلت إلى السلطة ، أو شخصيات كان لها دور في ذلك . وخاصة معالجة شخصيات ذات نوعية لم يتطرق لها المؤرخون العرب . وهناك نقص كبير في المعلومات عنهم ، على الرغم من محاولة البعض إعطاء صورة حقيقية عن تلك الشخصيات ، باستثناء بعض المؤرخين كالمسبحي ، وبحي الانطاكي .

ونستشف من هذه الأزمة ، الطويلة الأمد ، من بعض المؤرخين كابن عساكر ، وابن القلانسي ، وابن العديم ، الذين عاشوا بعد قرن أو قرنين من الأحداث وكتبوا عنها في جو مختلف تماماً . وظهرت سلطة أجنبية ، أي قوة عسكرية غير عربية أخذت مقاليد السلطة ، كالأتراك والأكراد . وبالتالي يظهر في نصوصهم الصورة الزخرفية للوقائع والأحداث ، التي حملت روح العصر في ذلك الوقت .

#### ٤ . المسافرون والمقيمون :

وسنحاول الآن تحليل ثلاثة أنواع من الشخصيات الإنسانية اخترناها وكانت تملك وسائل التنقل . وقد عاشت هذه الشخصيات وتنقلت في عالم كانت النساء فيه — بشكل تقريبي — وغالبية الرجال يعيشون في مجال محدود . وقد كانت المسافات اليومية التي كان يقطعها هؤلاء محدودة جداً ، اقتصرت على الأزقة والشوارع ، من الزقاق إلى السوق ، أو الجامع ، أو الحمام ، وفي حالات استثنائية كانوا يتجاوزون باب المدينة في حال دفن الموتى أو في بعض الاحتفالات كالعيدين ، من أجل الصلاة في المصلى خارج المدينة . وفي بعض المغامرات والألعاب ، أو في حالات الحج .

وفي مثل هذا العالم آلت السلطة للذين كانوا يملكون الجرأة والتنقل والأسفار .

#### ٥ . نخبة العلماء في وقت السلم :

— في فترة الهدوء والأزدهار — نرى أن طبقة التجار والعلماء ، الذين اكتسبوا العلم والمال بسبب أسفارهم هم الذين انتخبوا ليتولوا المناصب الهامة في المدينة ، وقد لعب هؤلاء دوراً هاماً ، فقد مثلوا طبقة الأعيان والقضاة طبقاً لنظام قانوني ، واقتصادي ، واجتماعي كان سائداً آنذاك ، وقد دافع هؤلاء عن هذا النظام ، وحاولوا باستمرار أن يحركوا دفته بدقة وانتظام ، وبدون توقف ، من أجل مصالحهم الخاصة .

النتائج المشرفة لهذه المناورة الحذرة يمكن أن نجدها جيلاً بعد جيل لدى أولئك الذين كانوا يقعدون بصلاة الجمعة في الصفوف الأولى من المصلين ، أو في انتقالهم المتواتر على مر السنين من محيط المدينة إلى المناطق القريبة من الجامع ومن ثم إلى جانب الجامع . ولكن في بعض الأحيان كان الوضع

العام يهتز بعنف نتيجة بعض الاضطرابات التي تعود في أصولها لخلاف مذهبي، أو مهني، أو عرقي، أو محلي بين حبيّ وآخر. وكثيراً ما تذهب محاولات الأعيان في التوفيق بينهم ادراج الرياح. فيسحبون أيديهم من المشكلة ويحتمون وراء قوة السلطات من أجل إفساح المجال للسلطة المحلية بوضع حد للخلافات بالقوة.

وفي هذا الوقت تتاح الفرصة لشخصيات لتأخذ مراكز حساسة نتيجة قوة شخصيتها وغير معتمدة على وضع عائلي شريف وعلم متوارث، أو مكتسب. كان اعتمادها الأساسي على قوة شخصيتها وحضورها الذاتي والجسدي، بحيث لا تقبل المنازعة. وقد سمحت لهم هذه القوة «بالإنثاق» أمام الأعيان المتوارين وراء قوة السلطان.

## ٦. الأزمة في الشام، خط للرجال الجدد :

اتسمت سوريا في القرنين الرابع والخامس / العاشر والحادي عشر بأزمة عنف متلاحقة في المدينة والريف والبادية. وغيرت هذه الأزمة الحالة الاجتماعية الموجودة، وخلخلت التوازن السياسي المعتدل والبارز. وتمت اثارها بسبب وضع كان في بدايته عقائدياً. وكما أثارها الأعيان «الشخصيات المدنية» والسلطة التقليدية.

ويعود السبب الى أنه كان قد نشأ في هذه المنطقة نوع من الفراغ السياسي، لأن مراكز القوة الكبرى الثلاثة آنذاك ألا وهي بغداد تحت السيطرة البويهية، والقاهرة تحت السيطرة الفاطمية، وقسطنطينية الروم. وهذه المراكز لم تكن قادرة عسكرياً، لأن تشغل هذه المنطقة، ولو انها استطاعت لأدى عملها إلى خلل بالتوازن الدولي القائم، وهذا لن تقبله أي دولة من الدولتين الأخريين، هذا بالإضافة إلى أنه كان هناك نوع من التوازن بالقوى، فلم تكن تستطيع أي دولة أن تقوض الأخرى. ولم تكن أي دولة تجرؤ على أن ترسل جيشها بعيداً عن عاصمتها، ولهذا كان مجال حركتها في المحيط وهناك عامل آخر وهو العامل الطبيعي، إذ إن تزايد عدد السكان على حساب الأرض المستغلة أدى إلى ارتفاع سعر القمح والمواد الغذائية، وبالتالي إلى عجز في الميزانية المالية<sup>٢</sup>.

وفي مثل هذه الظروف ظهرت مجموعة شخصيات تشابهت صفاتهم العرقية واللغوية والمذهبية، زعماء وذوي خبرات، أخذوا مكاناً ومراتب سياسية معتبرة.

٢. انظر في: بيانكي (ثوري) مقالته تحت عنوان: أزمة القمح في مصر في عهد الفاطميين، نشر في

Journal of The Economic and Social History of the Orient (JESHO) 1979, p. 127-167

وسوريا تحت السيطرة الفاطمية. من مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق. ١٩٨٩. وسيشار لهذا المرجع عند ورده فيما بعد هكذا، بيانكي، دمشق وسوريا.

Damas et la Syrie sous la Domination Fatimide, p 2 Tomes. Institut Francais de Damas, Damas 1989.

— كانت المجاعة نظراً لضعف الموسم وزيادة عدد السكان سبباً للأزمة السياسية مما كان يؤدي الى وفاة اعداد كبيرة من الفقراء.

وإذا كان الوقت مناسباً لظهور هذه «الانبثاقات» انتي حاولت فرض شخصيتها من دون تشكك بها، فقد تم نتيجة لذلك إهمال او فقدان الهالة الكبيرة التي أعطيت للشخصيات البارزة سابقاً. والتي كانت تعتبر المرجع للجميع.

وقد انبثقت هذه الشخصيات الجديدة من ثلاثة أماكن: انبثق القروي من القرية، أي من النمط الزراعي، حيث العمل الشاق. وأمير القبيلة من البادية التي تمثل مراعي للقطيع. حيث القبائل كانت تمتد الجيش بشكل مستمر من أفرادها، وامتاز هؤلاء بأنهم يقومون بضربات سريعة ومفاجئة، هذا وقد ذكر لنا المؤرخون بأنهم مثلوا بعض المكائد بشكل ماهر وخبيث، وربما يعود سبب ذلك إلى طبيعة الحياة في البادية، وما يفرضه من حذر وانتباه بشكل مستمر. وقامت الشخصيات الخيالة التركي، الذين استقروا في الحصون، أو في مخيماتهم. وامتازوا بكونهم جيشاً مستقراً على خلاف البدو.

#### ٧. النمط الأول، القرويون يعملون في المدينة:

كانت القرى في الريف تشمل أراضي زراعية محددة، لا يمكن توسيعها على الأغلب. وقد ضمن غياب حق البكورية شرعية تقسيم الأرض بالتساوي بين الأبناء، ولكن المزارعين كانوا يعلمون دائماً أن هذا التقسيم سيؤدي بالطبع إلى مخاطر اقتصادية مستقبلية. ولهذا اتجه الفلاحون إلى ممارسة حصر الإرث بالذكور فقط (بالابن الأول أو الثاني حصراً). توهب الأرض وفقاً لوجه الله، وبتنصيب الأب بن مسؤولاً عنها لما يفلحها ويستثمرها. إلا أن الوثائق التاريخية لا تقول متى بدأ الفلاحون يطبقون هذا النظام؟ وأدى تزايد السكان في القرى إلى تضخم سكاني بها، وبالتالي كانت هذه القرى هي المورد وبشكل منتظم لليد العاملة القوية والرخيصة التي تحتاجها في بعض الأحيان المدن المتوسطة الحجم لبعض أعمالها، وقد أثبتت لنا النصوص القديمة أن هؤلاء القرويين قد رهنوا طاقتهم — وبصبر عجيب — لخدمة سكان هذه المدن.

#### ٨. الحمار طبيب:

بهذا الشكل نشأ أبو الفرج البيروني، أكبر وأشهر أطباء دمشق<sup>٣</sup>، في كنف عائلة ريفية

٢. انظر: ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م)، عيون الانباء في طبقات الاطباء،

ج٢، المطبعة الوهبية، القاهرة، ج٢، ص ١٤٠.

بيانكي، دمشق وسوريا، ج٢، ص ١٤٠-١٤٢، وانظر كذلك بيانكي، «أعيان ولصوص من اصل ريفي في دمشق»، ص ٢٠٢ وما بعدها. انظر: Notables ou Malandrins d'Origine Rurale Ā Damas...BEO, XXVI, 1973.

وانظر: ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، تاريخ مدينة دمشق، مخطوطة الظاهرية، ج١٢، ١٤٢، ١٤٣ + ب. وسيسار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ.

مزارعة . وأصبح طبيباً بفضل ذكائه، وشخصيته الطموحة، إذ إن ابن أبي أصيبعة أفرد له بحثاً في كتابه، حيث أخبرنا أن اليبرودي من قرية يبرود التي تبعد عن دمشق حوالي ٨٠ كم، وكان يصطحب حماره ناقلاً عليه الحطب والشيخ، لبيعها وقوداً للخبازين في الحي المسيحي بباب توما، وكان هناك يراقب بعض الحلاقين والفضادين.

### الحَمَار قارىء للقرآن :

وهناك مثل للتحضر المدني في أواخر القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي . هو فلاح من غوطة دمشق الغربية من داريا يدعى علي بن داود، وهو عالم وقارىء للقرآن على الطريقة العثمانية — باسناد الخليفة عثمان — وإماماً للجامع هناك : وقد جاءه يوماً أعيان دمشق يطلبون منه أن يكون إماماً للجامع بني أمية الكبير، في حين رفض سكان داريا هذا الأمر، وكادت أن تحدث حرب أهلية بينهم، لأنهم يريدون من إمامهم البقاء في داريا، ثم بعد محاولات أقنع سكان دمشق أهل داريا فسمحوا له بالذهاب، وقبل إمام داريا منصبه الجديد، رافضاً البغلة التي قدمت له لتنقله إلى دمشق . وقدم دمشق على حمارته التي يعمل عليها، وتسلم عمله أماماً للجامع، ومقرأ للقرآن، وقد رفض أن يأخذ المبلغ المالي المخصص له لقاء عمله هذا، لأنه كان أشعرياً .

### ١٠ . الحَمَار حلقة وصل بين الريف والمدينة :

كان الحَمَار يسمح لأولاد المزارعين بكسب قوتهم من المدينة دون أن يستقروا فيها، فهم يذهبون إليها يومياً يتلقون أخبارها ويقومون بنقل تلك الاخبار الى قريتهم وفي الوقت نفسه كانوا ينقلون من اخبار القرية للباثين من ناحية الزراعة ومواسم المحاصيل، من أجل تثبيت أسعارهم، وكان هؤلاء يدخلون ويخرجون من الباب نفسه بشكل يومي، ويحطون في الحي نفسه الذي أخذ بعضاً من الشهرة.

واليبرودي مسيحي، وكان مجال عمله وزبائنه في باب توما وبالمقابل نجد البدو الذين أتوا من البادية والشطار الذين أتوا من القرى غير المستقرة تجمعهم حارة حول مقبرة الباب الصغير، عاصمة بسوق الغنم، وفي المكان نفسه نجد تجمعات البدو الذين نصبوا خيامهم هناك . وكان هذا الحي ملتقى للعصابات . ولم يكن أعيان المدينة يرتادون هذه المنطقة إلا نادراً، لدفن أحد موتاهم فقط .

### ١١ . الحَمَار يستقر في المدينة :

و يوماً بعد يوم أصبح الريفيون الذي يرتادون المدينة يومياً يفضلون الاستقرار فيها، وكان الواحد منهم يختار بطبيعة الحال حيا يعرفه تماماً لأنه كان قد ارتاده سابقاً، أو يختار الرض على يمين و يساره الطريق أو في مدخل المدينة بجانب السور.



ومن الصعوبة بمكان تتبع ارتقاء هذه الأسر التي استقرت في المدينة اجتماعياً . لأن المدنيين رفضوا تزويج بناتهم لهم ، كما أن فتيات الريف رفضن الهجرة للمدينة ، وبالتالي فقد بقي الشبان دون زواج ، فلبأوا إلى تكوين عصابات ، وأشير إليها باسم الشطار أو أهل الشر ، أو أسماء أخرى .

وفي فترة الحروب والقتال المتكررة التي قادتها دمشق ضد الفاطميين ، كانت هذه العصابات تشكل احزاباً ، وكانوا معروفين باسم حيّ باب المدينة حيث يجتمع رفاق الحزب فيه . وكان هؤلاء يقومون بالعروض مع العلم والزمامير ، وبعض ألعاب العنف .

وإذا ما استمرت الاضطرابات فترة طويلة ، كانت الأحياء الغنية والجميلة ، والقرى القريبة . عرضه للنهب . وكانت عملية النهب والابتزاز تمكنهم من شراء الأسلحة والخيول . ثم تشكلت عندهم قوة سمحت لهم بمقاتلة جيش نظامي ، دفاعاً عن المدينة .

## ١٢ . الحمار رئيس عصابة :

المثال الأشهر على الذين استطاعوا الوصول الى السلطة السياسية ، «قاسم التراب» وهو من أصل ريفي ، ترّاب ، أو زَبّال ، من تلفيتا ، قاد حركة المقاومة في دمشق ضد الفاطميين سنة ٣٦٥-٣٧٣ هـ / ٦٧٦-٩٨٤ م . وقد وصفه هنري لوست «HENRI LAOUST» في كتابه عن «انشقاق الاسلام» بأنه تأثر ديني يدافع عن السنّة في دمشق ، مع أن جميع من ترجوا له لم يشيروا إلى أن علاقته بالدين كانت شديدة ، لأنه جمع في احدى المرات كل اعيان المدينة له للبيعة كأمر للبلد ، وأمر أن يكتب هذا في محضّر وارسله للعزيز . وهنا لعب المسجد دوره كمبنى عام يؤتمه جميع أفراد المدينة ، ليعلنوا الولاء رسمياً للأمير القسام . وأختار القسام «الكهف» كشعار له على عمله ، وربما عنى بذلك «القصعة» قصعة الفقراء ، أو ربما «القلنسوة» ، أو ربما «الرفش» لعامل التنظيفات أو التراب . والذي نستنتجه أن القسام كان شديد الألتصاق بأصله ، ولم ينكر المستوى الاجتماعي الذي انطلق منه في ثورته هذه .

ولم يكن للقاسم موقف شديد ضد الفاطميين . وعلى أنه غلب ، ان نعم بدعم بعض المتنفذين في الإدارة الفاطمية ، فقد كُلف عدة ولاة أو قواد فاطميين رسمياً بطرده من المدينة ، ولكنهم كانوا عندما يصلون ينضون تحت لوائه بطواعية ، ولم يتدخلوا في عمله ، وربما كان الوزير ابن كلس يحميه سراً . لأنه عندما فر القسام من أمام الجنود المغاربة التجأ بعض الوقت إلى كنيس اليهود في المدينة ، وورد في رواية أخرى أن الجيش أخذه ، ولم يصلنا أي خبر عن قتله .<sup>٤</sup>

٤ . انظر : المقرئزي، ابو العباس احمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) الملقب، مخطوط اسطنبول، رقم ٤٩٦ من الورقة ٢٥ - ٢٨ .

### ١٣. مؤسسات تأهيل الأحداث :

في القرنين الرابع، الخامس / العاشر، الحادي عشر، وصلت مجموعة من الشبان السيئين السمعة الى السلطة على حيّ، أو على المدينة بكاملها، أو وصلوا لبعض المناصب، وذلك نتيجة سلسلة ضربات قاموا بها ضد السلطة المدنية، وبالطبع كانت الإخفاقات كثيرة، وكانت النتيجة غالباً هي موت الشائر. ولكن الذي نلاحظه أنه مع مرور الزمن قد طرأ بعض التغيرات اتجاه هؤلاء الشبان من قبل سلطان المدينة، فالتعابير المحقّرة التي أشير بها إلى هؤلاء قد تغيرت مع الزمن وأصبح يحل محلها تعابير محددة «كالأحداث» مثلاً، هذا شاهد على التنظيم الرسمي للمجموعات المسلحة هذه<sup>٥</sup>.

### ١٤. النمط الثاني: الفارس العربي سيد البادية :

يذكر ابن عساكر في ترجمته عن حياة أبي الهيثام المري، كبير العاصين في حوران وغوطة دمشق، في فترة خلافة هارون الرشيد أنه: «أحد فرسان العرب المذكورين وشجعانهم المشهورين، وهو زعيم قيس في الفتنة التي وقعت بينهم وبين اليمن بدمشق في أيام الرشيد حتى تفاقم الأمر واستحكم الشر، وله أشعار في تلك الوقائع مشهورة، وأخبار في الحروب مذكورة». وبينما نجد أن معظم السير الذاتية من تاريخ دمشق لا تتجاوز نصف الصفحة في النسخة المطبوعة من الكتاب، نجد أن ترجمة أبي الهيثام قد قعت في عدة صفحات (٣٩٣-٤٢٦). وعلى الرغم من أن أغلب الترجمات كانت مخصصة لرجال الدين، إلا أنه في ترجمة أبي الهيثام يغيب الاستفسار عن العقيدة، أو الاتجاه الديني له. ويلفت النظر الشيء نفسه عند ابن العديم، مؤرخ حلب الذي يروي لنا أحاديثه الكثيرة والمستفيضة عن بني مرداس الذين سيطروا على المدينة بشكل مستمر تقريباً بين سنتي ٤١٥ - ٤٧٥ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٨٠ م. وشملت هذه الأحاديث الأشعار والأقوال التي قيلت في نسبهم وفروسيتهم العربية، أكثر الشواهد التي تدل على تدينهم وورعهم.

وقبل أن نفحص هذه الصورة العامة لفروسية البدو العرب ان نعود الى الوضع في بلاد الشام، والإشارة إلى الفرصة السياسية التي حاولت القبائل البدوية انتهازها، في هذه المرحلة الانتقالية.

وبدأ القرن الثالث / التاسع بثورة أبي الهيثام وانتهى بأول ضربات من قبل القرامطة. وقبيلة عقيل التي استقرت بشكل رئيسي في البقاع في حوران، وفي ضواحي دمشق، والتي شهدت لمرات عديدة ولاة عقيليين، أو أمراء عقيليين استطاعوا الوصول للسلطة بنفوذهم الشخصي. قام الفاطميون في الربع الأخير من القرن الرابع / العاشر بابعادهم نحو السهول الشمالية لبلاد الشام. وقد انضم هؤلاء -

٥. وانظر: بيانكي، دمشق وسوريا، ج٢، ص ٦٧١ - ٦٨١.

على الأغلب — للعقيلين المستقرين في شمالي سوريا، بديار ربيعة حول الموصل .

أما قبيلة بني مرة التي كانت تتمتع بقوة كبيرة في القرن السابق فقد أصبحت قبيلة صغيرة قامت مع قبيلة فزارة بنهب القرى الواقعة في السلسلة المقابلة لجبال لبنان .

ثم نلاحظ أن هناك عدداً من القبائل واجهت سقوطاً مفاجئاً غير عادي في الفترة الواقعة بين القرن الثالث ومنتصف الرابع / القرن التاسع ومنتصف العاشر . وبدأت بعض القبائل الأكثر قوة الظهور، فمثلاً قبيلة طيء اليمنية التي استقرت على الهضبة الأردنية، هذه القبيلة الضخمة العدد من ناحية، والفقيرة المعددة من ناحية أخرى، عاشت منتهزة بعض الفرص التي سنحت لها بنهب بعض القرى أو خيانة حليف لها، أو بتسليم بعض الشخصيات الهاربة والمطلوبة من قبل السلطة بعد التجاؤها إليها مقابل مكافأة مادية .

أما قبيلة كلب التي استقرت حول تدمر، واستفادت من مراقبة حركة التجارة بين الرحبة وحمص فقد تخلت لاحقاً عن تقليدها الحربي وأقامت علاقات جيدة مع دول المنطقة . أما سيف الدولة الحمداني الذي كان قد استقر في شمالي سوريا فكان حجر عثرة أمام بعض القبائل فقد قام مثلاً بضرب التحالف القيسي المتجمع في بادية الشام، والذين قاموا بنهب هضبة معرة النعمان، وحمص، وحمص في منتصف القرن الرابع / العاشر، إذ قام سيف الدولة بدفع هذه القبائل وشتتها في شمال الفرات في ديار مضر وديار بكر .

أما القبيلة الأكثر قوة بين هذه القبائل فكانت قبيلة بني كلاب الذين استقرت بشكل كامل في شمالي سوريا، ثم تمكنت من الحصول على مقاطعة لهم هناك . وتحقق حلمها منذ عام ٤١٥ / ١٠٢٤ تاريخ استيلائها على مدينة حلب واستقرارها فيها حتى عام ٤٧٣ / ١٠٨٠، إلا بعض الحالات النادرة التي تم استرجاعها منهم على يد الفاطميين . وبعد قرنين يسرد لنا ابن العديم قصصهم، ولا يستفاد في هذه العجالة سردها فهي طويلة، وواضحة، ولكن هناك أحداث عديدة تلفت نظر المؤرخ بشكل واضح<sup>٦</sup> .

٦. ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، تراجم حرف العين المتطوذة بالالف من عاصم — عايذ . تحقيق شكري فيصل، مطبوعات معجم اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٦، ص ٢٩٢ — ٤٢٦ .  
ترجمة : عامر بن عمارة بن خريم الناعم (ابو الهيثام اللري) .  
ابن العديم، عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) زبدة الحلبي في تاريخ حلب، ج ٣، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥١ — ١٩٦٨، ج ٢، ص ٢٠ — ٤٢ وتحت الأسماء بالفهرست . ويشير لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن العديم، زبدة الحلبي .

## ١٥. المآثر الحربية للفارس العربي :

وبعقدار ما كان لأبي الهيثام من شهرة في الفروسية ، فإن بني مرداس كانوا فرساناً لا نظير لهم ، ونقل لنا ابن عساكر وابن الأثير سلسلة من الروايات حول النزاع بين القيسيين بزعامة أبي الهيثام ضد اليمانية (يمانية غوطة دمشق وحصص) .

ومن أرقام الضحايا ، أو الجرحى التي ذكرها هذان المؤرخان نستنتج إن الصراع كان قوياً مما حدا بالخليفة — ولأول مرة — على استدعاء جيشه المرابط في خراسان للتدخل ضد أبي الهيثام ، والذي ما لبث أن انتصر على قوات الخليفة نفسها . مخلفاً مئات من الجرحى ، دون قتلى حسب الرواية التاريخية . وهذا يدلنا على أن أبا الهيثام لم يكن يرغب في الاصطدام بجيش الخليفة ، ولم يقم بقتل جنود الخليفة ، ونلمس من ترجمته الذكاء السياسي الذي تحلّى به ، والمهارة في فنون القتال .

## ١٦. الاستمتاع بحياته دون التعلق بها :

لا يبدو لنا أن أحداً من زعماء بين الجراح من طيء قدماء في معركة ، والذي نستنتجه أن أكثر سيطرتهم وغناهم كان عن طريق السياسة المراوغة التي اتبعوها مع حلفائهم في المعارك ضد أعدائهم . فمثلاً كانوا يدفعون بحلفائهم في وجه أعدائهم ، و يبقون في المؤخرة ، ليظلوا بمنأى عن المواجهة المباشرة . وعلى العكس فإن عدداً كبير من المرادسيين قد ماتوا قتلى وهم شباب ، فقد قتل صالح بن مرداس ، وناصر بن صالح مثلاً وسلاحهم بيدهم في مواجهة أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة .

لكن عدداً آخر منهم لم يمت في القتال ، إنما نتيجة الأفرط في الشرب ، فقد مات عطية مثلاً نتيجة انهيار سقف البيت الذي كان نائماً فيه وهو بحالة سكر شديدة ومات نصر بن محمود وهو نائماً ، وكان سلاحه بيده يعد جنوده للقتال . وعندما ذهب هؤلاء للبحث عن أخيه لإخباره وتعيينه كخليفة له ، وجدوه خارج القلعة ، ولم يستطع صعود درج القلعة لانه كان سكراناً ، مما اضطرهم لسحبه إلى داخل القلعة بالحبال من خارج القلعة لدخلها . وهناك قصص أقرب للخيال ولا تصدق ، لا مجال هنا لذكرها ، تمكس لنا حبهم للتفكه والضحك ، وتعلقهم بالتلذذ في هذه الحياة والأخذ منها دون خوف عليها . وبالمقابل تعلقهم بموضوع الشرف والسلطة<sup>٧</sup> .

## ١٧. حرية التصرف والذكاء السياسي للأميرات البدويات :

هناك شيء آخر يلفت انتباه المؤرخين أيضاً ، ألا وهو الدور الذي قامت به المرأة في تلك الفترة ، ففي النصوص المتعلقة بأبي الهيثام — كما في النصوص المتعلقة ببني مرداس — نجد امرأة

٧. انظر: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠ - ٤٢ .

ألقت بجسد ابنها المقتول أمام أبي الهيثام طالبة منه التدخل متوعدة بأنها سترفع بشكواها إلى الخليفة إذا لم يحرك ساكناً. وهذا التهديد يعد فضيحة لأبي الهيثام لأنه يعتبر المسؤول عن شرف قيس في المنطقة كلها. وأمره أخرى يمانية جاءتته حاملة رسالة طاعة من اتحاد التجمع القبلي اليمني .

أما عند بني مرداس فقد كان من قدر «طرود» زوجة صالح . والتي تعتبر أجمل امرأة في عصرها أن يحتفظها مرتضى الدولة ابن لؤلؤ وأن يجبر زوجها صالح على تطليقها ، مما جرّ عليه حقد بني كلاب وبنقمتهم . وعندما تغلب عليه صالح ودخل حلب فر إلى الحدود البيزنطية ، تاركاً نساءه في القلعة ، فقام صالح بارسالهن له دون أن يسهن بأذى سوى ابنة له كان قد تسرى بها وقت دخوله القلعة ، وكان مرتضى قد وعده سابقاً بتزويجه إياها ولم يف بوعده هذا . وهناك شخصية أكثر إثارة للدهشة ألا وهي الأميرة السيدة العلوية ، ابنة وأخت أميرين فميرين ، تزوجت بالتتابع من أميرين مرداسيين وصارت أم أمير مرداسي فيما بعد . فقد ذهبت هذه السيدة مع ابنها الصغير إلى القاهرة سنة ٤٤٢ / ١٠٥١ ، تطلب العفو لزوجها شمال بن صالح ، وكان نصرها باهراً أكثر من لو أنها قامت بالتصدي للقوات الفاطمية ، فقد أدهشت الخليفة الفاطمي بعزة نفسها وبمعرفة الواسعة بالوضع السياسي في شمال سوريا ، مما حدا بالخليفة إلى الموافقة على كل طلباتها ، وفيما بعد في سنة ٤٦٣ / ١٠٧١ في وضع أكثر حرجاً ، ذهبت إلى السلطان السلجوقي ألب ارسلان الذي قام بحصار حلب لكي تتوسط لابنها محمود ابن ناصر . وقد أشار ابن العديم الذي نقل لنا هاتين المفاوضتين إلى أن هذه الأميرة بقدر ما كانت صلبة وعنيفة أمام السلطان السلجوقي فقد كانت في غاية الرقة والجاذبية أمام الامام الفاطمي .

## ١٨ . شغل المجال المحيط :

خلال القرن الخامس / الحادي عشر حصل نوع من التوازن الحيادي بين البيزنطيين والبويهيين والفاطميين ، مما أتاح الفرصة لبعض القبائل البدوية القيسية لكي تكوّن سلسلة من الامارات البارزة للأمرء الذين شغلوا تلك الامارات ، يكرهون الإقامة لفترة طويلة في عواصمهم ، وكثيراً ما كانوا يتركون مقاليد السلطة لأحد الضباط ويلحقون زوجاتهم في مخيماتهم في البادية ، مما خلق بعض المصاعب السياسية الكبيرة — وهو أمر يذكّرنا بالأمويين الذين بنوا قصورهم المنتشرة في البادية .

ومن النادر ان لا يتم استغلال الوضع المذهبي للسيطرة على منطقة ما ، هذه الظاهرة استغلها محمود بن ناصر الذي لاحظ اختلال ميزان القوى في المنطقة لصالح السلجوقيين في بغداد مقابل ضعف كبير لدى القوة الفاطمية ، فأراد ان يزِيل هذه الأخيرة من المنطقة ، باستغلال الوضع المذهبي بأن أعلن انتماءه رسمياً للمذهب الأقوى — المذهب السني — عندما دخل مدينة حلب بالرغم من أن الكلابيين

والحلبيين كانوا شيعة على المذهب الامامي ، وذلك من أجل أن يحمي نفسه من أي تدخل سلجوقي ، أو ينال دعمهم حين يحتاج اليه<sup>٨</sup>.

### ١٩. النمط الثالث : الخيال التركي محارب محترف :

لم تستطع الإمارات البدوية أن تقاوم فترة طويلة أمام هجمات التركمان والسلاجقة لأن هؤلاء كانوا يتمتعون بزايا عديدة ، فعدا عن كونهم متفوقين عسكرياً فقد تحملوا بالنظام والجلد في ساحة المعركة . وكان الفاطميون في سوريا قد أخذوا يتعلمون للرحيل قبل وصول السلاجقة والخيالة التركية .

لقد تم شراء «الغلمان» من آسيا الوسطى وهم أطفال تربوا في القصور من أجل خدمة الجيش بشكل خاص ، وقد كان هؤلاء اسلاف الممالك ، ولكن بتشكيل مختلف إذا أنهم تكونوا لخدمة الطبقة العليا في الجيش ، وهو جيش كبير العدد ولهذا لم يكن لديهم أي أمل في الاستقلال والقرار الذاتي يوماً ما .

### ٢٠. أربع غلمان ترك في الفترة الفاطمية :

تذكر لنا المصادر إن هناك بعض الغلمان الترك الذين كانوا ضد الفاطميين ثم تحولوا لخدمتهم فيما بعد . أو العكس أيضاً . ونبدأ بأشهرهم ، الفتكين (أو ألب طاكين) الفارس المشهور الذي كان على رأس ثلاثمئة من الغلمان في بغداد . وسبب الفوضى هناك ، ثم قرر الرحيل الى بلاد الشام من أجل البحث عن فرصة له هناك . وقد كان يعلم أن كل أمير في الشام يرغب بالغلمان لأنهم مشهورين بفن القتال كخيالة ممتازين . وخشية من أن يهاجم في الطريق بين الرحبة وجوسية قام بتدريع غلمانه والباس خيولهم الدروع من أجل التصدي لأية حملة مباغته .

وفي تلك الفترة كانت الاضطرابات تعم دمشق ، وهناك الخطر الفاطمي من الجنوب من فلسطين والخطر البيزنطي من الشمال ، وكان الدمشقيون بحاجة الى قوة عسكرية تحميهم وتقف بوجه هذه الأخطار، فوجدوا في الفتكين الصفات المناسبة . وخاصة إنهم بحاجة لشخصية غير طموحة ، أمير صادق ، ساذج ، يمكن توجيهه حسب رغبتهم . وعندما قدم ابن ترمسكيس (الشمشيق) الأمبراطور البيزنطي ، إلى دمشق صديقاً لألفتكين وأعجب بشخصيته العسكرية وفنه الحربي ، حين رآه يقوم

٨. انظر: E. I<sup>2</sup>, «Banū Mirdas» VII. vii, pp.117-125

بالمبارزة من على صهوة حصانه . وقد خاب أمل الشاميين في هذه الشخصية فيما بعد إذ إنه ما لبث أن انخدع بكلام جوهر القائد الفاطمي ، ضارباً برأي حلفائه عرض الحائط ، عندما قرروا التصدي للقوات الفاطمية في فلسطين ، وعندما رأى جوهر هذا الحشد ، حاول أن يفكك هذا التحالف باستماتته الفتكين . ثم عاد جوهر وقام باقتناع الخليفة العزيز بالتدخل السريع .

وفي عام ٣٦٨/٩٧٨ خسر أفتكين أمام القوة الفاطمية التي اكتسحته بقوة ، وفر إلى البادية ثم اعتقل ، وسبب اعتقاله هو أنه كان قد وضع ثقته الكاملة بأحد أصدقائه من بني الجراح الذي قام بتسليمه للفاطميين مقابل مبلغ من المال . وقد أعجب العزيز بشخصيته ووثق به وقربه إليه ، ولكن عدم خبرته السياسية أودت بحياته ، فعندما أعطى ثقته الكاملة أيضاً لوزير العزيز ابن كلس ، الذي وجد به خطراً على مكانته عند العزيز بتقريبه له ، دس له السم ومات مسموماً .

وهنالك بكجور الفارس المشهور وهو شخصية عسكرية طموحة ولكنه كسابقه سياسي فاشل فقد كان عاجزاً تماماً عن أن يستلم مقاليد الأمور ثانية بعد خسارته أمام لؤلؤ صاحب سعد الدولة سنة ٣٨١/٩٩١ . الذي تاه في البادية ووضع ثقته في البدو الذين غدروا به وسلموه للؤلؤ الذي قام بقطع رأسه فور تسلمه .

ثم هنالك مانجوتكين وهو قائد فاطمي شجاع ولامع في الجيش الفاطمي ، وقد كان ضابطاً متراحياً ، لم يستفد من قوته العسكرية في حصاره لؤلؤ (الذي يعتبر كنموذج أولي للمماليك فيما بعد ، كونه تمتع بذكاء سياسي وجندي من الطراز الأول) لقد كان مانجوتكين يكن محبة كبيرة للامام الحاكم الصغير السن (١٠ سنوات) الذي خلف العزيز . وعندما وصلت رسالة من الأتراك من القاهرة بأن بنو كتامة قد استولوا على مقاليد السلطة وسيطروا على الامام الصغير السن ويريدون قتله ، وإنه لحق بالضباط الأتراك الظلم من قبلهم ، جمع أهل دمشق وخطب فيهم محرصاً للدفاع عن الامام الصغير المظلوم ، فوافقوه ، وأرسل برسالة تهديد وتوعيد لبني كتامة الذين قاموا بدورهم بعرضها على الحاكم الذي أمر الحاكم بمقاتلته ، وفشلت حملته وانتهت حياته كخادم مرؤوس .

وكان الغلمان شجعاناً جسدياً ، وضعفاء معنوياً ، و يكمن ضعفهم هذا بأنهم يفقدون مباشرة مراكزهم إذا ما سحب سيدهم لقبهم العسكري ، أي بمعنى إنه ليس لديهم ظهيرا أو قوة يستندون عليها . فمثلاً مقارنة بأبي الهيثام الذي كان له ظهيره القبلي . ومثله صالح بن مرداس وإن كان ظهيره القبلي أقل من أبي الهيثام إلا أنه كان يملك شخصية قوية أهله للعب دوره كأمر ، وهذا ما افتقده الأتراك ، إذ أنهم مربوطون ، بالامام فإذا قطع الامام هذه الخيط أو هذا السند تجرد من قوته ، وأصبح شخصاً عادياً .

وخير مثال على ذلك أنوشكين الذي قام الوزير الجرجاني حملة خطابية ضده سنة ٤٣٢/١٠٤١

منذ أن حرم من لقبه ، وُدُّكَرُ بأصله كعبد مشتري وذلك من على منابر المساجد في بلاد الشام ، وهذا الغلام الذي قد ثقله المعنوي ، كان عاجزاً عن أن يدافع عن نفسه ، فما كان منه إلا أن فرّ مع مجموعة من الغلمان الصبيان ، بعد أن تخلى عنه جميع رفاقه والجيش ، ومات مقهوراً<sup>٩</sup> .

## ٢١ . الفارس التركي صامت ومدتّين :

بمقدار ما تميز به الفارس البدوي من شعر وحديث خطابي ، فان الفارس التركي كان صامتاً صبوراً وكثيباً ، وكان بعضهم كثير الشرب ، وحتى في حالة السكر لم يكونوا مسرورين ، أو أصحاب شعر وفكاهة . ولم يستطيعوا أن يتقنوا العربية ببسر وسهولة ، ومن اتقنها منهم كان يفضل أن يقضي وقته في المسجد ، لتعلم القرآن والحديث النبوي الشريف .

ولم يفقد هؤلاء أبداً الشجاعة في القتال ، وكانوا يبرهنون على ذلك طالما يتمتعون بثقة قائدهم ، وقد أكد جميع المؤرخين بأنهم قد تمتعوا بموهبة جيدة في الإدارة المدنية ، مع أنهم — كما ذكرنا — من أصل رقيق ، قدموا من أقاصي الأرض . وبدون عائلات كبيرة تحميهم ، وهذا امتيازهم ، إذ إنهم برزوا وفرضوا أنفسهم من دون سند عائلي أو قبلي . وكانوا لا يحبون الأموال ، وكانوا في الوقت نفسه منصفين ، مما جعل بعض المؤرخين — كأبن القلانسي — يعبرون عن إعجابهم الشديد بهم ، وبالمقابل احتقارهم للبدوي العربي ، وللشطار الذين سكنوا المدينة .

وعلى العكس نجد أن ابن العديم الذي عاش في فترة انحطاط بني أيوب الكردية ، وبداية عهد المماليك الأشراف ، يتأسف لان بني مرداس وبني عقيل لم ينتهزوا الفرصة لبناء نظام جديد ، وأظهر لنا عدم محبته للماليك .

## ٢٢ . المحافظة على اللغة التركية :

أنتزع الغلام التركي من أقاصي آسيا الوسطى ، وهو شاب متعلق بأرضه ، ولم يكن هناك نساء تركيات ليتزوج منهن ، مما يعوضه الحنان الذي افتقده ، وبالمقابل هورقيق غير حر . وفي النصف الثاني من الخامس / الحادي عشر نجد أن بعض الأتراك دخلوا بلاد الشام وهم أحرار أو سادة ، وكانوا قد صحبوا زوجاتهم معهم ، وظلوا متمسكين بهذه العادة ، عادة الزواج من تركيات ، ولم يتزوجوا من نساء المنطقة ، وهذا ما يفسر لنا سبب مقاومة اللغة التركية في المناطق العربية . والمرأة التركية التي

٩ . ابن القلانسي ، حمزة بن أسد بن علي (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨، ص ١١ وما بعدها  
و ص ٢٤ ، و ص ٢٥ وما بعدها؛ الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أبيك (ت ٧٣٤ هـ / ١٣٣٢ م) كنز الدرر وجامع الغرر،  
ج ٦، ص ١٦٧ وما بعدها ؛ وأنظر كذلك : بيانكي، السيطرة الفاطمية .



حملت لبلاد الشام لتكون زوجة لأحد الأتراك تميزت بجمالها ، وبالتالي نجد أنها كانت موضوع إغراء ، وعط أنظار بعض الأمراء كأمرء بني مرداس ، ولهذا كان التركمان يحرصون على ترك زوجاتهم عند بعض أصدقائهم عندما يذهبون في مهمة أو حملة عسكرية .

## ٢٣ . ظهور التسلسل الإداري العسكري في المشرق العربي :

في ترجمته لمحمود سبكتكين السلطان الكبير في كتابه طبقات الشافعية الكبرى للسبكي . ذكر المؤلف الفرق بين الوزير والملك والسلطان في بلاد العجم ، وذكر خصائص الشخصيات الثلاثة وهي مطابقة لما هو في البلاد العربية ، وأكد على الفروق في هذه المراتب قائلاً : « ... وهما السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاتح بيت المقدس ، وقبله الملك نور الدين محمود بن زنكي الشهيد ، ولا أستطيع أن أسميه سلطاناً ؛ لأنه لم يُسمَّ بذلك » .

وسبب هذا أن السلطان هو «من مَلَك إقليمين فصاعداً ، فإن كان لا يملك إلا إقليماً واحداً سُمِّي بالملك ، وإن اقتصر على مدينة واحدة لا يسمَّى لا بالملك ولا بالسلطان بل بأمر البلد وصاحبها ، ومن ثمَّ يعرف خطأ كتاب زماننا ، حيث يسمون صاحب حماه سلطاناً ... ومن شرط السلطان الا يكون فوق يده يدٌ ، وكذلك الملك ، ولا كذلك صاحب البلدة الواحدة ، فإن السلطان يحكم عليه ، وأما حكم السلطان على الملك وعدم حكمه فيختلف باختلاف القوة والضعف ، ثم نور الدين خطب له على منابر ديار مصر لما افتتحها صلاح الدين ، وبهذا سُمِّي بالسلطان ، ولذلك قال بعض من امتدحه إذ ذاك :

وملكك إقليمين ثُمَّتْ ثالثاً فدُعيت بعد المُلك بالسلطان»

وهذا التحديد في رأيي غير وارد حتى القرن الرابع والخامس / العاشر والحادي عشر لأنه في الفترة الإسلامية الأولى فان منح السلطة واللقب السياسي يتم من قبل الخليفة مباشرة ، ولم يكن هناك تسلسل إداري في الجيش العربي بعكس التركي ، فكل قائد يعين مباشرة من قبل الخليفة ويبقى في منصبه فترة قد تطول أو تقصر ، وكثيراً من ينتهي دوره ويصبح كجندي عادي في الجيش ، أو يبقى حسب الحالة والظرف .

واتسمت هذه الفترة أيضاً بالولادة المدنيين أو الأمراء المنحدرين من بعض القبائل العربية معينين تعييناً ، بخلاف الفترة الثانية التي اتسمت بالقوة والسلطة العسكرية ، وكان تعيين الولاة من قبل هؤلاء أيضاً . والسلطة في الفترة الأولى كانت بيد قوة عربية بخلاف الفترة الثانية ، التي كانت بيد قوة اجنبية ، أكراد وأتراك . ودخل الأهتمام بالنظام والتسلسل العسكري لبلاد الشام بدخول الاتراك ، وظهرت منهجية القيادة عن المسلمين في الوقت نفسه الذي تم فيه تقديم يد العون على

الأحتراف عسكرياً والذي شمل المنطقة حصناً بعد آخر<sup>١٠</sup>.

٢٤. خاتمة : الخيالة المحترفون انتصروا في الأزمة ، وقدموا يد المساعدة للعالم — التاجر :

وُجدت الأزمة في بلاد الشام بسبب ضعف السلطة العباسية بعد النصف الثاني من القرن الرابع / العاشر، ورأينا تصارع القوى الموجودة : الفئة المسلحة «الشطار» أو البدو (الذين رفضوا رفضاً باتاً الانخراط في الحياة المدنية، والأترك عبيداً كانوا أم أحراراً) مهنتهم الحرب ، وكان صراعاً حاداً وطويلاً استمر بينهم ، وأقصيت فئة العلماء والتجار، وأصبحت في المرتبة الثانية بعد أن كانت في السابق صاحبة الزعامة ، قانونياً ، أو مالياً .

وهناك تحليل آخر (يحتاج لبحث خاص أكثر دقة) وذلك أنه من الضروري معرفة ما اذا كان النصر السياسي والعسكري قد جاء من قبل الاتراك ، والاكراد أم أنه كان من دعم الصفوة التقليدي في السوق والجامع . فبهم وجه السلطة الحقيقي لكنهم قبلوا أن يبقوا في الدور الثاني ظاهراً من أجل المحافظة على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية .

١٠ . طبعا الباحث لم ينكر وجود المراتب في الجيوش العربية الاسلامية، ولكن المقصود هنا أنها اخذت بعداً أكبر من حيث الامتھان أو الاحتراف العسكري (المترجم).  
أنظر : السبكي، تاج الدين ابا نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطنّاجي، عبد الفتاح محمد الطلو، طبعة ١٩٦٧، ج ٥، ص ٣١٥ - ٣١٦؛ بيانكي، دمشق وسوريا، ج ١، ص ١٢٤، ١٨٨.

## الاسماعيلية في بلاد الشام في العصر العباسي

سلمان البدور \*

نشأت الاسماعيلية من داخل البيت العلوي، فاسماعيل<sup>١</sup> (ت ١٣٨هـ/٧٥٥م) الذي تنسب اليه الاسماعيلية هو الابن الأكبر للأمام جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ/٧٦٥م). وقد ظهرت الاسماعيلية إثر قرار جعفر الصادق تولية ابنه موسى الملقب بالكاظم<sup>٢</sup> (ت ١٨٣هـ/٧٩٩م) إماماً بعده، مستغلاً وفاة اسماعيل المبكرة ليدفع بعيدا تيار التطرف الذي كان اسماعيل يتفق معه فكرا وعملا، وهو تيار غلاة الشيعة كفرقة الخطابية، نسبة الى الخطاب بن زينب الأسدي، وفرقة المباركية نسبة الى المبارك مولى اسماعيل بن جعفر<sup>٣</sup>.

لقد بقي ظهور الاسماعيلية وتطورها خلال الفترة الأولى يكتنفه الغموض، لأن الاسماعيلية أخذوا بمبدأ الستر والتقية وما نتج عنها من نظام سرّي صارم لا يسمح بالكشف عن أقل الأمور أهمية، وهو مبدأ أدى الى التكتّم على تحركات الأئمة وعدم الكشف عن شخصياتهم، وبالتالي جعل من غير الممكن تبيّن حركة تطور الفرقة في ذلك الدور، وساعد على استمرار الغموض مدة طويلة احتراق مكاتب الاسماعيلية في القاهرة والموت.

\* قسم الفلسفة، الجامعة الأردنية، المملكة الأردنية الهاشمية.

١. لقد اختلفت أقوال المؤرخين حول وفاة اسماعيل بن جعفر، فبعضهم يرى أنه توفي في حياة أبيه عام ١٣٨هـ / ٧٥٥م أو ١٤٥هـ / ٧٦٢م وأن جعفر الصادق أبدى فرحة لموت اسماعيل، اذ لم يكن راضيا عن تصرفاته، التي اعتبرها لا تليق بالبيت العلوي. كما أنه خشي من مردي اسماعيل على أتباعه ولذلك أعلن وفاته وأبلغ ذلك أبا جعفر المنصور (ت ١٥٨هـ/٧٧٥م). أما المؤرخون الاسماعيليون فيذهبون الى أن اسماعيل لم يموت في حياة أبيه ولكن اظهر موته تقية عليه كي لا تصل اليه يد العباسيين. حول هذه الأقوال انظر: مصطفى غالب، اعلام الاسماعيلية، دار اليقظة العربية، بيروت ١٩٦٤، (مادة اسماعيل بن جعفر) وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: مصطفى غالب، اعلام الاسماعيلية.

٢. وهو الذي في أعقابه تسلسل أئمة الفرقة الامامية الاثني عشرية.

٣. يذكر بعض المؤرخين أن المبارك هو أحد أسماء التقية لاسماعيل بن جعفر، ولا يبدو ذلك غريبا اذا عرفنا أن أحد أوجه التقية هو أن يتمصص الامام شخصيات بأسماء مختلفة حتى لا يعرفه أحد الأ من أراد له معرفته. حول دور الخطاب والمبارك في الدعوة الاسماعيلية انظر: احسان الهي ظهير، الاسماعيلية تاريخ وعقائد، ادارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، (١٩٨٦) ص ٤٦ - ٥٥.

وعلى أية حال فإنه يمكن تقسيم تاريخ الاسماعيلية إلى ثلاثة أوار :  
 أولها : دور الستر، ويمتد من انتقال محمد بن اسماعيل (١٣٢هـ/٧٤٩م -  
 ١٩٣هـ/٨٠٨م) عام ١٤٨هـ/٧٦٥م من المدينة الى الكوفة وحتى ظهور  
 عبيدالله المهدي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٣م) وتأسيس الدولة الفاطمية، في المغرب عام  
 ٢٩٧هـ/٩٠٩م ويمثل هذا الدور ما يسمى الاسماعيلية الأولى.  
 ثانيها : الاسماعيلية الفاطمية، ويمتد هذا الدور من ظهور المهدي حتى عهد المستنصر  
 بالله (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م).  
 ثالثها : الاسماعيلية المعدلة أو الدعوة الجديدة المسماة بالاسماعيلية النزارية التي قامت  
 على يد الحسن بن الصباح (٤٤٥هـ/١٠٥١م - ٥١٨هـ/١١٢٣م)، وهي  
 الفرقة المعروفة بالاسماعيلية اليوم.

#### الاسماعيلية الأولى :

بعد وفاة جعفر الصادق انتقل محمد بن اسماعيل الى جنوبي العراق، وشرع مع  
 مريديه بتأسيس الدعوة الاسماعيلية، وابتدع نظاما سرياً تحكمه تقية تامة. وعلى الرغم من  
 أن تنقلات الامام لم تكن مكشوفة لأحد، لكن من المؤكد أنه مكث مدة في الكوفة التي أرادها  
 أن تكون مركزاً لدعوته، لكنه تركها واتجه الى الأهواز وكان يرافقه في ترحاله ميمون القدّاح<sup>٤</sup>  
 (توفي في نهاية القرن الثاني للهجرة) الذي كان من أكثر مريدي والده حماساً.

ثم غادر محمد بن اسماعيل الأهواز الى نيسابور ثم الى نهاوند ثم الى محمود آباد في بلاد  
 الديلم حيث ولد له ابنه عبد الله (١٧٩هـ/٧٩٤م - ٢١٢هـ/٨٢٧م). وبعد ذلك توجه

٤ . لقد كان الخلاف شديداً بين من أرخوا للاسماعيلية حول دور أسرة ميمون القدّاح في الدعوة الاسماعيلية.  
 وتذكر المصادر الاسماعيلية أن ميمون القدّاح وابنه عبدالله (ت حوالي ٢٧٠هـ/٨٨٢م) وحفيده الحسين (ت  
 ٢٦٠هـ/٨٧٣م) كانوا من كبار الدعاة، وكانوا أول من اتخذه الأئمة المستورون حجة ونواباً لهم، وأن نسب  
 ميمون القدّاح يعود الى سلمان الفارسي (ت ٣٥هـ/٦٥٦م). ولم يقبل مؤرخو الاسماعيلية ما ذكره بعض  
 المؤرخين بأن ميمون القدّاح هو المؤسس الحقيقي للدعوة الاسماعيلية وأنه جد الأئمة الفاطميين. حول ذلك  
 انظر : مصطفى غالب، اعلام الاسماعيلية، (مادة ميمون القدّاح).  
 ويرى مؤرخ اسماعيلي معاصر أن الفرقة الميمونية (نسبة الى ميمون القدّاح) «فرقة جعفرية... وكان يتولى  
 قيادتها ميمون القدّاح وهو فارسي من تلامذة جعفر الصادق وتعتبر هذه الفرقة الركيزة التي قامت عليها  
 الاسماعيلية في ما بعده».

عارف تامر، الامامة في الاسلام، منشورات دار الكاتب العربي ومكتبة النهضة، بغداد، د. ت، ص ٨٨.

محمد بن اسماعيل الى تدمر في بلاد الشام ثم ما لبث أن غادرها الى مدينة سلمية، حيث بدأت الاسماعيلية دعوتها المنظمة في أنحاء الدولة الاسلامية .

وكان اختيار بلاد الشام مركزا للدعوة الاسماعيلية اختيارا موفقا لأسباب أهمها :

**أولاً :** لقد كانت بلاد الشام مركزا تجاريا قبل الاسلام وبعده، كما عرفت هذه المنطقة الاستقرار والتحضر بفعل خصوبة الأرض ووفرة المياه، وتوافدت عليها قبائل عربية وهاجرت اليها بطون من قبائل اخرى ولم ترتحل عنها فصار في بلاد الشام طائفة من كل حي من أحياء العرب . فصار فيها كثافة سكانية كبيرة زادت من قدرة هذه المنطقة على الانتاج الاقتصادي بأشكاله . ويوفر كل ذلك للأسماعيلية الأتصال بأكبر عدد ممكن من الناس .

**ثانياً :** امتازت منطقة بلاد الشام من الناحية الفكرية بوجود اتجاهات فكرية متعددة بما في ذلك الأديان : المسيحية، واليهودية، والصابئة بالاضافة إلى الاسلام، وبذلك تجد الاسماعيلية نفسها واحدة من اتجاهات فكرية كثيرة وبالتالي في مناخ يزخر بالأراء المختلفة أو المتخالفة .

**ثالثاً :** بُعد بلاد الشام السياسي وليس الجغرافي عن دار الخلافة في بغداد وبخاصة بعد أن شعر أهل بلاد الشام بالغبن جراء نقل مركز الخلافة من دمشق الى بغداد، ولقد صورت المنافسة بين علي ومعاوية في وقت سابق من تاريخ الاسلام على أنها منافسة بين أهل العراق وأهل الشام على احتضان دار الخلافة الاسلامية . وعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين أوصوا ولاتهم على بلاد الشام بحسن معاملة أهلها واللطف بهم، لكن عدم الرضا بين أهل بلاد الشام كان يوجه موقفهم تجاه السلطة في بغداد . ولذلك وجدت الاسماعيلية مناخا مساعدا لكونها فرقة معارضة للحكم العباسي .

**رابعاً :** نظرا للموقع المتوسط الذي تتمتع به بلاد الشام وسبل الاتصال التي أبدعها الأمويون لربط أنحاء الدولة الاسلامية المترامية الأطراف بمركزها في دمشق، وجدت الاسماعيلية أن بإمكانها الاستفادة من وسائل الاتصال هذه لمتابعة أمور الدعوة حتى في أكثر المناطق بعدا كاليمن والمغرب وبلاد فارس . ولذلك يمكن القول إن نجاح الإسماعيلية في نشر دعوتهم يعود الفضل فيه الى حسن اختيارهم بلاد الشام مركزا لهم، حيث وجدوا المأمن من ناحية وسرعة الاتصال مع مناطق الدولة الاسلامية من ناحية أخرى .

ولما توفي محمد بن اسماعيل خلفه عبدالله<sup>٥</sup>، الذي يبدو أن العباسيين عرفوا مكان اقامته، فاضطر الى ترك سلمية الى محمود آباد حيث توفي. وكان هذا الامام قد اتخذ من عبدالله بن ميمون القداح حجابا عليه، وهو الرجل الذي يعود اليه الفضل في وضع الترتيبات الحكيمة للدعوة الاسماعيلية، وقد ظل مثابرا على ما يقوم به في عهد أحمد بن عبدالله الملقب بمحمد التقي (١٩٨هـ/٨١٣م - ٢٢٩هـ/٨٤٣م) الذي عاد الى سلمية وتابع من هناك ترتيب أمور الدعوة واستمرار نجاح الدعاة الاسماعيليين في استمالة الناس لمذهبهم.

واتسع نطاق الدعوة في عهد الحسين بن أحمد (٢١٢هـ/٨٢٧م - ٢٨٩هـ/٩٠١م) الذي تجول في البلاد الاسلامية ليتأكد من حسن سير عملية نشر المذهب الاسماعيلي. وانصب اهتمامه على المناطق البعيدة عن مركز الدولة في بغداد، ولم يمض عقدان حتى كانت الدعوة قد انتشرت في اليمن على يد الداعي أبي القاسم الحسن بن فرج بن حوشب (٢٣٠هـ/٨٤٤م - ٣٠٣هـ/٩١٥م) والداعي علي بن الفضل (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م)، وفي شرقي الجزيرة العربية وجنوبي العراق بجهود حمدان القرمطي (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) ومساعدته صهره عبدان (توفي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري)، وفي شمالي افريقيا نجحت الدعوة التي أقامها أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن زكريا الملقب بأبي عبدالله الشيعي (ت ٢٩٨هـ/٩١٠م) في المغرب وكان ابن حوشب بعثه الى المغرب ليقوم بشؤون الدعوة هناك، ويذكر أنه دخل كتامة عام ٢٨٨هـ/٨٩٠م وبعد استمالتها شكل جيشا استطاع به أن يقهر جيوش حكام المغرب حتى أصبح جزء كبير من المغرب يدين بالولاء للامام الاسماعيلي في سلمية.

أما في بلاد الشام فقد بعث حمدان القرمطي مهرويه بن زكرويه<sup>٥</sup>، (ت ٢٨٩هـ/

- ٥ . تذكر روايات أنه في عهد هذا الامام التامت جماعة اخوان الصفا المعروفة، وأنه شارك معهم في وضع رسائلهم المعروفة برسائل اخوان الصفا وخلان الوفا، وأتبعوها برسالة اشتملت على خلاصة الرسائل اطلقوا عليها اسم الرسالة الجامعة. وتعتبر هذه الرسائل موسوعة فلسفية تدل على أن مؤلفيها كانوا على حظ عظيم من الثقافة وسعة الاطلاع على علوم عصرهم وعلوم الأوائل. حول اخوان الصفا وعلاقتهم بالاسماعيلية انظر: سيد حسين نصر، نظر متفكران اسلامي در باره طبيعت، منشورات جامعة طهران، ١٣٤٢، ص ٤٠ - ٤٩.
- ٦ . حول انضمام اولاد زكرويه الى الحركة القرمطية يقول الطبري (فارسل زكرويه اولاده اليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتصروا الى علي بن أبي طالب والى محمد بن اسماعيل بن جعفر). انظر: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٤٥م)، تاريخ الرسل والملوك ١٠م، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ج ٨، حوادث عام ٢٨٩ هـ، ص ٢١٤.

٩٠١م) ليكون داعية بلاد الشام، واستطاع هذا استمالة بعض قبائلها فعلا وأصبح له من القوة في بادية الشام ما جعله يفكر في غزو بلاد الشام كلها، وكانت مدينة دمشق وما والاها الى الجنوب تحت حكم الأخشيديين. وتقدم مهرويه نحو دمشق وهزم واليهاطنجج الأخشيدي عام ٢٨٩هـ/٩٠١م ثم حاصر دمشق لكنه مات قبل فتحها، وتولى بعده امارة الجيش أخوه حسين بن زكرويه الذي استطاع اخضاع دمشق عام ٢٩٠هـ/٩٠٢م، وأغرته انتصاراته الى حد التفكير في اغتصاب الإمامة. فادعى أنه أحمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل ولقب نفسه بالمهدي، وخطب له من على المنابر إماما، واندفع نحو سلمية مقر الامام عبيدالله الذي تولى الامامة عام ٢٨٩هـ/٩٠١م، ودخلها وخرّبها لكنه لم يلبث أن انهزم في عام ٢٩١هـ/٩٠٣م على يد جيش العباسيين واقتيد أسيرا الى بغداد. وتشير التحقيقات الجديدة في تاريخ الاسماعيلية الى ما يفسر ما قام به حسين بن زكرويه<sup>٧</sup>. فالاسماعيلية الأولى ومن ضمنها الفرع القرمطي كانوا متفقين على أن محمد بن اسماعيل هو الامام السابع وصاحب الدور، وأنه سيعود مهديا، وأن الذين تولوا شؤون الدعوة من بعده كانوا حجة وممثلين له، وأن رفع مقامهم الى أئمة حصل اثر التعديلات التي أجراها عبيدالله المهدي، وادعى بناء عليها الامامة لنفسه ولأسلافه. وكان ذلك هو سبب الخلاف الذي حدث بين مركز الدعوة في سلمية والقرامطة، وجعل حسين بن زكرويه يدّعي الامامة لنفسه ويهاجم سلمية.

واضطر عبيدالله الى مغادرة سلمية، وكان المغرب هو اختياره ليكون بعيدا عن متناول يد العباسيين من ناحية وبمناى عن القرامطة - الذين تمردوا عليه - من ناحية اخرى، وكان أبو عبدالله الشيعي<sup>٨</sup> قد أعلمه أن ظروف المغرب أصبحت مهيأة لاستقباله، وواجه عبيدالله في رحلته الى المغرب مصاعب كثيرة، ويتفق المؤرخون أنه دخل رقادة في مستهل عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م.

وأعلن عبيدالله قيام الدولة الفاطمية، وامتد سلطانه الى أكثر بلاد المغرب، ويبدو أنه

٧. انظر: مثلا ميكال يان دي خويه، القرامطة، ترجمة وتحقق حسني زينه، دار ابن خلدون، ١٩٧٨، بيروت، ص ٥٧ - ٦٤، وسيشار الى هذا المصدر فيما بعد هكذا: دي خويه، القرامطة.

٨. لم تطل خدمة أبي عبدالله الشيعي وأخيه للامام، اذ سرعان ما اعدمها، ويبدو انها أبديا ارتيابا وشكا في عبيدالله وكونه المهدي حقا. ويؤكد دي خويه أنها أدركا أن عبيدالله المهدي الذي ظهر في المغرب ليس هو المهدي المنتظر، وأنها قد خدعا، انظر: دي خويه، القرامطة، ص ٦٣.

لم يتخل عن أمل في العودة الى بلاد الشام فكان لا بد له من غزو مصر وأرسل اليها ثلاث حملات متوالية في الأعوام ٣٠١هـ/٩١٢م و ٣٠٧هـ/٩١٩م و ٣١١هـ/٩٢٣م لكنها لم تفلح، وأدت بعض الأحداث في المغرب الى انصرافه عن مصر التي كانت الطريق الى بلاد الشام. وخلفه عام ٣٢٢هـ/٩٣٣م ابنه القائم بأمر الله (٢٨٠هـ/٨٨٢م - ٣٣٤هـ/٩٤٥م) الذي لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً لانشغاله بالتصدي لأحداث في المغرب هددت الدولة الفاطمية، وخلفه بعد ذلك ولده المنصور (٣٠٣هـ/٩٠٢م - ٣٤١هـ/٩٥٢م). واستطاع هذا أن يعيد للدولة الفاطمية شوكتها ومد سلطانه الى صقلية وتونس من جديد. ثم تولى الامامة بعد ذلك المعز لدين الله (٣١٩هـ/٩٣٠م - ٣٦٥هـ/٩٧٥م) الذي وجه اهتمامه نحو الشرق، فأرسل جيشاً يقوده جوهر الصقلي (ت ٣٨١هـ/٩٩١م) الى مصر عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م، واستطاع احتلالها بعد أن كان الدعاة الاسماعيليون قد مهدوا السبيل الى ذلك.

#### الاسماعيلية الفاطمية في بلاد الشام :

عندما تم لجوهر احتلال مصر كانت بلاد الشام تخضع لحكم الحمدانيين في الشمال وحكم الأخشيديين في الجنوب، كما كان القرامطة قد دخلوا جنوب بلاد الشام واحتلوا فلسطين عام ٣٥٦هـ/٩٦٧م ثم دخلوا دمشق عام ٣٥٧هـ/٩٦٨م، وفرضوا على حاكمها الحسن بن طغج الأخشيد «أتاوة» مقدارها ثلاثمائة الف دينار<sup>٩</sup>.

ولم يتوان جوهر الصقلي عن الاستجابة لرغبة أئمة الفاطميين وتطلعهم للسيطرة على بلاد الشام، فبعث القائد جعفر بن فلاح (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م) الذي استطاع أن يتغلب على الحسن بن عبيدالله بن طغج الأخشيد في أواسط عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م في الرملة، ثم تابع ابن فلاح مسيره شمالاً الى طبرية، حيث كانت الصلاة قد أقيمت باسم الخليفة الفاطمي قبل وصول ابن فلاح اليها، ثم الى دمشق التي دخلها بعد مقاومة قليلة عام ٣٥٩هـ/٩٧٠م<sup>١٠</sup>.

٩ . ابن القلانبي، حمزة بن أسد بن علي التميمي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٣، ص ١. وسيشار الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن القلانبي، تاريخ دمشق.

١٠ . انظر : ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) الكامل في التاريخ، ١٣ مجلداً، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٦، ج ٨، ص ٢٣٣.



ويفتح الفاطميين لدمشق بلغ الشقاق أوجه بين القرامطة الذين كانوا أمروا الحسن ابن الأعصم (ت ٣٦٦هـ/٩٧٦م) وبين الفاطميين، وبخاصة بعد قطع «الأتاوة» التي كان يؤديها حاكم دمشق إلى القرامطة. واستقر رأي القرامطة على مهاجمة الفاطميين في بلاد الشام حتى لو كان ذلك يتطلب مساعدة دار الخلافة العباسية في بغداد<sup>١١</sup>.

ودخل القرامطة فعلا دمشق عام ٣٦٠هـ/٩٧٠م وقتلوا واليها جعفر بن فلاح، ثم احتلوا طبرية والرملة ومدن الساحل الفلسطيني ولحقوا بجيوش الفاطميين وحاصروا عكا، واستمروا في وجهتهم جنوبا واحتلوا السويس وعسكروا على مشارف دار الامامة الفاطمية في عين شمس. لكن أمورا حدثت في الأحساء اضطرت الحسن بن الأعصم إلى الانسحاب، وتبعه جوهر واستطاع استعادة مدن الساحل الفلسطيني وفك حصار عكا وعاد ليحتل دمشق من جديد عام ٣٦١هـ/٩٧١م.

ولم يلبث الحسن بن الأعصم حتى عاد مرة أخرى لمحاربة الفاطميين في بلاد الشام واستطاع تدمير الأسطول الفاطمي عند يافا عام ٣٦٣هـ/٩٧٣م، وانسحب جوهر من دمشق خوفا من أن يلاقي مصير جعفر بن فلاح، ولكن جيش القرامطة لم يلبث أن انسحب إلى الأحساء للدفاع عنها مقابل غزو البويهيين.

وتولى ظالم بن موهوب العقيلي ولاية دمشق ومعه أبو محمود شبه وال، واثر قدوم جيش الفاطميين الذي أدى إلى احراق أماكن متعددة من المدينة، اضطرت المعز لدين الله إلى خلع واليها أبي محمود، كما ثار أهل دمشق على ظالم وطرده وعينوا افتكين (ت ٣٦٨هـ/٩٧٨م) قائدا لهم<sup>١٢</sup>.

وتحالف افتكين مع القرامطة ضد الفاطميين، والتقت جيوش الطرفين في عسقلان حيث حوَصر جوهر حصارا شديدا حتى قَلَّتْ الأَقْوات «واشتدت الحال حتى أكلت المغاربة وأهل البلد الدواب الميتة»<sup>١٣</sup> لكن جوهر استطاع أن يكسر تحالف افتكين مع الحسن بن الأعصم، إذ استمال افتكين من ناحية الدين، فدعاه إلى حقن دماء المسلمين، ويبدو أن

١١ . المقرزي، تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،

٣ أجزاء، جزء بتحقيق جمال الدين الشيال وجزءان بتحقيق محمد حلمي أحمد، ١٩٦٧، ١٩٧٢،

ج ١، ص ١٧٤.

١٢ . انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، طبعة عام ١٩٨١،

ص ٣٩٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية.

١٣ . ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٣٢.

جوهر قد اجتمع بافتكين . وكان الحسن بن الأعصم أكثر معرفة بما يفعله جوهر، وحاول أن يثني افتكين عن اتفاهه مع جوهر لكنه لم يفلح<sup>١٤</sup> . وفعلا فك الحصار عن الجيش الفاطمي الذي قفل عائدا الى مصر . لكنه عاد مرة اخرى بجيش يقوده العزيز بالله (٣٤٤هـ/٩٥٥م - ٣٨٦هـ/٩٩٦م)، ليلتقي بجيش القرامطة وافتكين عند الرملة في أوائل عام ٣٦٨هـ/٩٧٨م، وهزمه وانسحب القرامطة الى الاحساء .

واعتقد جوهر أن الأمور استتبت للفاطميين في بلاد الشام، لكن قسام التراب وهو أحد موالى افتكين، الذي كان تغلب على دمشق وأصبح واليارسميا عليها زمن العزيز بالله، لم يلبث أن أعلن عصيانه على الامام الفاطمي . فأرسل اليه العزيز جيشا بقيادة بلتكين واستطاع هذا الجيش أن يهزم ابن جراح الذي كان قد حكم الرملة «واشتهر أمره بارتكاب العبت والفساد واخراب البلاد»<sup>١٥</sup> ثم توجه الى دمشق ودخلها عام ٣٧٢هـ/٩٨٢م، وأسر قسام ليصبح بلتكين حاكما لدمشق، وبقي واليا عليها حتى عام ٣٧٣هـ/٩٨٣م .

وفي هذه الأثناء ساءت العلاقات بين بكجور والي حمص وبين أبي المعالي سعد الدولة الحمداني، فاستعان بكجور بالفاطميين ومناهم ولاية حلب لكنه اشترط توليته دمشق وكان له ذلك بالفعل، وعلى أثر سوء تصرف بكجور في دمشق، أرسل اليه العزيز جيشا عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م بقيادة منير الخادم الذي استطاع أن يهزم بكجور عند داريا، وهكذا أصبحت بلاد الشام ما عدا حلب ولاية فاطمية .

ويفسر بعض المؤرخين المحدثين غزو الفاطميين لبلاد الشام، بأنه محاولة لابقاء البيزنطيين بعيدين عن مصر مقر الولاية الفاطمية من ناحية، وكسب تأييد المسلمين لهم إذا أبقوا بلاد الشام تحت حكم اسلامي من ناحية أخرى<sup>١٦</sup>، وبخاصة بعد أن أدى ضعف الدولة العباسية الى عدم قدرتها على حماية ثغور الدولة . ففي عام ٣٥١هـ/٩٦٢م استطاع البيزنطيون دخول حلب، وفي عام ٣٥٤هـ/٩٦٤م تقدم البيزنطيون نحو مدن الساحل السوري فاحتلوا المصيصة وطرطوس عام ٣٥٥هـ/٩٦٥م<sup>١٧</sup> .

١٤ . انظر : الحوار الذي دار بين افتكين (الفتكين) وجوهر، وكذلك ما دار بين افتكين والحسن بن الأعصم في المصدر السابق نفسه، ص ٣٢ - ٣٣ .

١٥ . المرجع السابق نفسه ص ٤٤ - ٤٧ .

١٦ . حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٥١ - ١٥٢ .

١٧ . مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/١٠٣١م) تجارب الأمم، جزءان، مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر، ١٩١٤ و ١٩١٥، ج ٢، ص ٢١٠ - ٢١١ .

وفي عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م عاد البيزنطيون ليحتلوا حلب وفرضوا على قرعوية<sup>١٨</sup> اتفاقية مهينة تعترف بالسيادة البيزنطية. أما انطاكية فقد احتلها البيزنطيون عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م. وعندما احتل جعفر بن فلاح دمشق عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م حاول استرداد انطاكية من البيزنطيين، وبعث اليها بقوات حاصرتها عام ٣٦٠هـ/٩٧٠م، لكنه اضطر الى إعادة هذه القوات الى دمشق عندما علم بخروج القرامطة لقتاله في الشام<sup>١٩</sup>.

وفي عام ٣٦٣هـ/٩٧٣م استولى البيزنطيون على الثغور وحمص وبعلبك ووصلوا ضواحي دمشق وانصرفوا عنها الى الساحل فنزلوا على صيدا وأنفقوا مع أهلها على مال قدمه أهلها لهم، ثم احتلوا ثغر بيروت عنوة وكذلك جبيل، ثم انصرفوا الى طرابلس وغادروها الى انطاكية<sup>٢٠</sup>.

في بداية الأمر شغل القرامطة الفاطميين في بلاد الشام عن مواجهة البيزنطيين، وبعد أن استقر الأمر للفاطميين هناك، أرادوا دفع أذى البيزنطيين عنها، فبعد أن تحوّل سعد الدولة الحمداني عن تبعيته للبيزنطيين الى الاعتراف بالسيادة الفاطمية على حلب، أرسل العزيز جيشا عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م لمواجهة البيزنطيين، فبادر هؤلاء الى قبول اتفاقية كان من أهم ما جاء فيها اطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين، واقامة الصلاة باسم العزيز الفاطمي في مسجد القسطنطينية، على أن تضع الحرب أوزارها لمدة سبع سنوات<sup>٢١</sup>.

وفي عهد الحاكم بأمر الله (٣٧٥هـ/٩٨٥م - ٤١١هـ/١٠٢٠م) حصل صدام جعل

١٨ . قرعوية، هو غلام سيف الدولة الحمداني (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، ولاء أمر حلب عندما خرج لقتال البيزنطيين عام ٣٥٤هـ/٩٦٤م، وبعد وفاة سيف الدولة تمرد قرعوية على سعد الدولة ابن سيف الدولة الحمداني (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م)، انظر: ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٨م) زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣ مجلدات، نشر وتحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٤، ١٩٦٨، ج ١، ص ١٦٠ - ١٦١.

١٩ . حول محاولة الفاطميين استعادة انطاكية انظر: المقارنة التاريخية المفصلة التي عقدها درويش النخيلي في كتابه: فتح الفاطميين للشام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٩، ص ١٨٤ - ١٨٩ و ٣٩٦.

٢٠ . ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٢٦ - ٢٧.

٢١ . ابن تغرى بردي، جمال الدين أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ مجلدا، دار الكتب، القاهرة، أعوام مختلفة، ج ٤، ص ١٥١ - ١٥٢. ويشير الى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة.

البيزنطيين يسعون للوصول الى معاهدة صلح مع الفاطميين<sup>٢٢</sup>، وتم الاتفاق على وقف الحرب عشر سنين، لكن العلاقات ظلت بين الدولتين في مد وجزر وبخاصة بعد أن أمر الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القيامة عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧م<sup>٢٣</sup>.

لكن العلاقات بين الدولتين ظلت غير عدائية في زمن الظاهر (٣٩٥هـ/١٠٠٥م - ٤٢٧هـ/١٠٣٥م) الذي عقدت في زمنه معاهدة بين الدولتين عام ٤١٨هـ/١٠٢٧م، كان من أهم بنودها إعادة إعمار كنيسة القيامة وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في مساجد بلاد الروم<sup>٢٤</sup>.

وبعد أن تمكنت قوات الظاهر من قمع تمرد القبائل العربية في بلاد الشام التي كان يقودها حسان بن مفرج الطائي وصالح بن مرداس، ومقتل هذا الأخير، هرب حسان وتحالف مع البيزنطيين، فغزا معهم عام ٤٢٢هـ/١٠٣٠م.

لكن العلاقات عادت لتستقر بين الفاطميين والبيزنطيين في أول عهد المستنصر، فعقدت اتفاقية بين الدولتين عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، ثم عقدت اتفاقية أخرى عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م لشراء قمح لمواجهة القحط الذي حصل بمصر، لكن عدم تنفيذ الاتفاق أدى إلى حصول صدام بين الدولتين لم يحسم فيه الموقف، فرأى المستنصر بالله وقف القتال، وأرسل أبا عبدالله القضاعي (ت ٤٤٧هـ/١٠٥٧م) ليتولى تسوية الأمور، لكن وصوله القسطنطينية تزامن مع وصول رسول سلجوقي صلى ودعا للخليفة العباسي من مسجد المدينة، فكان «هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم»<sup>٢٥</sup>.

ومما يجدر ذكره مما له علاقة بوجود الفاطميين في بلاد الشام هو أن الحاكم بأمر الله وتلى الداعي حمزة بن علي الفارسي، الملقب بالدرزي أمر بلاد الشام، وقد بقي واليا عليها حتى وفاة الحاكم، وعندئذ لم يعترف بوفاته وادعى غيبته، وأنه سيعود بعدها كما كان مهدياً منتظراً،

٢٢ . المصدر السابق نفسه، ص ١٩٢ .

٢٣ . ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٦٢ - ٦٨ .

٢٤ . المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية، ٢ م، تصوير دار صادر، بيروت، م ١، ص ٣٥٥ .

٢٥ . ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، أخبار مصر، مقتبس في حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٦٠ .

وأعلن انفصاله عن الامام الاسماعيلي الجديد، الظاهر، وكان ذلك بداية ظهور الفرقة المسمّاة بالدروز.

أما حلب فلم تخضع لحكم الفاطميين مباشرة الا بعد أن تولى منصور بن لؤلؤ خادماً سعد الدولة الحمداني امارة حلب بعد أبيه عام ٣٩٩هـ/١٠٠٨م ولقبه الخليفة الحاكم بأمر الله «مرتضى الدولة»، وبذلك تكون بلاد الشام قد خضعت بكاملها للسلطة الفاطمية . وهكذا أصبحت الاسماعيلية المذهب الرسمي للدولة الفاطمية، التي بسطت نفوذها في زمن المستنصر بالله على بلاد الشام والحجاز واليمن وشمال افريقيا، كما امتد نفوذ الفاطميين الى بغداد نفسها، فبعد أن ترك المؤيد في الدين الشيرازي (٤٠٠هـ/١٠٠٩م - ٤٧٠هـ/١٠٥٩م) شيراز حيث كان من أصحاب النفوذ في دولة ال بويه، اتجه نحو القاهرة ثم عاد ليقوم في دمشق ونسق مع أبي الحارث البساسيري (ت ٤٥١هـ/١٠٥٩م) الذي كان احتل البصرة والكوفة وكذلك الموصل عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، لاحتلال بغداد، وتم له دخولها فعلا عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وخطب للخليفة الفاطمي على منابر بغداد لمدة عام كامل، الى أن قام السلاجقة بالاستيلاء على بغداد عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م وأعادوا الخلافة العباسية اليها<sup>٢٦</sup>.

#### عقائد الاسماعيلية :

لقد تزامن ظهور الاسماعيلية مع انحسار نشاط الامامية الاثني عشرية، ففي الوقت الذي كان أتباع الأمامية الاثني عشرية يشهدون أوائل غيبة الامام الثاني عشر (غاب ٢٦٠هـ/٨٦٩م) كانت الاسماعيلية قد انتشرت في أنحاء مختلفة من البلاد الاسلامية، ولم يستكمل الامامية الاثنا عشرية احتواء قضية الغيبة الصغرى والكبرى، حتى كان الاسماعيلية قد أسسوا دولتهم في البحرين ثم في اليمن وبعد ذلك في المغرب العربي .

واستفاد الاسماعيلية من تجارب الحركات المعاصرة لهم وحاولوا تجاوز أخطائها التي أدت الى نهايتها الفاشلة، وكان من أهمها ثورة الزط في الجزء الجنوبي من العراق من سنة ٢٠٥هـ/٨١٤م الى ٢١٩هـ/٨٢٨م بقيادة محمد بن عثمان . وثورة الزنج في البصرة ووسط العراق من سنة ٢٥٥هـ/٨٦٤م الى ٢٧٠هـ/٨٧٩م بقيادة علي بن محمد (ت ٢٧٠هـ/٨٧٩م).

٢٦ . ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٦ و ١٢ .

ومن أهم ما أنجزته الحركة الاسماعيلية وتميزت به عن تلك الحركات هو انتشارها في جميع انحاء الدولة الاسلامية، ولذلك حصلت مناهضة الحركة الاسماعيلية للسلطة العباسية في أماكن عديدة وفي زمان متقارب. لقد ساعد على انتشار الدعوة الاسماعيلية أنها لم تكن دعوة دينية أو مذهبية محض، بل اشتملت على فكر اجتماعي واقتصادي متميز، وهو ما يفسر الاقبال على دعوتهم من قبل أولئك الذين مناهم فكر الاسماعيلية بحياة يسودها نظام اجتماعي واقتصادي يحقق التعاون والمساواة، وهذا يتفق مع ما شاع في الفكر الشيعي أنه سيتحقق في عهد المهدي المنتظر، والذي يعتبر الأساس الفكري الذي قام عليه «نظام الألفة» في التجربة القرمطية التي اعتمدت أصول ومبادئ الاسماعيلية الأولى. وبموجب نظام الألفة يتنازل الأعضاء عن ما يملكونه ليصبح ملكا عاما، يعمل كل فرد من جانبه على تنميته ولا يرفع منه الا بقدر حاجته<sup>٢٧</sup>.

ولقد حفظ للحركة الاسماعيلية استمراريتها، ما أبدعته من المراتب المعقدة والسرية<sup>٢٨</sup>، وهي سلسلة يقوم الامام على رأسها ثم يليه الحجة وبعده داعي الدعاة وهو منصب لا يتولاه الا من بلغ شأوا عظيما في علوم العقيدة الاسماعيلية، والقدرة على التأويل، والاطلاع على شؤون الدعوة ومعرفة أوضاع وأحوال الأمصار الاسلامية المختلفة ليتمكن من تدبير شؤون الدعوة وإنجاحها. وقد أطلق الاسماعيلية على كل مصر من هذه الأمصار اسم «جزيرة» يشرف على الدعوة في كل منها مجموعة من الدعاة الذين كانوا تلقوا ثقافة دينية حسب الأصول الاسماعيلية وحصلوا على تدريب خاص بشؤون الدعوة. ومن القواعد الأساسية التي كان هؤلاء الدعاة يسلكونها الوصية بأن «لا يسلك (الداعي) بالجميع مسلكا واحدا. وأن عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم»<sup>٢٩</sup>.

لقد كان تأسيس الخلافة الفاطمية وعلو شأنها دافعا كبيرا لانتشار الدعوة الاسماعيلية، كما انشئت مدارس خاصة وجامعات لتدريس المذهب والفكر الاسماعيليين ومنها الجامع الأزهر (تم افتتاحه عام ٣٦١هـ/٩٧١م). لقد انتشرت الاسماعيلية في جميع

٢٧ . انظر : محمد عبدالفتاح عليان، قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٠٣.

٢٨ . تتكون هذه المراتب من اثنتي عشرة مرتبة على النحو التالي، الامام، الحجة، داعي الدعاة (الباب)، داعي البلاغ، الداعي المطلق أو النقيب، الداعي المأذون، الداعي المحصور، الجناح الأيمن، الجناح الأيسر، المكاسر، المكالب، المستجيب، انظر : مصطفى غالب، أعلام الاسماعيلية، ص ٢٤.

٢٩ . الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/١١١٣م)، فضائح الباطنية، تحقيق وتقديم عبدالرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٣.



لقد تطور الفكر الاسماعيلي في زمن الفاطميين، واشتهر من بين مفكريهم أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٣م) والقاضي النعمان (٢٥٩هـ/٨٦٨م - ٣٦٣هـ/٩٧٤م) وأبو يعقوب السجستاني (٢٧١هـ/٨٨٣م - ٣٣١هـ/٩٣٢م) وحמיד الدين الكرمانى (ت ٤١١هـ/١٠٢٠م) والمؤيد في الدين الشيرازي (٤٠٠هـ/١٠٠٩م - ٤٧٠هـ/١٠٧٨م) وناصر خسرو (٣٩٤هـ/١٠٠٤م - ٤٨٠هـ/١٠٨٨م).

وكانت الامامة محور العقيدة الشيعية بشكل عام وهي عندهم «ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام، ولا يجوز لئبي إغفاله ولا تفويضه للأمة، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر»<sup>٣٣</sup>. وتعيين الإمام في نظرهم إذن يتم بأمر الهي يتلقاه الإمام الحاضر فيعين الإمام الذي يليه بيته أسرار الإمامة ويعلمه طريقها، حتى اذا مات انتقل النور الى الامام التالي ليستمر كل إمام على النحو الذي يتصوره الاسماعيلية نور الله على الأرض، ونظراً لما تحظى به الامامة من أهمية فإن أي خلاف حول الامامة أدى الى انقسام الشيعة، وهو ما حدث فعلاً وكان سبباً لانشقاق الاسماعيلية عن الجعفرية (الامامية الاثني عشرية)، اذ أكد الاسماعيلية قضية النص على الامام، وأن الامامة تكون في الأعقاب، وقد أدى الانحراف عن هذا المبدأ الى انشقاق الاسماعيلية النزارية عن الاسماعيلية المستعلية وكذلك انشقاق الطيبية عن المستعلية بعد ذلك.

لقد اعتقد الاسماعيلية بأن الامامة ادوار، كل دور مؤلف من سبعة أئمة<sup>٣٤</sup>، وبناء على رأيهم فان محمد بن اسماعيل هو الامام السابع في سلسلة الأئمة، ولذلك يحظى بمكانة خاصة إذ تناط به اعادة تفسير الشريعة وتنظيم أمور الاتباع.

إن تأويل النص الديني هو سمة عامة للفكر الشيعي، لكن التأويل الباطني للنص، اقتصت به الاسماعيلية دون غيرها من الفرق الاسلامية، ومن هنا جاء اشتقاق الاسم الذي يدل على الاسماعيلية «الباطنية». لقد ميز الاسماعيلية بين ظاهر النص وباطنه، أي بين ظاهر الشريعة وباطنها، كما اعتبروا تأويل النص احدى المهام الرئيسة للامام، الذي

٣٣. ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٤م)، مقدمة ابن خلدون، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٩٠٤، ص ١٠٧-١٠٨.

٣٤. ولذلك سميت بالسبعية.



يرون أنه يتمتع بقدرة خاصة على التأويل وتحديد معاني النص، وإبراز الجانب الباطني للشرعية، فلكل «فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنيا، لا يعلمه الا الأئمة وكبار دعائهم وحدودهم»<sup>٣٥</sup> ولقد أدعى الاسماعيلية أنهم وصلوا الى حقائق الشرعية المكتومة وكشفوا عن أمور لم يصل اليها أحد غيرهم، فالقرآن الذي أنزل على النبي كان للناس، أما حقيقته الباطنية فكانت للأئمة وحدهم يعلمونها لمن يشاؤون. والحقيقة التي يدعى الاسماعيلية الوصول اليها أشبه بنظام عرفاني صوفي يشتمل على نظرة الاسماعيلية الى الخلق والكون»<sup>٣٦</sup>. ومن معتقداتهم حول الامام، انحلال المهديّة في الإمامة لأنهم يعتقدون أن الامام هو مهدي عصره، فمهمة الامام تشتمل على تحقيق الأهداف المنوطة بالمهدي، وكل امام يحقق جزءا من هذه الأهداف الى أن يجين الوقت الذي يأتي فيه امام يكون مقيم القيامة أي كاشفا لكل الحقائق الباطنية للشرعية، وهو الانكشاف الذي يؤدي الى إسقاط ظاهر الشرعية وما يتصل به من الشعائر والطقوس الدينية<sup>٣٧</sup>. وهذا بحسب اعتقادهم هو الدور السابع من أدوار تاريخ البشر، اذ اعتبروا الاسلام، الذي حمل لواءه الرسول الكريم، الدور السادس من هذه الأدوار. ولذلك يعتقد الاسماعيلية بعلو منزلة الامامة (الولاية) على منزلة النبي (الرسالة). والامام صاحب الدور السابع في نظرهم هو الذي به يتم الخلق، وعلى يديه يتم الحساب<sup>٣٨</sup>. والامام عندهم معصوم باطلاق، ولذلك تكون طاعته واجبة، ولا يجوز الاعتراض عليه كما لا تصح مخالفته ولا يجوز الشك في سلطته أو خلعه، وبذلك يكون الامام رئيسا دينيا ودينويا لأتباعه، وحكومته حق الهي له وحده، وتمثل هذه الرؤية أصدق

٣٥ . الكرمانى، أحمد حميد الدين (ت ١٤١١هـ/١٠٢٠م) راحة العقل، تقديم وتحقيق مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٧، المقدمة، ص ٥٥. ويشير الى هذا المصدر عند وروده فيها بعد هكذا : الكرمانى، راحة العقل.

٣٦. هنري كوربين، تاريخ فلسفة اسلامي، ترجمه الى الفارسية أسد الله مبشري، مؤسسة انتشارات أمير كبير، طهران، ١٣٥٨هـ، ص ١١٤.

٣٧ . لقد أدى هذا الاعتقاد فعلا الى قيام الامام الاسماعيلي أحسن «على ذكره السلام» (وتذكر هذه العبارة بعد اسمه تمييزا له عن الحسن الأول)، باعلان انكشاف الحقيقة الباطنية للشرعية وقيام القيامة واسقاط ظاهر الشرعية، فأقام الموائد على الغذاء في السابع عشر من رمضان عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م معلنا انتهاء الشعائر المتعلقة بظاهر الشرعية، انظر : المرجع السابق نفسه، ص ١٣٣.

٣٨ . الكرمانى، راحة العقل، ص ٥٥. وللإمام عندهم القاب أخرى مثل وجه الله، يد الله، جنب الله، وعندهم انه الذي يحاسب الناس يوم القيامة الكبرى، انظر : مقدمة راحة العقل لمصطفى غالب، المصدر نفسه، ص ٣٨.

معاني الحكومة الشيوقراطية<sup>٣٩</sup>.

ويعتقد الاسماعيلية بما يمكن تسميته «التوحيد الباطني»، فالله الذي لا تستطيع اللغة أن تعبر عنه<sup>٤٠</sup>، لا يقال عليه حي ولا قادر ولا عالم ولا عاقل... الخ. لأنه مبدعها كلها، ولا يقال له ذات لأن الذات لا بد أن تكون حاملة للصفات، وهو عندهم لا يدرك بالقياس ولا يحيط به فكر، انه وراء كل شيء، ونفي المعرفة الانسانية عنه هو عين حقيقة معرفته. فالتوحيد الباطني اذن توحيد تنزيهي وتجريدي، تنزيه ينفي الأسماء والصفات والأفعال عن بquam الله فيتجرد الباري ليكون فوق الوجود، وهناك لا يكون له ضد ولا مثل<sup>٤١</sup>.

أما نظريتهم في الخلق وفي الكون فقد كانت توفيقا بين الفلسفة الافلاطونية المحدثه والعقيدة الاسماعيلية التي تم فهمها في ضوء تلك الفلسفة، وقد ظهرت صورة لنظريتهم في فلسفة أبي يعقوب السجستاني، وكانت وجهة النظر الرسمية للدولة الفاطمية في عهد المعز لدين الله، كما كانت هناك نظرية مشابهة لها في رسائل اخوان الصفا<sup>٤٢</sup>. لكن هذه النظرية وصلت صورتها التجريدية المحض في فلسفة حميد الدين الكرمانى. ومهما يكن من أمر فان الاسماعيلية يعتقدون أن العالم على الرغم من أنه مؤلف من موجودات مختلفة المراتب، هو عالم واحد وبعبارة اخوان الصفا «من أعلى عليين الى أسفل سافلين كله جسم واحد متهيء لقبول الفيض الكلي من باريه سبحانه»<sup>٤٣</sup>.

لكن الكرمانى يرفض نظرية الفيض بصورتها كما جاءت عند الفارابى (٢٥٩هـ/٨٧٢م - ٣٣٩هـ/٩٥٠م) وابن سينا ليقول، وعلى طريقه سينيويه أيضا، أن

٣٩ . لانهم يعتقدون أنه لا تجوز طاعة لمخلوق الا بطاعة الامام.

٤٠ . الكرمانى، راحة العقل، ص ١٤٤ - ١٤٦.

٤١ . المرجع السابق نفسه، ص ١٨١.

٤٢ . اذا صح اعتبار جماعة اخوان الصفا اسماعيلية المذهب فان مجموع ما ورد في الرسائل يمثل الفكر النظري للاسماعيلية في مرحلة من مراحل تطور هذا الفكر، وهناك أدلة تشير الى ذلك، اذ تتفق نظرة اخوان الصفا الى الطبيعة والكون مع نظرة الاسماعيلية وكذلك نظريتهم في التربية والابوة الروحية للامام التي يؤول بموجبها السمع والطاعة المطلقين الى الامام. يذكر عارف تامر حول اخوان الصفا والاسماعيلية: «أن رسائل الاخوان (بالنسبة للاسماعيلية) هي القرآن أو هي قرآن العلم كما أن القرآن قرآن الوحي، وهي قرآن الامامة وذلك قرآن النبوة». وأن «الفلسفة الاسماعيلية هي التي بذر بذورها اخوان الصفا». مقتبس في سيد حسين نصر، نظر متفكران اسلامي، دربارہ طبيعت، منشورات جامعة طهران، ١٣٤٢هـ. ص ٣٧.

٤٣ . اخوان الصفا، رسالة الجامعة، ٢ ج، تحقيق جميل صليبا، دمشق، مطبعة الترقى، ١٩٤٩، ج ١، ص ٦٣٥ - ٦٣٦.

الكون كله وبكامل مراتبه من إبداع الله .<sup>٤٤</sup> ليؤكد أيضا ما اعتقد به اخوان الصفا من أن الله تعالى هو المبدع ، والعقل هو أول موجود أوجده الباري وأبدعه من غير وساطة ثم أوجد النفس بواسطة العقل .

والمُبدع الأول عنده عين الأبداع وعين المُبدع ، إنه عين العلم والعقل والفعل ولذلك فانه علة للموجودات سواء منها ما كان من عالم الأمر أو ما كان منها في عالم الأعيان الخارجية . هذا المنبثق الأول هو أول طالع من الظلمة لظهور الأيسات (الموجودات) . وعنه يصدر المنبثق الثاني الذي هو النفس الكلية التي يكون باستمرار تنفسها قوام الخلق ، وإليها تنتهي عواقب الأمور، ومنها ما هو في عالم المشاهدة وبها إكمال الأصول الأربعة : التراب والماء والهواء والنار، وبها الحياة الحسية والنطقية التي يؤدي كمالها إلى حصول الحكمة أم الفضائل<sup>٤٥</sup> .

والنفس والعقل هما الأصلان اللذان وجدت عنهما الموجودات العلوية والسفلية وأول ما يحصل عنهما العقول الروحانية الجدّ والفتح والخيال . ويقابل هذه الحدود العلوية ممثولات في عالم الأنبياء والدين على النحو التالي :

العقل الكلي : يقابله الناطق (النبي) والوصي (الامام) .

النفس الكلية : يقابلها الوحي في حياة الناطق وباب الأبواب في حياة القائم بالتأويل .

الجد : ويقابله الحجة .

الفتح : ويقابله الداعي المأذون .

الكمال : ويقابله الداعي المكاسر<sup>٤٦</sup> .

واحوال الموجودات العالية وما يجري عليه أمرها في حركاتها وأقسامها وأفعالها تكون سببا لوجود الموجودات الطبيعية، وأول ما حصل من هذه العناصر الأربعة ثم المواليث الثلاثة، المعادن والنبات والحيوان، واسمى مراتبها الحيوان الناطق وصورته النفس الناطقة .

والنفس الناطقة (النفس الانسانية) في نظر الاسماعيلية جوهر حي قادر عالم ولها أفعال بعضها يصدر عن حكم المزاج، وتكون فيه محتاجة للآلات المعدّة المهياة لها من

٤٤ . الكرمانى، راحة العقل، ص ١٧١ - ١٧٥

٤٥ . المصدر السابق، (المقدمة)، ص ٣٤

٤٦ . المصدر السابق ، ص ٣٥ .

جسمها، وبعضها صادر عن حكم ذاتها، تقوم به بنفسها من غير حاجة إلى آلة وهو المعرفة، وتحصل بعد أن تصير «النفس بما صار مدخرا عندها من صور المحسوسات التي كانت معقولة بالقوة فصارت بتصورها معقولة لها بالفعل فيما حصل لها من جهة العلم والعبادة»<sup>٤٧</sup>. فترقى في مراتب الوجود بحسب مرتبة المعرفة التي تحصل لها.

ويمكن للنفس البشرية اذا نالت باكتسابها مراتبها التي بين كونها قائمة بالقوة وبين كونها قائمة بالفعل . . . . أن يحصل لها البقاء، ذلك لأنها تستطيع الانضمام الى ما سماه الكرمانى «حظيرة القدس» التي هي مجمع العقول الابداعية والانبثاقية، وانتسابها الى حظيرة القدس يجعلها أهلاً لقبول الفيض الذي تنقلب به ذاتها الى عقل، وهذا الانقلاب يكون بقاؤها وخلودها.<sup>٤٨</sup>

٤٧ . المصدر السابق ، ص ٤٩١ .

٤٨ . المصدر السابق ، ص ٤٩٦ .

## مواقع ومدن في جنوب بلاد الشام ودورها في العصر العباسي الأول\*

### صالح حمارنة\*\*

درج كثير من الباحثين على المقولة بأن بلاد الشام قد تراجعت من الناحيتين الاقتصادية والعمرانية ومن ثم أهملت بعد انتقال مركز الخلافة من دمشق الى بغداد ومن البيت الأموي الى البيت العباسي . وتبعاً لذلك تناقص عدد سكانها وعاد الكثير منهم إلى البادية والحياة الرعوية ، و«تأخرت أحوال بلاد الشام الاقتصادية كثيراً» عما كانت عليه أيام الأمويين<sup>١</sup>.

لا بل إن عبد المنعم ماجد لا يقتصر حديثه على بلاد الشام بل يؤكد تراجع العرب جميعاً حيث يقول «لا يجب المبالغة في الكلام عن قوة العرب أيام العباسيين ، بسبب أنه بعد سقوط الدولة الأموية ، كانت قد ذهبت ريحهم وعادوا سيرتهم قبل الاسلام» «قبائل» ولم يكونوا «أمة»<sup>٢</sup>.

أما جيمس سور James Sauer فيقصر حديثه على الأرض الأردنية فيقول ما يمكن ترجمته «هكذا يبدو واضحاً ان الهزة الأرضية التي حصلت عام ٧٤٧ م . ثم انهزام الأمويين امام العباسيين سنة ٧٥٠ م قد أوقع ضربة قاسية بالاردن مع نهاية العصر الأموي ، فالمركز السياسي للإسلام قد انتقل للعراق والحجاج قد اتخذوا طريقاً آخر ما بين العراق والعربية السعودية ، لذا أصبح الاردن معزولاً ، وباستثناء قلعة عمان فأكثر المدن الكبيرة قد هجرت ،

\* اني مدين في اعداد هذا البحث لمؤسسة فولبرايت Fulbright-Cies لاعطائي منحة دراسية عام ١٩٨٨ قضيتها في جامعة شيكاغو University of Chicago وجامعة كاليفورنيا بيركلي University of California-Berkeley

\*\* قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، الأردن.

١. أمينة البيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، (١٣٢ هـ - ٣٢٨ هـ / ٧٥٠ م - ٩٣٩ م)، دمشق، ص ٦٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : البيطار، الحياة السياسية.
٢. عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، ج ١، القاهرة، ص ١٥٥، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : ماجد، العصر.

ما خلا أماكن سكنية صغيرة في الريف خاصة وادي الأردن»<sup>٢</sup>.

هذه أمثلة بسيطة وهناك الكثير منها، يضيق بحثنا هنا للتعرض لها جميعاً، وخاصة أن بعض الباحثين تصدوا للرد على هذه المقولة، فكان أن تراجع بعض أصحاب هذه النظرية عنها بعض الشيء وذلك في ضوء الاكتشافات الأثرية التي تعزز الوجود العباسي في عدد من مواقع جنوبي البلاد الشامية ومنها الأرض الأردنية اليوم، ففي مقالة ولسي «Walmsley» العمارة واللقى الأثرية في فحل، دلالات على استمرارية التاريخ الحضاري في الأردن حيث يقول: «لقد ظهر نتيجة للحفريات في قلعة عمان<sup>٤</sup> وأعمال التنقيب الأثري في بيت رأس وطبقة فحل<sup>٥</sup> والموقر<sup>٦</sup> وكذلك في اربد وبيت رأس<sup>٧</sup> وإيلة (العقبة)<sup>٨</sup> ظهر مدى الازدهار التجاري والاجتماعي الذي تمتع به الأردن في الفترة ما بين القرن السابع والعاشر الميلاديين مما غطى فترة «الفراع» الحضاري الذي كان يعتقد بوجوده، من قبل، بعد سقوط الدولة الأموية، وفسح المجال لإعادة تقييم التاريخ الحضاري للأردن الإسلامي من خلال المصادر التاريخية والأدلة الأثرية»<sup>٩</sup>.

James Sauer, "The Pottery of Jordan in the Early Islamic Periods", in Studies in the History and Archaeology of Jordan I, edited by A. Hadidi, Amman, 1982, pp. 329-337.

A. Northedge, "The Fortifications of Qala' at Amman (Amman Citadel)," Annual of the Department of Antiquities of Jordan (ADAJ) No. 27, pp. 427-461; Qala' at Amman in the Early Islamic Period, unpublished Ph.D. thesis, School of Oriental and African Studies, University of London, 1983.

A.G. Walmsley, "Early Islamic and Abbasid Pella (Fihl) (635-C.900), in The Archaeology of Jordan II, edited by D. Homes, Frederick and J.B. Hennessy, Jeuren, pp. 436-440, 1989; Fihl (Pella) and the Cities of North Jordan During the Umayyad and Abbasid Periods, in Studies in the History and Archaeology of Jordan, Vol. 4, Amman (forthcoming).

M.Najjar, "Abbasid Pottery from el-Muwaggar", (ADAJ), Vol. 33, 1989, pp. 305-323.

C.J.Jenzen, "Irbid and Beit Ras: Interconnected Settlements ca. A.D. 100-900", in Studies in the History and Archaeology of Jordan, Vol.4, Amman (forthcoming).

D. Whitcomb, "Excavations in Aqaba, First Preliminary Report" (ADAJ) 31, 1987, pp. 247-266; "Mahesh ware: Evidence of Early Abbasid Occupation from Southern Jordan", (ADAJ), Vol. 33, Amman, 1989.

A. G. Walmsley, "Architecture and Artifacts from Abbasid Fihl: Implications for The Cultural History of Jordan", 1990.

صحيح أن السلطة السياسية قد انتقلت من الأميين الى العباسيين ، من بيت قرشي الى بيت قرشي آخر ومن الشام الى العراق من أرض عربية إلى أرض عربية أخرى ، وصحيح أنه في العصر العباسي الأول قد اتسعت المشاركة في الحكم فشملت المسلمين من غير العرب فكانت مشاركتهم أوسع وأبعد . وصحيح أيضا أن دمشق قد أصابها في البدء بعض الضرر وقد اضطرب لبعض الوقت حالها... ولكن سرعان ما استعادت نشاطها وحيويتها ولو بشكل جديد . وهكذا فقد ظلت مدينة كثيفة السكان . ومن قراءتنا لابن عساكر نتبين أن مساحة العمران فيها قد اتسعت حيث واصلت دورها كمركز انتاج زراعي وصناعي ضخم ، تشتهر بانتاج الفواكة والأعنان ، ولا سيما المشمش الدمشقي الذي ظلت مشهورة به ، فكانت مربياتها تصدر لأقاصي البلاد . هذه الصناعة المرتبطة بصناعة السكر التي أصبحت متقدمة في البلاد الشامية في هذه الفترة . كما أن دمشق واصلت انتاج المصنوعات الفولاذية والأدوات والأواني النحاسية المرصعة حسب الطريقة الدمشقية المشهورة ، ثم الأقمشة الشامية المصنوعة من القطن والحريز ، فزراعة القطن قد تأقلمت في شمالي الشام وفي جنوبه حتى أصبحت المنطقة خلال القرون الوسطى المنتجة الرئيسة للقطن بالنسبة لمجموع عالم البحر الأبيض المتوسط . وكانت مزارع القطن في سوريا الشمالية والوسطى تروى بفضل قنوات باطنية اقتبست تقنياتها عن بلدان آسيا الوسطى وتسمى الآن «السرايات في منطقة منبج» أو القنوات الرومانية في سوريا الوسطى كما يطلق عليها في عمان الافلاج<sup>١٠</sup> .

ولم يقتصر الأمر على دمشق ، لا بل إن المنطقة جميعها بقيت تمارس جاذبية شديدة بفضل موقعها المتوسط ومدنها الكبرى التي كانت مقرا لحضارة عمرانية عريقة جدا . وميزة أخرى لهذه المنطقة انها لم تقطع أبدا علاقاتها مع جزيرة العرب . ولم تفقد أهميتها الخاصة التي تعود لموقعها الجغرافي المتوسط بين العراق والمناطق الغربية من الدولة ، وحدودها الطويلة مع الروم (بيزنطة) بل أصبحت مدن الثغور والموانئ الشامية مسرحا للمواجهة مع البيزنطيين ، فاهتم العباسيون بالثغور والموانئ أيضا اهتمام .

ناهيك عن انتشار الفتن والاضطرابات في البلاد الشامية عند بداية الحكم العباسي كما سيأتي معنا لذا فقد قام الخلفاء العباسيون الأوائل بزيارات عدة للشام والجزيرة وأقام بعضهم فيها فترة من الوقت ، كما أنهم حرصوا على إرسال أفضل رجالهم لتولي الأمور فيها .

= ورقة قدمت للمؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، بلاد الشام في العصر العباسي المنقذ في عمان - الجامعة الأردنية ٤-٨ آذار ١٩٩٠ .

١٠. موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة. دار الفكر، دمشق، د.ت، ص ٤٣، ١٧٧. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لومبارد، الجغرافية التاريخية.

فكانت الشام والجزيرة تضم في بداية الخلافة العباسية سبعة أقسام إدارية، وهي فلسطين والأردن ودمشق، وحمص وقنسرين، والجزيرة والموصل، ثم جند العوالم الذي أضافه الرشيد<sup>١١</sup>.

وفي بحثنا هذا نود أن نركز على بعض المواقع والمدن التي لعبت دورا كبيرا أو صغيرا في جنوبي بلاد الشام في العصر العباسي الأول، وطبيعي أننا لا نستطيع في بحث محدود الصفحات قليلها أن نتعرض لكل المواقع.

وقد اتخذنا من هذه المواقع أمثلة نحكم من خلالها على نشاط المنطقة في هذه الفترة التي هي موضوع البحث. ولقد اعتمدت في استخلاص النتائج على ما توصلت إليه الحفريات الأثرية الأولية، ثم على ما ترويها المصادر التاريخية الجغرافية من حقائق وحوادث في تراثنا العربي الإسلامي ثم ما يمكن أن نستشفه عن صورة الواقع الذي نعيشه بالمقارنة بما كان في الماضي الذي نتصوره.

وسأبدأ الحديث عن موقع زراعي وتجاري لعب دورا مميذا في الفترة العباسية المبكرة، وأعني به الحميمة، فموقع الحميمة معروف منذ أيام الرومان باسم أفارا Avara فلقد كان من المراكز الرئيسية في منطقة حسما في جنوبي الأردن اليوم، وقامت هذه البلدة منذ أيام الملك النبطي الحارث الثالث ٨٧-٦٢ ق.م لتكون مستقرا زراعيا هاما وسوقا عامرة على طريق ممر القوافل بين شمالي البلاد وجنوبيها، هذه الطريق التي سميت - فيما بعد - بطريق تراجان - وعند العامة اليوم بالطريق السلطاني<sup>١٢</sup> أما الذي يهمنا فهو أن الحميمة من أرض الشراه في جنوبي الأردن كان منها منطلق الدعوة العباسية حيث فيها أقام الهاشميون - العباسيون الأوائل، وعلى رأسهم علي بن عبد الله بن العباس؛ بعد أن خرج من

١١: ياقوت الحموي، الامام شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م)، معجم البلدان، ٥ ج، دار احياء التراث، بيروت ١٩٧٩، ج٤، ص ١٦٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم؛

ابن عساكر ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، (ت ٥٧١ هـ/١١٧٦ م)، تاريخ مدينة دمشق، ج١، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي دمشق، ١٩٥٤-١٩٥٤ ج٨، ص ٢٠٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر: تاريخ.

١٢: J. Olezon, "The Humayma Hydraulic Survey-Preliminary Report of the 1986 Season", (ADAJ). Vol, 30, pp. 253-260. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

Mac. Buryon and others, "The Wadi el-Hasa Archaeological Survey 1982: A Preliminary Report", (ADAJ), Vol.27, 1988, pp. 311-323.



الطائف اثر موت والده وذلك أيام خلافة عبد الملك بن مروان الأموي حوالي ٦٨ هـ / ٦٨٧ م على الأرجح، فقد نزل في البدء مدينة أذرح، ثم اعتزلها وبنى في الحميمة قصرا ١٣ لأن الحميمة تقع ضمن نطاق مدينة أذرح، هذه البلدة التي وقع فيها التحكيم المشهور ما بين الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان عام ٣٧ هـ / ٦٥٧ م. وبأذرح تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ / ٦٦١ م. عام الجماعة كما يقال<sup>١٤</sup>.

وتبدولنا أذرح في (الفترة العباسية المبكرة) بلدة مزدهرة وكبيرة ومركزا لمنطقة الشراه، ونستند في ذلك إلى ما تذكره المصادر العربية مما سيأتي تفصيله، ونستطيع أن نفهم ذلك اذا ما تذكرنا أن أذرح ومنذ أيام الرومان والبيزنطيين كانت مدينة مزدهرة يدلنا على ذلك كثرة ما فيها من آثار باقية للكنائس والأبراج والأسوار من تلك الفترات، فأذرح تقوم في موقع ادروا القديمة التي كانت معسكرا للفيالق الرومانية<sup>١٥</sup>.

وأذرح في اللغة مفردا ذريح والذرائح هضبات تنبسط على الأرض، ويضيف اليعقوبي: وأهلها موالي بني هاشم وبها «الحميمة» منازل علي بن عبد الله وولده<sup>١٦</sup>.

١٣. اليعقوبي، أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)، تاريخ اليعقوبي، ج٢، دار بيروت، ١٩٦٠، ج٢، ص ٢٩٠، ٢٩٧، ٣٢١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ؛

البلاذري، ابو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، انساب الاشراف، القسم الثالث، تحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت، ١٩٧٨، ص ٧٤، وما بعدها. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، انساب.

١٤. خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)، تاريخ خليفة بن خياط، ج٢، تحقيق اكرم العمري، النجف، ١٩٦٧، ص ١٩٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: خليفة، تاريخ.

المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٨، ج٢، ص ٢٣٣-٢٣٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي: مروج.

١٥. A.C.Killick, "Udruh, 1980-1981 Seasons: A Preliminary Report", (ADAJ), Vol. 27, 1983.

J.P. Olesom, Ibid, p. 256, 1988.

١٦. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٢٨٧ هـ / ١٠١٥ م)، معجم ما استخدم، ج٤، نشره مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٤٥-١٩٥١، ج١، ص ١٣٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم ما استعجم؛

مجهول، اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطليبي، بيروت، ١٩٧١، ص ١٠٧ وما بعدها. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مجهول، اخبار العباس وولده؛

اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٢٩٠، ٢٩٧.

يذكر صاحب كتاب «أخبار العباس وولده» كيف اختار علي بن عبد الله بن العباس موقع الحميمة فيقول: «إنطلق علي بن عبد الله بن عباس، يرتاد و يطلب حتى أتى رستاقا بين الشام والمدينة، فاشترى فيه قرية يقال لها الحميمة فنزلها ونزلها ولده فكانوا بها، قبل قدمهم المدينة»<sup>١٧</sup>.

ويبدو لنا أن عليا بن عبد الله قد بنى قصرا له في الحميمة وسكنه، وبنى أولاده مساكن لهم من حوله... ثم بنى مسجدا وكان يلزم ذلك المسجد و يصلي فيه... وكان لا يمر به أحد يريد الشام من الحجاز أو يريد الحجاز من الشام الا أضافه ووصله<sup>١٨</sup> وهذا مؤشرا هام على أهمية موقع الحميمة على الطريق ما بين الحجاز والشام. وأقام علي بن عبد الله بالحميمة حتى وافته المنية عام ١١٧ هـ/ ٧٣٥، وله من العمر ثمان وسبعون سنة وذلك في أيام هشام بن عبد الملك، وجميل أن نذكر هنا أنه في الحميمة ولد الخليفة محمد المهدي وعلى الأرجح ولد فيها أيضا والده الخليفة أبو جعفر المنصور والخليفة العباسي الأول أبو العباس عبد الله السفاح، كما ولد فيها غيرهم من أبناء العمومة اثناء إقامة بني العباس في الحميمة والتي امتدت من ٦٨ - ١٢٢ هـ/ ٤٧٩ - ٧٥٠ م<sup>٢٠</sup>.

ويبدو لنا أن أراضي الحميمة الخصبة المشهورة منذ أيام الانباط بزراعة الكرمة والزيتون - لأن مياهها كثيرة ومقننة وطرق الري فيها منضبطة - واصلت تقدمها الزراعي،

١٧. ويفصل صاحب أخبار العباس وولده نزول علي بن عبد الله الحميمة فيقول «لما مات عبد الله بن عباس، وقد أوصى الى علي ابنه أن يلحق بعبد الملك بن مروان بالشام وحفظ وصيته فشخص بعد موت (عبد الله) الى الشام فقدم علي علي عبد الملك فأكرمه وأجلسه معه على سريره. وقوى بمكانه على ابن الزبير، وقال لوجوه الشام: هذا ابن عم محمد صلى الله عليه وسلم قد أتاني أولى بالأمر من ابن الزبير فزاد ذلك في بصائرهم وقال له عبد الملك: ارتد منزلا تضم فيه أهلك وخاصتك... فنزل الشراة من البلقاء ونزل من الشراة الحميمة». مجهول، اخبار العباس وولده، ص ١٠٨.

١٨. البلاذري، انساب، (تحقيق الدوري)، ص ٧٥.

١٩. مجهول، اخبار العباس وولده، ص ١٥٠؛ ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م)، البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٤، مطبعة السعادة في مصر، القاهرة، بلا تاريخ، ج ١٠، ص ١٢٤، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية والنهاية؛ حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي، ج ٤، القاهرة، ج ٢، ص ٤٠.

٢٠. البلاذري، انساب الاشراف، (تحقيق الدوري)، ص ٧.

فنقرأ أن محمد بن علي بن عبد الله كانت له خمس مئة شجرة من الزيتون يصلي تحتها...<sup>٢١</sup> وحين أخذت الدعوة العباسية تتشط وتشتد، وأخذ الدعاة يأتون لزيارة محمد بن علي في الحميمة و يجتمعون اليه و يتلقون منه التعليمات و يطلعونه بدورهم على أوضاع البلاد التي ينشطون بها وعلى سير الدعوة في الأمصار وخاصة في خراسان والعراق، فلقد درج الدعاة على المجيء للحميمة في طريقهم للحج للديار المقدسة وذلك عند ذهابهم أو عند عودتهم.

وكان الدعاة يأتون بزي التجار لزيارة محمد بن عبد الله كلما اقتضت الحاجة ذلك، فيخبرنا صاحب كتاب أخبار العباس عن مجيء بكير بن ماهان وهو من كبار الدعاة الأوائل في خراسان: جاء بزي تاجر للطور فيقول: «فشخص بكير (من خراسان) ومعه كتب الدعاة، حتى أتى دمشق ثم ابتاع عطرا، وحمله على بغل ابتاعه. وخرج حتى أتى الشراه في حياة عطار يبيع عطره، وأتى بعض قراها فباع بعض ما معه حتى شهر بذلك، ثم توجه الى الحميمة فلما دخلها طلب منزلا ينزله فبصر ابراهيم بن سلمة، وكان يعرفه... بالكوفة، فقال له وهو متلثم: يا فتى هل من منزل؟ قال: نعم هذا منزل الضيفان، فخرج به حتى أدخله رحبة واسعة فيها، فنزل محمد بن علي وقد أطاف بالرحبة منازل اخوته وولده ومواليهم، وفيها مسجد لهم فيه مجتمعهم، ومتحدثهم، وأكثر طعامهم. فأدخل بكير بيت الضيفان وأدخل متاعا.. ثم اسفر عن وجهه وعرفه القوم...»<sup>٢٢</sup>.

نلاحظ من هذه الرواية أن بكير بن ماهان القادم الى الشراه بزي التجار لبيع العطر في قراها؛ نفهم من كلمة قراها أن المنطقة عامرة بالقري، ولما كانت بضاعته العطر فيدل هذا أيضا على أن الناس في عيش حسن وحبوحة، فالعطر من البضائع المترفة. كما توحى الرواية أن قرية الحميمة كبيرة وعامرة. وهي تابعة لمدينة أدرج، وأدرج تاتمر بأمر صاحب البلقاء<sup>٢٣</sup>.

و يبين المسح الأثري للمنطقة أن الطريق الروماني كان يصل الى الحميمة بدليل وجود آثار عدة أنصبة على جانبي الطريق، كما اكتشفت آثار رجوم وقلاع. أما الفخار المكتشف فيرجع الى الفترات التاريخية الرومانية والبيزنطية والاسلامية.. وتكشف الحفريات التي

٢١. مجهول، اخبار العباس وولده، ص ١٥٤.

٢٢. المصدر نفسه، ص ١٥٥.

٢٣. الطبري، محمد بن جرير (ت ٢١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد ابو الفخار ابراهيم، القاهرة، ج ٤، ١٩٦٣، ص ٣٤٤ وما بعدها. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

قام بها J. Oleson, J. Eadie عن نظام للري في الحميمة وفي المنطقة يدل على ازدهار زراعي كبير فيها امتدادا من الفترة النبطية حتى العصر الاسلامي ، وهناك مؤشرات على ازدهار التجارة تبعاً لذلك<sup>٢٤</sup>.

هذا وقد اكتشفت آثار قناة تمتد من رأس النقب الى الحميمة، واكتشفت كذلك في المنطقة المصاطب الزراعية التي اشتهر بها الأنباط، ومنطقة رأس النقب التي ترتفع حوالي أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر هذه الهضبة التي تنتهي فجأة عند شقيف عظيم ينحدر هابطا الى السهل الساحلي على إنخفاض الف قدم تقريبا ، وفي الجنوب الشرقي تظهر جبال رم ذات الحجارة الرملية ، والى الجنوب الغربي تظهر سلسلة جبال الشراة – جبل سعير – التي تمتد منحدره حتى العقبة ، ويطلق على هذه المنطقة كلها اسم حسما . ومعروف أن منطقة حسما كانت في صدر الاسلام منازل قبائل جذام العربية الشهيرة . وهذه القبائل – أو مؤتلف القبائل على الأصح – الجذامية لعبت دورا بارزا في الفتوح الاسلامية والعصر الأموي ثم العباسي . ولقد برز من صفوف هذه القبائل رجالات عظام لعبوا دورا بارزا في دولة الخلافة الاسلامية ، وكان الجذاميون أهل إبل وزرع ثم تجارة<sup>٢٥</sup>.

أردت من هذا الاسترسال في وصف منطقة الشراة وحسما وفي شرح عمارتها وتقدمها الزراعي وتقنياتها العالية في الري ، تقديم مثال على التقدم الزراعي في منطقة من أقصى جنوبي بلاد الشام في الفترة العباسية ، هذا التقدم الذي حمل الجغرافي المقدسي الكبير على جعل منطقة الشراة كورة خاصة قائمة بذاتها في البلاد الشامية ، ويتحدث عن كل قرية أو مدينة فيها على حدة ولو بسطر حيث يقول : «وقد قسمنا اقليم الشام الى ست كور... قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة.... وبعد أن يتحدث عن مدن كل قسم مما هو معروف يقول : «... أما الشراة فجعلنا قصبها صغر ومدنها مآب ومعان وتبوك وأذرح ويله (ايله) ومدين . وفي هذا الاقليم قرى أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة (هكذا)».

و يستطرد المقدسي فيقول : «فصغر إنما هي البصرة الصغرى... والمتجر المربح... وهي على البحيرة المقلوبة... والجبال منها قريبة . ومآب في الجبل كثيرة القرى واللوز والأعناب

John Eadie, "Humayma 1983: The Regional Survey", (ADAJ), No 28, 1984, pp. 211-224.

٢٥ . صالح الحمارنة، «دور جذام في الفتوح الاسلامية»، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ١٩٥٨، العددان ١٩، ٢٠، دمشق، نيسان – تموز ١٩٨٥، ص ١٥٠ – ١٥١ وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صالح حمارنه، «دور جذام».

قريبة من البادية ومؤتة من قراها. وأذرح مدينة متطرفة حجازية - شامية وعندهم بردة الرسول»<sup>٣٦</sup>.

ولا شك في ان مقولة المقدسي هذه ذات دلالة عميقة على تقدم كورة الشراه من الأرض الأردنية في هذه الفترة، وحسن ان نقرن موضعاً زراعياً آخر هو الموقر الذي يقع على بعد حوالي ٣٠ كم للجنوب الشرقي من عمان. وقد جاء ذكر الموقر في معجم البلدان «الموقر موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق وكان الخليفة يزيد بن عبد الملك ينزله»<sup>٣٧</sup> وقد بينت التنقيبات الأثرية المحدودة التي أجريت في الموضع أن مساحة كبيرة من بلدة الموقر الحالية تحتوي على مواقع أثرية بالإضافة للبناء الرئيسي للقصر. ويدل وجود ثلاثة أحواض ضخمة (برك) لجمع مياه الأمطار والعشرات من الآبار على نشاط زراعي مكثف. وتشير الدراسات الأولية<sup>٣٨</sup> للفخار الذي تم العثور عليه في الموقع على وجود استيطان أموي كثيف في المنطقة، مع وجود كميات كبيرة من الفخار العباسي، مما يؤكد استمرارية الاستيطان في الفترة العباسية. بعكس الرأي السائد بأن المنطقة كانت قد هجرت بعد انتهاء الخلافة الأموية، وبعد أن أصبحت بغداد مركزاً للدولة العباسية.

و يبدو واضحاً من دراسة البقايا المعمارية وجود مرحلتين معماريتين في الموقر، الأولى من الفترة الأموية، والثانية من الفترة العباسية، مع إمكانية وجود مرحلة تعود إلى الفترة الأيوبية في الطبقات العليا من المنطقة، وهذا يؤكد استمرارية التواصل الحضاري بعد سقوط الدولة الأموية<sup>٣٩</sup> فعلى بعد ٢٥ كم من منطقة الشراه الزراعية الخصبة تنتقل إلى الجنوب لنصل إلى ميناء إيله - العقبة، هذا الميناء التجاري الهام - ثغر الأردن على البحر الأحمر.

لقد كانت إيله في قمة خليج العقبة تقوم بدور نشيط في حركة التجارة الشرقية، وقد عرف الرسول الكريم القيمة الاستراتيجية والاقتصادية التي تتمتع بها مدينة إيله، فسعى إلى فتحها... وكذلك فلقد أدرك أسقف إيله أنذاك يوحنا بن رؤبة الجذامي وأهلها أن مصلحتهم

٣٦. المقدسي، ابو عبد الله البشاري (ت ٢٨٧هـ/٩٩٧م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن، ١٩٠٦، ص ١٥٥، ١٧٨. وسيشار لهذا المصدر عند ورده فيما بعد هكذا: المقدسي، احسن التقاسيم.

٣٧. ياقوت، معجم، ج ٥، ص ٢٢٦.

٣٨. M.Najjar, "Abbasid Pottery from el-Muwaqqar", (ADAJ), Vol.33, 1989, pp. 305-322.M

Najjar, Ibid, pp. 316-322.

تكمن في أن تكون الطرق البرية المارة من مدينتهم آمنة مع حرية الملاحة والتجارة في البحر الأحمر وجنوبي بلاد الشام، لذا جنحوا للسلم مع الرسول صلى الله عليه وسلم مقابل (٣٠٠) دينار.<sup>٣٠</sup>

وواصلت أيلة دورها التجاري في الفترة الإسلامية، فكانت تؤدي دورها في تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي طيلة العصر العباسي، وعظم دورها أكثر في فترة سيطرة الفاطميين على البحر الأحمر، فاليها كانت تأتي سلع الهند والجنوب العربي ومن ثم تنتقل الى المواليء الأخرى في جنوبي بلاد الشام خاصة في غزة و يافا وعكا، قال المقدسي «وويله (أيله) مدينة على طرف شعبة بحر الصين، عامرة، جلييلة، ذات نخيل وأسماك، فرضة فلسطين يسمونها أيله، وأيله قد خربت على قرب منها، وفي أيله تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين... وضافتها الى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية»<sup>٣١</sup>. ويضيف ياقوت الحموي حقيقة مهمة هي أن في أيله مجتمع حج الفسطاط والشام وبها قوم يذكرون أنهم من موالي عثمان ابن عفان.<sup>٣٢</sup>

ويبرز الحميري كذلك دورها في التجارة والحج، غير أنه يوسع الدائرة لتشمل المغرب حيث يقول: بها (أيله) يجتمع حاج مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس. ثم يشير الى نهضتها العلمية والزراعية فيقول، وبها علم كثير وأداب ومتاجر وأسواق عامرة، وهي كثيرة النخيل والزرع، وأصلح فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون / حوالي ٨٨٤م وسوى طريقها وردم ما استردم فيها، وبأيلة أسواق ومساجد وفيها كثير من اليهود.<sup>٣٣</sup>

و يصف الحموي حركتها العلمية فيذكر أن جماعة من الرواة ينتسبون إلى أيلة منهم: يونس بن يزيد الأيلي صاحب الزهري (توفي بصعيد مصر سنة ١٥٢هـ / ٧٦٩م) واسحاق بن اسماعيل ابن عبد الأعلى بن عبد الحميد بن يعقوب الأيلي الذي روى عن سفيان بن عيينة وحدث عنه النسائي (مات بأيلة سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١).

٣٠. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ٧١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛ صالح حمارنة، «ديور جذام»، ص ١٥٩.

٣١. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٩.

٣٢. ياقوت، معجم، ج ١، ص ٤٢٢.

٣٣. الحميري، ابو عبدالله محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥، ص ٧٠ - ٧١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحميري، الروض.

ويهمنا بالدرجة الأولى الفترة التي نحن بصدها بالنسبة لنشاط ايلة - العقبة - التجاري والعمراني على البحر الأحمر الذي تعكسه مصادرنا العربية، والذي سار موازيا لنشاط خليج البصرة على الخليج العربي. فلقد دأبت الخلافة العباسية منذ القرن الثامن وأواسط القرن العاشر على تنشيط مدنها الضخمة البصرة وبغداد، فعملت على تفوق الخليج... غير أن هذا التقدم لم يتعارض مع نشاط ميناء العقبة على البحر الأحمر ولم يكن على حسابه. ثم يجب الالتفات الى أمر مهم وهو أن ميناء البصرة - الأيلة - على أهميته وعظمته وعظيم الدور الذي كان يقوم به... كثيرا ما تعرض للتوقف لابل للدمار والخراب لسنين طويلة، وذلك بسبب الحوادث السياسية والفتن والثروات التي كانت تأخذ من منطقة الخليج العربي ميدانا لنشاطها.

وليس المكان هنا للحديث بإسهاب عن تلك الحركات ولكن يكفي للدلالة التي نتوخاها ذكر أسمائها فقط. ففي منطقة الخليج اندلعت ثورة الزنج التي امتدت خمس عشرة سنة تقريبا (٢٥٤ - ٢٦٩ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) أصاب البصرة بسببها كثير من الخراب وتعطل ميناؤها. وقبلها اندلعت ثورة الزط التي انقطع بسببها عن بغداد ما كان يحمل إليها من البصرة في السفن<sup>٢٤</sup> وذلك عام ٢١٩ هـ / ٨٣٣ م.

ناهيك عن الحركة العلوية التي قامت ضد العباسيين والتي قادها محمد بن عبد الله (المحض) العلوي المعروف بالنفس الزكية الذي ثار في المدينة عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م، وثار أخوه ابراهيم في البصرة في السنة نفسها<sup>٢٥</sup>.

فاذا عرفنا هذا كله نستطيع أن نجزم أن خليج العقبة قد واصل دوره التجاري النشط والمهم والكبير في العصر العباسي الأول، خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار الارتباط القوي ما بين ميناء العقبة والموانئ المصرية من جهة وميناء جدة في الجزيرة العربية من جهة أخرى، وكانت العقبة ترتبط من خلال الفسطاط بميناء الاسكندرية الذي واصل دوره كمركز هام في التجارة العالمية في هذه الفترة.

وواصلت السفن التجارية سيرها في ميناء البحر الأحمر فكانت تفرغ بضاعتها في ميناء القلزم وفي ميناء ايلة - العقبة، ومنها كانت تحمل الى شواطئ البحر الأبيض المتوسط كما أسلفنا.

من هنا نستطيع أن نؤكد أن الدولة في العصر العباسي الأول استطاعت ان تضع تحت نفوذها الطرق التجارية العالمية الهامة الثلاث، ونعني بها:

٢٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

٢٥. الطبري، تاريخ، ج٧، ص ٦٢٢ - ٦٤٩؛ المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ٦١٩ - ٦٢١.

١. الطريق البري عبر آسيا خاصة ما يسمى الطريق الغربي مع الجزيرة العربية والشام ومصر وشمال إفريقيا.
٢. الطريق البحري في الخليج العربي، وكان الطريق البحري من البصرة الى البحر الأحمر صالحا للملاحة في جميع الفصول.
٣. الطريق البحري الثاني عبر البحر الأحمر.

وبهذه سيطر العباسيون على طرق التجارة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين / الثامن والتاسع الميلاديين. ولا ننسى أن ننوه هنا أن ميناء أيلة قد لعب دوراً خاصاً في العلاقات التجارية مع بلدان إفريقيا الشرقية ومع المحيط الهندي، واستمر ذلك حتى العصر الفاطمي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حيث توسع هذا الدور وازداد<sup>٣٦</sup>.

أما الذي يعزز كل ما ذهبنا اليه فهو الحفريات الأثرية النشطة والناجحة التي تقوم بها دائرة الآثار العامة بالتعاون مع شيكاغو Chicago التي يمثلها الدكتور الباحث Donald Whitcomb دونالد ويتكومب (والذي كان لنا معه حديث طويل التقت فيه وجهات نظرنا، من حيث أهمية مدينة العقبة في الفترة العباسية المبكرة ومعها جنوبي الشام).

وقد كشفت الحفريات التي قامت في الفترة ٨٦-١٩٨٧ م عن مدينة في القرون الوسطى في العقبة، وكانت هذه المدينة تقوم على مرتفع بسيط على الساحل بالقرب من المدينة الحديثة، والموقع الذي تقوم فيه المدينة الأثرية يسمى الوادي حيث كشفت الحفريات عن مدينة مسورة ارتفاع جدرانها أربعة أمتار. وهذه المدينة شكلها مستطيل ١٢٠ × ١٦٠ م، ومحاط بجدار حجري مع أبراج بعلو ٤٥ متر.

والشيء الهام جداً أن المعالم التاريخية المكتشفة والأدوات التي وجدت تعطينا تاريخاً متسلسلاً ومستمرًا للموقع يمتد من الفترة التي سبقت الأمويين - أي من منتصف القرن السابع الميلادي وحتى الفترة الفاطمية. وجدير بالذكر أن آثار مدينة العقبة في الفترة العباسية تختص بميزة غناها الكبير حيث وجد فيها فخار مزجج (صفة بارزة في الفخار العباسي) وهي جرار مزججة لامعة وجرار زرقاء اللون مائلة الى الخضرة.

وهذه حقائق لا تدحض - كما قال ويتكومب - وتدلل على مساهمة «فرضة فلسطين» العقبة بالتجارة العالمية كما في بلدان الخلافة الشرقية كذلك مع المغرب الإسلامي وحتى مع الأراضي الصينية. حيث يقول ويتكومب ما ترجمته: إن الفترة العباسية والفاطمية في العقبة

٣٦. ابن رسته، احمد بن عمر (ج ٢٩٠هـ/٩٠٢هـ)، الاعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١، ص ٨٦-٨٧؛ لومبارد، الجغرافية التاريخية، ص ١٩٠؛ عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٤٩-١٥٠. وسيسار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، تاريخ العراق.



تمثل اضافة كبيرة ومهمة الى تاريخ الأردن .. وهذه الحقيقة الفريدة للآثار المكتشفة من هذه الفترة تدل بوضوح كما كانت آثار هاتين الحقتين (العباسية والفاطمية) مهمة غائبة بالحري . وخلاصة القول كان لميناء العقبة دور بارز في الرفاه والتقدم في الفترة العباسية فيما يتعلق بجنوبي بلاد الشام و بمصر والعراق والشرق الأقصى<sup>٢٧</sup> .

ولقد أطلعت على أحدث تقرير غير منشور للدكتورة خيرية عمرو المنقبة في دائرة الآثار العامة - عمان - بتاريخ ١٩/١٠/١٩٩٠م يحمل المعنى نفسه فقد جاء فيه : «في المنطقة الجنوبية الشرقية من العقبة - قامت حفريات خلف بوابة الحجاز حيث البرج الجنوبي وجدت فيه طبقة كثيفة من الحجارة الساقطة منحدره باتجاه الجنوب الغربي - من سور المدينة - تعلوها طبقات غنية بالفخار الصيني وأنواع مختلفة من الفخار المزجج المستورد، ولقد أسفر حفر هذا البرج عن الحصول على تتابع ممتاز من الفخار يمتد من بداية الفترة الأموية أو ما قبلها بقليل وحتى العصر الفاطمي» (تقرير لدائرة الآثار العامة).

وحيث ان طبيعة البحث تقتضي الايجاز فانني أصمت عن التحدث عن مواقع هامة كثيرة مثل موقع خربة فارس أو عن المسحين الأثريين في منطقتي حسان ووادي الحسا أو التفصيل في الحديث عن النتائج الباهرة للحفريات في طبقة فحل التي سبق وأن أشرنا إليها، وذلك لضيق المقام . أما مدينة طبرية فقد كانت عاصمة جند الأردن ، وكان لها دور كبير في الفترة العباسية الأولى وسنستعرض هذا الدور ودور المنطقة التي تمثلها طبرية «فطبرية الجلييلة بالدخل والقرى قسبة الأردن ، بلد وادي كنعان بين الجبل والبحيرة . والجامع في السوق كبير حسن ، فرشه مرفوع بالحصى على أساطين حجارة موصولة ويقع في سوقها التجاري... وحول البحيرة كله قرى متصلة ونخيل فيها سفن كثيرة تذهب وتجيء ، كثيرة الأسماك ومدينة حيفا هي فرضة طبرية و بحيفا مرسى حسن لارساء الأساطيل وغيرها»<sup>٢٨</sup> .

ومن طبرية خرج وزير المهدي القدير معاوية بن ابي عبيده الذي قلده الخليفة وزارته ودواو بينه عام ١٥٦ هـ وكان له دور كبير في العصر العباسي الأول<sup>٢٩</sup> .

٢٧. D. Whitcomb, "Excavations in Aqaba", (ADAJ), Vol. 31, 1987, p. 247-289.

٢٨. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٢؛ ياقوت، معجم، ج٤، ص ١٨ - ١٩؛ الحميري، الروض، ص ٢٨٥.

٢٩. الجهشياري، ابو عبد الله محمد بن عبد القدوس (ت ٢١٠هـ/٩٢٢م)، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه، الطبعة الثانية، مكتبة الحلبي، القاهرة، ص ١٥٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الجهشياري، الوزراء.

فهذه صفة مدينة طبرية العامرة والمحاطة بالقرى وفرضتها مدينة حيفا المرسي الحسن . وحول صناعة السفن يضيف ياقوت الحموي «كانت صناعة السفن بمصر فقط، فأمر معاوية بن أبي سفيان بجمع الصناع والنجارين فجمعوا وربتهم في السواحل، وكانت الصناعة في الأردن بعكا، وعكا فيها أرحاء ومستغلات . غير أن هشام (بن عبد الملك) نقل الصناعة الى صور، واتخذ بصور فندقا ومستغلا. قال الواقدي: لم تنزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها الى صور، فهي بصور الى اليوم. وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله سنة سبع واربعين ومائتين (٢٤٧هـ/ ٨٦١م) بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة<sup>٤٠</sup>.

ان الانتشار الكبير للقرى في جند الأردن وأجناد الشام الأخرى يشير بما لا يقبل الشك الى كثرة السكان والى ثبات القبائل بالأرض، والى اشتغالهم بالزراعة، وهذا الأمر استمر بعد سقوط الدولة الأموية بخلاف المقولة التي تذهب الى ارتداد الناس للبداءة.

وإن استقرار القبائل الكثيف في الأرض لم يقتصر على المراكز الهامة في بلاد الشام كدمشق التي توسعت أيام العباسيين توسعا ملحوظا - بل شمل الاستقرار جند الأردن وجند فلسطين وحمص وغيرها<sup>٤١</sup>.

وما كثرة الاضطرابات والثورات التي كان يقوم بها أهل الشام ضد السلطة العباسية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين الا دليل مهم على كثرة السكان وكثافتهم وعلى ثباتهم في الأرض وتحولهم لفلاحين تثقلهم كثرة الضرائب، نذكر منها على سبيل المثال ثورة ابي الهيثام سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م، وثورة اليمانية في حمص ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م، وثورة نصر بن شيبث في الجزيرة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، وثورة ابي العميطر بدمشق ١٩٥هـ/ ٨١٠م، وابن بيهس في الفترة نفسها. ثم ثورات القبط والعرب بمصر ٢١٦هـ/ ٨٣١.

وأود أن أقف عند واحدة من هذه الثورات اتخذتها نموذجا لعمق دلالتها الاجتماعية والسياسية، ونستطيع من خلالها أن نحكم على الأوضاع في جنوبي البلاد الشامية في العصر العباسي الأول.

٤٠. ياقوت، معجم، ج٤، ص ١٨ - ١٩؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٤ - ١٢٥.

Frederick, M. Donner, The Early Islamic Conquests, Princeton, New Jersey, 1981, ٤١ pp. 221-245.

ابن عساکر، تاریخ، ج٦، ص ١٢٥ وما بعدها؛ اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، کتاب البلدان، لیدن، ١٨٩١، ص ٢٢٦ وما بعدها. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي کتاب البلدان.

قاد هذه الثورة رجل بسيط من اليمانية عرف بأبي حرب المبرقع اليماني (وكان قد التجأ إلى أحد الجبال في الأردن مختفياً، لقتله أحد جنود السلطان، وكان الجندي قد اعتدى على امرأة في بيت اليماني).

وأخذ ابو حرب يدعو الناس و يحرضهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و يذكر السلطان، وما يأتي الى الناس، و يعيبه. فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له القوم من حراثي تلك الناحية وأهل القرى (أهل القرى المقصود بهم سكان البلاد الشامية ما قبل الفتح الاسلامي، من عرب وسريان وأنباط) وكان يزعم أنه أموي - ضد العباسيين - فقال الذين استجابوا له «هذا هو السفيناني» فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة (الفلاحين الفقراء) من الناس... دعا أهل البيوتات من أهل تلك الناحية، فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية فاتصل الخبر بالمعتصم وهو عليل علته التي مات فيها فبعث اليه رجاء بن ايوب الحضاري في ألف من الجند، فلما صار اليه وجده في عالم من الناس... زهاء مائة ألف فكره رجاء مواقفته وعسكر بحذائه وطاولة حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم، وانصرف من كان من الحراثين مع أبي حرب الى الحراثة وأر باب الأرضين الى أراضيهم، وبقي أبو حرب في نفر زهاء ألف أو الفين فناجزه رجاء... وأخذ أسيراً الى سجن المطبق في سر من رأى<sup>٤٢</sup>.

وعند مقارنتنا هذه الرواية مع رواية اليعقوبي، نجد بعض الاختلافات منها أن اليعقوبي يعطينا اسم المبرقع هو تميم اللخمي، و يعرفنا بأهم القبائل التي قامت معه وهي: لخم، وجدام، وعامله، و بلقين<sup>٤٣</sup>.

إن الشيء الذي يلفت النظر في ثورة المبرقع اليماني والذي ثار في البدء لأسباب شخصية

هي:

أولاً : ان دعوته قد لاقت قبولا واسعا سريعاً عند الفلاحين وأهل القرى، وقد اتبعه خلق كثير من الحراثين وانه كان في عالم من الناس، ثم استجاب له جماعة من رؤساء اليمانية، وهكذا نرى أن الثورة التي بدأت في صفوف الفلاحين وأهل القرى والحراثين الفقراء اتسعت لتصبح حركة سياسية اجتماعية واسعة يقوم على قيادتها رؤساء اليمانية في الشام المناهضين لحكم بني العباس، رافعين شعار «عودة السفيناني».

ثانياً : لا شك في أن هذه الثورة هي امتداد لانتفاضات أهل الشام الذين كانوا يهبون بين

٤٢. الطبري، تاريخ، ج٩، ص ١١٦ - ١١٨.

٤٣. اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٤٨٠.

الحين والآخر مطالبين باسترجاع امتيازاتهم السابقة ويطمحون لاسترداد نفوذهم السابق أيام الأمويين، ولكن يلوح لنا أن التوقيت الذي اختارته ثورة الفلاحين هذه يعطينا صبغة مميزة أخرى تتلخص في أن صرخة أهل الشام هذه جاءت تعبيراً ضد تزايد سلطة الأعاجم في الخلافة العباسية وضد نفوذ عسكر «الأتراك» في البلاط العباسي في سامراء،

ثالثاً : جاء هذا الغضب بسبب إسقاط العرب من الديوان، حيث يذكر الكندي «أن المعتصم أسقط العرب من الديوان في مصر»، حيث قبائل لحم وجدام وهي القبائل نفسها التي ثارت مع المبرقع اليماني<sup>٤٤</sup>.

إن الأعداد الكبيرة من الفلاحين الذين اشتركوا في ثورة المبرقع اليماني تعطينا صورة واضحة كيف أن العرب في هذه المرحلة قد انتقلوا من دور المقاتلة الخالصة الى الاهتمام بالزراعة ومزاولتها وأصبحوا فلاحين.

وجدير بالذكر أن هذا الأمر قد شمل المقاتلة في الثغور وعلى الحدود، وهنا نأتي الى قضية هامة أخرى، لا بد من الإشارة اليها لأهميتها وهي شحن الثغور وانتعاش الموالي، ورغم أن غالبية الموالي تقع في شمال وغرب البلاد الشامية فلقد كان لشحنها تأثير اقتصادي وسكاني كبيران على عموم بلاد الشام. فالبلاذري يذكر - ومنذ وقت مبكر - ان معاوية في عهد خلافة عثمان بن عفان قد أقام حاميات قوية على طول ساحل البحر وحول الموالي الأساسية، وأقطع جنود هذه الحاميات قطائع تضمن استمرار بقائهم، وكانت هذه القطائع من الأراضي التي جلا عنها أهلها<sup>٤٥</sup>. واستمر هذا الوضع وبشكل أقوى وأهم في العصر العباسي الأول. صحيح أننا هنا نعالج الوضع في جنوبي الشام، ولكن لدلالة موضوع الثغور في البلاد الشامية في العصر العباسي الأول، لا بد من وقفة قصيرة جداً، فالموضوع هام وبعيد الأثر، ففي مطلع الحكم العباسي قام المنصور بتتبع السواحل ومدنها فعمرها وحصنها. وبنى ما احتاج الى البناء منها، وفعل مثل ذلك بمدن الثغور فبنى المنصور مرعش والمصيصة ثم حصن أهم ثغور الجزيرة وهي ملطية، فيروي البلاذري أن المنصور أمر ببنائها سنة ١٣٩ هـ/ ٧٥٦م وجمع الصناع من كل بلد للاشتغال فيها، فتم البناء في ستة أشهر. ثم يصف لنا ترتيب سكنى المقاتلة فيها قائلاً «وبنى للجند الذين اسكنوها لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما، اصطبل. والعرافة عشر نفر الى خمسة عشر رجلاً، ثم يستطرد «وأسكن

٤٤. الكندي، محمد بن يوسف (ت ٢٥٠/٩٦١م)، ولاة مصر، تحقيق حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩، ص ٢١٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الكندي، ولاة؛ المقرئزي، تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٢م)، كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج ٢ في ٢ م، القاهرة ١٣٢٦ هـ، ج ١، ص ١٩٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقرئزي، مواعظ.

٤٥. البلاذري، فتوح، ص ١٥٠ وما بعدها؛ دانيال دينيت، الجزيرة والاسلام، ترجمة: فوزي جاد الله، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٠٧.

المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها ثغورهم ووضع فيها شحنتها من السلاح واقطع الجند المزارع».

كما وبنى المنصور مدينة الرافقة على الفرات سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧١م على طراز مدينة بغداد<sup>٤٦</sup>. واستمر الأمر على هذه الشاكلة طيلة العصر العباسي الأول، ففي أيام هارون الرشيد مثلاً عمل على توظيف مقاتلة الثغور من الأراضي التي يدافعون عنها على الحدود مع البيزنطيين، فيذكر البلاذري أن الخليفة المهدي وابنه الخليفة الرشيد هما اللذان بنيا طرسوس وحصناها وحشداً فيها الحاميات من الجند<sup>٤٧</sup>.

ويروي أن في مدينة طرسوس دائماً ١٠٠٠ فارس، وعندما زرتها - يقول ابن حوقل - فيها مثل هذا العدد<sup>٤٨</sup>.

نلاحظ مما يذكره المؤرخون العرب أن الموانئ في السواحل الشامية الممتدة على طول الساحل حتى الحدود مع البيزنطيين كانت تواجه انتعاشاً وازدهاراً في العصر الإسلامي مثل صيدا وصور وعكا<sup>٤٩</sup>.

ويقول الدكتور مصطفى الحيارى الذي اهتم بموضوع الثغور: «تميزت الفترة الممتدة من الثمانينات من القرن الأول الهجري وحتى نهاية القرن الثاني للهجرة باهتمام الخلافة الإسلامية سواء أكان مركزها دمشق أم بغداد بعمران مناطق الحدود الطويلة من أراضيها وأراضي الامبراطورية البيزنطية لتكون مراكز دفاع أمامية تصد عن بلاد العالم الإسلامي الغارات المتكررة»<sup>٥٠</sup>.

ونحب ان نؤكد أن هذا التوسع في العمران في الثغور والموانئ رافقه بلاشك حركة اقتصادية نشطة واحتكاك واسع مع الشعوب الأخرى التي تعيش في الثغور في العادة.

ويكفي أن نشير هنا الى صفة مدينة صور عند اليعقوبي لاثبات ما نرمي اليه: «ولجند الأردن من الكور صور، وهي مدينة السواحل، وبها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم. وهي حصينة جليية، وأهلها أخلاط من الناس»<sup>٥١</sup>.

٤٦. البلاذري، فتوح، ص ١٦٨ - ١٧١، ١٩٥ - ١٩٧.

٤٧. البلاذري، فتوح، ص ١٧٣ - ١٧٥.

٤٨. ابن حوقل، ابن القاسم محمد بن علي الموصلي (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م) صورة الأرض، الطبعة الثانية، ليدن، د. ت، ص ٣٠٥. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة الأرض.

٤٩. لومبارد، الجغرافية التاريخية، ص ١٧٧ - ١٧٨.

٥٠. مصطفى الحيارى، «حياة الناس في مدن الثغور (طرسوس)»، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ١٩٨١، العدد ٤، ص ٢٠.

٥١. اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٢٧.

أما وقد تعرضنا لقصة الأردن مدينة طبرية، والموانئ والقرى في جند الأردن، التي بها قامت ثورة الفلاحين، وحيث ان هذه الثورة شملت جند فلسطين أيضا فلا بد من وقفة عند مدينة الرملة حيث نلاحظ هنا بعض الاجراءات المالية والضرائبية التي اتخذها العباسيون خاصة الخليفة المأمون.

فالرملة قسبة فلسطين منذ أيام سليمان بن عبد الملك «بهية حسنة البناء... واسعة الفواكه جامعة الاضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية... وقرى نفيسة والتجارة بها مفيدة... ليس في الاسلام ابهى من جامعها...»<sup>٥٢</sup>.

ويروي البلاذري أن الخليفة الوليد نصب أخاه سليمان حاكما على جند فلسطين فأقام في اللد، وبعدها أسس سليمان مدينة الرملة وجعلها عاصمة له، وكان أول بناء شيد فيها هو قصر سليمان ثم دار الصباغين. والذي يهمننا نحن ما يذكره البلاذري بالنسبة للفترة العباسية. «وقد آلت دار الصباغين في الرملة عن طريق إلارث لورثة صالح بن علي بن عبد الله ابن العباس لأنها قبضت مع أموال بني أمية»<sup>٥٣</sup>.

قالوا: وكان بنو أمية ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان بن عبد الملك، فلما استخلف بنو العباس أنفقوا عليها وكان الأمر في تلك النفقة يخرج في كل سنة من خليفة بعد خليفة، فلما استخلف أمير المؤمنين ابو اسحاق المعتصم بالله أسجل بتلك النفقة سجلا فانقطع الاستثمار وصارت جارية يحتسب بها العمال فيحسب لهم.

وهنا بالذات يستطرد البلاذري فيقول: «وبفلسطين فروز بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة، وبها التخفيف والردود، وذلك أن ضياعا رفضت في خلافة الرشيد وتركها أهلها، فوجه أمير المؤمنين الرشيد هرثمة بن أعين لعماريتها، فدعا قوما من مزارعيها وأكثرتها الى الرجوع اليها على أن يخفف عنهم من خراجهم، ولين معاملتهم، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف، وجاء قوم منهم بعد، فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه فهم اصحاب الردود»<sup>٥٤</sup>. ويذكر اليعقوبي أنه سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥م وذلك في خلافة المأمون أن الخراج قد خفض بنسبة الربع<sup>٥٥</sup>.

ويبدو أن هذا الإجراء تبعه اجراءات أخرى من قبل المأمون، إذ أمر بمسح اجناد الشام من جديد لاعادة النظر في ضرائب الأرض وذلك عام ٢١٤ هـ/٨٢٩م، وهو إجراء تطلبه

٥٢. أحسن التقاسيم، ص ١٦٤ - ١٦٥.

٥٣. البلاذري، فتوح، ص ١٤٩ - ١٥٠.

٥٤. المصدر السابق، ص ١٤٩ - ١٥١.

٥٥. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٤٥٩ وما بعدها؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٢٢٤ - ٢٣٠.

تحول في وضع الزراعة في الأرياف<sup>٥٦</sup>.

وقبل أن نخلص الى استنتاجات بحثنا يجدر بنا أن نتعرض الى موقع آخر لدلالاته في أوضاع جنوب بلاد الشام في الفترة العباسية المبكرة وهذا الموقع هو أم الرصاص . ففي أم الرصاص اكتشف العلماء فسيفساء في أرضية كنيسة يعود تاريخها الى سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م .

وأم الرصاص قرية صغيرة في موقع ميفع (ميفعة) التي يذكرها البكري: «فانها قرية في أرض البلقاء من الشام»<sup>٥٧</sup> وتقع أم الرصاص على بعد ٣٠ كم جنوب شرق مادبا . سكنتها عائلات حمولة السلايطة أثناء نزوحها من الكرك حوالي ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م .

لقد قامت دائرة الآثار العامة ومنها السيد تيسير عطيات باجراء حفريات في السنوات الثلاث الأخيرة، وشارك فيها معهد الفرنسييسكان للدراسات التوراتية باشراف الدكتور الأب ميشيل باتشريللو Michele Piccirillo . وقد توصلت حفرية عام ١٩٨٦ - ١٩٨٧ الى اكتشاف هام جدا في أرضية كنيسة تحمل اسم القديس اسطفان ، ففي هذه الأرضية فسيفساء تحمل تاريخين هامين وكلاهما من العصر العباسي الأول ٧٥٦م أي ايام خلافة ابي جعفر المنصور والثاني ٧٨٥م أي آخر سنة من خلافة المهدي بن المنصور<sup>٥٨</sup> . وأرضية هذه الكنيسة في أم الرصاص غنية جدا بالرسومات والكتابات والأشجار، فهي بحق تعتبر تحفة نادرة لا يضاهاها في جميع آثار المدن الفسيفسائية الا خريطة مادبا . وفيها أيضا أسماء ثمانى مدن في أرض فلسطين منقوشة أسماؤها في الرواق الأيسر وهي المدينة المقدسة ، ونابلس وسبسطية وقيصرية وديوبوليس (اللد) والفتزو بوليس (بيت جبرين) وعسقلان وغزة . وتقع مدن في الضفة الشرقية للأردن ، تقع في الرواق الأيمن وهي : قلعة ميفع (أم الرصاص) فيلادلفيا (عمان) مادبا واسبونتتا (حسبان) و بلمونتتا (بعل ماعين) واريو بوليس (الربة) وكرك موبا (الكرك) ودبلتين وهي مدينة غير محددة قرب نيبان وربما مدينة ذيبان نفسها .

إن قراءة الكتابات لهذه الأرضية الفسيفسائية تكشف لنا ثلاث نقاط هامة :

أ ( تذكر اسم أم الرصاص القديم وهو ميفع (حصن ميفعة).

٥٦. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) تهذيب تاريخ مدينة دمشق، ٧ج، هذبه عبد القادر بدران، دمشق ١٩٧٩، ج ٢، ص ١٠٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تهذيب؛ محمد كرد علي، خطط الشام، ٦ج، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩، ج ٥، ص ٥٩؛ عبد العزيز الدوري، «العرب والأرض في بلاد الشام»، كتاب مؤتمر بلاد الشام الأول، عمان، ١٩٧٤، ص ٣٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، العرب والأرض.

٥٧. البكري، معجم ما استعجم، ج ٤، ص ٥٦٩.

٥٨. تيسير عطية، حفريات الموسم الأول في مدينة أم الرصاص «ميفعة»، عمان، ١٩٨٦، ص ٢٣ - ٢٨.

ب ) إن تاريخ الفسيفساء العائد الى عام ٧٨٥ م يمدد عصر الفسيفساء في الاردن لأكثر من مئة سنة عما كان معروفا من قبل.

ج ) يؤكد وجود جماعة مسيحية ذات إدارة دينية محلية لها نشاطها وفعاليتها وذلك في ظل الدولة العباسية<sup>٥٩</sup>.

ولا غرابة من كثرة الكنائس في الديار الشامية ، فأرض الشام هي موطن المسيحيين الأول ، ومنه قامت دور العبادة النصرانية. ففي البدء كانت الجماعات المسيحية تقيم صلواتها في المساكن بالسرعن السلطة الرومانية ثم أقيمت دور العبادة التي كانوا يسمونها «بيت صلاة» الكلمة الآرامية العربية .

ثم أخذوا يبنون الكنائس بهندسات مختلفة ، وتكثر في جنوبي البلاد الشامية بقايا مثل هذه الكنائس ، وحسب معرفتي فان أقدم كنيسة شيدت وبقيت بشكل متواصل بيت عبادة هي كنيسة المهدي في بيت لحم ، وبعدها كنيسة القيامة في القدس ، وكلتاهما من القرن الرابع الميلادي .

ويكفي أن أشير إلى أنه يوجد في الأردن آثار عدد كبير من الكنائس شيدت في الفترة الأموية ، ناهيك عن عدة كنائس ظلت مستعملة في ذلك العصر وباستمرار. مما يعطي صورة عن انتعاش للنصارى العرب الذين واصلوا دورهم في حياة بلادهم الاقتصادية والثقافية ، وفي ظل الدولة العربية الاسلامية ، وحافظوا على حريتهم الدينية .

ومن هذه الكنائس نذكر كنيسة القويسمة ، والشونة الجنوبية ، وكنيسة العذراء مريم في مادبا من سنة ٦٦٢ م ، وكنيسة ماعين من القرن الثامن الميلادي<sup>٦٠</sup>.

ونخرج مما سبق بالملاحظات التالية :

اولا : إن القبائل العربية التي خرجت مع الفتح الاسلامي ، قد استقرت في الأرض مع أهل القرى السابقين عليهم ، وهذا الاستقرار أخذ شكلا واضحا منذ أواخر الدولة الأموية والعصر العباسي الأول ، وبهذا انتقل العرب من دور المقاومة الخالصة الى الاهتمام بالزراعة ومزاوتها .

٥٩ . M. Piccirillo, The Complex of Saint-Stephen at Umm-er-Rasas, First Campaign, (ADAJ), No. 30, 1986, pp. 34-352.

٦٠ . M. Piccirillo, "The Umayyad Churches of Jordan", (ADAJ), Vol. 28, 1984, pp. 333-343.



ويجب أن نلاحظ أن أصحاب الأرضين من كبار الملاكين في بلدان الشرق الاسلامي كانوا يقيمون في المدينة ويسيظرون على الحياة الاقتصادية فيها، وعلى ناتج الأرض، فهم في الوقت نفسه تجار الحبوب والمنتجات الأخرى، ومن الناحية الاجتماعية حافظت المدينة في الاسلام على العادات والأعراف القبلية... وهذه الصفة لازمت الوضع في العالم الاسلامي لا كما هو الحال في الغرب الاقطاعي حيث كان الاقطاعيون يشكلون ممتلكات إقطاعية مستقلة يعيشون فيها. ومكتفية اكتفاء ذاتيا تقريبا<sup>٦١</sup>.

ثانياً : أدى قيام دولة الخلافة وتوحيد بلدانها: الجزيرة العربية والبلاد الشامية، والعراقية والمصرية تحت ظل دولة الخلافة، إلى خلق سوق واسعة شاسعة مشتركة ومتناغمة تمتد من آسيا الوسطى الى المحيط الهندي ومن السودان الى الغرب، وإلى منطقة الأنهار الروسية، مما سمح لهذه البلدان بأن تستأنف -بقوة- نهضة عمرانية كانت راکدة قبيل الاسلام. وتنتج عن هذا الازدهار ازدهار دمشق، و بغداد، والبصرة والفسطاط وطبرية والعقبة وغيرها.

ثالثاً : يجب أن نلاحظ أنه منذ بداية خلافة هارون الرشيد ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م أخذت تقوم أسر حاكمة مستقلة عن الخلافة فعلياً لا إسمياً - وأحياناً اسمياً أيضاً - فالرشيد يبدو على عكس سابقه من الخلفاء قد استساغ قبول سياسة الاستقلال الاقليمي كوسيلة للحفاظ على سلطة الخلافة ولو اسمياً. ونرى أن الذي دفع هذا الاستقلال فيما دفع المخلفات الحضارية البعيدة التي توارثها السكان فوق الأرض التي نشأوا عليها، وواصلوا فيها العيش بالطريقة السابقة تقريباً وبالتقنيات نفسها التي توارثوها، وهكذا أخذت تبرز هذه الخصائص وتتجسد بالتالي في دول، وفي أسر حاكمة محلية.

وظاهرة قيام مثل هذه الدول يطلق عليها لومبارد<sup>٦٢</sup> ظاهرة «التمايز»، هذه الظاهرة التي دبعيت خطأ فيما نتصور ب«تفكك الخلافة العباسية» ونحن نرجح تسميتها بناء العالم الاسلامي أي الانتقال من حقبة الدولة الوحيدة الى مفهوم بلاد الاسلام الواسع.

وهنا نجد تفسير قيام دولة الطاهريين، والصفاريين ثم السامانيين في الشرق والادارسة والأغالبة وغيرها في المغرب ثم الطولونية والახشيدي في مصر و ثم الشام

٦١. أهرون كوهين، الشرق العربي، ترجمة جبرا نقولا، دار الجليل، عكا، ١٩٧٠، ص ٣٦. الدوري، العرب والأرض، ص ٢٠ وما بعدها.

٦٢. لومبارد، الجغرافية التاريخية، ص ٢٦-٢٧، ١٦١.

والمحاولات التي قام بها أهل الشام من مثل حركة عيسى بن الشيخ ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م وبالتالي قيام دولة الحمدانيين.

رابعا : وهكذا فبدلا من الطبقة الأرستقراطية العربية التي كانت تحكم في الدولة الأموية قامت بجانبها طبقة حاكمة جديدة من أبناء الفئة العليا من الشعوب المختلفة ذوي النفوذ والأموال، فاصبحت الثروة هي مفتاح المناصب الحكومية الرفيعة التي لم تكن تقتصر على الراتب الكبير، بل توفر لها فرصا عديدة في الأعمال التجارية والسمسرة والمشاريع الاقتصادية في الزراعة والمناجم والأشغال العامة وغيرها.

وهذا بالتالي قاد الى نمو الطبقة الوسطى، فقد ذكر غوتن «أن طبقة التجار والبرجوازية الصغيرة في الفترة الإسلامية المبكرة، قد أخذت تتطور بالتدريج في المئة والمئة والخمسين سنة الأولى من الحقبة الإسلامية وظهرت تاريخيا وبوضوح مع نهاية القرن الثاني للهجرة واعترف بها اجتماعيا في القرن الثالث، ومع القرن الرابع الهجري أصبحت قوة اجتماعية - اقتصادية، ومع هذا لم يقم لهذه الطبقة كيان خاص بها ولم تصبح هي القوة السياسية بالرغم من أن كثيرا من ممثليها قد حصلوا على مناصب رفيعة في الدولة»<sup>٦٣</sup>.

وفي الفترة اللاحقة تتراجع هذه الطبقات في معظم العالم الإسلامي أمام تعاضم قوى الاقطاع والعسكر وذلك بعد القرن الخامس الهجري. وهذا الأمر الهام خارج عن نطاق بحثنا هنا.

وختاماً أشير الى مدى تغلغل نفوذ البلاد الشامية الفكري والمعنوي في أرض الخلافة، ففي القرن الثالث الهجري، حيث أخذت الشام تمثل السلطان العربي ضد تغلغل الاعاجم والعسكر وأستشهد بذلك بحركة فكرية سياسية هي حركة النابتة، وهي حركة تدعو لبني أمية وتتوجه بالدرجة الأولى للأحداث، وكان مجال نشاطها في أرض الخلافة نفسها في العراق، فكانت النابتة تنتصر لبني أمية وتؤكد حقهم في الخلافة وترد على خصومهم من المعتزلة والشيعة وغيرهما. ومن العجب أن خير مصدر عن هذه الحركة نجده عند أحد خصومها عند أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٥ هـ / ٧٧٥ - ٨٦٨ م) خاصة في رسالته عن النابتة<sup>٦٤</sup>.

٦٣. S. Gaitain, "The Rise of the Near Eastern Bourgeoisie in Early Islam", Journal of the World History, Vol.3, 1956, p. 584 Boudry-Switzerland.

Ira Lapidus, Middle Eastern Cities, California University Press, Berkeley-London, 1969, pp. 47-97.

٦٤. الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م)، رسائل الجاحظ، ٢، «رسالة عن النابتة»، المجلد الثاني، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٧ - ٢٣.

وهذه الرسالة الموجهة الى ابي الوليد بن أحمد بن ابي داود قاضي بغداد المعروف، وموضوع رسالة الجاحظ هذه هو الطعن في حركة النابطة والهجوم عليها ونقد الأمويين ونقض حقهم في الخلافة وذمهم.

ولكن الذي يهمنا هو أن القارىء يستطيع وبسهولة أن يستشف من بين سطور الجاحظ وجهة نظر النابطة ومدى تغلغل أفكارهم وكثرة أنصارهم وبالتالي خطرهم على الدولة العباسية. ولقد انتشرت أفكار النابطة في الفترة التي قامت بها ثورة الفلاحين بقيادة المبرقع اليماني في جندي فلسطين والأردن، واستمرت هذه الحركة بعد ذلك حتى أيام الخليفة المتوكل. هذا الخليفة الذي حاول فعلاً نقل مركز الخلافة لدمشق.

وكانت هذه الحركة تمثل جيلاً جديداً من الشباب النابطة الذي بدأ ينمو وينبت في المجتمع العربي الإسلامي، وكانت حركته هذه بمثابة رد فعل للمظاهر السياسية والفكرية والاجتماعية المعاصرة له.

ويذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف: «ورأيت في سنة ٣٢٤ هـ بمدينة طبرية من بلاد الأردن (هذه المدينة التي بقيت داراً للعلماء والكتاب كما اسلفنا) من أرض الشام عند بعض موالي بني أمية ممن ينتحل العلم والأدب ويتحيز إلى العثمانية كتاباً فيه نحو من ثلاثمائة ورقة بخط مجموع مترجم بكتاب «البراهين في إمامة الأمويين». ونشر ما طوى من فضائلهم أبواب مترجمة ودلائل مفصلة»<sup>٦٥</sup>. ويعكس هذا الكتاب فكرة السفيناني المنتظر، وقد انقلبت إلى نظرية كاملة بأحقية الأمويين في خلافة المسلمين.

٦٥. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٤٣٥هـ/٩٥٥م) التنبيه والاشراف، عنى بتصميمه ومراجعته عبداً إسماعيل العادي، القاهرة، ١٩٣٨

## مناهضة الصور وتشويهها في ضوء الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة في أم الرصاص وماعين \*

غازي بييشه \*\*

في خريف عام ٧٢٦ م أزال الامبراطور البيزنطي ليو الثالث (٧١٧ - ٧٤١ م) صورة السيد المسيح التي كانت تنتصب فوق البوابة الرئيسية للقصر الامبراطوري المعروفة باسم البوابة البرونزية (Chalke Gate) واستبدل بها شارة الصليب وبعض النقوش التي كتبت في قالب شعري. وفي مطلع عام ٧٣٠ م دعا الامبراطور نفسه الى اجتماع رسمي (Silention) ضم كبار رجال دولته أنهى باصدار مرسوم يقضي باتباع سياسة مناوئة للصور المقدسة، وبذلك بدأت حركة اللايقونية (Iconoclasm) التي استمرت المرحلة الأولى منها الى سنة ٧٨٧ م عندما عقد المجمع الكنسي السابع في نيقية، وأقر إعادة سياسة تبجيل وعبادة الصور المقدسة، واعتبار اللايقونية هرطقة منافية لتعاليم الدين المسيحي<sup>١</sup>. ولكن قبل هذا الألغاء كان قد عقد عام ٧٥٤ م في قصر هيريبيا (Hieria) الواقع في إحدى ضواحي القسطنطينية مجمع كنسي دعا إليه الامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥ م) وحضره ٣٣٨ أسقفاً أكد على السياسة الدينية المناهضة للصور المقدسة وعبادتها. وتأكيداً لهذه السياسة ووضعها موضع التنفيذ قام الامبراطور بإزالة الصور التي تمثل معجزات السيد المسيح في كنيسة العذراء بالقسطنطينية، واستبدل بها صوراً غيرها تمثل طيوراً وحيوانات مختلفة، بينما استبدلت

\* أود ان اعرب عن بالغ شكري للاستاذة دونالد و يتكومب جونز، والأب بتشريللو والكتور روبرت شيك الذين تفضلوا بتزويدي بنسخ لبعض الكتب والمقالات في هذا البحث.

\*\* المدير العام السابق لدائرة الآثار العامة، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية.

١. S. D. Gero, "Byzantine Iconoclasm During the Reign of Leo III. With Particular Attention to the Oriental Sources," CSCO, Vol. 346 (Louvain, 1973), pp. 94-112. Henceforth cited as: Gero, "Leo III"

Idem, "Byzantine Iconoclasm During the Reign of Constantine V. With Particular Attention to the Oriental Sources, CSCO, Vol. 384 (Louvain, 1977), p. 53. Henceforth cited as: Gero, Constantine V.

C. Mango, "Historical Introduction," in Iconoclasm: Papers Given at the Ninth Spring Symposium of Byzantine Studies, University of Birmingham, March 1975, (Birmingham, 1977), ed. A. Bryer & J. Herrin, pp. 1-6. Henceforth cited as Iconoclasm.

السيد الباز العربي، الدولة البيزنطية ٢٢٢ - ١٠٨١ م، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٧٩ - ٢٢٥. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العربي، الدولة.

بمناظر المجامع الكنسية الستة التي كانت تزين البوابة المعروفة بالمليون (Milion) أخرى تمثل مناظر الصيد والقنص وسباق العربات التي تجرها الخيول<sup>٢</sup>. من هذا يتبين أن المعارضة للأشكال الآدمية والكائنات الحية لم تكن مطلقة بل اقتصرت فقط على الصور الدينية التي اكتسبت صفة القداسة. وإذا انتقلنا من بيزنطة إلى الأردن وفلسطين فإننا نجد عددا كبيرا من الكنائس ذات الارضيات الفسيفسائية الملونة التي شوهدت فيها الأشكال الآدمية والكائنات الحية من دون تمييز<sup>٣</sup>.

وكثرت في الآونة الأخيرة الدراسات التي تحاول تفسير حركة اللايقونية واستقصاء جذورها ودوافعها الى درجة حدت بأحد الباحثين البارزين في دراسة التاريخ الاجتماعي للإمبراطورية الرومانية الى القول بأن: «الجدل حول اللايقونية أصبح الآن في قبضة أزمة من التفسيرات المتزايدة»<sup>٤</sup>. ولكن مما يبعث على الاستغراب أن معظم هذه الدراسات تعتمد بشكل رئيسي على المصادر التاريخية الأولية: اليونانية والسريانية والأرمنية والعربية المسيحية دون أن تولي اهتماماً كافياً للشواهد الأثرية الكثيرة التي تم الكشف عنها في السنوات القليلة الماضية<sup>٥</sup>. لذا فإن غرضي من هذه الدراسة ليس مناقشة وتلخيص النظريات

٢. D. Freedburg, "The Structure of Byzantine and European Iconoclasm," in *Iconoclasm*, ed. Bryer & Herrin, p. 174, Footnotes 107, 108.  
Gero, "Constantine V", pp. 111-12.

٣. R. Schick, "The Fate of the Christians in Palestine During the Byzantine-Umayyad Transition, A.D. 600-750", unpublished Ph.D dissertation, the University of Chicago, (Chicago, 1987), pp. 314-45; Tables 16-31. Henceforth cited as: Schick, "The Fate of Christians".

٤. P. Brown, "A Dark Age Crisis: Aspects of the Iconoclastic Controversy," *English Historical Review*, LXXXVIII (1973). Reprinted in "Society and the Holy in Late Antiquity." University of California Press (Berkeley & Los Angeles, 1982) p. 254.

«لاهم الدراسات حول اللايقونية يرجع الى قائمة المراجع في:

Gero, "Leo III". p. IX-XIII.

*Iconoclasm*, ed. Bryer & Herrin, pp. X-XI

٥. يستثنى من هذا التعميم الدراسات القيمة للاستاذ اندريه جرابار والدكتور روبرت شيك.

A. Grabar, *L'Iconoclasm Byzantin-Dossier Archeologique*, (Paris, 1957).

R. Schick, "The Fate of the Christians".

هناك دراسة ثالثة لم تتح لي الفرصة للاطلاع عليها ولكن يبدو أنها اعتمدت الشواهد الاثرية:

G. King, "Islam, Iconoclasm and the Declaration of Faith", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, Vol. 48 (1985) pp. 267-77.

المطروحة حول أسباب اللايقونية، بل محاولة القاء الضوء على ظاهرة تشويه الصور الآدمية والأشكال الحيوانية في العديد من الكنائس البيزنطية في الأردن من خلال كنيستين تحتفظان بتواريخ محددة هما: كنيسة القديس إسطفان في أم الرصاص، وكنيسة الأكروبول في ماعين. لكن قبل أن نتطرق إلى هاتين الكنيستين لا بد أن نلفت النظر إلى أن الدراسات الحديثة حول اللايقونية تميل إلى اعتبارها حركة نابغة في جوهرها من داخل بيزنطة نفسها، وأنه لا علاقة لها بأية تأثيرات خارجية سواء كانت إسلامية أو يهودية<sup>٦</sup>. وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد باحثين ما زالوا يصرون على وجود مثل هذه التأثيرات ويدعمون وجهة نظرهم بالمرسوم المنسوب إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ / ٧٢٠ م - ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م) الذي أمر فيه بتدمير جميع الصور الموجودة في ربوع إمبراطوريته، ثم يؤكدون بأن هذا المرسوم وثيقة تاريخية لا يرقى إليها الشك لأن زخارف الأرضيات الفسيفسائية المشوهة في كنيسة ماعين تؤيده وتثبت صحته<sup>٧</sup>.

وسنعود إلى كنيسة ماعين وزخارفها في الفقرات اللاحقة، ولكن هنا لا بد من مناقشة مدى صحة مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك. إن أول إشارة لهذا المرسوم نجدها في الكلمة المكتوبة التي قرأها الراهب «يوحنا المقدسي» أمام الحاضرين في مجمع نيقية الكنسي الذي عقد عام ٧٨٧ م وألقى السياسة المناهضة للصور المقدسة. وحسب هذه الرواية فإن ساحراً يهودياً من طبرية يكنى بالأربعين ذراعاً (Tessaeakontapechys) يحاول الاقتراب من الخليفة والاتصال به، وعندما ينجح في محاولته يتنبا للخليفة ويعدده بأنه سيعيش ثلاثين سنة حافلة بالانجازات والملاذات فيما إذا أصغى إلى نصيحته بإصدار مرسوم يقضي بتحطيم وإزالة جميع

Gero, "Leo III", pp. 59-84

S. Brock, "Iconoclasm and the Monophysites," *Iconoclasm*, ed. Bryer & Herrin, pp. 53-57;

P. Brown, "A Dark Age Crisis", pp. 252-53.

K.A. Creswell, "The Lawfulness of Painting in Early Islam," *Ars Islamica*, X-XI (1946) .V pp. 159-66.

E. Kitzinger, "The Cult of Images in the Age of Iconoclasm," *Dumbarton Oaks Papers*, Vol. 8 (1954), p. 134.

L. W. Bernard, "The Graeco-Roman and Oriental Background of the Iconoclastic Controversy, (Leiden, 1974) pp. 15-23.

C. Mango, "Historical Introduction," in *Iconoclasm*, ed. Bryer & Herrin, p. 6.

P. Crone. "Islam, Judeo-Christianity and Byzantine Iconoclasm", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*, Vol. 2 (1980), pp. 69-70.

M. Piccirillo, "The Umayyad Churches of Jordan," *Annual of the Dept. of Antiquities of Jordan*. Vol. XXVIII (1984) p. 341,

S.H. Griffith "Theodore Abu Qurrah's Arabic Tract on the Christian Practice of Venerating Images," *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 105 (1985) pp. 64-65.

الصور الموجودة في أرجاء دولته، سواء تلك المرسومة على الجدران واللوحات، أو المطرزة على ديابيج المذابح، أو المحفورة على الأواني التذكارية المقدسة. ولما كان الخليفة مغروراً بنفسه ومقبلاً على مباحج الدنيا ولذاتها فقد انصاع لنصيحة الساحر اليهودي، وأصدر المرسوم المطلوب. عندها اهتزت أفئدة المؤمنين من المسيحيين وبدأوا بالهرب والاختفاء خوفاً من أن يفرض عليهم ارتكاب خطيئة تحطيم الصور المقدسة. لذا عهد بتنفيذ هذه المهمة الى طائفة من اليهود والعرب المسلمين الذي يصفهم يوحنا المقدسي بالأرجاس والأندال، ثم يضيف بأن الخليفة توفي بعد سنتين ونصف من إصدار المرسوم وتنفيذ ما جاء به من أوامر مما أدى الى حنق ابنه «الوليد» الذي أمر بقتل الساحر اليهودي عقاباً له على نبوءته الكاذبة، ونال القصاص الذي يستحقه<sup>٨</sup> وهناك أكثر من سبب يجعلنا نشك في هذه الرواية وعدم تصديقها. فبالإضافة الى ما تحتويها من سذاجة واضحة فإن الرواية تسرد بأسلوب ينم عن الحقد والكراهية، وبطريقة تدل على عدم دراية كافية بتسلسل الأحداث التاريخية. فعندما توفي يزيد الثاني خلفه هشام بن عبد الملك، أما الوليد بن يزيد فقد كان عندئذ صغيراً لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره<sup>٩</sup>. كذلك فإن المصادر العربية المبكرة كمؤلفات خليفة بن خياط والبلاذري والطبري واليعقوبي والمسعودي تغفل أي ذكر أو إشارة إلى مرسوم يزيد بن عبد الملك. أما المصادر اليونانية والسريانية والأرمنية والعربية المسيحية التي تنطرق الى المرسوم<sup>١٠</sup> فانها تتسم بالخلط والاضطراب من ناحية، والأقتضاب والأختصار من ناحية أخرى. فمرة ينسب الساحر اليهودي الى طبرية وثانية الى اللاذقية، وبينما يزعم يوحنا المقدسي بأن الخليفة قام بتحطيم الصور فإن مؤرخين آخرين – كثيوفانس – يؤكدون بأن الخليفة مات قبل أن يتمكن من تنفيذ سياسته الواردة في المرسوم. وهناك فئة ثالثة من المؤرخين تجعل يزيد الثاني يأمر ليس فقط بتدمير الصور بل أيضاً بقتل كل الخنازير الموجودة في أرجاء دولته<sup>١١</sup>. أخيراً إذا كان مرسوم يزيد الثاني صحيحاً فعلاً فلماذا لم يدمر ويزيل مناظر الصيد والاستحمام التي تزين جدران قصير عمرة وخاصة أن هذا البناء الذي ينسب انشاؤه الى الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥)<sup>١٢</sup> والذي لايبعد عن الموقر – المكان الذي نشأ

٨. للترجمة الانجليزية لرواية يوحنا المقدسي راجع :

L. W. Bernard, "The Graeco-Roman and Oriental Background," pp. 15-17.

٩. حسين عطوان، الوليد بن يزيد: عرض ونقد، دار الجليل، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٢ – ١٤. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عطوان، الوليد.

١٠. A. Vasiliev, "The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A. D. 721," *Dumbarton Oaks Papers*, pp. 9-10 (1965) pp. 25-47.

١١. Gero, "Leo III", pp. 59-84.

حيث يحلل المؤلف كافة الروايات و يبين كيف انها تطورت مع الوقت وأدخلت عليها عناصر جديدة تبدو بعيدة عن الواقع. وبالرغم من ذلك فإن المؤلف يعتقد بصحة المرسوم المنسوب الى يزيد بن عبد الملك.

فيه يزيد بن عبد الملك وقضى فيه جل حياته - سوى ٦٠ كم؟

والسؤال المطروح الآن ما الذي يمكن لكنيسة القديس اسطفان في أم الرصاص وكنيسة الأكرولبول في ماعين أن تلقياه من أضواء على ظاهرة تشويه الصور الأدمية والكائنات الحية؟ في صيف عام ١٩٨٦ م تم الكشف في بلدة أم الرصاص الواقعة على مسافة ٣٠ كم الى الجنوب الشرقي من مادبا عن كنيستين متجاورتين هما: كنيسة الأسقف سرجيوس التي شيدت عام ٥٨٧ م وكنيسة القديس اسطفان التي وجدت فيها كتابات يونانية عديدة يهمنها منها اثنتان فقط: الأولى تتألف من خمسة أسطر وضعت داخل إطار مستطيل عند مقدمة العتبة التي تفصل هيكل الكنيسة عن الصحن (لوحة ١١ - ب)، وترجمتها كالتالي «في عهد الأسقف الكلي الطوبى سرجيوس انتهى العمل في رصف هذه الفسيفساء في كنيسة القديس العظيم، الشماس الأول وأول الشهداء إسطفان، بعناية يوحنا بن اسحاق القارئ المحبوب من الله، والشماس ورئيس ميفعة الوكيل، وبعناية كل سكان قلعة ميفعة الذين يحبون المسيح، وذلك في شهر تشرين الأول في الإشارة الثانية من سنة ٦٨٠ للولاية العربية (٧٨٦ م) لذكرى وراحة نفس فيدونوس بن عياص محب المسيح»<sup>١٢</sup> أما الكتابة الثانية (لوحة ٢ ج) فتتألف من تسعة أسطر وضعت في الكنيسة على جانبي المذبح وترجمتها كالتالي: «بنعمة المسيح رصفت فسيفساء هذا الهيكل المقدس في عهد أبينا الكلي التقوى الأسقف أيوب في شهر آذار في الإشارة التاسعة من سنة ٦٥٠ (٧٥٦ م)، أيها الرب تذكر خادمك ستوراخيوس بن زادة فنان الفسيفساء من حسابان ورفيقه أريميوس. يارب تذكر خادمك الياس بن صمويل القارئ، قسطنطين وجرمانوس وعبد الله مع ماري»<sup>١٤</sup>. وبالإضافة الى الكتابات اليونانية فان الزخارف الفسيفسائية في الكنيسة تحتوى على نماذج معمارية لأبنية يعلو معظمها سقف جملوني ومشيدة داخل أسوار حصينة يعلوها شرفات متدرجة، ويرافق هذه الأبنية نقوش يونانية تعرف المدن التي تمثلها. ومن هذه المدن ثمان تقع في فلسطين وتقع في الأردن بالإضافة الى عشر مدن تقع في مصر خاصة في دلتا النيل<sup>١٥</sup>. ويبدو أن هذه المدن تمثل

١٢. K. A. C. Creswell, Early Muslim Architecture, (New York, 1979) Vol. 1, pt. II, p. 400-401.

١٣. M. Piccirillo & T. Attiyat, "The Complex of Saint Stephen at Umm er-Rasas Kastron Mafaa" Annual of the Dept. of Antiquities of Jordan, Vol. XXX (1986) p. 347.

تيسير عطيات، حفريات أم الرصاص - ميفعة، حولية دائرة الآثار العامة، ١٩٨٦م، المجلد ٣٠، ص ٢٥.

M. Piccirillo, "Le iscrizioni di Um er-Rasas- Kastron Mefaa in Giordania," Liber Annuus, 37 (1987) pp. 183-86. Henceforth cited as "Iscrizioni".

لصور ملونة في غاية الوضوح لهذه الكتابة والزخارف الأخرى راجع:

M. Piccirillo, "The Mosaics at Umm er-Rasas in Jordan," "Biblical Archaeologist", Vol. 51, no. 4 (1988) pp. 212-13.

M. Piccirillo & Attiyat, "The Complex of Saint Stephen", p. 347; Piccirillo, "Iscrizioni," pp. 180-82.

عطيات، حفريات، ص ٢٦.

M. Piccirillo, "Iscrizioni," pp. 195-203; Figs, 1-4. ١٥



المراكز الأسقفية الهامة التي كانت تقع على طرق التجارة الرئيسية.

وقد اعتبر اكتشاف هذه الكنيسة انجازاً على جانب كبير من الأهمية لأكثر من سبب، فهو من ناحية يعرفنا على الاسم الاصلي لموقع أم الرصاص وهو ميفعة أو حصن ميفعة<sup>١٦</sup>، ومن ناحية ثانية فإنه يبين أن أعداداً لا يستهان بها من سكان المنطقة بقيت محافظة على نصرانيتها، فقد كلفت شروط الصلح التي عقدها العرب المسلمون لأولئك الذين تمسكوا بدينهم المحافظة على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وأديرتهم مقابل أن يؤدوا ما عليهم من واجبات ومنها دفع الجزية، كما ترك تصريف وإدارة الشؤون للمدن والقرى المفتوحة للزعماء المحليين الذين كانوا في الغالب من فئة رجال الدين كالبطارقة والأساقفة<sup>١٧</sup>. ومما يؤكد هذه السياسة المرنة والسماحة هو بناء العديد من الكنائس في العصر الأموي<sup>١٨</sup>. وإذا عدنا الى كنيسة القديس إسطفان وتفحصنا زخارفها الفسيفسائية وكتاباتها اليونانية فإنه سيكون بالإمكان إبداء بعض الملاحظات التي تتعلق بزمن بنائها وتاريخ تشويه الصور الأدمية والكائنات الحية فيها :-

١. هناك فرق واضح في الأسلوب الزخرفي الذي اتبع في تزيين كل من أرضية صحن الكنيسة وحنيتها أو هيكلها. ففي صحن الكنيسة نلاحظ أن سيقان الكرمة تنبثق من ورقتين من أوراق الاكنشس وضعتا عند الطرف الأوسط الغربي من الأرضية، ثم تمتد وتلتوي لتشكل دوائر ملئت بمناظر مختلفة مستقاة من الحياة الريفية كالزراعة والصيد وقطف العنب، ونقله الى المعصرة (لوحة «١٢»)، إن هذا العنصر الزخرفي كان شائعاً في أرضيات الكنائس التي تعود في تاريخها الى القرن السادس، والأمثلة عليها كثيرة<sup>١٩</sup>. أما في حنية الكنيسة فإن الزخارف تقتصر على الأشكال الهندسية وما يعرف بزخرفة قوس القزح التي تعتمد في تأثيرها الجمالي على التدرج في الألوان، وتوزيع الظلال، بالإضافة الى أشربة تتعرج وتتداخل لتشكل إطارات معينة الشكل متصلة ببعضها البعض، وتحصر كل واحدة منها دائرة صغيرة (لوحة ٢ ب - ج). وهذه الزخارف تشبه الى حد كبير تلك التي نشاهدها في

١٦. لنكر ميفعة وسكانها في المصادر العربية راجع :

غازي بيشة، ملاحظات حول كنيسة القديس اسطفان في ام الرصاص (ميفعة)، حولية دائرة الآثار العامة، ٣١ (١٩٨٧م)، ص، ١١ - ١٦.

١٧. وداد القاضي، «مدخل الى دراسة عهود الصلح الاسلامية زمن الفتوح»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثانية، (بلاد الشام في صدر الاسلام، ٢٤ - ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ / ١٦ - ٢٢ آذار ١٩٨٥م) تحرير محمد عدنان البخيت واحسان عباس، المجلد الثاني، عمان، ١٩٨٧م، ص ٢١٦ - ٢٢٠، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : القاضي، مدخل.

١٨. M Piccirillo, "The Umayyad Churches in Jordan," Annual of the Dept. of Antiquities of Jordan, 28 (1984) pp. 333-41.

١٩. M. Piccirillo, Chiese Mosaici di Madaba, Franciscan Printing Press (Jerusalem, 1989), coloured plates between pp. 96-97; 109; 113-114; 183-84; 194-95; 221.

الأرضيات الفسيفسائية في خربة المفجر التي شيّدت في خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣م)<sup>٢٠</sup>.

٢. ان نظرة فاحصة على الكتابة اليونانية المؤرخة لعام ٧٨٦م تبين أن الأحرف التي تعطي التاريخ قد تعرضت الى الترميم وربما الى التحريف والتبديل (لوحة ١ ب) ومما يدعم وجهة النظر هذه هو أن الإشارة الثانية من سنة ٦٨٠م للولاية العربية (٧٨٦م) لا تتطابق مع التاريخ المبين، فالإشارة المناسبة لهذا التاريخ هي التاسعة وليست الثانية كما ورد في النقش<sup>٢١</sup>.

٣. يرد في هذا النقش نفسه اسم الأسقف سرجيوس الذي كان في عام ٥٨٥م مسؤولاً عن بناء الكنيسة المجاورة لكنيسة القديس أسطفان من جهة الشمال والتي نسبت إليه. ونحن نعلم من شواهد كتابية أخرى بأن هذا الأسقف كان وراء تشييد العديد من الأبنية الدينية في منطقة مادبا خلال الربع الأخير من القرن السادس كالمعمدانية التابعة لكاتدرائية مادبا، وكنيسة الرسل، وصومعة القديس الياس في مادبا، ثم الكنيسة ذات النظام البازيليكي في جبل نبو<sup>٢٢</sup>. لذا فإنه يغلب على الاحتمال أن يكون الأسقف سرجيوس المذكور في هذا النقش هو نفسه الذي قام بتشيد مجموعة الأبنية الدينية في منطقة مادبا والكنيسة المنسوبة اليه في أم الرصاص. نخلص من كل هذا الى القول بأن كنيسة القديس إسطفان كانت قد شيّدت خلال الربع الأخير من القرن السادس، وربما تكون معاصرة لكنيسة الأسقف سرجيوس المجاورة.

ولكن ماذا عن النقش الثاني الذي يقع في حنية الكنيسة والمؤرخ لعام ٧٥٦م؟ من الواضح أن هذا التاريخ يشير الى ترميم— أو بعبارة أدق الى إعادة رصف الأرضية الفسيفسائية في حنية الكنيسة، حيث أن الزخارف هنا— كما ذكرنا سابقاً— تشبه الزخارف الهندسية في فسيفساء خربة المفجر. ومما تجدر الإشارة اليه أن هذه البقعة من الكنيسة كانت دوماً المكان المفضل لوضع صورة شجرة الحياة التي تحيط بها عادة حيوانات أو طيور مختلفة رمزا للسلام والوثام الذي سيعم العالم عند رجعة السيد المسيح، ولكن عندما شوهدت الصور الأدمية والأشكال الحيوانية في صحن الكنيسة (لوحة ١ أ) تم وضع أرضية فسيفسائية جديدة في الحنية فوق الأرضية الأصلية<sup>٢٣</sup>، اقتصرت الزخارف فيها على الأشكال الهندسية البحتة،

٢٠. R. W. Hamilton, *Khirbet al-Mafjar: An Arabian Mansion in the Jordan Valley*, (Oxford, 1959) Pl. LXXXVI a; LXXXIX; LXXXIV; LXXXVI.

٢١. Piccirillo & Attiyat, "The Complex of Saint Stephen", p. 347; Footnote 24.

٢٢. *Ibid*, p. 344; Footnote 17.

٢٣. يمكن مشاهدة جزء صغير من الأرضية الفسيفسائية الأصلية تحت الأرضية الحالية ولكن لا يمكن التأكد من طبيعة زخارفها الا بازالة الطبقة الحالية.

وإذا رجعنا الى صحن الكنيسة ودققنا النظر في الأشكال المشوهة (لوحة ١١) فاننا نلاحظ أن التشويه قد نفذ بعناية بالغة حيث خلعت مكعبات الفسيفساء الصغيرة بحرص ثم أعيد استعمالها لتغيير ملامح الأجزاء التي تم تشويهها<sup>٢٤</sup>. وبعبارة أخرى فان التشويه الذي لحق بالكائنات الحية لم يكن عشوائياً، وبالتالي يبدو لي أنه لا يصح هنا استعمال كلمة «تدمير» أو «تحطيم» لوصف ما طرأ على أشكال الكائنات الحية من تغييرات. يترتب على هذا الذي قلناه أن الذين قاموا بالتشويه ومن ثم الترميم هم نفسها الجماعات المسيحية التي كانت تستخدم الكنائس لأداء الشعائر الدينية، وبالتالي لم يكن للمسلمين أو السلطة الاسلامية أية علاقة في ما لحق بزخارف الكنيسة من تغيير أو تعديل. كذلك أعتقد أنه لن نجاب الصواب إذا قلنا بأن التشويه والترميم كانتا عمليتين متلازمتين تبعت إحداهما الأخرى دون انقضاء فترة زمنية طويلة بينهما، إذ من المعروف أنه إذا خرب جزء أو أجزاء من أرضية فسيفسائية ثم تركت دون صيانة لفترة طويلة فإنه سرعان ما تنتسح الأجزاء المخربة وتؤدي الى اختفاء الكثير من المعالم الأصلية. نستخلص مما سبق، أن التشويه لحق بصور الكائنات الحية عام ٧٥٦م أي في السنة نفسها التي أعيد فيها رصف أرضية حنية الكنيسة.

وإذا انتقلنا الى كنيسة الأكروبول في ماعين فاننا نلاحظ هنا أيضاً ظاهرة تشويه صور الكائنات الحية وترميمها بعناية لتغيير ملامحها الأصلية بطريقة فنية قد تبدو سانحة. ففي إحدى اللوحات الفسيفسائية نشاهد رسماً لشجرة باسقة غليظة الجذع والى يسارها يمكننا تمييز الساقين الخلفيتين لحيوان ذي حوافر وذيل طويل ربما يكون ثوراً (اللوحة ٣). أما الجزء الخلفي من جسم الحيوان فقد تحول الى شجرة صغيرة تتوزع فروعها إلى الجانبين بشكل متماثل. ويشير نقش يوناني من خمسة أسطر وضع عند مقدمة الصحن الى أن الكنيسة كانت قد شيدت في الإشارة الثالثة من عام ٦١٤ للولاية العربية (٧١٩ - ٧٢٠م). واعتقد الأب ديفو الذي درس هذه الكنيسة بأن هذا التاريخ إنما يشير الى ترميم الكنيسة وليس الى بنائها<sup>٢٥</sup>. أما الراهبان سالرو وباجاتي فقد عارضا هذا الرأي وأصرا على أن التاريخ المذكور إنما يشير الى سنة بناء الكنيسة<sup>٢٦</sup>. وفي صيف عامي ١٩٨١، ١٩٨٢م، أعيد الكشف ثانية عن الكنيسة ودرست مرة أخرى من قبل الأب بتشريللو الذي أكد بدوره على أن التاريخ المذكور في النقش إنما يشير الى سنة بناء الكنيسة<sup>٢٦</sup>. مما يعني أن أعمال الترميم التي

R. Schick, "The Fate of the Christians", pp. 328 - 36. ٢٤

R. De Vaux, "Une Mosaique Byzantine à Ma'in in (Transjordanie)," Revue Biblique, 47 (1938) pp. 227-58. ٢٥

S. Saller & B. Bagatti, The Town of Nebo; (Jerusalem, 1944) p. 134; Footnote 1, p. 257. ٢٦

M. Piccirillo, "Le Antichità Bizantine di Ma'in e Dintorni," Liber Annus, XXXV (1985) pp. 244-48. ٢٧

Idem, Chiese E Mosaici Di Madaba, pp. 232-34.

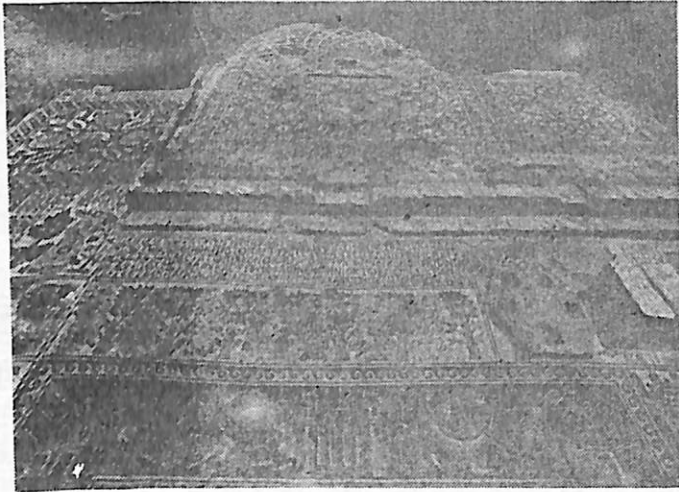
نشاهدها قد جرت في فترة لاحقة لهذا التاريخ، وربما في السنة نفسها التي رمت فيها كنيسة القديس إسطفان في أم الرصاص - أي في عام ٧٥٦ م. كذلك فإنه ليس مستبعداً أن تكون أعمال التشويه والترميم التي لحقت بالكنائس الأخرى في الأردن وفلسطين قد حدثت بعد فترة قصيرة من سقوط الخلافة الأموية وانتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد. وإذا كان هذا مقبولاً فإنه يعني أن ما حدث لهذه الكنائس كان متزامناً مع وصول حركة اللايقونية في بيزنطة إلى أوج عنفوانها إثر انعقاد المجمع الكنسي في قصر هيريا (Hieria) سنة ٧٥٤ م. لكن هنا يجب لفت النظر إلى أن موقف المسيحيين في سوريا تجاه الصور لم يكن واحداً، فكما وجد المؤيدون لتبجيل الأيقونات وتقديسها مثل يوحنا الدمشقي والبطريك ثيودورس المقدسي (٧٥٤-٧٦٧ م) وثيودور أبو قره، كذلك وجد المعارضون لهما كما يستدل من كتابات هؤلاء ورسائلهم<sup>٢٨</sup>. فثيودور أبو قره مثلاً ألف رسالته في الدفاع عن الصور استجابة لرجاء صديق له يدعى «أبا بينا» الذي أخبره بأن «كثيراً من النصارى يتركون السجود لصورة المسيح»<sup>٢٩</sup>، فكأنه بذلك يريد إعادة الثقة إلى النفوس التي أصابها القلق بفعل الانتقادات المتكررة التي كان يوجهها المسلمون واليهود إلى المسيحيين الذين يظهرون التبجيل للصور المقدسة.

خلاصة القول هو أنه كما كانت اللايقونية حركة نابغة في جوهرها من داخل بيزنطة نفسها، كذلك فإن ظاهرة تشويه الصور في كنائس الأردن وفلسطين كانت ظاهرة مسيحية بحتة، ولم يكن للسلطة الإسلامية علاقة مباشرة بها. كذلك فإن الأهمية الحقيقية للأرضية الفسيفسائية في كنيسة القديس إسطفان بأم الرصاص تكمن لا في تاريخ رصفها ولكن في كونها تزودنا بالسنة التي تم فيها تشويه صور الأشكال الأدمية وترميمها.

٢٨. Gero, "Constantine V," p. 29; Footnote 26; p. 120; Footnote 2; D. Anderson (Translation), St. John of Damascus on the Divine Images, (Crestwood, New York, 1980).  
S.H Griffith, "Theodore Abu Qurrah's Arabic Tract on the Christian Practice of Venerating Images," Journal of the American Oriental Society, Vol. 105 (1985) pp. 53-73. Henceforth cited as Griffith, "Theodore Abu Qurrah's Arabic Tract".

Griffith, "Theodor Abu Qurrah's Arabic Tract," p. 58.

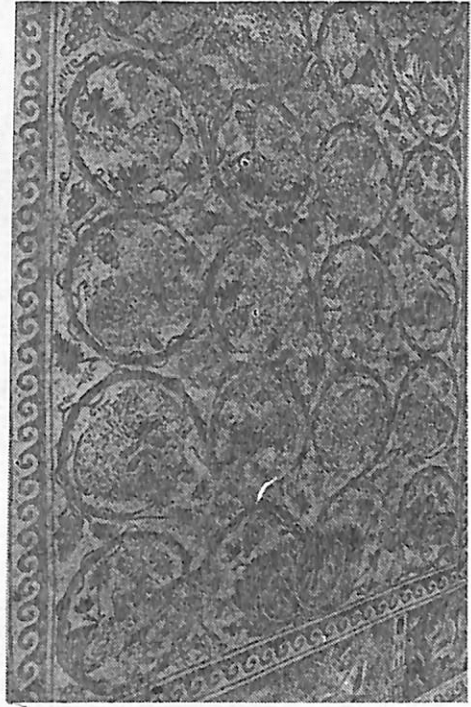
لوحة رقم ١



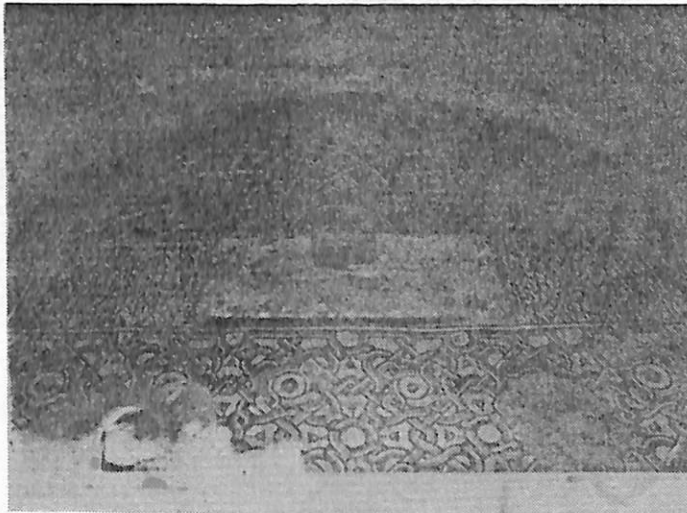
لوحة رقم ٢



ب -



پ -



ج -

لوحة رقم ٣



## هرقلة هارون الرشيد في الرقة أو بغداد المنصور المصغرة

قاسم طوير \*

ثمة اطلال شاخصه على بعد عدة كيلومترات الى الغرب من مدينة الرقة، وكلاهما واقعتان في جانب الجزيرة من نهر الفرات . وتعرف تلك الأطلال باسم هرقلة .

وأول من اكتشف آثار هرقلة وكتب عنها في عصرنا هو الرحالة الألماني زاخو الذي زارها عام ١٨٥٥ م<sup>١</sup>. لكن أول دراسة أثرية لأطلالها تمت على يدي الألمانيين ساره وهرتزفيلد اللذين مسحاً آثار الفرات ودجلة عام ١٩٠٧ م<sup>٢</sup>.

وصف هرتزفيلد وصفا شاملا، ووضع أول مخطط طبوغرافي لها، واكتشف نسبتها الى الخليفة العباسي هارون الرشيد، وذلك بالاستناد الى المؤرخين والبلدانيين العرب أمثال الطبري والمسعودي وياقوت .

وقد تبين لهرتزفيلد أن البنيان الشاخص للعيان يتوسط سوراً مستديراً كامل الاستدارة، ويتقدم هذا السور في جهاته الرئيسية أربع بوابات ضخمة، لكن السور والبوابات غائبة تحت التراب ولا يبدو منها شيء للعيان، بل تبدو منها التربة التي تتميز بلونها الأبيض عن لون التربة الزراعية السمراء (انظر الصورة الجوية في الشكل رقم ١).

ويتألف البنيان الشاخص للعيان في وسط ذلك المستدير من جسم معماري مربع الشكل تقريبا، وثمة برج مربع في كل زاوية من زواياه الأربع . ويخترق منتصف كل ضلع من أضلاعه الأربعة إيوان معزز عند مدخله ببرجين جانبيين، وينفتح الإيوان نحو الخارج، ويقع كما إيوان قبالة كل بوابة من بوابات اسور الأربع . أما الفراغ المحصور داخل الجدران الأربعة لهذا البنيان فانه مكون من فراغات مختلفة الأشكال ومتنوعة الأبعاد، وتظهر على بعض منها عقود من الأجر، وجميعها خالية من أية نافذة وأي باب . كما أنها ممتلئة بالتراب المتزجة بالحصى النهري من أسفلها الى أعلاها.

والبنيان المربع بأكمله مشيد من الحجارة الجصية (Gypsum Stone) عدا العقود فهي مشيدة من الأجر . ويخترق سور هرقلة في جزئها الجنوبي آثار قناة قادمة من الغرب وممتجهة نحو الرقة .

\* مديرية الآثار العامة، دمشق، الجمهورية العربية السورية.

١. E. Sachau, Reise durch Syrien und Mesopotamien, Leipzig 1883, pp. 244 - 245.

Sachau Reise Durch. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :

٢. Sarre, Herzfeld, Archäologische Reise im Euphrat und Tigrisgebiet, Berlin, 1911, Band 1, pp. 161 - 163.

Sarre, Archäologische. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :



هكذا وجد هرتزفيك آثار هرقلة في مطلع هذا القرن، لكن دعونا نتعرف على هرقلة على لسان ياقوت الحموي<sup>٢</sup> (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، فقد قال فيها مايلي:

«هرقلة بالكسر ثم الفتح مدينة ببلاد الروم سميت هرقلة بنت الروم بن اليفزين سام بن نوح. وكان الرشيد غزاها بنفسه ثم فتحها عنوة بعد حصار حرب شديد، ورمى بالنار والنفط حتى غلب أهلها، فلذلك قال المكي الشاعر:-

هوت هرقلة لما أن رأت عجباً      جو السما ترتمي بالنفط والنار  
كأن نيراننا في جنب قلعتهم      مصبغات على أرسان قصار

ثم قدم الرقة في شهر رمضان، فلما عيد جلس الشعراء فدخلوا عليه وفيهم أشجع السلمي، فبدر فأنشد:-

لا زلت تنشر أعياداً وتطويها      لا تمضي بها لك أيام وتثنيها  
ولا تقضت لك الدنيا ولا برحت      يطوى لك الدهر أياماً وتطويها  
وليهنك الفتح والأيام مقبلة      إليك والنصر معقود نواصيها  
أمست هرقلة تهوي من جوانبها      وناصر الله والاسلام يرميها  
ملكتهما وقتلت الناكثين بها      بنصر من يملك الدنيا وما فيها  
ما روعي الدين والدنيا على قدم      بمثل هارون راعيه وراعيتها

فأمر له بعشرة آلاف دينار وقال لا ينشد لي أحد بعده بشيء، فقال أشجع: والله لأمره ألا ينشده أحد من بعدي أحب إلي من صلته. وكان في السبي الذي أسبى من هرقلة ابنة بطريقها، وكانت ذات حسن وجمال، فنودي عليها في المغانم، فزاد عليها صاحب الرشيد فصاغت منه محلاً عظيماً، فنقلها معه إلى الرقة، وبني لها حصناً بين الراققة والسفن على الفرات، وسماه هرقلة، يحكي بذلك هرقلة التي ببلاد الروم. وبقي الحصن عامراً مدة حتى خرب، وأثاره إلى وقتنا هذا باقية موفية آثار عماره وأبنية عجيبة، وهو قرب صفين من الجانب الغربي».

أما الطبري<sup>٤</sup>، الذي (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، فإنه يخوض في تفاصيل أكثر فيقول: «وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال ١٩٠هـ وأخربها، وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام.. وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية.... وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقتة في جارية من سبى هرقلة كتاباً نسخته: لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم، سلام عليك، أما بعد أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك

٣. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، كتاب معجم البلدان، ٦ ج، منشورات مكتبة الاسدي، طهران، ١٩٦٥م، ج ٤، ص ٩٦١-٩٦٢، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت: معجم.

٤. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ١١ ج ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، ج ١٠، ص ١٩٠-١٩١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري: تاريخ.

في دينك ولا دنياك، هيئة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على ابني. فان رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. واستهداه أيضا طيبيا وسرداقا من سرداقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية، فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلا فيه، وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الأنية والمتاع الى رسول نقفور، وبعث اليه بما سال من العطر، وبعث إليه من التمور والاختصة والزبيب والترياق، فسلم ذلك كله اليه رسول الرشيد.....».

و ينسب هرتزفيلد آثار القناة التي تخترق سور هرقله في جزئها الجنوبي الى الخليفة هارون الرشيد، وكانت تعرف باسم نهل النيل، وذلك استنادا الى ياقوت الحموي الذي يقول فيها مايلي:

«والنيل أيضا نهر من أنهار الرقة حفره الرشيد على ضفة نيل الرقة، والبليخ نهر دير زكي ولذلك قال الصنوبري:»

كان عناق نهري دير زكى اذا اعتنقا عناق متيمين  
وقت ذاك البليخ يد الليالي وذاك النيل من متجاورين»  
نفهم من أقوال ياقوت والطبري أن الرشيد شيد حصناً على الفرات بين الرافقة (الرقة) وبالس (مسكنة القديمة) في أعقاب نصره على ملك الروم نقفور في موقع هرقله ببلاد الروم، وسمى الحصن «هرقله» محاكاة لهرقله الرومية.

ودعونا الآن نستعرض نتائج التنقيبات الأثرية، للتعرف على مدى صحة أقوال ياقوت والطبري.

يقوم المؤلف بإدارة تنقيبات منهجية في موقع هرقله باسم المديرية العامة للآثار والمتاحف منذ ١٩٧٦ حتى الآن، ولقد تبين مايلي:

يبلغ قطر السور مقدار ١٥٠ م وتصل سماكته الى ٢٠ م، وهو مشيد من قطع حجرية صقيلة وكبيرة الحجم، إذ يتراوح طول كل منها بين ٩٠ و١٢٠ سم، و يبلغ ارتفاعها ٦٠ - ٧٠ سم، واعتمدت طريقة البناء على مبدأ تشييد الوجهين من حجارة صقيلة وملء الفراغ بينهما بحشوة من الحجارة الصغيرة والجص الممتزج بالحصى النهري الصغيرة، وهذه الطريقة في البناء معروفة في سورية في الألف الأول قبل الميلاد (معبد عين دارة قرب حلب) وليست ابتكارا يونانيا أوروبانيا كما هو شائع (انظر الشكل ٢).

و يقوم السور فوق أساس يبلغ عرضه ١٠ر٢ م، و يغوص في باطن التربة أكثر من متر ونصف المتر، وهو مشيد من حجارة جصية صغيرة (١٥ - ٢٠ سم) والجص الممتزج بالحصى النهري الصغير الحجم، و يعزز السور من الخارج برج مربع كل مسافة ١٨ م.

٥. ياقوت، معجم البلدان، ٥ ج، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٥، ص ٢٢٤ (مادة النيل).  
\* انظر: الصنوبري، احمد بن محمد بن الحسن العيني (٢٣٢٤هـ/٩٤٥م)، ديوان الصنوبري، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤٩٤.

و يتقدم السور في جهة من جهاته الرئيسية الأربع بوابة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ٢٠ م، وهي مشيدة على شاكلة السور. يخترق منتصف كل بوابة ممر (مدخل ومخرج) يتجوف في الوسط على هيئة غرفة. وتأخذ تلك الغرفة الكبيرة شكلا هندسيا متنوعا، فهي مستديرة في البوابة الشمالية، ومربعة في البوابة الجنوبية، ومسدسة في البوابة الغربية، ومثمنة في البوابة الشرقية (انظر الشكل ٣-٦).

و يتمتع الجانب الأيمن من مدخل البوابة الغربية بنحتين نافرين لشكل نجمة مثمنة وأخرى مسدسة (انظر الشكل ٧). أما البوابة الجنوبية فيتمتع الضلع الأيمن لغرفتها المربعة في الداخل بنقش كتابي محفور حفرا غائرا يحتوي على الكلمات التالية (ما عمل هذا هذيل)، والحجارة التي تحمل هذه الكلمات مقلوبة رأسا على عقب، مما يدل على أن الذي نقشها هو أحد البنائين غير أن المعمار لم يأخذها بعين الاعتبار.

وتؤكد هذه الكلمات على الهوية العربية الاسلامية لحصن هرقلة، وعلى أن العمال والنحاتين كانوا من العرب المسلمين وليس من الأسرى الروم الذين جلبهم هارون الرشيد معه من بلاد الروم في أعقاب انتصاره عليهم في مدينة هرقلة وهم كثيرون. (انظر: الشكل ٨).

ويقع البنيان المربع في وسط السور المستدير تقريبا، وهو قريب من المربع، فالضلع الشمالي يبلغ طوله مع أبراج الزاوية ١٠٣ م. أما الضلع الشرقي فطوله ١٠٢ م. و يبلغ طول الضلع الجنوبي ١٠٠ م و يصل طول الضلع الغربي الى ١٠٦ م.

و يصل ارتفاع هذا البنيان الى عشرة أمتار تقريبا، وهو مشيد من الحجارة الجصية المتوسطة الحجم وغير المنحوتة (٢٠ - ٣٠ سم) والجص الممتزج بالحصى النهري، أما الخارجية لجدرانه فانها مكسوة بالوواح الحجارة الكلسية الضاربة للصفرة، وهي بطول ١٢٠ سم وارتفاع ٥٠ سم. وقد رصفت رصفا متناوبا حيث تمتد الواحدة منها طولا وتدخل التالية عرضا في قلب الجدار.

و يخترق جسم هذا البنيان في منتصف كل ضلع من أضلاعه الأربعة إيوان يبلغ طوله ١٨ر٦٢ و يصل عرضه الى ستة أمتار، و ينتهي على هيئة حنية نصف مستديرة في المؤخرة وهو مغطى بقبة حجرية نصف دائرية.

و يتقدم كل إيوان من الايوانات الأربعة برجان مستطيلان (٨ر٢٠، ٧ر٤٠م) ويحصران بينهما ممرا يصل طوله الى ٩ر٤٠م و يبلغ عرضه ٢ر٢٠م في المقدمة ٢ر٨٠ في المؤخرة. و يفتح في يمين كل إيوان وخلف البرج الأنف الذكر مدخل يفضي الى عتبة (٢ر٢٠، ٢ر٢٠م) يليها درج عرضه ٢ر١٠م يصعد بمحاذاة الضلع الخارجي، و ينتهي عند برج الزاوية (انظر: الشكل ٩). يتألف الدرج من ٢٨ درجة (٢ر٢٠، ١ر٢٠، ٣٠م). تستند الى ١٥ درجة الأولى على بنيان مائل من الحجارة والملاط الجصي، أما البقية فتستند الى ست قناطر متساوية الفراغات (٢٢م)، لكنها متباينة الارتفاع وذلك وفقا لدرجة الميل.

إن أقواس القناطر مشيدة من الأجر المشوي (٢٦، ٢٦، ٦ سم) والملاط الجصي الأبيض (٥١ سم)، وهي نصف مستديرة في شكلها. يفتح في يسار كل إيوان، أي قبالة مدخل الدرج الآنف الذكر مدخل (٢٥ م) يفضي إلى دهليز طويل (٢٥، ٢٥، ١٠٧٠ م)، ويفتح في مؤخرة جداره الأيسر باب (١٠ م) يؤدي إلى غرفة مستطيلة صغيرة الحجم (٢٧٢، ٢٧٢ م) أما بقية المسافة المحصورة بين الدهليز وبرج الزاوية فترتفع عليها ثمان قناطر (٢٢ م) مماثلة لقناطر الدرج في الجهة المقابلة، لكنها متساوية في الارتفاع. (انظر: الشكل ١٠).

إن أبراج الزوايا صماء أي غير مفرغة، وتبلغ أبعاد كل منها (١١٤٠ × ١١٤٠ م). أما المساحة المحصورة بين الجدران الأربعة أي خلف الأيوانات والدرج فليست صماء بل تنتظم في داخلها فراغات موزعة وفق مخطط منتظم (انظر: الشكل ٩)، وهي على هيئة غرف وقاعات وممرات مختلفة الأشكال والأبعاد، ومشيدة من حجارة مشدبة متوسطة الحجم (٢٠ - ٤٠ سم)، ومغطاة بقبو من الأجر المشوي (انظر: الشكل ١١). غير أن جميع تلك الفراغات مملوءة بالأتربة المختلطة بالحصى النهري حتى القمة، كما أنها خالية من أي باب أو نافذة.

ويذكر العالم الألماني هرتزفيلد<sup>٦</sup> أن حصن هرقل لم يكتمل بناؤه، ويعلل ذلك بأن الخليفة هارون الرشيد بدأ في بناء الحصن في أعقاب انتصاره في معركة هرقل ببلاد الروم سنة ١٩٠ هـ/٨٠٦ م، وغادر الرقة سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م لخماد ثورة في بلاد فارس ثم توفي هناك سنة ١٩٣ هـ/٨٠٩ م، أي أن العمل في الحصن لم يدم أكثر من سنتين. ويبدو أن من جاء بعد هارون لم يكثرث باتمام البناء.

ويذكر ياقوت<sup>٧</sup> مايلي: «وبقي الحصن عامرا مدة حتى خرب، وأثاره إلى وقتنا هذا باقية، وفيه آثار عمارة وأبنية عجيبة.....».

ولقد أكدت نتائج التنقيب في هذا الحصن على صحة ملاحظة العالم الألماني هرتزفيلد، وعلى دقة ملاحظة ياقوت، فالفراغات الداخلية المحكمة الإغلاق من جميع جوانبها، وامتلائها بالأتربة المختلطة بالحصى النهري، لا تؤدي أية وظيفة نفعية، أي لا يمكن السكن في داخلها، فالغرف والقاعات والممرات المراد سكنها لم يتم بناؤها قطعا، فالعمل توقف عند هذه المرحلة، غير أن هذا النوع من البناء يجعلنا أمام (عمارة وأبنية عجيبة) على حد قول ياقوت.

يعتمد توزيع الفراغات الداخلية على مخطط منتظم، فالمرکز يتألف من غرفة متوسطة (١١، ٥١١ م) يلتصق بأضلاعها الأربعة (جدران فاصلة بسماكة ١٥ م) أربعة فراغات مستطيلة (١٢، ٥ م) واقفة على محاور الأيوانات الأربعة، ويحيط بهذه المنظومة أربعة

٦. Sarre, Op. Cit., pp. 161-163.

٧. ياقوت، معجم، ج٤، ص ٩٦١ - ٩٦٢.

فراغات على هيئة حرف (L) تتوزع في الزوايا الأربع. أما المساحات الباقية فتتوزع فيها فراغات متباينة الأشكال والأبعاد، لكن ثمة تناظر ملحوظ بين كل مجموعتين من المجموعات الأربع. (انظر: الشكل ٩).

إذن نحن أمام أساسات لبنيان كان الخليفة هارون يريد إقامته عليها، لكن لماذا لم يحاول هارون الرشيد وضع أساسات البنيان في باطن الأرض السهلية، كما هي العادة؟

تتصف الأرض التي يجثم فوقها حصن هرقلة بأنها أرض لحقية (سهل وادي الفرات)، وهي رخوة التركيب، كما أن سطح المياه الجوفية قريب من وجه الأرض بسبب قرب نهر الفرات منها، فضلا عن مرور قناة نهر النيل بها. إذن هي لا تحتل قيام كتلة معمارية يتجاوز طول ضلعها المئة متر (عشرة آلاف متر مربع) و يصل ارتفاعها الى عشرة أمتار (مئة الف متر مكعب)، ومشيدة من الحجارة الثقيلة، وتتراوح سماكة جدرانها بين المترين والمتر ونصف المتر.

في ضوء هذه الحقيقة كان لا بد من إقامة أرض صناعية فوق الأرض الطبيعية. ولعل الهدف الثاني يكمن في رغبة الخليفة هارون في تشييد حصن شامخ في الارتفاع، يراه القاصي والداني، ويسرح المقيم فيه نظره الى مسافات بعيدة حيثما اتجه. أن من يقف الآن فوق سطح الحصن يردى مدينة الرقة و يرى بادية الشام و بادية الجزيرة و سهل الفرات من مغربه الى مشرقه من دون أن يحجب نظره حاجب.

اذن نحن أمام مصطبة أو قاعدة ذات غاية نفعية مزدوجة؛ فهي تخدم في رفع البنيان عن مستوى الأرض الطبيعية، وتخدم فراغاتها الداخلية أساسا مخططا للبنيان المراد انشاؤه فوق المصطبة نفسها. و ثمة غاية نفعية ثالثة وهي المحافظة على الجدران الخارجية لتلك الكتابة المعمارية الضخمة من التصدع، فلو كانت تلك المصطبة الاصطناعية خالية من التقسيمات الداخلية لكن ضغط الأتربة المختلطة بالحصص النهري في داخلها هائلا على الجدران الخارجية، وعمل على تصدعها وانهارها مع مرور الزمن، لكن وجود الفراغات الداخلية خفف الكثير من ضغط الأتربة المذكورة، فالضغط يتوزع على الجدران الداخلية توزيعا منتظما ولا يصل الى الجدران الخارجية الا متلاشيا.

نذكرنا أن الكسوة الحجرية الصقيلة تقتصر على وجوه الجدران الخارجية والايونات الأربعة والدرج والدھليز والحجرة الصغيرة المتصلة به، وهذا يعني أن القائم الى الحصن من أية جهة من جهاته الأربع يجري استقباله في الايوان في قلب المصطبة ثم يقاد عبر الدرج الى السطح العلوي، حيث ينتصب القصر الذي أراد هارون إنشاؤه فوق المصطبة ولم يتم بناؤه. أما الدھليز والحجرة الصغيرة فلا بد أنهما كانا يخصصان لرجال الحرس في كل إيوان.

## قناة نهر النيل

ذكرنا أن قناة النيل التي حفرها الخليفة هارون الرشيد تقطع الجزء الجنوبي من السور المستدير لحصن هرقل من الغرب ومن الشرق، وهي قناة ترابية يبلغ عمقها قرابة ثلاثة أمتار، ويصل عرضها إلى قرابة عشرة أمتار، ويحدها كتفان ترابيان من الجانبين.

وقد بينت نتائج التنقيب في نقطة التقاء السور المستدير مع الكتف الشمالي للقناة في القطاع الجنوبي الشرقي (انظر: الصورة الجوية في الشكل ١) أن السور يتوقف عند هذه النقطة (أي لا يخرق القناة)، وينتهي عندها على هيئة جسر مؤلف من قنطرتين نصف دائريتين (يبلغ قطر كل قنطرة أربعة أمتار)، وهي نصف دائرية (يبلغ وترها ٢م)، ويفصل بين القنطرتين دعامة يبلغ عرضها المترين، وبذلك يتجاوز طولها العشرة أمتار. وينتهي الجسر عند حافة القناة بقاعدة مضلعة غربية الشكل (انظر: الشكل ١٢-١٢).

وكما في بنيان السور فإن القناطر مشيدة من قطع الحجارة الصقيلة التي تتراوح أبعادها بين ٠.٨٥م و ١.٦٦م. ولقد نهب معظم القطع الحجرية التابعة للجسر، ولكن القليل الباقي ساعدنا في إنشاء شكل الجسر وطريقة بنائه إنشاء هندسياً.

وعثرنا في انقاض الجسر على حطام أوان فخارية وخزفية معروفة بهويتها العباسية. كما عثرنا على ميل كحل من البرونز معروف أيضاً بهويته العباسية، فضلاً عن نقد برونزي (فلس)، هو قيد الدراسة في الوقت الحاضر.

ويستمر السور المستدير في الطرف الآخر من القناة باتجاه البوابة الجنوبية. وبناء على هذا الكشف فإن قناة نهر النيل كانت موجودة قبل بناء حصن هرقل. ولعل فك رموز النقود البرونزية سيزودنا بتاريخ حفرها بقليل أو كثير من الدقة.

## الأصول المعمارية

على الرغم من أن الشكل المستدير للأسوار من الأشكال المعهودة في تاريخ العمارة الشرقية القديمة، فهو معروف في مدينة سنجرلي الأرامية (الألف الأول قبل الميلاد) في سورية، وفي شكل المعسكرات الآشورية في العراق القديم (الألف الأول قبل الميلاد)، وفي شكل مدينة الحضر في العراق (القرون الأولى بعد الميلاد)، وفي قلعة درب جرد الساسانية عربستان. إلا أن أقرب مثال على سور هرقل المستدير هو سور مدينة بغداد أو المدينة المدورة التي أسسها الخليفة المنصور سنة ١٥٥هـ/ ٧٧١م، قبل سور هرقل بخمس وثلاثين سنة.

٨. انظر هرقل في: Sarre, Op. Cit., pp. 161-163.

أما مخطط حصن هرقلة الذي يعتمد على مبدأ الغرفة المركزية المركزية والايوانات الأربعة المتعامدة حول تلك الغرفة، فإنه يذكرنا بمخطط قصر الذهب الذي أسسه الخليفة المنصور في وسط المدينة المدورة بغداد<sup>٩</sup>. لكن ماذا عن بناء لقصور أو الحصون فوق مصطبة عالية. إن هذا التقليد معروف في العمارة الساسانية في العراق وفي إيران، وفي العمارة البوذية في الهند وفي أفغانستان<sup>١٠</sup>.

ولعل أقرب الأمثلة الى مصطبة حصن هرقلة هو قصر اللصوص الواقع بين كرامان شاه وهمدان<sup>١١</sup>، وقصر حريم كسرى أو عمارات كسرى قرب بغداد<sup>١٢</sup>.

### غاية هارون الرشيد

امتدت أراضي الخلافة الإسلامية في أيام الرشيد من حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسي غربا، وعلى الرغم من استقلال جزء كبير من المغرب العربي والأندلس عن مركز الخلافة العباسية في بغداد إلا أنها كانت دولة عظمى تسيطر بقوتها السياسية والاقتصادية والحضارية على معظم أجزاء العالم القديم، ولم يبق من منافس آخر لهارون ولمن سبقه على الهيمنة العالمية إلا البقية الباقية من الدولة البيزنطية العظمى (تركيا والبلقان وشمال إيطاليا). وفي ضوء هذه الحقيقة كان هارون على وشك امتلاك الدنيا وما فيها، و يبدو أنه قد أدرك بأنه لن يمتلك الدنيا وما فيها إلا بعد كسر شوكة الدولة البيزنطية وعلى رأسها غريمه الملك نقفور، فأكثرت من غزوات الصائفة (غزوة في كل صيف) على بيزنطة انطلاقا من مدينة الرقة، ولقد تحقق له النصر المبين في غزوة سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م، وقد أنشد في ذلك الشاعر أبو العتاهية<sup>١٣</sup>:-

٩. Creswell, K.A.C., Early Moslem Architecture, Oxford, 1969. vol. II., pp. 165-166.

١٠. Brentjes, Die Stadt des Yima, Seemann Verlag, Leipzig, 1981.

١١. Massoud Azarnoush, Excavation at Kangavar, Archäologische Mitteilug aus Iran, Bd, 14, 1981, pp. 69-94.

١٢. O. Ruether, in Survey of Persian Art, I, p. 539 ff.

١٣. أبو العتاهية، اسماعيل بن القاسم (ت ٢١٠هـ/٨٢٦م)، ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠، ص ٤٨٩؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٦هـ/٩٧٥م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٩ ج، مع الترجمة الفرنسية، تحقيق باربيه وباده دمورتل، مطبوعاتي اسماعيليان، تهران، ١٩٧٠م، ج٤، الفصل الثلاثون، ص ٢٢٧-٢٢٨، سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي: مروج.

بسطت لنا شرقاً وغرباً، يد العلي، فأوسعت شرقياً، وأوسعت غربياً  
تجللت الدنيا لهارون ذي الرضا، وأصبح نقفوز، لهارون، ذمياً

وكان أشجع السلمي<sup>١٤</sup> قد أنشده بمايلي :-

ملكتهما وقتلت الناكثين بها بنصر من يملك الدنيا وما فيها

لقد أقام الخليفة هارون الرشيد مدة ثلاث عشرة سنة متوالية في الرقة (١٧٠-١٩٢هـ/٧٩٦-٨٠٨م)، وانتقل معه البلاط العباسي بأجمعه من بغداد الى الرقة، وبذلك أصبحت الرقة عاصمة الخلافة طوال تلك السنوات. و يبدو أن هارون أراد أن يكتب الأبيات التي انشدها له ابو العتاهية وأشجع السلمي بقلم مداده الحجر الصلد، فأمر بخط حصن هرقله وترجمة الأبيات الشعرية الى لغة الهندسة المعمارية، التي تحتفظ برموزها الفكرية الخاصة. وقد تجلت تلك الرموز في الأشكال الهندسية المتنوعة والنادرة، فكان السور مستديراً لأن الدائرة ترمز الى الكون، وكان الحصن مربعاً ومعززاً بأربعة أبراج مزوداً بأربعة إيوانات، وكان السور محصناً بأربع بوابات في الجهات الرئيسية الأربع، وجميع هذه الأشكال ترمز الى جهات العالم الأربع، ومن يمتلكها يملك العالم من مشرقه الى مغربه.

ولا يسعنا في هذا الصدد الا ان نعيد الازهان أن أجداد هارون الرشيد وأجدادنا القدماء ملوك أكاد و بابل وأشور كانوا يحملون لقب (ملك الجهات الأربع) أي ملك العالم.

### مكانة حصن هرقله في تاريخ العمارة العربية الاسلامية

- تزودنا هرقله بالأثر المعماري الوحيد حتى الآن من الآثار المادية التي يمكن اثبات نسبتها بصورة أكيدة الى هارون الرشيد.
- تزودنا هرقله بنموذج مصغر لخطط المدينة المدورة بغداد، تلك التي غابت وما تزال غائبة تحت بغداد الجديدة.
- تزودنا هرقله بالأثر المعماري الوحيد في تاريخ العمارة العربية الاسلامية الذي أقيم تخليداً لنصر مبيين.
- تزودنا هرقله بأثر نادر من الآثار العربية الاسلامية المشيدة بالقطع الحجرية الصقيلة في المنطقة المحصورة بين نهري دجلة والفرات، فهذه المنطقة معروفة بتراث العمارة الطينية منذ أقدم العصور.

هذا وقد فقدت الرقة أهميتها كحاضرة كبرى من حواضر العالم، واضمحلت ازدهارها بعد وفاة هارون الرشيد. وها هو أشجع السلمي<sup>١٤</sup> يصور لنا ما آلت إليه منازل الرشيد في الرقة

١٤. انظر: ديوان اشجع السلمي، جمعه وشرح عليه وقدم له الدكتور خليل بنيان الحسون، طبع بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٦٨-٢٦٩. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ديوان اشجع السلمي.



تصويراً دقيقاً ومؤثراً حيث يقول<sup>١٥</sup> :

بقائني على ريب الزمان قليل  
رأيت لداتي قد مضوا لسبيلهم  
رأيت المنايا تصدع الصخر والصفاء  
كأن لم ترى هارون في ظل ملكه  
منازل هارون الخليفة أصبحت  
منازل أمست في السياق نفوسها  
لبسن جلي الملك ثم سلبنها  
يذكرني هارون آثار ملكه  
إذا ما سطا عز المنايا فانه

واني على عزمي به لذلليل  
وإن بقائني بعدهم لقلليل  
وتصدع صدر السيف وهو صقيل  
تسمنه يوم عليه ثقليل  
لهن على شاطى الفرات عويل  
سلبن راء الملك وهو جميل  
فهن ولا حلي لهن عطول  
وذلك نكر ما بقيت طويل  
سواء عزيز عنده وذلليل

١٥ . المصدر السابق، ص ٢٤٦.



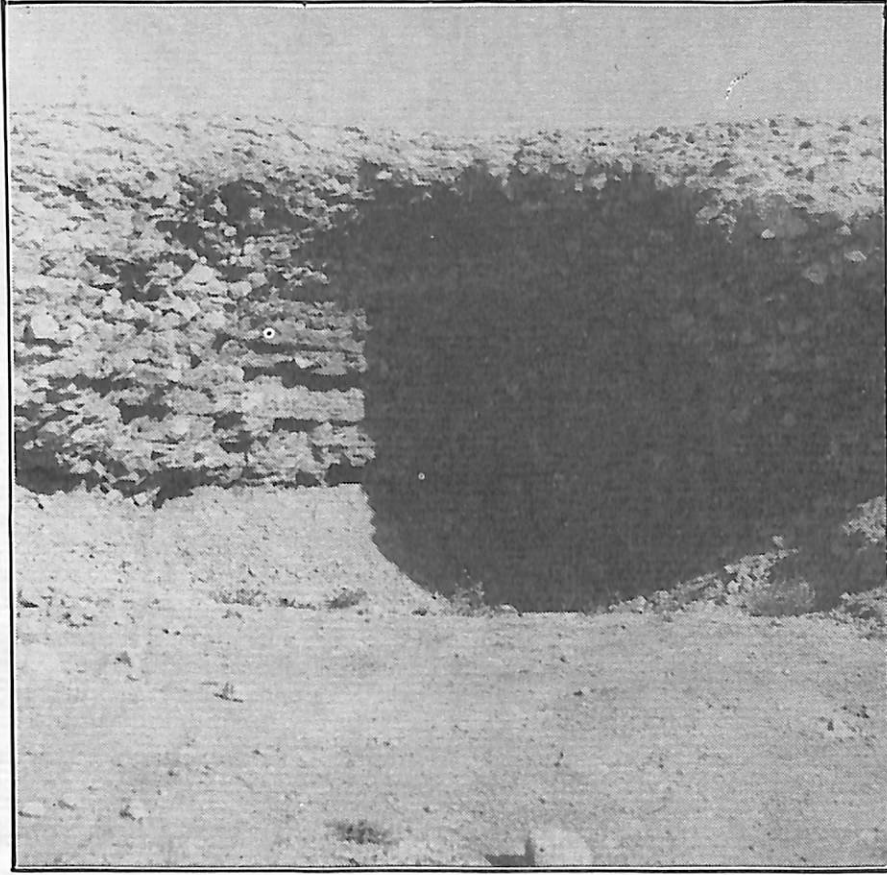
الشكل (١)  
منظر جوي لموقع هرقله (الساحة الجوية الافرنسية ١٩٢٤)



الشكل (٢)  
مقطع لجزء من السور المستدير الذي يطوق حصن هرقلية

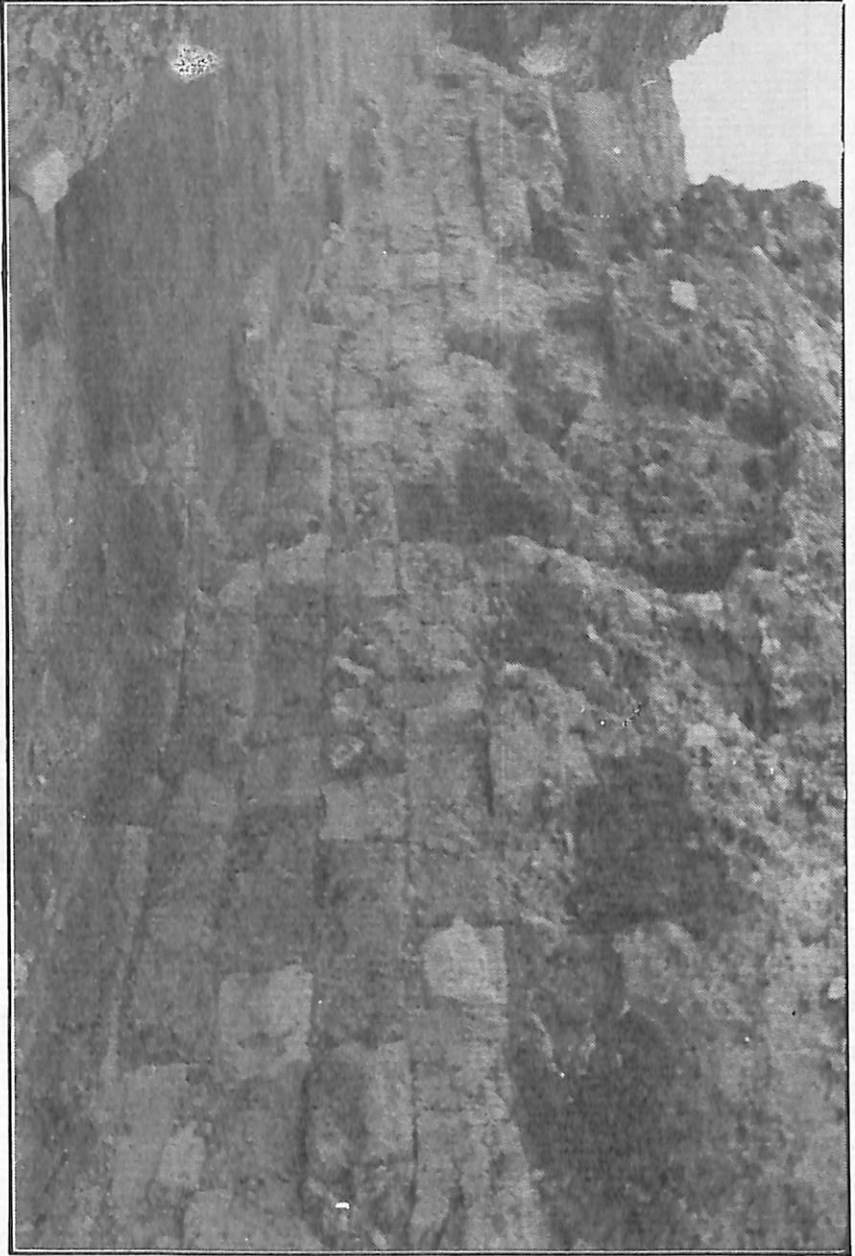


الشكل (٣)  
مقطع لجزء من السور الذي يطوق حصن هرقلية

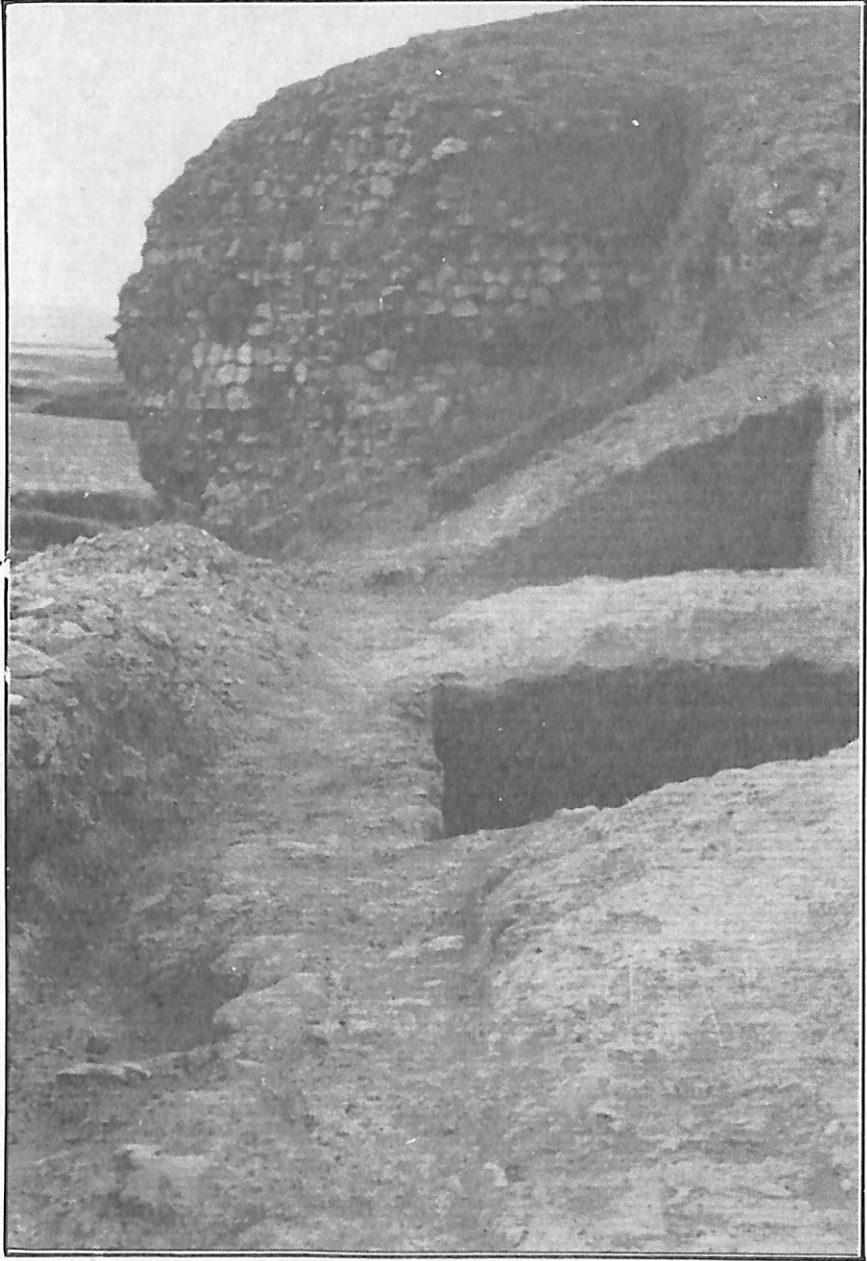


**الشكل (٤)**

بقايا احد الايوانات الاربعة في منتصف كل ضلع من الاضلاع الاربعة لحصن هرقله

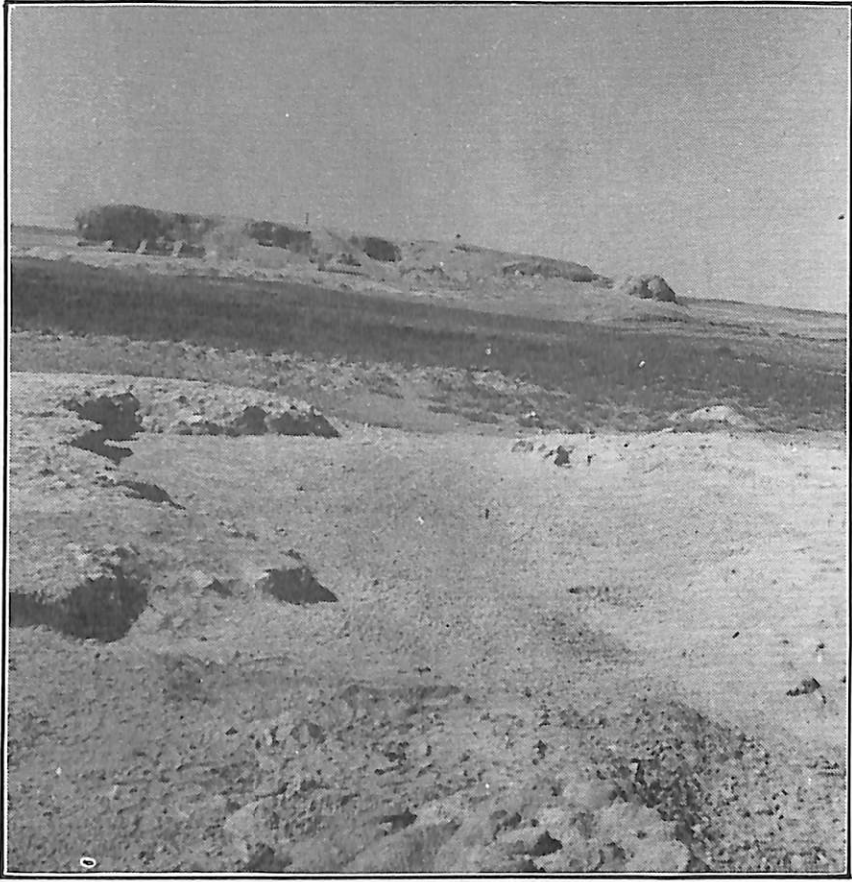


الشكل (ه)  
بقايا الدرج الذي يقود الى سطح حصن مرتلة الى اليسار من كل ابواب من الابوابات الاربعه



الشكل (٦)

بقايا القناطر التي يستند اليها الدرج الذي يقود الى سطح حصن هرقله



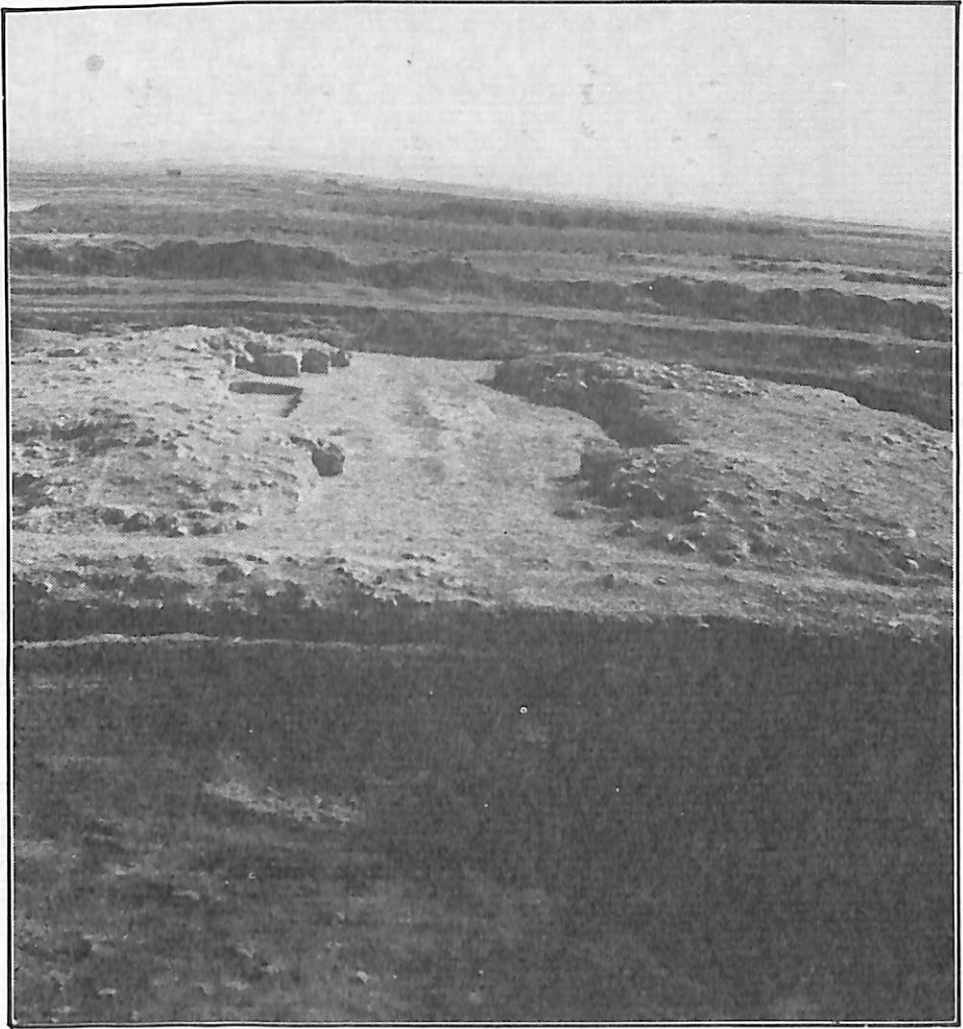
الشكل (٧)

بقايا البوابة الشرقية المئنة الشكل في سور هرقله وفي الخلف حصن هرقله





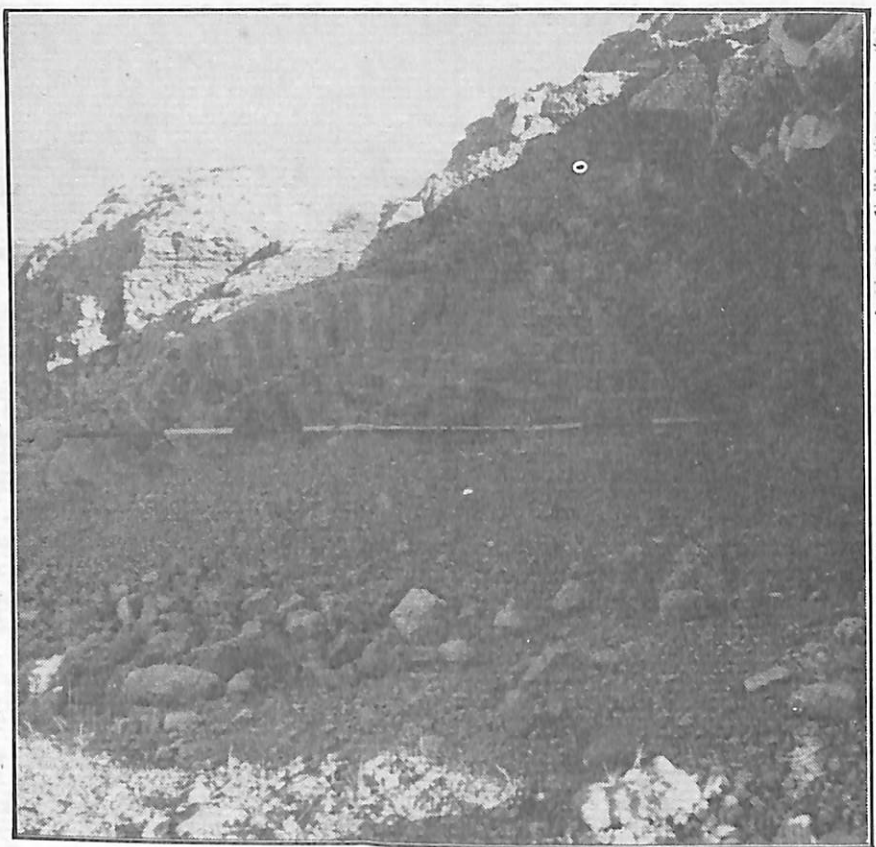
النصف الغربي للبوابة الشمالية المستديرة الشكل في سور هرقلية  
الشكل (٨)



الشكل (٩)  
البوابة الجنوبية المربعة الشكل في سور هرقله

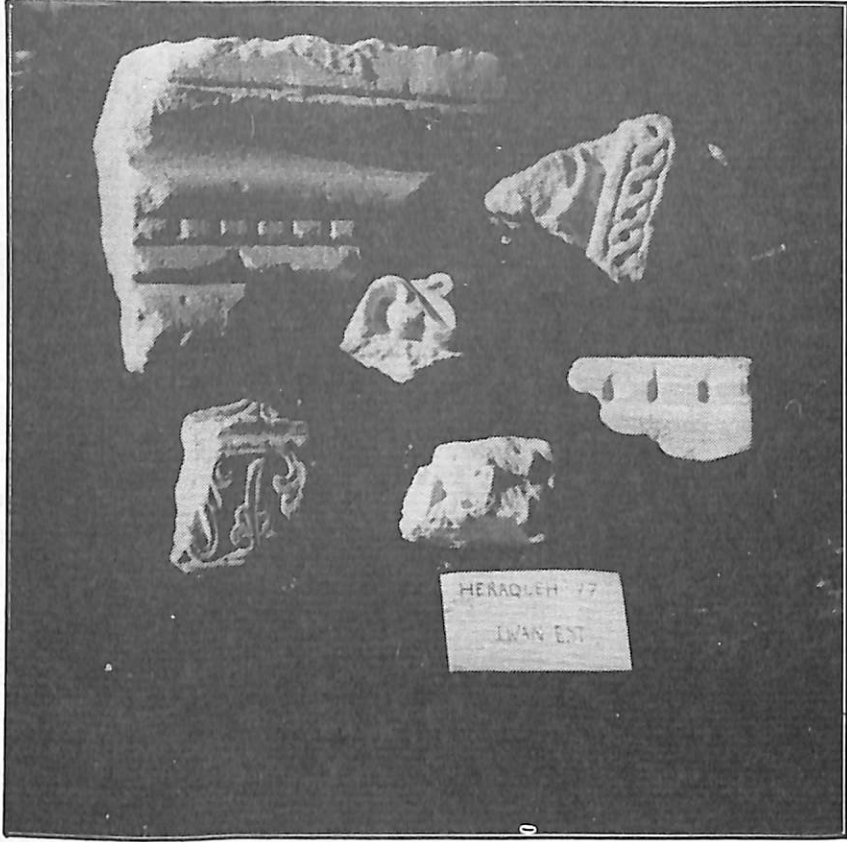


الشكل (١٠)  
البوابة الغربية المسددة الشكل في سور مرقلّة



الشكل (١١)

بقايا احدى الغرف المغطاة بقبوة من الأجر في حصن هرقله



الشكل (١٢)

بقايا زخارف حجرية لشريط تزييني في الايوان الشرقي لحصن هرقله وهي النماذج الأولى لفن النحت من عهد هارون الرشيد

## الرقعة أيام الرشيد

مصطفى الحسون\*

كانت الرقعة «قاعدة ديار مضر»<sup>١</sup> المركز الأول في الجزيرة في معظم الفترة التي سبقت عصر الرشيد. والجزيرة بتعريف ابن عساکر<sup>٢</sup> إحدى الأمصار الإسلامية السبعة<sup>٣</sup> منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب. والمصر - كما يبدو - أهم وأجل من الولاية أو الاقليم.

وكانت الشام والجزيرة، أهم الأمصار الإسلامية، أيام بني أمية. وهما الدرستان اليتيمتان في تاج دولتهم، وما أشبه أن تكون مدينة الرقعة بين هذين المصرين واسطة العقد. وكان لا بد لبني أمية من تنظيم شؤونها، حتى زخرت أرضها بالمنشآت الكثيرة، والقصور الحسان، وأقنية الماء «التي كانوا يسمونها أنهاراً»، وما تتطلبه الأغراض العامة، لأمرأه هذه الأسرة المنتشرين من حولها، وكان معاوية بن أبي سفيان، على رأس المجتهدين، في تكوين الضياع، والقطائع، التي ورثها الخلفاء من بعده، ومنها الأراضي التي تستخرج من البطائح<sup>٤</sup>.

ولقد اعتنى الأمويون بتنظيم الجزيرة من الناحيتين الإدارية والعمرانية، فعينوا عليها ولاة من أعاضم الرجال في دولتهم أمثال: محمد بن مروان<sup>٥</sup>. ومسلمة بن عبد الملك<sup>٦</sup>

\* مديرية آثار الرقعة، الرقعة، الجمهورية العربية السورية.

١. ديار مضر في العصور العربية الإسلامية كانت قصبتها الرقعة. ومن مدنها الرقعة المحترقة، والرافقة، والخانوقة، والحريش، وتل محرى، وبادجران، وحصن مسلمة، وترعوز، وحران، والزها، وتل موزن، وسروج، ومدن طريق الفرات وهي: الرحبة، وقرقيسيا، والدالية، وهيت، وعانة، والأنبار. ومن مدن ديار مضر على الخابور: عرابان، والحصين، والشمسانية، وماكسين، وسكير العابس، والخيشية، والسكينية، والتنانير.
٢. ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٢٨٠ هـ / ٩٩٠ م) صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٤ م، ص ٢٠٤ وما يليها. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة.
٣. ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، تاريخ دمشق، الجزء الأول، دمشق ١٩٥١، ص ١٨٩، وما يليها، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساکر: تاريخ.
٤. الأمصار السبعة هي: المدينة، والشام، ومصر، والجزيرة، والبحرين، والكوفة، والبصرة. ويضيف مكة والمدينة. ابن عساکر: تاريخ، ج ١، ص ١٨٩.
٥. محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٤٩، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الرئيس، الخراج.
٥. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) الاعلاق الخطيرة في ذكر امرأه الشام والجزيرة، ج ٣، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٦ - ١٩٧٨ م، ج ٣، ص ١٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن شداد، الاعلاق.
٦. المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥.

و يزيد بن هبيرة الفزازي<sup>٧</sup> ومروان بن محمد<sup>٨</sup> آخر خلفائهم. و يبدو أن الرقعة مع مدينة حران، التي زاحمتها، في أواخر العصر الأموي كانتا أهم المراكز الادارية في الجزيرة. وتأتي أهمية الرقعة من مكانتها على شاطئ الفرات، ومعانتها لأرض الشام والجزيرة في آن واحد، وقربها النسبي من العراق، وأرمينية، واذربيجان ومن الثغور، على حدود الدولة البيزنطية.

لقد اجتهد الأمويون، في الرقعة وفي غيرها، ببناء القصور وحفر الأنهار، واحياء القرى، وزرعها بالبساتين. ورأيت لهم بين الرقعة، والمدن الشهيرة، القريبة منها أنهاراً عديدة تشتبك فيها العمائر بالبساتين لزراع الغلال، والعناية بالمروج الخضراء. فمما ينقل عن مسلمة بن عبد الملك أنه انشأ حصنه على نهر البليخ، وعمر القرى، وأجرى الى ذلك ماء العيون<sup>٩</sup> كما أجرى على الضفة اليمنى لنهر الفرات نهراً بين مدينة بالس والرقعة فسقى قرى بو يلس، وقاصرين، وعابدين، وصفين، وغير ذلك<sup>١٠</sup> ورأينا سعيد بن عبد الملك، ينشئ نهراً في الفرات الأوسط بين الرقعة والرحبة<sup>١١</sup> ومن الأنهار التي يمكن نسبتها إلى العصر الأموي «نهر التهيا»<sup>١٢</sup> بين الرقعة وقلعة جعبر، وتقع عليه قرية «دامان»<sup>١٣</sup> التي نسب اليها التفاح الداماني و يضرب بجمرته المثل، واشتهر في بغداد أيام العباسيين، وقد وصفه الشاعر مسلم بن الوليد (١٤) بقوله :

٧. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٢١٠ هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار سويدان، بيروت، د.ت، ج ٦، ص ٥٥٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري: تاريخ.
٨. ابن شداد، الاعلاق، ج ٢، ص ١٦.
٩. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ج ٥، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م، ج ١، ص ٤٩٢، ج ٢، ص ٦٠٥٨ (لفظ بليخ)، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحموي، معجم.
١٠. المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٨ (لفظ بالس).
١١. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٨٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٦ هـ/ ٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، بيروت، ١٩٦٦، ص ٢٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج؛ الحموي معجم، ص ٢٤١؛ البغدادي، صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٨م) مراد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (مختصر معجم البلدان لياقوت)، ج ٢، تحقيق علي محمد البخاري، دار احياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٤-١٩٥٥م، ج ٢، ص ١٤٠٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البغدادي، مراد.
١٢. الحموي، معجم، ج ٥، ص ٢٢٨.
١٣. بينها وبين الرافقه خمسة فراسخ. الحموي: معجم، ج ٢، ص ٢٩٢ (طبعة مصر ١٩٠٩م).
١٤. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٧٢ وما بعدها، ج ٨، ص ٤٨٢ (طبعة مصر ١٩٠٩م).

## وحياتي ما ألف الداماني لا ولا كان في قديم الزمان

ولكن أعظم من هذا كله ما انشأه هشام بن عبد الملك في الرقة، على الضفة اليمنى لنهر الفرات عند ابتداء الطريق منها إلى مدينة الرصافة، أي مدينة «واسط الرقة»، التي أقام له فيها قصرين: هما «الهنى والمرى». وأجرى إليهما نهرين حملتا اسم الهنئ والمرى أيضاً. وكان مستمدهما من الفرات، ومصبهما فيه<sup>١٥</sup>.

وقد تردد ذكر الهنئ والمرى كثيراً في كتب التاريخ، مما نكاد لا نجد له مثيلاً في المنشآت الأموية في الشام والجزيرة كافة، حتى قال عنهما شيخ الربوة دمشقي<sup>١٦</sup> في معرض حديثه عن الرقة: «وبها الهنئ والمرى، وهما نهران، عليهما القرى مشتبكة العمائر. وهي من أنزه بقاع الدنيا... ومما ينقل عن الرشيد، في العصر العباسي، وحوالي عهد أيام خلافة أخيه موسى الهادي أن الهادي فكر بأن يجعل الخلافة، من بعده لابنه (جعفر بن الهادي)، وأن يخلع أخاه الرشيد، عن ولاية العهد. فتأزم الأمر على الرشيد، وأخذ يوازن بين أن يعيش هنئاً، رضي البال، يؤثر السلامة، أو يثبت لأخيه، فيميل إلى التنازل، ويذهب إلى (يحيى بن خالد البرمكي) مستشاره وأمينه ويقول له: «اليس يترك الهنئ والمرى، فهما يسعاني، وأعيش مع ابنة عمي أم جعفر - (السيدة زبيدة) - وكان يجد بها جداً شديداً، و يحبها حباً لا يجعله يطيق فراقها. وكان الهادي، قد بذل له ذلك»، ولكن يحيى يثنيه عن التنازل.

وجاء العصر العباسي فأخذ الخلفاء من بني العباس، يتطلعون إلى أحوال مملكتهم، بعد أن استقرت، وهذأت الفتن والاضطرابات. فالت منشآت بني أمية في الرقة إلى بني العباس. فزاد العباسيون في عمارتها، وازدانت بهم حضارة جديدة، فابتنى الخليفة المنصور عند الرقة مدينته الجديدة المعروفة باسم «الرافقة»<sup>١٧</sup>.

وتذكر النصوص التاريخية أن أبا جعفر المنصور، جهز سنة ١٥٤ هـ/٧٧٧م جيشاً بقيادة (يزيد بن حاتم) وجهه إلى شمال أفريقيا مدداً لعاملها عمر بن حفص، إثر قيام الخوارج بثورات هناك. وخرج المنصور، مع جيش يزيد هذا مردعاً، فأطال السير معه، حتى بلغ الشام، ثم انحدر إلى بيت المقدس، وهناك ودع يزيد وجيشه، وعاد إلى بغداد عن طريق الرقة، فأعجبه هواؤها، وطيب مائها، وجمال موقعها، فأقام بها أياماً، ثم قرر أن يبني فيها مدينة تشبه مدينة السلام بهندستها.. لتكون حصناً له، ومصيفاً بجانب الرقة، يأوي إليه، حين يقسو عليه حر

١٥. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٧٢ وما بعدها، ج ٨، ص ٤٨٢، (طبعة مصر ١٩٠٩م)؛ البغدادي، مراصد، ج ٣، ص ١٤٠٢، وص ١٤٦٦.

١٦. شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله محمد أبي طالب (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطرس بورغ ١٨٦٥م، ص ١٩١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: شيخ الربوة، نخبة الدهر.

١٧. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٤٦.



## العراق ١٨.

ولعل تفكير المنصور ببناء الرافقة، لم يكن محض مصادفة، بل كان لهذا العمل جدور أعمق في نفسه، قبل قيام الدولة العباسية؛ فقد ذكر الدكتور فاروق عمر<sup>١٩</sup> نقلاً عن الأزدي: «أن أبا جعفر، أشار على أخيه، أبي العباس السفاح بينما كانا في طريقهما من الحميمة بالأردن إلى الكوفة قبل قيام الدولة العباسية، بضرورة تأسيس عاصمة جديدة، حوالي مدينة الرقة، لو قدر للعباسيين المجيء إلى الحكم لتكون هذه المدينة مقراً لشيعتهم».

والرافقة بلد متصل البناء بالرقعة.. بينهما مقدار ٣٠٠ ذراع. عليها سوران، بينهما حصيل وهي مدينة نموذجية، قامت على تخطيط مسبق، وعلى هيئة مدينة السلام «بغداد» في أبوابها، وفصولها، ورحابها، وشوارعها، وطاقتها. وقد رتب فيها المنصور جنداً من أهل خراسان. بعد أن جرى ذلك أن هدى وسلك على يد والده المهدي وهو ولي عهده سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م. ثم إن الرشيد بنى قصورها. وكان يأتيها، و يقيم فيها، فعمرت مدة طويلة ٢٠.

وازدهرت الرافقة في العصر العباسي الأول، وصارت حية تمور بالحياة، وتستثير وجدان الشعراء، وتداعب أخيلتهم. فمما قال فيها أبو بكر الصنوبري<sup>٢١</sup>.

واها لرافقة الجنوب محللة	حسننت بها أنهارها وجنانها
يا بلدة ما زال يعظم قدرها	في كل ناحية، ويعظم شأنها
أما الفرات، فانه ضحاحها	أما الهني، فانه بستانها
وكان أيام الصبا أيامها	وكان أزمان الهوى أزمانها

ازدادت أهمية الرقة، وعظمت مكانتها منذ بناء الرافقة، فصارت المركز الإداري الأول، في

١٨. عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد: دراسة تاريخية اجتماعية سياسية، ٢ ج، المكتبة العمومية، بيروت، ١٩٥٦م، ج ١، ص ٧٢، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الجومرد، هارون الرشيد، وانظر للمؤلف أيضاً أبو جعفر المنصور، بيروت، ١٩٦٣م، ص ٣٠٩، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الجومرد، أبو جعفر.

١٩. فاروق عمر، العباسيون الاوائل ٩٧هـ/ ٧١٦م - ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، دراسة تحليلية للفترة الاولى من العصر العباسي الاول من بدء الدعوة العباسية حتى بداية عهد الرشيد، ٢ ج، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م، ج ٢، ص ١٢، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: فاروق عمر، العباسيون.

٢٠. الطبري: تاريخ، ج ٨، ص ٤٤، (احداث سنة ١٥٤هـ وسنة ١٥٥هـ).  
البلادري، فتوح، ص ١٨٤؛ الحموي، معجم، ج ٣، ص ١٥ وما بعدها.

٢١. الصنوبري، احمد بن محمد بن الحسن الضبي (ت ١٣٣٤هـ/ ١٤٦م) ديوان الصنوبري، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٥٠٠؛ ابو الفرج العشي، «الرقعة من خلال التاريخ وكتب الرحالة»، الحوليات الاثرية السورية، مديرية الآثار العامة، الجمهورية العربية السورية، عدد ٧ (١٩٥٧م)، ج ١، ص ٦٠، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العشي «الرقعة»: للشابشتي، ابو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥١، ص ١٤١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الشابشتي، الديارات.

الجانب الغربي لدولة بني العباس، في عصرها الأول. وقد رأينا كيف أشرف المهدي، ولي عهد المنصور على بناء المدينة الجديدة. ولما آلت الخلافة الى المهدي، ولى ولده هارون المغرب كله، من الأنبار الى افريقية. بما في ذلك ارمينية وأذربيجان، وأمريحي بن خالد البرمكي، أن يتولى ذلك، فكانت اليه أعماله، ودواوينه، يقوم بها، ويخلفه على ما يتولى منها إلى أن توفي المهدي<sup>٢٢</sup> ولما أفضت الخلافة الى الهادي، أقريحي بن خالد، على ما كان يليه من أعمال هارون في الجانب الغربي من الدولة<sup>٢٣</sup>.

إلا أن خلافة الهادي، لم تطل. فلم يلبث أن توفي سنة ١٧٠ هـ/٧٨٧م، فتولى الخلافة من بعده أخوه هارون الرشيد.

وكان الرشيد عند توليه الخلافة محاطاً برعاية أمه الخيزران، ومربيه يحيى بن خالد البرمكي، فانصرف الى الحج والغزو، والى مجالات الصبى، والنزهات، وارتياح المصائف، والى البوادي العربية. وكان يفكر حينذاك، بمصيف يأوي اليه، حين يشتد حر الصيف في بغداد، التي كان يسميها في هذا الفصل «مدينة النجار». وقيل إنه في السنة الأولى من خلافته حج وغزا في عام واحد. ثم اتجه سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م، نحو «مرج القلعة» - بين حلوان وهمدان - ثم صفد الى الشمال سنة ١٧٤ هـ/٧٩٠م الى الجودي، ووصل جزيرة ابن عمر. فبنى في أحد أعمالها «باقردى وبازبدى» قصراً جميلاً. ولكن بعد هذا المصيف عن عاصمة الدولة، جعله يتخلى عن القصر. ثم نراه بعد هذا يتجه الى القاطول، و ينتزه فيه كلما ضجر من المقام ببغداد. فأنشأ هناك مدينة بقيت آثارها وسورها قائمة، لم تستم، حتى خلافة المعتصم. وكان الرشيد فيما بعد، قد تخوف من البرامكة، والجدد الكرمنية، فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا، استقر الرشيد بالرقعة، وبقيت مدينة القاطول، لم تستم الى أن جاء المعتصم، فبنى مدينة سامراء هناك<sup>٢٤</sup>.

إن الدولة العربية، لم تقسم أعمالها منذ انتقالها الى بني العباس، تقسيمها زمن الرشيد. فقد كان للخليفة وقت ليحج، ووقت ليغزو، ووقت ليصطاف، ويرتبع في الرقة، و يترك

٢٢. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٤٦، ١٤٨، (أحداث سنة ١٦٣)؛ ابن كثير، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، ج ١٤، تحقيق أحمد ابو ملحم، علي نجيب عطوي، فؤاد السيد، مهدي ناصر الدين، علي عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ج ١٠، ص ١٤٩-١٠٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٢، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٣م، ج ٢، ص ٤٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تغري بردي، النجوم.

٢٣. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٠٧، (أحداث سنة ١٧٠ هـ).

٢٤. المصدر السابق، ج ٨، ص ٢١٣، (أحداث سنة ١٧٠ هـ)، ج ٩، ص ١٧، (أحداث سنة ٢٢٠ هـ)، الجومرد، هارون الرشيد، ج ١، ص ١٦٠.

قصر الخلد في بغداد. ولقد كانت دولة الروم، في هذا العصر، في خشية دائمة من جيوش الرشيد، فما غزتهم الا وحالفها التوفيق.

ثم إن الرشيد بنى قصوره في الرقعة<sup>٢٥</sup>. ونكاد لا نعثر على قصر بناه لنفسه في بغداد. وجل ما رأيناه في مراجعنا أنه كان يقيم في قصر الخلد، الذي ابتناه جده المنصور<sup>٢٦</sup>.

وأوعز الرشيد لرجال دولته أن يبنوا قصورهم في الرقعة بجانبه، وفي مدينته الجديدة، خارج أسوار الرافقة، بعد أن امتلأت هذه الأخيرة بالأبنية. وأمر بإنشاء ما يلزم فيها من وسائل الراحة والترفيه كميادين سباق الخيل، وملاعب الصولجان، وحقول الصيد، وموانئ السفن والحراقات، والمتنزهات الواسعة، والحدائق المزهرة، على ضفتي الفرات. فأصبحت من أجمل مصانف الدنيا<sup>٢٧</sup>.

وهكذا عاش الرشيد، في الأعوام الأولى من خلافته، في دعة، وخلو بال، وغزو، وحج، وأسفار، وتنقل في البلاد<sup>٢٨</sup>، وذلك إلى ما بعد وفاة أمه الخيزران سنة ١٧٣ هـ/٧٨٩ م<sup>٢٩</sup>.

وقد أورد الطبري<sup>٣٠</sup> انتقال الرشيد إلى الرقعة سنة ١٨٠ هـ/٧٩٧ م إذ قال: «... فنزلها، واتخذها وطناً». وذكر ابن الأثير<sup>٣١</sup> انتقال الرشيد إلى الرقعة بقوله: «ومضى إلى الرقعة، فاتخذها وطناً...» ولدى ابن كثير<sup>٣٢</sup> الدمشقي. وابن بردي<sup>٣٣</sup> وابن شداد<sup>٣٤</sup> أقوال مشابهة لما قاله ابن الأثير.

أما الجومرد<sup>٣٥</sup>، فيعبر عن ذلك حسب الاصطلاحات الحديثة، إذ يقول: «فجعل الرشيد الرقعة عاصمة دائمة له، وألى أن لا يعود إلى بغداد، و يقيم فيها يوماً واحداً، الا للضرورة ملزمة..» وكذلك يقول الدكتور ميشيل ماينكه<sup>٣٦</sup>: «لقد تحولت هذه المدينة في نهاية القرن الثامن، ومطلع القرن التاسع أيام الرشيد - ولو لفترة قصيرة من الزمن - إلى مركز ادارة الدولة العباسية. وتعدت بهذا بغداد نفسها». ويقول عنها في مكان آخر<sup>٣٧</sup>: «... وقد بلغت

٢٥. الحموي، معجم، ج ٢، ص ٦٠ (قصران لهشام بن عبد الملك).  
 ٢٦. الجومرد، هارون الرشيد، ج ١، ص ٢٩١.  
 ٢٧. المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٠.  
 ٢٨. المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٠.  
 ٢٩. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٢٨، (احداث سنة ١٧٣ هـ).  
 ٣٠. المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٢٦ (احداث سنة ١٨٠ هـ).  
 ٣١. ابن الأثير، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م)، الكامل في التاريخ، ١٢ ج، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٦. ج ٦، ص ١٥٢، (احداث سنة ١٨٠ هـ). سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل.  
 ٣٢. ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ١٨١، (احداث سنة ١٨٠ هـ).  
 ٣٣. ابن تغري بردي، النجوم (احداث سنة ١٨٠ هـ).  
 ٣٤. ابن شداد: الاعلاق، ج ١، ص ٧٠.  
 ٣٥. الجومرد، هارون الرشيد، ج ٢، ص ٥١٩.  
 ٣٦. الاثار السورية، مجموعة ابحاث اثرية، فينا، ١٩٥٨ م، ص ٢٦٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الاثار السورية.  
 ٣٧. المرجع السابق، ص ٢٦٨.

هذه المكانة ذروتها، حين جعل الخليفة هارون الرشيد مقره الرسمي فيها من (١٨٠هـ/٧٩٦م - ١٩٢هـ/٨٠٨م).

ويضيف<sup>٣٨</sup> «وفي ظل حكم هارون الرشيد، نازعت الرقة، لفترة قصيرة مدينة بغداد مكانتها كمركز ثقافي في العالم الاسلامي».

وكان الرشيد في الأعوام الواقعة ما بين: ١٧٢ - ١٧٩هـ/٧٨٩ - ٧٩٦م من خلافته يغزي من بغداد أو الرقة قادة من مشاهير عصره، لحرب الصائفة، مع الروم<sup>٣٩</sup> حتى اذا كان عام ١٨٠هـ/٧٩٧م. أخذ يقود بنفسه حملات الصائفة وربما الشتاتية أحياناً أخرى، ويشن الغارات ضد الروم. ولم نر قبله أحداً من الخلفاء المسلمين يتولى قيادة هذه الحملات خارج الحدود، ويتجرد للجهاد بنفسه. وهو لم يتمكن من ذلك، لو لم يحل مدينة الرقة، قاعدة مضر العربية، لملاءمة موقعها. بعد انصرافه من مكة.

ويعتبر عام ١٩٢هـ/٨٠٨م آخر عهد للرشيد بالرقة، فقد وافى منها مدينة السلام «بغداد» في السفن، يريد الشخصوس إلى خراسان، لحرب (رافع بن الليث) فاستخلف بالرقة ابنه القاسم، وضم اليه (خزيمة بن خازم)، وكان مصيره ببغداد في شهر ربيع الآخر. ثم شخص منها في شعبان، بعد صلاة العصر، من الخيزرانية. وكان الرشيد مريضاً<sup>٤٠</sup>. فلم يلبث أن توفي في قرية «سنباذ» قرب مدينة طوس، ببلاد فارس سنة ١٩٢هـ/٨٠٩م. وطوى نعيه البلاد<sup>٤١</sup>.

ولم تعد الرافقة أيام الرشيد قادرة على استيعاب الخليفة وجنده وما كان اليه من الحاشية اذ لم تلبث أن ضاقت بسرعة عن سكانها الجدد. فكان والحالة هذه أن تتدفق منها منشآت المباني خارج الأسوار. فأنشأ الرشيد إلى الشمال والشرق منها مدينة جديدة ورد ذكرها في المراجع البلدانية باسم «الرقة الوسطى»<sup>٤٢</sup>. ويسمياها (دونان) «مدينة الرشيد»<sup>٤٣</sup>. وقد اتسعت هذه المدينة بسرعة فائقة، حتى ملأت السهل المحصور بين ملتقى نهر الفرات، برافده نهر البليخ. وأكملت توسيع البلدان القديمة في الرقة. وهي: الرقة البيضاء، والرقة السوداء، والرافقة، وواسط الرقة، حتى أصبح الجميع متصلاً<sup>٤٤</sup>.

٢٨. المرجع السابق، ص ٢٦٩.
٣٩. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٣٦ - ٢٣٧، (احداث السنوات ما بين ١٨٢ - ١٧٢هـ).
٤٠. المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٢٨، (احداث سنة ١٩٢هـ)، وابن الاثير السنة نفسها: ابن العبري، غريغوريوس (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٣٠. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العبري، مختصر.
٤١. المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٤٢ - ٢٤٥، (احداث سنة ١٩٢هـ).
٤٢. الحموي، معجم، ج ٣، ص ٦٠.
٤٣. هذه التسمية حديثة أعطاهها (دونان) الخبير الفرنسي في المديرية العامة للأثار والمتاحف.
٤٤. الحموي، معجم، ج ٣، ص ٦٠.

كانت هذه البقعة التي أشرنا إليها - ولسنين قليلة - قبل التوسع الجديد في السكن تضم أكبر مجموعة من الأطلال الاسلامية. بين كل مناطق الشرق الأدنى - بعد سامراء - وكان التنقيب الموسع - لو تم فيها - كفيلا باظهار مخلفات العصر العباسي الأول، التي يقل وجودها في بلاد الشام<sup>٤٥</sup>، واكمال ما أظهرته حفريات سامراء في العراق من معلومات. إلا أنه - وللأسف - فقد أخذت هذه البقعة التي يمكن عدّها البقعة الوحيدة في العالم، التي تكمن فيها أسرار الخليفة العباسي هارون الرشيد، وخلفائه، تندثر بالسكان الجدد. وبالرغم من الحفريات الأثرية التي قام بها العالم الفرنسي دونان عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ في القصر المشار اليه في المديرية العامة للأثار والمتاحف السورية بحرف (A) وما قام به الأستاذ نسيب صليبي، المساعد الفني الممتاز في المديرية العامة للأثار والمتاحف حوالي منتصف هذا القرن بالكشف عن ثلاثة قصور تحمل الأرقام: ب - ج - د. وما قام به الأستاذ قاسم طوير مدير قسم البحوث الأثرية في المديرية، والتي أسفرت جميعها عن نتائج قيمة، لكن هذه الجهود ما كانت تتناسب وأهمية هذه المدينة العظيمة.

وإن نظرة الى المصور الملتقط لمدينة الرشيد من الجو، يرينا مدى الاتساع الذي كانت عليه، وقد زال اليوم معظمها، وما زال بعضها كامناً تحت التراب. وإن السيد نسيب صليبي، يقدر مساحة الرقعة العباسية بـ (٥٠ كم<sup>٢</sup>) وهذا تقدير قريب من الحقيقة<sup>٤٦</sup>، إن لم يكن أقل منها. ونذكر سعتها نقلاً عن سوفاجيه. «.. وتكبر رقاع الأرض التي شيدت عليها المدينة الاسلامية. جميع المدن الأخرى، التي نشأت خلال العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية<sup>٤٧</sup>».

لقد بدأ الرشيد، فعمر قصرًا، خارج أسوار الرافقة، أسماه «قصر السلام»<sup>٤٨</sup> كما أنشأ «القصر الأبيض»<sup>٤٩</sup> و«قصر الخشب»<sup>٥٠</sup> و«قصر هرقل»<sup>٥١</sup> و«قصر الحسينية»<sup>٥٢</sup>. وأخذ

- ٤٥ . مقال الاب فان دميرمير في الحوليات الاثرية العربية سورية، مديرية الاثار العامة، الجمهورية العربية السورية، المجلد ١ لعام ١٩٥١ م، ص ١٥٦.
- ٤٦ . العش، الرقعة، ص ٥٢.
- ٤٧ . تقرير نسيب صليبي في الحوليات الاثرية العربية السورية، عدا القصر المشار اليه بحرف (ج) في المجلد ٦ لعام ١٩٥٦، ص ٢٦، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صليبي، تقرير.
- ٤٨ . الحموي، معجم، ج ٤، ص ٣٧٥.
- ٤٩ . المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٥٤.
- ٥٠ . المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٢ وما بعدها؛ الخطيب البغدادي، ابو بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٤٤م)، تاريخ بغداد أو مدينة او السلام، ١٤ ج، طبعة القاهرة، ١٩٣١م، ج ١٠، ص ١٥٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد.
- ٥١ . الحموي، معجم، ج ٥، ص ٣٩٩.
- ٥٢ . خليل بنان الحسون، أشجع السلمي، حياته وشعره، دار المسيرة، بيروت ١٩٨١م، ص ٢٣٦، ١٣١ وما بعدها، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الحسون، أشجع.

الأمراء والوزراء والكبراء يبنون قصورهم شرقي المدينة وشمالها<sup>٥٦</sup>. ولم تبلغ مدينة الرشيد ذلك الاتساع السريع الا بسبب ما كان متبعاً في ذلك العصر من اقطاع الخلفاء قوادهم مساحات كبيرة من الأرض ليصار الى انتشار القصور والمساكن عليها، ولتزدهر، وتتسع بسرعة فائقة. وهكذا بنيت «رصافة بغداد» من قبل المنصور سنة ١٥١ هـ/٧٦٨م لابنه المهدي<sup>٥٧</sup>.

ولا بد لمدينة الرشيد من أن تكون لاثقة بملكه العظيم، وأن تتوافر فيها عناصر المقر الجديد، ولقد كان من العناصر المهمة لذلك، توافر المياه. وهكذا نجد الرشيد يجلب الماء إلى الرقة من أنهار الفرات، والبلخ، والخابور، ومن أقليم سروج. من ذلك :

١ - النيل : و يطلق عليه اليوم اسم «الحفر». ورد نكره في الرقة من خلال المراجع الأدبية والبلدانية، وتغنى بذكره الشعراء<sup>٥٨</sup>. وكان الرشيد قد حفره على ضفة الفرات والبلخ. إذ كان مستمدة من الفرات، ومصبه في البلخ<sup>٥٩</sup>. بعد مروره بمدينة الرقة وتشعبه بين قصورها. ثم يتعانق مع رافد قادم من نهر البلخ عند «ديرزكا» - حسب وصف الشاعر ابي بكر الصنوبري له<sup>٥٧</sup>.

كأن عناصر نهري ديرزكا  
وقت ذاك البلخ بيد الليالي  
إذا اعتنقا عناق متيمين  
وذاك النيل، من متجاورين

وكانت بقايا قصور الرقة العباسية، من زمن الرشيد وخلفائه، تشاهد منذ سنين أخذة جانبي هذا النهر، ميامن ومياسر. تاركة بينها وبينه شارعين عريضين بموازاته. وهما لا شك كانا فيما مضى قد جفا بالأشجار والرياحين، خلال الفترة الذهبية من تاريخ الرقة. ولست أشك أن معظم قصور الرشيد كانت تطل على هذا النهر، كما يتبين من قول الشاعر أشجع بن عمرو السلمي<sup>٥٨</sup> الذي يصف قصراً للرشيد بالرقة بقولة :

٥٢. العش، «الرقة»، ص ٦٤ وما بعدها.

٥٤. صليبي، تقرير، ص ٢٦.

٥٥. الحموي، معجم، ج ٥، ص ٣٢٤.

٥٦. المصدر نفسه والمكان ذاته.

٥٧. المصدر نفسه والمكان ذاته.

٥٨. البكري، ابو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج ٤، تحقيق مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٩، ج ٢، ص ٥٨٤، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البكري، معجم؛ الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسن (ت ٣٥٦ هـ/٩٦٦ م) الأغاني، ج ٢٤، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٤ م، ج ٤، ص ٥٨٤، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الاصفهاني، الاغاني.

قصر عليه تحية وسلام  
قصر سقوف المزن دون سقوفه  
أجرى الامام إليه نهراً منفعماً  
أقت عليه جمالها الايام  
منه لأعلام الهدى أعلام  
القى القياد وما عليه زمام

وقوله<sup>٥٩</sup>: يصف النهر

وكان صوت الماء في حافته  
زجل القيان تطارح الأصواتا

وإذا ذهب بنا الظن الى طفولة الرشيد، وأيام خلافته، وتذكرنا مدينة الري المكان الذي ولد فيه، وما يكون لديه من ذكريات الطفولة، واعتلاقتها في ذهنه ما جعله في الرقعة يقلد صورة شارع «سربان» في الري، ليعيد من قبله تكوين هذه الصورة في الرقعة. مما جعله يقول<sup>٦٠</sup>: «... الدنيا أربعة منازل، نزلت منها ثلاثة وهي: دمشق والرقعة، والري، وأرجو أن أنزل الرابعة، وهي سمرقند».

٢ - السيب: ويسميه الأهالي «الشيب» - بالشين - وهو سكر في مجرى الفرات ما زالت آثار منه باقية. وكذلك تشاهد آثار الأقنية الآخذة منه حتى اليوم. وقد نقل عن البلاذري<sup>٦١</sup> من خلال حديثه عن واسطة الرقعة أنها «... قبضت في أول الدولة العباسية - ثم صارت لأمر جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فابتنت فيها القطيعة التي تنسب إليها، وزادت في عمارتها..»

٣ - نهر سروج: أوردت ذكره المراجع البلدانية<sup>٦٢</sup> وسروج مدينة من بلاد ديارمضر على بعد يقرب من ١٠٠ كم إلى الشمال الغربي من الرقعة. وكان الرشيد قد اشترى مياه قرى سروج من أصحابها، واحتفر نهراً جديداً لتزويد الرقعة بالمياه. وهذا النهر يسلك في اتجاهه نحو الجنوب الشرقي، حتى اذا تحدر الى وادي البليخ، سار بموازاة الضفة الغربية لنهر البليخ، باتجاه الجنوب، وما زال مقطع من هذا النهر يرى حتى اليوم، ويسميه الأهالي «رأس الجود» بلفظ - الجيم القاهرية - وتعرضه عتبة مرتفعة، فيأخذ مسيل بعض الأودية الصغيرة، ثم يغيب مسافة قصيرة، الى أن يخرج متحدراً

٥٩. الحسن، أشجع، ص ١٩٤.

٦٠. الحموي، معجم، م ٥، «الري»، ص ٦١ (طبعة مصر ١٩٠٩م): المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم: مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٦م، ص ٢٨٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن: ابن الفقيه الهمداني، أحمد بن محمد (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م) مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن ١٨٨٤م، ص ٢٢٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر البلدان.

٦١. البلاذري، فتوح، ص ١٨٤.

٦٢. العشي، «الرقعة»، ص ٦٢، عبد القادر عياش، الرقعة: كبرى المدن الفرانجية القديمة، دير الزور، د. ت، ص ٤٩.

فويق الرقة، من جهتها الشمالية الغربية. فيطلق عليه الأهالي اسم «جورة السوس». ثم يختلط بالنيل الأنف الذكر.

٤ - الوادي الأحمر: مسيل ماء، يجري اليوم، عند هطول الأمطار. ومن تتبع مجراه، يجده يتحدر من غرب مدينة رأس العين باتجاه الجنوب الغربي إلى أن يختلط بنهر البليخ. ولا نعلم متى كان يجري فيه الماء؟ ذلك أن المراجع العربية تشير إلى ماء كان يجري من منابع الخابور إلى الرقة. من ذلك ما ينقل عن المقدسي<sup>٦٢</sup> عندما يتحدث عن مدينة رأس العين فيقول: «... إنها في سهلة أسفلها متخرق بالماء، يتفجر عيوناً... ويقع إليها ثلاثمائة وستون عيناً عذبة تمتد إلى الرقة». وتحدث ابن عبد ربه<sup>٦٤</sup> عن الجزيرة بقوله: «... وهي ما بين دجلة والفرات، وبها نهران، يقال لهما الخابور والبليخ. ومخرجهما من رأس العين، مدينة عظيمة بالجزيرة، في داخلها عين هي عنصر الخابور والبليخ».

إن هندسة بغداد الدقيقة في تنظيمها وفنّها في قد أثرت في أكثر من ١٥٠ مدينة في آسيا وأفريقية وأوروبا. عدا تلك التي وسعها أو جددوها في الشرق والغرب. ولكن أشد تأثير لبغداد يتجلى قبل جميع هذه المدن في مدينة الرافقة التي بناها المنصور بالرقعة<sup>٦٥</sup> وهذه تعد الوحيدة التي بقيت بعض أثارها شاخصة بين المنشآت التي تم تشييدها في الرقة خلال العصور العربية الإسلامية، من ذلك أسوارها وجامعها، وأحد القصور، داخل الأسوار. كذلك لم يبق من مدينة الرشيد، ما يبدو شاخصاً سوى قصره المعروف بـ «هرقلة».

وانتقلت تأثيرات بغداد المعمارية والفنية مارة ببلاد الشام، فمصر، فتونس، إلى فاس. ثم إلى سلا وقرطبة<sup>٦٦</sup>. من ذلك أن الخليفة هارون الرشيد، ولي القائد (هرثمة بن أعين) الذي كان معه في الرقة أفريقيًا بين سنتي ١٧٧ - ١٨٠ هـ/ ٧٩٣ - ٧٩٦ م. فسار هرثمة إلى القيروان، فأمن الناس وأسكنهم، وبنى القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ - ٧٩٧ م. وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر<sup>٦٧</sup>. وكانت أسرة بني الأغلب - وهم من تميم الرقة - في أفريقيًا (تونس) وثيقة الصلة بالعباسيين منذ أقطعها الرشيد، المغرب الأدنى لتنشئ فيه

٦٢. المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٤٠.

٦٤. ابن عبد ربه، ابو عمر أحمد الاندلسي (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩ م) العقد الفريد، ج ٨، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، ابراهيم الابياري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤٩ م، ج ٦، ص ٢٥٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبد ربه، العقد.

٦٥. ظاهر مظفر العميد، بغداد مدينة المنصور المدورة، تقديم ناجي معروف، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٧، ص ٥، (المقدمة). سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: المظفر، بغداد.

٦٦. جورج مارسيسيه، الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٨، ص ٢٣٠، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جورج مارسيسيه، الفن.

٦٧. ابن الاثير، الكامل، ج ٦، ص ١٢٧ - ١٢٩، (احداث سنة ١٧٧ هـ).



امارة قوية، تجعل مصر، وشرقي العالم الاسلامي في مأمن من غارات الخارجين على الخلافة العباسية، في بلاد المغرب. وكان لهذه الصلة الوثيقة اثرها في الأساليب الفنية التي ازدهرت على يد الأغالبة في عمائرهم هناك، فيما بين عامي ١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩ م.

وتتكرر موضوعات فنية من الرقعة، في كثير من العمائر الاسلامية، من ذلك ما كان في قصر الأخيضر، قرب الكوفة بالعراق<sup>٦٨</sup> وفي باب العمارة في الجوسق الخاقاني بسامراء ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م، وفي مسجد سامراء الكبير، ومسجد أبي دلف<sup>٧٠</sup>. وقدر للأسلوب المعروف بـ «الهزاربان» ويعني بالفارسية - ألف حنية - الموجود في باب بغداد القائم على سور الرافقة أن يتطور بتعقيد أكثر في ايران<sup>٧١</sup>.

كما توجد أقدم أمثلة لأسلوب الهزاربان، المعروف بالرقعة، في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط<sup>٧٢</sup> أيام والي الرقعة (عبد الله بن طاهر) سنة ٢٠٥ - ٢١٣ هـ / ٨٢١ - ٨٢٨ م. الذي قدم مصر سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٦ م وعاد منها في السنة الثانية بعد القضاء على عبيد الله بن البصري.

ويتجلى تأثير المسجد الجامع بالرافقة - وهو أقدم المساجد العباسية الباقية الى يومنا - في جامع ابن طولون بمصر بشكله المربع، وأروقته المزدوجة، وعقوده شبه المدببة، واستعمال الدعائم فيه، بدل الأعمدة والأعمدة الركنية النصف بارزة في زوايا الدعائم. وفي وجود المحاريب عند أسفل الدعائم، ومحاريب صغيرة في الواجهات المطللة على الصحن<sup>٧٣</sup>.

وينكر ابن حوقل<sup>٧٤</sup> «أن لمدينة المهديّة بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض، شبيه ولا نظير، غير البابين اللذين هما على سور الرافقة، وعلى مثالهما عملا، ومثل شكلهما اتخذا». فلا غرو إذا، أن يقول ميشيل ماينكه<sup>٧٥</sup> عن الرقعة «.. إنها أحد أهم مراكز الفنون في المشرقين العربي والاسلامي».

٦٨. زكي محمد حسن، فنون الاسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤١ م، ص ٦١، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: زكي، فنون.
٦٩. فريد الشافعي، العمارة العربية، القاهرة ١٩٧٠ م، ج ١، ص ١٧٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الشافعي، العمارة؛ كرزويل، الآثار الاسلامية، دمشق، ١٩٨٤، ص ٢٦٩، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: كرزويل، الآثار.
٧٠. كرزويل، الآثار، ص ٢٤٤، الشافعي، العمارة، ج ١، ص ٤١٣.
٧١. كرزويل، الآثار، ص ٢٤٩.
٧٢. كرزويل، الآثار، ص ٢٦٩، الشافعي، العمارة، ج ١، ص ١٧٧.
٧٣. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٥٧٧ - ٥٨٠، ٦٢٠، (احداث سنة ٢٠٥ - ٢١٣ هـ).
٧٤. ابن حوقل، صورة الارض، ص ٧٣.
٧٥. مقالة في الحوليات الاثرية العربية السورية، م ٢٢، ع ٢، (١٩٨٣)، ص ٢٦٨.

ومهما يكن فقد كان قصر الرشيد بالرقعة، كما كان قصره ببغداد، منتدى ومجمعاً للعطاء والشعراء والفصحاء، وأهل الأدب، اجتمع فيه ما ليم يكن مجتمعاً على باب أحد من الخلفاء والملوك مثله. وكذلك قصور الأمراء من أبناء الأسرة العباسية، والأمراء البرامكة، ويزيد بن يزيد الشيباني، وعقبة بن الأشعث وطوق بن مالك، وغيرهم.

وكان بجانب الرشيد بالرقعة من العلماء، والنحويين، والفقهاء والمحدثين الأصمعي<sup>٧٦</sup> وأبو عبيدة معمر بن المثنى<sup>٧٧</sup> والكسائي<sup>٧٨</sup> والامام الشافعي<sup>٧٩</sup> والامام محمد بن الحسن الشيباني<sup>٨٠</sup> وعبدالله بن المبارك<sup>٨١</sup> وغيرهم كثيرون.

ويفد إليه بالرقعة، يوم كانت تند إليها مواكب الدنيا شعراء عصره، ليقموا إلى جانبه، وينالوا عطاياه، وعطايا الأمراء، ومن هؤلاء الشعراء من كان من الرقعة، أو من غيرها من بلدان مضر والجزيرة. ومنهم من هو من العراق، أو الحجاز، أو من بلاد فارس، من ذلك: أبو نواس<sup>٨٢</sup> وأبو العتاهية<sup>٨٣</sup>، وكلثوم العتابي<sup>٨٤</sup> وربيعة الرقي<sup>٨٥</sup>، ومنصور النمري<sup>٨٦</sup> وأشجع

- 
٧٦. الاصفهاني، الاغاني، ج ٥، ص ١٩٤٦.
٧٧. الاصمعي، ابوسعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م)، الاصمعيات، شرح وتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٢١٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاصمعي، الاصمعيات.
٧٨. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ١، ص ٤٠٣.
٧٩. أبو الفداء، اسماعيل بن علي بن محمود (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر، ج ٢، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ج ٢، ص ٢٦. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفداء، المختصر.
٨٠. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ١، ص ١٧٢، محمد بن زاهر بن الحسن الكوثري، بلوغ الاماني في سيرة الامام محمد ابن الحسن الشيباني، حمص، ١٩٦٩م، ص ٤٩.
٨١. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ١٠، ص ١٥٦؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨١م) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ج ٨، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، ج ٢، ص ٣٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلكان، وفيات.
٨٢. ابو نواس، ابو علي الحسن بن هاني (ت ١٩٨هـ/ ٨١٣م) ديوان ابي النواس، ج ٢، تحقيق وضبط وشرح احمد عبد المجيد الغزالي، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٢٥٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابونواس، ديوان: الحموي، معجم ج ٢، ص ٢٨٤ (طبعة مصر ١٩٠٩).
٨٣. الاصفهاني، الاغاني، ج ٤، ص ١٢٧٧ و١٢٤٦.
٨٤. ابن كثير، البداية، ج ١٠، ص ٢٦٦ (مطبعة السعادة، مصر).
٨٥. الاصفهاني، الاغاني، ج ١٧، ص ٦٠٦٣.
٨٦. المصدر السابق، ج ٢٠، ص ٧٠١٦.

السلمي<sup>٨٧</sup> ومسلم بن الوليد<sup>٨٨</sup> ومروان بن أبي حفصة<sup>٨٩</sup>، ودعبل بن علي الخزاعي<sup>٩٠</sup> وأبو الشيبخ الخزاعي<sup>٩١</sup> والعباس بن الأحنف<sup>٩٢</sup> وعلي بن الخليل<sup>٩٣</sup> وأحمد بن سيار الجرجاني<sup>٩٤</sup> ويوسف بن الحجاج<sup>٩٥</sup> ومحمد وعلي ابنا أمية<sup>٩٦</sup> والنضر بن أبي النضر التميمي<sup>٩٧</sup>. وأبو حفص الشطرنجي<sup>٩٨</sup>، والعماني الرازي<sup>٩٩</sup> ويحيى بن المبارك النيردي<sup>١٠٠</sup> والجدي التميمي<sup>١٠١</sup> ويحيى المكي<sup>١٠٢</sup> وسعيد بن وهب<sup>١٠٣</sup> وغيرهم.

٨٧. الخطيب البغدادي، تاريخ، ج ٧، ص ٤٥؛ الاصفهاني، الاغانى، ج ٢، ص ٧٠١٤.
٨٨. ابونواس، ديوان، ص ١.
٨٩. الرئيس، الخراج، ص ٣٧٩.
٩٠. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٢٧١.
٩١. الاصفهاني، الاغانى، ج ١٧، ص ٦٢٥١.
٩٢. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢١٧، (احداث سنة ١٨٨ هـ وسنة ١٨٩ هـ).
٩٣. الاصفهاني، الاغانى، ج ١٤، ص ٥٠٤٤.
٩٤. المصدر السابق، ج ٢٠، ص ٧٠١٧.
٩٥. المصدر السابق، ج ٢٣، ص ٨٨ وما بعدها.
٩٦. المصدر السابق، ج ١٢، ص ٤٣١٥.
٩٧. المصدر السابق، مطبعة دار الشعب، بيروت ١٩٦٠، ج ٢١، ص ٢٦٥ وما بعدها.
٩٨. العمري، شهاب الدين احمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٨ م) مسالك الابصار في ممالك الامصار، ج ١، القاهرة ١٩٢٤ م، ص ٢٦٩.
٩٩. الاصفهاني، الاغانى، ص ٧١٤٣.
١٠٠. المصدر السابق، طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠ م، ج ٢٠، ص ١٨٠ وما بعدها وص ٢٠٤.
١٠١. الاغانى، طبعة دار الشعب بالقاهرة، ١٩٧٢ م، ج ٢٠، ص ٧٠٥٩، (الشرح).
١٠٢. المرجع نفسه، ج ٦، ص ٢٢٥٣، ج ٢٠، ص ٧٠٥٩.
١٠٣. ابن المعتز، عبد الله (ت ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م) طبقات الشعرى في منح الخلفاء والوزراء، تحقيق عبد الستار احمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦ م، ص ٢٥٦، وما بعدها.

## الشيخ تقي الدين ابو الصلاح الحلبي هـ/ ٩٨٤م - ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥م وعلم الكلام

مهدي محقق\*

الشيخ تقي الدين بن نجم الدين عبيد الله بن عبد الله ابو الصلاح الحلبي الشامي من أكابر علماء الامامية، ولد في مدينة حلب سنة أربع وسبعين وثلاثمائة/٩٨٤م وتوفي بها سنة سبع وأربعين وأربعمائة/١٠٥٥م<sup>١</sup>.

يقول الذهبي في تاريخه: التقي بن نجم بن عبد الله ابو الصلاح شيخ علماء الشيعة وعالم الرافضة بالشام. قال يحيى بن ابي الطي الحلبي في تاريخه: هو عين علماء الشام والمشار اليه بالعلم والبيان، والجمع بين علوم الأديان وعلوم الأبدان، وذكر عنه صلاح وزهد وتقشف زائد وقناعة مع الحرمة العظيمة والجلالة، وأنه كان يرغب في حضور الجماعة، وكان لا يصلي في المسجد غير الفريضة، ويتنقل في بيته، ولا يقبل ممن يقرأ عليه هدية، وكان من أذكى الناس وأفقههم وأكثرهم تفننا<sup>٢</sup>. ويصفه المستشري بأنه عمدة الفقهاء والمتكلمين ونخبة الفضلاء المعتمدين، وهو من أساطين تلامذة المرتضى والشيخ والدلمي، وكان خليفة المرتضى في البلاد الحلبية، وكان الدلمي اذا استفتى يقول: عندكم التقي<sup>٣</sup>. ويصرح شيخ الطائفة الامامية أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى ٤٦٠ هـ/١٠٦٧م في كتاب رجاله ان تقي الدين بن النجم الحلبي ثقة عين له كتب. ويقول إنه قرأ علينا وعلى المرتضى<sup>٤</sup>. وكذا مصنفو رجال الشيعة يصفونه بعلمه وفضله وعظم شأنه والوثوق برواياته<sup>٥</sup>.

\* معهد الدراسات الاسلامية، طهران، جمهورية إيران الإسلامية.

١. ابن حجر، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي الكفائي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) لسان الميزان، ج ٦، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر اباد، ١٣٢٩ - ١٣٣١ هـ، ج ٢، ص ١٧، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر، لسان.
٢. محمد راغب الطباخ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج ٧، المطبعة العلمية، حلب، ١٩٢٣، ج ٤، ص ٧٧، ويشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الطباخ، اعلام، نقلا عن الذهبي (مقدمة الكافي، ص ٥).
٣. المستشري، اسد الله الكاظم، مقاييس الانوار ونفائس الاسرار، طهران، ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤م، ص ٨، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المستشري، مقاييس.
٤. الأردبيلي، محمد بن علي الفروي الحانري (ت ح ١١٠٠هـ/١٦٨٨م)، جامع الرواة وازاحة الاشتباهات عن الطرق والاسناد، ج ٢، طهران، ١٣٧١ هـ، ج ١، ص ١٣٢.
٥. الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ/١٦٩٢م)، أمل الآمل، ج ٢، تحقيق السيد احمد الحسيني، مكتبة

وقال صاحب نخبة المقال في معرفة الرجال في حقه :

تقي النقي بو الصلاح عين فقيه صاحب القداح<sup>٦</sup>

لقد استقرأ اصطلاح العلماء والفقهاء في مقام نقل الأقوال على إطلاق لفظ «الشاميين» على أبي الصلاح، وعلى السيد ابن زهرة، والشيخ محمود الحمصي، وابن البراج<sup>٧</sup>، كما يطلق لفظ «الحلبين» على أبي الصلاح وعلى السيد بن زهرة<sup>٨</sup>.

ومن تلاميذ أبي الصلاح أبو القاسم سعد الدين عز المؤمنين الشيخ عبد العزيز بن البراج المتوفي ٤٨١هـ/١٠٨٩م الذي كان قاضياً بطرابلس وله تصانيف من جملتها : كتاب جل العلم والعمل، وكتاب المهذب<sup>٩</sup>. ومن تلاميذه الشيخ عز الدين عبد العزيز بن أبي كامل الطرابلسي القاضي المحقق الفقيه العابد الذي كان من تلاميذ الشيخ الكراچكي أيضاً<sup>١٠</sup>. ومن قرأ على الشيخ أبي الصلاح وأخذ العلم وروى عنه الشيخ ثابت بن أحمد بن عبد الوهاب الحلبي<sup>١١</sup>، والشيخ التواب بن الحسن بن أبي ربيعة الخشاب البصري<sup>١٢</sup>، والشيخ أبو محمد ربحان بن عبد الله الحبشي<sup>١٣</sup>، والسيد رضي الدين محمد بن

- = الاندلس، بغداد، ١٣٨٥، ج-٢، ص ٤٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الحر العاملي، أمل؛ الاصفهاني، عبد الله افندي (الحادي عشر المهجري/ السابع عشر الميلادي) رياض العلماء وحياض الفضلاء، ج٦، تحقيق السيد احمد الحسيني، مطبعة الخيام، قم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١، ص ١٠٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الاصفهاني، رياض؛ الرازي، منتخب الدين، فهرست اسماء علماء الشيعة وتصانيفهم، (قم، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ويصفه الاخير بأنه «فقيه عين ثقة»، ص ٣٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الرازي، فهرست.
٦. نخبة المقال في معرفة الرجال، طهران، (طبعة حجر)، ص ٢٢.
٧. الاصبهاني، محمد باقر الموسوي الخوانساري، روضات الجنات في احوال العلماء والسادات، ج٨، تحقيق أسد الله اسماعيليان، مكتبة اسماعيليان، طهران، ١٣٩٠هـ، ج٢، ص ١١٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الاصبهاني، روضات.
٨. قد يطلق اصطلاح «الحلبين» بصيغة التثنية على المحقق الحلبي والعلامة الحلبي كما يطلق «السيدين» على المرتضي وابن زهرة والشيخين على المفيد والطوسي، انظر : المصدر نفسه، ج٢، ص ١١٤.
٩. الحر العاملي، أمل، ج٢، ص ١٥٢. يقول المؤلف : أنه كان ملقباً بالقاضي.
١٠. المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٩. يقول المؤلف : يروي عن أبي الصلاح وابن البراج وعن الشيخ المرتضي رحمهم الله.
١١. المصدر، السيد حسن الصدر، تكمله أمل الآمل، قم، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١١٥. يقول المؤلف : «وذكره هنا اخرى لان الحلبيين شاميون» وكذا في الاصفهاني، رياض، ج١، ص ١٠١.
١٢. الحر العاملي، أمل، ج٢، ص ٤٦؛ الاصفهاني، رياض، ج١، ص ١٠٠.
١٣. الحر العاملي، أمل، ج٢، ص ١٢٠.

محمد الآوي العلوي الحسيني<sup>١٤</sup>، والسيد رضي الدين محمد بن محمد بن زيد أبي الداعي الحسيني<sup>١٥</sup>.

وللشيخ تقي الدين تأليفات عديدة أكثرها في الفقه والحديث والكلام، وحينما يصفه الذهبي بأنه جامع بين علوم الأديان وعلوم الأبدان يشير الى كتابه في الطب المسمى «تدبير الصحة في الطب»، كتبه لصاحب حلب نصر بن صالح الذي ولي الحكومة سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م وقتل سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م<sup>١٦</sup>. ومن أهم كتبه في الفقه كتاب (الكافي في الفقه)<sup>١٧</sup>، وفي الكلام كتاب (تقريب المعارف في الكلام)<sup>١٨</sup> طبع الأول في مدينة أصفهان سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م والأخير في مدينة قم سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م تحت اشراف الأستاذ الجليل الشيخ رضا الاستاذي من مدرسي الحوزة العلمية في قم، وله مقدمة قيمة في بدء الكتابين حول حياة الشيخ تقي الدين ومشايخه وتلاميذه وآثاره جزاه الله عن العلم خير الجزاء.

وحيث إن اهتمامنا في هذا المقال التعريف بأبي الصلاح كمتكلم يجب أن نذكر أن كتاب تقريب المعارف الف مستقلًا لبيان المسائل الكلامية، ولكن المؤلف يذكر في كتاب الكافي الذي ألفه في الفقه نبذة من مسائل علم الكلام، وذلك لأنه يبحث في بدء كتاب الكافي عن ماهية التكليف ويقسمها الى التكليف العقلي والتكليف السمعي، ويقول إن طريق العلم بالتكليف العقلي هو على ضربين: أحدهما العلم به من فعله تعالى في العاقل ابتداءً، فهو لذلك مضطر الى العلم به، وثانيهما طريق العلم به نظر المكلف في الأدلة المنصوبة عليه، ويسمى الأخير «التكليف المكتسب»، ويشتمل على علم التوحيد والعدل<sup>١٩</sup>. ويقول المؤلف: «والواجب من هذا التكليف العلم وطريقة الوقوف عليه

١٤. المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٨.

١٥. المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٠٣.

١٦. ابن العديم، كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م) زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج ٣، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١-١٩٦٨، ج ١، ص ٢٣٧-٢٥٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن العديم، زبدة الحلب.

١٧. كان هذا الكتاب من مصادر فقهاء الشيعة كابن ادريس في السرائر والعلامة في المختلف والمجلسي في بحار الانوار، والشيخ تقي الدين ابو الصلاح، الكافي في الفقه، نشر باشراف الشيخ رضا الاستاذي، اصفهان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (مقدمة الكتاب)، ص ٢٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابو الصلاح الحلبي، الكافي.

١٨. الف ابو الصلاح كتاب تقريب المعارف في الكلام قبل كتاب الكافي ونقل عنه في الكافي في مواضع عديدة، ابو الصلاح الحلبي، الكافي، (مقدمة الكافي)، ص ٢٢.

١٩. المصدر السابق، ص ٣٥، ٣٧.

وجبه وجوبه كونه شرطاً في العلم بالثواب والعقاب وشكر المنعم الذي لا يصحان ولما يعلم المنعم المشيب المعاقب، وهذا التكليف لا ينفك منه عاقل، ونحن نبين وجوب العلم بهذا التكليف، وجهة وجوبه، والسبب الموصل إليه، والأدلة المنصوبة عليه ومفصلاً»<sup>٢٠</sup>.

وبعد بيان التوحيد والعدل يذكر المؤلف النبوة والامامة، ويستدل بأن التكليف العقلي لا يتم من دون بعثة الأنبياء، لأنه وجب في حكمته سبحانه إعلام المكلف به ليفعل ما هو مصلحة له كالصلوات الخمس وصوم الشهر، ويحْتَنَب ما هو مفسدة له كالزنا والربا وشرب الخمر. والله تعالى بعث الرسل بالشرائع لبيان مصالح المبعوث إليهم من مفاسدهم، وهذا لطف من الله<sup>٢١</sup>، وهكذا يقول إنه لا يتم التكليف العقلي من دون نصب الامام والرئيس، لأننا نعلم ضرورة أن وجود الرؤساء المهيبين النافذي الأمر، المرهوبي السطوة، مقلل للقبیح، ومكثّر للحسن، وأن فقدهم بل ضعفهم بعكس هذه القضية وهذا لطف من الله سبحانه أيضاً<sup>٢٢</sup>. وبعد ختم هذه المقدمة الكلامية يبدأ ببيان التكليف السمعي أو الشرعي، ويقسمه الى عبادات ومحرمات وأحكام<sup>٢٣</sup>، وفي هذا القسم يفصل أبواب الفقه المختلفة من العبادات والمعاملات<sup>٢٤</sup>.

وفي نهاية الكتاب يشير أبو الصلاح الى أنه متفرد في تقسيم التكليف الى العقلي والشرعي. وللمقارنة بين هذين التكليفين جعل المسائل الكلامية مقدمة لبحث المسائل الفقهية. وهذا عبارته في آخر كتاب الكافي: «وقد وفينا بما شرطناه على أنفسنا من تقريب العبارة عن جملة التكليف، وكيفية العبارة عن الاستدلال على مسائلهم وترتيبها على الوجه الذي اقتضاه التكليف وجهته، وبلغنا من تحرير ذلك وتهذيبه حداً يعلم كل مصنف ذو بصيرة تأمله تمييزاً عن كثير من تصانيف العلماء، ويقدر من فهمه على ما لعله لم يقف عليه من غيره من كبار الكتب»<sup>٢٤</sup>.

وختاماً نقول إن المصتفأ أورد التكليف العقلي في القسم الاول من الكتاب، والتكليف السمعي في القسم الثاني، وختم كتابه بذكر «المستحق بالتكليف وأحكامه» وجعله القسم الثالث، وفي هذا القسم يذكر المسائل مجملًا، ويشير الى أن من يريد الاستيفاء والغاية منها فليرجع الى كتاب التقريب (٢٥).

٢٠. المصدر السابق، ص ٣٨.

٢١. المصدر السابق، ص ٦٤.

٢٢. المصدر السابق، ص ٨٥.

٢٣. المصدر السابق، ص ١٠٩.

٢٤. المصدر السابق، ص ٥١١.

٢٥. المصدر السابق، ص ٤٤٤، ٤٧٩، ٤٨٢، ٥١٠.

وأما كتاب تقريب المعارف في الكلام الذي ألفه ابو الصلاح قبل كتاب الكافي فكان من مصادره العلامة محمد باقر المجلسي في موسوعة بحار الأنوار ووصفه كمايلي : «وكتاب تقريب المعارف كتاب جيد في الكلام، وفيه أخبار طريفة أوردنا بعضها في كتاب الفتن، وشأن مؤلفه أعظم من أن يفتقر الى البيان»<sup>٢٦</sup>. ويصف ابو الصلاح كتاب التقريب بأنه على وجه يزيد عن تقريب محل ويغني عن إطالة محل، يطلع بها متأملها على تكليفه العقلي، ويقف منها على معظم الغرض الديني، ويتنبه بها المصطلع، ويقتدي بها المبتدي»<sup>٢٧</sup>.

وحيثما يبدأ كلامه بمسألة التوحيد يؤكد على وجوب النظر المؤدي الى المعرفة، ويستدل بأن كل عاقل نشأ بين العقلاء يعلم اختلافهم ودعوة كل فريق منهم الى مذهبه وتخويفه من خلافه، فيخافهم لا محالة، وإذا خاف وجب عليه التحرز مما خافه لعلمه ضرورة بوجوب التحرز من الضرر، فلا يخلو أن يتحرز باتباع الجبل، او اطراح الجبل، او اتباع بعض عن نظر أو تقليد. واتباع الجبل محال للتنافي عما بينهم، واطراح الجبل يقتضي كونه على ما كان عليه من الخوف، واتباع البعض عن تقليد لا يرفع خوفه مما اطرحه من المذاهب، لتجوز كونه حقا ولا يقتضي سكونه الى ما ذهب اليه لتجوز كونه باطلا. فلم يبق لتحزره من الضرر المخوف إلا النظر المميزين الحق والباطل<sup>٢٨</sup>.

وبعد إثبات حدوث الأجسام وبيان أوصاف المحدث، يبين المؤلف كون البارئ تعالى قادرا وعالما وحيا وقديما وسمعيًا وبصيرا ومدركا ومريدا ومتكلما. والطريق الى العلم بكونه متكلما هو السمع، وقد علمنا ضرورة من دين النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن كلامه تعالى، وإذا ثبت كونه تعالى متكلما وجب أن يكون كلامه فعله، لثبوت الاشتراك فيما به كان المتكلم، ولأن كلامه تعالى من جنس الصوت وهو محدث فيجب كونه محدثا، ولأنه خطاب لمخاطبين فلو كان قديما لكان كل ما فيه من الأخبار الماضية كذبا وباقي الأخبار والأوامر والنواهي عبثا، وهويتعالى عن ذلك. ولأنه قد أخبر انه محدث فقال : «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث»<sup>٢٩</sup> و«من الرحمن محدث»<sup>٣٠</sup>. وفي هذا الفصل يقول : إن القرآن وإن كان محدثا فوصفه بأنه مخلوق بدعة، وإن كان المعنى واحدا، ويستدل اولاً : بأنه لا يوجد هذا الاسم في كتاب ولا سنة، بل الوصف له مختص بالاحداث. وثانياً : بأن

٢٦. المجلسي، محمد باقر بن محمد الاصفهاني، (١١١١هـ/١٦٩٩م) بحار الانوار الجامعة لدور اخبار الائمة الأظهر، مؤسسة الوفاء، ١١٠، ج ٢، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ٢، ص ٣٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : المجلسي، بحار.

٢٧. ابو الصلاح المجلسي، تقريب المعارف في الكلام، نشر باشراف الشيخ رضا الايتيادي، قم، ١٤٠٤هـ/ ص ٣٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابو الصلاح، تقريب.

٢٨. المصدر السابق، ص ٣٤.

٢٩. آية ٢ من سورة الانبياء.

٣٠. آية ٥ من سورة الشعراء.



وصف الكلام بأنه مخلوق يفيد «مكذوب» يقال : هذا كلام مخلوق ومفتعل بمعنى مكذوب، ومنه قوله تعالى : «وخرقوا له بنين وبنات»<sup>٣١</sup> وقوله : «إن هذا الا خلق الاولين»<sup>٣٢</sup> وإذا كان إطلاق الخلق على الكلام يفيد الكذب وجب تنزيه كلامه تعالى عن هذا الوصف. وثالثا : ما روى عن أئمتنا من القول بتبديع من وصفه بالخلق<sup>٣٣</sup>.

ويستدل أبو الصلاح على وجوب النبوة بأن الرياسة واجبة في حكمه تعالى على كل مكلف يجوز منه إيثار القبيح لكونها لظفا في فعل الواجب، والتقريب اليه وترك القبيح أو التباعد منه، بدليل عموم العلم للعقلاء، بكون هذه حالة عند وجود الرئيس المبسوط اليد، الشديد التدبير، القوي الرهبة، الى الصلاح أقرب، ومن الفساد أبعد، وكونهم عند فقدة أو ضعفه بخلاف ذلك<sup>٣٤</sup>. ولا بد من كون الرئيس أعلم الرعية بالسياسة لكونه رئيسا فيها، وقبح تقديم المنفصول على الفاضل فيما هو أفضل منه<sup>٣٥</sup>. وهذه الرياسة قد تكون نبوة، وكل نبي رسول وإمام اذا كان رئيسا، وقد تكون إمامة ليست بنبوة، ومن ذلك يفرق بين المقامين، ويثبت أن النسبة بين النبوة والامامة عموم وخصوص مطلق.

ويجب أن نذكر أن ابا الصلاح ألف وجيزة في علم الكلام وسماها «البرهان على ثبوت الايمان» وذكر فيها ملخص ما ذكر في كتاب (تقريب المعارف) وكتاب (الكافي)، وطبعت هذه الرسالة أخيرا ضمن كتاب «اعلام الدين في صفات المؤمنين» تأليف الشيخ الحسن بن أبي الحسن الديلمي من اعلام القرن الثامن الهجري<sup>٣٧</sup>. ويبدو أن المؤلف كتب هذه الرسالة للمبتدئين، وكتاب التقريب للمستكملين على دأب العلماء. وكان لأبي الصلاح كتاب أكبر في علم الكلام وهو شرح كتاب الذخيرة للمرغضى الذي ذكره ابن شهر آشوب المازندراني، الذي لم يصلنا<sup>٣٨</sup>.

وختاما أرجو أن تكون هذه المقالة الموجزة مفيدة للعلماء الذين يبحثون عن أعلام علماء الشام الأجلة عامة، وعلماء مدينة حلب الشهباء خاصة، شكر الله مساعي جميعهم. وأرجو من الله تعالى أن يوفق أوليا المؤتمر الشريف لآحياء التراث الإسلامي القيم. ونسأله أن يجعل هذا التراث أساسا لبناء فكرنا وحضارتنا وثقافتنا بئنه تعالى وكرمه.

٣١. آية ١٤ من سورة آل عمران.

٣٢. آية ١٣٧ من سورة الشعراء.

٣٣. المصدر السابق، ص ٦٨.

٣٤. المصدر السابق، ص ٩٥.

٣٥. المصدر السابق، ص ١٠١.

٣٦. المصدر السابق، ص ١٠٢.

٣٧. من منشورات مؤسسة آل البيت عليهم السلام لآحياء التراث، قم، (١٤٠٨هـ/١٩٨٤م)، ص ٤٤-٥٨.

٣٨. المازندراني، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ/١١٩٢م)، معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة واسماء

المصنفين منهم قديما وحديثا، المطبعة الحيدرية، النجف، الاشراف، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م، ص ٢٩.

## الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي ورسالته الهارونية

سامي خلف حارثة

مقدمة :

ظهر في العصر العربي الإسلامي الذهبي، عدد من العائلات كانت قد اختصت أبا عن جد، بممارسة المهن الصحية المختلفة : كالطب السريري (الطبايعي) والوقائي وطب العين (الكحالة) والجراحة (وتجبير العظام) والصيدلة (الصيدنة). ولنا في ذلك أمثلة كثيرة كعائلة : يُختيشوع وبني قرة الحرائني، وبني حُلقة، والرحبي والسويدي، وبني زهر الايادي، وبني الجزار في الأندلس والمغرب. ومن أولى هذه العائلات الرائدة كانت عائلة الدمشقي، التي كان مسقط رأس جميع أفرادها مدينة دمشق، وقد زاولوا هذه المهنة الشريفة بنجاح كبير، مشهود له في ظاهره طبيعية فريدة دامت من حوالى ٥٧- ٢٢٥هـ/٦٧٧- ٨٤١م<sup>١</sup>.

وكان أبو حاكم (أو الحكم) الدمشقي هو جد هذه العائلة، وشهد له المؤرخون بأنه كان عارفا بالأدوية وأصناف المعالجات الطبية therapeutics، وان له الباع الطويل في مهارات نافعة، وممارسات رائدة وخدمات صحية صائبة. وقد عمل كطبيب في خدمة الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٦٦١- ٦٨٠م)، مؤسس الدولة الأموية منذ عنفوان شبابه. وكان الخليفة يعتمد عليه، في تركيب المستحضرات الصيدلانية للمعالجة والشفاء. ومنها أيضا أدوية قوية وسامة، كان واصفا لها كخبير في معرفة العقاقير وأفعالها وتأثيراتها، واضعا في هذا مع سواه من الأطباء، أسسا في تطوير علم السموم

Carl Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur*, E.J. Brill, Leiden, 1943, Vol. I, pp. 274,634, II, p.650 and Supplement, Vol.I, p.416, II, p.1029.

Brockelmann, *Geschichte*

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :

Albert Dietrich, *Medicina Arabica*, Gottingen, 1966, pp. 24-25. Dietrich, *Medicina*

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :

Amin A, Khairallah, *Outline of Arabic Contributions to Medicine*, Beirut, American Press, 1946, pp. 48-51, 126. Khairallah, *Outline*

وخصائصها وأضدادها في العصر الإسلامي. وقد انتشرت هذه الخبرة بتأثير كلاسيكي (اغريقي وروماني) وهندي، بجانب المدرسة التي كانت معروفة في منطقة الهلال الخصيب والبلاد المصرية آنذاك<sup>٢</sup>.

ثم اختص الطبيب أبو الحكم (أو الحكم) هذا بولي العهد يزيد بن معاوية بعد توليه منصب أمير مواسم الحج المباركة الى مكة المكرمة عام ٦٠هـ/٦٧٩م، وأفراد من اسرة بني امية. كما أن أبا حكم التزم بعد ذلك في الخدمة الطبية للخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد (٦٨٥ - ٧١٥م) وأفراد العائلة المالكة، كاسبأ ثقتهم في الرعاية الصحية. ولقد عمّر أبو الحكم طويلا حتى تجاوز المائة، وتوفي في مطلع العصر العباسي الأول<sup>٣</sup>.

أما حكم، فقد لحق بأبيه في اتقان المهارات والمعالجات الطبية، والممارسة والأعمال المهنية المتميزة بدمشق، وإن كنا لا نعرف لأي منهما آثاراً خطية باقية. وقد عمّر حكمٌ أيضا طويلا كأبيه، وبلغ عمرا يناهز مائة وخمس سنوات قمرية (حوالي ١٢٠ سنة شمسية)، ولم يتشج لون وجهه أو يتغير أو ينقص شيء من إشراقه ورونق جماله، أو يضعف من زجاجة عقله. وقد توفاه الله حسبما نعلم، في مطلع عام ٢١٠هـ/٨٢٤م، حتى قيل عنه إنه عاش نصف التاريخ - وهذه إشارة الى أنه عاصر النهضة الطبية في أوج مجدها: منذ أواخر الدولة الأموية وحتى صدر الدولة العباسية، في زمن كثر فيه التسامح والحلم وسعة الرزق<sup>٤</sup>.

**الدمشقي الحفيد:** أما بيت القصيد فهو مآثر الطبيب الحفيد: أبي الحسن عيسى مسيح بن حكم (الحكم بن أبي الحكم) المشهور في النصوص اللاتينية (Christianellus)، وقد ولد أبو الحسن عيسى هذا

٢ ابن ابي اصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م)، عيون الانباء في طبقات الاطباء، طبعة بولاق، القاهرة، ١٨٨٢، ج ١، ص ١١٩ - ١٢٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن ابي اصيبعة، عيون، سامي حارنه، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، عمان - اربد، جامعة اليرموك، ١٩٨٦ م، ص ٣٩ - ٤١، ٦٣، ٨٠ - ٨٣، ١١٩ - ١٢٢، ١٤١، ٢٠١. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حارنه، تراث.

Faut Sezgin, Geschichte des Arabischen Schrifttums, Vol.3, E.J. Brill, Leiden, 1980, pp. 205, 227-228.

Sezgin, Geschichte وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Lucien Leclerc. Histoire du La Medecine Arabe, Paris, 1870, Vol. I, pp. 83-85. Leclerc. Histoire وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

٤ ابن ابي اصيبعة، عيون، ج ١، ص ١١٩ - ١٢١. لويس شيخو، (١٨٥٩ - ١٩٢٧)، علماء النصرانية في الاسلام ٦٢٢ - ١٣٠٠، تحقيق وتقديم كميل حشمة اليسوعي، المكتبة البولسية، جونيه، لبنان، ١٩٨٣ م، ص ٢٩١ - ٢٩٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: شيمنو، علماء

في دمشق كأبيه وجده، وكان ذلك في زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بن مروان، حوالي ١٢٢هـ/٧٣٩م، وتوفي زمن الخليفة المعتصم العباسي حوالي ٢٢٧هـ/٨٤١م. وكان الحفيد أكثر أفراد هذه العائلة شهرة، وأغزرهم علما في مهارته الطبية، وترك لنا - دون سواه - آثارا خطية باقية في أصول العلوم الطبية والمعالجات وقوانينها، وأهمها الرسالة الهارونية، التي أكملها في بغداد كما يظن حوالي ١٩٢هـ/٨٠٨م<sup>٥</sup>.

إن أول من ذكره وعائلته من المؤرخين، الوراق بن النديم في كتاب الفهرست (أكمله عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م) الذي لم يكن يعرف من أمره أكثر من اسمه<sup>٦</sup>. غير أن أول من ذكره بين الأطباء الناجحين، المتطبب أبو بكر الرازي (٢٦٥هـ/٨٦٥م - ٣١٣هـ/٩٢٩م) وذلك في العديد من تصانيفه وأهمها: الكتاب الحاوي الكبير في الطب، حيث يقتبس أقواله فيه أكثر من ثمانين مرة<sup>٧</sup>.

أما الطبيب علي بن العباس (بن) المجوسي المتوفي عام ٣٨٤هـ/٩٩٤م، فقد أشار في مقدمة كتابه كامل الصناعة الطبية، الى رسالة عيسى الدمشي ووصفها بأنها كانت مقتضبة. كما أن أبا الريحان البيروني (٣٦٣هـ/٩٧٣م - ٤٤٣هـ/١٠٥١م) ذكره في كتابه: الصيدنة في الطب، في اقتباسات كثيرة وبعضها هامة للغاية<sup>٨</sup>. وقد مدحه القاضي صاعد الأندلسي باختصار في عبارات وجيزة<sup>٩</sup>. أما في القرن التاسع عشر، فمن أشهر من ذكر كل من: فردنند فستنفيلد Wüstenfeld ولوسين ليكلر (ت ١٨٩٢م).

٥. Leclerc, Histoire, Vol. I, pp. 83-85. Georg Graf. Geschichte der Christlichen. Arabischen literature, Vatican, Biblioteca Apostolica, Vol. 2, p. 112.

- وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :
٦. ابن النديم، ابو الفرج محمد بن اسحق بن يعقوب (ت ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م)، الفهرست، تحقيق غوستاف فلوغل، طبع لبيزج، ١٨٧٢، ج ١، ص ٢٩٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن النديم : القهرست.
٧. الرازي، اب بكر محمد بن زكريا (٣١١ هـ / ٩٢٣ م)، الحاوي في الطب، ج ٢١، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد. الدكن، الهند، (١٩٥٥ - ١٩٦٩).
٨. البيروني، ابو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م)، كتاب الصيدنة في الطب، ج ٢، تحقيق محمد سعيد ورائنا احسان الهي، مؤسسة همدرد الوطنية، كراتشي، ١٩٧٣، م ١، ص ٣٨، ٥٠، ٥٧، ٧٣، ١٠١، ١٠٨، ٢١٥، ٢٦٠، ٢٩٣، ٣١٤، ٣٤٦. وغيرها، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : البيروني : الصيدنة.
- المجوسي، علي بن عباس (كان حيا ٣٨٤هـ/٩٩٤م)، كتاب كامل الصناعة الطبية المعروف بالملكي، ج ٢، بلاق القاهرة، ١٨٧٧م.
٩. ابن صاعد الأندلسي، القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد (ت ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م)، طبقات الامم، مطبعة السعادة، القاهرة، ص ٥٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن صاعد : طبقات.

ولكن أول من كتب عنه في شيء من التفصيل، فهو القاضي القفطي في تاريخ الحكماء، حيث أشاد ب مهارته الطبية الواسعة، واقامته في بغداد زمنا في قصر هارون الرشيد كطبيب خبير فاضل، حيث أهدى الى خزائنه العامرة: الرسالة الكافية (الوافية بمعناها ومحتوياتها) الياقوتية (الياقوتة لمكانتها العلمية وقيمتها الرفيعة الجوهرية)، التي دعيت بالهارونية، نسبة الى الخليفة هارون الرشيد (١٧٠هـ/٧٨٦ - ١٩٤هـ/٨٠٩م) اعترافا بفضله في إحياء العلوم لا سيما الطبية منها أيام اشتغاله كطبيب خاص في البلاط ببغداد<sup>١٠</sup>.

ونجد في الرسالة المارونية هذه، ذكراً لأخبار هامة تضي النور على حياة الدمشقي هذا وفضله، مع سرد لحقائق تلقي كثيراً من الأضواء الساطعة حول تطوير المهن الصحية في عصر المؤلف. ثم إنه بعد الحصول على خمس نسخ خطية معروفة من الرسالة المارونية، وفحصها ودراستها بدقة، تبين وثبت لدينا وجود تقدم ملحوظ و متميز بشأن التراث العربي الإسلامي في العلوم الطبية والتقنيات المساندة لها في تاريخ تلك الحقبة. وبناء على ذلك، يجدر بنا القول بإمكان الرجوع لحوالي ثلاثين عاما من مرحلة الإبداع العربي الإسلامي الفكري، وإن كانت معالم هذه التفاعلات الإيجابية غير واضحة، أو بالحرى مجهولة حتى الآن. وإن مفاهيم وتقنيات جديدة يمكن التحدث عنها، والتأكد منها على ضوء ما أنجز من خبرات هامة قد وصلت آنذاك حدا علميا رفيع المستوى، لم ندركها أو نقيمها حتى الماضي القريب.

وبين هذه المستحدثات في مفهومنا، ما نجده في هذه الرسالة بشأن إيجابيات المعالجات الطبية والممارسة: سريريا ووقائيا، مع التأكيد على وجود قفزات الى الأمام في الأعمال الكيميائية، وفي علوم الاحياء سيما المقارن منها، وتحديد الأدوية البسيطة والمركبة، والمستحضرات الصيدلانية والمصطلحات اللغوية في الصحة والشفاء من الأمراض<sup>١١</sup>.

ويستشف من الخبر الذي نقله القفطي السابق ذكره في تاريخ الحكماء، ما يدل على أن عيسى بن حكم هذا، قام بزيارة لمدة ثلاث سنين الى الهند بغية الاستزادة خبرة وعلما في الطب والمعالجات الدوائية المتبعة في تلك البلاد، عاد بعدها الى بغداد ثم الى مسقط رأسه دمشق، ليواصل ممارسة المهنة فيها.

وقد جاءه في آخر ايامه عام ٢٢٥هـ/٨٤٠م، في زيارة طبية للمعالجة صديق له، هو يوسف بن

١٠. القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، تاريخ الحكماء، تحقيق جوليوس ليبرت، طبع ليزنغ، ١٩٠٣، ص ١٧٨ - ١٨٠، ١٩٦، ٢٤٩ - ٢٥٠، ٤٠٤، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: القفطي: تاريخ.

١١. انظر: الشروح والمصطلحات في سامي حارنه، تاريخ تراث العلوم الطبية، جامعة اليرموك، اربد، ١٩٨٦، ص ٤١٥، وما يتبع وفي البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر، همدرد، باكستان، ١٩٨٨م، ٨ - ٢٧، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البيروني: الجماهر.

ابراهيم مولى ابراهيم بن الخليفة المهدي العباسي، وكان مصابا بنزلة عسرة<sup>١٢</sup> وقد تحدث ابن أبي أصيبعة عن ذلك بالتفصيل. وعندما هم مولى ابراهيم بن المهدي بالعودة الى بغداد، قام الدمشقي بمرافقته ليشيعة خارج دمشق في مكان يسمى الراهب. وهناك أوجز له بعض الوصايا الهامة: في حفظ الصحة والوقاية من الأمراض، والرعاية الصحية ليبقى قوي البنية عارفا بوسائل العناية المتكاملة نحو صحة أفضل<sup>١٣</sup>.

ثم إن القاضي القفطي هو الأول بين المؤرخين، الذي أعطانا أوفى سيرة عن حياة معروفة للدمشقي العائلة ككل. فمثلا هو الأول الذي ذكر لنا القصة الممتعة في الطب السريري والمعالجات الناجحة، التي ساهم فيها— وعلى مدى سنين عديدة—، أفراد هذه العائلة الطبية. وبمجملاها، أن الخفيد كان يرافقه والده الحكم، في سوق دمشق، حيث مرا على حانوت حجام متطبب يفصد مريضا في عرق الباسليق. وحدث أن العرق قد اتسع على يد الناصد فأصاب الشريان ايضا، فازداد نزيف الدم. وإذ استغاثت الحجام والجمع بالحكم وابنه لانقاذ المريض، عاجله حتى تم شفاؤه ونجا من الموت المحقق<sup>١٤</sup>.

ويروي ابن أبي أصيبعة أيضا، عن عيسى مسيح الدمشقي، أنه قصد أولا بغداد ليقوم بالرعاية الصحية في قصر الخلفاء العباسيين من زمن المهدي حتى المأمون، وافراد الأسرة العباسية. ومن جملة ذلك قصة مرض السيدة غضيض أم ولد الرشيد، وكيف أصيبت بالقولنج وتوفيت على أثر اعتمادها على أطباء ومنجمين غير متميزين في أمور الطب وممارسته، لم يفتنوا لأهمية طريقة العلاج وحسن الرعاية بها، بالرغم من النصح السديد الذي قدمه الدمشقي في حينه. وما حدث كذلك ايضا مع ابنتها أم محمد التي توفيت وللسبب نفسه أيضا<sup>١٥</sup>.

١٢. نستطيع ان نتكهن بان النزلة العسرة التي اصابته ابراهيم مولى الخليفة المهدي، ربما هي ما نسميه باصطلاح اليونان (السيلان) (Flow down) (Catarrh) وهو التهاب الاغشية المخاطية مع سيلان Free discharge بحسب رأي الطبيب ابقراط (٤٦٠—٣٧٧ ق.م) وخاصة في المهانة للهوائية في الرأس والحنجرة. او هي التهابات في المعدة تحت الاصطلاح Gastritis، انظر:

Dorland's Illustrated Medical Dictionary, Philadelphia-London, W.B. Saunders Co., 23rd ed., 1961 or later Editions.

Dorland's Illustrated Medical Dictionary وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

١٣. القفطي، تاريخ، ص ٢٤٩—٢٥٠، ابن ابي اصيبعة، عيون، ص ١١٩—٢٢٠.

١٤. ابن ابي اصيبعة، عيون، ص ١١٩—٢٢٠ وايضا في:

E.J. Gurlt, Geschichte der Chirurgie u.i. Ausubung, Volkschirurgie, Hirschwald, Berlin 1988, Vol. I, pp. 622-6٢4.  
Gurlt Geschichte وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

١٥. ابن ابي اصيبعة، عيون، ج ١، ص ١١٩—١٢٠.

Philip K. Hitti, Hisotry of the Arabs, London, Macmillan, 1961, pp. 297-311, 364 (Including Translators as Ibn al-Batriq. Ca. 800)

وأخيراً، يستعرض ابن أبي أصيبعة قصة الدمشقي الحفيد مع بعض معارضيه من الاطباء، بالنسبة الى بعض أصول المعالجات من غذاء أو دواء، وشرح ذلك تأكيده على أهمية ما للبصل من فوائد، وتبيان مضاره في الدماغ، حسب رأي الدمشقي، موضحاً أيضاً بأنه «يتلف البدن ويذهب الأنفس». كما أنه أولى اهتماماً كبيراً للتغذية الصحية، المبنية على التجربة والملاحظة<sup>١٦</sup>.

أما بخصوص زيارة الدمشقي الحفيد الى الهند، فسبب ذلك أن الخليفة الرشيد كان قد أصيب بعلّة صعبة. فحضر لديه للمشاورة والعلاج مئآت من أطباء بغداد وغيرها: أطباء مسلمون ونصارى وهنود ومجوس (ماجوس في النص)، وكان من بينهم الدمشقي نفسه ويوحنا بن ماسويه، ولم يستطع أحد أن يشفيه. فأرسل الخليفة الى صاحب الهند، الذي بدوره بعث له طبيباً اسمه أمغيث، وفي ثلاثة أيام تعافى من دائه ونال الشفاء بأذن الله، ونتيجة لذلك، وعلى يد أبي بكر الأصبم أسلم وحسن إسلامه، وبعد عودة ذلك الطبيب الذائع الصيت الى بلاده، اصطحبه الدمشقي وأبو بكر الأصبم ثلاث سنين كما سبق ذكره، لتعلم أصول الطب الهندي والتميز في ذلك<sup>١٧</sup>.

#### النسخ الخطية للرسالة الهارونية

تعتبر الرسالة الهارونية من أهم ما كتبه الدمشقي الحفيد، وتعتبر الأولى في العربية: بمعناها الدقيق والشامل، والمستقل في بابها. فالرسالة في جزئين (أو مقالتين) تشتمل على مواضيع أساسية في التعريف والقانون الطبي، وفلسفة المهنة والعلاقة بين صحة المجتمع والرعاية البيئية. وكذلك تفيد ذكر التشريح المقارن، والاهتمام بالكيمياء الطبية ومفردات الأدوية والأغذية النافعة لصحة الإنسان، وتنتهي في الجزء الثاني: بالمستحضرات الصيدلانية والقوانين المرعية في التراكيب العلاجية المجرية (الاقرباذين أو دستور الأدوية).

وكان هدف المؤلف هو جعل الرسالة شاملة وافية في موضوعها، فسميت بالكافية، ولأنها فريدة من نوعها وسابقة، سميت بالياقوتية (أو الياقوتة)، وتم اهداؤها الى أمير المؤمنين لفضل دعوته له ورعايته للعلم والعلماء. وينتهي بقوله في آخر الرسالة بأنه أشجع الموضوع حقه بالاجابة على ما كان يشغل فكر الأطباء والممارسين: مما اختبره شخصياً ووقف على أكثره في المعالجات والأحداث الطبية النافعة، وما لم يخبره، أخذه عن الثقات من أهل الدين والورع، «فاعمل به ترشد».

١٦. احمد قدامة، قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، ط ٢، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ٥٧-٦٢، ويشير لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة: قاموس؛

وجدي القباني، الغذاء لا الدواء، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٩٧٩-١٨٢.

١٧. الرسالة الهارونية، مخطوطة الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط / المغرب، تحت رقم ١١٠١ د، ص ٥٥، مقدمين بهذه المناسبة الشكر الجزيل لمحافظ الخزانة الموقرة والقائمين بها، على تظفهم باهداء صورة شمسة للمخطوطة المذكورة لمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، لفحصها والاستفادة من دراستها وتقييم ونشر محتوياتها.

- وفي هذه المقالة، تم فحص النسخ الخطية الخمس من الرسالة، وها نحن نذكرها باختصار:
١. مخطوطة تونس رقم ٥٤٣٦، في المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة، وكان قد فحصها الباحث عند زيارته الى تونس منذ سنوات.
  ٢. مخطوطة الرباط في المكتبة العامة والوثائق القومية بالرباط بالمغرب، تحت رقم D 1101 or 2740، وتقع في ٧٤ ورقة بخط مغربي جميل ومشكول، ٢١-٢٣ سطرا للصفحة الواحدة، والقياس  $\frac{1}{2} \times 18 \times 24$  سم. وهي جيدة وقد اعتمدنا عليها، شاكرين فضل القائمين بالحرارة المغربية بتقديم نسخة مصورة منها هدية لمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية.
  ٣. مخطوطة مكتبة الفاتيكانيان الرسولية تحت رقم Barb. Orientale no. 83 وهي بخط واضح جميل، والكلمات كبيرة الحجم مشكولة الأحرف تمّ نسخها في القرن ٨هـ / مطلع القرن ١٤م وتقع في ١٢٠ق١٨.
  ٤. مخطوطة مكتبة جامعة كمبردج بانكلترا نسخة 71r-116 ff. (12) 1021 (12) OR، وتقع في ٤٥ق، بخط مغربي صغير جيد الضبط، والصفحة تحوي من ٢٥-٣٢ سطرا، تم النقل عام ١١٢١هـ / ١٧٠٩م، الا أن المخطوطة نقصت بعض أوراقها الأخيرة، ولكننا اعتمدنا عليها في هذه الدراسة لدقتها وحسن ضبط نصوصها<sup>١٩</sup>.

١٨. بالإضافة للمصدر اعلاه نذكر مع الشكر للقائمين بالمكتبة الاحمدية والوثائق الوطنية بتونس / جامع الزيتونة، والتي قام المحقق بزيارتها منذ سنين لفحص ودراسة المخطوطة رقم ٥٤٣٦ ونشير ايضاً الى مخطوطة مكتبة الفاتيكانيان الرسولية 83 Barb. Orientale. No. وهي بخط مغربي جميل كبير الحجم وشكول الاحرق، تاريخ انتقال من القرن ٨هـ / ١٤م، وتقع في ١٢٠ق وقد اعتمدنا عليها في هذه الدراسة. وهناك مخطوطة اخرى في الفاتيكانيان لم نطلع عليها تحت رقم 309 Arab. Or. تقع في ١٢٢ق، انظر:

Giorgio L. Della Vida, *Elenco dei ms Arabi Islamici, Vol.I, Vaitcan City, 1945, 26, 245.*

Vida, *Elenco*

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :

A. J. Arberry, *Hand-List of Ar. Manuscripts at The University of Cambridge, University Press, 1952, Or. 1021 (12). No. 20 ff. 71-116, Dated 1121 H/1709.*

Arberry, *Hand-List*

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :

وتقع في ٤٥ ورقة بخط مغربي صغير جميل ومشكول ومقروء. وعدد الاسطر للصفحات مختلفة (٢٥-٣٢ سطراً) وهي جيدة الضبط اعتمدنا عليها. انظر كذلك :

S.Hamarneh, *Bibliography on Medicine and Pharmacy in Medieval Islam, Stuttgart, 1964, pp. 150-154.*

Hamarneh, *Bibliography*

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :



٥. مخطوطة ويلكم في لندن رقم Wellcome, Ms. OR. 81 فحصتها عام ١٩٧٣م، وتبدأ من ٢٥-٢٦، يعتمدها نقصان في أوراقها الأخيرة، وهي غير مذكورة في الفهرس المطبوع<sup>٢٠</sup>.

أما النسخ الأخرى المشهورة، والتي لن نحصل على صور لها، فأهمها النسخ الخمس الآتية:  
١. مخطوطة باريز، تحت رقم Arab. no. 6475 وتقع في ٤٢ ورقة ذكرها الطبيب الجراح المؤرخ Lucien Leclerc.

٢. مخطوطة سباط رقم ٧٥٠، وتقع في ٥٩ ق وهي نافعة، وربما هي الآن محفوظة في مكتبة الفاتيكان (انظر الفهرست)<sup>٢١</sup>.

٣. مخطوطة رامبور، طب رقم ١٩٣. وتقع في ١٣٠ ق، محفوظة في الهند.  
١. مخطوطة القاهرة، وتقع في ٣١ ق، ناقصة، تم نقلها عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٧م مذكورة في فهرس دار الكتب المصرية (٦: ١٨).

٥. ومخطوطة المكتبة الوطنية في ميونخ بالمانيا<sup>٢٢</sup>.

مقدمة الرسالة وأهدافها ومحتوياتها:

تبدأ الرسالة بالقول :

«الحمد لله الواحد الفرد الصمد... خالق جميع المصنوعات، ومنشئ من أجسام العالم الاستقصات (او الاركان)، ومسخر الأفلاك الجارية، كل ذلك بقدرته وجرى على ارادته، ومقتضى الكل من مشيئته وحقيقته وسابق علمه، فلا يكون من نفع أو ضرر، أو خير أو شر، أو صحة أو سقم، أو (فرج) أو هم (ترج) الا وقد سبق علمه به»، ثم يضيف :

«أما بعد، لما غرض (وحرص) مولاي أمير المؤمنين هارون الرشيد (المزيد) في إحياء علوم الدين، وما تصلح به أجساد المسلمين، فتأملت في ذلك فيما جاء به الخبر: العلم علمان، علم الاديان وعلم الابدان، فعلم الاديان للآخرة، وعلم الابدان للدنيا والآخرة، (فتيقنت من) ذلك إذ إن صحة

٢٠. فحص كاتب هذه المقالة مخطوطة الرسالة، وهي غير موجودة في الفهرس المعروف بقلم :

A.Z. Iskandar, A Catalogue of Arabic Ms; Wellcome Historical Medical Library, London, 1976.

Iskandar, A Catalogue

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا :

٢١. بولس سباط، فهرس المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٢٨، ج ١، رقم ٧٥٠، عنوان الرسالة المارونية في ٥٩ ق والنسخ حديث العصر (ربما أواخر القرن ١٩ م).

Leclerc, Histoire, Vol. I, P.84.

٢٢.

الجسم يتعلق بها المرء على ما كلفه الباري سبحانه وتعالى من خدمته ومعرفة عبادته... ثم رأيت من سبقنا الى هذه الصناعة من المتقدمين، ومن أدركتهم وقد بسطوا كتباً كثيرة في كل فن من فنون الطب، وتركيب الأدوية... كما كتبنا في هذا كتباً كثيرة، فاستخرجت منها هذه الرسالة (واستخلصتها) من جميع كتب الأوائل، وأوجزتها واقتصرت بها عن التطويل، وأخترت من كل فن لبابه، ومن كل قول صوابه، وسميتها بالكافية والياقوتية، (أو الياقوتة) ونسبتها الى أمير المؤمنين، رأس الدين وحافظ راية المسلمين... المؤيد بالنصر المبين، فعرفت (لذلك) بالهارونية. وقد جعلتها كافية في الطب (شاملة في معناها)، يستغنى بها عن جميع كتب الطب، وقد رسمنا فيها معرفة الطبائع وأقسامها ومواضعها في الجسد، وما تقهر به كل طبيعة من الأدوية، وجملة في الفراسة وجواهر الأحجار وخواص الحيوان والنبات ومعرفة الآفات المولدة للإنسان، وكيفية صناعة البلاذور والذي كانت تشربه الملوك والفلاسفة، والايارجات (وهي مركبات صيدلانية تحوي أدوية هاضمة ومرارة كالصبر ممتزجة مع الأنفوية العطرة تحت اسم Hiera)، والدواء الغياث المُنغيث الهندي (تركيب الطبيب الهندي امغيث)، والترياقات المعول عليها، وكذلك منافع الفصد والحجامة واللباس والمساكن وقسمة البروج والرياح ومعرفة الجنين<sup>٢٣</sup>.

#### الانسان ومساكلته للكون الذي نعيش فيه :

ويبدأ عيسى الدمشقي البحث والتحليل في الحديث بأن الانسان إنما يتميز بين المخلوقات بالنطق والعقل. أما حول القوة وأثرها في النشاط الدماغي فيقول موضحاً : بأن العقل هو حالة تتعلق في ماهيته التي توجب أمر المقارنة بين الخالق والمخلوق، وضرورة وجود حدين يفرقان فكرياً بين الخالق والمخلوق، الا وهما الزمان والمكان.

ثم يضيف قائلاً بأن العقل في العالم الطبيعي يحتوي على قسمين : جوهر جرمي (جسماني)، وجوهر غير جرمي. فالجرمي ما كان ذا ثلاثة أقطار أو أبعاد وهي : الطول والعرض والعمق، كما أنه يتكون من أربعة أركان : الماء والأرض والهواء والنار، ثم ينقسم هذا الجوهر الجسماني بدوره الى قسمين : (١) متنفس (ذو نفس) كالحیوان والنبات وما فيهما من قوة حيوانية ونباتية (٢) وغير متنفس، من الكائنات الجامدة مثل الحجر والخشب والفلك. وقد أضاف بعض العلماء صنفاً ثالثاً من الحيوان : وهو متحرك لا متنفس، أي لا يعيش بالضرورة في الهواء كالسمك والحلزونات، وكذلك جميع أنواع النباتات من شجر وزرع وأعشاب. وقد حدد المؤلف أن الحيوان ما يتنقل من مكان الى مكان في حين أن النبات، مع أنه ينمو، الا أنه (بشكل عام) لا يتنقل، (وكما يُظن) لا حس له.

٢٣. الرسالة الهارونية، النسخ المدروسة والمذكورة اعلاه، ولاسيما المقدمة التي تشمل المواضيع التالية : الادوية والفصد والحجامة واللباس والمساكن وعلم الجنين انظر: ابن القف الكركي، امين الدولة (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)، كتاب جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، منشورات الجامعة الاردنية، ١٩٨٩، ص ٩٩ - ١١٥، ١٨٧ - ١٨٩، ٣٦٤، ٤٤١ - ٤٤٢، ٤٥٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : ابن القف : جامع.

وبالإضافة الى التعريف بالجنس البشري من بني آدم يذكر المؤلف مخلوقين آخرين : الجن ومفرده الجنى، وهو مخلوق مزعوم بين الانس والأرواح سمي بذلك لاستتاره واختفائه عن الأبصار، وهم غالباً الشياطين الأشرار. أما الملائكة فهم يشتركون ويتشابهون بالإنسان في قوتي الحياة والنطق، كما أنهم يتصفون بقوى إضافية زائد : كالتهييل والتصوير والتبديل في صور وألوان متعددة، وهم أرواح لطيفة خيرة (نورانية وصالحة).

وما نجده في العالم المادي هي الاستقصات : النار والماء والأرض والهواء، ويتصل بها وبما يناسبها من قوى الأحياء المنتفسة، الأزمنة اللازمة لدوامها وهي : الخريف والشتاء والربيع والصيف. والأخيرة يشاكلها في الكون أربعة : المشرق والمغرب والقبلة (قبلة المسلمين) والجوف (بلاد الشام). والنواحي أيضاً أربعة تتصل بها وهي : الصبا (رياح المشرق)، والدبور (رياح المغرب)، وريح الشمال (الجوف)، وريح الجنوب (رياح اليمن)<sup>٢٤</sup>.

وقال الدمشقي إن الليل يكمل بالنهار، وكل واحد منهما اثنتا عشرة ساعة، والشهر عدته ثلاثون يوماً وللساعة ثلاثون جزءاً. والجمعة (وتسمى بالسريانية السبعة المسبعة، أو سابوع) فهي سبعة أيام. أما السنة فاثنا عشر شهراً، والتي بالمقارنة تقوم مقام ستة أجزاء في البدن باطنة وستة ظاهرة وهي : السمع والبصر والشم والذوق والمجسة (اللمس) والشهوة. ونعود الى ذكر السنة فهي ٣٦٥ يوماً، وتتامها من قبل مصباحين نيرين : الشمس والقمر.

ويؤكد المؤلف مُشاكلة الحيوان لبدن الانسان في حركته وسكونه ومشيه وقيامه، وفي طعامه وشرابه ونومه ويقظته، وما يتعرض له من ترسيخ العادة والأخلاق والسجايا حتى يتشبه به فيرى مثلاً : القوة في الأسد، والخيانة أو الجرأة في الذئب، والبساطة والرأفة بالسبتا (وهو النمر)، وأهل الدين والورع بالثور، وأهل المكر والخديعة بالثعلب، وأهل الحسن والرقّة بالجمال.

ويضيف مؤلف الرسالة في أمر مُشاكلة الانسان من جهة أيام الجمعة السبعة وما يقابلها في البدن من أجزاء سبعة : المخ والعظم والعروق والأعضاء واللحم والجلد والشعر. ثم ما يقابلها في التاريخ الطبيعي وعلم الهيئة (النجوم) أو السيارات السبعة التي تدور حول الشمس وتستمد منها النور وهي : الشمس والقمر، وزحل والبرجيس وهو المشتري بالفارسية، والباهر وهو الزهرة الشديدة اللمعان أو نجمتي الصباح والمساء وعطارد والمريخ (الأحمر الضوء). ويقابلها أيضاً في أعضاء الانسان سبعة : العينان والأذنان والأنف والفم والحنجرة.

٢٤. ابن القف، جامع، ص ١٨٢ - ١٩١، أما بالنسبة للرسالة فجانب الاهداف والتبويب اوجز المؤلف البحث معتمداً على الخبرة والمشاهدة الدقيقة الا أن الشروحات والنصوص تضمنت خرافات وقصصاً وتقاليد وأخباراً في الطب الشعبي لا تنقيد بالمنطق السديد.

ال نظر : سفر التكوين فصل ٨ : ٢٠ - ٢٢ سفر ايوب، ٤ : ١٨ المزامير، ٧٤ : ١٠ - ١٧، بشارة متى، ١٣ : ٣٩ - ٤٩ سورة البقرة، الآيات ٠ - ٣٤، ٤٨ سور آل عمران، الآيات ١٨، ٣٩ - ٤٥، ١٦٦.

ثم في مشاكلة الانسان لجميع الأشياء التي في العالم، المقبولة أعراضها في الاستقصات والطبائع ما ذكره مؤلف الرسالة حول الألوان كالتي في قوس قزح : كالسواد والحمره والبياض، أو أمور طبيعية كالحرارة والبرودة فالبيوسة والبرودة، أو الحلاوة والمرارة، أو الانحناء والانقباض أو اللحن والأشكال. وأنه لا شيء في العالم الأكبر (والكون الواسع) وهو موجود وقد تكمص في العالم الأصغر، الا وهو الانسان.

أما مشاكلة بدن الانسان للأشياء النامية في الطبيعة فيضيف مؤلف الرسالة الى القول في الأعشاب والأشجار والبذور، وكيف أن هذه الأنواع تموت وتفسد في عالم الطبيعة، ثم تستأنف النماء بعد الممات فيتجدد وجه الكون في قيامه مشرقة، وانه يعطي شهباً لهذه الوضعية، بنمو الأجنة في الرحم إذ فيه يتحول الورع الى جنين. وتنتهي هذه المرحلة الأولية في إشراقه ولادته وبزوغ حياة جديدة، تنتقل به من ظلمة الرحم الى نور الحياة والواقع. وكما يرى في الحقول والبساتين من خضرة وازهار في الأعشاب، وهذه جميعها مثال آخر لنمو الشعر على جسم الانسان والبهائم.

ثم ان الدمشقي يقارن بين ما نجده في داخل بدن الانسان وأمزجته وأخلاقه، وبين ما نلقاه في الأحجار والمعادن في باطن الأرض : فالذهب يقابل الدم، والفضة البلغم، والنحاس المرار الأصفر، ومعدن الحديد المرار الأسود، والقصدير (وفي عبارة المؤلف القزديس) يُشَبَّه ذلك بالنخام الطبيعي (أو النخامة وما يدفعه الانسان من صدره أو أنفه).

و يستطرد في القول بأن الانسان صغير في طبيعته ووجوده الذاتي البدني، كبير في موته وانطلاقه الى عالم الروح، قصير في إقامته هنا في هذه العاجلة، طويل في جزئياته وجوهره في الآجلة. وانه في العالم الصغين، الذي تكمص فيه العالم الكبير<sup>٢٥</sup>.

### الانسان في أحواله البدنية والنفسية والروحية :

يشيد مؤلف الرسالة بالحديث حول بدن الانسان في نفسه : في حديثه ونطقه، في شهوته وملذاته، في تعبته وسفهه، وفي خدعه وعنقه (عنفوانه)، وانه بالنفس خاصة يقوم ويقعد، يضحك ويبكي، يفرح ويحزن، وانه بالنفس أيضا ينظر ويسمع، و يأكل ويشرب. أما في روحه (أو روحانيته وفي سموه وعفته)، فان المرء هو حقا في مكارم أخلاقه وحلمه، في وفرة حياته وكرمه، في أبهى علمه وحسن فهمه، في قوة معرفته وشدة ذكائه، في صدقه وصبره، في شجاعته واقدامه. وفيه يميز الحق من

٢٥. بعد حوالي اربعين عاما من تصنيف الرسالة المارونية، نجد كتاب فردوس الحكمة لأبي الحسن علي الطبري، تحقيق حكيم محمد سعيد، مؤسسة همدرد، باكستان، ١٩٨١، ص ١٢٠ - ١٣٢، ٥٣، ١٧٢، ٢٠٢ - ٢٠٤، سامي حمارة، «صحة الأم وطفلها»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ٦٢ ع ٢ (١٩٨٧)، ص ٣١٦ - ٣٢٦، و«صحة الطفل للزهراوي»، المجلة الثقافية، ع ٢٠ (١٩٩٠)، ص ٨٤ - ٩٧.

الباطل، ويفند الرشد من الغي، والصواب من الخطأ، ويدرك معنى الطاعة وضلالة العصيان. وبالروح أيضا: يتعلم ويخلم ويهتم ويدبر ويعقل ويستحي، وبها يقوم بصالح الأعمال ونزاهة النوايا.

وبما أن النفس أمانة بالسوء، فإن مؤلف الرسالة يقنع كل من غشاه الوهم وملكه الغيظ، أو امتلكه الحزن، بأن يحتاج على ذلك ويستعيبض عنه بما يسره ويسليه. أما عند ذوي الألباب النيرة، فينصح بالاستعاضة بقرض الشعر أو إنشاده، وضرب العود وأنواع آلات الطرب، أو شم أصناف الحبق الريحاني وأصناف الورود العطرة الفواحة والكافور والعود الطيب، وتناول المأكولات الحلوة الشهية وما يفرحه، مما يشجع القلب ويروح البال ويذهب الحزن والسوادوية، ويولد السرور والبهجة (وفي النص الانبساط).

وهنا في أصالة نظرياته وشمو افكاره وبُعد أهدافه، يشير المؤلف الى كيفية جمع ابن آدم لخصال أربع هي: الغضب والرحمة والشهوة والأمل، يقابلها في المغزى أربع أخرى هي: الايمان والرأي والعقل والهوى. فالهوى، مثلاً يدعو الى الرأي، في حين أن الايمان ينهى عنه. والرأي تدبير من العقل والذي بين الأربعة يعتبر بمثابة الرئيس والمرشد لجميعها، ومتى تغلب بدوره على الهوى، فالايان يتبع ويزكو في التحكيم، وتكون الموافقة في الرأي فيستبدل بالعسريسا.

ومن جهة مفهوم وظائف أعضاء البدن الأساسية، يقول المؤلف بأن مسكن العقل في الدماغ، كما أن مسكن السمع في الأذنين، ومسكن البصر في العينين، ومسكن النطق واللذة في اللسان، ومسكن الروح في القلب، كما جعل مسكن الضحك في الطحال، ومسكن الغضب في الرئتين.

وفي موضوع فلسفة الألم وتركيب البنية، يفيد الدمشقي بأن الله جعل القلب مائلا الى اليمين من بدن الانسان، وفيه روح الحياة. فلا يموت إنسان، حتى يبلغ الألم منتهاه في القلب. فمزاج القلب إذ هو حار ويابس، وأما أفعاله فتوجد في العروق وضرباتهما، وهناك في القلب روح الحياة، كما يجتمع فيه الفرح والانشراح والحزن والحلم، والغضب واليأس، وراحة البال وطيب الأتس.

ويعبر المؤلف بقوله: اعلم أن المرض يتواجد في المعدة، ومن هذا المنطلق ففيها بيت الداء، وفي هذا ايضا شبه بنشوء الجنين وكيف يتربى وينمو في رحم الأم، واعلم ايضا أن المعدة مثل الثلج، والكبد مثل النار، فلولا حرارة الكبد لانشقت المعدة وبطل فعلها. ولولا حرارة الكليتين لانشقت المثانة. كما توجد في الكليتين ريحان حاران يصعدان الى الرأس، كما يهبط منه عرقان باردان ينحدران الى الكليتين. ومن ولادة الطفل حتى يبلغ الثلاثين عاما، أي في ريعان الشباب، يكون الغالب على طبيعة الانسان: الدم في حره ورطوبته.

ويسترسل المؤلف قائلا: بأن الله خلق آدم ليكون جسدا ونفسا وروحا، وجعل جسده وهاء

لروحه، وجعل روحه وعاء لنفسه. ثم خلق له أربعة أشياء وجعلها موروثه فيه وفي نسله من بعده جيلا بعد جيل، تبقى على مدى الحياة ما دام الانسان في الوجود، إذ خلقه الباربي من أربعة : تراب وماء وريح (هواء) ونار.

ويستقل مؤلف الرسالة من موضوع الى موضوع، ومن باب الى باب، وكأنه فيما يصنف كمن وجد جوهرًا منشورًا فنظم منه سلكًا لعقد ثمين يزين به عنق من يحب. فمثلا يقارن بين مفاصل البدن وهي ٣٦٠ مفصلا، بعدد أيام السنة، ويقدر أنها على الأصح بعدد درج (درجات) الفلك والتي هي ٣٦٠ درجة ثم قارن أعضاء الجسد بأبراج الفلك الثانية عشرة و يعادل الاثني عشر شهرا بالسنة، لاقسام هذه البروج على الأزمنة أو الفصول، حاسبا ثلاثة بروج بأنها نارية، وثلاثة ريحية وثلاثة مائية وثلاثة ترابية، أما أوقات السنة عامة فهي : ثلاثة اشهر للربيع وثلاثة للصيف وثلاثة للخريف وثلاثة للشتاء<sup>٢٦</sup>.

وفي اعتبار خاص آخر يقول مؤلف الرسالة ، بأن رأس الانسان يقاس بربع الجسد، هلاكه الدماغ (بمعنى انه يموت ميتة سوء)، وهو مسكن نصف العقل. والدماغ هو ريط الجسم، فاذا كمل الدماغ كمل الجسد. والدماغ حار مثل النار والنخاع بارد مثل الثلج، فلولا برودة النخاع، لأحرق الدماغ الرأس بحره. ولولا حرارة الدماغ، أهلك وأفنى النخاع الجسم ببرودته.

أما الصدر فهو الربع الثاني في بنيان الجسد، وهلاكه القلب وهو بين الرئتين، فيكون مسكن الروح وأصل العقل. فالقلب حار مثل النار، والرئة باردة مثل الثلج، ولولا برودة الرئة، أحرق القلب الجسد بحرارته. ولولا حرارة القلب لأفنت الرئة الجسد وأهلكته ببرودتها.

ثم ان البطن هو الربع الثالث، وهلاكه الكبد الذي هو مسكن الرحمة كما والعداوة، وهو للجسم خازن، وهو الذي يطبخ الطعام أولا في المعدة، حيث تصفيه ثم تأخذ صفوته لتحيله دما في الكبد، فتدفعه الى الطحال ثم الى العروق. أما ما ليس صافيا منه، فيدفع الى الأمعاء. والكبد الذي ينضج الطعام حار مثل النار، لاصقه به وهي باردة مثل الثلج. ولولا المرارة ببرودتها، لأحرق الكبد الجسد. ولولا حرارة الكبد، لأفسدت المرارة كل الجسد ببرودتها.

والربع الرابع هي الميرة (الحوصلة المرارية)، وتقع في أسفل البطن بقليل وهلاكها الكيتان، وهي مسكن حسن البيان (والموهبة) الى الصوب. والكليتان حاران كالنار، في حين أن المثانة باردة

٢٦. عالج الموضوع نفسه ابن القف حوالي ام ١٢٧٤هـ / ١٢٧٥م، في كتابه، جامع، ص ١٥٩ - ١٦١، ١٨٢ - ١٩٣، قبلان سليم مكرزل، اعشابنا دواء - صحتك وجمالك، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢١٩ - ٢٣٤، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : مكرزل، اعشابنا.

مثل الثلج. فلولا برودة المثانة لأحرقت حرارة الكليتين الجسد، ولولا حرارة الكليتين، لأهلكت المثانة الجسد ببرودتها<sup>٢٧</sup>.

وفي تشريح المصران (أو الأمعاء)، فطولها في الانسان ثمانية عشر شبراً: منها في المعدة ثلاثة أشبار، وتليها ثلاثة تساعد في هضم الطعام ودفعه الى العروق، فكل من دفنت عروقه ولم تظهر، يحكم عليه بأنه أكل، لأن عروقه لا تقبل نسيم الهواء ولا تنفذ الريح، وليس لهذا غذاء أو قوت سوى الطعام. أما ما بقي من المصران، فيكون للجشأ والتنفس على طول امتداده.

ومرة أخرى يردد المؤلف القول أن مسكن العلم (والمعرفة) والحلم إنما هو في العقل، في حين أن الفصاحة والفظنة والورع والهلم مسكنها في القلب. أما الرثة، فهي مسكن الغضب والحدة والجفاء. أما الكبد فهو بيت الرحمة، والطحال بيت الضحك، وأخيراً فإن المعدة هي بيت المرض والداء كما سبق ذكره<sup>٢٨</sup>.

ويقتبس المؤلف أقوالاً القديماء العلماء، الذين أكدوا بأن الأسقام والأمراض كلها من كثرة الأغذية والبطننة، وما يسببه فساد الطعام والشراب. ويمدد المذاقات الستة: الحلو والمر، والحامض والحاد والبشع (الكريه) والمالح. ويقرأ بأنه لا يوجد للجسم نفع، أكثر من الاقلال من الطعام والشراب. وإن الأمراض كافة، هي من كثرة الطعام والاختلاط (كثرة التخليط في أنواع المآكل وألوانها). ومن يشتهي الطعام ولا يأكله، أو أنه تناوله ولم يمضغه كفاية، ولم تنضج معدته، ثم يأكل على ذلك ألواناً من الأطعمة، ذلك للأسقام والعلل.

#### حفظ الصحة وجودة الأغذية:

بالنسبة لحسن الرعاية الصحية والعناية البيئية والاهتمام بجودة الأغذية في كل أنواعها لسلامة المواطنين، فيقرر مؤلف الرسالة، بأن أفضل ما يتناول من البزور، هو القمح الخالص «السمين» الرزين، وأفضل الخبز، هو النضيج النقي الأبيض المتوسط في تخميره، لا سيما ما طبخ مع الحليب.

٢٧. إن هذه اوصاف لنظريات هامة في التشريح ووظائف الاعضاء تستحق الدراسة، الا أنه لا شك في أن الدمشقي يرتأي أموراً جديدة وأصيلة في التعريف باعضاء البدن الرئيسية. ونوعيات تأثيراتها في البدن، انظر:

J.F. William, A Textbook of Anatomy and Physiology, 7th ed., Saunders, 1944, pp. 197, 280-289, 403-408, 475-474.

William, A Textbook

وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا:

٢٨. المرجع نفسه، وقد أكد الدمشقي بأن المعدة هي بيت الداء، كما جاء أيضاً في الاحاديث الشريفة، انظر: ابن الجزر،

ابن جعفر بن ابراهيم (ت ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م)، المعنة وامراضها ومداواتها، تحقيق سلمان قطاية، دار الرشيد، بغداد،

١٩٨٠، ومارنه، تاريخ، ص ١٦٨، ٢٧٥-٢٧٦.

وان أفضل الفواكة التين (وقيل الرطب أو البلح المتكامل في نضجه)، ثم الزبيب أو العنب والأطرنج (مستعرب باسم أترنج أو ترنج، وهو من أنواع الليمون والبرتقال، ويقال له تفاح آدم)، والرمان.

ويضيف بأن أفضل البقول، هو الخس (وفي النص، الخَص)، لأنه يولد دما كثيرا محمود في الجسم، وبعده الفجل. وأن أفضل أنواع اللحوم، لحم الجديان وأفضل لحم الوحوش هو القنفذ (وفي النص القنفود)، وأفضل لحوم الطيور البرية: الفواخت والعصافير والزرزور. وأخيرا يشير إلى استعمال الأعفاسي في صناعة الترياقات وأصول ذلك، والتقنيات المتبعة في وصفها وتقطيعها والآلات المستعملة لذلك مع الرسوم<sup>٢٩</sup>.

وينتقل المؤلف إلى ذكر ينابيع المياه النقية العذبة، لا سيما التي تأتي من مصدر كثير الجيران، والخالية من تلويث الماء والهواء. ويشرح أهمية المياه المعدنية وفوائدها، والحمام وأنواعه ووجوبه، ونفع الرياضة البدنية، والمناخ والرياح، وتعاقب الفصول في السنة وعلاقة ذلك بالأمراض البلدية والعلل، وطرق المعالجة ووسائل الشفاء والمداواة.

ويبين المؤلف بأن اسم الطب في الواقع يشمل على معنيين: علم وصناعة. والصناعة (أو المهارة والممارسة والحرفة وعلم الحيل) تنقسم أيضا إلى قسمين: (١) حفظ الأصحاء على صحتهم التي هم عليها والتي يتمتعون بها، (٢) ومداواة المرض (بما هو متاح لهم من غذاء ودواء وجراحة) حتى يبرأون. وهي تكون بالأشياء الضادة (أي أن من أصابته حمى حارة فيعطى دواء باردا وهكذا).

ولا بد هنا من الإشارة إلى ضرورة الاقتصاد في كل شيء، ويقول المؤلف أن أخير الأمور أوسطها، يشمل هذا الاهتمام بالتغذية على أصولها الصحيحة، بحيث لا يدخل المرء طعاما على طعام، وإن يأكل فقط ما يكفيه من دون زيادة، وفي الوقت المعتاد. ثم يصف بعض المأكول للناقهين والأصحاء: مثل أكلة فتيل القمح المطيب والمتعامل مع مرقة اللحم، والمعروفة باسم الكسكس أو كسكس وطريقة صنعة معروفة في العراق آنذاك فانتشرت أيضا في المغرب العربي حتى عصرنا هذا.

والآن نعود مرة أخرى إلى ذكر العناية البدنية فنقول: يقسم حفظ الأصحاء واستردادهم لصحتهم إلى ثلاثة أمور رئيسية :-

١. حفظ الأبدان، بالوقاية وبالرعاية لتكون على أتم عافية وفي أحسن حالة بما يصونها ويحصنها إما: من زيادة الطبائع (والاخلاط كالزيادة في الدم أو البلغم)، أو نقصانها وفراقها، أو بسبب عدم توافر سبل الاستفادة منها والحصول عليها.

٢. في حالة تأخر الصحة، يجب التقدم والاعتناء لامكانية حفظ الأبدان ورعايتها بزيادة إصلاحها،

٢٩. حمارة، تاريخ، ص ٤٠، ٦٣، ٨٢، ٢٠٢، ٢٧٢-٢٨٥؛ ابن القف، جامع، ط ٣٦٩-٣٨٥.



لستستمر على ما بدا منها وما يجب أن تكون، أو بما يتخيل للمرء من بقائها على حالتها الصحية، ثم مساعدتها بالعلاج حتى تصل الى ما هو أفضل.

٣٠. في بذل المساعدة الفعلية أثناء المعاملة مع ذوي الأبدان الضعيفة: كأبدان المشايخ والأطفال الصغار، لتتوافر لهم أسباب الوقاية والرعاية الصحية المستمرة المتميزة<sup>٣٠</sup>.

ويستمر المؤلف شارحاً، بأن العلم (علم صناعة الطب) هو في أمور ثلاثة: علم الأمور الطبيعية، والأسباب، والأدوية (المعالجات بالعقاقير). أما الأمور الطبيعية فهي ثمانية: العناصر (أو الأنواع، وهي: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة)، والأركان: (النار والماء والهواء والتراب)، والمزاجات (والصفراء)، والأعضاء: الرئيسة كالقلب والدماغ، والمرؤوسة كالعظم والعضل والغضاريف والأضافر)، والقوى (الخادمة والمخدومة والمولدة والمربية والغاذية)، والأفعال البسيطة (كالجذب والامساك، أو المركبة كالشهوة ونفوذ الغذاء الى الجهاز الهضمي في البدن)، والأرواح (ومنها طبيعية وحيوانية ونفسانية)<sup>٣١</sup>.

ويقتبس المؤلف من أقوال جالينوس حول عوارض النفس المتعددة: مما يضعف الجسم ويوهنه، ويعكس صفو الذهن وجلاء الخاطر: كالسهر والفكر والحزن والفرح والخوف. وما يتعرض إليه المرء بسببها من معاناة من أمراض نفسية، بمقدار ما يتعرض له الجسد من علل، والتي بينها: التعب والارهاق الشديدين، والطموح الى نيل المعالي بالاجتهاد والمواظبة في صناعة الكيمياء، واجتناء العلوم البحتة والتطبيقية، والافراط في العشق أو اليرة المؤدية لانحراف الصحة، والاكثار من الخمور والانغماس في الملاهي أو التعرض للوسواس والكآبة المرضية — حتى تسبب الفزع والجنون والصرع في الأمراض العقلية المستعصية<sup>٣٢</sup>.

وحول تعاقب الفصول والتعريف بالمنام والتقلبات الجوية والتنجيم يبحث المؤلف في هذه أيضاً أسماء الشهور، وهي التي في الغالب مأخوذة من لغة العرب زمن ما قبل الاسلام، وعند اليونان والرومان والسريان: فرأس الشتاء مثلاً هو شهر كانون الأول (ديجنبر)، وكان الآخر (يناير)، وشباط هو (فبراير)، ومطلع سعد الذابح يتبعه شهر آذار (مارس)، ونيسان هو (ابريل)، وايار (مايه)، وحزيران

٣٠. ابن القف، جامع، ص ١٣٩ - ١٤٤، حيث يقدم المؤلف شرحاً متكاملأً حول حفظ الصحة، والحصل التي يجب ان يتجلى ويتمسك بها من أراد ان تبقى له العافية والرفاه نفساً وجسداً.  
انظر سامي خلف حمارنه، «تاريخ مهنة التمريض»، مجلة القدس الشريف، ع ٥٥ (١٩٨٩) ص ٦١ - ٧٠، ع ٥٧، ص ٦٣ - ٧٣.

٣١. ما اوجزه انظر: الدمشقي هنا، ما هو الا مقدمة سابقة ناجحة ورزينة، في تأسيس وتطوير الطب والتمريض عند ممارسي العرب لهذه المهن الصحية، وكما وردت في كتاب المسائل في الطب للمتعلمين على سبيل المسألة والجواب، تصنيف ابي زيد حنين بن اسحق العبادي، تحقيق جلال محمد موسى، دار الجامعات المصرية، ١٩٨٧، ص ١ - ١٧، ٣٤ - ٣٨، ٧٥ - ٧٨، ٢٢٥ - ٢٢٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: العبادي: المسائل.

(يونيه). أما مطلع برج الأسد فهو أوغشت (أوغست)، وبرج العذراء هو شهر شبتمبر، وأكتوبر هو بدء برج الميزان، وتشرين الآخر هو (نوفمبر).

ويستعرض الدمشقي الناحية العلاجية والمرضية وظائف الأعضاء : في وصف أنواع البول وتحديد ذلك. ثم ينصح بالفصد في مواضع وأزمنة معينة، ثم شرح استعمال الحجامة والتي يعتبرها أطباء وجراحو العرب وغيرهم، في العصر الوسيط وحتى مطلع العصر الحديث بانها معالجة جراحية لأزمة، تنوب مكان الفصد، وأهمية علاقة ذلك بالتنجيم والأمراض ووسائل الشفاء.

وحول اعتدال المزاج، لا سيما الروح النفساني المسبب للفتنة وصائب الرأي والتمييز، فالمؤلف يقتبس قول جالينوس بأن بيت الروح هذه، هي في مؤخر الدماغ، حتى اذا ما عرضت له آفة في مؤخر الدماغ، سبب للمرء النسيان ونقصان الذاكرة أو فقدانها<sup>٣٣</sup>.

### منافع الأدوية والأغذية في العلاج :

يولي مؤلف الرسالة اهتماما خاصا بصناعة الدواء الناجح وتحسين المستحضرات الطبية النافعة والأغذية : في الشفاء واصلاح صحة الانسان ورفاهيته وسلامته. ويشير الى صناعة بعض العقاقير الطبية النافعة وتحضيرها : شراب الاترنج، ورب التوت، ونخل العنصل، وعمل الجلاب، وعسل البلادور المصنوع من جوز البلادر السابق ذكره. أما في كيفية صناعة السكنجين الكثير المنافع فالوصفة تكون هكذا :

«يؤخذ من ماء السفرجل الحامض ومن ماء الرمان الحامض جزء من كل واحد، ومن نخل العنصل (السابق ذكره) جزئين، ومن لسان الحمل (و يعرف بالمصاصة)، ثلاثة أجزاء بعد انتزاع رغوته، تطبخ هذه المواد على النار، ثم يؤخذ من الكشوتة (الكشوت) وهو الافيتمون أو حامض الارنب وبزر سريس (وهو من نوع الهندباء) والبدرج (بدرانج وهو ما يعرف باسم دمع أيوب) من كل واحد أوقية. تنقع هذه في ثلاثة أرطال ماء، وتطبخ الأدوية حتى يبقى ما يعادل رطل واحد، ويضاف اليه

٣٢. المصدر السابق، ص ٣٩-٤٢، ٧٦. انظر كذلك :

Leslie Weatherhead, Wounded Spirits, London, 1962, pp. 10-12.

٣٣. العبادي، المسائل : ص ٢٣٩-٢٥١ : ابن القف، جامع، ص ١٨٤-١٩١، وفي تشريح الدفاع يرجع الى العمدة في صناعة الجراحة، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، ١٩٣٧، ج ١، ص ٩٢-٩٤، وحول الفصد والحجامة، انظر : الزهراوي، ابو القاسم خلف بن عباس (ت ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م)، التصريف لمن عجز عن التأليف (تم تصنيفه حوالي ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م).

المقالة الثلاثون، في العمل باليد (الجراحة) ليثوغراف، مطبعة النامي - لكنو، بالهند، ١٩٠٨، ص ١٦٩-١٨٠، و ابراهيم بن عبد الرحمن الازرق، تسهيل النافع في الطب والحكمة، طبعة فاتح، اسطنبول، ١٩٨٤، ص ٥١-٥٣.

ماء السفرجل والرمان المذكورين، ويترك حتى يستقر ثم يصفى (المروق)، ويضاف النصف من السكر، ويطبخ مرة أخرى حتى ينعقد ويرفع الى حين الاستعمال<sup>٣٤</sup>.

و ينصح المؤلف بصنع ماء الشعير، وغالباً يكون مضافاً الى الحليب الصافي الحديث، والذي وصفه الأطباء واطروا منافعه : وذلك بأن يؤخذ كمية معينة من الشعير الأبيض الصحيح الممتليء الحديث العهد (حوالي ثلاثة أشهر من درسه وخزنه)، فينقع في ماء حار ساعة من الزمن، ثم يلقى في مهراز (هاون). ثم يهشم حتى ينقشر، ويصب عليه من الماء سبعة أمثاله، وليكن لكل جزء من الشعير خمسة عشر جزءاً من الماء الحار موضوعاً في القمقوم (أوقمقم، وهي القارورة المدورة الطويلة العنق)، ويطبخ على نار فحس. فكل ما نقص في حالة التبخر، يزداد عليه من الماء الحار حتى يستوفي الشعير نضجه باستواء جملة الماء، ثم يصفى ويستعمل بمزجه مع الحليب<sup>٣٥</sup>.

ونجد لأول مرة في المعالجات الطبية عند العرب، ذكراً لوصفة المغيث الهاروني الذي صنعه أمغث، الطبيب الهندي أمير المؤمنين هارون الرشيد، حين دعى بواسطة الخليفة من بلاده على رأس ستين راكبا حسب ما ذكره الدمشقي. وكان على يد وبواسطة هذه الوصفة شفاء الخليفة، وهو مجرب ونافع لوجع الرأس واختلاط العقل والصرع (في النص الصراع) والدوار. ومن أهم أخلطه العلاجية : الاهليلج والبليج والأملج (ثلاثة أدوية هندية مشهورة)، مع الخردل والزنجبيل والدارصيني أو السليخة والكمون الكرمانى (بالأصل في النص، كامون)، والكرفس والحنظل<sup>٣٦</sup>.

ومن بين المواضيع التي طرقتها الدمشقي في الرسالة، وصف الكثير من الحيوانات الأهلية والبرية والطيور ومنافعها، نذكر منها : النسر والحجل والخلد والفأر وابن عرس والقنفود والسنور والمعز والضأن والدجاج والفواخت والجمل وحتى السرطان البحري أو النهري.

أما بالنسبة لذكر خواص معادن الأحجار، فنجد في الوصف أفكاراً أصيلة ومشاهدات مفيدة ودقيقة تستحق الاهتمام. فمثلاً يتكلم المؤلف عن الزئبق «الذي يحل جميع الأجساد ما عدا الذهب»، ويعتبره من أجناس الفضة، أو يوجد معها في المناجم والطبقات الأرضية، ثم يصف المغناطيس وألياف الحديد والنحاس والزجاج.

٣٤. انظر : مفردات الادوية والتعريف بالامراض في : ابن القف، جامع، ص ٥٠١ وما يتبع والشحات نصر ابوزيد، النباتات والاعشاب الطبية، القاهرة، مكتبة الهلال، ١٩٨٦ وأ.ك. بديفيان، المعجم المصور لاسماء النباتات، القاهرة، ١٩٣٦، ورمزي مفتاح، احياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات الطيارة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٣.

٣٥. في المجموعة الايقراطية (وقد عرفت بذلك تحليداً لابقرات بن هيراقليس حوالي ٤٦٠ - ٣٧٧ م) هناك مقالة في ماء الشعير عرفها العرب بالترجمة. ثم ان الطبيب يوحنا (يحيى) بن ماسويه، صنف مقالة ايضاً في ماء الشعير، تحقيق الاب بول سباط وطبع مجلة Institute of Egypte، وكما عرف أطباء العرب منافع هذا العلاج.

أما النشادر، فهو العقاب، ويسميه المؤلف أيضا : بالكافور والترياق بألوانه الكثيرة بسبب احتلاله بمعادن أخرى ومنه الأغبر والأبيض الصافي. وان خاصيته اجتذاب الأشياء من الأماكن العميقة، ويشكل ملغما بلون أسود مع الزئبق أو المعادن الأخرى. ومنه المصنوع من دخان الحمامات والزبل (في الأصل الزبول)، ويتخذ أيضا من الشعر، ويمتزج مع الشب والنسر وهو البروق أو الأطرون والييطرون أو النظرون وهو كربونات الصوديوم الطبيعي. والغرب (وهو الغرب واللجين والصريرف وهو الفضة، والسريانية سبما حسب قول البيروني في الجماهر)<sup>٣٧</sup>.

وينعت الأثمد (وفي النص الأثمد)، ومنه معادن كثيرة وأنواع مختلفة حسب تكونها في مشرق العالم الاسلامي ومغرب، وأفضل الأنواع هو الموجود في سجلماسة بالمغرب العربي، وحجرة يخالطه الرصاص ويمكن استعماله كحلا في علاج العين. أما الاضريح فهو الزنجفر (وبالأصل الزنجفور وهو كبريتور الزئبق الأحمر) ويتركب من الزئبق (وبالأصل الزواق) والكبريت كما هو معروف في عصرنا الحاضر أما الزنجار فهو زنجار النحاس، والمراد سنج وهو أيضا بالفارسية : مرادرسك أو مرتك، وهو حجر الأثمد او او أكسيد الرصاص المحروق (أو النحرق) «الثليل مع أنه يطفو على سطح الماء»، المتبلور جزئيا، ومه ذهبي أحمر صقيل، وهو أجود أصنافه.

ويتابع الدمشقي حديثه حول حجر الياقوت بألوانه : الأحمر والأبيض والأصفر والأسود، وأفضله الأحمر «الذي اذا مسته النار ازداد حسنا»، وهو أشرف الأحجار الكريمة. أما الكبريت فكان موجودا في مناطق عدة، ومعادنه كثيرة الأنواع، ومنها: الأبيض والأحمر والأسود والأصفر حتى الأحمر الذي يضيء بالليل كالسراج. ولكن هذه الأنواع مختلطة بمعادن أخرى، وكمواد معروفة في الطبيعة تختلف بأنواعها وكان أطباء العرب قد فطنوا لمنافعها في العلاج خارجيا وداخليا.

وقد اهتم الدمشقي بأدوية لها تأثير في التخدير والتعود على استعماله، حتى أطلق عليها اسم الدواء المرقد، وقام هو نفسه بتصنيعها، وهي حاوية لعدة مواد منها : الأفيون وبزر الخشخاش والخس والكزبرة والزعفران، والجندبادستر (وهو افرازات راتنجية زيتية مرة الطعم لحيوان القندس، عرفه الاغريق والعرب واستعملوه في المعالجات). وتحوي الوصفة أيضا على الشيكران (شوكران او سيكران

٣٦. انظر: الرسالة المارونية مخطوطة الرباط ١١٠١١ دق، ٥٥، ومخطوطة مكتبة جامعة كمبرج، شرقي رقم ١٠٢١ (١٢)، ث ١٠٤ «الانف الذكر لها». وقد ذكر مآثر كتاب دياسفوريس في الأدوية والأغذية المفردة في مقالاته الخمسة والتي اكملها حوالي ٦٤٤م، وقد ترجمه بالعربية وحققه.

٣٧. البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر في:

“Evaluation of Precious Stones and Minerals”, Hamdard, Vol. No. 2 (1988), pp. 23-27.

وهو الطحماء)، والخزرق الأسود وجوز أرقم وهو آكثار وهو من نوع الكستناء، والبيروج وهو سراج القطرب وتفتح المجاني<sup>٣٨</sup>.

وقد أجاد الدمشقي في اهتمامه بما يمكن أن نسميه بعلم المساكن، إذ أشار إلى أهمية المساكن وهبوب الرياح الأربعة، حتى أنه أكد على من أراد حفظ صحته جسميا ونفسيا لا بد وأن يكون له في داره أربعة بيوت: غربي أيام الربيع حيث لا تنحجب عنه ريح الجنوب، وجوفي (شمالي) أيام الصيف حيث لا تنحجب عنه ريح الدبور، وجنوبي (أي نحو القبلة) في الشتاء حيث لا تنحجب عنه ريح الشمال، وشرقي أيام الخريف، حيث لا تنحجب عنه ريح الصبا الحارة الرطبة ويكون مع داره بستان نضير، وماء حار من صهر ريح اوبركة ونوافير وسط مناظر جميلة وراحة البال. لأن النفس ترتاح جدا إلى الخضرة (الخضرة في الأصل، جامع بين الماء والخضراء والوجه الحسن)، وذلك أيضا يساعد في تقوية البصر.

وأخير يخلص الدمشقي في الرسالة إلى القول: «وقد أجبت يا أمير المؤمنين فيما سألتني»، مما يدل على أنه كان طبيبا خاصا له آنذاك زمنا، التمس منه تصنيف هذه الرسالة الوافية بالمعنى والمبنى<sup>٣٩</sup>.

ويؤكد الدمشقي، مقدم هذه الدراسة، ممارسته زمن الرشيد، ويشرح الأحداث الهامة التي وقعت حينذاك، بما في ذلك حقيقة سفره إلى الهند وأقامته حوالي ثلاث سنين فيها. ثم انه بعد عودته إلى بغداد قام بأكمل هذه الرسالة، وتقديمها قبيل وفاة الرشيد إكراما له. أما أمر رجوع الدمشقي إلى الفيحاء، مسقط رأسه، فلربما تم في عهد المأمون (١٩٨هـ/٨١٣م - ٢١٨هـ/٨٣٣م)، حيث واصل عمله وعطاءه في ممارسة هذه المهنة الشريفة، حتى وفاته كما أسلفنا وخلال هذه المدة كانت له علاقات ود وزمالة مع نطاسسي الأطباء في زمنه مثل: جبريل بن يحنشوع (ت ٢١٥هـ/٨٣٠م) ويوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) وزكريا الطيفوري، وعيسى ابوقريش الصيدلاني وسهل بن اسبورد الكوسج (دعي لأن لحيته على ذقنه رعل العارضين) المتوفي عام ٢١٧هـ/٨٤٢م<sup>٤٠</sup>.

٣٨. انظر: هامش رقم (٣٤) في تعريف المفردات الطبية المنشودة، كتاب المعتمد في الأدوية المفردة، تأليف الملك يوسف ابن رسول النساني المتوفي ١٢٩٤هـ/١٢٩٤م، وطبع في القاهرة طبعة ثانية، ١٩٥٢.

٣٩. مخطوطة الرباط رقم ١١٠١، ق ٧٠-٧٤، ومخطوطة كمبردج رقم شرقي ١٠٢١ (١٢) ق ١٠٠-٤، ١١٦-١١٥.

٤٠. الأطباء الافذاذ زملاء الدمشقي كانوا بين الرواد وأهمهم: يوحنا بن ماسويه، وزكريا الطيفوري؛ وجبريل بن يحنشوع؛ وسهل الكوسج وغيرهم. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ١، ص ١٢٥ - ١٦١؛ القفطي، تاريخ، ص ١٣٢، ١٧٢، ١٩٣، ١٩٦، ٣٨٠ - ٣٩١.

أما بالنسبة لتقييم ما تم انجازه من جهة تطوير تراث المهن الصحية وآدابها وفلسفتها في زمن الدمشقي، فكثير على كل وجه - في المهارات التي أبدع فيها. ومحتويات الرسالة التي حققها كافية وشاملة تعالج نواحي هامة: في مجال الطب والعلاجات والأمور الطبيعية المرافقة (أو المساندة) لها، بجانب آثار خطية أخرى ذكرها وإن لن نفحص بعد، والاصطلاحات العلمية والتقنية والحضارية التي أوجزها.

وقد ربط المؤلف بين ما كان معروفا قبل زمن هارون الرشيد، وبين المساهمة الحضارية والقنفزة المباركة التي عاشها الدمشقي وساهم بترويجها في عصره. ثم ما توصلت اليه المهن الطبية من نشاطات ونهضة عارمة في الميادين المذكورة سابقا، والرواد الذين واكبوا هذه المسيرة، بما تشهد به هذه الرسالة وهذا يؤكد وجود بون شاسع بين كان في أواخر الدولة الأموية وأثناء عصر المؤسسين الثلاثة من العباسيين الخلفاء الأول: السفاح والمنصور والمهدي، وما تلا ذلك زمن الرشيد وأولاده في هذا المضمار. ولذلك لا بد من الإشارة الى من سبق من رواد الأطباء والطبيين مثل: جرجس بن يُختيشوع وابن جذام والحارث بن كَلْده وأبي جريج الراهب ورمثة، وابن أثال وماسرجويه البصري، وثيادوق ووهب المتب قبل عصر الرشيد، عصر ليالي العرب (وأحياء العلوم)<sup>٤١</sup>.

وقد أهمل هذا الربط، فملء هذا الفراغ وتقييمه لمدة أكثر من ثلاثين عاما، وما تحقق في هذه المدة من ازدهار، صار لزاما ذكره بالحجم الذي يستحقه. أما هذا الإهمال، فكان سببه نتيجة طبيعية لما حُقق بواسطة الأطباء الافذاذ والمترجمين النابغين الذين ساهموا في إكمال تأسيس وتثبيت ركائز العلوم العربية الطبية والتاريخ الطبي، من حوالي ٢٢٦هـ/٨٤٠م - ٢٦٠هـ/٨٧٤م. وهذه هي الحقبة التي تبعت الرسالة للدمشقي زمن: يوحنا (يحيى) بن ماسويه (المتوفي عام ٢٤٣هـ/٨٥٧م)، وأبي الحسن علي بن سهل رَبان الطبري وأبي زيد حنين بن اسحق العبادي (١٩٤هـ/٨٠٩م - ٢٦٠هـ/٨٥٧م) في العاصمة العباسية<sup>٤٢</sup>.

وأخيرا، نشير الى أن الدمشقي قد أغفلَ تقييم مآثره من قبل مؤرخي، بين الربع الأول من القرن الثالث حتى أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). الا أن بعض من اطلعوا على رسالته، أشادوا بمدحه نظير أحد نسخ هذه الرسالة، ولربما كان طبيبا ايضا، والتي في ختامها يمتدح عيسى الدمشقي بأنه: «العالم الأوحِد رئيس الحكماء وعالم الاطباء»، وانه في زمن الرشيد كان له خير ناصح في ممارسة الصناعة الطبية، وأنه نصير مساهم في إحياء علومها<sup>٤٣</sup>.

٤١. سليمان بن حسان بن جلجل (ت ح ٣٧٢هـ/٩٨٢م) طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة،

١٩٥٥، ص ٥٤ - ٥٧ القبطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٥، ١٦١ - ١٦٦.

٤٢. ابن ابي اصيبمة، عيون الانباء، ج ١، ١٠٩ - ١٢٣، ١٦٣ - ٢٠٠، حارنه، تاريخ، ج ١، ص ١٣٣ - ١٤٢.

١٤٢

٤٣. الرسالة المارونية، مخطوطة الرباط، ١١٠١ د، ق ٧٤.

## دور الأتراك في الشام قبل السلاجقة

### رمضان شيشن\*

الأتراك من الشعوب ذات التاريخ القديم، إذ بدأ دورهم في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد قامت الصلات بين الأتراك والعرب قبل الاسلام، إذ كان الفريقان يعملان في الجيوش الفارسية والبيزنطية جنوداً. ولما استولى الفرس على اليمن سنة ٥٧٩ م، كان في جيشهم عناصر من الأتراك. كذلك نرى عناصر عربية في الحروب التي جرت قبل الاسلام بين الترك والساسانيين. وفي الحرب الأهلية بين خسرو برو يز وبهرام جو بين كان الأتراك يؤيدون الثاني بينما كان حسان بن حنظلة الطائي يحارب مع خسرو برو يز لانقاذه من فرسان الأتراك. وفي ذلك يقول حسان<sup>١</sup>:

وأعطيت كسرى ما أراد ولم أكن لأتركه في الخيل يعثر راجلا  
بذلت له ظهر الضبيب وقد بدت مساومة من خيل ترك وكابلا.

ولما توفي النعمان بن الحارث ملك غسان انشد النابغة الذبياني المتوفي ٦٠٤ م، مرثية يذكر فيها الترك و يقول<sup>٢</sup>:

قعوداً له غسان يرجون أوبه وترك ورهط الأعجمين وكابل  
وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يقيم أثناء معركة الخندق، وأثناء اعتكافه في رمضان في خيمة تسمى قبة تركية<sup>٣</sup>.

ويرد ذكر الترك في أحاديث نبوية نشرها كاتب هذه السطور في مقالة بعنوان «الأتراك عند العرب القدماء». وكذلك ورد ذكر الأتراك كثيراً في أشعار الشعراء الذين عاشوا في أوائل الاسلام.

وفي الفتوح التي جرت في القرن الأول من الهجرة عرف الترك والعرب بعضهم بعضاً عن كثب. ثم لم تمض مدة طويلة حتى بدأ استخدام الأتراك في الجيوش الاسلامية، إذ بعد غزو بخارى سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣ م أتى عبد الله بن زياد بالفي رام من البخارية إلى العراق. ومن أولئك الرمماه الرشيد التركي مولى عبيد الله بن زياد الذي يذكر في الحوادث التي جرت

\* جامعة معمارسان، استنبول، الجمهورية التركية.

١. المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٦ هـ / ٩٥٨ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٩، بعناية باربيه دمنيارد و باوه دكورتل، طهران، ١٩٧٠، ج٢، ص ٢١٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج الذهب؛ رمضان شيشن، «الأتراك عند العرب القدماء» باللغة التركية، مجلة التركيات م ١٥، ص ١٢. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: «الأتراك عند العرب القدماء».
٢. الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م، تاريخ الرسل والملوك، ج١٥، مطبعة ليدن، ١٨٧٩ - ١٨٨١ م، ج ٣، ص ١٤٨٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ؛ شيشن «الأتراك عند العرب القدماء»، ص ١٥.
٣. شيشن «الأتراك عند العرب القدماء»، ص ١٢.

بالبصرة سنة ٦٠ هـ/٦٧٩ م<sup>٤</sup>. ثم ورد ذكر الأتراك الفرغانيين الذين استخدموا بين حرس عبد الملك بن مروان بدمشق بمناسبة إخماد فتنة المتنبّي الكذاب الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي سنة ٧٩ هـ/٦٩٨ م. كما في النص الآتي :

«قال ابو بكر بن أبي خيثمة : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الجوني حدثنا محمد بن مبارك حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال : كان الحارث الكذاب من أهل دمشق... وكان يريهم الأعاجيب، كان يأتي إلى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح تسبيحاً بليغاً... واختفى الحارث وصار إلى بيت المقدس يدعو إلى نفسه سراً، واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى النصرية فنزلها. فورد عليه هناك رجل من أهل النصرية ممن كان يدخل على الحارث وهو ببيت المقدس فأعلمه بأمره وأين هو، وسأل عبد الملك ان يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحتاط عليه. فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب بيت المقدس... ثم قال للفرغانيين من أتراك الخليفة... قال : فأخذه فقيده.. فيقال أن القيود والجامعة سقطت من عنقه مراراً ويعيدونها. وجعل يقول : «قل إن ضللت فانما أضل على نفسي...» وقال لأولئك الأتراك : «اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله» \*.. فقالوا له بلسانهم ولغتهم «هذا كراننا فهات كرانك» (أي هذا قرآننا فهات قرآنك). فلما انتهوا إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة وأمر رجلاً فطعنه بحربة...<sup>٥</sup>. هكذا نرى الأتراك أول مرة بالشام.

ولما أسلم فريق من الخزر وأتراك الصول المقيمين بجرجان في أواخر عهد الأمويين بدأ ازدياد تأثير العنصر التركي في العالم الاسلامي . وكان بين زعماء حركة العباسيين عناصر تركية. و ينقل ابو الحسن العسكري عن الجاحظ خبراً مهماً يوضح ابتداء استخدام الأتراك في أمور مهمة في دولة الاسلام، فيقول :

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال حدثنا ثمود بن المزرع، قال حدثنا الجاحظ، قال : أول من اتخذ الأتراك المنصور، اتخذ حماداً التركي، ثم اتخذ المهدي مبارك التركي، وتوليا التركي وهو الذي قتل الوليد بن طريف الخارجي مع يزيد بن يزيد<sup>٦</sup>.

٤ . الجاحظ، ابو عثمان عمر بن بحر، ت ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م، مناقب جند الخلافة وفضائل الاترك، ترجمه إلى اللغة التركية رمضان شيشن، انقره، ١٩٦٧ م، ص ٢٨؛ وسيسار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا : الجاحظ، المناقب.

حقي طورسون بيلديز، الاسلام والاتراك (باللغة التركية)، استانبول ١٩٧٦ م، ص ٤٦.

\* آية ٥٠ من سورة سبأ. \* آية ٢٨ من سورة غافر.

٥ . ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ/١٢٧٢ م)، البداية والنهاية، ١٤ ج، بيروت، مكتبة المعارف، ج ٩، ص ٢٧-٢٩؛ زكريا كاتابجي، الترك في مؤلفات الجاحظ، بيروت ١٩٧٢ م، ص ١٠٥-١٠٦؛ رمضان ششن، الاترك عند الجغرافيين الاسلاميين (باللغة التركية)، انقره ١٩٨٥ م، ص ٦. سيسار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا : الاترك عند الجغرافيين المسلمين.

٦ . أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل، ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م، كتاب الأوائل، مكتبة حكيم أوغلي علي باشا، رقم ٦٨٠، الورقة ١٢٨ أ-ب؛ والمصدر نفسه، مناقب، ج ٢، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، دمشق ١٩٧٥ م، ج ١؛ ص ٢٨٩-٢٩٠؛ الجاحظ، مناقب، ص ٢٩.



وازداد دور الأتراك في الدولة الإسلامية بعد المنصور. إذ اتخذ كل واحد من الخلفاء والأمراء مماليك من الأتراك، وظهر من بين هؤلاء علماء وأمراء. وفي عهد الخليفة هارون الرشيد كانت فرقة من حرس الخليفة من الأتراك. أما استيلاء الأتراك على الزعامة العسكرية فقد تحقق في عهدي الخليفة المأمون (١٩٨هـ - ٨١٣م - ٢١٨/٨٢٣م) والمعتمد (٢١٨هـ / ٨٢٣م - ٢٢٧هـ / ٨٤٢م) وبخاصة الثاني فإنه أقبل بشدة على اتخاذ مماليك من الأتراك حتى جمع منهم زهاء ثمانية آلاف أو ثمانية عشر الف مملوك. وألف الجاحظ بناء على ذلك كتاب مناقب جند الخلافة وفضائل الأتراك وهو أول كتاب مستقل يتحدث عن اخلاق الأتراك وسجاياهم ثم ضعف دور الفرس في الدولة. وبدأ الخلفاء يتخذون الأمراء والولاة على البلاد العربية من الأتراك. فولى المعتمد أثناس التركي واليا على الشام ومصر سنة (٢٣٣هـ / ٨٤٧م). ثم ولي ابتاخ التركي سنتي ٢٣٤ - ٢٣٥هـ / ٨٤٨ - ٨٤٩م. وفي عهد المتوكل تولى الفتح بن خاقان على الشام ومصر سنتي ٨٥٦ - ٨٥٨م. ويشار في كتب التاريخ الى ان الخليفة المتوكل أراد ان يجعل دمشق عاصمة للدولة العباسية وجاء مع حاشيته وخدمه من قصر الخلافة من سامرا إلى دمشق ونقل الدواوين إليها، ثم استوباها واشتكى من هوائها ورجع إلى سامرا. وكان الفتح بن خاقان والياً بدمشق فاضطر أن يرجع مع الخليفة وعين كلباتكين نائبا في الشام<sup>٨</sup>.

وبعد الفتح بن خاقان تولى الشام ومصر يزيد بن عبد الله واستمرت ولايته إلى سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م. ثم خلفه زاحم بن خاقان أخو الفتح سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م. ثم أحمد بن مزاحم والياً على الشام، ثم تولى أرخزين الغ ترخان في ربيع الأول سنة ٢٥٤هـ / نيسان ٨٦٨م، ثم ولي الشام ومصر بيكباك في رمضان ٢٥٤هـ / ايلول ٨٦٨م، ولكنه لم يذهب إلى ولايته، بل أناب عنه ابن زوجته أحمد بن طولون على مصر والشام. ولما أعلن أحمد بن طولون استقلاله بمصر عين الخليفة المعتمد أماجور التركي والياً على الشام، وهزم أماجور عيسى بن الشيخ العاصي وملك دمشق<sup>٩</sup>.

وفي سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦م تصالح الخليفة المعتمد وأحمد بن طولون فولاه الخليفة على طرسوس وأمره بغزو الروم<sup>١٠</sup>. ثم توفي أماجور صاحب إقطاع دمشق سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م فولى مكانه ابنه. وبناء على هذا قرر أحمد بن طولون أن يغزو الشام وكتب إلى ابن أماجور وأخبره أن الخليفة أعطاه ولاية الشام. فقبل ابن أماجور طاعته واستقبله بالرملة. فولاه ابن طولون

٧. الأتراك عند الجغرافيين الإسلاميين، ص ٩ - ١٠.

٨. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٢٢م) الكامل في التاريخ، ١٢ ج، ٧، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥، ص ٨٥. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل؛ الجاحظ مناقب

ص ٢٦: ٣٠٢ (1970), P. 302: ٢٦, R. Hartmann, «Şâm», Islam Ansiklopedisi, Vol. ٢١

٩. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٢٨.

١٠. المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

على الرملة وجاء إلى دمشق وأبقى أصحاب أماجور على اقطاعاتهم. ثم استولى على حمص وحماء وحلب على الترتيب، وحاصر سيما الطويل بانطاكية واستولى عليها، ثم جاء إلى طرسوس. ووقع في هذه السنة قحط شديد في الشام لهذا لم يغز بل رجع إلى دمشق، وفي هذه الفترة كان ابن جبغويه نائبا في حران عن ابن طولون<sup>١١</sup>. ونستنتج من هذا أن ولاية ابن طولون كانت تمتد من حدود برقة إلى آخر ديار مصر بالجزيرة.

وفي سنة ٢٦٩ هـ/ ٨٨٢ م ثار على أحمد بن طولون مملوكه لؤلؤ صاحب حمص وقنسرين وحلب وديار مصر كما ثار بازمار في طرسوس عليه، وبناء على ذلك عزم أحمد بن طولون أن يسير من مصر إلى الشام، ولما جاء إلى الشام توفي فجأة وقام مقامه ابنه خمارويه<sup>١٢</sup>. ويذكر المؤرخون أن أحمد بن طولون اشترى كثيراً من الممالك الأتراك والمغاربة ووصل عدد جيشه وحاشيته إلى مائة ألف رجل، وكان أكثر اعتماده على العنصر التركي<sup>١٣</sup>.

ولما توفي أحمد بن طولون حاول اسحاق بن كنداجك وابن أبي الساج الاستيلاء على الشام، والتحق بهما الخليفة الموفق والأمراء الذين كانوا يحكمون في مدن الشام نيابة عن ابن طولون. واستولى اسحاق بن كنداجك على دمشق وهزم جيش خمارويه عند مدينة شيزر. ثم التقى الطرفان سنة ٢٧٢ هـ/ ٨٨٥ م بالرملة وانجبت المعركة بغلبة خمارويه واسترداد بلاد الشام. وبعد ذلك وقع خلاف شديد بين اسحاق بن كنداجك وابن أبي الساج. وتمت الخطبة في الديار الشامية والجزرية باسم خمارويه سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م، وبناء على ذلك أعلن بلزمار في طرسوس طاعته سنة ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م، وخطب باسم خمارويه. وفي سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٤ م كان طغج بن جف والياً في طرسوس ويغزو من طرسوس إلى بيزنطة<sup>١٤</sup>. أما خمارويه فكان يحب العمران وتنظيم الحدائق وتربية الأزهار، ويقول آدم متزقلا عن المقرئ في هذا الشأن «وقد ألع خمارويه -فوق ما تقدم- بالأزهار وهذا الولوع من صفات الترك، فصار خمارويه بذلك كله أكبر منشيء للبساتين بين أمراء الاسلام. وذلك أنه أقبل على بستان أبيه فزاد فيه، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله بستانا وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، ونقل إليه النخل اللطيف الذي ينال ثمره القائم، ومنه ما يتناوله الجالس، من أصناف خيار النخل. وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد. وزرع فيه الزعفران وغرس فيه من الرياحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدا البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة. وزرع فيه النيلوفر الأحمر

١١. المصدر السابق، ج ٧، ص ٢١٦-٢١٨.

١٢. المصدر السابق، ج ٧، ص ٤٠٨-٤٠٩.

١٣. C.H. Becker, Ahmed B. Tolun, Islam Ansiklopedisi, Vol. I (1941), pp. 174-175.

١٤. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٤١٤-٤١٥، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٩، ٤٦٧.

والأزرق والأصفر والجنوبي العجيب. وأهدي إليه من خراسان كل أصل عجيب. وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك مما يستظرف ويستحسن. وكسا أجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر. فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء وتتحدروا إلى مساق معمولة ويفيض منها الماء إلى مجار تسقي سائر البستان. وبنى فيه برجاً من خشب الساج. فكانت هذه الفوارات والبرك والعيون المائية الصناعية على طريقة المصريين القدماء في عمل البساتين - إلى جانب أبراج الخشب مما يزيد البستان جمالا»<sup>١٥</sup>.

ثم توفي خمارويه في ذي الحجة ٢٨٢ هـ/يناير-فبراير ٨٩٥ م بدمشق وصار ابنه جيش بن خمارويه ملكاً. ولكنه كان قليل التجربة مخالطاً للأوباش، لهذا عزله الاخشيدي طغج بن جف وأقام مقامه أخاه هارون بن خمارويه. وفي سنة ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م، نرى الأمور في الشام ومصر غير منتظمة، ولكن والي دمشق طغج بن جف يخرج من هذه الأزمة ناجحاً ويحتفظ بمكانه. ويحصل هارون بن خمارويه في هذه السنة من الخليفة المعتضد على اعتراف بحكمه على الشام ومصر. وبعد ذلك يظهر القرامطة في الشام (سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ م) ويحاصرون دمشق وتجري بينهم وبين والي المدينة طغج بن جف حروب. ولكن من حسن الحظ أن رئيس القرامطة يموت، ويهزمهم بدر مملوك ابن طولون في السنة التالية ولكن الدولة الطولونية تنتهي سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٤ م. ويسترجع الخليفة المكتفي ملك الشام ومصر<sup>١٦</sup>.

وفي سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م. صار أحمد بن كيغلق والياً على دمشق. واستمرت ولايته ثم ولاية ابنه فترة طويلة. حتى امتدت ولاية أحمد بن كيغلق على مصر إلى سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م. ثم عزله الخليفة الراضي عن ولاية مصر وأعطاه أيضاً لمحمد بن طغج بن جف والي الشام. وبذلك تم قيام الدولة الاخشيديية بالشام ومصر. ثم حاول ابن رائق (سنة ٣٢٨ هـ/٩٣٩ م). الاستيلاء على الشام، ولكنه انهزم في المعركة التي جرت بينه وبين ابي نصر بن طغج باللجون في ٤ ذي الحجة/١٠ نوفمبر من السنة المذكورة ودخل تحت حكم الاخشيديين<sup>١٧</sup>.

وفي سنة ٣٣٠ هـ/٩٤١ م تم قتل ابن رائق على يدي ناصر الدولة بن حمدان وسيف الدولة بن حمدان. وسار الاخشيدي محمد بن طغج من مصر إلى دمشق بتاريخ ٢١ رجب

١٥. المقرئزي، ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٤، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠ هـ، ج ١، ص ٤٧٧-٤٧٨. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المقرئزي، خطط: آدم متز، الحضارة العربية الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، ترجمه محمد عبد الهادي ابوريدة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٢١٨.
١٦. ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٤٧٧-٤٧٨، ٤٨٨-٤٨٩، ٤٩١، ٥١١، ٥٢٥-٥٢٦، ٥٣٥-٥٣٦؛ سهيل زكار، أخبار القرامطة، دار حسان، دمشق، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م، ص ٢٤٦-٢٤٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أخبار القرامطة.
١٧. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٦٢، ٣٦٤؛ وانظر: ابن كيغلق، أخبار القرامطة، ص ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٢٥١. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أخبار القرامطة.

٣٣٠هـ/ ١١ ابريل ٩٤١م، وتسلم اولاً مدينة دمشق من محمد بن يزيد نائب ابن رائق. ثم أبقاه عليها، ثم استرد حلب وغيرها من مدن الشام من أيدي الحمدانيين. ولما توفي الاخشيدي ابو بكر محمد بن طغج في ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ/ يوليو ٩٤٥م استولى سيف الدولة على دمشق فطلب أهل دمشق النجدة من الاخشيدي اماجور بن محمد بن طغج فاستردها اماجور سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، كما استرد بعد ذلك مدينة حلب، وانسحب سيف الدولة إلى الجزيرة. ثم تصالح الطرفان على أن تكون دمشق لاماجور وحلب لسيف الدولة، ورجع اماجور إلى مصر. أما كافور الاخشيدي فبقى مدة بدمشق وعين بدرأ الاخشيدي واليا عليها. ثم بعد قليل صار ابو المظفر بن طغج نائبا على دمشق (١٨).

وفي سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م جاء قائد من خراسان مع عساكره إلى الشام ليساعد سيف الدولة في غزواته ضد بيزنطة. ولم يرجع كثير من أصحابه إلى أوطانهم بل بقوا في الشام. ثم جاء جيش مؤلف من زهاء عشرين الف رجل من خراسان وكان بينهم الفقيه الشهير القفال الشاشي<sup>١٩</sup>.

وفي هذه الفترة نرى الفيلسوف الكبير ابا نصر الفارابي يتجول في بلاد الشام و يسكن في دمشق ومصر. ويذكر ابن خلكان أنه نال حماية سيف الدولة وتكلم مع الأتراك في جيشه باللغة التركية. وأما البيهقي فيذكر أن اكثر كتب ابي نصر الفارابي الفت في الشام وانتشرت فيها<sup>٢٠</sup>. ثم نقرأ في آخر كتاب آراء المدينة الفاضلة العبارة التالية: «كان ابو نصر الفارابي رحمه الله ابتدأ بتأليف هذا الكتاب ببغداد وحمله إلى الشام في آخر سنة ثلاثين وثلاث مائة وتممه بدمشق في سنة إحدى وثلاثين. ثم سأله بعد ذلك بعض الناس ان يجعل الكتاب فصولا يدل على قسمة معانيه. فعمل هذه الفصول بمصر في سنة سبع وثلاثين وجعلها مضافة إلى الكتاب فهي ستة فصول»<sup>٢١</sup>.

كما نرى الجوهرى في الجيل التالي يبحث عن مفردات اللغة العربية في قبائل مضر وربيعة في بلاد الشام<sup>٢٢</sup>.

١٨. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٨٣، ٤٤٦، ٤٥٨، ٤٥٩.

١٩. المصدر السابق، ج ٨، ص ٥٦٩، ٥٧٠.

٢٠. ابن خلكان، أبو العباس احمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان، ج ٨، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨-١٩٧٢، ج ٥، ص ١٥٢-١٥٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلكان، وفيات.

٢١. ابن ابي اصيبعة، موفق الدين ابي العباس احمد القاسم (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، عيون الأنباء في طبقات الاطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥، ص ٦٠٨. سيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء.

٢٢. C. C, Berg, «Al-Djawhari», E. I<sup>2</sup>, Vol. II (1965), p. 496.

وفي سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م أنهى الفاطميون دولة الاخشيديين بمصر واستولوا على البلاد. وفي السنة التي تليها سارقائد الفاطميين جعفر بن فلاح إلى الشام فانهزم صاحب الشام ابو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فاستولى الفاطميون أيضاً على الشام وعاصمتها دمشق في محرم سنة ٣٥٩ / نوفمبر - ديسمبر ٩٦٩ م، وهكذا انتهت الخطبة العباسية بالشام. واختل النظام في دمشق في هذه الفترة أولاً على يد الأحداث وثانياً على يد البيزنطيين الذين يستغلون اضطراب النظام في البلاد الشامية ويزحفون إليها حتى يصلوا إلى مدينتي طرابلس الشام وحمص. وهي الفترة التي كان يحكم فيها مدينة حلب قرغو يه مملوك سيف الدولة. وفي سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٦ م يزحف البيزنطيون على الشام مرة أخرى حتى نشروا حمايتهم على حلب وشيزروا بقوا قرغوية في ولاية حلب<sup>٢٣</sup>.

وفي العام التالي ظهر القرامطة مرة أخرى في الشام واستولوا على مدينة دمشق وأكثر البلاد، وبعد سنتين استرد منهم الخليفة الفاطمي المعز مدينة دمشق وعين ريان الخادم واليا فيها. وفي سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م استولى البتكين التركي مولى معز الدولة بن بويه على مدينة دمشق وأنهى الفساد والخراب فيها. ولما وجد المعز الفاطمي ان إدارة وعبقريته العسكرية جيدة اتخذه لخدمته ودعاه إلى مصر، ولكن البتكين قتل في القاهرة نتيجة لمؤامرات الوزير يعقوب بن كلس<sup>٢٤</sup>.

وفي سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م استولى الحمدانيون على حلب مرة أخرى وأعانهم في هذا صاحب حصن برزو يه يار وقطاش. وكان على مدينة حلب قبل قدوم الحمدانيين قائد تركي يسمى بكجور وهو الذي ابعده قرغو يه عن المدينة. وقد حاصر الحمدانيون بكجور في حلب مدة أربعة أشهر حتى استولوا على المدينة، وصار بكجور واليا على مدينة حمص. وصارت المدينة في أيام ولايته معمورة وكثرت الأموال والتجارة والزراعة فيها. ثم جرت أمور حتى وصل بكجور إلى نياحة دمشق للفاطميين. وتفصيل ذلك على النحو الآتي :-

في سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م. أرسل الخليفة الفاطمي العزيز بالله جيشاً إلى الشام تحت قيادة الفتكين التركي؛ وهزم يلتكين صاحب دمشق ابن الجراح وعين قائداً يسمى قطلغ نائباً في دمشق وذهب بابن قسام إلى مصر الذي اشتكى دمشقيين من سوء ادارته ليستريح الناس من فساد الأحداث<sup>٢٥</sup>. وعلى الرغم من هذا استمر فساد الأعراب واللصوص والصلعاليك في دمشق حتى هاجر التجار والأسر ذات الثراء إلى حمص التي كانت تحت إدارة بكجور، وازدهرت التجارة بمدينة حمص حتى أعان بكجور أهل دمشق. ولما علم الخليفة العزيز هذا

٢٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٥٩١ - ٥٩٢، ٥٩٦ - ٥٩٨.

٢٤. المصدر السابق، ج ٨، ص ٦٤٢ - ٦٤٣، ٦٥٦، ٦٦١؛ أخبار القرامطة، ص ٦٦ - ٧٢، ٧٦ - ٨٤.

٢٥. ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٩٧ - ٦٩٨، ج ١٠، ص ٦ - ٨.

رغب في أن يدخل بكجور في خدمته ووعده أن ينصبه نائباً على دمشق، وطلب من يلتكين أن يترك إدارة دمشق لبكجور. فصار بكجور نائب دمشق في رجب ٣٧٢ هـ/ يناير ٩٨٢ م. ولم تمض مدة طويلة حتى أخفقت تدابير بكجور في دمشق وبدأ عجزه عن التدبير واشتكى الناس منه، فأرسل المعز منيراً الخادم مع جيش إلى دمشق فاستولى على المدينة وطرد بكجور وانتقل هذا إلى مدينتي الرقة والرحبة واستولى عليهما<sup>٢٦</sup>.

ولما توفي سعد الدولة بن حمدان بحلب سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١ م. حرص أبو الحسن المغربي العزيز الفاطمي أن يستولي على حلب، فأرسل العزيز الأمير منكوتكين على جيش إلى حلب فهزم البيزنطيين الذين جاؤوا للنجدة، وحاصر المدينة، وأعطاه لؤلؤ صاحب حلب مالا لرفع الحصار، فقبل منكوتكين، فلما سمع العزيز ذلك غضب عليه وأمره أن يعاود حصار المدينة. فرجع، ولكن حدث أن جاء امبراطور بيزنطة نفسه لنجدة البلد فاضطر منكوتكين لرفع الحصار وبعد ذلك استولى الامبراطور على شيزر وحمص، وبدأ في حصار مدينة طرابلس الشام. فلما سمع العزيز ذلك أعلن نفيراً عاماً في البلاد وعزم على المسير إلى الشام على رأس جيشه، ولكن لم يتيسر ذلك إذ مرض وتوفي<sup>٢٧</sup>.

أما من سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م إلى سنة ٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م وهي الفترة التي حكم فيها الخليفة الحاكم الفاطمي فلم يقع أي تطور ذي أهمية في الشام. ومع هذا كانت الكفة تميل للبيزنطيين. ولما جاءت سنة ٤١٩ هـ/ ١٠٢٨ م بدأ الفاطميون يهتمون من جديد بأمور الشام فأرسل الخليفة الظاهر جيشاً إلى الشام تحت قيادة أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري. وغلب الدزبري على صالح بن مرداس وابن الجراح العاصيين ودبر الأمور حتى سار كل شيء في مجراه، واستولى أنوشتكين على بلاد الشام كلها. وفي سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠ م. تحرك البيزنطيون بعد تحريض حسان بن مفرج الطائي وساروا إلى الشام، فأعلن أنوشتكين الدزبري نفيراً عاماً في الشام، والتقى الطرفان بين حماه وأفامية، فانجلت المعركة عن هزيمة البيزنطيين. وهكذا ارتفع أذى البيزنطيين عن مسلمي الشام<sup>٢٨</sup>. ولم يستمر أنوشتكين الدزبري في بلاد الشام كثيراً إذ كانت شهرته ورفعة قدره بين الناس سبباً في ظهور حساده لدى الخليفة الفاطمي المستنصر ولدى الوزير أبي القاسم الجرجرائي. ولذلك انسحب الدزبري سنة ٤٢٣ هـ/ ١٠٤١ م. من دمشق إلى حلب وتوفي فيها في ١٥ جمادى الآخرة/ ٩ فبراير ١٠٢٢ م. ويقول ابن الأثير بهذه المناسبة: «فلما توفي فسد أمر بلاد الشام وانتشرت الأمور بها، وزال النظام، وطمعت العرب، وخرجوا في نواحيه، فخرج حسان بن مفرج الطائي بفلسطين، وخرج معز الدولة بن صالح الكلابي بحلب، وقصدها وحصرها، وملك المدينة،

٢٦. المصدر السابق، ج ٩، ص ١٧-١٨، ٥٩.

٢٧. المصدر السابق، ج ٩، ص ٨٨-٩٠.

٢٨. المصدر السابق، ج ٩، ص ٣٦٩، ٤٢٠، ٤٩١-٤٩٢.

وامتنعت أصحاب الدزبري بالقلعة، وكتبوا إلى مصر يطلبون النجدة، فلم يفعلوا، واشتغل عساكر دمشق ومقدمهم الحسين بن أحمد الذي ولي أمر دمشق، بعد الدزبري، بحرب حسان ووقع الموت في الذين في القلعة، فسلموها إلى معز الدولة بالأمان»<sup>٢٩</sup>.

وقد كان ابن حيوس الشاعر (المتوفي سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) من مداح أنوشكين الدزبري في قصائده إذ أشاد بنجاحه في الساحة الادارية والعسكرية. (واهتم شرف الدين بالتقايأ بهذه القصائد ونشر مختارات منها<sup>٣٠</sup> ونكتفي من ذلك هنا بمثال واحد، وهو قوله<sup>٣١</sup>:  
من مبلغ الأتراك أن أميرهم بفعالته تتجمل الأنساب  
والمرء من كسب العلى لم ترفع ال انساب من لم ترفع الاحساب

ولم يتجاوز حكم الفاطميين بعد الدزبري مدينة دمشق. أما حلب وغيرها من مدن شمالي الشام فقد استولت عليها أسرات محلية حتى مجيء السلاجقة.

وخلاصة القول إن العلاقات بين العرب والأتراك لم تبدأ بالسلاجقة بل كان لها ماض عريق يصل إلى ما قبل الاسلام. أما دور الأتراك في الشام فقد بدأ في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان. وتوطدت تلك العلاقات في عهد العباسيين بقيام العنصر التركي بمقام العنصر الفارسي، واستمر دور الأتراك بالشام بغير انقطاع إلى أن وصل السلاجقة. ولا شك في أن أمراء السلاجقة لم يأتوا إلى البلاد العربية وحدهم بل كان معهم عنصر تركي يعتمدون عليه، وتنقل المصادر أن عدد العنصر التركي كان قد وصل إلى سبعين ألفاً في عهد المعتصم ببغداد وسامرا، وربما كان عدد العنصر التركي في الشام قريبا من هذا العدد.

٢٩. المصدر السابق، ج ٩، ص ٥٠١-٥٠٢.

٣٠. شرف الدين يالتقايأ، مجلة التركيات، م ٥، ص ٢٠٧-٢٢٦.

٣١. المرجع السابق، ص ٣٠٨.

## بلاد الشام وشمال القفقاس في العصر العباسي (العلاقة الثقافية والسياسية والاقتصادية)

عمري شيخ سعيدوف \*

كانت شعوب شمالي القفقاس ترتبط بعلاقات قديمة وثيقة مع بلدان الشرق الأوسط في جميع المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

وتتناول مقالتي العلاقات المذكورة بين شعوب شمالي القفقاس وبلاد الشام في العصر العباسي.

كما هو معروف ابتدأت الفتوحات العربية في منتصف القرن السابع ومنذ هذا الوقت وبعده بدأت الآداب العربية الإسلامية بالانتشار بين شعوب شمالي القفقاس. وفي منتصف القرن السابع سمع الداغستانيون لأول مرة اللغة العربية عندما وصل العرب إلى داغستان واستولوا على مدينة دربند التي سماها العرب وقتذاك بباب الأوباب. وكانت باب الأوباب (دربند) مدينة كبيرة وهامة تلعب دور الحلقة تصل بين آسيا وأوروبا.

وترك المؤرخون العرب والداغستانيون لنا مؤلفات قيمة عن تاريخ الفتوحات العربية في مناطق القفقاس في العصرين الأموي والعباسي وتوطنهم في مناطق أذربيجان وداغستان وعن علاقات الشعوب العربية مع الشعوب المحلية في تلك العصور. ومن المؤرخين الأوائل الذين كتبوا عن وصول العرب إلى هذه المناطق المؤرخ العربي المشهور أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٣ م). وقال البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» في ولاية مسلمة بن عبد الملك على داغستان وباب الأوباب وغيرها من هذه الأطراف: «وصالح مسلمة أهل خيزان وأمر بحصنها فهدم واتخذ لنفسه به ضياعا وهي اليوم تعرف بحوز خيزان وسالمه ملوك الجبال وصار إليه شروانشاه وليبرانشاه وطبرسرانشاه وفيلانشاه وخرسانشاه وصار إليه صاحب مسقط وصعد لمدينة الباب ففتحها وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخزر... وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأوباب أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء فاهل الباب اليوم لا يدعون عاملاً يدخل مدينتهم إلا ومعه مال يفرقه بينهم، وبنى هريان للطعام وهريان للشعير وخرزانه للسلاح...»<sup>١</sup>. كما كتب عن مجيء العرب إلى داغستان المؤرخ أبو حامد بن عبد الرحمن الغرناطي الأندلسي (ت ٥٥٦ هـ / ١١٦٩ م) في كتاب «تحفة الألباب» حيث يقول: «وفي بلاد دربند باب من الأوباب أمة يقال لهم الطبرسلان فيه أربعة وعشرون رستاق في

\* معهد حمزة تساوا للتاريخ واللغات والآداب، الاتحاد السوفياتي.

١. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٣ م)، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٠٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.



كل رستاق سرهنك كبير كلاسير وهم مسلمون اسلموا في زمان مسلمة بن عبد الملك لما بعثه هشام بن عبد الملك حين ولي الخلافة ففتح باب الأبواب فاسلمت على يده أمم كثيرة منهم ايضا اللكران والفيلان والخيداق والزقلان والعميقة والدرههاف وفيهم من تلك للامم سبعون أمة لكل أمة لسان فلما اراد الخروج بعدما اسكن في دربند اربعة وعشرين الف بيت من العرب من الموصل ودمشق وحمص وتدمر وحلب وسائر بلاد الشام والجزيرة قال له الطبرسلان ايها الامير انا نخاف اذا انصرفت ان ترتد هذه الامم ونشقى في مجاورتها»<sup>٢</sup>.

والمؤرخ الآخر الذي كتب بالتفصيل عن بدايات العلاقات العربية مع شعوب هذه المنطقة هو ابو محمد أحمد بن اعثم الكوفي (ت ٩٣٦ هـ) حيث ذكر في مؤلفه «كتاب الفتوح» ان مسلمة بن عبد الملك أمر بتقسيم مدينة باب الأبواب إلى اربعة اقسام: أحد هذه الأقسام (الربع) اعطاه إلى المحاربين من اهالي دمشق والربع الثاني اعطاه للمحاربين من اهالي حمص والربع الثالث اعطاه للمحاربين من اهالي فلسطين والربع الأخير اعطاه للمحاربين الآخرين من الشام والجزيرة<sup>٢</sup> وجاء في المخطوطة الداغستانية «دربند نامه» أنه «بعد مائة وخمسة عشر سنة جاء ابو مسلم بن عبد الملك باربعة وعشرين الف رجل من اهل الشام واهل الجزيرة... وقد فعل في بلد دربند سبعة محلات محلة واحدة لطائفة اردون وفعل في تلك المحلة مسجد اردون ومحلة اخرى محلة فلسطين وبنى لهم مسجدا وسمي بمسجد فلسطين ومحلة اخرى اهل دمشق وبنى لهم مسجدا وسمي هذا المسجد دمشق ومحلة اخرى اهل حموص (حمص) وبنى لهم مسجدا وسمي مسجد حموص ومحلة اخرى اهل قيصر وبنى لهم مسجدا وسمي بمسجد قيصر ومحلة اخرى اهل موجل (موصل) وبنى لهم مسجدا وسمي بمسجد موجل (موصل) وما عدا تلك المساجد بنى مسجدا كبيرا ليصلي فيه الجمعة.

بهذا الشكل اكون قد قدمت لكم اربعة نصوص: ثلاثة من المؤلفات العربية وواحد من المؤلفات المحلية الداغستانية حول موضوع واحد وهو مجيء وتوطن العرب في جنوب داغستان بمنطقة دربند (باب الأبواب). حيث كتب البلاذري عن مجيء العرب الى داغستان واستيلائهم على مدينة دربند واسكان اهل الشام والجزيرة والموصل في هذه المدينة اضافة الى ذلك يعطى ابو حامد الحميد محمد الغرناطي معلومات اكثر دقة حيث يتحدث عن اسكان ٣٤ الف بيوت من العرب الذين جاؤوا من حمص والموصل وتدمر وحلب ومن مدن اخرى في بلاد الشام والجزيرة. ويقول المؤرخ الآخر وهو ابو محمد أحمد بن اعثم الكوفي بالاضافة الى ذلك ان مسلمة قسم مدينة باب الأبواب إلى اربعة ارباع لسكان دمشق وحمص

٢. Le Tuhfet al-albab de Abu Hamid al-Andalusi al-Garnati, edité par Gabriel Ferrand-Journal Asiatique, Vol. CCVII. 1923, p. 84.

٢. البلاذري، فتوح، ص ٧١٠.

وفلسطين والشام مع الجزيرة. هذه المصادر تعطينا صورة عامة عن العلاقات الثقافية والسياسية في مرحلة ما قبل العصر العباسي.

بهذا يمكن الاستنتاج ان العرب الذين سكنوا في داغستان كانوا اصلا من بلاد الشام عموما ومع انهم جاءوا الى هذه المناطق وسكنوها في العصر الاموي فانهم لعبوا دورا هاما في العلاقات الثقافية والسياسية في المرحلة اللاحقة - مرحلة العباسيين. وتواصل قدوم العرب وسكناهم في هذه المناطق في العصر الاموي وابان عهد العباسيين ايضا. في هذا المجال يمكننا ان نورد ما قاله المؤرخ العربي اليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٧ م) في كتابه «التاريخ» حيث كتب: «وتحركت الخزد بناحية ارمينية... فكتب (يزيد بن اسيد السلمي) الى ابي جعفر يعلمه ان رأس طرخان ملك الخزر قد اقبل اليه في خلق عظيم وان خليفته قد انهزم فوجه اليه ابو جعفر جبريل بن يحيى البجلي في عشرين الفا من أهل الشام واهل الجزيرة واهل الموصل فواقع الخزر فقتل خلق من المسلمين وانهزم جبريل ويزيد بن اسيد حتى اتيا خرص فلما انتهى الخبر الى ابي جعفر بما نال، وظهور الخزر ودخلهم بلاد الاسلام اخرج سبعة آلاف من اهل السجون، وبعث فجمع من كل بلد خلقا عظيما ووجه بهم وبفعله وبنائين فبنى كمش ومدينة الحمدي ومدينة باب واق وعدة مدن جعلها ردا للمسلمين وانزلها المقاتلة»<sup>٤</sup>.

وما جاء هؤلاء العرب القادمون من بلاد الشام إلى هنا لفترة قصيرة انما سكنوا وتعايشوا مع اهالي هذه المناطق مع المحافظة على كيانهم والدليل على ذلك لانه بقيت اعداد قليلة منهم حتى القرن التاسع عشر وما زالت اسماء المناطق التي سكنها هؤلاء العرب باقية على حالها والتي ذكرها المؤرخ العربي اليعقوبي وهي ثلاث قرى قرب مدينة باب الأبواب: كماخ وحميدي (المحمدي) ودارواق (بالفارسية) اي باب واق (بالعربية) و يقطنها الان اذربيجانيون. أما سكان كماخ وحميدي فقد رحلوا واستوطنوا في مدينة دربند والمناطق المجاورة الاخرى. وما زالت باقية في قرية كماخ الآثار المكتوبة على الحجر باللغة العربية بالخط الكوفي والتي يعود تاريخها الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والتي تشهد على أن سكان هذه القرية كانوا من العرب. بالاضافة إلى ذلك ما زالت اجزاء القلعة التي سكنها العرب في هذه القرية باقية وتحافظ نسبيا على حالها. بالقرب من قرية كماخ توجد ايضا قرية اخرى تسمى بطاتل مازالت فيها بقايا قلعة قديمة سكنها العرب ايضا بالاضافة إلى مقبرة بالقرب من القرية فيها كثير من الشواهد التي كتب عليها باللغة العربية بالخط الكوفي ايضا. وكتب على احدها: بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد. هذا قبر شيخنا الزاهد العابد... جمال الدين يحيى (بن) شيخ يوسف... في شهر ربيع الاخر سنة ثلث وثمانين وخمسائة» الموافق حزيران أو تموز ١١٨٧ م.

٤. Ibn Wahdid qui dicitur al-Jaqubi. Historiae, ed. M. Tb. Houtsea. 2 Bd. Leiden. 1883, p. 442

٥. سورة الاخلاص، الايات ١-٤.

وكتب على حجر اخر بالخط الكوفي ايضا :  
«الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه»<sup>٦</sup>.

أما باب الأبواب (در بند) فقد كانت مدينة قديمة وتشكل حلقة الوصل بين الشرق والغرب. وفي القرنين التاسع والعاشر أصبحت در بند مدينة كبيرة عامرة وميناؤها غني وهي عاصمة الأمراء ومسكن العلماء والفقهاء والكتاب والحدادين والنحاسين والبنائين والتجار وغيرهم وأصبحت مركزاً ثقافياً واقتصادياً وسياسياً. وبسبب ذلك مارست در بند تأثيراً كبيراً على جميع المدن والقرى بداغستان عموماً وعلى المناطق المجاورة المذكورة بشكل خاص.

وكان السكان العرب، الذين عاشوا امداً طويلاً في داغستان، من العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية، والثقافة العربية المدونة جزئياً بين السكان المحليين، وكانوا احد العوامل، ولكنهم لم يكونوا العامل الرئيس. إذ اضطلعت بدور هام عملية انتشار الاسلام التي استمرت في داغستان امداً طويلاً، من القرن السابع حتى القرن السادس عشر. وقد حفزت هذه العملية اعمال بناء المدارس ودراسة لغة القرآن والعلوم القرآنية وقواعد اللغة العربية. وبرزت كعامل حاسم واساسي الاتصالات التجارية - الاقتصادية والحضارية لشعوب بلدان الشرق الأدنى واسيا الوسطى والتي تطورت في الفترة من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر وتعاضمت اكثر فاكثر منذ القرن الرابع عشر واستمرت على نحو خصب فيما بعد، على مدى قرون. إن الحضارة الغنية للشعوب غدت عبر واسطة اللغة العربية في متناول المزيد والمزيد من المناطق، ووجد تبادل القيم الحضارية له مجالاً رحباً<sup>٧</sup>.

كما هو معروف ففي عام (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) انتقلت الخلافة من الامويين إلى العباسيين وبالتالي أصبحت مدينة بغداد عاصمة الخلفاء وبذلك بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين داغستان وبغداد حيث وردت الى داغستان من بغداد مجموعة من المخطوطات العربية التي استنسخها في عدة نسخ الكتاب الذين درسوا اللغة العربية في المدارس المحلية ومع ذلك فان التأثير السوري في العرض الاموي كان كبيراً حتى في المرحلة العباسية إذ لعبت سوريا دوراً مهماً في انتشار الاسلام في داغستان ففي المخطوطات التاريخية الداغستانية ينسب المؤرخون المحليون الدور الرئيس لانتشار الاسلام في داغستان الى سورية وبلاد الشام.

٦. سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

٧. حاجي حمزتوف، عمري شيخ سعيدوف. المخطوطات العربية في داغستان؛ ابحاث جديدة للمستعربين السوفيت، الكتاب الثاني. هيئة تحرير «العلوم الاجتماعية والعصر». موسكو، ١٩٨٧، ص ٦٢.

يمكننا القول ان انتشار الاسلام في داغستان بدأ منذ القرن السابع وانتهى في الخامس عشر وفي بعض المناطق في القرن السادس عشر وفي هذا المجال مارس العرب القاطنون في داغستان دورا كبيرا حيث فتحوا المدارس والمكتبات لتعليم اللغة العربية واصول الدين الاسلامي .

والجدير بالذكر يشار في المؤلفات والوثائق الداغستانية المكتوبة باللغة العربية وغيرها بشكل عام إلى ان ناشر الاسلام في داغستان بأسرها هو ابو مسلم الذي بنى كثيرا من المساجد في داغستان مع العلم ان ابا مسلم لم يات مطلقا الى هذه المناطق . «وبما ان ابا مسلم حسب رأى الداغستانيين هو الذي نشر الاسلام في داغستان».

والاسلام كما هو معروف وصل الى داغستان من بلاد الشام فانهم ير بطون انتشار الاسلام في داغستان باسم ابي مسلم . بقى ان اذكر هنا ان كتاب «تاريخ ابي مسلم» يتمتع بشهرة كبيرة بين المستعربين الداغستانيين وقد كتب باللغة العربية وتناقله كثير من العلماء في داغستان . وسأقرأ لكم مقطعا صغيرا مما كتبه مؤرخونا : «قال اصحاب التواريخ في بيان نسب ابي مسلم رضى الله تعالى عنه اسمه عبد الرحمن بن سيد ... وكان ابوه سيد قد جمع عنده ثمانين الف مبارز وخرج مع عسكره الى مروان وقاتل معه لاجل حسين بن علي رضي الله تعالى عنهما وشهد سيد في يد مروان وبقى ابو مسلم يتيما في مدينة مافان من توابع مروشا بهان وكان عمره اربع سنوات وحفظته أمه واسمها سلمة وبلغ في سن بلوغه ... وخرج (ابو مسلم) وحارب مع عسكر مروان وعمره اثنتي عشر سنة ... وقتل مروان في بلدة دمشق وهي في الشام وبنى فيها ابو مسلم المسجد الجامع وخطب اول مرة فيه ابو مسلم وخرج من بلدة دمشق مع عساكره وجاهد مع الكفار وانتها إلى شروان وحارب مع امراء شروان وقتل امراءهم ثم حارب مع كوهستان سبع سنين وجلس بين النهرين تحت الجبل المسمى بشاه البرز وكان اذا جاء وقت الصيف حارب مع اهالي ناحية باب القسطيني رجا واذا جاء وقت الشتاء حارب مع اهالي باب الأبواب يسمى بدر بند ثم بنى مسجدا في قرية كله كوره وجلس فيها ابنه مهتر سنجاب وبعده بنى مسجدا في قرية اختي واسكن فيها اخته مع زوجها اسحق كند سكن ومعنى اختي ودفن ابو مسلم اخته في وقت موتها في مسجد اختي ثم بنى مسجد رجا ومقا واجلس فيها امير حمزة ابن عمه ثم جاهد ابنه سلطان ابراهيم وهو نايب شروان صاحب الشوكة مع عسكره مع ناحية قمق واوار وساير قرى داغستان ... فظهر بينهم الاسلام بالعلم والعلماء والراسخين وبنوا فيها المساجد كثيرا فبعد بناء مسجد قاضي تموق رجع ابراهيم الى شروان...»<sup>٨</sup>.

ان هذه المخطوطة تتابع الحديث عن الوقائع الحاصلة بعد نشر الاسلام في داغستان

Memoirs Sur Les Inscriptions Musulmanes du Caucase, par M.N. de Khanikoff, .A Journal Asiatique, Aout, 1862. pp. 82-85.

حيث رجع ابو مسلم إلى دمشق . وبقى ابناؤه رمضان و يوسف و ابراهيم وسهتاد سنجاب بقوا في داغستان حيث عاش احفادهم في كل مناطق وقرى داغستان . وتورد المخطوطات تاريخين لهذه الوقائع : التاريخ الأول (بعد مائة وعشر سنوات من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق ٧٢٨ او ٧٣٩ ميلادية) والتاريخ الثاني (بعد ثلاثمائة سنة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الموافق عام ٩١٢ - ٩١٣ ميلادية).

يبدو - حسب رأيي - ان ذكر هذين التاريخين في المخطوطة على هذا الشكل يمكن اعتباره شيئاً مصطنعاً ، في منتصف القرن التاسع والنصف الاول للقرن العاشر . حيث استخدم اسم ابو مسلم في مكان اسم القائد العربي مسلمة بن عبد الملك والي العراق وخراسان الذي كان فعلاً في داغستان في سنة ٨١ وفي سنة ١١٣ هجرية . أما فيما يخص التاريخ الثاني في المخطوطة فهو وقت كتابة هذه المخطوطات في داغستان ، لذلك فان مجموعة من الوقائع التي جرت في القرن العاشر نسبت الى القرن الثامن الميلادي - تؤكد ذلك النصوص المكتوبة على الحجر على جدران المساجد في داغستان . وترد في المخطوطة عن تاريخ ابي مسلم اسماء مجموعة من القرى في داغستان وهي اختي وكله كورة و فيطة وريجا وغيرها التي بنى فيها ابو مسلم مجموعة من المساجد . لكن النصوص التي بقيت في هذه القرى يعود تاريخها الى القرن العاشر .

وسأتحدث في البداية عن قرية كلة كورة التي تقع على الضفة اليمنى لنهر سامور . وقد عثر في عام ١٩٥٧ في هذه القرية على كتابات قديمة وبقيت في هذه القرية انقاض مسجد قديم و يقوم سقفه المستوي معتمدا على صفيين من الأعمدة الاسطوانية . ولهذه الأعمدة قواعد مربعة الشكل مكسوة من كافة جوانبها بنقوش نباتية مجصصة (بطريقة الاليباستر) . وخطت على كافة قواعد الأعمدة كذلك بالجص عبارات عربية وهي كلها مكتوبة بالخط الكوفي وقراءتنا لنصوصها كانت على النحو التالي : «يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا - لا اله الا الله - اسحق بن حسين على الله يتوكل»<sup>٩</sup>.

والكتابات التي ذكرناها غير مؤرخة ولكن على اساس الرسوم المنقوشة والكتابات الكوفية يمكن ان ننسب هذا المسجد الى القرن العاشر . ومن الجدير بالذكر ان اسم اسحق الذي ورد في المخطوطة عن تاريخ ابو مسلم كتب ايضا على الحجر الموجود في مسجد هذه القرية .

وفي القرية الاخرى (ريجيا) يوجد ايضا مسجد نقشت عليه كتابة تعود الى عام ١٩٦٣ ميلادي على الشكل التالي : «خرج ابو مسلم من دمشق إلى داغستان في سنة ١١٥ هـ وحاربهم

٩ . عمري شيخ سعيدوف تراث الخط العربي في القرن شرقي دافستان - ابحاث جديدة للمستعمرين السوفيت ، الكتاب الثاني هيئة تحرير «العلوم الاجتماعية والعصر» . موسكو ، ١٩٨٧ ، ص ١١٦ - ١٣٩ .

لاجل الدين وبنى عدة مساجد ومعهم بنى مسجد الجامع ريجه». في الحقيقة يوجد في هذه القرية مسجد يعود تاريخه الى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر.

أما في القرية الثالثة (اختي) فقد عثر في عام ١٨٩٩ على نص منقوش على جدار المسجد على الشكل التالي :

«جدد جماعة اختي من ناحية سمور هذا المسجد الجامع على موضع المسجد العتيق الذي بناه الملك الشجاع عبد الرحمن المكنى بأبي مسلم الدمشقي الشامي فاتح بلاد داغستان بناء على اندراسه بمرور الاحقاب والازمان... في سنة ١٣١٦ هـ وبالمسيحية ١٨٩٩.

وأخيرا عثرنا في قرية فيطة فوق مدخل المسجد على نص منقوش على الخشب بالخط الكوفي اليك اياه: «بركة... ابراهيم». اعتمادا على الخط يمكن ان نقول ان الكتابة تعود الى القرن العاشر.

بهذا الشكل يمكننا ان نخلص الى نتيجة مؤداها ان مجموعة المساجد التي بنيت في داغستان يعود تاريخها بشكل عام الى القرن العاشر. قد يمكن ان تكون هذه المساجد قد بنيت في القرن الثامن لكن لم تصل الينا اية معلومات او آثار مكتوبة عن ذلك.

اشرنا أنفا الى ان المخطوطة عن تاريخ ابي مسلم قد تضمنت ان مختار بنجاب بن ابي مسلم كان قد سكن في قرية كلة كورة فمن الطريف هنا ان نقول ان احفاده ما زالوا حتى الان يعيشون في بعض قرى داغستان. حيث وجد في سنة ١٩٨٦ شاهد قبر من الحجر في مقبرة قرية شيناز كتب عليه :

١. «قد ارتحل من دار الفنان الى دار البقاء جلبي بن اسمعيل افندي بن حاج ابراهيم بن محمد بن جني بن هود من قبيلة مهذار غفر الله لهم... في تاريخ من النبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ثمان وخمسين بعد الف والمائتين» (١٨٤٣ م).

٢. «قد انتقل من دار الفناء الى دار البقاء المرحوم المفقود هودي بن حمزة بن هودي بن الحاج بالحرمين الشرفين الحاج ابراهيم بن هودي بن محمد بن جني من قبيلة مهذار شجاب في... سنة ١٣٢٨» (١٩٣٠ م). وتشغل مكانة هامة في دراسة العلاقات الثقافية والسياسية بين بلاد الشام وشعوب شمالي القفقاس المخطوطة التي كتبت في داغستان على يد محمد رافع بعنوان «التاريخ في اسلام داغستان» ومعظم الوقائع المذكورة في هذه المخطوطة تأخذ شكلا اسطوريا وهي تحتاج الى مقارنة مع الوثائق والمخطوطات الاخرى لكن المضمون العام لهذه المخطوطة هو انتشار الاسلام في داغستان على يد المبشرين الذين جاؤوا من بلاد الشام. ساذكر لكم من هذه المخطوطة نصا صغيرا :

«أما بعد اعلموا... ان جماعة من اولاد عمي نبينا اعني بهما سيد الشهداء الحمزة وامير المؤمنين العباس قد خرجوا وهاجروا من مكة المباركة والمدينة المشرفة والشام بالف في رجل من قبيلتهم وعشيرتهم معا بعدما مضى من تاريخ هجرة النبي مائتي سنة...

... هذا شروع في اول الكلام من انهم كانوا خمسة نفر من فضائل اسباطهما ثلاثة منهم من اولاد الحمزة وهم شيخ ابراهيم بن اسحق احمد وشيخ على واثنان منهم من احفاد العباس وهما شيخ محمد والشيخ ناصر الدين وهم بعد خروجهم وبدء أمرهم بهما جرتهم بجماعتهم قطعوا المنازل... حتى بلغوا الى مقام اللطيف اعني قسطنطينية واقاموا فيها سنين ثم ارتحلوا منها مع خمسة آلاف رجل مقاتل مبارز الى هندوستان واقاموا فيها سنتين هينوا أسباب جاوزوا منها ولم يزلوا الى سفر حتى انتهوا الى شروان واقاموا فيها سنتين هينوا أسباب القتال من المدافع والدقاق والكنافير وحبائل المنجنيق وغيرها من آلات الحرب والجدال عازما على الجهاد بكفاد أعالي الجبال الجنوبية اعني به الداغستان وانهم دار حرب... فنصبوا عليهم وعلى الذين ملكوا عليهم سلطانا من ذرية حمزة اميرا واليا ويطيعون به الجميع من غير انكار ونزاع في كل الامور واخذ ذلك السلطان مداخل الممالك والولايات والنواحي وكان اسم ذلك سلطان شام خال يسمى باسم جده الذي ولد في القرية المسمى بخال من قرى شام... فمن ذلك الزمان جرت عادة الانام يلقب من ملك ونصب على اهالي الولايات بهذا الاسم»<sup>١٠</sup>.

وتدل جميع الكتابات والمقتطفات المذكورة انفا والمستقاة من المؤلفات التاريخية الداغستانية على وجود اتصالات مستمرة ومديدة بين سكان شمال القفقاس وشعوب الشرق الاوسط، ومنهم اهل الشام.

أنها تظهر سبل توغل العرب في داغستان ودورهم في نشر الاسلام. ونرى ان احفاد اهل الشام الذين جاؤوا الى داغستان في القرن الثامن قد استقر بهم المقام في القرى والبلدان الداغستانية وشكلوا قبائل منفردة هناك عاش ابناؤها حتى يومنا هذا. واورد ادناه امرين ساعدا العملية المديدة لبقاء الاهالي العرب واللغة العربية في داغستان. فقد حفظ لنا المؤرخ العربي الشهير ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي في كتاب «مروج الذهب ومعادن الجواهر» على معلومات شيقة عن العرب الذين جاؤا الى داغستان منذ القرن الثامن. «بين جيدان وبين الباب والأبواب اناس من المسلمين عرب لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية... وهم مجاورون للمملكة جيدان وهم نحو ثلاثة اميال من مدينة الباب والأبواب»<sup>١١</sup>.  
والعامل الآخر هو شواهد القبور في بلدة اسطال:

١. «ضريح العبد المغفور المقتول بغير حق حسن بن خان محمد بن شيخ صفر بن خان محمد ابن محمود بن حطبة بن ابراهيم بن محمود بن يير بابا خان بن موسى من ولاية شام من

١٠. Derbend-Wameh, translated from a selected Turkish version and published with texts and with notes by Mirra A. Kazem-beg St. Petersburg, 1851. pp. 659-666.

١١. Macoudi. Les Prairies d'Or: Texts Arabe et Traduction, par Barbier de Meynard et Pavet le Courteille, Paris 1863. II, p. 39.

بلدة دمشق الساكن في اسطال غفر الله لهم امين ١٣٩٧ « (١٨٨٠ م).  
 ٢. «توفي العبد المرحوم المغفور الى رحمة الله تعالى الحاج الحرمين الشريفين الحاج بوتوي ابن  
 المرحوم ادريس بن شيخ عبد الله بن شيخ طاهر بن شيخ بيرعيسى بن بير بابا خان من ولاية  
 شام (من بلدة) دمشق غفر الله لهم امين ١٣٩٩ « (١٨٨١ م).

وتظهر هذه الامثلة من جانب ان العرب اتخذوا جميع التدابير في داغستان للمحافظة  
 على لغتهم ومن جانب اخر تواصل فترة طويلة مجيء الاسر العربية الى داغستان.

ان جميع المواد المذكور اعلاه تدل على وجود مصادر عربية كثيرة باقية في داغستان  
 تلقي الضوء على مسألة هامة في العلاقات السياسية والثقافية بين شعوب شمال القفقاس  
 وبلاد الشام.



# الفهارس

# الأعلام

«أ»

٢٧ هـ	:	ابراهيم الابياري
٢٢٦، ٢٨٥ هـ	:	ابراهيم الأغب
٤١٥ هـ	:	ابراهيم بن أبي الليث
٢٧٨ هـ	:	ابراهيم بن جابر
٤٦٩ هـ	:	ابراهيم بن سلمة
١١٣ هـ	:	ابراهيم بن صالح بن علي
٤٧٣ هـ	:	ابراهيم بن عبد الله
٦٢ هـ	:	ابراهيم بن محمد الأسدي البزار
١٢٣ هـ	:	ابراهيم بن محمد بن علي التميمي
١١٧ هـ	:	ابراهيم بن محمد بن المهدي
٣٩٢ هـ	:	ابراهيم بن محمد الجنائي
٥٤٤ هـ	:	ابراهيم بن المهدي
١٧٥ هـ	:	ابراهيم الخليل
٢٣، ٢٥ هـ، ٢٧ هـ، ٢٨ هـ، ٣١ هـ، ٣٢ هـ	:	ابراهيم بيضون
٣٣ هـ، ٣٩ هـ	:	
٥٧١ هـ	:	ابن أعثم الكوفي
٥٦٠ هـ	:	ابن أثال النصراني
٤٣٣ هـ، ٤٣٤ هـ، ٤٥٧ هـ، ٥٤٥ هـ، ٥٦٠ هـ	:	ابن أبي أصيبعة
٦٠ هـ، ٧ هـ، ١٣ هـ، ٣٤ هـ، ٣٥ هـ، ٣٧ هـ	:	ابن الأثير، أبو الحسن
٤٠ هـ، ٤١ هـ، ٤٥ هـ، ٤٦ هـ، ٤٩ هـ، ١٠٠ هـ	:	علي بن أبي مكرم
١٠٥ هـ، ١٤ هـ، ١١٨ هـ، ١٢٧ هـ، ١٢٩ هـ	:	
٢١٥ هـ، ٢١٦ هـ، ٢١٧ هـ، ٢٢٣ هـ، ٢٤٦ هـ	:	
٢٦٦ هـ، ٢٧٣ هـ، ٢٨٠ هـ، ٢٨٢ هـ، ٣٤١ هـ	:	
٣٤٥ هـ، ٣٤٧ هـ، ٣٤٨ هـ، ٣٥٧ هـ، ٣٦٣ هـ	:	
٤٠٦ هـ، ٤٠٧ هـ، ٤٠٨ هـ، ٤١١ هـ، ٤١٢ هـ	:	
٤١٣ هـ، ٤١٥ هـ، ٤٣٨ هـ، ٤٥٠ هـ، ٥٢٥ هـ	:	
٥٣٠ هـ، ٥٣٣ هـ، ٥٦٤ هـ، ٥٦٥ هـ، ٥٦٦ هـ	:	
٥٦٧ هـ، ٥٦٨ هـ	:	

- ابن الأزرق، أبو الفضل  
عبد الله بن محمد : ٥٨٦ هـ
- ابن البراج، عبد العزيز بن عمير  
البراج : ٥٣٥ هـ
- ابن بسام محمد بن أحمد : ٦١ هـ
- ابن بطلان، المختار بن الحسن  
ابن عبدون : ٢٦٩ هـ
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد  
ابن ابراهيم اللواتي : ١٩٣، ٢٣٧، ٢٥١، ٤١٠ هـ
- ابن بكار، الزبير : ٨٠ هـ
- ابن تغري بردي، بردي جمال  
الدين أبو المحاسن : ١٦ هـ، ١٧ هـ، ٢١٤ هـ، ٢٤٢ هـ، ٣٤٨ هـ،  
٣٥٧ هـ، ٤٥٣ هـ، ٤٥٥ هـ، ٤٥٧ هـ
- يوسف بن تغري بردي : ٥٢٥ هـ
- ابن تيمية، تقى الدين أبو العباس  
أحمد بن عبد الحلیم الحراني : ٧٨ هـ
- ابن جبیر، أبو الحسن محمد  
أحمد الكتاني : ١٩٣، ٢٥٢ هـ
- ابن جذام : ٥٦٠ هـ
- ابن جراح، محمد بن داود بن الجراح : ٤٥٢، ٥٦٧، ٥٦٨ هـ
- ابن جريج الراهب : ٥٦٠ هـ
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن  
ابن علي القرشي البغدادي : ٨٣ هـ، ٣٤٢ هـ، ٣٤٤ هـ، ٤١٠ هـ، ٤١١ هـ،  
٤١٥ هـ
- ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب : ٢٥ هـ، ٣٠ هـ
- ابن حجر، العسقلاني شهاب الدين  
أبو الفضل أحمد علي الكتاني : ٥٤٣ هـ
- ابن حنبل، أبو عبد الله بن محمد  
الشيبياني : ٨٢ هـ، ٨٤ هـ
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد  
ابن اسحاق الهمداني : ١٣٣ هـ

٥٩، ٦٥، ١٢٢، ١٣٠، ١٣١، ١٣٨،  
 ١٤٠، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١،  
 ١٥٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٣،  
 ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٨٣، ١٨٩، ٢١٢،  
 ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨،  
 ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧،  
 ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٦،  
 ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٥،  
 ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٠، ٣١١،  
 ٣١٢، ٣٢٧، ٣٣١، ٤٧٩، ٥٣١.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل :

٢٦، ٦٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩،  
 ١٨٠، ١٨٣، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٧، ٢٦٨،  
 ٢٧١، ٣١٣

ابن خرداذبة، أبو القاسم  
 عبد الله بن عبد الله

١١٦، ١٣١، ١٧٤، ٢١٥، ٣٢٩، ٣٣٠،  
 ٣٤٣، ٣٤٥، ٤٥٨،  
 ٣٩٣، ٥٦٦

ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد  
 عبد الرحمن

٥٦٦  
 ١٣٤، ١٥٩، ١٧٣، ١٧٨، ١٩٢،  
 ٥٧، ٥٨

ابن خلكان، أحمد بن محمد بن  
 محمد بن أبي بكر

٣٠، ٨٩، ١٠٢، ٢١٥، ٢٢٥، ٣٩٦،  
 ٤٥٧، ٤٦٠

ابن الخياط، خليفة بن خياط بن هبيرة  
 ابن رائق، محمد بن رائق

١١٢، ٤٠٩، ٥٢٥،  
 ٨٠

ابن رسته بن خرداذبة  
 أبو علي أحمد بن عمر

٥٣٩، ٥٤٢،  
 ١٠٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ٢١٣، ٣٠٧،  
 ٣٠٨، ٣٢٧، ٣٣٤

ابن زنجوية، حميد بن مخلد  
 ابن قتيبة بن عبد الله النسائي

ابن سعد، أبو عبد الله محمد  
 ابن سعد بن منيع الزهري

ابن سينا، أبو علي الحسن بن علي  
 ابن شداد، عبد الله

ابن كتاب الزهري  
 ابن شهر آشوب المازندراني

ابن صاعد الأندلسي  
 ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي :

- ٣٩٣ : ابن طولون الصالح  
 ٥٣٠ : ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد  
 ١٠٥ هـ، ١٠٦ هـ، ١٠٧ هـ، ١٠٨ هـ، ١١٢ هـ : ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله  
 ١٢٣ هـ، ١٢٥ هـ، ٢١٥ هـ، ٢١٧ هـ، ٢١٨ هـ  
 ٢٢١ هـ، ٢٢٢ هـ، ٢٢٦ هـ، ٢٣٢ هـ، ٢٣٣ هـ، ٢٣٤ هـ  
 ٢٤٤ هـ، ٢٢٧ هـ، ٤٣٦ هـ، ٤٣٧ هـ، ٤٣٩ هـ، ٤٤٢ هـ  
 ٥٣٦ هـ  
 ١٠٨ هـ، ١٠٩ هـ، ١١٠ هـ، ١١١ هـ، ١١٢ هـ : ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي  
 ٨٦ هـ، ٩٣ هـ، ٩٤ هـ، ٩٥ هـ، ٩٦ هـ، ٩٧ هـ : ابن الحسين بن هبة الله الشافعي  
 ٩٩ هـ، ١٠٠ هـ، ١٠١ هـ، ١١٢ هـ، ٢٥٣ هـ، ٣٩١ هـ  
 ٣٩٣ هـ، ٣٩٤ هـ، ٣٩٥ هـ، ٣٩٦ هـ، ٣٩٧ هـ، ٣٩٨ هـ  
 ٣٩٩ هـ، ٤٠٠ هـ، ٤٠١ هـ، ٤٠٢ هـ، ٤٠٣ هـ، ٤٠٤ هـ  
 ٤٠٥ هـ، ٤٠٦ هـ، ٤٠٨ هـ، ٤٠٩ هـ، ٤١٥ هـ  
 ٤١٦ هـ، ٤٢٣ هـ، ٤٣٠ هـ، ٤٣٦ هـ، ٤٣٧ هـ، ٤٣٨ هـ  
 ٤٦٥ هـ، ٤٦٦ هـ، ٤٧٦ هـ، ٤٨١ هـ، ٥٢٠ هـ  
 ١٢١، ٢٤٠ : ابن الفرات، أحمد  
 ٢٩٧ : ابن فضالان  
 ٦٥، ١٣٤ هـ، ٢١٦ هـ : ابن الفقيه الهجراني  
 ١٦٧، ١٧٩ : ابن قدامة بن جعفر  
 ٨٥ هـ، ٣٩٢ هـ، ٤١٥ هـ، ٤٣١ هـ، ٤٤٢ هـ : ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن  
 ٤٥٠ هـ، ٤٥١ هـ، ٤٥٣ هـ، ٤٥٤ هـ : علي ابن محمد التميمي  
 ٤٣ هـ، ١٠٣ هـ، ١٠٧ هـ، ١٠٩ هـ، ١٢٥ هـ : ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل  
 ٣٩١ هـ، ٣٩٩ هـ، ٣٩٦ هـ، ٣٩٨ هـ، ٤٠٠ هـ  
 ٤٠١ هـ، ٤٠٣ هـ، ٤٠٥ هـ، ٤٠٧ هـ، ٤١٦ هـ  
 ٤٦٨ هـ، ٥٢٥ هـ، ٥٣٢ هـ، ٥٦٢ هـ  
 ٤٣٥، ٤٤١ : ابن كلس  
 ٧٦ هـ : ابن ماجه، الحافظ أبي عبد الله  
 ٤١٧ : القزويني  
 ١٠٦ هـ، ١١٩ هـ : ابن محرز، أحمد بن محمد  
 ٥٢ : ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد  
 : ابن المقفع، عبد الله بن المقفع

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين :  
محمد بن مكرم

٨٩ هـ ، ١١٢ ، ١١٨ هـ ، ١٣٥ هـ ، ١٩٨ هـ  
٣٩٥ هـ ، ٣٩٧ هـ ، ٣٩٨ هـ ،  
٣٩٩ هـ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ هـ ، ٤٠٢ هـ ، ٤٠٣ هـ  
٤٠٤ هـ ، ٤٠٥ هـ ، ٤٠٦ هـ ، ٤٠٧ هـ ، ٤٠٨ هـ  
٤١٠ هـ ، ٤١٤ هـ

- ٣٩٣ : ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي  
٧٧ : أبو ادريس الخولاني  
٨١ : أبو اسحاق الفزاري  
٤٠٠ : أبو أيوب سلمة الخواص  
٢٠٦ ، ١٣٣ : أبو بكر الصديق  
٦٨ هـ : أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني  
٥٤٥ : أبو بكر الأصم  
٥٦٢ : أبو بكر بن أبي حنيفة  
٦٨ ، ٦٩ هـ : أبو بكر بن أبي شيبة  
٥٤ : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي  
٣٩٥ ، ١٥٠ ، ١٠٥ ، ٤٩ : أبو جعفر المنصور  
٤٥٨ : أبو حاتم الرازي  
٥٧١ ، ٥٧٠ : أبو حامد بن عبد الرحمن الغرناطي  
٧٥ هـ : أبو الحسن بن حجاج  
٣٩٢ ، ٦٧ : أبو الحسن علي بن محمد الربعي  
٣١٠ : أبو حسين القاضي  
٣٩٢ : أبو الحسين، محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي  
٥٦ ، ٥٣ هـ : أبو الحسين هلال بن الحسن الصابي  
٤٥٥ : أبو الحارث البساسيري  
٢٨٠ : أبو حصين  
٥٤١ ، ٥٤٠ : أبو حكم  
٧٨ هـ : أبو داود  
٤١٧ ، ٣٩٥ : أبو الدرداء، عو يمر بن مالك  
٧١ هـ ، ٨٣ هـ ، ٨٤ هـ ، ٩١ هـ ، ١٢٥ ، ٣٩١ : أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو  
٣٩٩ :  
٨٥ : أبو زكريا، يزيد بن محمد بن إياس

٣٩٨	:	أبو ريحانة، شمعون الأزدي
٣٥٢، ٣١٢	:	أبو سعيد الجنابي
٦٩	:	أبو سعيد الخدري
٥٣٣	:	أبو الشيص الخزاعي
٥٣٩، ٥٣٨، ٥٣٧، ٥٣٦، ٥٣٥	:	أبو الصلاح تقي الدين
٣٤٥، ٣٤٣، ٣٤٢	:	أبو الطاهر سليمان بن الحسن
٥٣٢، ٥٠٦، ٥٠٥	:	أبو العتاهية، اسماعيل بن القاسم
٤٤٩، ٤٤٨ هـ	:	أبو عبد الله الشيعي
٤٥٤	:	أبو عبد الله القضاعي
٤٥٧	:	أبو عبد الله، محمد بن علي بن رزام
١٢١، ٥٧	:	أبو عبيد، القاسم بن سلام
٤٠٥	:	أبو عبيد الله الأشعري
٧٦	:	أبو كمال، سعيد بن هاني الخولاني
٢٤٥، ٩٢	:	أبو عثمان الرجبي
٥٣٢	:	أبو عبيدة، معمر بن المثني
	:	أبو العميطر، علي بن عبد الله بن خالد
٤١٩، ٤٠٦، ٤٠٢	:	بن يزيد
١٤٩ هـ، ١٤٦، ١٤٨ هـ	:	أبو الفداء، الحافظ بن كثير الدمشقي
٤٣٣	:	أبو الفرج البيرودي
٥٥٤ هـ	:	أبو الفرج، محمد بن اسحاق النديم
٤١١	:	أبو القاسم بن يعلى الهاشمي
٥٦٨	:	أبو القاسم الجرجاني
٤٤٨	:	أبو القاسم، الحسن بن فرج بن حوش
٥٣٥	:	أبو القاسم، سعد الدين نمر المؤمنين
٦٦ هـ	:	أبو القاسم، سليمان بن أحمد الشامي
٦٩	:	أبو مسعود الأنصاري
٥٧٦، ٥٧٥، ٥٧٤، ٤٨، ٤٢، ٢	:	أبو مسلم الخزراني
	:	أبو مسهر، عبد الأعلى بن مسهر
٨٨، ٩٩	:	الغساني
٣٤٢	:	أبو المنصور، أحمد بن الحسن
٣٦٧، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٦٠، ٣٥٧، ٣٥٦	:	أبو منصور المغربي
٥٦٦	:	أبو المظفر بن جفج
٢	:	أبو موسى، محمد الأمين ابن رشيد
٦٩	:	أبو موسى الأشعري
٥٣٣، ٥٣٢ هـ	:	أبو نواس، أبو علي الحسن بن هاني

٥٦٥	:	أبو نصر بن طغج
٦٩	:	أبو هريرة
٤٤١، ٤٣٩، ٤٣٨، ٤٣٦، ٢٧٩	:	أبو الهيثام المري
١٦٧ هـ، ٤٥٨، ٤٦٠	:	أبو يعقوب السجستاني
٧٣ هـ	:	أبو يعلى، حمزة القلانسي
٨٠ هـ	:	أبو يوسف، يعقوب بن حبيب الأنصاري
١٩٥ هـ، ١٦٤، ١٥٧، ٥٧، ٥١	:	إحسان عباس
٨٧	:	أحمد بدر
٤٢ هـ	:	أحمد بن داود
٢٤٣	:	أحمد بن الحسن
٣٩١	:	أحمد بن حميد
٦٩ هـ، ٧٤ هـ، ٧٨	:	أحمد بن حنبل
٣٩٣	:	أحمد رمضان أحمد
٥٣٣	:	أحمد بن سيار الجرجاني
٥٦٤، ٥٦٣، ٤٠٨، ٢٤١	:	أحمد بن طولون
٤٤٨	:	أحمد بن عبد الله الملقب بمحمد التقي
	:	أحمد بن عبد الله بن محمد بن
٤٤٩	:	إسماعيل
١٠٤	:	أحمد بن الفرات
٥٦٥	:	أحمد بن كيغغ
٥٥٤ هـ	:	أحمد مطلوب
٥٥٧ هـ	:	أحمد محمد شاكر
٥٦٣	:	أحمد بن مزاحم
٤٠٧	:	أحمد بن محمد بن عبد الله
	:	أحمد بن المولى بن يزيد بن أبي بكر
٣٩٢	:	الأسدي
١١٦	:	أحمد بن وصيف
١٠٩ هـ	:	أحمد بن يحيى
٥٦٤، ٥٥١، ٣٣٧، ٧٠	:	أدم متر
	:	إسحق بن إسماعيل بن عبد الأعلى
٤٧٢	:	الإيلي
١٥٥	:	إسحاق بن علي بن معاذ
٤١٨	:	إسحق بن عمارة العقيلي
٤٠٣	:	إسحق بن قبيصة
٥٦٤	:	إسحق بن كند أجك



٤٠٧	:	اسحق بن يحيى بن معاذ
٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٧	:	اسحاق الجنابي
٣٦٨		
٤١٨، ٤٠٣	:	أسد بن عبد الله القسري
٢٩ هـ	:	أسد رستم
٧٦، ٥٨	:	اسماعيل بن عباس
٨٨	:	اسماعيل بن عياش
٤٩٩، ٥٢٨، ٥٣٢، ٥٠٦	:	أشجع السلمي
٨٤ هـ، ٨٨ هـ	:	أكرم ضياء العمري
٢٩	:	أكيدر بن عبد الملك
٤٩٣	:	الأب بتشريك
		الادريسي، عبد الله محمد الصديق
١٠١ هـ، ١٦٠ هـ، ١٦٨ هـ، ١٧٠ هـ، ١٧١ هـ	:	الحسيني
١٨٧، ٢٥٤، ٢٧٦		
		الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد
٢٦ هـ، ٢٧، ٧٣ هـ، ٧٤ هـ، ٨٥ هـ، ١٢٨ هـ	:	الأيورسي
١٢٩ هـ، ٥٢٣		
٨٨ هـ	:	المزي، أبو الحجاج يوسف المزي
٣٠	:	الاصبع بن عمرو
		الاصطخري، أبو اسحق ابراهيم بن
٥٩، ٦٥، ١٤٦، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٣ هـ	:	محمد الفارسي
٢١٧ هـ، ٢٢٠ هـ، ٢٣٥ هـ، ٢٤١ هـ، ٢٤٢ هـ		
٢٧٠ هـ، ٣٠٨		
٤٠١ هـ، ٤٠٦ هـ، ٤٠٨ هـ، ٥٣٢ هـ، ٥٣٣ هـ	:	الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين
١٦٠، ٥٣٢	:	الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك
٢١٦ هـ	:	الأنطاكي، يحيى بن سعيد
٥٨، ٦٩، ٨٠، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٧، ٩٨، ١٢٥	:	الأذراعي بن سليمان
٤٠٥		
٤٠١، ٤١٩	:	أم حكيم بنت يحيى بن الحكم
٤٠١	:	أم حكيم بنت الحارث
٤١٨	:	أم عمر بنت مروان بن الحكم
١٤ هـ	:	إميل رينو
٣٩٦، ٤٠٧	:	أوس بن أوس

أوسط بن عمر	:	٣٩٧
الياس بن صمويل	:	٤٩٠
أيمن بن خريم	:	٤١٧

«ب»

البخاري، أبو عبيد الله محمد بن	:	٧٥، ٨٧، ٩٧ هـ
اسماعيل	:	٥٤٠
بختيشوع	:	٥٦٦
بدر الأخشيدي	:	١٢٠ هـ
بدران، عبد القادر	:	١٩١ هـ
بدر الدين قاسم الرفاعي	:	١٥، ١٦، ١٧، ١٨ هـ، ٢٠، ٢١
بسلسوس	:	٤١٩
بشير بن مروان	:	٤٠٥
بقية بن الوليد بن صائد	:	١٥٩ هـ، ١٦١، ١٦٤ هـ، ٤٨١
البكري	:	٤٦٩
بكير بن ماهان	:	٢٦ هـ، ٢٩ هـ، ٣٢ هـ، ٣٩ هـ، ٤٥ هـ، ٤٦ هـ،
البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر	:	٤٧ هـ، ٤٨ هـ، ٤٩ هـ، ٩٦ هـ، ١٠٣ هـ، ١١٢،
	:	١١٣ هـ، ١٢٠ هـ، ١٣٣، ١٣٥ هـ، ١٥٢،
	:	٣٣٢ هـ، ٣٩٤ هـ، ٣٩٨ هـ، ٤٦٧ هـ، ٤٦٨ هـ،
	:	٤٧٢ هـ، ٤٧٣ هـ، ٤٧٨ هـ، ٤٨٠، ٤٨٩،
	:	٥٢١ هـ، ٥٢٣ هـ، ٥٢٩، ٥٧٠.
بلتكين	:	٤١٣، ٤٥٢
بهاء الدولة بن عضد الدولة	:	٣٥٨، ٣٦٦
بهرام جوبين	:	٥٦١

«ت»

تراجان	:	٢٠
الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى	:	٧٥ هـ
السلمي	:	٥٣٤ هـ، ٥٣٦، ٥٣٧
تقي الدين أبو الصلاح الحلبي	:	٣٩٢
تمام بن محمد البجلي الرازي	:	٥٦٢
توليا التركي	:	

تيسير زواهرة : ١٥٧  
تيسير عطيات : ٤٨١

«ث»

ثابت بن أحمد بن عبد الوهاب : ٥٣٥  
الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن  
اسماعيل : ٢٢٧، ٢١٧ هـ، ٥٣  
ثمال بن صالح : ٤٣٩  
ثمود بن الرزق : ٥٦٢  
ثور بن زيد الكلاعي : ٩٥، ٩٢  
ثيادوق : ٥٦٠  
ثيودور أبو قرة : ٤٩٤  
ثيودوروس : ٤، ١٠، ٢٩٠، ٤٩٤  
ثيوفانييس : ١، ٢، ٣ هـ، ٤ هـ، ٥، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١٢،  
١٣ هـ، ١٤ هـ، ٤٨٩

«ج»

الجاحظ، عمر بن بحر : ٥٦٣، ٥٦٢، ٤٨٤  
جالينوس : ٥٥٥  
جبريل بن يحيى : ٥٧٢، ١٥٢  
جبريل بن بخيتشوع : ٥٥٩  
جبله بن الأيهم : ٢٧  
جبير بن نفيير : ٢٨٢، ٨٢  
الجددي التميمي : ٥٣٣  
جرجس بن بخيتشوع : ٥٦٤  
جرمانوس : ٤٩٠  
جرير بن عبد الله : ٤١٨، ٣٩٦  
الجزيري : ١٨٧  
جستنيان : ٢٩١، ٢٩٠  
جعفر الجنابي : ٣٦٨، ٣٦٧، ٣٦٠، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٥، ٣٥٠  
جعفر بن أبي سعيد : ٣٦٢  
جعفر بن الفضل : ٣٦٨، ٣٦٤، ٣٦٢، ٣٦١  
جعفر الصادق : ٤٤٦، ٤٤٥  
جعفر بن عبد الواحد : ١٢٤

٣٣٤، ٣٣٣، ١١٣	:	جعفر بن يحيى البرمكي
٥٦٧، ٤٥٣، ٤٥١، ٤٥٠، ١٢٩	:	جعفر بن فلاح الكتامي
٥٢٢	:	جعفر بن الهادي
٢٢٨	:	جلستان السعدي
٥٧٢	:	جمال الدين يحيى بن يوسف
٦٩	:	جندب بن عبد الله
٢٧٥، ٣٢٩، ٤٧٥ هـ	:	الجهشياري، محمد بن عبدوس
٢٤ هـ	:	جواد علي
١٦٧ هـ	:	جواد الهاشمي
٥٦٦	:	الجوهري، أحمد بن محمد
٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٨، ٣٦٤، ٤٤٠ هـ	:	جوهر الصقلي
٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢ هـ	:	
٤١٢، ٤١٤، ٤١٥	:	جيش بن الصمصامة
٥٦٥	:	جيش بن ضارويه
٤٦٣	:	جيمس سور
١٦٠ هـ	:	الجيّهاني، أبو النصر

### «ح»

٤٦٦	:	الحارث الثالث
٥٦٢	:	الحارث بن عبد الرحمن
٥٦٠	:	الحارث بن كلدة
٦٦	:	الحافظ الذهبي
٦٨ هـ	:	الحافظ أبو كير ابن أبي شيبة
٢٣٩، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٥٦٨ هـ	:	الحاكم بأمر الله
٤٦	:	حبيب بن مرة المري
٢٧٥	:	حبيب بن عبد الله بن رغبان
٢٢٢ هـ، ٢٢٣ هـ، ٢٢٦ هـ، ٢٣٥ هـ، ٢٣٧ هـ	:	حتي، فيليب
٤١٧، ٤٠٢	:	حجاج بن عبد الملك
٤١٨، ٣٩٦	:	الحجاج بن علاط السلمي
١٧٨، ٣٣٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١٩	:	الحجاج بن يوسف
٦٩	:	حذيفة بن اليمان
٤٠٦	:	حرب بن محمد بن حيان الطائي

٥٦١	:	حسام الدين السامرائي
٣٤٦	:	حسان بن الجراح
٥٦١	:	حسان بن حنظلة الطائي
٥٦٩، ٥٦٨، ٤٥٤	:	حسان بن مفرج الطائي
٣٥١، ٣٤٧، ٣٤٦	:	الحسن بن أحمد
٢٢٦	:	الحسن بن أحمد المهلبي
٣٥٣، ٣٥٢، ٣٤٨، ٣٤٥، ٣٤٤، ٣٤٣، ٣٤٢	:	الحسن الأعصم
٣٦٢، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٥، ٣٥٤	:	
٣٦٤، ٤١٣، ٣٦٣	:	
٣٤٢، ٢٧٧	:	الحسن بن بهرام
٤٦٧	:	الحسن بن علي
٧	:	الحسن بن قحطة
٣٩٣	:	الحسن بن محمد الحسن الصاغانى
٥٧٤، ٥٦٩، ٤٤٨، ١٢١	:	الحسين بن أحمد
٤٤٩	:	حسين بن زكرويه
٧	:	حفص بن عامر السلمى
٥٤٤، ٥٤١	:	حكم بن أبي الحكم
٥٦٢	:	حماد التركي
٤٦٠، ٤٥٨	:	حميد الدين الكرمانى
١٥٩ هـ	:	حمد الجاسر
٤٤٨، ٣٤٢	:	حمدان قرمط
٤٥٤	:	حمزة بن كلث الفارسى
٦٣	:	الحمصى
١١٣٣ هـ، ١٦٠، ١٥٨، ١٤٦، ٦٣	:	الشهاب الدين أبو عبد الله
٤١٨، ٤٠٣	:	حميد بن عمرو
٤٩٩	:	حميد بن معيوف
٥٦٠	:	حنين بن اسحق

### «خ»

٤١٨، ٤٠١	:	خالد بن أسيد بن العاص
٣٩٦	:	خالد بن الحجاج
٤١٩، ٤١٨، ٤٠٣، ٤٤، ٤٣، ٤٠	:	خالد بن عبد الله القسرى
٤١٨، ٣٩٧، ٣٩٦، ١٦٥، ٣٠، ٢٩	:	خالد بن الوليد
٤٠٠، ٣٩٩، ١١٨، ٧٧	:	خالد بن يزيد بن معاوية

٣٩٣	:	خالد معاذ
٣٩٤	:	خريم بن فاتك الأسدي
٥٢٦	:	خزيمة بن خازم
٤٠٣	:	خضير بن ربيعة
٤٤٥	:	الخطاب بن زينب الأسدي
٦٦هـ، ٧٨هـ، ٩٥هـ	:	الخطيب البغدادي
٢٩هـ، ١٩٠هـ، ٤٨٩هـ	:	خليفة بن خياط
٢١٥، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤٧٢، ٥٦٤، ٥٦٥	:	خماروية
٣١١	:	خوستان
	:	الخولاني، أبو علي عبد الجبار بن عبد
٨٥هـ، ٨٣هـ	:	الله
٤٧٥	:	خيرية عمرو
٣٣هـ	:	دانيال دينيت
٤٠٦	:	داود بن عيسى
٣٩٩	:	داود بن مروان
٥٣٣	:	دعل بن علي الخزاعي
٥٤٥	:	الدمشقي عيسى بن الحكم
٤٧٤	:	دونالد و يتكومين
٥٢٧	:	دوثان
٥٩هـ، ٦٠هـ	:	دي خويه
٥٣٤	:	الديلمي
٤٠٣	:	الديماس
٤٢هـ، ١١٤هـ، ٣٣٢هـ	:	الدينوري، أحمد بن داود

«ن»

٨٧هـ، ٨٨هـ، ٩٠هـ، ٩٢هـ، ٩٣هـ، ٩٤هـ	:	الذهبي، شمس الدين محمد
٩٥هـ، ٩٦هـ، ٩٩هـ، ٤٠٣هـ، ٤٠٤هـ	:	
٤٠٦هـ، ٥٣٤هـ، ٥٣٦هـ	:	

ابن أحمد بن عثمان

«ر»

٤٠٨، ٥٦٥	:	الراجتي
٥٤٢	:	الرازي

٥٢٦	:	رافع بن الليث
٥٤٧	:	رامبور
٤٠٥	:	الربيع بن خيطان
٥٦٦، ٥٣٢، ١٢٦، ١١٥، ٤٢	:	ربيعة
٩٤	:	رجاء بن حيوة
٤٧٧، ٤٠٧	:	رجاء بن أيوب الحضاري
٣٩٧	:	رحبة الزبيب
٤٠٢	:	رحبة البصل
٤٠٣	:	رحبة خالد بن أسيد
٥٤٠	:	الرحبي
٥٣٦	:	رضا الأستاذي
١٠٦، ١٠٧، ١١٨، ١٥٤، ٣٧٤، ٣٩٤، ٣٩٨	:	الرشيد
٤٢٩، ٤٠٦، ٣٣٥، ٣٣٤، ٣٣٣، ٣٢٩، ٣٢٨	:	
٥٠٠، ٤٩٩، ٤٨٣، ٤٨٠، ٤٧٩، ٤٦٦، ٤٣٦	:	
٥٠٧، ٥٠٦، ٥٠٥، ٥٠٤، ٥٠٣، ٥٠٢، ٥٠١	:	
٥٢٨، ٥٢٧، ٥٢٦، ٥٢٥، ٥٢٣، ٥٢٢، ٥٢٠	:	
٥٥٩، ٥٥٦، ٥٤٧، ٥٤٥، ٥٤٣، ٥٣٢، ٥٢٩	:	
٥٦٣، ٥٦٠	:	
١٠١، ١٠٠، ٩٨، ٩٧، ٨٤، ٨٢، ٤٠، ٣٠	:	الرسول عليه الصلاة والسلام
١٠٢	:	
٥٦١	:	الرشيد التركي
٦٦	:	رضوان السيد
٥٣٥	:	رضي الدين محمد بن محمد الأوي العلوي الحسيني
٥٣٦	:	رضي الدين محمد بن محمد بن زيد أبي الداعي الحسيني
٤٦٨، ٣٩٩	:	رملة بنت معاوية
٥٦١	:	روبن ليوي
٤١٧، ٤٠٣	:	روح بن زنباع الجذامي
١٩	:	رومانوس الثالث
١٦	:	رومانوس السادس
٥٦٧، ٤١٢، ٣٤٧	:	ريان الخادم

«ز»

٥٦٣	:	زاحم بن خاقان
٣٩٧	:	الزبير بن العوام
٥٢٩، ٥٢٢	:	زبيدة
٤٠٠هـ	:	الزبير بن بكار
٣٠٤	:	زغر
٥٥٩	:	زكريا الطيفوري
٤٧٢، ٤١٩، ٤٠٤، ٩١	:	الزهري
٤١	:	زياد بن صالح
٤٨	:	زياد بن عبد الله الحارثي
٤٠، ٣٨	:	زيد بن علي بن الحسين

«س»

٣٤٣	:	سابور بن أبي الطاهر
٤٠٠هـ، ٨٠هـ	:	سامي مكّي العاني
٤٩٠	:	ستوراخيوس بن زادة
٨٢	:	سعد بن بشر
١٦٤هـ، ١٦٨، ١٧١هـ	:	سعد الراشد
٥٦٨، ٤٥٥، ٤٥٣، ٤٥٢، ٤٤١، ٢١٧	:	سعد الدولة
٥٢١	:	سعيد بن عبد الله
٣٤٢	:	سعيد بن الحسن بن بهرام
٤١٨، ٤٠١	:	سعيد بن العاص
٨٨، ٨٧، ٧١	:	سعيد بن عبد العزيز
٢٤١	:	سعيد بن نوفل
٥٣٣	:	سيد بن وهب
٥٦٠، ٥٢٣، ٤٦٨	:	السفاح
٤١٩	:	سفيان بن الأبرد
٤٧٢، ٥٨	:	سفيان بن عينية
٩٦	:	سفيان بن عبد الملك الخولاني
٤١٨، ٤٠٣	:	سفيان بن الأبرد الكلبي
٤٨٥، ٤٧٧، ٣٧٩، ٧٦	:	السفياني
٣٩٧	:	سقيفة كردوس
٣٩	:	سلطان بن الزبير



٤١٣	:	سليمان بن جعفر بن فلاح
٤٨٠، ٤١٧، ٣٩٩	:	سليمان بن عبد الملك
٣٩٥	:	سليمان بن عتبية الغساني
٤٠٦	:	سليمان بن منصور
٣٦	:	سليمان بن هشام
٣٣٦	:	سمير شما
٤٠٦	:	السندي بن شاهك
٤١٧، ٣٩٧	:	سهل بن الحنظلية
٥٥٩	:	سهل بن اسبور
١٠٣، ٢٩٩ هـ	:	سهيل زكار
٢١٢ هـ	:	سيد محمود خليفة
٥٦٤	:	سيما الطويل
	:	السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن بكر
٤٠٧، ١٧٩ هـ	:	سيرة بن فاتك الاسدي
٣٩٧	:	سيف الدولة
٢٣٣، ٢٢٤، ٢١٧، ١٥٥، ١٥٤، ١١٧، ٦٤	:	
٣٢٧، ٣١١، ٣١٠، ٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٠، ٢٤٥	:	
٥٦٦، ٥٦٥، ٤٣٧، ٣٣٨، ٣٣٦	:	

#### «ش»

٥٣٢	:	الشافعي ، احمد عبد الرحمن البنا
١٦٥	:	شرحبيل بن حسنة
٩٨	:	شعيب بن اسحق القرشي
٦٦	:	شعيب الارنووط
٦٦	:	شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان
٤٢، ٥٣ هـ	:	شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت الحموي
٥٢٢، ١٣٣ هـ	:	شيخ الربوة الدمشقي
٦٢، ٦٣ هـ	:	الشيرازي

#### «ص»

١١٢، ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠	:	صالح احمد العلي
٤٨٠، ١٥٢، ١٣٣، ١١١، ١٠٠	:	صالح بن علي بن عبدالله العباس

٥٦٨، ٤٥٤، ٤٤١، ٤٣٨	:	صالح بن مرداس
٥٢٨، ٥٢٣، ٥٠٠	:	الصنوبري، احمد بن محمد بن الحسن العيني
٤١٩، ٤٠٢	:	صفوان بن امية الجمحي
٣٩٣	:	صالح الدين الصفدي
٣٩٣، ٣٧١، ٣٦٧	:	صالح الدين المنجد
٤٤٣، ٢٤١	:	صالح الدين الايوبي
١٩٣، ١٩١	:	صالح موسى درانكة

«ض»

٣٩٧	:	الضحاك بن قيس الفهري
-----	---	----------------------

«ط»

١١٤	:	طاهر بن الحسين
٥، ٦، ٧، ٨، ٢٥، ٣١، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٧٤، ٧٧، ٨٢، ٨٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٥، ١١٨، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٥، ١٩٥، ٢٨٣، ٣٣٣، ٤٠٤، ٤٠٨، ٤٤٨، ٤٦٩، ٤٧٧، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٣١، ٥٣٣، ٥٦١	:	الطبري، ابو جعفر بن جرير

٣٦٧، ٣٥٨، ٣٥٧، ٣٥٣، ٣٥٠، ٣٤٧	:	الطائع لله
٤٤٩	:	طفج الاخشيد
٥٦٤، ٢٣٨	:	طفج بن جف
٤١٨	:	طلحة بن عمرو الجهني
٥٣٢	:	طوقه بن مالك

«ظ»

٤٥١، ٣٤٦	:	ظالم بن موهوب العقيلي
٥٦٨، ٤٥٥، ٤٥٤	:	الظاهر بالله

٤١٩، ٤٠٢	:	عاتكة بنت يزيد
١٠٦، ١٠٣	:	العباس بن عبد المطلب
٥٣٣	:	العباس بن الاحنف
٤٥	:	العباس بن زبيد
٣٩٧	:	العباس بن مرداس
٤٠١	:	العباس بن الوليد
٤١٩	:	العباس بن الوليد بن عبد الملك
٤٤٦	:	عبد الله بن اسماعيل
٣٩٧	:	عبد الله بن ابي المهاجر
٤٢٠، ٤٠٣	:	عبد الله بن بشير الشيباني
٩٤	:	عبادة بن نسي
٤٠٢	:	عبد الله بن دراج
٣٩٧	:	عبد الله بن بكر بن خريم الاسدي
١٥٥، ١١١، ٩٧، ٩٦، ٤٩، ٤٨، ٤٥، ٣	:	عبد الله بن علي
٨٢	:	عبد الله بن عبد الثمالي
٩٠	:	عبد الله بن يوسف ابو محمد الكلاعي
٣٩٩	:	عبد الله بن عبد الملك
٥٣١، ٤٠٦، ١٢٤، ١٠٩، ١٠٦	:	عبد الله بن طاهر
٥٣٢	:	عبد الله بن امبارك
١٢٦	:	عبد الله الفرغاني
٤٠	:	عبد الله بن محمد
٩٠	:	عبد الله بن محمد بن علي القضاعي
	:	عبد الله بن محمد الحسن ابو بكر
١٢٦	:	الاصفهاني
٤٤٨	:	عبد الله بن محمد بن اسماعيل
١٢٥	:	عبد الله بن محمد العمري
٤٤٨	:	عبد الله بن ميمون
١٩	:	عبد الله بن عمرو بن العاص
١٤٣	:	عبد الله بن المقفع
١٠	:	عبد الله المنصور
٥٦١	:	عبد الله بن زياد
١٣٧	:	عبد الله بن صالح

٤٩٠، ١٦١	:	عبدالله يوسف الغنيم
٤٠٣	:	عبدة بن رباح
٤١٧	:	عبدة بن رباح الغساني
٤١٩، ٤٠٢	:	عبدة بن عبدالله بن يزيد
١٠٢	:	عبد الاعلى بن محمد الغساني
٢٨	:	عبد السلام محمد هارون
٥٥٥، ٥٢٧	:	عبد الحفيظ شلبي
٦١	:	عبد الرحمن بن نصر الشيزري
٥٦٢	:	عبد الرحمن بن حسان
٤١٩، ٤٠٤	:	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد
٣٣٤	:	عبد الرحمن فهمي
٧٦	:	عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الشامي
٢٩	:	عبد الرحمن بن عوف
٩٣	:	عبد الرحمن بن ابراهيم بن ميمون
٤٢٤	:	عبد الرحمن بن الياس
٥٦٣	:	عبد السلام هارون
٨٣	:	عبد الجبار الخولاني
١٤٣، ١٣٠	:	عبد الجبار ناجي
١٢٤	:	عبد الحميد بن عبد العزيز
٥٥٤	:	عبد الروؤف عون
٣٩٩	:	عبد رب الزاهد
٣٩٢	:	عبد العزيز بن احمد الكتاني
٤١٩، ٤٠٠	:	عبد العزيز بن مروان
٥٢٦، ٤١٠، ١٠٣	:	عبد العزيز الدوري
٤١٧، ٤٠١	:	عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك
١٦٧	:	عبد العزيز الراشد
٣٩٣	:	عبد القادر النعيمي
١٦٨	:	عبد القادر بن محمد بن ابراهيم الانصاري
٣٩٣	:	عبد القادر ربحاوي
٥٦٩	:	عبد القادر الارناؤوط
١٥٤، ١١٤، ١١٣، ١٠١، ٥٨	:	عبد الملك بن صالح بن علي بن عبدالله
٣٦٤، ٣٥٤، ٣٥١، ٣٣٣، ٣٣٢، ٣٩٧، ١٩٩	:	عبد الملك بن مروان
٥٤١، ٤٦٧، ٤٠٣، ٤٠٠، ٣٩٩، ٣٩١	:	
٥٦٩، ٥٦٢	:	

٤١٧ ، ٣٩٦	:	عبد المطلب بن ربيعة
٣٩٢	:	عبد المنعم بن علي الحونني
٤٦٣ ، ٢١٣ هـ ، ٤٤٧ هـ	:	عبد المنعم ماجد
٥٦٢	:	عبد الوهاب بن نجدة
٥٦١	:	عبيد الله بن زياد
٤٤٩ ، ٤٤٦ ، ٣٤٢	:	عبيد الله المهدي
٥٣١	:	عبيد الله السري
٣٩٨	:	عثمان بن حيان المري
٤٦	:	عثمان بن عبد الاعلى بن سراقه
١٨٥ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٣٤ ، ٤٧٨	:	عثمان بن عفان
٣٩٨	:	عثمان بن عبد الاعلى الازدي
٧٨ هـ	:	عدنان دروزة
٩٤	:	عدي بن عدي الكندي
٢٥ هـ	:	عرفان حمور
٦٩	:	العرباص بن سارية
١٠٤ هـ	:	عريب بن سعد
٧٤ هـ	:	عزت العطار
٣٩٣	:	عز الدين بن شداد
٥٣٥	:	عز الدين بن عبد العزيز بن ابي كامل الطرابلسي
٢٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٤٤١ ، ٤٥٢ ، ٥٦٨	:	العزيب بالله الفاطمي
٨٨ هـ ، ١٠٤ هـ	:	العصفري، خليفة بن خياط
٤٢٠ ، ٤٠٣	:	عطية بن قيس
٤٣٨	:	عطية المرداسي
٤١٨ ، ٤٠٤	:	عقبة بن عامر الجهني
٥٣٨	:	عقبة بن الاشعث
٤٠١	:	عكرمة بن ابي جهل
٥٣٣	:	علي بن أمية
٤٦٧ ، ٢٨٣	:	علي بن ابي طالب
٥٣٣	:	علي بن الخليل
٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٦	:	علي بن عبد الله بن العباس
٥٤٢	:	علي بن العباس المجوسي
٥٦٠	:	علي بن سهل

٣٣١ ، ٢٦٦ ، ٦٤	:	علي بن عيسى
٢٤٦	:	علي بن عمار
٤٤٨	:	علي بن الفضل
٤٥٥	:	علي بن محمد
٥٨٠	:	علي السباعي
٥٧٢	:	علي الربيعي
٩٩	:	علي بن عبد الله بن خالد بن معاوية
١١٣	:	علي بن سليمان بن عبد الله
٥٤٧	:	علي البنا
٩٣	:	عمار بن ياسر
٤١٩ ، ٤٠٢	:	عمر بن مبشر بن الوليد
٤٠٢ ، ٤٠٠ ، ٢٨١ ، ١٧١ ، ٧٠	:	عمر بن عبدالعزيز
٥٢٠ ، ٣٩٥ ، ٨٥	:	عمر بن الخطاب
٤٠٢	:	عمر بن الوليد بن سعيد بن هشام
٤١٧	:	عمر بن الوليد بن عبد الملك
٤١٨ ، ٤٠٣ ، ٣٩٧ ، ١٢٠	:	عمرو بن العاص
٣٩٦	:	عمرو بن مرة الجهني
٥٢٢ ، ٤١٩	:	عمرو بن حفص الثقفي
٨٨	:	عمرو بن ميمون بن مهران
٤١٩ ، ٤٠٤ ، ٣٤	:	عمرو بن سعيد الازدي
٤٢٠ ، ٤٠٤ ، ٧٥	:	عوف بن مالك الاشجعي
٤١٧ ، ٣٩٧	:	عون بن حكيم
٥٥٩	:	عيسى ابوقريش
٤٨٤	:	عيسى بن الشيخ
٥٦٣	:	عيسى بن الشيخ العاصي
٥٥٠ ، ٥٤٩ ، ٥٤٨ ، ٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٠	:	عيسى بن حكم الدمشقي
٥٦٠ ، ٥٥٩ ، ٥٥٨ ، ٥٥٧ ، ٥٥١	:	
٧٦	:	عيسى بن مريم (عليه السلام)

«غ»

٤٥٧ هـ ٤٥٦ : ٥٧

الغزالي

«ف»

٥٦٦، ٤٦٠	:	الفارابي
٥٢٣، ٤٤٨، ٤٤٦، ٣٧	:	فاروق عمر
٤٤٠، ٤٤١، ٤٥١، ٤٥٢	:	الفتكين
٣٩٦، ٣٩٥	:	فضالة بن عبيد الانصاري
٥٧٤	:	الفضل احمد بن ابي طاهر الخراساني
٤٠٥	:	الفضل بن صالح بن علي
٤٥٧	:	فضل بن شاذان
١٣٨	:	فيليب هوسر
٢١٢هـ	:	فيليب حتي

«ق»

٤٣٥	:	قاسم التراب
٥٢٦	:	القاسم بن الرشيد
٤٥٠، ٣٦٦	:	القائم بأمر الله الفاطمي
٤١٧، ٤٠٣	:	قبيصة بن زؤيب الخزامي
٣٢٩، ٢٠٢، ٥٧	:	قدامة بن جعفر
١٨٧، ١٦٩	:	القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني
٤٥٢	:	قسام التراب
٤٩٠، ٤٨٦، ١٤، ٤	:	قسطنطين الرابع
١٦	:	قسطنطين دوكاس
٣٩٧	:	قطيعة بن معاوية
٥٤٤، ٥٤٣	:	القفطي
٤١٤، ٤١٣، ٤١٢، ١٩٠	:	القلانسي، حمرة بن اسد بن علي
٢٤٠هـ، ٢٣٧هـ، ٢٣٠هـ، ٢١٩هـ	:	القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي

«ك»

٥٦٦، ٣٢٧، ٢٣٩	:	كافور الاخشيدي
٨٢	:	كثير بن مرة
٣٩٣	:	كرد علي

٣٦٧، ٣٦٢، ٣٦٠، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٥، ٣٥٠	:	كسرى الجنابي
٣٦٨	:	
٥٣٢	:	كلثوم العتابي
٥٣٧	:	كمال الصليبي
١٠٥هـ، ١٠٩هـ، ١١٣هـ، ١١٧هـ، ١١٩هـ،	:	الكندي، ابو محمد بن يوسف
١٢٤هـ، ١٢٥هـ، ٢١٤هـ، ٤٧٨	:	
١٩٣هـ	:	كوركيس عواد

«ل»

١	:	لظفي عبد الوهاب يحيى
٤٨٣، ٣٠٩، ٢١٦هـ	:	لومبارد
٥٣	:	لي سترانج
٥٨	:	الليث بن سعد
٢٩٣	:	ليون الطرابلسي

«م»

٥٢٦	:	مارسدن جونسن
١٥٩	:	مالك بن انس
٤١٨، ٣٩٦	:	مالك بن عوف النصري
٥٦٠	:	ماسرجوية
٣٣٦، ٣٣٤، ٣٣٠، ٣٢٨، ٣١١، ١٠٦، ٧٤	:	المأمون
٥٦٣، ٥٥٩، ٥٤٤، ٤٠٦، ٣٥٣	:	
٥٦٢	:	مبارك التركي
٤٤٥	:	المبارك مولى اسماعيل
٤٨٥، ٤٧٨، ٤٧٧، ٣٣٢، ٣٢٨، ٢٧٩	:	المبرقع اليماني
٢٦٧، ١٠٤، ٥٣	:	الماوردي، ابو الحسن بن محمد بن حبيب الماوردي
٤١٥، ٤١١	:	المقتدي بأمر الله
٣١١، ٣٠٠	:	متز آدم
٥٦٣، ٤٨٥، ٤٧٦، ٤٠٧، ٣٢٨، ٢٦٩، ١١٥	:	المتوكل علي بن اسماعيل
٣٩٢	:	مجير الكتامي



٢٧، ٥٨، ٦٩، ٧١، ٧٧، ٨٠، ٨١، ١٦٦، ١٦٨،	:	محمد (صلى الله عليه وسلم)
١٩٥، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٦١، ٤٧١، ٤٧٢،		
٥٣٨، ٥٦١، ٥٧٥		
٤٩٥	:	محمد احمد دهمان
٣٩٣	:	محمد احمد دهان
٢١١	:	محمد احمد زيود
٣٢٧	:	محمد اديب ال تقي الدين الخصي
٣٨	:	محمد ابو الفضل ابراهيم
١١٢	:	محمد بن ابراهيم
٤١٤	:	محمد بن ابي طالب الجزار
٤٥٨، ٤٥٧	:	محمد بن اسماعيل
١١٢	:	محمد بن الاشعث الخزاعي
٥٣٣	:	محمد بن أمية
٥٣٨	:	محمد باقر المجلسي
٥٢٦	:	محمد البطاينه
٥٥٤	:	محمد بهجة الاثري
٥٣٢	:	محمد بن الحسن الشيباني
٥٣٤	:	محمد بن الحسن الطوسي
٤٠٨	:	محمد بن رائق
٩٢	:	محمد بن راشد
٣٣٤، ١١٧	:	محمد بن سليمان
١٩٥	:	محمد بن شاكر
٥٦٥	:	محمد بن طفيج
٨٠	:	محمد بن عائذ الدمشقي
٤٧٣	:	محمد بن عبد الله العلوي
٣٣٣	:	محمد بن عبد الهادي ابوريده
٤٥٥	:	محمد بن عثمان
٥٥	:	محمد بن عبدوس الجهشياري
١١٨	:	محمد بن عبديو
٤٦٩	:	محمد بن علي بن عبد الله
٥٦٢	:	محمد بن مبارك
٦١	:	محمد بن محمد بن احمد القرشي
٥٢٠	:	محمد بن مروان
١٢٤	:	محمد بن هشام

٥٦٦	:	محمد بن يزيد
٥٥٩	:	محمد بن جابر عبدالعال الحيني
٥٥٧	:	محمد حسن الزبيدي
٣٣٥	:	محمد الخوالي
١٠٣هـ	:	محمد رضوان
٧٤هـ	:	محمد زاهد بن حسن الكوثري
٤٦	:	محمد زياد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية
٦٧	:	محمد شكور
١٧٠هـ، ١٦٤هـ، ١٦٥هـ، ١٩٣هـ	:	محمد عدنان البخيت
١٩٤هـ	:	محمد عبد المنعم
١٠٥هـ، ١٢٨هـ	:	محمد كرد علي
٧٥هـ	:	محمد محي الدين عبد الحميد
٤٦٨	:	محمد المهدي
١١٥	:	محمد المنتصر لله
١٦٥هـ	:	محمد يونس العبادي
٤٤٣	:	محمود بن سبكتكين
٥٣٥	:	محمود الحمصي
٤٣٩	:	محمود بن ناصر
٥٨	:	مخلد بن حسين
١١٩	:	مزاحم بن خاقان
٤٧٥، ٤٧٦	:	مرسي حسن
٤٣٩	:	مرتضي الدولة بن لؤلؤ
٥٣٣	:	مروان بن ابي حفصة
٥٤١	:	مروان بن الحكم
٤٠	:	مروان بن عبد الملك
٣٣، ٤٣، ٤٥، ٥١، ٥٢١، ٥٧٤	:	مروان بن محمد
٨٩	:	مروان بن محمد بن حسان الاسدي
٩٣هـ	:	المزي
٤٥٢هـ	:	مسكويه
٣٤هـ، ٤٠٠، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٥	:	مسلمة بن عبد الملك
٥٣٣، ٥٢١	:	مسلم بن الوليد
٤١٩، ٤٠٢	:	مسلم الختلي
٤٥٥، ٤٥٦، ٤٤٦، ٤٤٦، ٤٥٥	:	المستنصر الفاطمي

٤٨٦، ٤٩٠، ٤٩٢، ٤٩٤	:	المسيح عليه السلام
١٩٣، ٢٧٥، ٢٧٨، ٣٠٥، ٣٠٦، ٤٠٧هـ	:	المسعود، علي بن الحسين بن علي
٤٧٣هـ	:	
٤٨٩، ٥٢١هـ، ٥٦١هـ، ٥٧٧	:	
٤٧٣هـ، ٤٧٩	:	مصطفى الحيارى
٥٥٥هـ	:	مصطفى السقا
٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٦٧، ٤١١	:	المطيع لله
٨٢	:	معاذ بن جبل
٢٤، ٣٩، ٦٩، ٧٤، ٧٨هـ، ٨٢، ٢٥٢، ٣٩٠	:	معاوية بن ابي سفيان
٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١، ٤٦٧، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧	:	
٤٧٨، ٥٢٠، ٥٤٠	:	
٤٤٥هـ	:	معاوية بن هشام
٥٣، ١١٥، ٢٧١، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٣٠، ٤٠٧	:	المعتصم بالله
٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٠، ٥٢٤، ٥٤٢، ٥٦٣، ٥٦٩	:	
٢١٥هـ، ٤١٠	:	المعتضد بالله
٥٦٩، ٥٦٨	:	معز الدولة بن صالح الكلاعي
٣٣٦، ٣٥٧، ٥٦٧	:	معز الدولة البويهى
٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٤١٢، ٤١٣، ٤٥٠، ٤٥١	:	المعز لدين الله
٥٦٧، ٥٦٨	:	
٤١٥	:	معصي بن حيدرة بن منزو
٦٠، ٦٥، ١٣١، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨هـ، ١٤٠	:	المقدسي، محمد بن احمد
١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧هـ، ١٤٨	:	
١٤٩هـ، ١٥١، ١٥٦هـ، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣	:	
١٦٧، ١٦٨، ١٨١، ١٨٢، ١٩٣، ٢٠٢، ٢٢١هـ	:	
٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥هـ، ٢٢٦، ٢٢٧	:	
٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١هـ، ٢٣٢، ٢٣٥	:	
٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩هـ، ٢٤١، ٢٤٤	:	
٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧هـ، ٢٤٨، ٢٥٠	:	
٢٥٣، ٢٥٤هـ، ٢٥٥، ٢٥٦هـ، ٢٥٨	:	
٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٦هـ، ٢٦٧، ٢٧١	:	
٢٧٣، ٢٧٤هـ، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٣هـ، ٢٩٦	:	
٣٠١هـ، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧	:	
٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠هـ، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٠	:	
٣٣١، ٤٠٤، ٤١٦، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٥هـ	:	

١٠٨هـ - ١٠٩هـ - ١١٦هـ - ١٢٠هـ - ١٢١هـ	:	المقريزي، ابو العباس احمد بن علي
١٢٦هـ - ٢١٤هـ - ٢١٨هـ - ٢٤٦هـ - ٣٤٦هـ	:	مكحول بن عبد الله الدمشقي
٣٦٢هـ - ٣٦٣هـ - ٤٣٠هـ - ٤٣٥هـ - ٤٥٤هـ - ٥٦٤	:	المنصور
٨٧	:	منصور بن لؤلؤ
١٢٢، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٧٥، ٤٨١، ٥٠٤، ٥٠٥	:	منصور بن محمد المهدي
٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٣٠، ٥٦٠	:	منصور النمري
٥٦٢	:	منير الخادم
٤٥٥	:	المهي العباس
٤٠٦، ٩٨	:	مهروية بن زكروية
٥٣٢	:	مشيل مانكة
٤٥٢، ٥٦٨	:	موسى بن عيسى
٣٥٣، ٤٠٥، ٤٢٤، ٤٧٥، ٤٧٩، ٤٨١، ٥٢٣	:	موسى بن أعين
٥٢٨، ٥٤٤، ٥٦٠، ٥٦٢	:	موسى بن بغا
٤٤٨	:	موسى بن كعب
٥٢١، ٥٢٥	:	موسى كاظم
٤٠٦	:	موريس لومبار
٥٨	:	ميخائيل بسلوس
٢٧٩، ١٠٧	:	ميخائيل السابع
١٩٩	:	ميخائيل عواد
٤٤٥	:	
٣٠٦، ٢٩٩	:	
١٧هـ	:	
١٦	:	
٥٣هـ	:	

«ن»

٥٦١	:	النابغة الذبياني
٥٦٥	:	ناصر الدولة الحمداني
١٧٠هـ - ١٨٤هـ - ١٩٠هـ - ١٩٣هـ - ١٩٧هـ	:	ناصر خسرو
٢١٩هـ - ٢٢٣هـ - ٢٢٩هـ - ٢٣٠هـ - ٢٣٢هـ - ٢٣٩هـ - ٢٤٥هـ	:	
٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦٩، ٢٧٣، ٣٠١، ٣٠٨، ٣٥٢	:	
٤٣٨	:	ناصر بن صالح
٢٧هـ	:	نبيه عاقل

١٠٣	:	نجدة خماش
٤٨،٤٣	:	نصر بن سيار
٣٢٩	:	نصر بن شعث العقيلي
٥٣٦	:	نصر بن صالح
٤٣٨	:	نصرت بن محمود
٥٦١	:	النعمان بن الحارث
٧٨،٧٧	:	نعيم بن حماد
٨١	:	نزيه حماد
٥٢٧	:	نسيب صليبي
٣٥٩	:	نعمان الجنابي
٧٦	:	نعيم بن حماد المروزي
٥٠٥،٥٠٠،٤٩٩،٩	:	نقفور
٤٤٣	:	نور الدين زنكي
٣٦٤،٣٦٣،٣٦٢	:	النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب

«ه»

٥٢٤،٥٢٢	:	الهادي
٥٦٥،١١٧	:	هارون بن خماورية
٥٢٤،١٥٣،١٣٦،١٣٢،١٢٠،١١٩	:	هارون الرشيد
٥٠٢،٥٠٠،٤٩٩	:	هرتزفيلد
٥٣٠،٤٨٠،١٥٤	:	هرثمة بن اعين
٢٩١،٣٠،٢٨	:	هرقل
٤٠٢،٤٠٠،٩٧،٩٤،٤٥،٤٠،٣٥،٣٤،٣٢	:	هشام بن عبد الملك
٥٤٢،٥٢٢،٤٩٢،٤٨٩،٤٧٦،٤٦٨،٤١٩	:	
٥٧١	:	
٩٦،٨٨،٨١	:	هشام بن عمار
٥٦	:	هلال الصابي
٤٣٥	:	هنري لوست
٤١٧،٣٩٩	:	هند بنت معاوية
١٥١	:	الهيثم العتكي

«ي»

- ياقوت، شهاب الدين ابو عبدالله : ٢٠٢هـ، ٢٥١، ٢٦٩، ٣٩٣، ٤٠٢هـ، ٤٠٨،  
٤٠٩هـ، ٤١٠هـ، ٤٦٦هـ، ٤٧١هـ، ٤٧٢هـ،  
٤٧٥هـ، ٤٧٦هـ، ٤٩٩هـ، ٥٠٠هـ، ٥٠٢هـ، ٥٢١هـ،  
٥٢٦هـ، ٥٢٧هـ، ٥٢٨هـ، ٥٢٩هـ
- ٥٧ : يحيى بن آدم  
٤٣١ : يحيى الانطاكي  
٤٠٥ : يحيى بن حمزة  
٥٣٤ : يحيى بن ابي الطي  
١٠٦، ٥٢٢، ٥٢٤ : يحيى بن خالد البرمكي  
٢٦٦ : يحيى بن زكريا  
٥٣٣ : يحيى بن مبارك  
٥٧٢ : يزيد بن اسيد  
٥٢٢ : يزيد بن حاتم  
٥٦٣ : يزيد بن عبدالله  
٣٤، ٤٠٠، ٤٠١، ٤١٨، ٤٧١، ٤٨٨، ٤٨٩ : يزيد بن عبد الملك  
٤٩٠  
٦٦ : يزيد بن هارون  
٥٢١ : يزيد بن هبيرة  
١٣، ١٦٥، ٥٤١ : يزيد بن معاوية  
٤٠٨ : يزيد بن الوليد  
٥٣٢، ٥٦٢ : يزيد بن مزيد  
اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب  
ابن وهب بن واضح : ٢٥هـ، ٢٧هـ، ٤١هـ، ٥٩هـ، ٦٥هـ، ٨٧هـ، ١٠٥هـ،  
١٠٧هـ، ١١٦هـ، ١١٩هـ، ١٣٥هـ، ١٣٦هـ،  
١٣٧هـ، ١٣٩هـ، ١٤٠هـ، ١٤٥هـ، ١٤٧هـ،  
١٤٨هـ، ١٧٢هـ، ١٧٤هـ، ١٩٢هـ، ١٩٦هـ، ٢٦٠هـ،  
٢٧٥هـ، ٢٧٩هـ، ٣٩٠هـ، ٣٩٤هـ، ٣٩٨هـ، ٤٠٠هـ،  
٤٠٧هـ، ٤٦٧هـ، ٤٧٧هـ، ٤٧٩هـ، ٤٨٠هـ، ٤٨٩هـ،  
٥٧٢  
٤٩٠ : يوحنا بن اسحق  
٥٤٥، ٥٥٩، ٥٦٠ : يوحنا بن ماسويه  
٤٧١ : يوحنا بن رؤية الجذامي

٤٩٤	:	يوحنا الدمشقي
١٦	:	يوحنا ماوروبوس
٣١٠هـ	:	يوسف اسعد داغر
٥٣٣	:	يوسف بن الحجاج
٤٠	:	يوسف بن عمر الثقفي
٤٧٢	:	يونس بن يزيد الايكي

«و»

٤٧٦، ٣٨، ٣٠هـ، ٢٩هـ، ٢٦هـ	:	الواقدي، ابو عبد الله محمد بن واقد
٤١٨	:	وائلة بن الخطاب العدوي
٤١٧، ٣٩٥	:	وائلة بن الاسقع
١٢٤	:	وكيع، محمد بن خلف
٤٠٨	:	الوليد بن روح بن الوليد
٥٦٢	:	الوليد بن طريف
٤٨٩، ٤٨٠، ٤٠٣، ٤٠٢، ٤٠٠هـ، ١٠٣هـ	:	الوليد بن عبد الملك
٥٦٢، ١٠١، ٩٩، ٨٧، ٨٠، ٧٧، ٧٦، ٦٨	:	الوليد بن مسلم الدمشقي
٩٦	:	الوليد بن معاوية بن مروان
٤٨٩، ٤٠٢، ٧١	:	الوليد بن يزيد
٩٥	:	الوليد الكلاعي

# الجماعات والشعوب

(أ)

٢٨٥	الاباضية
١٠٨، ١١٥، ١١٨، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٣٩، ٣٤٧، ٣٥٧،	الانتراك
٣٥٨، ٤٠٧، ٤١٣، ٤٣١، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٧٨، ٥٦١، ٥٦٢،	
٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٩	
٤٥٥	الاثنا عشرية
٤٤٩، ٤٥٠، ١١٧، ١٢٦، ١٢٧، ٢١١، ٣٣٥، ٥٦٥	الاشيديون
١٣٨	الأرمن
٣٩٧	الازديون
٤١٧، ٣٩٧	الاسديون
٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩،	الاسماعيلية
٤٦٠، ٤٦١	
٤٨٤	الاعاجم
٥٣١	الاغالبة
٢٨٥، ٢٩٤، ٤٣١، ٤٤٣، ٤٤٤	الاكراذ
١٢، ٢٣، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٧٠، ٧٢، ٧٤، ٧٩،	الامويون
٩٥، ٩٧، ١١٠، ١٥٢، ١٩٠، ٢٨٦، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤،	
٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠١،	
٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤٣٩، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٨٥، ٤٧٤،	
٥٢٠، ٥٢١، ٥٦٢، ٥٧٣	
٥٥	الانبار
٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٧	الانباط
١٩٨	الانجليز
٣٩٦، ٤١٨	الانصار



«ب»

٤١٩	البحادلة
٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٤	البدو
٢٧٨ ، ٢٨٧	البربر
١٧ ، ١٨	البرابرة
٥٢٤ ، ١٢٢ ، ٥٣٢	البرامكة
٤٥٧ ، ٤٥٨	الباطنية
٣٤٤	بنو ابو الطاهر
١٥٨	بنو اسرائيل
٥٣٠	بنو الاغلب
١٢ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ هـ ، ١٦٦ ، ٢٨٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٦	بنو امية
٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٢٠ ، ٥٤١	
٤٤٢	بنو ايوب
١٩٠	بنو تغلب
٤١٤ ، ٤٣٨ ، ٤٤١	بنو الجراح
٥٤٠	بنو الجزار
٥٤٠	بنو حلقة
١١٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١	بنو حمدان
٥٤٠	بنو زهر الايادي
٣٠٢	بنو سليم
٣٥٢	بنو ستير
٣٤٣	بنو طاهر
١٢ ، ٧٧ ، ١١٠ ، ٢٥٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٩٢ ، ٤٠٥ ، ٤٦٨	بنو العباس
٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤	
٣٦	بنو عبد الملك
٢٩٤ ، ٤١٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤٢	بنو عقيل
٤٣٧	بنو فزارة
٥٤٠	بنو قرة

٤٠٥	بنو قطيطا
٤٣٩ ، ٢٩٤	بنو كلاب
٤٣٧ ، ٤٠٦	بنو كلب
٤٤١	بنو كتامة
٣٩٧	بنو محسن
٤٠٣	بنو مخزوم
٤٤٣ ، ٤٤٢ ، ٤٣٩ ، ٤٣٨ ، ٤٣٦	بنو مرداس
٤٣٧ ، ١٤٠	بني مرة
٤٧٦ ، ٣٦ ، ٣١	بنو مروان
٣٩	بنو هاشم
٣٠٢	بنو هلال
٦٠ ، ٢٦	بهراء
١٢٧ ، ٤٥١ ، ٤٣٩	البهوييون
٥ ، ٩ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٢١٩ ، ٢٨٠ ،	البيزنطيون
٤٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٨٢	
٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٧ ، ٤٦٥ ، ٤٧٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٣٩	

(ت)

٢٩٢	تانغ (اسرة صينية)
٢٨٥ ، ٣٢	الترك
٤٤٠	التركان
٥٣٠	تميم
١٤٠ ، ٦٠ ، ٢٦	تنوخ
٤٠١	التنوشي

(ث)

٣٦١	ثمود
-----	------

«ج»

٤٧٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٧ ، ٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦	جذام
٤٥٨	الجعفرية
	(الاثنا عشرية)
٣٥٧ ، ٣٥٢ ، ٣٤٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢	الجنابيون
٣٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨	

«ح»

٥٣٥ ، ٤٤٠	الحلبيون
٥٦٧ ، ٥٦٦ ، ٤٥٠ ، ٣٣٨ ، ٢٨٥ ، ٢٧٩ ، ٢٣٤	الحمدانيون
٤٠٨ ، ٦٠ ، ٢٨	حمير

«خ»

٢٨	خثعم
٥٦٢	الخزر
٤٤٥	الخطابية
٥٢٢	الخوارج

«د»

٥٧٤ ، ٥٧٠	الداغستانيون
٥٦٧ ، ٤٤٠	الدمشقيون

«ر»

٣٣٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٤	الراشدون
-----------------	----------

١٧٥ ، ١٦٣	ربيعة
، ٢٥٠ ، ٢٣٠ ، ٢٠٥ ، ١٨٥ ، ١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٢٨ ، ٢٥	الروم
، ٤٦٥ ، ٤٥٤ ، ٤٣٢ ، ٣٩٤ ، ٣٣٧ ، ٣١٣ ، ٢٨١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦	
٥٦٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٠ ، ٤٧٩	
٣١٣ ، ١٨٨	الروس
٢٦٨	الروس الصقالبة

«س»

٥٦١ ، ٣٠٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٩	السابانيون
٥٥٥ ، ٤٧٧	السريان
٥٦٩ ، ٥٦١ ، ٤٥٥ ، ٤٤٠ ، ٢٩٤	السلاجقة

«ش»

٤٤٣ ، ٢٥٢	الشافعية
، ١٠١ ، ٨٢ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٥٢ ، ٤٦ ، ٣٥	الشاميون
٥٣٥ ، ٤٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٣٧ ، ٣١٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ١٢٥	
٤٤٤ ، ٤٤٢ ، ٤٣٥	الشطار
٥٣٤ ، ٤٨٤	الشيعة

«ص»

٤٤٧	الصابئة
٢٩٤ ، ٢٧٨ ، ١٨٨	الصقالبة
٢٢٩ ، ٥٧٣	الصلبيون
٣٠٨	الصينيون

«ض»

٢٥

الضجاعة

«ط»

٤٠٨، ٣٣٥، ٣٣٤، ٢٧٩، ٢١١

٤٣٨، ٤٣٧، ٦٠، ٤٢، ٢٨

الطولونيون

طيء

«ع»

٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٢، ٤٨٨هـ، ٤٧، ٤٤٢هـ، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٢

١٥٣، ١٥٢، ١٠٣، ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٧، ٩٦، ٩٤، ٧٧

٣٤٤، ٣٤٣، ٣٣٤، ٣٠٥، ٣٠١، ٢٨٦، ٢٠٧، ١٩٠، ١٥٦

٤١١، ٤١٠، ٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٦، ٤٠٥، ٣٦٧، ٣٤٧، ٣٤٥

٤٧٧، ٤٧٦، ٤٧٤، ٤٧٣، ٤٦٦، ٤٦٥، ٤٦٣، ٤٤٩، ٤٤٨

٥٧٢، ٥٦٩، ٥٦٢، ٥٦٠، ٥٤٤، ٥٣٠، ٥٢٣، ٥٢٢، ٤٨٠

٥٧٣

٤٨٥

العشائية

٣٩٩

العجم

٣٠٩، ١١٠، ٩٣، ٧٩

العراقيون

١٦١، ١٥٩، ١٤٠، ١١٤، ١٠٨، ٨٢، ٣٠، ١٨، ١١، ٤

العرب

٢٩٤، ٢٩٣، ٢٩٢، ٢٨١، ٢٣٠، ٢٠٧، ١٩٠، ١٨٢، ١٨١

٤٣٦، ٤١٥، ٤١٣، ٣٩٩، ٣٤٥، ٣٠٨، ٢٠٧، ٢٩٧، ٢٩٦

٥٦٠، ٥٥٦، ٥٠١، ٤٩١، ٤٨٩، ٤٨٢، ٤٧٨، ٤٧٦، ٤٤٧

٥٧٨، ٥٧٧، ٥٧٣، ٥٧٢، ٥٧١، ٥٧٠، ٥٦٩، ٥٦٨، ٥٦١

العقيليون (بنو عقيل) ٤٣٧

(بنو عقيل)

٢٨٦

العلويون

«غ»

١٦٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨  
٥٦١، ١٤٠

الغساسنة  
غسان

«ف»

٣٣٦، ٣٠٨، ٢٩٤، ٢٨٥، ٢٧٧، ٢٧١، ١٨٩، ٢٠، ١٧  
٣٦٧، ٣٦٦، ٣٦٤، ٣٥٠، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٤، ٣٤٣  
٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٢، ٤١٥، ٤١٤، ٤١١، ٤١٠، ٣٩٢  
٤٥٨، ٤٥٧، ٤٥٥، ٤٥٤، ٤٥٣، ٤٥٢، ٤٥١، ٤٤١، ٤٤٠  
٥٦٩، ٥٦٨، ٥٦٧

الفاطميون

٣٠٣، ١١٥  
٥٦٣، ٥٦١، ٢٨٥، ١٣٨، ٣٢  
٥٦٢  
٢٧٦

الفراعنة  
الفرس  
الفرغانيون  
الفينيقيون

«ق»

٤٧٦  
٤٣٦، ٤١١، ٣٦٤، ٣٤٦، ٣٣٩، ٣٣٦، ٢٨٥، ٢٧٩، ١٠٩  
٥٦٧، ٥٦٥، ٤٥٧، ٤٥٣، ٤٥٢، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٩  
١٨٨، ١٤٠، ٣٨  
٢٨  
٣٩٦  
٤٣٨، ٧٢، ٤٨، ٤٦، ٤٥، ٢٣، ١٢، ٤، ٣  
٤٣٩، ٤٢٩، ٣٤

القيط  
القرامطة  
قريش  
قضاة  
القلانسيون  
القيسيون  
القيسية

«ك»

٤٣٧، ٦٠، ٤٧، ٣٥، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٦، ٢٥  
٤٣٩، ٤٦، ٣١  
٦٠، ٣٠

كلب  
الكلابيون  
كندة

«ن»

٤٧٨، ٤٧٧، ١٤٠، ١١٩، ٢٨، ٢٧، ٢٦

نجم

«م»

٥٤٥  
٤  
٤٠١  
٢٤٤، ٢٣٧، ٢٣٠، ٦٤، ٣٨، ٣٠، ٢٨، ١٢، ١٠، ٨، ٦، ٥  
٣٣٩، ٣٣٧، ٢٩٩، ٢٩٣، ٢٩٢، ٢٨٧، ٢٥٥، ٢٤٩، ٢٤٨  
٤٦٥، ٤٢٩، ٤١٤، ٣٩٨، ٣٩٥، ٣٩٤، ٣٩٠، ٣٤٨، ٣٤٠  
٥٧٢، ٥٤٧، ٥٤٥، ٥٠١، ٤٩٤، ٤٩٣، ٤٩١، ٤٨٩، ٤٨٥  
٤٩٤، ٤٨٩، ٤٨٢، ٤٣٠، ٣٤٠، ٢٥٥، ١٣، ١١، ١٠  
٥٦٥، ٤٥٧، ٤٥٤، ١٣٨  
٤٨٤  
٣٤٧، ٥٦٤، ٤٥١، ٤٣٥، ٤١٣، ٤١٢  
٤١١  
٣٥٤، ٤٤٠  
٣٦٦  
١٠

المجوس  
المردائيون  
المروانيون  
المسلمون  
المسيحيون  
المصريون  
المعتزلة  
المغاربة  
المغازية  
الماليك  
المهدية  
الموآبيون

«ن»

٤٥٨ ، ٤٤٦ ، ٤٠٦	النزارية
٤٩٤ ، ٥٤٥ ، ٤١٤ ، ٣٩٨ ، ٢٨١ ، ٢٥٥ ، ١٩٦	النصارى
٤٨٢	النصارى العرب
٣٠٧	النور

«هـ»

٤٦٦	الهاشميون
٦٠ ، ٢٨	همدان
٥٤٥	الهنود

«ي»

٤٧٧ ، ٤٣٨ ، ٤٠٦	اليمانية
٧٢	اليمنيون
٢٩٠ ، ٢٧١ ، ٢٦٨ ، ٢٥٥ ، ١٩٦ ، ١٨٨ ، ١٨٦ ، ٧٦ ، ١٠	اليهود
٤٨٩ ، ٤٧٢ ، ٤٤٧ ، ٤٣٥ ، ٤٣٠ ، ٤٠٣ ، ٣٩٨ ، ٣١٣ ، ٢٩١	
٤٩٤	



# الاماكن

«أ»

٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ،	الاحساء
٤٥٢ ، ٤٥١	
١٣	ابيضانية
٥٧٩	اختي
٢٣٧	ادلب
٥٦ ، ١٠٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣١١ ، ٥٢١	اذربيجان
٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١	اذرح
١٦٣ ، ١٨١ ، ٢٠٦	اذرعات
٧	اذرولية
١٦٤	أذنة
٢٩٧	آران
٤٦٤ ، ١	اربد
٣٠١	ارجانا
٢٩٠	ارتكساتا
٢٩٠	ارتشات
١٢ ، ٢٦ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ،	الاردن
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،	
١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،	
١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٧٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،	
٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٠٠ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ،	
٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ،	
٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٢٣	
٤٠٩	الارزة
٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ،	أرمينيا
٣١٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٤	

٣١٤ ، ٣٠٥ ، ٢٢٢ ، ٣٠٤ ، ٢٠٤ ، ١٤٠	أرجا
٢٠٦	الازرق
٢٨	الازر
٢٩٢	اسبانيا
٢٧٦ ، ١٨٦ ، ١٨١	اسكندرونه
٣٣٧ ، ٣٠٣ ، ٢٩٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ١٧٣ ، ١٧٠ ، ١٥٧ هـ ، ١٠٨	الاسكندرية
٤٧٣	
٣٤٢ ، ٢٨٥	الاسماعيلية
٣٠٧	اسوان
٢٩٤ ، ٢٨٩ ، ٢٣٣ ، ١٦٤ ، ٤	اسيا الصغرى
٥٧٠ ، ٥٣٠ ، ٤٨٣ ، ٤٧٤ ، ٤٤٢ ، ٤٤٠ ، ٣٠٦	أسية
٥٠٦	أشور
٥٣٦	أصفهان
٣١١ ، ٢٧٦	أصبهان
٤٦٦	افارا
٥٦٨ ، ١٦٤ ، ١٤	افاقية
٢٦٨ ، ٢٣٦ ، ٢٢٩ ، ١٧٨ ، ١١٠ ، ١٠٧ ، ١٠٤ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ١١	افريقيا
٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٤٧٤ ، ٣٢٧ ، ٣٠٢ ، ٢٨٥	
٥٠٥ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨	افغانستان
٢٧٨	اقور
٥٠٦	أكاد
٥٤٧	المانيا
٣٠٨	جبال اماتوس
٥٦٤ ، ٥٦٣	اماجور
٤٩٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٨٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨١	أم الرصاص
٢٩٦	آمد
٥٥٦ ، ٥٤٥	امغيث
٥٢٤	الابتار
٤٠٠	اندركيسان

٢٧١ ، ٢٦٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٢ ، ٢١٩ ، ١٨٨ ، ١٨٦ ، ٤٤ ، ٣١	الاندلس
٥٤٠ ، ٥٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٠٢ ، ٢٩٣ ، ٢٨٤ ، ٢٧٨	
٣٠٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٠	اندونيسيا
١٨٣ ، ١٦٤ ، ١٥٦ ، ١٤٢ ، ١٣٩ ، ١٣٦ ، ١٣٢ ، ٨٧ ، ٢١ ، ١٧	انطاكية
٢٩٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠ ، ٢٧١ ، ٢٦٨ ، ٢٤٠ ، ٢٣١ ، ٢٠٣ ، ١٩٤	
٥٦٤ ، ٤٥٣ ، ٤١٤ ، ٤٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣	
٥٦٩	انوشتكين
١٧٠ ، ١٥٠ ، ١٤٧	أنطرطوس
٥٤٦	انكلترا
٤٤٦ ، ٢٦٨ ، ١٧٨	الاهواز
١٧٧	اوال
٢٩٠	اوترب
٣٠٢ ، ٢٩٧	اورال
٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٢ ، ٢٠١	اوروبا
٥٧٠ ، ٥٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣١٢ ، ٣٠٨ ، ٣٠٢	
٤٠٩	الاوزاع
٥٣١ ، ٥٠٥ ، ٣٠٦ ، ٢٩٧ ، ٢٨٩ ، ٢٣٨ ، ٢٢٨	ايران
٣١٢ ، ٢٣٣	ايطاليا
٢٩٢	ايبيريا
٣٣٥ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣٠٩ ، ٢٩٦ ، ٢٧١ ، ٢٦٨ ، ٢٣٤ ، ٢٦	إيله
٤٧٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٤ ، ٣٣٩	
٤١٩	الايوان الاحمر
٣٣٥ ، ٣٢٥ ، ١٣١	ايليا
١٩٤	ايسلنده

(ب)

٥٧٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧١ ، ٥٧٠	باب الأبواب
٤٠٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٣٩٨	باب البريد
٤٣٤ ، ٤١٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٦	باب توما

٤١٧ ، ٤٠٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٢ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧	باب الجابية
٤٠٠	باب جيرون
٤١٢	باب الحديد
٤٠٠	باب الخواصين
٤١٩ ، ٤٠٤	باب السلامة
٥٣١	باب العامة
٤١٩ ، ٤١٦ ، ٤١٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٤ ، ٤٠٢ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧	باب الفراديس
٥٧٢	باب واق
١٦٥	بئر السبع
٥٦٤	بازمار
٥٤٧	باريس
٥٢٤	بازيدي
٥٢٤	باقردي
٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٢٩٦ ، ٢٧٠ ، ٢٣٦ ، ١٧٤ ، ١٥٦ ، ١٤٢ ، ١٣٦	بالس
٥٢١ ، ٥٠٠ ، ٤٩٩ ، ٣١١	
٥٠٦	بابل
١٥٦ ، ١٥٠ هـ ، ١٣٢	بانياس
٣٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠١ ، ١٩١	بترا
٤٧٢ ، ٤٧١ ، ٣٣٩ ، ٣١٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٠ ، ٢٨٨ ، ٢٠٢ ، ١٨٧	البحر الاحمر
٤٧٤ ، ٤٧٣	
٢٩٣ ، ٢٩٠	البحر الاسود
٤٧٢ ، ٢٩٧	بحر الصين
٢٩٣ ، ٢٩٠ ، ٢٨٥	بحر قزوين
٢٩٠ ، ٢٨٨ ، ٢٦٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٢ ، ٢٢٧ ، ٢١٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢	البحر الابيض المتوسط
٤٧٣ ، ٤٦٥ ، ٤٢٩ ، ٣١٣ ، ٣٠٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩١	
٢٤٢ ، ٢٠١	البحر الميت
٥٦٤ ، ١٥٧ هـ ، ١٠٨	برقة
٤٢٠ ، ٤٠٤	البروزية
٣٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠١ ، ١٣١ ، ٣٠	بصرى

٣٨هـ، ١٣٠هـ، ١٣١هـ، ١٤٣هـ، ١٥٠هـ، ١٦٩هـ، ١٩٠هـ، ١٩٢هـ،	البصرة
٢٦٨، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٩٠، ٤٥٥، ٤٧٣، ٤٧٤هـ،	
٥٦٢، ٤٨٣	
٣هـ، ٤هـ، ١٣٤هـ، ١٧٢هـ، ١٧٧هـ، ١٧٩هـ، ١٨٠هـ، ٢٢٣هـ، ٢٧٣هـ، ٢٥٤هـ،	بعلبك
٢٦٠، ٢٩٦	
٢هـ، ٣٧هـ، ٤٠هـ، ٥٣هـ، ٧٤هـ، ٧٦هـ، ٨٠هـ، ٨٤هـ، ٨٨هـ،	بغداد
٨٩هـ، ١٠٣هـ، ١٠٤هـ، ١٠٥هـ، ١٠٩هـ، ١٢١هـ، ١٢٣هـ، ١٢٦هـ،	
١٦٤هـ، ١٧٢هـ، ١٧٣هـ، ١٧٤هـ، ١٧٧هـ، ١٨٦هـ، ١٨٨هـ، ١٩٢هـ، ١٩٤هـ،	
٢١٣هـ، ٢١٧هـ، ٢٣٣هـ، ٢٣٩هـ، ٢٦٠هـ، ٢٦٣هـ، ٢٦٦هـ، ٢٦٨هـ، ٢٧١هـ،	
٢٧٥هـ، ٢٨٦هـ، ٢٨٧هـ، ٢٩٣هـ، ٢٩٤هـ، ٢٩٧هـ، ٢٩٩هـ، ٣٠٢هـ، ٣٠٤هـ،	
٣٠٧هـ، ٣٠٨هـ، ٣٠٩هـ، ٣١٣هـ، ٣٢٧هـ، ٣٢٨هـ، ٣٢٩هـ، ٣٣٦هـ، ٣٣٧هـ،	
٣٤٧هـ، ٣٩٠هـ، ٤٠٧هـ، ٤١٠هـ، ٤١١هـ، ٤٣٢هـ، ٤٤٠هـ، ٤٤٧هـ، ٤٤٨هـ،	
٤٤٩هـ، ٤٥١هـ، ٤٥٥هـ، ٤٦٣هـ، ٤٧٣هـ، ٤٧٩هـ، ٤٨٣هـ، ٤٨٥هـ، ٤٩٤هـ،	
٥٠٤هـ، ٥٠٥هـ، ٥٠٦هـ، ٥٢٢هـ، ٥٢٣هـ، ٥٢٤هـ، ٥٢٥هـ، ٥٢٦هـ،	
٥٣٠هـ، ٥٣٢هـ، ٥٤٢هـ، ٥٤٣هـ، ٥٤٤هـ، ٥٦٩هـ، ٥٧٣هـ،	
٣هـ، ١٣٢هـ، ٤٣٦هـ	البقاع
٥٠٠هـ، ٥٢٦هـ، ٥٢٨هـ، ٥٢٩هـ، ٥٣٠هـ	البليخ
٤٠٩	بلاس
٦٠هـ، ٤٧هـ، ١٣٤هـ، ١٥٥هـ، ١٦٠هـ، ٢٣٨هـ، ٤٦٩هـ، ٤٧١هـ، ٤٨١هـ،	البلقاء
٥٠٥	البلقان
٢٢	بسملوس
٢٦	بلي
٢٢٩هـ، ٢٣٥هـ، ٢٤٤هـ، ٣٠٥هـ	البندقية
٤٠٨هـ، ٤٠٩هـ	نهر ثورة
٥٢١	نهر البليخ
٣٩٥	نهر بردى
٢٤٣	بيت جبريل
٣٢٥هـ، ٣٣٥هـ	بيت جبرين
٣٢٦هـ، ٤٦٤هـ	بيت راس
١٤٢هـ، ٤٠٩هـ، ٤١٤هـ	بيت لها

٤٨٢	بيت لحم
٦٠ ، ٦٧ ، ١٠٢ ، ١٣٩ ، ١٥٨ هـ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ،	بيت المقدس
١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ،	
٢٧٤ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٤٤٣ ، ٥٢٢ ،	
٥٦٢	
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٩٠ ،	بيزنطة
٢٩٢ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٤ ، ٥٠٥	
١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٤ ، ٣٢٦	بيسان
٥٢١	بولس
٥٦٣	بيكيساك
٣ هـ ، ٦ هـ ، ٢٤ هـ ، ٢٥ هـ ، ٢٦ هـ ، ٢٨ هـ ، ٢٩ هـ ، ٣٠ هـ ،	بيروت
٣١ هـ ، ٣٢ هـ ، ٣٣ هـ ، ٣٤ هـ ، ٤٣ هـ ، ٥٣ هـ ، ٦٣ هـ ، ٦٤ هـ ،	
٦٦ هـ ، ٦٨ هـ ، ٧٣ هـ ، ٧٥ هـ ، ٧٨ هـ ، ٨٠ هـ ، ٨١ هـ ، ٨٤ هـ ،	
٨٦ هـ ، ٨٧ هـ ، ٨٧ هـ ، ٨٩ هـ ، ١٠١ هـ ، ١٠٣ هـ ، ١٢٤ هـ ، ١٦٠ هـ ،	
١٧٦ ، ١٩٣ هـ ، ١٩٥ هـ ، ١٩٦ هـ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،	
٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٤٥٣	

«ت»

٢٩٤	تاهرت
١٣٢ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، ٤٧٠	تبوك
١١ ، ٣١ ، ٤٧ ، ١٠٠ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ٤٣٧ ، ٤٤٧ ، ٥٧١	تدمر
٣٤٩ ، ٥٠٥	تركيا
٢٠٣	تل الاحمر
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٧٦	تنيس
٢٣٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٣ ، ٤٥٠ ، ٥٣٠ ،	تونس
٥٤٦	
١٣٢	تيزين
١٦٠ ، ١٦٢	تباء

«ج»

٢٦٨ ، ٢٧١	الجابية
-----------	---------

٤٠٢	الجامع الأموي
٣٩٢	جامع دمشق
١٣٧	جبرين
٢٢١	الجيل الاسود
٤	جبل لبنان
٣٠٧	جزيرة ابن عمر
٣٢٦ ، ٢٣٨ ، ٢٠١	جرش
٣٠٦ ، ٢٩٧ ، ٢٨٢ ، ٢٧٧ ، ٢٦٩ ، ٢٤٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣١	الجزيرة العربية
٤٨٣ ، ٣٠٧	
٤٧٦ ، ٣٩٣ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٣٠٩ ، ٣٠٦ ، ٢٩٦ ، ٢٧٨ ، ٢٤٦	الجزيرة الفراتية
٥٢١ ، ٥٢٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٨	
٣٠٥	الجليل
٣٩٧ ، ٢٥٢	جيرون
١٧٩	جوسيه

### ح

٤٠٠	حارة القباب
٣٠٧	الحيشه
١٦٦ ، ١٦٢ ، ١٦٠ ، ٩١ ، ٤٣ ، ٤٠ ، ٣٩ هـ ، ٢٨ هـ ، ٢٧ ، ٢٤	الحجاز
٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٣٢ ، ٢١٧ ، ١٩٦ ، ١٤٨ ، ١٣٨ ، ١٦٨ ، ١٦٧	
٥٣٢ ، ٤٦٨ ، ٤٥٥ ، ٣٩٨ ، ٣٤٢ ، ٣١١	
٢٩٦ ، ١٧٦	الحدث
٤٠٩	حريستا
٥٢١	حران
٤٩٠	حسيان
١٦١ ، ١٣٨ ، ١٠٨	حضر موت

٢٠٣ ، ١٨٥ ، ١٧٥ ، ١٥٥ ، ١٤٥ ، ١٤١ ، ١٣٤ ، ١١٢ ، ٥٦٩  
٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦  
٢٤٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٨  
٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٥  
٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٠ ، ٢٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣  
٥٣٤ ، ٥٠٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٣٩ ، ٤٣٦ ، ٤٠٠ ، ٣١٤  
٥٧١ ، ٥٦٩ ، ٥٦٨ ، ٥٦٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٤ ، ٥٣٦

حلب

٥٢٤

حلوان

٥٦٨ ، ٥٦٤ ، ٢٩٦ ، ٢٤٠ ، ٢٢٦ ، ١٨٣ ، ١٧٥ ، ١٣٤ ، ٦٣

حماة

٨٧ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٤٨ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣١ ، ٢٦ ، ١١ ، ٣  
١٢٩ ، ١٢٧ ، ١٢٤ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٢ ، ١٠٠ ، ٩٤ ، ٩٢  
١٥٥ ، ١٥١ ، ١٤٦ ، ١٣٩ ، ١٣٥ ، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١  
٢١٨ ، ٢٠٤ ، ١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٧٢ ، ١٦٨ ، ١٦٤ ، ١٦٣  
٤٠٠ ، ٢٩٦ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٥٦ ، ٢٤٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٣  
٥٦٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٠ ، ٤٦٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٣٨ ، ٤٣٧ ، ٤١٣  
٥٧١ ، ٥٦٧

حصص

٥٢٣ ، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٦ ، ٤٦١

الحميمة

٤٣٦ ، ٤١٤ ، ١٨١ ، ١٣٤ ، ٤٧ ، ٤٦

حوران

٥٢٥

حيدر اباد

١٦٠

الحيرة

٤٧٦ ، ٤٧٥

حيفا

«خ»

٥٣٠ ، ٥٢٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠١

الخابور

١٩٢ ، ١٧٤ ، ١١٥ ، ٧٨ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٣٧ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٣

خراسان

٥٦٦ ، ٥٦٥ ، ٥٢٦ ، ٤٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٣٥ ، ٢١٥

٤٧٥

خربة فارس

٤٩٢

خربة المفجر

٥٧٠ ، ١٧٣

الخزرج



٥٧٠	خرسانشاه
٤١٩ ، ٤١٧ ، ٤١٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٠	الخضراء
٤٧٣	خليج البصرة
٤٧٤ ، ٤٧٣ ، ٣١٢ ، ٣٠٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٠ ، ٢٩٣ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨	الخليج العربي
٤٧٣	خليج العقبة
٢٧٤ ، ٢٥٦ ، ٣٠٥	الخليل
٤١٩	الخواصين
٣٠٧ ، ٢٧٨	خوارزم

(د)

٤١٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠١	دار البطيخ
٣٩٩	دار الحجارة
٤٢٠ ، ٤٠٤	دار الخيل
٤٢٠ ، ٤٠٤	دار الذهب
٤٥٢ ، ٤٣٤ ، ٤٠٩	دار ريا
٤٠٣	دار ظاهر
٣٩٥	دار العربي
٤٨٠	دار الصباغين
٤٠١	دار القبائين
٤٠٣	دار الكاس
٤٠١	دار نعيم
٣٩٦	دار الخالدين
٤٨١	دائرة الاثار العامة
١٥٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٤١١ ، ٥٠٦	دجلة
٥٣٠	
٥٧٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٣ ، ٥٧٢ ، ٥٧٠	داغستان
١٧٦	داقين
٤٨١	دبليتن

٣٩١	درب ابن البقال
٤١٧ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩	درب ابن محرز
٣٩٦	درب الانصار
٣٩٠	درب البحادلة
٣٩٦	درب بني طلحة
٤١٨	درب الحجارة
٤٠٣	درب حميد بن درة
٤١٨	درب حميد
٤١٧ ، ٣٩٠	درب الاسديين
٤١٧ ، ٣٩٩ ، ٣٩٧ ، ٣٩٥ ، ٣٩٠	درب الزلاقة
٤١٩ ، ٤٠١	درب السلم
٤٠٣	درب السقيل
٤١٢	درب السماقي
٤١٨	درب طلحة بن عمرو الجهني
٤٠٣	درب طلحة بن عمرو بن مرة
٤١٧ ، ٣٩٥	درب الریحان
٤١٢	درب الفحامين
٤١٢	درب القصارين
٣٩٠	درب القرشيين
٤١٧ ، ٣٩٦	درب القلي
٢٠٥ ، ٢٠١	درعا
٥٧٠	در بند
٤١٧ ، ٣٩٧	درب الهاشميين
٢٩٧	الدكن
٤٩٠	دلتا النيل
١٧٦ ، ١٣٦ ، ١٣٤ ، ١٣٢	دلوک

٢ ، ٣ ، ٥ ، ١١ ، ٢٩ هـ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ هـ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ هـ ،  
 ٥٤ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧١ هـ ، ٧٥ ، ٨١ هـ ،  
 ٨٣ هـ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ هـ ، ٩٣ هـ ، ٩٤ هـ ، ٩٥ هـ ، ٩٦ ،  
 ٩٩ ، ١٠٣ هـ ، ١٠٩ هـ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،  
 ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،  
 ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ،  
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ،  
 ٢٠٤ ، ٢٠٥ هـ ، ٢١١ هـ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،  
 ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ،  
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ،  
 ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ،  
 ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ هـ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ،  
 ٣١٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،  
 ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠ ،  
 ٤٠٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ،  
 ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ،  
 ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،  
 ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،  
 ٤٥٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ،  
 ٤٩٤ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،  
 ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨

٣٠

دمية

١٧٦ ، ١٧٤

دوسر

٢٩ ، ١٦٦

دومة الجندل

١٨٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٦ ، ٤٣٧

ديار بكر

٤٣٧

ديار ربيعة

٤٨٢

الديار الشامية

٣٢٥

ديار قوم لوط

٥٦ ، ٤٣٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٥٦٤

ديار مضر

٤٠٠ ، ٥٠٠ ، ٥٢٨

دير زكي

	٤٠٠	دير سمعان
	٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٦	دير مران
	٢٩٧	الديلم
	٤٠١	الديباس
	٤٠١	الديوان الاحمر
(ذ)		
	٤٠٨	ذبح صوران
	٤٨١	ذبيان
(ر)		
	٥٢٩	راس الجود
	٥٣٠ ، ٢٩٦	راس العين
	٢٨٨	راس غودفروا
	٢٨٨	راس فاتك
	٤٧٠	راس النقب
٥٣٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٦ ، ٥٢٥ ، ٥٢٣ ، ٥٢٢ ، ٥٠٠ ، ٤٩٩ ، ٤٧٩		الرافقة
	٥٣١	
	٥٤٦	الرباط
	٤٨١	ريوبولس (الرية)
	٤١٨ ، ٤٠١ ، ٣٩٦	رمبة خالد
	٤١٩	رمية البصل
	٥٦٨ ، ٥٢١ ، ٤٣٧ ، ٤٠١	الرمية
	١٦٣	رسائيق
	٥٢٢ ، ٢٨١ ، ٢٥٨ ، ٢٢٦ ، ٢٠٤ ، ١٧٩ ، ٣٥	الرصافة
	٥٢٨	رصافة بغداد
	١٧٦ ، ١٥٥	رعبان
	١٨٠ ، ١٧٥ ، ١٧٣ ، ١٥٩ ، ١٥٧	رفح
	٤٤٩	رقادة
	٨٣ ، ٨٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦	الرقة
	٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٢٠	
	٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩	
	٥٦٨ ، ٥٣٢ ، ٥٣١ ، ٥٣٠	

رمثة  
الرملة  
٥٦٠  
٦٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ،  
١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ،  
٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ،  
٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٦٤ ، ٤٠٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ،  
٥٦٣ ، ٤٨٠ ، ٤٥٢

الرهوة  
روما  
الري  
الرياض  
رجميا  
١٧٧  
٢٨٩  
٥٢٩ ، ١٠٦  
٣٥٠ ، ٣٤١  
٥٧٥

(ز)

الزباب  
زغر  
زاغروس  
زبطرة  
زبيد  
الزرقاء  
زقاق السودان  
زقاق صفوان  
زقاق الرمان  
زقاق العبيد  
زقاق عطاف  
زقاق العيارة  
زقاق المشاطين  
الزقلان  
الزوراء  
زيزياء  
زيوقما  
٤٥ ، ٤٣  
٣١٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٨  
٢٩٤ ، ٢٨٥  
١٧٦  
٣٠٧  
٢٠٥ ، ١٨١  
٤١٦  
٤١٩  
٤١٨ ، ٣٩٩  
٤١٦  
٣٩٥  
٤١٦  
٤١٢  
٥٧١  
٥٧٧  
٢٥٦  
٢٠٣

«س»

٢٩٣	سالونيك
٩٦ ، ١٠٤ ، ٢٩٤ ، ٣٠٧ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ،	سامراء
٥٦٣ ، ٥٦٩	
٣٢٦	السامرة
١٧٣	سبأ
١٣٦ ، ٣٢٥ ، ٤٨١	سبسطية
٣١٣	سيراف
١٧٤	سرخ
٢٣٧ ، ٣٣٦	سرمين
٤٦٣	السعودية
٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٥٥٨	سلجامة
١٧٦	سلعوس
٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩	سلمية
٢٣٠ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨ ، ٥٢٩	سمرقند
٤١٠	السهامية
٢٩٦	سنجار
١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣	السند
٢٩٠	سيلان
١٥٨ هـ	سيناء
٣٣٦	السويد
٤٥١	السويس
٢٩٠	سيريلانكا
٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٤٨٣	السودان
٣٢٦	سوسية
١٣ ، ١٦٤ ، ١٩١ ، ٢٠١ ، ٢١٢ هـ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ،	سورية
٢٤٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ،	
٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٩٤ ، ٥٠٠ ، ٥٧٣	
٢٨٨	سيلان

«ش»

الشام

٢٩ ، ٢٧ ، ٢٣ ، ٢٠ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٤ ، ١٢ ، ١١ ، ٨ ، ٧ ، ٣ ، ٢ ،  
٥٤ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٣ ، ٣١ ،  
٧٦ ، ٧٣ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٥٦ ،  
١٠٣ ، ٩٩ ، ٩٧ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٤ ، ٨٢ ، ٧٩ ،  
١١٧ ، ١١٦ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٤ ،  
١٣٥ ، ١٣٣ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٦ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ١١٩ ،  
١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٦ ، ١٤٥ ، ١٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٦ ،  
١٧١ ، ١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦٠ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ،  
١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٨٢ ، ١٧٧ ، ١٧٦ ، ١٧٣ ،  
٢١١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ١٩٨ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩١ ،  
٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٤ ،  
٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ،  
٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ،  
٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢ ،  
٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ ،  
٢٩٠ ، ٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ،  
٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ،  
٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ،  
٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣١١ ،  
٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣١ ،  
٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢ ،  
٤٤٣ ، ٤٤٢ ، ٤٤٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٠ ، ٣٦٧ ، ٣٦٤ ،  
٤٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٤ ،  
٤٧٧ ، ٤٧٦ ، ٤٧٤ ، ٤٧٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٠ ،  
٥٢١ ، ٥٢٠ ، ٤٩٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨١ ، ٤٧٨ ،  
٥٦٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦١ ، ٥٥٩ ، ٥٣٤ ، ٥٣٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٤ ، ٥٢٢ ،  
٥٧٢ ، ٥٧١ ، ٥٧٠ ، ٥٦٩ ، ٥٦٨ ، ٥٦٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٥ ، ٥٦٤ ،  
٥٧٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦ ، ٥٧٤ ، ٥٧٣ ،  
٤٧١ ، ٤٧٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٧ ، ٤٦٦ ، ٣٢٥ ، ١٣٥ ، ١٣١ ، ٦٠

الشراة

١٧٥ ، ٦٣	شيزر
٤٥٥ ، ١٩٢ ، ١٤١	شيزار
٥٧٧	شيروان
٥٧٠	شروا نشاة
٤٠٨	الشهاسة
٤٧٤	شيكاغو

«ص»

٢٧٣	صفاقس
٥٢٤	صفا
٣٣٥ ، ٣٢٦	صفورية
٥٢١ ، ٤٩٩ ، ٢٨	صفين
٤٥٠ ، ٣٠٢ ، ٢٩٣ ، ٢٧٨ ، ٢٣٣	صقلية
٤٠٨ ، ١٧٣	صنعاء
٤٧٩ ، ٣٥٤ ، ٣٠٥ ، ١٧٦ ، ١٧٠	صيدا
٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨	صور
٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٧٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٤	
٤٧٩ ، ٤٧٦ ، ٣٢٦	
١٤٨ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨	الصين
٥٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٠٩	

«ط»

٤٦٧	الطائف
٣١١ ، ٢٩٧	طبرستان
٤٧٥	طبقة فحل
٣١٣ ، ٢٦٨	طنجة
٨٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٧٩ ، ٢٠٣ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٤٣	طبرية
٢٥٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦	
٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥١	
٤٧٥ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩	



١٤٦ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢١٦ ،	طرابلس
٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ،	
٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ،	
٣٣١ ، ٤١٢ ، ٤٥٣ ، ٥٣٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨	
٥٣٠	طرابلس الغرب
٥٧٢	طرخان
١٣٠ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٥ ،	طرسوس
٣١١ ، ٤٥٢ ، ٤٧٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤	
٣٠٨	طشقند
٢٢٢ ، ٢٤٧	طليطلة
٧٩هـ	طهران
٥٢٦	طوس
٢٩٦ ، ٢٠٤	طوروس

«ع»

٥٢١	عابدين
٤٠٨	عالية
٢٩٦	عبادان
٥٠٤	عربستان
٢٥٦	عجلون
٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٣٠٧	عدن
٢هـ ، ٧هـ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٨٢ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١٥٠ ،	العراق
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،	
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،	
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،	
٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦هـ ،	
٢٧٧هـ ، ٢٨٢هـ ، ٢٨٥هـ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،	
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،	
٣١١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ،	
٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٦١ ، ٥٧٥	

١٨٠ ، ١٧٥ ، ١٥٩ ، ١٥٧	العريش
٢٤٤ ، ٢٢٣ ، ١٧٦ ، ١٧١ ، ١٦٠ ، ١٤٨ ، ١٤٦ ، ١٣٧ ، ٨٧	عسقلان
٤٨١ ، ٣٤٧ ، ٣٣٥ ، ٣٢٥ ، ٣٠٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٤٦	
٤٠٩	عقربا
٤٨٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٤ ، ٣٠٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠١ ، ١٦٥	العقبة
٤١٩	العقيبة
٤١٨	عقبة السالك
٤١٩	عقبة الصوف
٤٧٦ ، ٤٧٢ ، ٤٥١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٢٦ ، ٣٠٥ ، ٢٢٨	عكا
٤٧٩	
١٧٣ هـ ، ١٧٠ هـ ، ١٦٢ هـ ، ١٥١ هـ ، ١٣١ هـ ، ١٢٧ هـ ، ١٢٦ هـ ، ١٢٥ هـ ، ١٤٠ هـ ، ١٣٢ هـ ، ١٣١ هـ ، ١٢٤ هـ ، ١١٨ هـ ، ١١٦ هـ ، ١١٥ هـ ، ١١٤ هـ ، ١١٣ هـ ، ١١٢ هـ ، ١١١ هـ ، ١١٠ هـ ، ١٠٩ هـ ، ١٠٨ هـ ، ١٠٧ هـ ، ١٠٦ هـ ، ١٠٥ هـ ، ١٠٤ هـ ، ١٠٣ هـ ، ١٠٢ هـ ، ١٠١ هـ ، ١٠٠ هـ ، ٩٩ هـ ، ٩٨ هـ ، ٩٧ هـ ، ٩٦ هـ ، ٩٥ هـ ، ٩٤ هـ ، ٩٣ هـ ، ٩٢ هـ ، ٩١ هـ ، ٩٠ هـ ، ٨٩ هـ ، ٨٨ هـ ، ٨٧ هـ ، ٨٦ هـ ، ٨٥ هـ ، ٨٤ هـ ، ٨٣ هـ ، ٨٢ هـ ، ٨١ هـ ، ٨٠ هـ ، ٧٩ هـ ، ٧٨ هـ ، ٧٧ هـ ، ٧٦ هـ ، ٧٥ هـ ، ٧٤ هـ ، ٧٣ هـ ، ٧٢ هـ ، ٧١ هـ ، ٧٠ هـ ، ٦٩ هـ ، ٦٨ هـ ، ٦٧ هـ ، ٦٦ هـ ، ٦٥ هـ ، ٦٤ هـ ، ٦٣ هـ ، ٦٢ هـ ، ٦١ هـ ، ٦٠ هـ ، ٥٩ هـ ، ٥٨ هـ ، ٥٧ هـ ، ٥٦ هـ ، ٥٥ هـ ، ٥٤ هـ ، ٥٣ هـ ، ٥٢ هـ ، ٥١ هـ ، ٥٠ هـ ، ٤٩ هـ ، ٤٨ هـ ، ٤٧ هـ ، ٤٦ هـ ، ٤٥ هـ ، ٤٤ هـ ، ٤٣ هـ ، ٤٢ هـ ، ٤١ هـ ، ٤٠ هـ ، ٣٩ هـ ، ٣٨ هـ ، ٣٧ هـ ، ٣٦ هـ ، ٣٥ هـ ، ٣٤ هـ ، ٣٣ هـ ، ٣٢ هـ ، ٣١ هـ ، ٣٠ هـ ، ٢٩ هـ ، ٢٨ هـ ، ٢٧ هـ ، ٢٦ هـ ، ٢٥ هـ ، ٢٤ هـ ، ٢٣ هـ ، ٢٢ هـ ، ٢١ هـ ، ٢٠ هـ ، ١٩ هـ ، ١٨ هـ ، ١٧ هـ ، ١٦ هـ ، ١٥ هـ ، ١٤ هـ ، ١٣ هـ ، ١٢ هـ ، ١١ هـ ، ١٠ هـ ، ٩ هـ ، ٨ هـ ، ٧ هـ ، ٦ هـ ، ٥ هـ ، ٤ هـ ، ٣ هـ ، ٢ هـ ، ١ هـ ، ٠ هـ	عمّان
٤٧١ ، ٤٦٥ ، ٣١٤ ، ٢٧٣ ، ٢٦٠	
٣١٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥ ، ٢٧٧ ، ٢٦٨	عمّان
٤٠٠ ، ٣٢٥ ، ١٣٧ ، ١٣٦	عمواس
٧	عمورية
٣	عنجر
٢٠٦	عين التمر
٥٠٠	عين دارة
١٦٤ ، ١٥٤	عين زربة
٤١٨ ، ٣٩٧	عين الحمى
٤٥١	عين شمس

(ف)

٣٠٢ ، ٢٩٢ ، ٢٨٩ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ١٩٢ ، ١٥٩ ، ١٤١ ، ٧	فارس
٥٣٢ ، ٥٢٦ ، ٥٠٢ ، ٤٤٧ ، ٣١١ ، ٣٠٥	
٤١٢	الفاخورة
٥٣٠	فاس
٣٤٨	الفتكين
٤٦٤ ، ٣٢٦	فحل

١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،  
٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،  
٣١٣ ، ٤٣٧ ، ٤٧٩ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ،  
٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠

الفرات

٣٠٧

فردان

٤٠٩

الفرديس

٢٨٧

فرغانه

٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٣

فرنسا

٢٦٨ ، ٢٧٨

القرما

١٧٦

فرقيسيا

١٠٨ ، ١٨٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٤٧٢ ، ٤٨٣ ، ٥٣١ ،  
٣هـ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٩٤ ،  
١٠١ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ،  
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ،  
١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٥هـ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ،  
٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٢هـ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ،  
٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦هـ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،  
٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،  
٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،  
٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤٠ ، ٤٥٠ ،  
٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٠هـ ، ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠هـ ، ٤٩٤ ،  
٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٢

القسطاط

فلسطين

٥٧١

الفيلان

٥٧٠

فيلانشارة

(ق)

١٩٤

قازان

٥٢١

قاصرين

٥٥ هـ، ٩ هـ، ١٦ هـ، ٣٣ هـ، ٤٣ هـ، ٤٧ هـ، ٦١ هـ، ٦٣ هـ،	القاهرة
٦٦ هـ، ٧٣ هـ، ٧٤ هـ، ٧٧ هـ، ١٠٠ هـ، ١٠٤ هـ، ١٦٠ هـ،	
٢٢٧ هـ، ٢٣٠ هـ، ٢٤٠ هـ، ٢٨٦ هـ، ٢٩٤ هـ، ٢٩٦ هـ، ٣٤٥ هـ،	
٣٤٦ هـ، ٣٤٨ هـ، ٣٤٩ هـ، ٤٣٠ هـ، ٤٣٢ هـ، ٤٣٩ هـ، ٤٤١ هـ،	
٤٤٥ هـ، ٤٥٥ هـ، ٥٤٧ هـ، ٥٦٧ هـ	
١٦٥ هـ، ١٦٩ هـ، ١٩٧ هـ، ٢٢٩ هـ، ٢٤٢ هـ، ٢٤٣ هـ، ٢٧٣ هـ، ٢٩٥ هـ، ٣٠٩ هـ،	القدس
٣١٤ هـ، ٣٢٦ هـ، ٣٢٨ هـ، ٣٣٤ هـ، ٣٣٦ هـ، ٤٨١ هـ، ٤٨٢ هـ،	
١١ هـ، ١٨٧ هـ، ٢٤٣ هـ، ٢٤٨ هـ، ٣٠١ هـ	قبرص
٣٠٧ هـ	قرطبة
٨ هـ، ١٠ هـ، ١٦ هـ، ٧٢ هـ، ١١٠ هـ، ١٧٧ هـ، ١٧٨ هـ، ١٧٩ هـ، ٢٩١ هـ، ٢٩٦ هـ،	القسطنطينية
٣١٢ هـ، ٣١٣ هـ، ٣٣٣ هـ، ٤٣٢ هـ، ٤٥٤ هـ، ٤٨٦ هـ،	
٥٢٧ هـ	القصر الابيض
٤٠٣ هـ، ٤١٩ هـ	قصر البحادلة
٤٠٤ هـ، ٤٠٨ هـ، ٤١١ هـ، ٤١٢ هـ، ٤١٦ هـ،	قصر حجاج
٤٠٠ هـ	قصر خالد
٥٠٥ هـ	قصر الذهب
٥٢٧ هـ	قصر السلام
٤٨٠ هـ	قصر سليمان
٤٠٤ هـ، ٤٠٨ هـ، ٤١٢ هـ، ٤١٩ هـ،	قصر عاتكة
٤٨٩ هـ	قصر عمرة
٥٢٧ هـ	قصر هرقله
٥٨٧ هـ	قطر
٥٧٠ هـ	القفقاس
١٧٣ هـ	قالس
٤٦٤ هـ	قلعة عمان
١٨٠ هـ	قلنسوة
٥٣٦ هـ	قم
٣١ هـ، ٤٥ هـ، ٥٠ هـ، ٥٤ هـ، ٥٧ هـ، ٦٠ هـ، ١٠٨ هـ، ١١٥ هـ، ١٦ هـ، ١١٧ هـ، ١٣٣ هـ،	قنسرين
١٣٤ هـ، ١٤١ هـ، ١٤٢ هـ، ١٥٥ هـ، ١٧٥ هـ، ١٨١ هـ، ٢٨١ هـ، ٤٦٦ هـ،	
٤٧٠ هـ، ٥٦٤ هـ	

القيروان  
قيسارية  
١٤١، ٢٣٣، ٣٠٢، ٣٦٦، ٣٩٠، ٥٣٠  
١٥٠، ١٦٥، ٢٥١، ٢٧٠، ٣٢٥، ٤٠٤، ٤١٩

«ك»

كابل ٥٦١، ٣٠٥  
كران ٢٤٧  
كرامان شاة ٥٠٥  
الكرك ٤٨١  
كرمان ٣١١، ٢٦٨، ١٠٦  
كريت ٤٢٩، ٢٤٨  
كسملين ٤١٩  
كفر سابا ١٤٩، ١٤٢  
كفر سلام ١٥٠، ١٤٩، ١٤٢  
الكوفة ٤٠، ١٦٠، ١٧٧، ١٩٢، ٢٦٨، ٢٨٣، ٣١٣، ٣٩٠، ٤٤٦، ٥٣١، ٥٢٣، ٤٥٥  
كوهستان ٥٧٤  
كله كور ٥٧٥  
كليشيا ٣٠٣  
كمخ ٥٧٢  
كنيسة الرسل ٤٩٢  
كنيسة الاسقف سرجيوس ٤٩٠  
كنيسة الشونة الجنوبية ٤٨٢  
كنيسة العذراء ٤٨٦  
كنيسة العذراء مريم ٤٨٢  
كنيسة القويسمة ٤٨٢  
كنيسة الاكروبول ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٣  
كنيسة القديس اسطفان ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٤  
كنيسة القيامة ٤٨٢، ٤٥٤

٤٨٨ كنيسة ماعين  
٤٨٢ كنيسة المهدي

«ل»

٢٢٢، ٢١٢هـ، ١٩١هـ، ١٩٥هـ، ١٠٣هـ لبنان  
٥٤٧، ٢٤٩ لندن  
٥٦٤ لؤلؤ  
٢٩٢ ليبيا  
٢٧هـ، ٥٤هـ، ٥٩هـ، ١٥٩هـ ليدن  
٥٧٠ ليرانشاه

«م»

٤٧٠، ٢٤٢، ١٦٣، ١٣٢ مآب  
٥٧٤ مافان  
٤٩٢، ٤٩٠، ٤٨٦، ٤٨٢، ٤٨١ مادبا  
٤٩٣، ٤٩٠، ٤٨٠ ماعين  
٥٧٢ المحمدية  
٤٤٨، ٤٤٦ محمود آباد  
٥٠٥ المحيط الاطلسي  
٢٨٨ المحيط الهادي  
٤٨٣، ٤٧٤، ٤٧٢، ٢٩٧، ٢٩٣، ٢٩٠ المحيط الهندي  
٢٠٥ المدورة  
٤٧٠، ١٦٠ مدين  
٤٤٦، ٢٩٥، ٢٨٣، ١٧٤، ١٥٩، ٨٤، ٥٦ المدينة المنورة  
٤٧٨، ٣٠٠، ٢٩٦، ١٧٨، ١٧٦، ١٧١، ١٦٤، ٦ مرعش  
٤١٩، ٤١٤، ٤٠٩، ٤٠٢، ٣٩٥، ٢٤٤ المزة  
٢٠٥ المزيريب

١١١هـ، ١١٢هـ، ١١٦هـ، ١٥٤هـ، ١٥٦هـ، ١٥٧هـ، ١٥٩هـ، ١٠٦هـ، ١٠٧هـ،  
١٠٨هـ، ١٠٩هـ، ١١٠هـ، ١١١هـ، ١١٣هـ، ١١٨هـ، ١٢١هـ، ١٢٤هـ، ١٢٦هـ،  
١٣٩هـ، ١٥٠هـ، ١٥٥هـ، ١٥٧هـ، ١٥٨هـ، ١٦٤هـ، ١٦٥هـ، ١٦٧هـ، ١٦٨هـ،  
١٧٣هـ، ١٧٤هـ، ١٧٥هـ، ١٧٧هـ، ١٨٧هـ، ١٩٥هـ، ٢٠١هـ، ٢٠٣هـ، ٢١٤هـ،  
٢١٦هـ، ٢١٧هـ، ٢١٨هـ، ٢٢٠هـ، ٢٢١هـ، ٢٢٢هـ، ٢٢٣هـ، ٢٢٥هـ، ٢٢٦هـ،  
٢٢٧هـ، ٢٣٥هـ، ٢٣٧هـ، ٢٣٨هـ، ٢٣٩هـ، ٢٤١هـ، ٢٤٢هـ، ٢٤٣هـ، ٢٤٥هـ،  
٢٤٦هـ، ٢٤٧هـ، ٢٤٨هـ، ٢٥٠هـ، ٢٥٤هـ، ٢٦٨هـ، ٢٦٩هـ، ٢٧٣هـ، ٢٧٤هـ،  
٢٧٥هـ، ٢٧٦هـ، ٢٧٧هـ، ٢٧٨هـ، ٢٨٠هـ، ٢٨٢هـ، ٢٩٠هـ، ٢٩٩هـ، ٣١٢هـ،  
٣١٣هـ، ٣٣٤هـ، ٣٣٩هـ، ٣٤١هـ، ٣٤٢هـ، ٣٤٤هـ، ٣٤٥هـ، ٣٤٦هـ، ٣٤٧هـ،  
٣٤٨هـ، ٣٥٩هـ، ٤١٤هـ، ٤٣٠هـ، ٤٥٠هـ، ٤٥٢هـ، ٤٥٤هـ، ٤٧٤هـ، ٤٧٥هـ،  
٤٧٦هـ، ٤٧٨هـ، ٤٨٣هـ، ٤٩٠هـ، ٥٣٠هـ، ٥٣١هـ، ٥٦٣هـ، ٥٦٤هـ، ٥٦٥هـ،  
٥٦٧هـ، ٥٦٩هـ

مصر

١٨١، ٢٢١، ٢٢٦، ٤٥٢

المصيصة

١٩١، ٢٠٦، ٤٧٠

معان

٦٣

المعرة

١٠٦هـ، ١٠٧هـ، ١٥٠هـ، ١٨٦هـ، ١٨٨هـ، ٢١٩هـ، ٢٧١هـ، ٢٧٤هـ، ٢٧٨هـ،  
٣١١هـ، ٣١٣هـ، ٣٣١هـ، ٣٦٦هـ، ٤٤٦هـ، ٤٤٧هـ، ٤٤٨هـ، ٤٤٩هـ، ٤٥٠هـ،  
٤٥٥هـ، ٤٧٤هـ، ٤٨٣هـ، ٥٣١هـ، ٥٤٠هـ، ٥٤٦هـ، ٥٤٩هـ، ٥٥٨هـ

المغرب

٢٠٥

المفرق

٢٦هـ، ٣٨هـ، ٥٦هـ، ١١٤هـ، ١٥٩هـ، ١٦٦هـ، ١٧٢هـ، ١٨٧هـ، ١٨٢هـ، ١٩٧هـ،  
٢٧٧هـ، ٢٩٦هـ، ٣٤٣هـ، ٥٤١هـ، ٥٧٦هـ

مكة

٢٩٧

ملقا

١٧٦هـ، ١٧٨هـ، ٢٩٦هـ، ٤٧٨هـ، ٤٧٩هـ

ملطية

١٣٢هـ، ١٥٤هـ، ٢٠٣هـ، ٢٤٠هـ، ٢٥٤هـ، ٢٧٤هـ، ٢٩٦هـ

منبج

١٨١

مؤاب

٢٧هـ، ٢٨هـ، ٣٠هـ، ١٥٧هـ، ٤٧١هـ

مؤتة

٥٦هـ، ٧٣هـ، ٨٥هـ، ١١٥هـ، ١٢٦هـ، ١٧٦هـ، ١٧٧هـ، ٢٠٠هـ، ٢٤٧هـ،  
٢٧٧هـ، ٢٩٥هـ، ٣٠٩هـ، ٣١٢هـ، ٤٠٧هـ، ٤٣٧هـ، ٤٥٥هـ، ٤٦٦هـ، ٥٧١هـ

الموصل

٥٧٢

٤٧١هـ، ٤٨٩هـ

الموقر

«ن»

١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٦٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ ،	نابلس
٤٨١	
١٧٥	الناعورة
١٦٠	النجف
٥٦٢	النصرية
١٧٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١١	نصيبين
٤٤٦	نهاوند
٢٢٢	نهر الاردن
٥٧٥	نهر سامور
٢٣١	نهر عيسى
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٦٠	نهر الفرات
١٦١ ، ٣٠٢ ، ٥٠٠	نهر النيل
٢٩٧	النوبة
٢٧٦ ، ٢٨٧ ، ٤٤٦	نيسابور
٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠	نيل الفرات
٤٨٦	نيقية

«هـ»

١٥٤ ، ١٦٤	الهارونية
٢٨٧	هراة
٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٣٠	هراكليس (هرقله) ٨
٤٣٧ ، ٤٢٩	هرقلة
١٠٦ ، ٥٠٥ ، ٥٢٤	هضبة شرقي الاردن
١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٨ ،	همذان
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٥٤٥ ،	الهند
٩٦	الاهواز



«و»

٥٣٠	الوادي الاخضر
٤٦٤ ، ٢٣٨	وادي الاردن
٤٠٩	وادي البنفسج
٤٧٥	وادي الحسا
٢٠٦	وادي السرحان
٤٧٥	وادي كنعان
٣٦٦	وادي النيل
١٣٨	الولايات المتحدة الأمريكية
٢٩٦	ويله

«ي»

٤٧٢ ، ٤٥١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥ ، ٣٢٥ ، ١٤٦ ، ١٣٦	يافا
٤٣٤	يبرود
٢٩١ ، ٢٠٦ ، ٣٠	اليرموك
٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ١٥٩ ، ١٤٠ ، ١٣٨ ، ٨٢ ، ٥٦ ، ٣٠ هـ ، ٢٩ هـ ،	اليمن
٥٦١ ، ٤٥٥ ، ٥٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٢٩ ، ٣١١ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧	
٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٠	اليونان

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية  
(١٩٩١/١٢/٦٧٧)

History of Bilād al-Shām Committee  
University of Jordan  
Damascus University  
Yarmouk University



# Bilād al-Shām During the Abbasid Period

(132 A.H./750 A.D. – 451 A.H./1059 A.D)

Proceedings of the Fifth International Conference  
on the  
History of Bilād al-Shām  
7–11 Sha'ban 1410 A.H./ 4–8 March, 1990  
Arabic Section



Edited by

A Scene from Raqqa

Muhammad Adnan al-Bakhit

Muhammad Yunis Abbadi

Amman  
1412 A. H/1992 A. D.